العلامة يوسف الدبس

تاريخ سورية الدنيوي والديني

تاريخ شعوب سورية القدماء

يحوي مقالة في الميرانين

راجعه وحققه
الدكتور مارون رعد

إشراف
نظير عبود

دار نظير عبود

تاريخ سورية

المطران يوسف الدبس

تاريخ سورية

الجزء الثاني

تاريخ شعوب سورية القدماء

يحوي مقالة في العبرانيين

راجعه ودققه

الدكتور مارون رعد

إشراف

نظير عبود

دار نظير عبود

فهرس

عد | **صفحة**

الفصل الثاني

اسحق وابناه يعقوب وعيسو

الفصل الثالث

يوسف

الفصل الرابع

اخبار بني اسرائيل في مصر

الفصل الخامس

أخبار خروج بني إسرائيل من مصر إلى البرية

الفصل السادس

أخبار بني إسرائيل في برية سيناء

الفصل السابع

ما بقي من مراحل بني إسرائيل إلى صحراء موآب

الفصل الثامن

تملك بني اسرائيل البلاد التي في شرقي الأردن

الفصل التاسع

يشوع بن نون وأخبار بني إسرائيل في أيامه

الفصل العاشر

قضاة بني إسرائيل بعد يشوع

الفصل الحادي عشر

راعوت وعالي الحبر وصموئيل النبي

الفصل الثاني عشر

شاول وتتمة اخبار صموئيل

الفصل الثالث عشر

اخبار داود في مدة ملكه

الفصل الرابع عشر

سليمان

الفصل الخامس عشر

انشقاق مملكة بني اسرائيل وملوك يهوذا واسرائيل إلى آحاب

الفصل السادس عشر

اخبار احاب ملك اسرائيل وخلفاؤه حتى ياهو واحزيا ملكي يهوذا

الفصل السابع عشر

باقي ملوك يهوذا واسرائيل إلى خراب السامرة

الفصل الثامن عشر

سائر ملوك يهوذا إلى الجلاء البابلي

الفصل التاسع عشر

أخبار بني إسرائيل في بلاد الكلدان

الفصل العشرون

أخبار بني إسرائيل عند عودهم من الجلاء وبعده إلى ملك اسكندر الكبير

الفصل الواحد والعشرون

النبوة والانبياء الكبار

الفصل الثاني والعشرون

الأنبياء الصغار

مقالة

في العبرانيين

قد تكلمنا في مقالتنا الافتتاحية على خلق العالم والإنسان الأول وعلى الآباء الأولين حتى نوح وأبنائه الثلاثة سام وحام ويافت وعلى أعقابهم ، والمواطن التي حلّوا فيها بعد تفرق القبائل في الآفاق . متبعين في ذلك مساق كلام الكتاب في الفصول العشرة الأول . وبعض آي الفصل الحادي عشر من سفر التكوين حتى مولد ابراهيم الخليل . ثم أعقبنا ذلك بمقالتين في الحثيين والفينيقيين أشهر القبائل التي توطنت في شمالي سورية ووسطها . فبقي علينا أن نتكلم في أشهر القبائل التي توطنت في جنوبيها . وهي قبيلة العبرانيين اي بني إسرائيل مستضيئين بنبراس أصح تاريخ وأقدسه وأقدمه وأكمله وهو أسفار العهد القديم المقدسة. فإن جلّ الغرض من كلامها من الفصل الحادي عشر من سفر التكوين فصاعداً بيان تاريخ بني إسرائيل . وما افترضه الله عليهم وأرشدهم إليه بمناجاته ولسان أنبيائه . ونستعين لإدراك شأونا بما اكتشف من الآثار القديمة وما استودع في حطام قدماء المؤرخين . وما جاء في كتب ثقات من العلماء والمفسرين . ولما كان ابراهيم الخليل أصل هذه القبيلة وقد ظعن بأسرته من بلاد الكلدان إلى سورية تعين علينا أن نستهل كلامنا بذكره .

الفصل الأول

ابراهيم الخليل

عد ١٥١

نسب ابراهيم وعصره

قد مرّ بك في عد ٣٨ أن ساماً ولد ارفكشاد، وارفكشاد ولد شالح، وشالح ولد عابر، فعبر الفرات وإليه ينسب العبرانيون. «وهو ولد فالج (أو فالغ) ويقطان جد العرب الذي ذكرنا ولده في العدد المشار إليه آنفاً» وأما فالج فولد أرعو، وأرعو ولد سروج، وسروج ولد ناحور، وناحور ولد تارح، وتارح ولد أبرام (الذي سمّاه الله ابراهيم). وناحور باسم جدّه وهاران الذي ولد لوطاً وتوفاه الله قبل أبيه تارح في أرض مولده في أور الكلدانيين (تك ف ١١ من عد ١١ فصاعداً).

ويرجّح أن ابراهيم كان أصغر إخوته وقدمه الكتاب بالذكر تعظيماً له لأنه أبو المؤمنين (فيكورو في معجم الكتاب في كلمة ابراهيم)، وقد ذكر الكتاب سني موالد هؤلاء الآباء فيظهر منه ما مرّ من السنين من بعد الطوفان إلى مولد ابراهيم على أن بين النص العبراني والترجمة اليونانية السبعينية اختلافاً في حساب هذه السنين. فزادت السبعينية مئة سنة على سني ولادة أكثر الآباء الآنف ذكرهم، واتبعت النسخة اللاتينية المعروفة بالعامية. وأكثر نسخ الكتاب النص العبراني. وإليك جدولاً يتبين منه هذا الاختلاف:

سنوّ مولد الآباء بعد الطوفان، بحسب النص العبراني، سنوّهم بحسب الترجمة السبعينية.

سام ولد أرفكشاد بعد الطوفان	٢	٢
أرفكشاد ولد شالح وله من العمر	٣٥	١٣٥
شالح ولد عابر وله من العمر	٣٠	١٣٠
عابر ولد فالغ وله من العمر	٣٤	١٣٤
فالغ ولد أرعو وله من العمر	٣٠	١٣٠
أرعو ولد سروج وله من العمر	٣٢	١٣٢
سروج ولد ناحور وله من العمر	٣٠	١٣٠
ناحور ولد تارح وله من العمر	٢٩	٧٩
تارح ولد ابراهيم وله من العمر	٧٠	٧٠
	٢٩٢	٩٤٢

وقد زادت السبعينية أباً آخر على هؤلاء وهو قينان.

وذكرت أن أرفكشاد ولده وعمره	١٣٥
	١٠٧٧

وان قينان ولد شالح وهلمّ جرّاً إلى ابراهيم كما مر وعليه فيكون ما بين الطوفان ومولد ابراهيم مئتان وإثنان وتسعون عاماً بحسب النص العبراني، وألف وسبعة وسبعون عاماً بحسب الترجمة السبعينية. وذكرت الترجمة السريانية قينان بن أرفكشاد كالسبعينية في الفصل الثالث من بشارة لوقا. وقد اتبع ابن خلدون في تاريخه حساب الأصل العبراني في موالد هؤلاء الآباء، ولكن «أبو الفدا» اعتمد فيه حساب الترجمة السبعينية وجعل المدة من الطوفان إلى مولد ابراهيم ألفاً وإحدى وثمانين سنة.

وإذا أضفنا إلى ٢٩٢ عاماً من الطوفان إلى مولد ابراهيم ١٦٥٦ سنة من خلق آدم إلى الطوفان بحسب الأصل العبراني كما في الجدول الذي وضعناه في عد ٢٣، وألحقنا به ٧٥ سنة عمر ابراهيم عند ارتحاله من حاران ليمضي إلى أرض كنعان - كما في سفر التكوين (فصل ١٢ عد ٤ و ٥) - كان مجموع الأعوام

التي مرّت من آدم إلى بلوغ ابراهيم سورية ٢٠٢٣ سنة. وأما بحسب السبعينية فالمجموع ٣٣٩٤ سنة مؤلفة من ٢٢٤٢ سنة قبل الطوفان. ومن ١٠٧٧ سنة من الطوفان إلى مولد ابراهيم، ومن ٧٥ سنة من مولد ابراهيم إلى أن ارتحل إلى سورية وكان الفرق بين الحسابين ١٣٧١ عاماً، وأما في أية سنة قبل مولد المخلص شخص ابراهيم إلى سورية فذلك يختلف فيه اختلاف المذاهب في تعيين سنة المولد من سنيّ الخليقة. فعلى مذهب من قال إن مولد المخلص كان في سنة ٤٠٠٠ لخلق الإنسان يكون بلوغ ابراهيم إلى فلسطين سنة ١٩٧٧. وعلى مذهب من قال إن المولد كان في سنة ٤٠٥١ يكون بلوغ ابراهيم سنة ٢٠٢٨. قال الأب فيكورو: جعل اوساريوس مولد ابراهيم لسنة ١٩٩٢ ق.م، وجعل كلينتون وفاته سنة ١٩٥٥ ق.م، وإقامته في أرض كنعان من سنة ٢٠٥٥ إلى سنة ١٩٥٥ ق.م وقال بلمر Palmer: إنّه بلغ أرض كنعان سنة ٢٠٨٤ وتوفاه الله سنة ١٩٨٤ ق.م. والحاصل أن المسألة يختلف فيها حتى الآن. وعلى كل الأقوال إنه بلغ بلاد الكنعانيين لنحو من ألفي سنة قبل الميلاد، ولعلّه يكتشف أثر يزيل الخلاف مثل أن توجد قطعة آجر أو أثر آخر في بلاد الكلدان تنبئ بشيء من تاريخ كدرلاعومر الذي حاربه ابراهيم. فينجلي تاريخ ابراهيم بالحصر أو بالتقريب (فيكورو في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٣٦٦).

وقد طالعنا في هذه الأيام في المجلة الموسومة بالعلم الكاثوليكي، مجلة المباحث الدينية، فصلين علقهما فيها الأب مور الشهير في عدديها الصادرين في ١٥ آب وفي ١٥ أيلول سنة ١٨٩٣ أثبت فيهما أن ابراهيم شَخَص إلى فلسطين سنة ٢١٤٥ ق.م. ففي الفصل الأول منهما أجهد نفسه ليثبت أن خروج بني إسرائيل من مصر كان لسنة ١٥٠٠ ق.م متمسّكاً بآثار آشورية يظهر فيها أن سرغون دمّر السامرة، وقرض مملكة إسرائيل سنة ٧٢١ ق.م. ووضع جدولاً لملوك إسرائيل ويهوذا يتبين منه أن سليمان أخذ ببناء الهيكل سنة ١٠٢٠ ق.م، واستشهد بقول «الكتاب» (ملوك ٣ فصل ٦)، بأن هذا البناء كان بعد ٤٨٠ سنة من خروج بني إسرائيل من مصر. فكان الحاصل على قوله أن الخروج كان سنة ١٥٠٠ ق.م ثم أضاف سني العبودية ٤٣٠ سنة إلى ذلك العدد، فكان المجموع ١٩٣٠ سنة. وضمّ إلى ذلك ٢١٥ سنة حصلت من أن يعقوب نزل إلى مصر وله من العمر ١٣٠ سنة، وأن اسحق ولده عمره ٦٠ سنة، وأنّ ابراهيم ولد اسحق بعد ٢٥

سنة من إتيانه فلسطين (وكل هذا بيّن في سفر التكوين) . ونتج أن ابراهيم شخص إلى فلسطين سنة ٢١٤٥ ق.م ، ثم أيّد قوله في الفصل الثاني بوجه آخر مستنداً إلى أثر لآشور بانيبال ملك آشور قال فيه :

« إنّ كودر ناهوندا ملك عيلام سطا على هياكل أكّد (بابل) ، وأخذ تمثال الآلهة نانا، فاستمر هذا التمثال في بلاد عيلام سنة ١٦٣٥ (وفي نسخة ١٥٣٥) . وأن آشور بانيبال ظفر بملك عيلام، وأرجع هذا التمثال إلى محله » .
ومن البيّن أن هذا الملك الآشوري انتصر على ملك عيلام سنة ٦٦٠ ق.م . فإن أضفنا هذه السنين إلى ما قبلها كان المجموع ٢٢٩٥ سنة . وقد رأى الأب مور أن غزوة العيلاميين لبابل كانت الداعي لمهاجرة الحثيين من سورية إلى مصر ، ولمهاجرة تارح أبي ابراهيم من أور الكلدانيين إلى حاران . وإنّ كدرلاعومر الذي حاربه ابراهيم فيما بعد هو من دولة العيلاميين هذه ، وإن دولة أخرى حليفة لها تعرف بالسيسكو، كان منها ملك يسمّى كركال . وإن هذا ليس هو إلّا تدعال ملك الأمم حليف كدرلاعومر، وباقي الملوك الذين حاربهم ابراهيم (تك ف ١٤) .
وبناءً على ما مرّ، وضع مور جدولاً يتبيّن منه أن تارح ولد سنة ٢٣٥٠، وعاش ٢٠٥ سنين، وأنه هاجر بلاد الكلدان. ولما مرّ كان عمر ابراهيم ٣٥ سنة ، وعاش ابراهيم مع أبيه هناك ٤٠ سنة. فإن أسقطنا ٢٠٥ سنين من ٢٣٥٠ كان الباقي ٢١٤٥؛ هي سنة شخوص ابراهيم إلى فلسطين انتهى ملخّصاً والله أعلم .

قد أنبأنا الكتاب (تك ف ١١ عد ٢٩) : ان قد « اتخذ أبرام وناحور لهما امرأتين ؛ اسم امرأة أبرام ساراي، واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي يسكة » . قال يوسيفوس (ك ١ في تاريخ اليهود ف ٦) : إنّ ناحور « توفي في أور الكلدانيين ويشاهد هناك مدفنه إلى اليوم ، وخلف ابناً يسمّى لوطاً، وابنتين تسمّى إحداهما سارة والأخرى ملكة . فتزوج ابراهيم بسارة وناحور بملكة » . فسارة إذاً بنت أخي ابراهيم على هذا القول. وسيجيء فيه كلام في عد ١٥٤، وهي المسماة يسكة أيضاً ، وأخوهما لوط ارتحل مع ابراهيم إلى أرض الكنعانيين. ومن عوائدهم أن لا يتزوج الأخ البكر بابنة أخيه الذي هو أصغر منه، ويباح للأخ الأصغر أن يتزوج بابنة أخيه البكر. وهذا يرجّح ما مرّ من أن ابراهيم لم يكن بكر تارح، بل كان أصغر أبنائه ، وهذا أعون على حل الإشكال الحاصل من قول «الكتاب» (في أعمال الرسل ف ٧ عد ٤) : إنّ ابراهيم لم يرتحل إلى أرض

الكنعانيين إلّا بعد وفاة أبيه، وإنّ أباه عاش مئتين وخمس سنين، وولد ابراهيم وعمره سبعون سنة، وإن ابراهيم ارتحل إلى أرض كنعان وله من العمر خمس وسبعون سنة (كما في سفر التكوين ف ١١ و ١٢). فيحصل من ذلك أن عمر تارح لم يتجاوز حين ارتحال ابراهيم المائة والخمس والأربعين سنة، ويلزم منه أن يكون قد عاش ستين سنة بعد ارتحال ابنه. فإذا قلنا إنّ هاران إنما هو الذي ولده وعمره سبعون سنة انفسح لنا القول إنه ولد ابراهيم بعد ستين سنة لأنه أصغر ولده، فيزول الأشكال. ورأى بعضهم أن عدد المئتين والخمس سنين من غلط النساخ لا من حقائق «الكتاب» (ملخص عن الموجز الكتابي لفيكورو عد ٣٤٢). ولذلك قال كلمت (في معجم الكتاب في كلمة تارح) إنّ تارح ولد ابراهيم وعمره مئة وثلاثون سنة.

عد ١٥٢
منشأ ابراهيم أي في أور وحاران

ولد ابراهيم ونشأ في أور الكلدان، ولكن أين موقع أور هذه؟ فقد توفّرت فيه الأقوال وتضاربت، وسمّاها «الكتاب» في النص العبراني أور كسديم. ولم يُنبئ بموقعها، ولذلك جعله بعضهم في بلاد الكلدان، وبعضهم في الجزيرة، وبعضهم في سورية. ومن التقليدات المستمرة حتى الآن في المشرق - وقد أخذ بذلك القديس أفرام السرياني، وتابعه كثير من مفسّري الكتاب - أن مولد ابراهيم كان في ارفه وهي الرها، ومن أدلتهم على ذلك تسميتها في السريانية ܐܘܪܗܝ (اورهُي). وأن أهلها متشبثون حتى الآن بهذا التقليد، وقد دافع ستانلاي عن صحة هذا القول واعتمده. وقال بوخرت إنّ موقع أور بين نصيبين ودجلة، ووافقه على قوله كثير من مشاهير العلماء على أن العالم أوبر وُفّق إلى تعيين موقعها وأورد بيّنات إثباته في ٢٢ نيسان سنة ١٨٦٩م لتلامذته وللجمّ الغفير في مدرسة إفرنسة، حيث كان يدرس التاريخ. وهو في المحل المعروف الآن بالمقائر، وسمّاه بعض الجغرافيين «أم قير» وهو في وسط الطريق بين بابل ومصب نهر الفرات في خليج العجم، حيث تشاهد أكمة عليها أخربة عديدة. وسُمّي هذا المحل المقائر لكثرة ما يوجد فيه من كسر الآجر مطلية بالقار. وقد اكتشف هناك قطع عديدة من الآجر يتبيّن منها أسماء هذه المدينة وبعض ملوكها.

وظهر من آثار عديدة أنّها كانت مدينة علوم وصنائع، وكثر فيها عداد العلماء والفلكيين الذين يرصدون الكواكب، والشعراء والكتبة. وقد بقي لنا بعض ما كتبوه على الآجر في مكتبة نينوى السالف ذكرها، وكان ملوكها يسمون أنفسهم ملوك أور، كما كان يُسمّى ملوك بابل وملوك شومير وملوك أكد. فهي من أقدم مدن بلاد الكلدان؛ فإن بعض الآثار التي وجدت فيها تعسر قراءتها وفهمها لتناهي قدمها، ومنها فلذة آجر كتب عليها: «إن ليك باغاس ملك أور بنى هذا الهيكل تجلةً للإله سين». وكتب على فلذة أخرى «أقام ليك باغاس ملك أور هيكلاً تكرمة لسيده الإله سين وبنى أسوار مدينة أور». وليك باغاس هذا كان قبل مولد ابراهيم. والاله سين هو القمر الذي كان أعظم معبودات أور. فهذه المدينة ولد فيها ابراهيم، ولا يبعد أن كان أبوه تارح يعبد الإله سين كغيره من أهلها في الهيكل الذي بناه ليك باغاس.

وجاء في سفر التكوين (ف ١١ عد ٣١): «وأخذ تارح أبرام ابنه ولوط ابن هاران ابن ابنه وساراي كنّته امرأة أبرام، فخرج بهم من أور الكلدانيين ليذهبوا إلى أرض كنعان فجاءوا إلى حاران وأقاموا هناك». وحاران هي المعروفة الآن بحران وموقعها في الجنوب من أرفه على بعد ثمان ساعات، وهي الآن خربة وفيها معبد ينسبونه إلى ابراهيم، وسمّاها اليونان واللاتينيون حارّه، وهي مشهورة في التاريخ العالمي بانتصار البرتيين فيها على كراسوس الروماني. وفي التاريخ المقدس يسكن ابراهيم فيها، ويظهر أنها كانت من أعمال مملكة أبجر ملك الرها المشهور برسالته للمخلّص وجوابه له عليها. وورد اسمها مكرّراً في الآثار الآشورية محسوبة في عداد المدن الآرامية، وجاء ذكرها مع بعلبك في الخطوط القديمة التي وُجدت في قصر خرشباد، ونقش اسمها على مسلة سلمناصر في عداد المدن التي فتحها في شمالي ما بين النهرين. وكان أهلها يعبدون القمر كسكان أور. وترى فيها إلى الآن البئر التي التقى بعد ذلك اليعازر رسول ابراهيم برفقا عندها، فخطبها لاسحق كما سيجيئ. وحكى بعض الجوالة أن رعاة الماشية يجتمعون حتى اليوم حول هذه البئر ليسقوا ماشيتهم. والنساء يبكرن بالورود إليها لاستقاء الماء، ولا بد أن يكون ابراهيم قد ورد هذه البئر مراراً كما صنع بعده حفيده يعقوب، إذ كان يرعى غنم حميّه لابان. قال بعضهم: إنّ ابراهيم أقام في حاران خمس عشرة سنة وجعل غيرهم مدة إقامته

فيها ست سنين أو خمساً (ملخص عن الكتاب والإكتشافات الحديثة لفيكورو مجلد ١ في الكلام على ابراهيم).

عد ١٥٣

ارتحال ابراهيم إلى أرض الكنعانيين، وما قيل في ولايته في دمشق

اتفقت تقليدات اليهود والعرب على أن ابراهيم اضطرّ إلى مغادرة بلاد الكلدان فراراً من الخطر الملمّ به من قبل قومه، إذ فشت بينهم عبادة الأوثان. وكان يبكّتهم عليها، ويناصبهم في انتشارها، فثاروا عليه يتطلبون قتله، فأمره الله بالخروج من بينهم، والارتحال إلى أرض كنعان. ولهذه التقليدات مسند في «الكتاب» أيضاً. فإننا نرى يشوع بن نون يقول لجميع الشعب: «هكذا قال الرب إله إسرائيل، في عبر النهر سكن أباؤكم منذ الدهر، تارح أبو ابراهيم وأبو ناحور، وعبدوا آلهة أخرى. فأخذت أباكم ابراهيم من عبر النهر، وسيرته في جميع أرض كنعان» (يشوع فصل ٢٤ عد ٢). بل روى بعض المؤرخين العرب، ومنهم أبو الفدا (في مجلد ١ من تاريخه): «إن تارح أبا ابراهيم كان يصنع الأصنام، ويعطيها ابراهيم ليبيعها. وكان ابراهيم يقول: من يشتري ما يضره ولا ينفعه؟» وقد تأوّل علماء التلمود كلمة أور من قوله أور الكلدانيين بمعنى نار، ولذلك كان من تقليداتهم أن الكلدانيين ألقوا ابراهيم في أتون نار متّقدة، لأنه أبى السجود لآلهتهم، فأنجاه الله منه بمعجزة. على أن القديس إيرونيموس ترجم آية سفر نحميا (فصل ٩ عد ٧)، وهي: «أنت الرب الإله الذي اصطفيت أبرام وأخرجته من أور الكلدانيين». فكتب بدلاً من أور الكلدانيين من نار الكلدانيين – كما في النسخة اللاتينية المعروفة بالعامية – لكنه قال: إن تقليد علماء التلمود في هذا الشان إنما هو حكاية لا يعتد بصحتها. وعن ابن العبري في تاريخ الدول: «إن ابراهيم أحرق هيكل الأصنام بقرية الكلدانيين، ودخل هاران أخوه ليطفئ النار فاحترق، ولذلك فرّ ابراهيم» ولكن هذا مما لا يمكن إثباته.

ولما أمر الله ابراهيم أن انطلق من أرضك أي حاران إلى الأرض التي أريك، أي أرض الكنعانيين، نهض بامرأته سارة وابن أخيه لوط وحاشيته وخدمه ومواشيه،

وخلف أخاه ناحور في حاران . وكان أبوه قد توفي فعبر الفرات . وروى يوسيفوس (ك ١ فصل ٧ من تاريخ اليهود) نقلاً عن نيقولاوس الدمشقي الذي كان في القرن الأول قبل الميلاد أنّ ابراهيم بلغ دمشق أولاً وولي أمرها . وإليك كلام الدمشقي الذي رواه يوسيفوس :

« خرج ابراهيم بجحفل كبير من بلاد الكلدان ... فملك في دمشق ، ثم زايلها بعد مدة مع شعبه كله، وأقام في أرض كنعان التي تسمى الآن اليهودية . فكثرت ذريته كثرة لا تقدّر. وسأجيء على ذكر ذلك في محل آخر . وما برح اسم ابراهيم إلى الآن موقراً ومشتهراً جداً في بلاد دمشق، وهناك قرية تسمى باسمه ويقال إنها كانت مسكنه » . وَعَدَّ يوستينوس ملوك دمشق ، فقال : « ومن بعد دمسقوس ملك حزال، ثم ادوراس، ثم ابراهيم وإسرائيل » . ورأى كثير من العلماء أن هذه التقليدات لا تخالف الصواب ولا أقل من أن تكون دليلاً على إقامة ابراهيم مدة في دمشق بمنزلة أمير ثريّ ، واليعازر قيم بيته كان من دمشق (تك ف ١٥ عد ٢) وقد جاء ذكر هذا التقليد في كتب علماء مسيحيين ومسلمين .

وأول محطة احتلها ابراهيم في اليهودية هي شكيم المسماة في الإنجيل سوخار والمعروفة الآن بنابلس . وتجلّى الرب هناك لابراهيم، ووعده بأن تكون تلك الأرض لنسله. فأقام فيما بعد مذبحاً تكرمة للرب الذي تجلى له ، ثم ظعن من هناك وضرب خيامه في الجبل بين بيت إيل غرباً والعاي شرقاً (تك ف ١٢ عد ٨) . فهذا الجبل يلزم أن يكون الأكمة التي عليها المحل المسمى خربة البرج ، وبيت إيل هي المسماة الآن بيت أين في شمالي البيري ، واورشليم . وأما العاي فكانت في محل الكديرة الآن في جانب دير ديوان بين رمان في الشمال ومخماس في الجنوب . وكل ذلك في الشمال الشرقي من اورشليم (كاران مجلد ٣ في اليهودية صفحة ١٤ و ٥٩) . وكانت بيت إيل تسمى قديماً لوزا، وفيها تجلى الرب ليعقوب عند فراره من وجه أخيه عيسو ، وأراه سلّماً يتصل رأسها بالسماء، وملائكة الله تصعد وتنزل عليها، فنصب هناك مذبحاً . وقال عن الموضع : إنّه بيت الله ، وسماه «بيت إيل» (تك ف ٢٨ عد ١٢ وما يليه) . والعاي تسمى عاي (دون أل) ، وغاي هي المدينة التي بعث إليها يشوع بن نون بعد افتتاحه أريحا ثلاثة آلاف رجل، فهزمهم أهل المدينة . ثم انتصر عليهم يشوع، وأحرق مدينتهم، وصلب ملكها، ورجمه. (يشوع فصل ٧ و ٨) كما سيجيء في محله . ولم

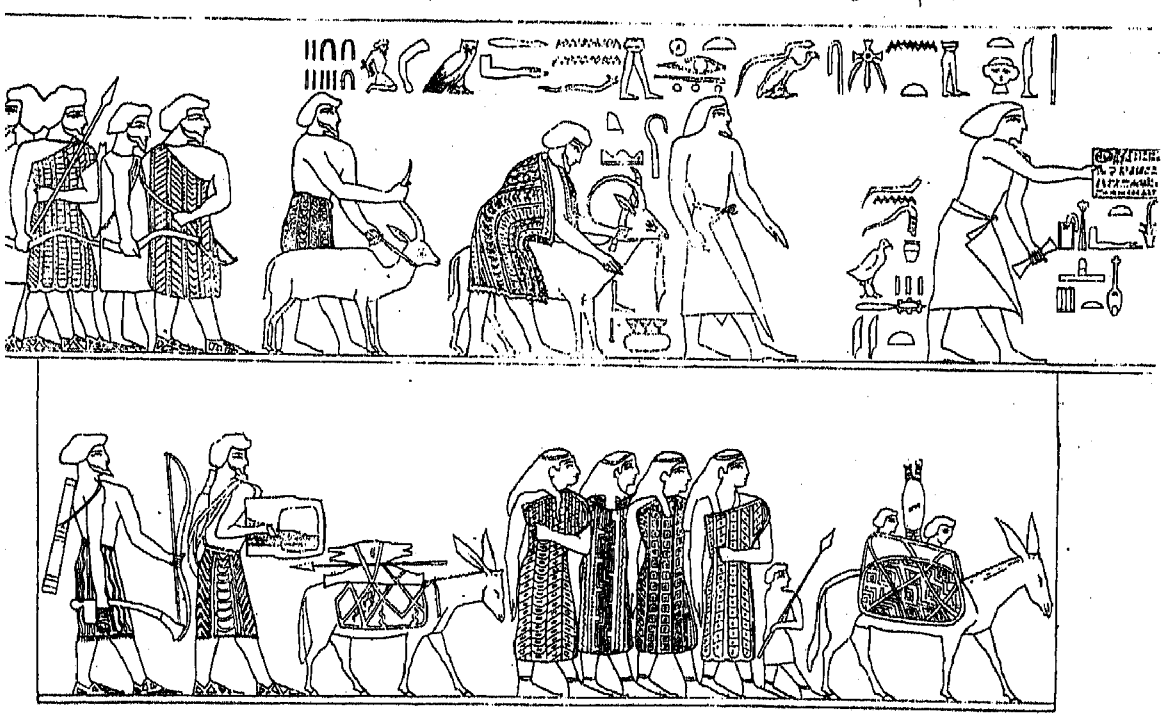
يستمر ابراهيم هناك بل أمعن في أرض الكنعانيين نحو الجنوب مرتحلاً إرتحالاً متوالياً.

عد ١٥٤

انحدار ابراهيم إلى مصر

نبأنا الكتاب (تك ف ١٢) أن حصلت مجاعة في أرض كنعان دعت ابراهيم أن ينحدر إلى مصر مع سارة امرأته. ولما كانت بديعة الجمال، وهو يعلم فساد المصريين، لقّنها أن تقول إنها أخته، لئلّا يقتله المصريون ويأخذوها. فقالت كما علّمها. وأخبر فرعون عظماؤه بجمالها فهام بها، وأدخلت بيته، فضرب الرب فرعون وأهله ضربات عظيمة بسببها، فاستدعى ابراهيم وردّ عليه امرأته معتذراً بأنه حسبها اخته فأخذها لتكون له امرأة. وأحسن إلى ابراهيم بسببها، فصار له غنم وبقر وحمير وعبيد وإماء وجمال، واتن. وامر فرعون قوماً يشيعونه هو وامرأته وكل ماله.

زعم بعض النقاد أن ما أجراه فرعون إلى ابراهيم من الإكرام والإحسان يخالف



صورة مهاجرين من سورية إلى مصر نقلاً عن مدافن بني حسن في مصر

الصواب ولا يصدق، خاصة إن صحّ أن فرعون هذا كان مصرياً أصلاً. والصحيح أن زعمهم هذا يخالف الصواب، لأن إكرام فرعون لابراهيم وأخذه سارة ينطبقان كل الانطباق على عادات المصريين وأطوارهم. وقد وُجدت آثار عديدة تُثبت ذلك؛ منها صورة نقشت على أحد المدافن في تربة بني حسن على ضفة النيل الشرقية على عهد أزورتسان الثاني أحد ملوك الدولة الثانية عشرة، تمثّل رئيس عشيرة من الرحل أتى مصحوباً بأسرته وخدمه يحيي حاكم البلاد أحد أقارب الملك، ويلتمس منه الحماية، ويسمي الأثر هؤلاء الغرباء عمو.

وقد مرّ أن المصريين يعبّرون بهذا الاسم عن الرعاة الرحل الذين يأتون من بلاد العرب وفلسطين. ويصف رئيس هذه الأسرة بهاك أي أمير أو رئيس العشيرة، ويسميه أبشاه أي أبي الرمل. وتأويل هذا الاسم قريب من معنى ابراهيم الذي هو أبو الكثيرين. ولهذا الامير وأسرته وحاشيته كل السمات المميّزة الساميين من حيث الهيئة الطبيعية والملابس. ويظهر من الصورة أن حاكم البلاد يتلطف بمقابلتهم كأناس ذوي حسب ونسب، فيقدمهم أحد الكتاب ووراء الحاكم يافع يحمل حذاءه ولم تكن العادة بخلعه إلّا في المقابلات الرسمية. ومن جملة ما يقوله الكاتب عند تقديمهم إنّ المجاعة حملتهم على الإتيان إلى مصر، ويعدد احسانات الحاكم ومكرماته. فإن لم تكن هذه الصورة صورة ابراهيم ولوط واسرتهما فلا اقل من أن تبيّن بطلان زعم النقادين.

وهم بوهلن Bohlen الإلماني أنه وجد بيّنة على التكذيب بصحة آيات «الكتاب» بتسمية الحيوانات التي اعطيها موسى في مصر. ولم يكن منها في وادي النيل ذلك العصر أو كانت نادرة. فإن الغنم كان نادراً كالجمال، والحمير كانت مكروهة بسبب لونها، ولم يذكر موسى الخيل على كثرتها في وادي النيل. فردّ الأب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٤٣٩) زعم بوهلن هذا، وأثبت بالآثار والخطوط والصور القديمة وفرة الغنم والبقر والحمير في مصر منذ أيام الدولة الثانية عشرة. وأما في الجمال فقال: وإن ندرت صورها في الآثار فلم يندر وجودها. ويظهر أنه كان لهم قواعد تحظر عليهم تصوير بعض الحيوانات كالدجاج والهر والجمال. ولا يمكن أن تكون الجمال منقطعة الوجود في مصر مع كثرتها عند جيرانهم العرب من أقدم الأيام ونقلها إليهم كثيراً من حاصلات العرب وغيرها. وفي بعض الخطوط المصرية انهم كانوا يعلمون الجمال الرقص. وقد جاء

في سفر الخروج (فصل ٩ عد ٣) ذكر هذه الحيوانات كلها في مصر، إذ قال موسى لفرعون: «ها يد الرب على مواشيك التي في الصحراء؛ الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم بوباءٍ شديد».

وإما إهمال ذكر الخيل في عداد ما أعطيه موسى فهو بينة على صحة الكتاب، لأن أول من أدخل الخيل إلى مصر إنما هم الملوك الرعاة، وابراهيم كان قبلهم، أو في أوائل ولايتهم على مصر كما سيجيء. وكانت أرض مصر في أيام موسى موعبة بالخيل، فلم يذكرها موسى بين الهدايا لابراهيم مع ذكره لها مراراً في آيات أخرى. فكان ذلك دليلاً وضاحاً على أنه تلقى ما كتبه عن تقليد صحيح ثابت. وكان المصريون يسمون الخيل ساس، وفي العبرانية سوس، وفي السريانية ܣܘܣܝܐ (سوسيو). وكانوا يستعملون الخيل لجرّ مركبات الحرب في أيام الدولة الثامنة عشرة. ويسمون المركبة مركابوتا وهي في اللغات السامية مركبة، و ܡܪܟܒܬܐ (مركبتو). فكل ذلك يصرح بان المصريين أخذوا الخيل والمركبات عن سكان آسيا الذين يتكلمون باللغات الساميّة.

وأما من كان فرعون الذي أتحف ابراهيم بهذه الهدايا، فقال فيكورو (في كتابه السالف ذكره صفحة ٤٤٩)، إنه كان أحد ملوك الدولة الثانية عشرة قبل ولاية الملوك الرعاة في مصر، سنداً إلى أنه لم يهدِ ابراهيم خيلاً، لأنها لم تكن في مصر قبل أن يليها الملوك الرعاة. على أن ما رويناه في عد ٩٣ نقلاً عن الأب دي كارا وغيره، يظهر منه أن فرعون هذا كان من الملوك الرعاة في دولتهم الأولى، ويستلمح ذلك من إعزاز فرعون لابراهيم لأنه من أبناء وطنه القديم.

وأما كيف استباح ابراهيم الكذب بتلقينه سارة أن تقول إنّه أخوها وهو زوجها، فقد أجمع الآباء والعلماء أن سارة أخت إبرهيم حقيقة على أن لهم في أثبات هذه الأخوة بينهما قولين؛ فأثبتهما بعضهم بأنّ العبرانيين كانوا يسمون الأقارب الأدنين كأولاد الإخوة والأعمام اخوة، وقالوا: إنّ سارة بنت هاران أخي ابراهيم. فصدق بتسميتها أخته جرياً على عادتهم. وممن قالوا بهذا يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ ف ٦) والقديس إيرونيموس (في المباحث العبرانية في التكوين ف ٢٠) وأبو الفدا في تاريخه. وأسندوا قولهم إلى آية التكوين (ف ١١عد ٢٩) وهي: «اتخذ أبرام وناحور لهما امرأتين اسم امرأة أبرام ساراي

واسم امرأة ناحور ملكة بنت هاران أبي ملكة وأبي يسكة ». وما يسكة عندهم إلا اسم آخر لساراي كما مرّ في عد ١٥١. ورجّح كلمت في معجم الكتاب هذا القول، واعتمده كرنيلوس الحجري (في تفسيره سفر التكوين) مستمسكاً بنهي سنّة الطبيعة عن الزواج بين الإخوة والأخوات وإن لأمّين على أن غير هؤلاء من الآباء والعلماء، ذهبوا إلى أن سارة أخت ابراهيم لأبيه لا لأمه، وقالوا إن تارح تزوج بامرأتين: اسم الأولى يونا وهي أم ابراهيم، واسم الثانية تاريلا وهي أم سارة. فتزوج ابراهيم بأخته لأبيه وإنّ هذا لم يكن محظوراً في أيامهم، وأسندوا قولهم هذا، إلى آية صريحة في سفر التكوين (ف ٢٠ عد ١٢) حيث قال ابراهيم نفسه: لأبيملك ملك جرار عن سارة. «وعلى الحقيقة هي أختي إبنة أبي غير أنها ليست ابنة أمي»، وقد رجّح فيكورو (في معجم الكتاب في كلمة ابراهيم) هذا القول لصراحة الآية به، والاحتياج إلى التأويل في الآية الأخرى، وعلى كلا القولين فسارة أخت ابراهيم وهي زوجته، فهاتان حقيقيتان لقن إبراهيم سارة أن تكشف عن إحداهما وتسكت عن الأخرى وليس من إلزام على أحد أن يقول كل ما يعلم.

ولكن كيف عرّض ابراهيم زوجه لخطر الاثم الذي حف بها فعلاً؟ لقد برّأ القديس اغوسطينوس ابراهيم من الكذب - كما مرّ - ومن تعريضه امرأته للإثم فقال: إنّ ابراهيم كان معرضاً لشرّين: قتله، واختطاف امرأته، ولا مفرّ له من كليهما إن قال إنّ سارة امرأته، وينجو من القتل إن قال أخته، فاختار من الشرّين أصغرهما موكلاً إلى عناية الله حفظ طهارة سارة مع يقينه بعفافها، فلا حرج عليه لاسيّما أنه لو قال هي امرأته لم تنجُ من هذا التعرّض أيضاً، وكان موقناً فساد آداب المصريين، وعناية الله به وبامرأته، وبرّ العمل يقينه إذ خطفت سارة بفساد المصريين، وأنجاه الله من شرّهم، وحصن سارة من الإثم.

روى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١ ف ٨): «إنّ فرعون دفع إلى ابراهيم مقداراً من الفضة عدا هداياه السالف ذكرها، وسمح له أن يباحث حكماء مملكته، فكشفت هذه المباحثة عن فضيلته وحكمته وأكسبته أسمى اعتبار. وكان حكماء المصريين متشعّبي الآراء وأدّى بهم هذا الخلاف إلى انقسام كبير، فجاءهم ابراهيم بجلي البرهان على أن الفريقين عن الحق بمراحل، فدهش الفريقان بذكائه

وسموّ مداركه : وعلّمهم فنّ الحساب، وعلم الفلك، وكانوا لهما جاهلين . فهو الذي، أوصل هذه العلوم من بلاد الكلدان إلى المصريين، وعن هؤلاء أخذها اليونان » . وهذا رواه كثير من القدماء، منهم نيقولاوس الدمشقي، وأبو لام وارتبان وغيرهم، ذكرهم أوسابيوس (في كتابه الموسوم بالاستعداد الإنجيلي ك ٩ ف ١٩) .

وبعد أن أقام ابراهيم في مصر نحو سنة على الأظهر، عاد منها ومعه لوط ابن أخيه وقومه، غنيّاً بالماشية والذهب والفضة، وقد أحرزهما بهدايا فرعون، ونتاج قطعانه . فحلّ في منزله الأول بين بيت إيل والعاي أشبه بقبائل الرحل في هذه الأيام : وتوفرت قطعان لوط أيضاً فوقع نزاع بين رعاته ورعاة ابراهيم عمه، أفضى إلى أن يخير ابراهيم لوطاً في الجهة التي يريد الانطلاق إليها بقطعانه ورعاته، فاختار لوط السهول التي على ضفاف الأردن والبحر الميت التي كانت تسقى قبل أن ينزل الله رزأه بسدوم وعمورة . فتوطّن سدوم قصبة المدن الخمس المتعاهدة، وهي : سدوم، وعمورة، وأدمة، وصبوائم، وصوعر . وبعد أن انتزح لوط عن ابراهيم تجلى الله له مجدداً ووعده بأن تكون له ذرية تشذ عن العدّ، وتملك هذه البلاد . وارتحل إبرهيم من محله وضرب خيامه في وطأ ممرا حذاء حبرون، وابتنى هناك مذبحاً للرب على عادته حيثما حلّ . وحبرون هي المعروفة الآن بالخليل، أي مدينة ابراهيم الخليل، وهي على مسافة نحو سبع ساعات في الجنوب من أورشليم . وجاء في سِفر العدد (ف ١٣عد ٢٣) : « وكانت حبرون قد بنيت قبل صوعن مصر بسبع سنين » . وصوعن هي تانيس المعروفة الآن بسان بجهة مصر الشرقية . وقيل في سفر يشوع بن نون (ف ١٤ عد ١٥) : « وكان اسم حبرون قبلاً قرية اربع وهو اعظم رجل في العناقيين » . ومنه يظهر أن أربع أحد جبابرة بني عناق هو أوّل من اختط اسس الخليل، وسمّاها قرية أربع أي مدينته نسبة إليه .

عد ١٥٥

محاربة ابراهيم لكدرلاعومر وأحلافه

إنّ ملخص ما جاء في الفصل الرابع عشر من سفر التكوين هو أن كدرلاعومر ملك عيلام كان أخضع لسلطته سكان وادي الأردن، فاستمروا على الطاعة له

اثنتي عشرة سنة وفي الثالثة عشرة عصوه. فجيّش عليهم في السنة الرابعة عشرة، وغشا بلادهم يصحبه أمرافل ملك شنعار، واريوك ملك الاسار وتدعال ملك الأمم. وكان هؤلاء الملوك الثلاثة أحلافاً أو أقيالاً لكدرلاعومر. فضرب هؤلاء الملوك في مسيرتهم قبيلة الرافائين في عشتروت قرنيم، وعشيرة الزوزيين في هام، والايميين في شوى قريتائيم. ثم الحوريين في جبلهم سعير إلى سهل فاران الذي عند البرية. ثم جاءوا إلى عين مشفاط وهي قادس فضربوا كل أرض العمالقة والآموريين المقيمين في حصاصون تامار. فخرج إليهم ملوك المدن الخمس السالف ذكرها؛ وهم: بارع ملك سدوم، وبرشاع ملك عمورة، وشنآب ملك أدمة، وشميئير ملك صبوئيم، وملك بالع وهي صوعر. فصافوهم للحرب في غور السديم، فانهزم ملكا سدوم وعمورة فسقطا في آبار حُمر هناك. والمراد أنهما دُحرا، وسقط بعض جنودهما في هذه الآبار، لأنه قيل في عد ١٧ إنّ ملك سدوم التقى ابراهيم بعد عوده، وفرّ الباقون إلى الجبل. فغنمت عساكر كدرلاعومر جميع أموال سدوم وأخذوا بين أسراهم لوطاً ابن أخي ابراهيم وما له. وأفلت من اخبر ابراهيم بالنازلة، فجرد حشمه المولودين في بيته ثلاثمائة وثمانية عشر، وصحبه عاثر، واشكول، وممرا، حلفاؤه الآموريون، وجدّ في أثر الغزاة إلى وان، وتفرق عليهم ليلاً هو وعبيده فكسرهم. واتبعهم إلى صوبة التي عن يسار دمشق، فاسترجع جميع المال ولوطاً ابن أخيه (وسمّاه «الكتاب» هنا أخاه على حد تسميته سارة أخته) والنساء وسائر القوم.

فهذه خلاصة ما جاء في الكتاب وكلفاً بتوفر الفائدة وزيادة البيان نقول: لا يخفى أن عيلام هو ابن سام بن نوح وأبو قبيلة العيلاميين التي استحوذت نحو سنة ٢٣٠٠ ق.م على الممالك التي نشأت من تقسيم مملكة نمرود، ولا جرم أن كدرلاعومر ملك عيلام هو أحد ملوكها. فإن الجزء الأول من اسم كدرلاعومر وهو كدر، قد أبانت الإكتشافات الحديثة أنه سُمّي به كثير من ملوك العيلاميين، منهم كدرننكودى، وكدرمابوق. وهذا عمل العالم أوبر على أن يُسمي ملوك دولة العيلاميين هذه بالكدريين. والجزء الثاني من هذا الاسم لاعومر هو اسم أحد الآلهة عند العيلاميين فجاء في إحدى صفائح آشور بانيبال ذكر صنم لاعومر بين الأصنام التي أخذها هذا الملك من سوس بعد أن فتحها؛ ومعنى كدر خادم؛ أو عبد، ومعنى لاعومر الباقي أو القيوم فيكون تأويل اسم هذا الملك خادم الإله القيوم او

الباقي. وجعل سميث كدرلاعومر وكدرمابوق ملك الكلدان واحداً سنداً إلى وجدان قطعة من الآجر في أور الكلدانيين (ام قير) خط عليها: «لاله أور من ملكها كدرمابوق المستحوذ على أرض المغرب»، ويراد بأرض المغرب على رأيه أرض الكنعانيين. وإذا لم يثبت رأي سميث هذا، فلا أقل من أن يثبت بهذا الأثر ان أحد ملوك الكدريين تسلط على بلاد كنعان، ووّجد أثر آخر كتب عليه أن «كدرمابوق أقام هيكلاً للإله سين أي القمر إله أور»، ويُسمي نفسه في بعض آثاره سيد سورية. ويمات بعل أي بلاد عيلام. وكل هذا ناطق بأن ملوك هذه الدولة غزوا أرض كنعان كما فعل كدرلاعومر سواء كان هو كدرمابوق أم غيره. (فيكورو في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٤٥٩).

والظاهر من الآثار أن الملوك الثلاثة الباقين كانوا أحلافاً أو أقيالاً خاضعين لكدرلاعومر، وأنّ صفائح آشور بانيبال تثبت أن دولة الكدريين العيلاميين تولت بلاد بابل مدة طويلة، لأنه كتُب أنه افتتح مدينة سوس عاصمة العيلاميين، واستردّ تمثال الإلهة نانا الذي كان قد أخذه كدرنكوندر أو كودرناهونتا (كما مرّ عد ١٥١) ملك عيلام منذ ألف وستمائة وخمس وثلاثين سنة، وبقي عند العيلاميين. وعليه فهذا الملك العيلامي كان يلي بلاد الكلدان نحو سنة ٢٢٨٠ ق.م. وقد مرّ أن كدرمابوق أحد ملوك هذه الدولة سمى نفسه ملك أور الكلدانيين، وبنى فيها هيكلاً، ووجد في ضواحي بغداد تمثال من نحاس لإحدى الآلهات عليه اسم كدرمابوق، وهو الآن في متحف اللوفر في باريس.

وعلى رأي بعضهم أن ولاية العيلاميين في ما بين النهرين استمرت ٢٢٤ سنة، بدؤها سنة ٢٢٨٧ ق.م؛ وكلّ هذا يبيّن لنا بياناً علمياً أيضاً صحة رواية سفر التكوين، أن ملك عيلام كان إذ ذاك يلي بلاد الكلدان حتى كان بمعيته في غزوته أمرافل ملك شنعار التي هي بابل. وقال الأب فيكورو (في المحل المذكور): إنّ اسم امرافل بابلي برمته مؤلف من كلمة أمير ومعناه السيد أو الأمير كما في العربية، ومن كلمة فل أو بال أو هابال ومعناها الإبن؛ فتحرير معنى الكلمة ابن الأمير أو الابن هو أمير.

وأما أريوك ملك الاسار فكان للعلماء ومفسري الكتاب فيه أقوال متعددة متضاربة، بل لم يكن لأحد أن يقطع بمن هو، وأين كان مالكاً، إلى أن جاءت

الإكتشافات الحديثة مصرحة بمن هو وابن من هو وأين كانت مملكته، وناطقة بصحة رواية الكتاب، ومخجلة بعض البرهانيين الذين زعموا أن هذه الحرب وانتصار ابراهيم فيها حكاية أو رواية وهمية. فقال لانرمان (في كتابه في اللغة الأولى في بلاد الكلدان صفحة ٣٧٤): «إنّ أريوك هو من تُعبر عنه الخطوط المسمارية بأريكو، وإنّ تأويل اسمه خادم الإله القمر، وإنّه كان ملك لارسا، وأقامه أبوه كدرمابوق ملكاً فيها. فقد وجد أثر في أم قير (أور الكلدانيين) كتب عليه «كدرمابوق وابنه أرياكو... حاكم بلاد أور وملك لارسا وسومير واكد». فقال سكردر (Schrder في تاريخ العهد القديم الصفحة ١٣٥): «لا أشكّ البتّة في أن أريوك ملك الاسار هو أريكو ملك لارسا نفسه، وكان ابن كدرمابوق.ملك أور وملك سومير». وأكّد كما يدلّ على ذلك اسم أبيه كدمابوق واسم جده سمتي سلهك، وكان من ملوك الدولة العيلامية البابلية حليفة كدرلاعومر». وأما الاسار مدينته فلا ذكر لها في الأسفار المقدسة في غير هذه الآية وأكثر الباحثين في الآثار الآشورية على أنها لارسا مدينة بابل في شرقي أرك في الشمال الغربي من أور الكلدانيين، وتعرف الآن بسنقرة واقعة في وسط الطريق بين الفرات ودجلة، وكان فيها هيكل الإله شمس (الشمس)، فجعلها شهيرة بهذه العبادة من أقدم الأيام (فيكورو في المجلد المذكور صفحة ٤٦٣).

وأما الملك الأخير من حلفاء كدرلاعومر فيُسمّى في النص العبراني تدعال - كما روينا - لكنه يسمّى في الترجمة السبعينية ترغال، وكذا سمّاه يوسيفوس. وفسر رولينسون (في معجم الكتاب لسميث) ولانرمان (في كتابه في اللغة الاولى في بلاد الكلدان صفحة ٣٧٧) هذه الكلمة بمعنى الرئيس الاعظم، والشعب، الذي كان يلي أمره يسمى بالعبرانية كويم. ولما كان معنى الكلمة في العبرانية الامم، فجاءت في الترجمات مفسرة بها، فوصفوه بملك الأمم. وأكثر مفسري الكتاب على أنه يراد بهم العشائر الرحل التي لا مقر لها. وقال كلمت (في معجم الكتاب): إن المراد ملك جليل الأمم في عبر الأردن. وقال الاب فيكورو (في المحل السالف ذكره) يحق لنا أن نظن أن كويم اسمٌ للبلاد التي نجد ذكرها مكرراً في الخطوط المسمارية، مسماة كوتي، ويراد بها على رأي رولينسون الصحراء الكائنة بين الفرات وسوريا حيث تقيم عشائر الرحل. وأما سميث فقال أولاً إنه يُراد بهذه، البلاد العربية، ثم قال يراد بها بلاد اشور.

وبقي أن ننظر في القبائل التي ضربها كدرلاعومر وحلفاؤه، فقال أولاً : إنهم ضربوا قبيلة الرافائيين في عشتروت قرنائيم ، فالمراد بالرافائيين أو الرافائيم الجبابرة ، القدماء الذين كانت مساكنهم في ما وراء الاردن . وظنّ بعضهم أنهم من ذرية رجل يُسمى رافا فنُسبوا إليه . وقال غيرهم إنّ معنى كلمة رافائيم الجبابرة بلغة هؤلاء القوم القدماء، وبقي من هذه القبيلة بقايا في عهد موسى . إذ جاء في سفر يشوع بن نون (فصل ١٣ عد ١٢) : كل مملكة عوج في باشان الذي كان مالكاً في عشتروت، وادرعي وهو من بقية الجبابرة الذين ضربهم موسى وطردهم .

ولعل جليات الجبار الذي صرعه داود (ملوك ١ فصل ١٧) وغيره من الجبابرة كانوا من هؤلاء الرافائيين . وقد أطلنا الكلام في الجبابرة في عد ٢٤ فطالعه . وأما عشتروت قرنائيم مدينة هؤلاء فموقعها في عبر الأردن . قال كلمت (في معجم الكتاب في كلمة عشتروت قرنائيم) : هي مدينة واقعة في أرض باشان او البثنيّة (كما سماها ابو الفدا) في نصيب نصف سبط منسا تبعد ستة أميال عن أذرع التي يسميها العرب اذرعات . وقال بعضهم إنها بصرى، وسميت بهذا الاسم تكرمة لعشتروت معبودة الكنعانيين والرافائيين . وكانوا يصورونها وعلى رأسها قرنان أو نصف هلال . فمعنى قرنائيم القرون .

ثانياً : قد ضرب كدرلاعومر وحلفاؤه عشيرة الزوزيين أو الزوزيم في هام، وهذه أيضاً من عشائر الجبابرة الذين كانت مواطنهم في عبر الأردن، حيث سكن بعدهم العمونيون ، ويظن أنهم الزمزميون الذين جاء ذكرهم في سفر تثنية الإشتراع (فصل ٢ عد ٢٠) حيث قيل : « فإذا دانيت جهة بني عمون فلا تعادهم ولا تناصبهم فإني لست معطيك من أرض بني عمون لأني لبني لوط وهبتها ميراثاً » . وهي أيضاً تحسب من أرض الجبابرة، لأن الجبابرة أقاموا بها قبلاً ، والعمونيون يسمونهم زمزميين وهم شعب عظيم كثير طويل القامات كالعناقيين ». وأما هام فهي مدينة في بلاد العمونيين جنوبي البلقاء لم يتحقق إلى اليوم موقعها . وفي الترجمتين السبعينية واللاتينية العامية أن كدرلاعومر ضرب الزوزيين مع الرفائيين في عشتروت .

ثالثاً : ضرب الغزاة عشيرة الأيميين في شوى قريتائيم وهؤلاء عشيرة قديمة كانت مساكنها في عبر الأردن في جنوبي بلاد العشيرة السالف ذكرها ، وشرقي البحر الميت وتخلف لهم بسكناها الموآبيون ، قال موسى في سفر التثنية

(فصل ٢ عد ٩ إلى ١١) قال لي الرب : « لا تعادِ الموآبيين ولا تناصبهم حرباً فإني لست معطيكم من ارضهم ميراثاً اذ لبني لوط وهبت عاد ميراثاً . وكان الأيميون قد أقاموا بها قبلاً وهم شعب كثير، طويل القامات كالعناقيين . .. والموآبيون يسمونهم « أيميين » . وأما مدينتهم قريتائيم، فكان موقعها في عبر الأردن على عشرة أميال عن ميدبا نحو الغرب على ما روى أوسابيوس وشوى بمعنى وادٍ أو سهل . وقد ورد ذكر قريتائيم في سفر العدد (فصل ٣٢ ع ٣٧) ، وفي سفر يشوع بن نون (ف ١٣ ع ١٩) بين المدن الواقعة في نصيب سبط روبين وقد استردَّها الموآبيون منهم بعد مدة .

رابعاً : ضرب هؤلاء الملوك الحوريين أو الحوريم في جبل سعير، وقد سُمي الجبل وهذه القبيلة التي كانت تسكنه باسم سعير الجوري الذي ذكره وذريته الكتاب في سفر التكوين (ف ٣٦ ع ٢٠ وما يليه) . وهذا الجبل يمتد إلى الشرق والجنوب من البحر الميت وقد ظعن إليه عيسو بعد أن افترق عن أخيه يعقوب، إذ لم تسعهما أرض غربتهما لكثرة مواشيهما - كما في الفصل السالف ذكره من سفر التكوين - وأقام ثمة الحوريون والأدوميون ولد ادوم الذي هو عيسو . وقال بعضهم : إنه سُمي أدوم نسبة إلى احتلاله هذه البلاد التي كانت تُسمى ادوم قبله على ما يظهر من بعض الآثار المصرية . وقد ذكر موسى جبل سعير والأدوميين في سفر تثنية الإشتراع (ف ٢ ع ١) حيث قال : درنا حول جبل سعير أياماً كثيرة ، ثم كلمني الرب قائلاً : حسبكم أن تدوروا حول هذا الجبل فخذوا إلى الشمال ، ومر الشعب وقل لهم إنكم جائزون في تخوم اخوتكم بني عيسو المقيمين في سعير ، فسيخافونكم ، فتحرزوا جداً ، لا تناصبوهم فإني لست معطيكم من أرضهم شيئاً ولو موطئ قدم ، لأن جبل سعير قد وهبته لعيسو ميراثاً .

خامساً : ضربوا العمالقة والآموريين بعد أن رجعوا إلى عين مشفاط وهي قادس، وكانت مدينة الآموريين حصاصون تامار . أما العمالقة فذهب بعضهم إلى أنهم من ذرية عماليق بن اليفاز من ذريّة تمناع (تك ف ٣٦ ع ١٢) ، واليفاز هو ابن عيسو ، ولما كان عماليق هذا لم يولد إلا مدة مديدة بعد ابراهيم، فتأوّل هؤلاء آية الكتاب بمعنى أن كدرلاعومر ضرب سكان البلاد التي سُميت بعد ذلك بلد العمالقة نسبة إلى عماليق بن أليفاز بن عيسو . على أن المحققين صححوا ما رواه علماء العرب ، فقال بعض هؤلاء إن عماليق هو ابن حام بن نوح، وانه ولد عاداً ،

وعاد ولد شدَّاداً وشديداً. وقال ابن خلدون: «قال ابن اسحق وكان للاوذ (وهو لود بن سام) أربعة من الولد وهم: طسم وعمليق وجرجان وفارس». وقال أبو الفدا: وولد لسام عدة أولاد منهم لاوذ بن سام، وولد للاوذ فارس وجرجان وطسم وعمليق الذي هو أبو العماليق، ومنهم كان الجبابرة بالشام والفراعنة (أي الملوك الرعاة) في مصر». وقد نقل ابو الفدا قوله هذا برمته عن ابن الأثير في الكامل. وعليه فالأظهر والأقرب لنص الكتاب أن العمالقة الذين ضربهم كدرلاعومر ينتسبون إلى عماليق آخر غير ابن اليفاز، لا يتحقق أمن ولد حام هو، أم من ولد سام، لأن الكتاب لم يذكر ولداً للود بن سام، ولم يذكر لحام ابناً يسميه عماليق، فقد يكون من أحفادهم. وقال لانرمان إنه يظهر من أقدم التقليدات العربية أن أصل العمالقة من ذرية آرام ولوديم (أو لود) بن مصرائيم فهم من أصلين حامي وسامي. ومهما يكن فهم أقدم من عماليق حفيد عيسو. ويقوي هذا ما جاء في سفر العدد (ف ٢٤ ع ٢٠) حيث قيل في بلعام: لما استدعاه بالق ملك الموآبيين ليلعن شعب إسرائيل أنه «رأى عماليق فضرب مثله، وقال: أول الشعوب عماليق وعاقبته إلى الهلاك». فوصفه عماليق بأنه أول الشعوب لا يصدق على العمالقة لو كانوا من ولد اليفاز بن عيسو، إذ لا يكون تعاقب عليهم حينئذٍ إلا ثلاثة أو أربعة قرون. وأيضاً لو كان هؤلاء العمالقة من ذرية عيسو لونبهم موسى على تنكيلهم بأخوتهم بني إسرائيل، ولا أثر لهذا التونيب في أسفار موسى.

وأما عين مشفاط أي قادش فالأظهر أن موقعها على تخوم بلد ادوم، واطراف بلاد الكنعانيين، وأنه هناك كان خصام بني إسرائيل لموسى لقلة الماء. واخرج موسى الماء لهم من الصخرة الذي سُمي ماء الخصوبة (سفر العدد ف ٢٠). واسم مشفاط مشعر بشيء من ذلك لان معناه الخصومة أو القضاء ويؤيده ما ورد في الفصل المذكور (عد ١٤)، وهو ان موسى بعد معجزة إخراج الماء من الصخرة أنفذ رسلاً من قادش إلى ملك أدوم. فإذاً قادش هذه كانت في جوار بلاد الأدومين. وقال هيرودت (ك ٣ ف ٥): «إن بلاد السوريين الذين يُسمون فلسطينيين تمتد من فينيقية إلى جبال قادش، وما قادش، على ما أُري أقل اعتباراً من سرد» مدينة اليونان.

وأما الآموريون فهم ولد الأموري الرابع من أبناء كنعان، وكانت مساكنهم

الجبال الواقعة في غربي البحر الميت، وكانت لهم مواطن في شرقيه ايضاً. وقد أخذ موسى هذه البلاد من مليكهم سيحون ملك الآموريين وعوج ملك باشان كما سيجيء. وأما مدينتهم حصاصون تامار فيظن أنها عين جدي المعروفة الآن بهذا الاسم في غربي البحر الميت غير بعيدة عن أريحا. وتأويل حصاصون تامار مدينة النخيل لكثرة أشجاره فيها (كلمت في معجم الكتاب).

وأما دان التي وثب فيها ابراهيم وغلمانه على جيش الملوك الأربعة فشتت شملهم واسترد لوطاً وما غنموا من سدوم، فموقعها في سفح لبنان الغربي، وليست في محل بانياس بل على مقربة منه في محل تل القاضي. وصوبا التي استمر ابراهيم يطارد اعداءه إليها موقعها في محل قرية المزة على مقربة من دمشق على ما رأى بوجولا (في مراسلات المشرق) الذي تجول في هذه المحال، وتروى في البحث عنها. وغور السديم الذي تصافّت فيه عساكر المتحاربين كان قريباً من سدوم وعمورة.

عد ١٥٦

ملكيصادق الذي التقى ابراهيم عند عوده من حرب الملوك

جاء في سفر التكوين (ف ١٤ ع ١٨) أن ملكيصادق ملك شليم خرج للقاء ابراهيم عند عوده من حرب الملوك، وقدم خبزاً وخمراً لأنه كان كاهناً للّه العلي وبارك ابراهيم ودعا له، ورفع ابراهيم إليه العشر من كل ما كان معه من المال. وقد توفرت الأقوال في أصل ملكيصادق هذا، فروى القديس ايرونيموس أنّ اليهود يزعمون أن ملكيصادق إنما هو سام بن نوح، والقديس ايفانيوس أنّ السامريين أيضاً يزعمون كذلك. وقال أبو الفرج ابن العبري في تاريخ الدول: إن ملكيصادق هو ابن عابر أو أحد أحفاد سام. وزعم بعضهم انه من ذرية حام. وقال غيرهم إنه ابن صيدون بن كنعان. والأظهر والأشبه بالصواب ان ملكيصادق من ذرية سام، وأنّ عشيرته كانت من العشائر القليلة التي استمرت على الاعتقاد بوحدانية الله على ما رواه لانرمان (في مجلد ٦ صفحة ١٤٥). ولما كان الرسول قال في ملكيصادق (عبرانية فصل ٧ عد ٣) إنه لم يذكر له أب ولا أم ولا بدء أيامه، ولا منتهى حياته، فتوهّم بعض القدماء أنه ملك أو خليقة سموية مع أنه ليس المراد من

كلام الرسول إلا أن سفر التكوين أتى بذكره بغتةً، ولم يمهد له بذكر أبيه أو نسبه، ولم ينبئ بمولده ولا بمماته. وقد شبه الرسول المسيح به من حيث الحبرية وفضله عليه، بأن حبريته تدوم إلى الأبد (عبرانية فصل ٧). وذكر المرتل ملكيصادق متنبئاً على المسيح بقوله: «أقسم الرب ولم يندم أنك انت كاهن إلى الابد على رتبة ملكيصادق» (مزمور ١٠٩ عد ٤). وقال بعض الاباء منهم اكليمنضوس الاسكندري وكبريانوس: إن الخبز والخمر لم يقدمهما ملكيصادق لابراهيم، بل قدمهما محرقة لله شكراً له على نصره ابراهيم، فكانت ذبيحته خبزاً وخمراً كذبيحة المخلص غير الدموية. وتأويل ملكيصادق ملك البر، ويسمى ملك شليم أي ملك السلام. كما فسر الرسول (عبرانية فصل ٧). والاكثرون على ان شليم يراد بها اورشليم، وأن ملكيصادق كان ملكاً على هذه المدينة وحبراً لله فيها. ولكن ظن القديس ايرونيموس أن مدينة ملكيصادق هي مدينة سالم، وكان موقعها بجانب نابلس. وقال بعضهم إنها ساليم التي ورد ذكرها في بشارة يوحنا (فصل ٣ عد ٢٣) حيث قيل: «وكان يوحنا يعمد في عين نون بقرب ساليم لكثرة الماء هناك». والمعتمد عليه القول الاول بأنها أورشليم.

عد ١٥٧

تجديد الله مواعده لابراهيم وولادة اسماعيل

شكر ابراهيم لله لنصره على الملوك وسائر آلائه فتجلى له الرب في الرؤيا مشجعاً ابراهيم له ومجدداً وعوده، فناجاه إبراهيم قائلاً: ربي ما تعطيني وأنا منصرف عقيماً وقيّم بيتي اليعازر الدمشقي هو يرثني. فقال له الرب: لا يرثك هذا بل يخرج من صلبك من يرثك وتكون ذريتك كعدد نجوم السماء. فصنع ابراهيم إذ ذاك بامر الله الحفلة الرمزية الدالة على توطيد العهد بين آلله وبينه. فذبح بعض الحيوانات وشطرها أنصافاً، فرأى الرب مجتازاً بين ذبائحه بهيئة غمام ولهيب نار، ليدلّ على تقبله ذبائحه وإبرامه العهد معه. وكان من عوائدهم في تلك الأيام أنهم إذا شاءوا إبرام عهد ذبحوا ذبائح وشطروها، ومر المتعاقدون بينها كأنهم يقولون بلسان حالهم: فليشطرنا الله كهذه الذبائح إذا لم نقم بوعدنا ونبرّ إيماننا. وروى القديس أفرام السرياني (في تفسيره سفر التكوين): إن هذه العادة استمرت

عند الكلدان حتى أيامه . ثم أنذر الله ابراهيم « بأن نسله سيكونون غرباء في أرض ليست لهم (أي في أرض مصر) ، ويستعبدون لهم ويعذبونهم أربع مئة سنة » . وإنه سوف يعاقب معذبيهم ويخرجهم بمال جزيل من بلاد مضطهديهم بعد القرن الرابع ويردهم إلى أرض موعدهم .

وبعد أن أقام ابراهيم عشر سنين في أرض كنعان ، ويئست سارة من أن تلد له ولداً سألته أن يتزوج بهاجر المصرية أمتها التي يظن أنها من جملة هدايا فرعون لابراهيم رغباً في أن يكون له منها وارث . ففعل ابراهيم، وعلقت هاجر منه، فهانت مولاتها في عينيها . وشكت سارة أمرها إلى ابراهيم فقال لها : هي أمتك، اصنعي بها ما يحسن لكِ . فأذلتها سارة فهربت من وجهها . وظهر لها ملاك الرب وقال لها : إرجعي إلى مولاتكِ واتضعي لها ، ونبأها بأن الابن الذي يولد لها تسمية اسمعيل ، ويكثر نسله، وتكون يده على الكل، ويد الكل عليه . فعادت إلى مولاتها وولدت اسمعيل، وكان عمر ابراهيم إذّاك ستاً وثمانين سنة وتأويل اسمعيل سمع الله واستجاب .

ولما صار ابراهيم ابن تسع وتسعين سنة ، وكان عمر اسمعيل ثلاث عشرة سنة ، تجلى الله أيضاً لابراهيم ووعده بتكثير نسله وأثبت عهده معه ؛ وغير اسمه أبرام الذي تأويله أب سام وجعله ابراهيم بدلالة على الجمع. فيؤوّل بابي الجماعة أو الأب العام ، وغيّر اسم ساراي، الذي تأويله سيدتي أو أميرتي بالإضافة إلى ضمير المتكلم، وجعله سارة أو سيدة أو أميرة . وصرح لابراهيم بأنه يعطيه منها ابناً فضحك وقال في نفسه : ألابن مئة سنة يولد ؟ أم سارة وهي ابنة تسعين سنة تلد ؟ وسأل الله أن يحيي له اسمعيل . فحقق الله له أن سارة تلد له ابناً يسميه اسحق، وأنه يبارك اسمعيل، وينميه ويلد اثني عشر رئيساً، ولكنه يقيم عهده مع اسحق لا مع اسمعيل (تك ف ١٥ و ١٦ و ١٧) .

عد ١٥٨
أمر الله لابراهيم بالختان

جاء في سفر التكوين (فصل ١٧) أن الله أمر ابراهيم أن يختن كل ذكر منهم في اليوم الثامن بعد مولده علامة لعهده بينه وبينهم ، فاختتن ابراهيم وهو ابن

تسع وتسعين سنة، وختن ابنه اسمعيل وجميع مواليد بيته، وسائر المشترين بفضته كل ذكر من أهل منزله. قال بعضهم: كان الختان عند المصريين وغيرهم من الشرقيين قبل ابراهيم، وليس من يقيم نكيراً على اعتياد المصريين الختان قبل عهده، وقد عرفه مدة إقامته بين أظهرهم. وروى هيرودت (ك ٢ ف ١٠٤): إن الكلشيديين (الذين يعتبر هيرودوت أصلهم من مصر)، والمصريين والأحباش هم أقدم الناس في استعمال الختان، وإن الفينيقيين وسريان فلسطين يقرّون بأنهم أخذوا هذه العادة عن المصريين، على ان قوله في اعتياد الفينيقيين الختان غير صحيح، إذ جاء في نبوّة أشعيا (فصل ٣٢ عد ٣٠): «هناك امراء الشمال كلهم وجميع الصيدونيين الذين هبطوا مع القتلى ... وهم غلف» أي غير مختونين. وأما قوله في المصريين فثابت بالنقول والآثار. قال شباس (في مجلة الآثار القديمة مجلد ٣ صفحة ٢٩٨): إنه اكتشف في الكرنك صورة تمثل أولاداً يجري عليهم الختان وعمرهم من ست سنين إلى عشر. وحقق فيلكنسون (Wilkinson) أن هذه الصورة من عهد الدولة الرابعة في مصر أي نحو سنة ٢٤٠٠ قبل الميلاد. ويُرجّح أن المصريين استعملوا للختان موسى من حجر، كما استعملت في عهد موسى ويشوع بن نون (خروج ف ٤ عد ٢٥) ويشوع (ف ٥ عد ٢) ولا موجب حينئذ لوضع الحجر موضع آلة الحديد أو الفولاذ إلا تقليد القدماء. وهذا يحملنا على القول بأن الختان كان منذ عصر الحجر أي قبل استعمال آلات القطع من نحاس أو حديد أو فولاذ.

إنّ الله لم يقتصر في وحيه إلى الآباء على ما كانوا يجهلون، بل أرشدهم أحياناً أن يتّخذوا طرائق يعرفونها من قبل، ويبارك تلك الطريقة ويجعلها مقدسة. فالذبائح مثلاً كانت معروفة من أقدم الأيام قبل أن يوحي إلى موسى كيفية تقدمتها، وطريقة التعميد كانت معروفةً قبل أن يرفعها المخلص إلى مقام السر ويؤيده تعميد يوحنا، فكذا أمر الله ابراهيم بالختان، وكان عرفه في مدة إقامته في مصر، إلّا أنه كان عند المصريين وغيرهم أمراً صحيّاً تقصد به النظافة، فجعله الله علامة لميثاقه مع ابراهيم وذريته، وعليه فكان عند اليهود مأموراً ولازماً وكان عند المصريين وغيرهم اختيارياً ومستحباً. وكان المصريون يختنون أولادهم في السادسة إلى الرابعة عشرة من عمرهم ذكوراً وإناثاً، وأما اليهود فيختنون بحسب أمر الله ابناءهم الذكور فقط في اليوم الثامن بعد مولدهم. وكانت أكثر قبائل العرب قبل الإسلام

أيضاً تستعمل الختان متصلاً إليها من اسمعيل. وكان لوط اوصل استعماله إلى العمونيين والمآبيين. وعيسو إلى الادوميين وقد حفظ الأحباش والقبط المسيحيون عادة الختان بمنزلة تقليد لا علاقة له بالدين.

عد ١٥٩

ظهور الملائكة الثلاثة لابراهيم وسارة وانطلاقهم إلى سدوم وتدميرها

انبأنا الكتاب في الفصلين الثامن عشر والتاسع عشر من سفر التكوين، أنه بينما كان ابراهيم جالساً بباب خبائه عند بلوط ممرا، نظر ثلاثة رجال وقوفاً أمامه، فبادر للقائهم وسجد لهم، وألحَّ عليهم أن يضيفوه في خبائه، فأولم لهم وظهر انهم من ملائكة الله، وقالوا: إنهم سيعودون في السنة المقبلة ولسارة ابن، فسمعت سارة وهي في الخباء فضحكت، فلامها الملائكة لامترائها في أنّ الله على كل شيء قدير. وقام الملائكة من هناك واستقبلوا جهة سدوم، ومضى ابراهيم معهم ليشيّعهم، فدخل اثنان منهم سدوم، وبقي ابراهيم مع ثالثهم، فأعلمه ما يحل بسدوم لتناهي أهلها في الفواحش، فطفق ابراهيم يتوسل إليه ألا يهلك البار مع الأثيم.

ولما لم يوجد خمسون باراً ولا خمسة وأربعون ولا أربعون ولا ثلاثون ولا عشرون ولا عشرة، وكان الملاكان الآخران شهدا فحش أهل سدوم عياناً، ولم ينجوا منهم إلّا بضربهما لهم بالعمى. فأخرجا لوطاً وبنتيه وامرأته من سدوم وأمطر الرب عليها وعلى ما جاورها من المدن كبريتاً وناراً، فدمرها وأباد سكانها، ونجا لوط وبنتاه بفرارهما إلى مدينة صغيرة، وسأل الملاكين العفو عن تدميرها لأنها صغيرة فسميت صوعر أو زوعر (أي الصغير أو الصغيرة) وكان اسمها قبلاً بالعُ. والتفتت امرأة لوط إلى ما وراءها خلافاً لأمر الملاكين فصارت نصب ملح، وصعد لوط من صوعر فأقام في مغارة في الجبل. وتوهمت بنتاه ان العالم باد كله بطوفان نار، ولم يبق فيه رجل إلّا أبوهما، وأنه يحلّ لهما مضاجعة أبيهما حفظاً للنوع وجرياً على ما كان بين ولد آدم. ففعلت الكبرى بعدما أسكرت أباها، وضارعتها اختها في فعلتها. فحملتا وولدت الكبرى إبناً سمته مواب، ومعناه من أبي وهو أبو الموآبيين، وولدت الصغرى إبناً سمته عمون، ومعناه ابن شعبي وهو أبو العمونيين.

ذهب بعضهم أن مطر الكبريت والنار كوّنه الله في الجوّ بمعجزة، وأنزله على هذه المدن فأحرقها، وذهب غيرهم وهو الأظهر أن ذلك كان انفجاراً بركانياً عجل الله فيه حركة الفواعل الطبيعية، وقوّاها، فكان هذا الإنفجار الذي هو معجزة حقة، عاقب الله به أهل هذه المدن الأربع؛ وهي سدوم، وعمورة، وأدمة، وصبوئيم لتناهيهم في الفواحش. فأهلكهم ودمّر مدنهم. وترى ثمه آثار هذا الإنتقام إلى الآن. ويرجّح هذا المذهب ما قاله «الكتاب» (ف ١٩ عد ٢٧) وهو: «فبكّر إبرهيم في الغد إلى الموضع الذي وقف فيه أمام الرب فتطلّع إلى جهة سدوم وعاموره وسائر أرض البقعة ونظر، فإذا دخان الأرض صاعد كدخان الأتون.

وقد أثبت كثير من العلماء القدماء إحراق سدوم وما جاورها؛ منهم استرابون (في ك ١٦ من الجغرافية) وتاشيتوس (في ك ٥ من تاريخه). وقد ضارع كاتب السفر المنزل بوصفه سهول سدوم بالخصب وكثرة السكان وتدمير مدنها بنار من السماء، ومنهم ايضاً سولين بوليستر (في ف ٣٨ في اليهودية) وبلينيوس (في ك ٣ من التاريخ الطبيعي)، ويوسيفوس (في ك ١ ف ١١ من تاريخ اليهود وك ٤ ف ٢٧ من تاريخ حربهم) وغيرهم. وأخذ شعراء اليونان عن هذا التاريخ عدة روايات منها الرواية الشهيرة الموسومة برواية أُرفا واوريديس. وقد أثبتها كثير من القدماء منهم ديودورس الصقلي (ك ٤ من مكتبته)، واوفيد (ك ١٠ و ١١)، وفرجيل (في آخر ك ٤ من أشعاره) وغيرهم. ثم رواية الشاعر سيمونيد ورواية فيلامون وبوشيس التي أثبتها اوفيد وملخصها: أن المشتري وعطارد تنكرا فبلغا محلاً في جانب بحيرة كانت قبلاً أرضاً مأهولة، فقرعا ابواباً فلم يؤوِهما احد. إلى أن لقيا شيخاً اسمه فيلامون وامرأته، واسمها بوشيس أكرما مثواهما وأصلحا لهما مأكلاً وغسلا أرجلهما، وأعدّا لهما مرقداً. وبعد أن تعشى الضيفان كشفا للشيخ وزوجه حقيقة حالهما، وأنهما سيدّمران المدينة وما جاورها لفحش سكانها، وينجيان مضيفهما وامرأته فقط، وأن يخرجا من البيت عاجلاً، ويتبعاهما إلى الجبل. فبلغا سفحه فإذا البلاد تغرقت، وأصبحت بحيرة إلا بيتهما الصغير، فتولاهما الغم لهلاك قومهما والمسرة لنجاتهما، ولا أشكال ولا مرية أنَّ هذا الكلام منتحل عن «الكتاب» مغيراً فيه اسم الملاكين باسمَي المشتري وعطارد واسمَي لوط وامرأته باسمَي فيلامون وبوشيس (انتهى ملخصاً عن كلمت في معجم الكتاب في كلمة لوط).

قال بعضهم: إنّ سدوم وما جاورها من المدن لم تدمرها النار فقط بل غطى أيضاً أرضها الماء الذي تكونت منه بحيرة لوط، وعليه فكان موقعها محل البحيرة الآن. حتى عيّن بعضهم موقع سدوم تحت مياه الجانب الغربي من البحيرة. وأسند هذا القول ذووه إلى ما جاء في نبوّة إرميا (ف ٤٩ عد ١٨ وف ٥٠ عد ٣٨) وهو: كما قلب الله سدوم وعمورة وما جاورهما .. فلا يسكن هناك انسان ولا يتغرب فيها ابن البشر». وفي نبوّة عاموس (ف ٤ عد ١١): «فقلبتكم كما قلب الله سدوم وعمورة، فكنتم كشعلة منتشلة من الحريق». وفي نبوة صفنيا (ف ٢ عد ٦): «ليكوننَّ مواب كسدوم، وبنو عمون كعمورة، ملكاً للقرّاص، وحفرة للملح، وخراباً إلى الأبد».

وقال آخرون: إن موقع هذه المدن كان على شاطئ البحيرة. وإنه جدد في ما بعد بناؤها، ومن جملة ما استشهدوا به لقولهم توقيع ساويروس أسقف سدوم بين تواقيع الأساقفة على المجمع النيقوي الأول الذي عقد سنة ٣٢٥ للميلاد. ولا يُبعد أن بنيت هناك مدينة حديثة، وسميت باسم القديمة. وقد تكشف لنا اكتشافات هذا العصر العديدة عن وجه الحقيقة. فقد روت بعض الجرائد أن لجنة علمية إنكليزية تُعنى بهذا الكشف. وقال الأب فيكورو (في الموجز الكتابي عد ٣٥١ في الحاشية): «يظهر من الإكتشافات الحديثة أن بلاد سدوم كانت ممتدة من طرف بحر الميت الجنوبي إلى شاطئ الأردن الغربي... والأظهر أن موقع سدوم كان في جانب جبل أسدوم في الجنوب الغربي من البحر الميت. ولم تغرق بالماء كما ظن كثيرون، فكانت حيث يرى الآن كثير من قطع الملح المتبلور. وقد اهتدى لينش الأمريكي في هذا المحل إلى عمود ملح منفرد، فلعله تمثال امرأة لوط الذي ذكره يوسيفوس (كما سيأتي)، وباقي المدن كان في سفح الجبل في الغور. وصوعر كانت في مصب وادي الصافية أو وادي الذراع».

وأما قول الكتاب بأن امرأة لوط صارت نصب ملح، فذهب بعضهم إلى أن مفهومه على ظاهره. فقال يوسيفوس (في تاريخ اليهود في ك ١ ف ١١): إن هذا النصب أو العمود كان يشاهد هناك إلى أيامه، وقال كلمت (في تاريخ العهد القديم): حقق بعض القدماء أن امرأة لوط صارت عمود ملح حقيقة لا تؤثر به التغيرات الجوية، فاستمر يمثل امرأة، وإن في كتب بعض الجوالة أن سكان تلك البلاد دلوهم على هذا التمثال عن بعد. ولكن ظهر لدى تفحص أقوالهم أنها لا

تخلو من مناقضات وحكايات. وقال بعضهم إنّ موسى لم يشأ أن يقول الا امرأة لوط لإبطائها في سيرها، وتتالي التفاتاتها إلى ما ورائها خلافاً لأمر الملاكين، فأدركها مطر الكبريت والنار فصارت كموميا مصر موعبة من القار والكبريت. وزعم بعضهم أن المراد أنه أقيم نصب من حجر ملحي على قبرها، وزعم آخرون ان قول الكتاب رمزي يراد به أن امرأة لوط صارت نصب ملح رمزي يصلح فساد الناس عند تبصّرهم بما حلّ بها لمخالفتها.

عد ١٦٠

ارتحال ابراهيم إلى جرار ومولد اسحق

غادر ابراهيم ممرا في جانب الخليل، وانتجع جرار في جنوبي غزّة وشرقي خان يونس وهي المعروفة الآن باسم أم الجرار. وكان ملكها حينئذ يسمى أبيملك، ولقن ابراهيم سارة أن تقول إنها اخته كما فعل عند انحدارهما إلى مصر، وهام أبيملك بها فأخذت إلى داره، لكن الله إبتلاه بمرض منعه الدنو منها. وقيل له في الحلم إنك هالك بسبب المرأة التي أخذتها فإنها ذات بعل. فاعتذر بجهله أنها امرأة، واستدعى ابراهيم فلامه على قوله إنها أخته. فقال ابراهيم: «على الحقيقة هي أختي إبنة أبي غير أنها ليست إبنة أمي». وقد مرّ الكلام بهذا الشأن في عد ١٥٤، فأعطى أبيملك ابراهيم غنماً وبقراً وعبيداً وإماءً، وردَّ عليه سارة امرأته، وقال لسارة: أعطيت أخاك ألفاً من الفضة تكون لكِ حجاب عين حيثما ذهبتِ، واذكري أنكِ أُخذتِ. فكأنه يقول: لتشتري حجاباً تغطين به وجهكِ حيثما ذهبت لئلا تؤخذي مرةً أخرى. وغصب عبيد أبيملك بئر ماء كان احتفرها رعاة ابراهيم، فكان لذلك نزاع أدّى إلى معاهدة بين أبيملك وابراهيم. وأقام ابراهيم سبع نعاج من الغنم وحدها وقال لأبيملك: هذه سبع نعاج تأخذها من يدي لتكون شهادة لي بأني حفرت هذه البئر، ولذلك سُمي ذلك المكان بئر سبع، وما برح هذا اسمه إلى الآن. فهناك حلف ابراهيم وأبيملك وفيكول رئيس جيشه إبراماً للعهد بينهم (تك ف ٢٠ و ٢١).

وولدت هناك سارة لابراهيم إبناً سمته اسحق وهو لفظ عبراني معناه ضحك، يشار به إلى ضحك سارة عندما بُشّرت بأنها تلد ابناً في شيخوختها.

وكان ابراهيم ابن مئة سنة وسارة بنت تسعين سنة حين ولد لهما اسحق وخُتن اسحق في اليوم الثامن من مولده بحسب أمر الرب لأبيه. قال يوسيفوس (ك ١ ف ١١ من تاريخ اليهود): «ما برحت عادة الختان في اليوم الثامن يجري عليها اليهود، على ان العرب لا يختنون ابناءهم إلّا في الثالثة عشرة من عمرهم تمسكاً بأن اسمعيل جدهم لم يُختن إلّا في هذا العمر». وصنع ابراهيم مأدبة عظيمة في يوم فطام اسحق. وقال كلمت في تاريخ العهد القديم: قال بعض اليهود القدماء لم يكن الأطفال يفطمون في ذلك العصر إلّا للسنة الثانية عشرة بعد مولدهم. وقال آخرون: بل كانوا يفطمون في الخامسة من عمرهم. والذي أراه أنهم لم يكونو يرضعونهم إلّا سنتين أو ثلاثاً. فإننا نرى أم المكابيين تقول لأحد أبنائها (مكابيين ٢ ف ٧ عد ٢٧): «قد أرضعتك ثلاث سنين». وأفتى فقهاء اليهود بأنه يلزم الام أن ترضع ولدها سنتين. ولا يتيسر إرضاع ولدين أو ثلاثة معاً إذا ولدت الأم أولاداً في خمس سنين أو أكثر.

عد ١٦١

خروج اسمعيل من بيت أبيه ابراهيم وزواجه وولده

كانت سارة تحب اسمعيل قبل أن تلد اسحق، ولكن بعد أن ولدته خشيت أن يزاحم أخاه في ميراث أبيهما، ورأته ذات يوم ساخراً فقالت لابراهيم: اطرد هذه الأمة وابنها من بيتك، فساء سؤالها ابراهيم ونكده، فقال الله له: كل ما تقوله لك سارة فاسمع لقولها، ولا يسوءك أمر اسمعيل وأمتك، فإنّه سيكون من اسمعيل أمّة لأنه نسلك. فدفع ابراهيم في الغداة خبزاً وقربة ماء إلى هاجر فمضت مع ابنها تائهة في برية بئر سبع، ونفذ الماء من القربة وكادا يموتان عطشاً، فهدى ملاك الله هاجر إلى بئر ماء فملأت القربة وسقته. فشب اسمعيل في برية فاران وكان رامياً بالقوس، واتخذت له أمه امرأة من أرض مصر، لأن هاجر مصرية وقد وهبها فرعون لسارة عند انحدارها مع ابراهيم إلى مصر كما مرّ.

وعن ابن خلدون في تاريخه: «إن اسمعيل شبَّ بين قبيلة جرهم، وتعلم اللغة العربية منهم، وأعجبهم، وزوّجوه امرأة منهم. وماتت أمه هاجر فدفنها في الحجر». ولعل امرأته الجرهمية غير المصرية التي أزوجته بها أمه كما قال الكتاب.

وروى ابن الأثير في الكامل، وأبو الفدا وغيرهما زواج اسمعيل بامرأة من بني جرهم وقالوا : إن الماء الذي اهتدت إليه هاجر إنما هو بئر زمزم نبعت من دحض اسمعيل الأرض بقدميه . وقال ابن خلدون عن السدي : ان جبرائيل هو الذي همز له الماء بعقبه . ومما قالوه : إن ابراهيم كان يزور اسمعيل ، وإنه وجد له امرأة فظة غليظة فأوصاها لاسمعيل بأن يحول عتبة بابه ، وأراد به أن يطلّقها فطلّقها ، وتزوج أخرى. ولما زاره أبوه في غيبته أحسنت تحيته ومثواه ، فأوصاها أن تقول لاسمعيل : بأنه رضي عتبة بابه ، ففهم منه أنه يريد إمساكها فأمسكها (ابن خلدون في تاريخه) . وأن الله أمره ببناء الكعبة وهي البيت الحرام، وأن يعينه اسمعيل عليه ، وأن هذا البيت استمرّ على ما بناه ابراهيم إلى أن هدمته قريش بعيد ظهور الإسلام (ملخص عن أبي الفدا في التاريخ) .

وذكر الكتاب أسماء بني اسمعيل (تك ف ٢٥ عد ١٣) فقال : « نبايوت بكر اسمعيل وقيدار وادبئيل ومبسام ومشماع ، ودومة ومسا وحدار ويتما ويطور ونافيش وقدمة ... إثنا عشر زعيماً لقبائلهم » وولد له بنت اسمها بسمة تزوجها عيسو بن عمها اسحق (تك ف ٣٦ عد ٣) . والذي ذكره ابن الأثير في الكامل : ان السيدة بنت مضاض الجرهمي « ولدت لاسمعيل اثني عشر رجلاً : نابت وقيدار وازيل وميشا ومسمع ودما وماش وآزر وقطورا وقاقس وطميا وقيدمان . ومن نابت وقيدار ابني اسمعيل نشر الله العرب » أي العرب المستعربة ، وأكثرهم على أن اسمعيل هو جد هذه الطبقة من العرب. قال أبو الفدا (في تاريخه) : « وقيل لهم العرب المستعربة لأن اسمعيل لم تكن لغته عربية بل عبرانية . ثم دخل في العربية، فلذلك سمّي ولده العرب المستعربة » . واختلط هؤلاء بالعرب العاربة الذين هم من ذرية يقطان أو قحطان بن عابر بن شالح بن ارفخشاد بن سام بن نوح .

عد ١٦٢

امتحان ابراهيم بذبح ابنه اسحق

لم ينبئنا الكتاب شيئاً عن ابراهيم بعد مولد اسحق إلى امتحان الله له بذبحه . وكان عمر اسحق إذاك خمساً وعشرين سنة على ما روى يوسيفوس (في تاريخ

اليهود ك ١ ف ١٣). وقال بعضهم: كان عمره أكثر من ذلك، وقد مكث ابراهيم في كل هذه المدة في جرار وبرية بئر سبع خلافاً لمن زعموا أنّ ابراهيم كان قد عاد إلى حبرون عند امتحانه بذبح ابنه تمسكاً بآية الكتاب (تك ف ١ عد ٣٤): «ونزل ابراهيم أرض فلسطين أياماً كثيرة». مع أن بئر سبع وما جاورها من أرض فلسطين أيضاً ومضيه لذبح ابنه من جرار لا من حبرون ظاهر من قول الكتاب إنّه لم يبلغ جبل مورية الذي هو في اورشليم إلّا في اليوم الثالث بعد سفره، ولو كان مضى من حبرون التي هي الخليل لبلغ في يوم واحد ولا أكثر من يومين، ويظهر ذلك ايضاً من قول الكتاب (تك ف ٢٢ ع ١٩):

«ثم رجع ابراهيم إلى غلاميه (من جبل موريه) فقاموا ومضوا معاً إلى بئر سبع وأقام ابراهيم ببئر سبع» فإذاً من بئر سبع بكّر ابراهيم وأكفّ حماره وأخذ معه غلامين واسحق ومضى إلى الموضع الذي أشار له الله إليه وهو أرض مورية. وفي اليوم الثالث رفع ابراهيم طرفه فأبصر الموضع من بعيد؛ وترك الخادمين مع الحمار في سفح الجبل، وأخذ اسحق وجعل حطب المحرقة عليه. فقال له اسحق: هذه النار والحطب فأين الحمل للمحرقة؟ فقال له: الله يرى له الحمل لها. ولما افضيا إلى الموضع المعين بنى ابراهيم المذبح، ونضد الحطب، وأوثق اسحق وألقاه على المذبح، وأخذ السكين ليذبح ابنه، فناداه ملاك الرب أن لا تمدد يدك إلى الغلام. ورفع رأسه فإذا بكبش وراءه معتقل بقرنيه، فأخذه واصعده محرقة بدل ابنه. ونادى ملاك الرب ابراهيم ثانية قائلاً: بنفسي أقسمت يقول الرب بما أنك لم تذخر ابنك وحيدك لأباركنّك واكثرنّ نسلك كنجوم السماء، وكالرمل الذي على شاطئ البحر، ويتبارك بنسلك جميع أمم الأرض، ورجع ابراهيم إلى بئر سبع كما مر. وأما جبل مورية فقال بعضهم هو المحل الذي بُني فيه بعدُ هيكل سليمان، وقال آخرون هو جبل الجلجلة، وزعم السامريون أنه جبل غريزيم حيث بُني بعدُ هيكلهم.

عد ١٦٣

موت سارة ودفنها في المغارة المضاعفة

عاد ابراهيم من بلاد جرار فأقام في حبرون (الخليل) حيث كان أولاً.

وأدركت المنية سارة وعمرها مئة وسبع وعشرون سنة قبل زواج اسحق ابنها . فأقبل ابراهيم يبكيها، وسأل بني حث ، وهم فصيلة من الحثيين – كما مرّ – أن يملكوه أرض قبر ليدفنها . ويتبين منه أنه استمر إلى يومئذٍ من الرحل لا يملك أرضاً فأجابوه : إنما أنت زعيم الله في ما بيننا في خيار قبورنا ادفن ميتك . فقال : إسألوا لي عفرون بن صوحر أن يعطيني مغارة المكفيلة (المضاعفة من كَفِل او كِبِل العبرانية بمعنى ضاعف) التي له في طرف حقله بثمن كامل . وكان عفرون جالساً بين القوم فقال لابراهيم: الحقل قد وهبته لك، والمغارة التي فيه أيضاً هبة لك مني على مشهد بني قومي . فتبصر ما أقدم هذه المجاملات في بلادنا وما برحت تجري فيه . فإن عفرون ذكر بعداً أن أرضه تساوي أربع مئة مثقال فضة . فوزن له ابراهيم الفضة التي ذكرها مما هو رائج بين التجار، فصار هذا الحقل ملكاً لابراهيم دفن فيه امرأته سارة في المغارة المضاعفة ، ودُفن بعدها هناك ابراهيم . واسحق ولية ويعقوب بعد نقل جثته من مصر . وأما راحيل فدفنت على مقربة من بيت لحم . ورفقة لم يذكر الكتاب مدفنها، ولكن روى يوسيفوس (ك ١ ف ١٩) أنها أيضاً دُفنت في هذه المغارة .

روى الأب فيكورو (في كتابه الموسوم بالكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ١ صفحة ٤٨٦) : إن موقع المغارة المضاعفة معروف بعينه، فهي في جامع الخليل المعروف بجامع ابراهيم ، ويحدق به سور رفيع من أبدع آثار فلسطين، وقد حمل على العجب جميع الجوالة الاوربيين من سائح بردو الذي طاف هذه البلاد سنة ٣٣٣ للميلاد إلى العالِم دي فوكوا الذي تعهدها منذ بضع سنين . وقد سمح الباب العالي للأمير دي غال وليّ عهد إنكلترا سنة ١٨٦١م أن يزور هذا المقام، لكنه رأى مدخل المغارة ولم يدخلها .

ثم أجاز ذلك للمركيز دي بوت الإنكليزي سنة ١٨٦٦م . ولوليّ عهد المانيا فريدريك الثاني سنة ١٨٦٩م. فلم يتمكنا من أن يطرفانا بنبأ مهم عن داخل المغارة . على أن بياروتيّ المهندس الإيطالي أحد مستخدمي الدولة العلية ، وفق لأن يدخل جامع إبرهيم ثلاث مرات في ٨ ت[٢] سنة ١٨٥٦م ثم في ٧ ك[٢] و ٢٥ آب سنة ١٨٥٩م . على أن ما أتحفنا به قليل الأهمية، منه اكتشافه ان المغارة مضاعفة حقيقة لانقسامها إلى طبقتين عليا وسفلى . ومنه رؤيته بعض المدافن عن بعدٍ . بيد أنه قد تلي في جمعية الكتابات القديمة في ٢٦ ك[٢] سنة ١٨٨٣م

خطاب حوى فقرة تاريخية من كتاب مجهول مؤلفه. وقد خطّ في القرن الثاني عشر إذ كان الصليبيون في فلسطين. وملخص تلك الفقرة: ان راهباً اسمه أرنول كان يسكن دير حبرون اهتدى في سنة ١١٢٠م إلى عظام الآباء في المغارة المضاعفة، إذ أمره رئيسه أن يبحث في أرضها، فبحث فوجد أولاً عظام يعقوب ثم وجد في القرب من موضع رأسه مغارة أخرى لقي فيها بقايا ابراهيم واسحق. ولدن كشفه هذا الكنز أسرع يبشر الرئيس وإخوانه به فشملهم السرور، وأقاموا الصلوة والشكر لله، وأقفل الرئيس باب المغارة كيلا يدخلها احد دون اذنه. وبعد أن أتم الأب فيكورو رواية هذه الفقرة قال: ولو بينت لنا هذه الشهادة، بمَ عرف الراهب أرنول أن العظام التي وجدها هي بقايا أولئك الآباء لحسبناها قاطعة، فترك هذا البيان يجعل الشهادة قاصرة مشكوكاً فيها، ولاسيما ان الكتاب أثبت ان جثة يعقوب حنطت تحنيط المصريين موتاهم فلمَ لم يجد أرنول إلا عظامه، وبمَ عرفها؟

وهل يراد بالأربع مئة مثقال من الفضة التي دفعها ابراهيم فضة مسكوكة او وزن منها ففي ذلك نظر، فعادة وزن الفضة جرى عليها الكلدان والكنعانيون. وكلمة شقال العبرانية المستعملة في هذه الآية معناها الوزن. ويراد بها أحياناً نوع من المسكوكات ولا نجد اسم المثقال في التوراة قبل هذه الآية، وقد عبر الكتاب عما دفعه ابيملك إلى سارة بألف من الفضة دون ذكر المثقال. ومهما يكُ من الأمر فلا نجد في الكتاب ذكراً للنقود المسكوكة إلا بعد السبي البابلي. واول من بدأ بسك الدراهم عند اليهود إنما هو سمعان المكابي. وكان عند المصريين في عهد ابراهيم خواتم من ذهب وفضة ترى صورها على آثارهم، وكانت متساوية وزناً فيتعاملون بها تعاملنا بالنقود، ولا يعلم ما كانت قيمة الفضة حينئذٍ في فلسطين. فلا يعلم قدر ما دفعه ابراهيم إلى عفرون. ولكن إذا عُدّل أن المثقال كان يساوي فرنكين وأربعة وثمانين سنتيماً كما كان في أيام المخلّص. كان الثمن الذي دفعه ابراهيم ألف ومائة وستة وثلاثين فرنكاً (ملخص عن كتاب فيكورو في المحل الآنف الذكر).

عد ١٦٤

زواج اسحق

لما طعن ابراهيم في سنه استدعى اليعازر الدمشقي قيّم بيته وقال له: أن ضع

يدك تحت فخذي وهذه إشارة لليمين استعملها ابراهيم ويعقوب حفيده، مراداً بالفخذ فيها على ما فسر الحجري الولادة والحياة، فكأن الحالف يقول: أعدمني الله الحياة إن لم أبرّ في يميني. واستحلف ابراهيم اليعازر أن لا يزوج ابنه اسحق بنت من الكنعانيين، بل يذهب إلى ما بين النهرين، ويختار له زوجة من عشيرته. وحذّره من أن يردّ ابنه إلى هناك. فأخذ اليعازر عشرة جمال من جمال مولاه وحلياً وهدايا، وبلغ حاران مساءً، وأناخ الجمال عند بئر الماء وصلى إلى الله أن يجعل الفتاة التي يسألها أن تسقيه، وتقول له: «اشرب وأنا أسقي جمالك أيضاً». تكون من اعدها الله زوجة لعبده اسحق. وقبل فراغه من صلاته وفدت رفقة بنت بتوئيل بن ناحور أخي ابراهيم، فسألها أن تسقيه فأسرعت وأنزلت جرتها على يدها، وسقته وقالت: استقي لجمالك أيضاً. فتيقن انها من أعدّها الرب امرأة لابن مولاه، وأخذ خرصاً من ذهب وزنه نصف مثقال، وسوارين ليديها وزنهما عشرة مثاقيل ذهب، فدفع ذلك إليها. ويستدل من هذا على قدم عادة التحلي بالخرص والسوار، وهل كان الخرص يعلق بالأنف أو الأذنين؟ فالظاهر انه كان حلية للأنف وتلك عادة قديمة حفظها العرب وغيرهم من الشرقيين إلى الآن. ودليله صغر الخرص، وكونه فرداً. ولو كان للأذنين لكان زوجاً ووزنه أكثر من نصف مثقال. ويؤكده قول «الكتاب» بعد ذلك: «جعلت الخرص في انفها» (تك ف ٢٤ ع ٤٧). وأسرعت رفقة فأخبرت أخاها لابان، وأتى إلى البئر يدعو اليعازر للضيافة فأتى، ولم يشأ أن يذوق طعاماً قبل أن يصرّح بمقصده، فقضوا سؤاله، وارتضت رفقة أن تمضي معه في اليوم التالي. فسار بها تصحبها جواريها. وكان اسحق يوم وصلوا خرج إلى الصحراء، فرأى الجمال مقبلة، ورفعت رفقة طرفها، وإذ عرفت أنه اسحق نزلت عن الجمل، وأخذت النقاب فاستترت به. وهذا دليل على قدم العادة في استتار النساء في المشرق، ولا سيما عند اللقاء بمن يخطبهنّ. فأدخلها اسحق خباء سارة أمه، وصارت له زوجة. فاحبها وتعزّى بها عن أمه (تك ف ٢٤).

عد ١٦٥

زواج ابراهيم بقطورة وولده منها وموته

قال الكتاب (تك ف ٢٥ ع ١): «عاد ابراهيم فأخذ زوجةً اسمها قطورة

فولدت له زمران ويقشان ومدان ومدين ويشباق وشوحاً» . قال علماء اليهود : ليست قطورة إلا هاجر نفسها استردها ابراهيم بعد وفاة سارة . وظنّ بعضهم أن قطورة كنعانية اصلاً . وقال ابن خلدون : إنها بنت يقطان من الكنعانيين . وروى عن السهيلي أنه كان لابراهيم أولاد آخرون ، خمسة من امرأة اسمها حجين أو حجون بنت أهيب . وإن الطبري سمى هذه المرأة الأخرى رعوة . وفي قولهم هذا نظر ولا أُراهُ يضاد الكتاب بل في الكتاب إشارة إليه بقوله (عد ٥) : « وأعطى ابراهيم جميع ماله لاسحق ، ولبني السراري التي لابراهيم وهب ابراهيم هبات وصرفهم عن اسحق ابنه في حياته شرقاً إلى ارض المشرق . ومن الغريب ان يتزوج ابراهيم بقطورة وعمره مائة واربعون سنة ، وأن يولد له ستة اولاد . فقال بعضهم ، منهم القديس اغوسطينوس (في ك ٣ رداً على يوليانوس) : إن الله حفظ فيه قوته على كبر سنه تكثيراً لنسله . وقال آخرون : إنه تزوج بقطورة قبل وفاة سارة ، فكانت سرية جعلها امرأة بيته بعد موت سارة . وفي الآية الآنف ذكرها إشارة إلى هذا . وقال : كلمت ان الأصل العبراني يحتمل أن يترجم : « وكان ابراهيم أخذ زوجة اسمها قطورة» إلى آخر الآية .

وكان أبناء ابراهيم أصولاً لبطون وفصائل من العرب . ومن مدان ومدين المدينيون الذين كانت مواطنهم في شرقي البحر الميت وجنوبي بلاد مواب . وكانت عاصمة بلادهم تسمى مدين أيضاً وهم الذين ضربهم موسى وأثخن في ارضهم ، وقتل فنحاس بأمره ملوكهم الخمسة ، وسبى نساءهم وأطفالهم عقاباً لإغراء بناتهم بني إسرائيل بالفحشاء . وعبادة بعل فغور كما في سفر العدد (ف ٢٢ و ٢٥ و ٣١) . وهم الذين كسرهم هدد بن ملك ادوم كما جاء في سفر التكوين (ف ٣٦ عد ٣٥) . وقد ضايقوا بني اسرائيل في عهد القضاة فكسرهم جدعون وبدد شملهم (قضاة ف ٦ و ٧) . وكان مدينيون آخرون يسكنون في الجانب الشرقي على البحر الأحمر والى بلادهم فرّ موسى من وجه فرعون ، وتزوج منهم بصفورة بنت يترو كاهن مدين الذي يسميه المؤرخون العرب شعيباً ولأهل العلم في أصل هؤلاء قولان : فمن قائل إن أصل كل المدينيين واحد وهو مدين بن إبرهيم من قطورة ، وبه قال كثير من المؤرخين العرب منهم ابن الأثير في الكامل ، حيث روى عند ذكر أولاد إبرهيم : إن « أهل مدين قوم شعيب من ولد مدين » . وهو الظاهر من كلام العلامة لانرمان (في كلامه على بني إسرائيل) إذ جعل المدينيين قبيلة واحدة مواطنها بين البحر الميت وخليج البحر الأحمر .

ومن قائل : إن أصل المدينيين سكان شواطئ البحر الأحمر من ولد كوش بن حام . وقد استدل بأن الكتاب وصف (سفر العدد ف ١٢ ع ١) صفورة امرأة موسى المدينية بكوشية أو حبشية . ويظهر من قول حبقوق النبي (ف ٣ ع ٧) : « رأيت اخبية كوش تحت البلاء وشقق أرض مدين رجفت » . ان اسمَيْ كوش ومدين مترادفان ولا أقل من أن بلاد أحدهما تتاخم بلاد الآخر . وقد ذكر المؤرخون العرب هذا الخلاف منهم أبو الفدا حيث قال في تاريخه : « وقد اختلف في نسب شعيب (حمي موسى المديني) فقيل إنه من ولد ابراهيم الخليل . وقيل من ولد بعض الذين آمنوا بابراهيم » . وكذا في الكامل لابن الأثير عند ذكره شعيب . وقد توفى الله ابراهيم وله من العمر مئة وخمس سبعون سنة ، ودفنه ابناه اسحق واسمعيل في المغارة المضاعفة للسنة الخامسة أو السادسة بعد أن ولد اسحق عيسو ويعقوب . (تك ف ٢٥ ع ٧) .

الفصل الثاني

اسحق وابناه يعقوب وعيسو

عد ١٦٦

اسحق

ذكرنا في تاريخ اسحق خبر مولده وزواجه ، وجلّ ما بقي من أخباره أنه تزوج وعمره أربعون سنة . واستمر تسع عشرة سنة لم يرزق ولداً ، فصلى واستجاب الرب سؤاله ، فحملت رفقة امرأته فولدت توأمين . فخرج الأول أكلف اللون كله كفروة شعر فسموه عيسو ، ثم خرج أخوه ويده قابضة على عقب عيسو ، فدعي يعقوب اي المعقب (وهو من يجيء بعقب الآخر) . وأحب اسحق عيسو ، وأحبت رفقة يعقوب . وكان عيسو صياداً ويعقوب رجلاً سليماً مقيماً بالخيام . فطبخ يعقوب عدساً وأتى عيسو من الصحراء وهو قد أعيا ، فرغب إلى أخيه أن يطعمه

من طبخه، فأبى إلا أن يبيعه بكريته. فحلف له على بيعه إياها منه، فأكل واستخفّ بالبكرية. وحدث جوع غير الذي كان في أيام ابراهيم فمضى اسحق إلى جرار، وكان ملكها اسمه ابيملك، والأظهر أنه غير ابيملك الذي كان في ايام ابيه على ما في معجم الكتاب لفيكورو (في كلمة ابيملك). وسأله أهل الموضع عن رفقة فقال: هي اختي خشية أن يقتلوه شغفاً بجمالها، كما قال أبوه عن سارة أمه. وبالمعنى نفسه أي أنها من أدنى أقربائه إليه. واطلع ابيملك على انها امرأته فعتبه على مواراته الحقيقة. وزرع اسحق في تلك الأرض فأصاب في تلك السنة مئة ضعف، وهذه أول آية في الكتاب أنبأتنا بأن أبناء ابراهيم باشروا الزراعة. وعظم شأن اسحق، وتوفرت ثروته فحسده أهل جرار، وأخذوا يردمون الآبار التي حفرت في أيام أبيه أو حفرها رعاة ماشيته: فقال ابيملك لاسحق: اخرج من عندنا لأنك أصبحت أقوى منا جداً، فمضى وأقام في وادٍ في أطراف جرار، ثم شخص إلى بئر سبع فتجلى له الرب مجدداً، ووعده بتكثير نسله فذهب إليه ابيملك وبعض حاشيته راغباً في محالفته، فأولم لهم اسحق، وحلف كل منهما لصاحبه. وأخبره عبيده أنهم وجدوا ماء «فدعاها الشبع. ولذلك اسم المدينة بئر سبع إلى اليوم». وقد مرّ (في عد ١٦٠ اعتماداً على ما في التكوين ف ٢١ ع ٣١) ان هذا المكان دُعي بئر سبع نسبة إلى النعاج السبع التي أقامها ابراهيم توثيقاً لعهده مع ابيملك، فلا خلاف بين الآيتين. فيظهر أن أهل جرار كانوا قد ردموا بئر سبع كما ردموا غيرها من الآبار، فحفرها عبيد اسحق ثانية وسماها الشبع. فلكلمة سبع او شبع في لغتهم معنيان السبعة اسم العدد والشبع. فسميت البئر في أيام ابراهيم بئر سبع نسبة إلى النعاج السبع. وسميت في أيام اسحق بئر شُبع، أي بئر الشبع من الماء حيث بنيت مدينة سميت بهذا الاسم كما قال موسى (تك ف ٢٦ ع ٣٣).

ولما شاخ اسحق وكلّت عيناه عن النظر، رغب إلى ابنه عيسو أن يأتيه بشيء من صيده، ويصلحه له طعاماً ليأكل منه ويباركه. فعرفت رفقة، فأصلحت له ما يحب من ألوان المآكل، وقدمته له مع يعقوب بعد أن كست يديه وملاسة عنقه بجلد المعز. وقال لأبيه: إنه ابنه عيسو فخُدع اسحق بملمسه، فنال يعقوب بالمكر بركة أبيه. ولما أتى عيسو احتدم غيظاً على أخيه لمخادعته أباه؛ وسبق يعقوب له إلى بركته. قد توفرت أقوال الآباء ومفسري الكتاب في ما إذا كان إثم عيسو ببيع

بكريته، وإثم يعقوب بمشتراها، وبقوله لابيه انه عيسو بكره إلى سائر ما صنعه لينال البركة التي كان اسحق وعد عيسو بها. واظهر الاقوال في هذه المباحث ان عيسو أثم بشراهته واستخفافه ببكريته، ولم يأثم يعقوب بمشتراها لأنهما توأمان، فلهما الحق سوياً لاسيما لأنه لا بد أن أعلمته رفقة أمه بما قال لها ملاك الرب وهي حبلى: «ان في جوفك أمتين، ومن أحشائك يتفرع شعبان: شعب يقوى على شعب وكبير يستعبد لصغير». (تك ف ٢٥ ع ٢٣). ومفاده ان حق التقدم والبكرية له بأمر الله، فلا حرج عليه إن توسل إلى حقه بطريقة ظاهرة وهي الشراء. وأما قوله لأبيه إنه عيسو بكره فلا يبرأ من الكذب، لكنه عرضيّ لعدم مضرته بأخيه، فهو الأولى ببركة أبيه بحسب تدبير الله. ويظهر أن اسحق كان موقناً بذلك فلم يباركه بعد الجلاء الحقيقة له بركة يعقوب مع لجاجته في التماسها، بل أثبت البركة ليعقوب. وبهذا المعنى قال الرسول (رومة ف ٩ ع ١١): «فإنه قبل أن يولد الولدان ويعملا خيراً أو شراً... قيل لها (لرفقة) إنّ الكبير يستعبد للصغير كما كتب: إني أحببت يعقوب وأبغضت عيسو» (ملخص عن معجم اللاهوت لبرجيا وعن تفسير الحجري لسفر التكوين). فحقد عيسو على يعقوب، وأضمر في نفسه قتله. وعرفت رفقة بما كنه فاستدعت يعقوب، وأوعزت إليه أن يهرب إلى لابان أخيها خاله في حاران. وزينته إلى اسحق بأن قالت له «قد سئمت حياتي من أجل ابنتي حث (اللتين تزوج بهما عيسو)، فإن تزوج يعقوب بامرأة من بنات حث مثل هاتين، او من بنات سائر هذه الأرض فما لي والحياة». فاستدعى اسحق يعقوب وباركه وأوصاه ان لا يأخذ امرأة من بنات كنعان، بل أن يمضي إلى حاران، ويتزوج بامرأة من بنات خاله لابان. فمضى يعقوب إلى حاران هرباً من وجه أخيه، ورغباً في ان يتزوج بامرأة من بنات خاله، وأما عيسو فلما رأى ان زواجه بامرأتين حثيتين ينكد والديه مضى إلى اسمعيل عمه في بلاد العرب، فتزوج بنته محله (كذا في التكوين ف ٢٨ ع ٩ لكنها سميت بسمه في ف ٣٦ ع ٣ ولعله كان لها اسمان). وأما اسحق فاستمر حياً إلى أن عاد يعقوب من حاران بعد أن أقام ثمة عشرين سنة، وتوفاه الله وله من العمر مائة وثمانون سنة، ودفنه عيسو ويعقوب ابناه في مدفن أبيه ابراهيم في المغارة المضاعفة.

عد ١٦٧

ارتحال يعقوب إلى حاران وزواجه فيها وولده

قد قص الكتاب أخبار رحلة يعقوب إلى حاران في الفصل الثامن والعشرين من سفر التكوين إلى الفصل السادس والثلاثين منه، فكان ملخصها: خرج يعقوب من بئر سبع وبات في موضع قفر. فرأى حلماً كأن سلماً منتصبة على الأرض، ورأسها إلى السماء، وملائكة الله تصعد وتنزل عليها، والرب في أعلاها يعده بكثرة النسل، وبتمليكه وذريته تلك الأرض. وبرده إليها غانماً موفقاً. فاستيقظ يعقوب مرتعشاً وقال: ما هذا إلّا بيت الله وأخذ الحجر الذي كان وضعه تحت رأسه وأقامه نصباً. وسمى ذلك الموضع بيت إيل أي بيت الله. وهو المحل المعروف الآن ببيت اين شمالي البيري (طالع عد ١٥٣) قريباً من رام الله. وسار يعقوب إلى ان بلغ البئر التي منها تستقي ماشية حاران. فسأل الرعاة هل يعرفون لابان، او سالم هو؟ فقالوا: هو سالم وهذه راحيل ابنته آتية مع غنم أبيها. وكان على فم البئر حجر عظيم يجتمع الرعاة لدحرجته، فلما أقبلت راحيل دحرج يعقوب الحجر وسقى غنم خاله، وأخبر راحيل أنه ابن عمتها رفقة.

فأسرعت وأخبرت أباها، فأتى للقائه وعانقه، ومضى به إلى منزله، وأحبّ يعقوب راحيل، وخدم أباها سبع سنين يرعى ماشيته إلى أن زفّ إليه لية أختها الكبرى خدعة، بحجة أن العادة في بلادهم أن لا تزوّج الصغرى قبل الكبرى، ووهب لابان زلعة أمته للية ابنته، ثم خدمه سبع سنين أخرى براحيل فأزوجه إياها، ووهبها بلهة أمته أمةً لها. ثم خدمه ست سنين ليستوفي أجرته، واتفقا ان يعزل من الضان والمعز كل أرقط وأبلق وأدهس ويسلم إلى بني لابان مفروزاً، وأن تستمر بقية الغنم والمعز يرعاها يعقوب، وما كان من نتاجها أرقط أو أبلق أو أدهس كان أجرة له. وما كان من النتاج أبيض او أسود فهو للابان. فأخذ يعقوب عصي لُبنى رطبة ولوز ودلب، وقشر فيها خطوطاً بيضاء، وجعلها تجاه الغنم في مساقي الماء، فكانت توحم الضان والمعز على العصي المقشرة، فتلد بهاماً مخططة ورقطاء وبلقاء. وكان يضع ذلك في الربيع ويتركه في الخريف، ليكون قسم من النتاج له، وقسم لخاله. وقد حقق الآباء اللاتينيون وكثير من العلماء أن الوسيلة التي استعملها يعقوب لا شيء من المعجزة فيها، بل هي أمر طبيعي، أثبته العلماء بذكر اختبارات

عديدة، فإن أنثى كل نوع من الحيوان إذا تأثرت بشيء عند الوحام ظهر له غالباً أثر في صغارها. ولا حرج على يعقوب بهذه الحيلة لاستيفاء اجرته بالعدل، ولاسيما لأنه يظهر أن الله ألهمه هذه الوسيلة.

ولدت لية ليعقوب راؤبين وقالت: نظر الرب إلى مذلتي انه الآن يحبني بعلي، فتأويل الكلمة العبرانية رأى البنين مركبة من رأ بمعنى رأى، ومن بن بمعنى ابن ثم ولدت له شمعون. وقالت سمع الرب دعائي، فشمعون بمعنى سمعني. ثم ولدت لاوي وقالت هذه المرة ينعطف إليَّ زوجي لأني ولدت له ثلاثة بنين. فتأويل الكلمة المتعطف او الملتوي، ثم ولدت يهوذا وقالت: هذه المرة أحمد الرب. فالكلمة معناها أحمد الله مركبة من يه بمعنى الله ويدا أو جدا بمعنى مدح او حمد. وولدت له بلهة أمة راحيل داناً، وقالت راحيل: قد حكم الله لي وسمع صوتي. فدان بمعنى الديان أو الحاكم. ثم ولدت بلهة نفتالي، وقالت راحيل: قد صارعت أختي وغلبت، فالكلمة بمعنى المصارع او المحارب. وولدت له زلفة امة لية جاداً وقالت لية بجدى فتأويل الكلمة الجد أو الجودة والحظ. وولدت زلفة ايضاً اشير، وقالت لية: تغبطني النساء، فتأويل الكلمة السعيد أو المغبوط. وولدت لية ابناً خامساً ليعقوب سمته يساكر وقالت: أعطاني الله أجري لأني أعطيت أمتي لرجلي، فالكلمة بمعنى الأجر. وولدت له أيضاً ابناً سادساً وسمته زبولون، وقالت: أمهرني الله مهراً حسناً فالآن يساكنني بعلي إذ ولدت له ستة بنين. فزبد بالعبرانية بمعنى وهب وأمهر، وزبل بمعنى سكن. وولدت لية ابنة سمتها دينة، وذكر الله راحيل وفتح رحمها، فولدت ابناً سمته يوسف، وقالت: يزيدني الرب ابناً آخر فأسف وأوسف العبرانية كالسريانية بمعنى زاد فسمته به تفاؤلاً ليزيدها الرب ابناً آخر كما قالت. وولدت عند موتها ابناً آخر ليعقوب سمته ابن المي لأنها ماتت بعيد ولادته، وسماه أبوه بنيامين أي ابن يميني كناية عن المحبة له. فأبناء يعقوب اثنا عشر: راؤبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكر، وزبولون، ولدتهم له لية. ويوسف، وبنيامين، ولدتهما راحيل، ودان، ونفتالي ولدتهما بلهة أمة راحيل. وجاد واشير ولدتهما زلفة أمة لية (اخذنا تفسير الكلمات عن ذيل معجم الكتاب لكلمت).

وقد أيسر يعقوب جداً، وصارت له غنم كثيرة وأماء وعبيد وجمال وحمير، وداخل الحسد بني لابان وقالوا: إنه أنشأ ثروته من مالهم. ورأى يعقوب تغير وجه

خاله عليه. فقام بقومه وماشيته وعبر نهر الفرات، واستقبل جبل جلعاد (جبل السلط). ولم يعلم لابان مزايلته أرض حاران إلّا في اليوم الثالث، فمضى باخوته يتعقبه سبعة أيام حتى أدركه في جبل جلعاد. فعتبه لهربه خفية، ومخاتلته له بأن لا يدعه يودّع بنتيه، ولسرقته آلهته. وكانت راحيل قد سرقت أصنام أبيها، إما لاعتقادها بها قوة ما، وإما لتستغني بها عن مهرها. إذ يظهر أن هذه الأصنام كانت من ذهب، ونرى لية وراحيل تقولان ليعقوب: «هل بقي لنا نصيب وميراث في بيت أبينا»؟. ولم يكن يعقوب يعلم سرقة راحيل فاعتذر لخاله بأنه خشي أن يغتصب بنتيه منه، ويمنعه العود إلى أبيه وأنكر السرقة. وسأله أن يبحث عن هذه الأصنام في أخبيتهم، ومن وجدت معه فلا يحيا، ففتش في كل أخبيتهم فلم يجدها لأن راحيل كانت أخذتها وجعلتها في رحل الجمل. وجلست فوقها، فونّبه يعقوب على اتهامه له ولبنتيه بالسرقة. ويظهر من ذلك أن أبناء تارح وأحفاده استمروا يعبدون الأوثان أو يجمعون بين عبادة الله والأوثان. ثم تسالما وقطعا عهداً بينهما وجمعا مع ذويهما حجارة وجعلوها كومة، وأكلوا فوقها طعاماً، وسماها لابان يجو سهدوتا أي كومة الشهادة. وسماها يعقوب جلعاد والمعنى واحد وانصرف لابان عائداً إلى مكانه وسار يعقوب في طريقه.

وأوفد يعقوب رسلاً إلى أخيه عيسو في جبل سعير، وأفرز له هدية مئتي عنز وعشرين تيساً، ومئتي نعجة، وعشرين كبشاً، وثلاثين ناقة مرضعاً مع أولادها. وأربعين بقرة وعشرة ثيران وعشرين أتاناً وعشرة جحاش. ودفعها إلى عبيده ليتقدموه بها إلى أخيه آملاً أن يسترضيه عن نفسه وآله. وعرف عيسو قدوم أخيه، فهبّ للقائه ومعه أربعمائة رجل، ولما رآه يعقوب خاف، وتقدم نساءه وأولاده وسجد إلى الأرض سبع مرات حتى دنا من أخيه. فتلقاه عيسو وعانقه وبكيا وتقدمت أسرة يعقوب فسجدت لعيسو فعمت المسرة جميعهم. وأبى عيسو قبول هدية أخيه تلطفاً، فألحّ يعقوب عليه فقبلها ورجع عيسو في طريقه إلى سعير. وأتى يعقوب بعد ذلك إلى شليم مدينة أهل شكيم (نابلس)، وابتاع قطعة حقل بمئة نعجة فضرب ثمه خباءه. وكان قبل لقاء عيسو أن ظهر ملاك الرب ليعقوب فأمسكه وصارعه ليباركه، فمس حق وركه فصار يظلع منه وسماه الملاك لذلك إسرائيل، فالكلمة مركبة من إسر بمعنى ضبط أو ربط ومن إيل وهو لفظ الجلالة، فالمعنى من أمسك أو صارع ملاك الله. وقال الكتاب (تك فصل ٣٢ عد

٣٢) » ؛ ولذلك لا يأكل بنو إسرائيل عرق النسا الذي مع حق الورك إلى هذا اليوم لأنه لمس حق ورك يعقوب على عرق النسا » .

عد ١٦٨

مقتل شمعون ولاوي ابني يعقوب أهل شكيم وتتمة أخبار رحلة يعقوب

خرجت دينة بنت يعقوب لتنظر بنات شكيم فرآها شكيم، بن حمور الحوي رئيس البلد، فأخذها وأذلها ، وتعلقت نفسه بها ، وسأل أباه أن يأخذها له زوجة، فخرج حمور إلى يعقوب يقول : ابني علقت نفسه بابنتكم، فصاهرونا وأعطونا بناتكم، وخذوا بناتنا . وهذه الأرض بين أيديكم أقيموا بها، واتجروا ، وتملكوا وما تقترحوه عليَّ أودِه لكم ، أكثروا عليَّ المهر فأعطيكم كما ترسمون لي ، وأعطوني الفتاة زوجة لابني . فقال بنو يعقوب : لا نستطيع أن نعطي أختنا لرجل اغلف، فنوافقكم بأن يختتن كل ذكر منكم ، فنعطيكم بناتنا ونأخذ بناتكم. فحسن كلامهم عند حمور وشكيم ابنه وسمع لهما أهل المدينة . واختتن كل ذكر منهم وبينما هم متألمون في اليوم الثالث ، أخذ شمعون ولاوي كل منهما سيفه ولا بد أن يكون صحبهما بعض خدمهما ، ودخلا المدينة آمنين، فقتلا حمور وشكيم ابنه وكل ذكر في المدينة . ثم دخل بنو يعقوب على القتلى، وغنموا كل ما في المدينة من أجل تدنيس أختهم ، فساء ذلك يعقوب، وقال لشمعون ولاوي : قد أشقيتماني وأخبثتما ريحي عند أهل هذه الأرض. وأنا في نفر معدود فيجتمعون علينا ويقتلوننا . فقالا: أكزانية يتخذ أختنا ؟ وأكثر الآباء والمفسرين على أن بني يعقوب اقترفوا بذلك إثماً كبيراً. وزعم بعض علماء اليهود أن دينة تزوجت بأيوب بعد ذلك، ولا مستمسك لهم بهذا ولا دليل عليه، فلا يعتد به .

فقام يعقوب من شكيم، وأقام في بيت إيل (بيت إين) وهو المحل الذي بات فيه عند مضيه إلى حاران ، حيث رأى السلم، فبنى ثمة مذبحاً، ثم ارتحلوا من بيت إيل . وبينما هم على نحو ميل من افراتا (بيت لحم) ، وقد دنا وقت ولاد راحيل فعسر ولادها حتى ماتت بعيد أن ولدت بنيامين . فدفنت في طريق بيت لحم، ونصب يعقوب نصباً على قبرها. وقال الكتاب : « هو نصب قبر راحيل إلى اليوم » .

قال العالِم كاران (ك ١ في اليهودية صفحة ٢٢٥) : أجمعت تقليدات اليهود والمسلمين والنصارى على أن مدفن راحيل هو المحل المعروف الآن بقبر راحيل على الطريق بين أورشليم وبيت لحم، وأثبت ذلك بشهادة كثير من المؤلفين من القرن الرابع بعد الميلاد إلى هذه الأعصر، وإن كان البناء القائم الآن هناك حديثاً. وقدم يعقوب من هناك على اسحق أبيه في ممرا بجانب حبرون وهي الخليل، فسر به اسحق وبأبنائه وباركهم، واستمر معهم حيّاً مدةً بعد عود يعقوب إليه. وأما رفقة فروى يوسيفوس (ك ١ ف ١٩ من تاريخ اليهود) أنها ماتت قبل أن عاد يعقوب إلى فلسطين، ولم يذكر سفر التكوين موتها. وقد ذكر المؤرخون الوثنيون تاريخ يعقوب، كما رووا تاريخ ابراهيم وغيره من مشاهير العهد القديم، ومنهم ديمتريوس على ما روى أوسابيوس (في كتابه الموسوم بالاستعداد الإنجيلي ك ٩ ف ٢١). ورأى كثير من علماء هذا العصر أن رواية لاميدون التي أنشأها أوميروس في أشعاره منتحلة عن قصة يعقوب ولابان. وقال بعضهم: ان اسمي لابان ولاميدون بمعنى واحد وهو اللبن أو مادة البناء، وان اسمي هيزيون بنت لاميدون وراحيل بنت لابان بمعنى واحد وهو النعجة.

عد ١٦٩

عيسو وولده

قد مرّ أن عيسو تزوج بثلاث نساء يهوديت أو عادة بنت ايلون الحثي، واهليبامه بنت عانة بنت صبعون الحوي (الحثي)، وبسمه أو محله بنت عمه اسمعيل. واختلاف الرواية في أسماء بعض هؤلاء النساء وبعض آبائهنَّ يخرِّج إلى أنه من غلط النساخ، أو انه كان لكل من هؤلاء اسمان، فولدت عادة لاسمعيل إليفاز، وبسمة رعوائيل، واهليبامه يعوش ويعلام وقورح. وكان عيسو أقام أولاً في جبل سعير وبعد عود يعقوب أخيه ارتحل منه إلى فلسطين مجاوراً لأخيه. ولكن لما أصبحت مواشيهما أكثر من أن يقيما معاً عاد عيسو إلى جبل سعير وهو في الجنوب الشرقي من البحر الميت ممتداً نحو البحر الأحمر. وسمي هذا الجبل بهذا الاسم نسبة إلى سعير الحورى الذي كان يسكنه قبل عيسو. وتسمى هذه البلاد ادوم، وظن أكثر القدماء انها إنما سميت بذلك نسبة إلى ادوم وهو عيسو. ولكن

أثبت بعض علماء هذا العصر ومنهم لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه الشرقي ك ٩ في العرب ف ٣) : ان اسم أدوم وأدومين اقدم من عهد عيسو ، وأن عيسو نفسه سمي أدوم لسكناه في أدوم بين الأدوميين . واستمسك بأن بعض البابيرات المصرية منذ عصر الدولة الثانية عشرة ورد فيها ذكر بلاد ادوم قبل عيسو بقرون .

ومهما يكن من هذا فقد توطن عيسو وذريته هذه البلاد ، وتقووا على الحوريين سكانها قبلهم . وكان منهم ملوك فيها كما كان قبلهم ملوك متعددون من الحوريين . قال فيهم «الكتاب» (تك ف ٢٦ عد ٣١) : « وهؤلاء الملوك الذين ملكوا في أرض أدوم قبل أن يملك ملك في بني اسرائيل » . فتذرّع الجاحدون بهذه الآية ليندّدوا بالكتاب قائلين : كيف أمكن موسى أن يكتب هذه الآية ؟ ولم يكن ملك في إسرائيل إلّا بعد قرون ؟. وقد فند العلماء والمفسرون الكاثوليكيون زعمهم بطريقتين . فقال بعضهم ومنهم الحجري في تفسير هذه الآية : إن هذه الكلمات أدخلها كاتب متأخر العهد على كلام موسى ، فلا يعاب كتاب بدخول كلمة شرح عليه . وقال آخرون منهم الأب فيكورو (في الموجز الكتابي ع ٢٥٩) : لا يستغرب أن يكتب موسى الكلمات الآنفة الذكر فهو كتب في الفصل السابق من التكوين (ف ٣٥ ع ١١) : إن الله قال ليعقوب : « أنا الله القدير انمُ وأكثر أمة وجماعة أمم تكون منك وملوك من صلبك يخرجون » . فأي الغرابة أن يقول موسى بعد ذلك إنه كان في ادوم ملوك قبل أن يملك ملك في اسرائيل كما وعد الله يعقوب بأن يكون ملوك من صلبه .

لم يذكر الكتاب وفاة عيسو، ولكن جاء في كتاب قديم جداً موسوم بوصية الآباء الإثني عشر أن عيسو أتى لمحاربة أخيه يعقوب ، فقتل في الحرب ودفن في جبل سعير . وقد ذكر «الكتاب» (تك ف ٣٦) أسماء الملوك أو الولاة الذين تولوا بلاد أدوم من الحوريين وبني عيسو . فقال جاحدو الوحي إن عدد هؤلاء الملوك وافر يتصل إلى أيام سليمان، فلا يمكن أن يكون موسى كتبه . والصحيح الظاهر ان زمان هؤلاء الملوك لا يتجاوز زمان الخروج ، ولا تزيد مدتهم على المدة التي من أيام يعقوب إلى أن كتب موسى ، وهي نحو من خمسة قرون. وذكر اسم هدد بن بدد بينهم مع أنه كان ملك يسمى بهذا الاسم في أيام سليمان لا يثبت شيئاً . فما أكثر أسماء الملوك المترادفة في كل عصر وعند كل القبائل (فيكورو في الوجيز الكتابي ع ٢٥٩) .

الفصل الثالث

يوسف

عد ١٧٠

محبة يعقوب ليوسف وحسد اخوته له وما كان منه

قد أحبّ يعقوب يوسف على إخوته لحسن منظره وسجاياه، ولتذكّره به راحيل أمه التي قضت في غضّ صباها، وألبسه قميصاً موشّى ملوناً. وكان الساميون يلبسون أولادهم خاصة أثواباً ملونة، ويرى على مدافن بني حسن في مصر صور أناس تردّوا بأردية تنوعت ألوانها، فأوغر ذلك صدور اخوته وزادهم ايغاراً رؤيته أحلاماً منبئة بسؤدده عليهم. وقصه لها على أبيه واخوته كحلمه كأنه وإخوته يشدّون حزماً فانتصبت حزمته، وسجدت لها حزمهم وكأن الشمس والقمر وأحد عشر كوكباً ساجدة له. فزجره أبوه قائلاً: أترانا نجيء أنا وأمّك وإخوتك فنسجد لك؟ وأضمر ليوسف اخوته السوء، وأرسله أبوه يفتقدهم، وهم يرعون ماشيتهم في ناحية شكيم (نابلس). وكانوا ارتحلوا إلى دوتائين فصادفه رجل هداه إلى منتجعهم، فلما رأوه مقبلاً أئتمروا على إهلاكه فعارضهم رآوبين أكبرهم. وصرف أفكارهم إلى طرحه في بئر لا ماء فيها لكي يخلّصه من أيديهم، ويردّه إلى أبيه. ونزعوا عنه قميصه الموشىّ وألقوه في بير جافة في دوتائين. وكان يظن قبلاً أن دوتائين في جنوبي صفد وفي شمالي بحيرة طبرية حيث خان يسمى خان جب يوسف. على أن روبينسون كشف عن موقع دوتائين وهو في المحل المعروف الآن بتل دوتان في الطريق المؤدية من دمشق إلى مصر في الجنوب الغربي من جنين، وفي شمالي السامرة على بعد إثني عشر ميلاً على ما حقق كاران (مجلد ٢ في السامرة صفحة ٢٢٠). وفيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٨) ودوتائين معناه البئران أو الآبار وهناك آبار عديدة.

وبينما كان يوسف يتوقع الهلاك جوعاً إذا بقافلةٍ من الإسماعيليين مقبلة نازلة إلى مصر، فحمل يهوذا اخوته أن يبيعوا يوسف لهؤلاء التجار الذين سماهم «الكتاب» (تك ف ٣٧) تارة إسماعيليين، وطوراً مدينيين فقال بعضهم إن القافلة كانت من الشعبين، وقال غيرهم إن الإسمعيليين كانوا يسكنون بلاد مدين، فسماهم «الكتاب» مدينيين نسبة إلى البلاد، واسمعيليين نسبة إلى الأصل. فأصعد يوسف إخوته من البئر وباعوه بثمن بخس بعشرين من الفضة. وأخذوا قميصه وغمسوه في دم تيس، وبعثوا به إلى أبيه قائلين أقميص ابنك هو أم لا؟ فأثبته وقال: وحش ضار افترس يوسف، وظل يبكيه، وقد أبى أن يتعزى.

فأخذ التجار يوسف إلى مصر إذ لم يكونوا يتجرون بالبلسان واللاذن فقط بل بالرقيق أيضاً. والآثار الدالة على هذه التجارة في مصر من أقدم الأيام كثيرة فيشاهد على أبنيتهم كثير من صور الأرقاء بيضاً وسوداً. وجاء ذكرهم مكرراً في الخطوط القديمة، وخاصةً في عهدة الصلح بين رعمسيس والحثيين حيث نص انه إذا أبقى رقيق من مصر إلى سورية لزم رده على مولاه (طالع عد ٦٦). وقد أطال واجاد الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ١٣ وما يليها)، في بيان احتياج المصريين إلى النكعة، وهي نوع من الطيب يؤخذ من زهر نبات يسمى نكعة، والبلسان واللاذن وغيرها من الطيوب، واستجلابهم لها من بلاد العرب في طريق سورية، مُثبتاً ذلك بكثير من آثارهم وخطوطهم. وروى صديقنا الأب روار الاراسي معلم اللغة العبرانية في كلية ليل (في مقالته مصر في عهد يوسف): إن العالِم ابار اكتشف في أدفو أثراً يظهر منه دخول النكعة والبلسان في تركيب نوع من البخور سماه المصريون كوفني.

عد ١٧١

بيع يوسف لفوطيفار ومراودة امرأته له وسجنه

قال «الكتاب» (تك ف ٣٧ ع ٣٦): ان يوسف «باعه المدينيون في مصر لفوطيفار خصي فرعون رئيس الشرط». وكثيراً ما ورد اسم فوطيفار في الآثار المصرية فقد سمي به كثيرون، وقد كتب في العلامات الهيروكليفية باطيفرا، وتأويله المكرس للشمس او المختص بالشمس معبودهم. وسماه المؤرخون العرب

العزيز، ويثبت وصف «الكتاب» له بخصي فرعون كثرة ذكر الخصيان في الآثار المصرية، وتشاهد صورهم على مدافن مقبرة بني حسن مدلولاً عليهم بخلو أذقانهم من الشعر، واتساع صدورهم، وبلون بشرتهم الترابي. وقد أثبت كثير من آثار الكلدان أيضاً وجود الخصيان في قصور ملوكهم. على أن لفظة الخصي لم تبقَ دالة على ما وضعت له حقيقة، فإن فوطيفار كان متزوجاً بل صارت وصفاً لمن كانت له مرتبة رفيعة عند الملوك، وقد اعتاد الملوك في كل عصر وبلاد أن يمنحوا رجالاً ألقاب شرف لا يعملون شيئاً مما تشير إليه كاسطبل عامرة. على أن بعض الجوالة في المشرق أثبتوا أن بعض الخصيان في هذه الأيام يتخذون نساء.

وروى مثل ذلك بعض المؤرخين القدماء عن الخصيان في أيامهم، ولنا بينة على ذلك في رواية الأخوين الآتي ذكرها التي وجدت مكتوبة في بابير منذ عهد موسى. فإن بيتو أحد الأخوين كان خصياً، ووهبه الإله نوم امرأة. كل هذا يفند مزاعم جاحدي صحة الوحي الذين قالوا: ان كان فوطيار خصياً فكيف كانت له امرأة؟. ووصف فوطيفار برئيس الشرط، وقد بينت آثار مصر كثرة ألقاب عمال ملوكها والمقربين إليهم، ومنها ما جاء في «الكتاب» عن رئيس السقاة ورئيس الخبازين اللذين وصفا بخصيين أيضاً (تك ف ٤٠ عد ٢). وتشاهد صور ملوكهم محفوفة بالحرس وكبراء العمال.

ونال يوسف حظوة في عيني مولاه، وأقامه على بيته وجميع ما كان له جعله في يده، ولم يكن يعرف معه شيئاً إلّا الخبز الذي كان يأكله (تك ف ٣٩ ع ٤ و ٦)، ولنا في الآثار المصرية صور تمثل من كان كيوسف قيّم بيت مولاه وبيده عصا أو صفيحة، يكتب عليها وعلى اذنه قلم. ومن ذلك الصور التي على مدفن في المحل المعروف بكوم الأحمر، وفي مقبرة بني حسن. وذكر الكتاب قيّماً لبيت يوسف بعد أن استوزره فرعون. وتسمي هذه الآثار بعض هؤلاء مِربا أي رئيس البيت، فكذا كان يوسف في بيت مولاه. وكان حسن الهيئة جميل المنظر، فطمحت عين مولاته إليه، وراودته عن نفسها، فأبى اتقاءً لله وتحصناً من الخيانة لمولاه. واتفق أن دخل البيت، ولم يكن فيه أحد من أهله، فأمسكت بثوبه، فترك رداءه بيدها، وفرّ هارباً إلى الخارج. فاتهمته بأنه راودها عن نفسها، وشكته إلى مولاه، فاستشاط غضباً، وأودعه السجن.

زعم بعض الجاحدين لصحة الوحي أن قصة يوسف هذه ليست إلّا رواية وهمية سنداً إلى أن النساء المصريات كنَّ متحجّبات محصنات لا يخالطن من الرجال إلّا الخصيان. فجاءت الإكتشافات الحديثة مبطلة دعواهم مبينة غرورهم، إذ لم تكن نساء مصر في تلك الأيام محجبات كنساء المسلمين في أيامنا، بل كنَّ يخرجنَ سافرات الوجوه، ويشهدن الملاعب والملاهي قائمات بين الرجال، ويستقبلنهم في بيوتهم، بل كانت المرأة سيدة المنزل حتى كان لهنَّ من الحرية أكثر مما لنساء الإفرنج في هذا العصر. وقد شهدت لذلك آثار تشذُّ عن العدّ، فإنّك ترى صورهنّ على كثير من الآثار سافرات الوجوه، شاهدات المحافل والإجتماعات، ومزدانات بالحلى والمطارف الثمينة.

وقد روى هيرودت (ك ٢ فصل ٣٥) ان المصريات كنَّ يقمنَ في الحوانيت متعاطيات التجارة والكسب، ويظلُّ رجالهنَّ في البيوت يحيكون الأنسجة. ونرى بعض الصور تمثل النساء أيضاً حايكات، وبعضها يمثلهنَّ صارفات حيناً متطاولاً في زينتهنَّ. وقد شهدت النصوص والآثار، والصور والتقليد بما كان من الخلاعة والتهتك في مصر. ومثلت بعض الصور نساء بعض أشراف القوم في حالة السكر، وعلى جدار مدينة أبو ما يأنف القلم أن يخطّ الإشارة إليه.

وقد اكتُشف في صدر هذا القرن بابير خُطَّت عليه رواية موسومة برواية الأخوين، كتبها كاتب يسمّى إنانا في القرن الخامس عشر قبل الميلاد على عهد منفتاح فرعون الخروج ابن رعمسيس الثاني لتكون فكاهة لوليّ العهد. وهذا البابير هو الذي كان يطالعه هذا الامير نفسه، وقد اشترته أولاً السيدة دي اوربيناي من إيطاليا، وبعد وفاتها اشترته سنة ١٨٥٧ م إدارة المتحف البريطاني. ونشرت مثالاً له سنة ١٨٦٨م. وكان العالم دي روجه أول من عني بترجمته، فكان ما حواه أشبه بما كان ليوسف مع امرأة فوطيفار، بل يظهر أن هذه الرواية منتحلة عن تاريخ يوسف. وقد أثبتها الأب فيكورو (في كتابه الموسوم بالكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٤٣ وما يليها). وأثبت ملخصها الأب روار صديقنا الآنف الذكر في مقالته (مصر في عهد يوسف) وعنه نلخّص فحواها: «كان أخوان يسمى أكبرهما أنابو وأصغرهما باتو عائشين بأعظم ائتلاف في بيت واحد. وكان أنابو متزوجاً، وباتو لا امرأة له ويعاون أخاه في الحراثة وشغل الحقل. فأتى باتو ذات يوم إلى البيت يلتمس بذراً ليزرعه، فانتهزت امرأة أخيه فرصة غياب زوجها،

فراودته عن نفسه دون حياء فونّبها ، وفرَّ من بين يديها وعاد إلى أخيه في الحقل . ولم يفه ببنت شفة عن قحة امرأة أخيه . أما هي فلما عاد زوجها من الحقل تمارضت وتظاهرت بالغضب ، وشكت باتو بأنه راودها عن نفسها . فحنق أخوه واستلَّ سيفاً وأزمع أن يفتك بباتو ، فعنى الإله الشمس بنجاة البري، وأنطق بقرة فنبهته للفرار من أخيه . وفصل بين الأخوين بنهر موعب بالتماسيح وما بقي من الرواية مبين ما كان من حسن المجازاة لباتو البري، حتى جعله الملك ولياً لعهده ، وعهد إليه تدبير المملكة وملك مصر عشرين سنة وبعد وفاته خلفه أخوه الأكبر . وجاء في «الكتاب» (تك فصل ٣٩ ع ٤٠) : ان يوسف « رزق حظوة في عيني رئيس الحصن » . فيظهر أن السجن كان في حصن، وأنه كان في هذا الحصن محل إقامة فوطيفار، إذ جاء في الكتاب (فصل ٤٠ ع ٣) عن رئيس السقاة ورئيس الخبازين أن فرعون « جعلهما في حبس بيت رئيس الشرط في الحصن حيث كان يوسف مسجوناً » . وقد وصف فوطيفار قبلاً برئيس الشرط « فجعل رئيس الحصن في يد يوسف جميع السجناء » . وكان أن رئيس السقاة ورئيس الخبازين أجرما إلى فرعون ، فسخط عليهما، وألقاهما في السجن وكان يوسف يهتم بهما . فرأيا كلاهما حلماً في ليلة واحدة ، وقلقا إذ لم يكن من يعبر لكلٍّ حلمه، فسألهما يوسف أن يقصّا عليه حلميهما فقال رئيس السقاة : رأيت كأن جفنة كرم بين يدي فيها ثلاثة قضبان ، أفرعت ونضجت عناقيدها، فأخذت العنب ، وعصرته في كأس فرعون وناولته ، فقال له يوسف : هذا تعبيره القضبان الثلاثة هي ثلاثة أيام فبعدها يردك فرعون إلى منزلتك، وتناوله الكأس كالعادة . فاذكرني عند فرعون . وقال رئيس الخبازين : رأيت كأن ثلاث سلال حوارّى (دقيق أبيض) على رأسي، وفي العليا منها جميع طعام فرعون مما يصنعه الخباز ، والطير تأكله من السلة . فقال يوسف هذا تعبير حلمك: الثلاث سلال هي ثلاثة أيام بعدها ينزع الفرعون رأسك فتأكل الطير لحمانك . وكان اليوم الثالث يوم مولد فرعون، فردّ رئيس السقاة إلى سقايته ، وأمات رئيس الخبازين على حسب تعبير يوسف (تك فصل ٤٠) .

وقد جاءت الآثار المصرية معاونة على بيان صحة كلام الكتاب بياناً علمياً . فقد كثر فيها ذكر الحصون التي كانت مقاماً لرؤساء الجند ومخفراً للسجناء . وقرأ إبار الكلمة المصرية الدالة على الحصن بيتاسوحار ، أي بيت الحصن، وهي في النص

العبراني بِت حص سوحر فتأمل بهذه المقارنة . ثم ليس من يجهل اعتبار الأحلام عند المصريين وإجلال معبريها .

وقد جعلت العناية الربانية أحلام رئيس السقاة ورئيس الخبازين ثم فرعون نبوية لتكون ذريعة لرفعة يوسف ونجاة مصر وأهله من المجاعة . ومما جاء في الآثار المصرية عن الاحلام ما خُطَّ على جدار الكرنك ، وهو أن تمثال الإله فتاح ظهر في الحلم لمنفتاح وانتصب أمامه يمنعه أن يتقدم بعساكره إلى ما كان أمامه فامتنع . وان فرعون نوات مايامون رأى حلماً سنة ارتقائه إلى عرش مصر والحبشة معاً . كأن حيتين قامت إحداهما عن يمينه والأخرى عن يساره . وعبَّر الكهنة له حلمه بأنه يملك على مصر والحبشة ، وقد خُطَّ هذا الحلم وتعبيره على الصفيحة المعروفة بصفيحة الحلم التي ذكرها مسبرو . وقد جاء في كثير من البابيرات ذكر الاحلام وتعبيرها، وبما يتذرع للحصول عليها ولتعبيرها ، ومن شاء زيادة بيان فعليه بمراجعة ما كتبه الأب فيكورو (الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٥٨ وما يليها .

زعم بعض الملحدين تنديداً بالكتاب انه لم يكن في مصر جفن الكرم، واستسلموا بأحد أقوال هيرودت (ك ٢ فصل ٧٧) : « إنه لم يكن كرم في مصر » ويقول بلو ترخوس إن المصريين كانوا يأنفون من شرب الخمر . وقالوا : إن جفن الكرم لم تغرس في مصر إلا في عهد الدولة السادسة والعشرين فيها . والصحيح ان جفن الكرم كانت عديدة في مصر منذ اقدم أعصارها ، وصورها على مدافن الأهرام، ومقبرة بني حسن بتكذيب الملحدين . وقد روى ويكلنسون (في كتابه في قدماء مصر) نقلاً عن الآثار المصرية طريقة غرس الكرم واستثماره وعصر العنب في المعاصر وتصفية العصير في الآنية بعد اختماره .

وقال الأب روار في مقالته (مصر في عهد يوسف) : « قد ساعدني الحظ في سفري عن قرب إلى مصر أن أكون من أول الداخلين إلى المدفن الذي كشف عنه من امد قريب في دير البحاري ، وهو بلا مراء أقدم من عهد الدولة السادسة عشرة (التي كان فيها يوسف) . وكنت أظنني في وسط كرم حقيقة فجدران المدفن وسقفه مغطاة بجفن الكرم مزدانة بورقها وثمارها » . وقال الاب فيكورو (في المحل السالف ذكره) : إنما الصحيح أن المصريين لم يشربوا الخمر في كل عصر فقط بل

كانوا ايضاً يقدمونه لآلهتهم. فقد جاء في البابير المعروف بهاريس ذكر كثير من تقادم الخمر لهياكل الآلهة، وان رعمسيس الثالث (أحد ملوك الدولة العشرين): «قدم ألف وثلاث مئة وسبعة وسبعين اناءً من الخمر... وانه وهب هيكل طيبة (تاب) خبة خمر» أي كرماً، ولم يكن المصريون يكتفون بخمر مصر بل كانوا يستجلبون أنواعاً، من سورية وغيرها. وكان مشتهراً عندهم خمر عون وهي بلدة في غربي حلب.

وفي متاحف أوروبا كثير من الآنية التي كان خمر مصر يوضع فيها، ويزيد هذا اثباتاً الصورة الممثلة كوباً من الخمر مقدمة للآلهة او سكارى. وهذه الصور عديدة، ومنها صورة وجدت في طيبة ترى فيها صور رجال متماسكين بحبل ربط في شجرة، يدوسون العنب في المعصرة بأقدامهم وهم حفاة مترنمون. وأما قول هيرودت الذي استمسكوا به فلا عبرة له لا سيما لانه مخالف لكثير من اقوال هيرودت نفسه، حيث نص ان المصريين كانوا يشربون الخمر في بعض الاعياد والحفلات اكثر مما يشربونه في سائر الايام. وأن ابن البنّا الذي سرق بيت مال الملك اسكر الحراس بالخمر. وأنه كان لكل من جنود الحرس الملكي اربعة اقداح خمر في كل يوم. وكل ذلك ظاهر في كتبه، ومثله في كلام بلوترخوس. وقد صرّح ديودر الصقلي واسترابون وبلين بما يخالف قول هيرودت الأول فقد صدق الكتاب وكذب الملحدون.

عد ١٧٢

تعبير يوسف حلم فرعون واستيزار الملك له

قال «الكتاب» (تك فصل ٤١): «وكان بعد مضي سنتين من الزمان» الذي عبّر فيه يوسف حلمي السجينين معه ان رأى فرعون حلماً كأنه واقف على شاطئ النهر اي النيل. فإذا بسبع بقرات صاعدة منه وهي حسان وسمان، وارتعت في المرج. وكان سبع بقرات أُخر صاعدة وراءها من النهر وهي قباح وعجاف.. فأكلت البقرات القباح العجاف السبع البقرات الحسان السمان. وقد كان عدد البقرات السبع عند المصريين من الرموز الدينية، فانهم كانوا يعتقدون ان للثور المتأله

المعروف عندهم باوسيريس سبع بقرات بمنزلة سبع زوجات له . واستيقظ فرعون ثم نام، فحلم كأن سبع سنابل قد نبتت في ساق واحدة وهي سمان جياد . وكأن سبع سنابل دقاق قد لفحتها الريح الشرقية نبتت وراءها ، فابتلعت السنابل الدقاق السبع السنابل الممتلئة ، وما برحت الريح الشرقية تثور في مصر إلى الآن، وهي المعروفة عندهم بالخمسين ، فتلفح الزروع وأزعج الحلمان فرعون، فاستدعى جميع سحرة مصر وجميع حكمائها . قال الاب فيكورو (في المحل الآنف ذكره صفحة ١١٤) : يحق لنا ان نقول ان آية الكتاب هذه مترجمة من المصرية إلى العبرانية. فقد ورد مثلها في صفيحة رعمسيس الثاني حيث كتُب أن أمير بقطان بعد أن رأى حلماً « انزعجت نفسه واستدعى جميع السحرة » ولم يكن بين سحرة فرعون من يعبر له حلمه .

فتذكر رئيس السقاة يوسف، وقص على فرعون ما جرى له، وتعبير يوسف حلمه وحلم رئيس الخبازين . فدعا فرعون يوسف فاحتلق وأبدل ثيابه . روى هيرودت (ك ٢ فصل ٣٦) إن من عادات المصريين المخصوصة بهم ان يحلقوا شعورهم إلا مدة الحداد. وقد أثبتت آثار مصر مقال ابي التاريخ : فترى اكثر الصور فيها محتلقة الذقن والرأس بعكس ما كان يصنع العبرانيون من اطلاق لحاهم، حتى كان الجلح نفسه عاراً عندهم كما يظهر من تعيير صبيان بيت ايل لاليشاع . إذ قالوا له اصعد يا اجلح اصعد يا اجلح (ملوك ٤ ع ٢٣) . ولما دخل يوسف على فرعون قص عليه حلمه فقال له يوسف : إن الله مكاشف فرعون بما هو صانعه. السبع البقرات الجياد هي سبع سنين ، والسبع السنابل الحسان هي سبع سنين فالحلم واحد ، ومثلها السبع البقرات الدقاق والسبع السنابل الفارغة . ستأتيكم سبع سنين فيها شبع عظيم في جميع ارض مصر، وتأتيكم بعدها سبع سنين جوع ينسى الشبع الذي كان ، فلينظر فرعون رجلاً فهيماً حكيماً يقيمه على أرض مصر يختزن الخمس من برّ سني الخصب ذخيرة لسبع سني الجوع .

فحسن كلام يوسف عند فرعون وقال له : بعدما عرفك الله هذا كله فليس فهيم حكيم مثلك، أنت تكون على بيتي ، وإلى كلمتك ينقاد كل شعبي ولا أكون اعظم منك إلا بالعرش . انظر قد أقمتك على جميع أرض مصر » . إن الآثار المصرية مفعمة بمثل هذه العبارات الدالة على ترقية الفراعنة من راموا إعزازه إلى المناصب الرفيعة وعلى مواهبهم له . ومن هذه الآثار ما نقش على مدفن احمس بن

ابانا أمير البحارة ، وقد مرَّ لنا ذكره في (ع ٩٨) وقد اكتشفت صفيحة هي الآن في متحف تورين في إيطاليا ، وللرجل المحكى عنه فيها مناقب وصفات اشبه بما كان عليه يوسف، فيسمى باكا، وتأويله الرقيق أو المسبي . ويقال فيها : إنه أحسن إتمام فروضه لأهله ولم يذكرهم لأنهم كانوا غرباء في مصر وإن فرعون أعزه وغمره بآلائه . وأهمل الكاتب ذكر اسم الملك لأنه من الملوك الرعاة الذين يبغضهم المصريون . وإن فرعون جعله قيّماً على مخازن البر العامة او المختصة بالحكومة ولم يؤتَ في الصحيفة بذكر احد معبودات مصر خلافاً لما جاء في غيرها من الآثار وقد تليت ترجمة هذه الصفيحة في مجلس عقدته جمعية الآثار القديمة الكتابية في لندرة سنة ١٨٧٧ م . وقيل حينئذٍ ما أحرى هذه الصفيحة أن تكون وضعت على مدفن يوسف ثم ان الآية « وإلى كلمتك ينقاد كل شعبي » إذا ترجمت بحرفها كانت : كل شعبي يقبل فمك » . قال العالِم شباس (في كتاب مباحثه في الدولة التاسعة عشرة) : إن هذه العبارة مصرية محضة فمن أسمى المراتب عند المصريين مرتبة الفم الاعلى . وقد أعلمنا بها أثر للدولة الثامنة عشرة أذاعه العالِم بروغش مع غيره من الآثار تبين منه أن تانونا احد كبار عمال مصر عهد إليه فرعون بتدبير المملكة . فلقب « الفم الأعلى في البلاد كلها » فكان المراد الى الأمر الأعلى وكذا لما أراد فرعون آخر ان يشرك في ملكه رعمسيس الثالث . رقاه هذه المرتبة الفم الأعلى في البلاد كلها .

ثم قال الكتاب : ونزع فرعون خاتمه من يده وجعله في يد يوسف » . واعلمتنا الآثار المصرية ان كل مصري وجيه كان له خاتم يختم به . وقد اكتُشف كثير من هذه الخواتم في المدافن وترى منها في متحف اللوفر في بريس عدداً عديداً وألبس فرعون يوسف ثياب بزٍّ وهي الكتان وفي آثارهم وفي كتب بعض القدماء منهم هيرودت (ك ٢ فصل ٨١) : إن كهنة المصريين كان متحتماً عليهم ان تكون ملابسهم من الكتان النقي دلالة على نقاوتهم . وترى الموميا عندهم ملتفة بنسيج من كتان ، وأمر موسى ان لا يستعمل في خباء المحضر إلا الكتان وأتبعت الكنيسة هذا التقليد وأمرت ألا يستعمل على المذابح سواه . ثم جعل فرعون في عنق يوسف طوقاً من ذهب . وترى في آثار مصر صور عظمائها ووجهائها وفي عنق كل منهم قلادة أو طوق . وقد وجد كثير من هذه العقود في المدافن المصرية . وأركب فرعون يوسف مركبته الثانية ، للدلالة على انه الثاني بعد الملك ، ونادوا أمامه

إركعوا . في العبرانية : ابرك . وقال الحجري (في تفسير هذه الآية) : إن هذه الكلمة مصرية لا عبرانية فإن المنادي مصري ينادي المصريين بلغتهم قائلاً أبرك أي أجثو. وقال فيكورو (في المحل السالف ذكره) : إن كلمة ابرك التي حفظت في سفر التكوين مصرية ، وقد ترجمت لفو في كثير من الترجمات القديمة ، بمعنى أحنوا ركبكم ، اي اركعوا . وصحيح ترجمتها الحرفية احنوا رؤوسكم كما قال كثيرون وقال آخرون : ان ابرك تأويلها رئيس الحكماء .

وسمى فرعون يوسف مخلّص العالم ، وفي العبرانية سغنت بعنه وقال القديس ايرونيموس إنّ الكلمة مصرية ، لا عبرانية. إذ لا وجه للملك المصري أن يلقب يوسف بلقبٍ عبراني لا مصري ، وتأويله مخلص العالم . وقال أهل العلم في الآثار المصرية : إن الكلمة تأويلها مقيت العالم أو مخلّص الحياة . وزوج فرعون يوسف اسنات بنت فوطيفار كاهن اون . وتأويل اسنات في المصرية مقر الآلهة نات . وفوطيفار أبوها غير فوطيفار مولى يوسف، لأن هذا كان رئيس كهنة ، وذاك رئيس شرط . ومدينة اون هي التي سميت بعد ذلك هليوبوليس أي مدينة الشمس ، وتعرف الآن بالمطرية. ولا يخفى ما كان لكهنة مصر من نفوذ الكلمة والسطوة في بلادهم ، وعليه فكان تزويج يوسف بابنة رئيس كهنة من جملة الآلاء التي عظم بها فرعون قدر يوسف . ومن المطابقة بين كلام موسى في يوسف ، والآثار المصرية التي اكتفينا اختصاراً بايراد بعضها يتبين بطلان مزاعم الجاحدين بأن تاريخ يوسف رواية وهمية ، أو أنه كتب بعد موسى أو في غير مصر .

قال شمبوليون فاتح الكنوز الهيروكليفية : إن أعلم علماء اليونان مجمعون على أن فرعون الذي استوزر يوسف، إنما هو ابوفيس او ابابي أحد الملوك الرعاة . وإن ذلك كان للسنة السابعة عشرة من ملكه ، وقد اطلنا الكلام في هذا الشأن في ع ٩٤ من مقالة الحثيين . وأفردنا الفصل الثامن من هذه المقالة للكلام في الملوك الرعاة . قال العالم مسبرو (في كتابه تاريخ المشرق) : كثر المهاجرون من سورية إلى مصر في عهد الملوك الرعاة لأنهم سوريون أصلاً، فكان المهاجرون يجدون في مصر قوماً من طينتهم لم ينسوا ذكر اصلهم ولغتهم . وكثيراً ما فتحت قصور مصر في تلك الأعصر لعمال سوريين . وكانت كل حرب او مجاعة في سورية تحمل أفراداً بل جاليات ، وعشائر برمتها على المهاجرة إلى مصر . فيتلقاهم الملوك الرعاة وحواشيهم بالمعزة والترحاب . ولا يخلو

استيزار اباپي ليوسف من ان يشف عن شيء من هذا القبيل ، فلما كان فرعون هذا أجنبياً لم يكن ليأنف من سيادة أجنبي في مصر كما لو كان مصرياً اصلاً .

عد ١٧٣

تدبير يوسف شؤون مصر والمجاعة فيها

قال «الكتاب» (تك ف ٤١ ع ٤٦ وما يليه) وكان يوسف ابن ثلاثين سنة حين مثل بين يدي فرعون ، وخرج وجال في جميع أرض مصر وجاءت سنو الشبع فكان يجمع في كل مدينة غلال ما حولها من الحقول مدة السنين السبع . فخزن كثيراً جداً من البر في مخازن مصر وكان من مهامه نظارة المخازن الملكية . وكشفت لنا الآثار المصرية عن أسماء كثيرين من عمال مصر يلقبون بنظار المخازن . ففي متحف ميرامار قصر مكسيمليان عاهل المكسيك على مقربة من تريستي تمثال صغير كتب عليه اسم شمنشت ناظر المخازن الملكية . وفي المتحف البريطاني صفيحة كتب عليها اسم منتوهبت ناظر مخازن الحكومة، إلى غير ذلك مما كتب على بعض المدافن في مصر . وقد بيّنت لنا هذه الآثار كل ما يتعلق بالغلال من زرعها إلى حصادها ، وجمعها أكداساً أكداساً كما قال الكتاب ، وإلى وضعها في المخازن التي هي أهراءات واسعة مبنية على هيئة مخروطية الشكل ، في أعلاها فتحة لإنزال الغلال، وفي أسفلها نافذة لإخراجها . ولقلة الرطوبة في هذا القطر تصان الغلال فيه سنين عديدة من التعفن والفساد . ففي متحف اللوفر في باريس غلال وجدت في مدافن حفظت فيها منذ من أربعين قرناً، وحسبك هذا رداً لمزاعم من قال لا يمكن صيانة غلال يوسف سبع سنين من الفساد .

كذّب بعض الجاحدين بحصول مجاعة في مصر مدة سبع سنين متتالية ، وتمحلوا لتكذيبهم وجهين : أولهما أن فيضان النيل سبع سنين ونقصه سبع سنين متتالية مخالف لسنن الطبيعة . وتوفر الغلة في مصر أو قلتها متوقفان على زيادة امواه النيل وانتقاصها . والثاني أن هذه المجاعة لم يرد ذكرها في أحد كتب القدماء ، ولا ترى لها أثراً في الآثار المصرية، ولذلك جنح بعض المؤرخين في هذا العصر أن عدد السبع السنين هنا لا يراد به حصر السنين بسبع بل يراد به مدة متطاولة . على أنه لا حاجة إلى هذا التكلف والتأويل إذ جاء في كتب القدماء

والحدثاء ذكر مجاعات كالتي كانت في عصر يوسف، وأنبأتنا الآثار بحصول مجاعات ويرجح كثيراً أن إحداهما المجاعة التي استدرك يوسف مضارها وهاك البيان.

فقد ذكر أوفيد (في الكتاب الأول من اشعاره في صناعة الحب)،وهو شاعر لاتيني كان في عهد اغوسطوس قيصر «أنه حصلت مجاعة في مصر دامت تسع سنين» وقال بلينيوس (في كتابه التاريخ الطبيعي) قوله المشهور: «إذا لم يبلغ ارتفاع أمواه النيل حين فيضانه اثني عشر ذراعاً كانت في مصر مجاعة. وإذا بلغ ثلاثة عشر ذراعاً فالجوع أيضاً. وكانت المسرة إذا بلغت أربعة عشر، والطمأنينة إذا بلغ خمسة عشر، والرغد إذا بلغ ستة عشر ذراعاً». وقد كتب عالم يسمى عبد اللطيف (كان في عصر الخلفاء العباسيين في مصر) مقالة في مصر، ترجمها العالم دي ساسي إلى الإفرنسية، وممّا قاله فيها: «إذا نقص فيضان النيل عن ستة عشر ذراعاً كان في مصر عوز إلى القوت كثيراً أو قليلاً بحسب انتقاص المياه». وذكر كثيراً من المجاعات بسبب انتقاص أمواه النيل، وإحداها استمرت كمجاعة يوسف سبع سنين من سنة ١٠٦٤ م إلى سنة ١٠٧١ م على عهد المستنصر بالله، وأنه في سنة ٥٩٦ للهجرة (الموافقة لسنة ١١٩٩ للميلاد). لم يرتفع النيل إلّا اثني عشر ذراعاً وواحد وعشرين قيراطاً، وهو أمر نادر لم يكن له مثيل منذ تاريخ الهجرة إلّا في سنة ٣٥٦هـ. وأطال الكلام في مضار المجاعة التي كانت في سنة ٥٦٧ للهجرة حتى أكل الناس الكلاب، وسائر الدواب والحشرات وجثث الموتى، بل اتصلوا إلى أن يأكل بعضهم بعضاً، وألجئت الحكومة أن تحرق في القاهرة في بضعة أيام ثلاثين امرأة أقرّت كل منهنّ بأكلها لحم صغارها وغيرهم.

ثم أنبأتنا الآثار المصرية القديمة حصول مجاعات عديدة في مصر. فقد كتب في مقبرة بني حسن على مدفن والٍ اسمه أماني، توفي في السنة ال٤٣ للملك اوزرتسن الأول احد ملوك الدولة الثانية عشرة قبل يوسف بقرونٍ ما نصه: «لم تكن مجاعة في أيامي ولم يهلك الجوع أحداً في عهد ولايتي، إذ حصلت سنو المجاعة لأني جعلت الناس يحرثون كل الحقول الواقعة في عمل ساه (اسم موضع) جنوباً، وشمالاً، وأقتُّ السكّان على آخرهم موزعاً عليهم حاصلات تلك الحقول حتى لم يمت أحد جوعاً». وذكر مسبرو (في كتاب تاريخه القديم لشعوب المشرق) وصية، يقال: أن أمنامهت الأول عهد بها إلى اوزرتسن الأول الآنف

ذكره ، ومما حوته هذه الوصية قوله : « جعلت القوم يحرثون أرض البلاد حتى ابو (في جنوب مصر) ، فشملت المسرة جميعهم حتى أدهو (مصر السفلى) ، فكنت موجداً ثلاثة أصناف من الغلال ، وأنا صديق نبرات (إله الغلة) ، وجاد النيل علينا بفيضانه على كل الحقول فلم تكن مجاعة في مدة ملكي .

واكتشف العلامة بروغش أثراً مصرياً منبئاً بحصول مجاعة ، ورأى أنها المجاعة التي حاقت بمصر على عهد يوسف ، وهذا الأثر هو خطوط هيروكليفية وجدت منقوشة على مدفن رجل يسمى بابا في قرية الكاب ، ويتبين منها أنه حصلت مجاعة في مصر دامت سنين عديدة ، وتهيأ لهذا الرجل أن يُقيت أسرته العديدة وسائر سكان المدينة التي كان فيها . وهاك ترجمة هذا الأثر كما رواها بروغش (في كتابه في تاريخ مصر مجلد ١ صفحة ١٧٦ طبعة ٢) ، وكما عربها أحمد أفندي كمال مترجم الأنتيقه خان المصرية ، وناظر مدرستها في كتابه الموسوم بالعقد الثمين في محاسن أخبار وبدائع آثار الأقدمين من المصريين قال : « كنت ذا قلب رؤوف لا آلف الغضب ، ولذا أكرمتني المعبودات بالخير الجزيل في دار الدنيا . وكان أهل بلدي وهي الكاب يتمنون لي الصحة وطول العمر ، وكنت أقتص من المسيئين ، ورزقت من الأولاد مدة حياتي اثنين وخمسين ولداً صغيراً وكبيراً . وكان لكلٍ منهم سرير وكرسي ومائدة ، وكانوا يأكلون كل يوم مئة وعشرين مداً من القمح والحبوب . وكان لهم ثلاث بقرات حلوبات واثنتان وخمسون ماعزة ، وثمانية حمير ، وكانوا يحرقون من البخور ما ينيف على الهين (مكيال لقدماء المصريين) ، ويصرفون من الزيت ملء زجاجتين ... وكنت هيأتُ كل ذلك في بيتي ، وكنت أعطي اللبن الرائب في قدر والسمن في قدر طويلة ضيقة الرأس تعرف بالذلق بمقدار يزيد على الهين . وجمعت قمحاً كثيراً محبة للمعبود الصالح (وفسره أحمد أفندي بمعنى الملك) . وكنت حريصاً على الزراعة في سني الخصب ، ولما حصلت المجاعة مدة كثيرة من السنين كنت أعطي القمح لأهل المدينة في كل مجاعة » .

ولم يُذكر تاريخ لهذه الخطوط وقدَّر بروغش سنداً إلى نقش المدفن ، ونوع الكتابة عليه ، وإلى مجاورته لمدفن العامل المصري المسمى أحمس (الذي روينا ما كتب على مدفنه في ع ٩٨) : إن هذه المجاعة هي التي ذكرها الكتاب في عصر يوسف ، وقد روت المجلة المسماة التمدن الكاثوليكي هذا الإكتشاف في ع ٩٣٨

في تاريخ ٢٠ تموز سنة ١٨٨٩ م . وأثبتت ما نحن مثبتون، وأنه لا يحفل بالفرق بين ما كتب في الأثر، وهو مدة كثير من السنين (أو سنين عديدة) ، وما كتب في الكتاب وهو سبع سنين. فالمعنى متقارب وكأنه مرادف . وجاء في الجريدة الإفرنسية الاونيفر (المسكونة) في أحد أعدادها في شهر آب سنة ١٨٩٠ م ان العالم بروغش اكتشف أيضاً في محل قريب من القصر صفيحة تبين منها أنه انتقص فيضان النيل، فنجم عن ذلك حصول مجاعة دامت سبع سنين. وان بروغش جدَّ في التنقيب عن تاريخها ، فأدّاه جدّه إلى أنها كانت لنحو سنة ١٩٠٠ قبل الميلاد، أي في نحو الزمان الذي كان فيه يوسف وزيراً لفرعون على أننا نظن أن كلام الاونيفر إنما هو في الأثر الذي وجد في مدفن بابا السالف ذكره لا في أثر آخر.

عد ١٧٤

ما يعزى إلى يوسف في مصر

قال «الكتاب» (تك ف ٤٧ ع ١٤ وما يليه) : « وجمع يوسف جميع الفضة التي في أرض مصر ، وفي أرض كنعان بالميرة التي كانوا يبتاعونها ، وأدخلها بيت فرعون » . لم يكتفِ يوسف بأن يتلافى مضار المجاعة بل عنيَ كرجل خبير بالسياسة أن يقوّي سلطة مولاه ، ويزيد غنى دولته بإدخال فضة الأهلين خزائن فرعون . ثم بتمليكه ماشيتهم إذ قال يوسف للمصريين طالبي الطعام : « إذا كانت فضتكم قد نفدت فهاتوا ماشيتكم أبعكم بها ، فجاءوا يوسف بماشيتهم ، فأعطاهم طعاماً بالخيل وبالماشية من الغنم والبقر والحمير » . وهذه أول مرة أُتي بها بذكر الخيل في مصر، فيرجح أن الملوك الرعاة أدخلوها فيها . قال شباس : كان عامة الناس في مصر يربون الخيل ، ويستخدمونها فلا سبيل إلى نقض شهادة الكتاب المصرحة بأن المصريين أتوا يوسف حين مجاعتهم بخيلهم ، وغنمهم، وبقرهم يستبدلونها بغلّة . وجاء في البابير المعروف بساليار الأول ، وفي البابير انسطاسي الثالث أنه كان لصغار العمال خيل لاستحضار المون اللازمة لبيوتهم من القرى ، وكان كبارهم ووجهاؤهم يركبون الخيل، وعَمَلتهم يستخدمونها لجر العجال كما في آثار عديدة .

قال «الكتاب» إن المصريين عادوا في السنة التالية إلى يوسف يشكون إليه سوء

مصيرهم، لأنه لم يبق بين يديه إلّا أبدانهم وأراضيهم، ويسألونه أن يشتريهم وأراضيهم لفرعون. فاشترى يوسف جميع أراضي المصريين لفرعون لأنهم باعوا كل واحد حقله، فصارت الأرض لفرعون إلّا أن أرض كهنتهم لم يشترها لأنها كانت للكهنة وظائف أي أرزاقٌ من قبل فرعون، يأكلونها ولذلك لم يبيعوا أراضيهم، وقال لهم يوسف: خذوا لكم بذراً تزرعونه في الأرض، فإذا خرجت الغلال تعطون منها الخمس لفرعون، والأربعة الأخماس تكون بذراً للحقول وميرة لكم. وجعل يوسف تأدية الخمس للملك رسماً على أرض مصر إلى اليوم فقال له المصريون قد أحييتنا، ودعوا له (تك ف ٤٧ ع ١٨ وما يليه)، قال الأب فيكورو في (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ١٨٠) ما ملخصه: إنّ الآثار المصرية مثبتة انتقال ملك الأرض في مصر إلى الفراعنة، وإن لم تصرح باسم من صنع ذلك، فإننا نرى أرض مصر في أيام ملوكها الأقدمين، والمتوسطين يملكها بعض سادة مصر وكبرائها، ويسلمونها إلى مزارعين، وتنتقل إلى غيرهم بطريق البيع أو الإرث أو الزواج. وأما في أيام ملوكها بعد الرعاة فلا نجد أثراً مُشْعِراً بملك أحد أرضاً إلّا الملك. فيوسف نقل ملك أرض البلاد كلها إلى فرعون، ولا يستثنى من ذلك إلّا أرض الكهنة. وقد جاء في البابير المعروف بهاريس أن رعمسيس الثالث كان مالكاً أرض مصر كلّها إذ قال: «أنا غرست في البلاد بأسرها أشجاراً كبيرة وصغيرة، وسمحت للناس أن تستظل بفيئها... أنا كفيت البلاد كلها رزقاً... أنا مونت البلاد بعد أن نفدت مؤنها، فامتلأت البلاد، شبعاً في عهد ملكي... فاشتغلوا له (أي لابنه رعمسيس الرابع)، كأن لكم يداً واحدة بكل نوع من العمل... فتجزون بقوته لكم كل يوم».

وهذا الكلام ينطق صراحة بأن أرض مصر كانت ملك فرعون وهو يموّن حارثيها وسائر شعبه، ولا يمكن اعزاء ذلك إلّا إلى تمليك يوسف فرعون أرض مصر إذ كان قبله مالكون. ولا نجد بعده مالكاً إلّا الملك والكهنة الذين ترك يوسف لهم أراضيهم. وقال هيرودت (ك ٢ ف ١٠٩): «رووا أن الملك سيزوستريس (رعمسيس الثاني) قسم أرض مصر على جميع المصريين، فأعطى كلاً منهم نصيباً سوياً، وفرض على كل منهم جزية سنوية على نصيبه من الأرض». وهذا تصرف مالك بلا مراء. ورعمسيس كان بعد يوسف في عهد موسى. وأثبت هيرودت (في ك ٢ ف ٣٧): أن أرض الكهنة كانت معفاة من

الضرائب ، والجزية طبق ما جاء في التكوين كما رأيت . على أن يوسف لم ينتزع الأرضين من يد حارثيها بل أبقاها في يدهم ووضع نظاماً حديثاً للمال الأميري .

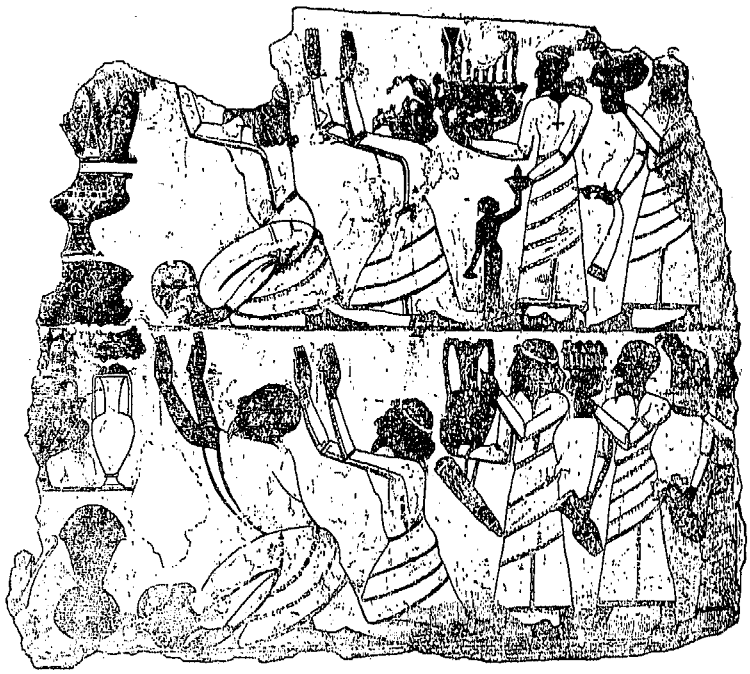
ويعزى إلى يوسف انشاء بعض مجارٍ للنيل في أرض مصر . وقال فيكورو (صفحة ١٨٣ من المجلد الآنف الذكر) : إنّ هذا التقليد غير بعيد عن الصحة . ويعزى إليه إنشاء بعض أهراء لغلال الحكومة في مصر القديمة، وتسميها العامة خزان أو مخازن يوسف . ولكن قال بعض الجوالة إنّ تلك الأهراء محال فسيحة يحيطها سور ارتفاعه عشرون قدماً ، ولا سقف لها، وهي منقسمة أقساماً عديدة ، تجمع الحكومة فيها الغلال التي تجبيها من مصر العليا. وهيئة بنائها تقضي بأنها ليست قديمة . وروى كثيرون أن يوسف علّم المصريين مساحة الأرض ، ووضع المكاييل وأقام عموداً في مياه النيل لمعرفة درجات فيضانه . وقال المرتل فيه (مزمور ١٠٤ عد ٢١ و ٢٢) : « أقامه (فرعون) سيداً على بيته وسلطاناً على جميع مقتناه حتى أنه جعل عظماءه تحت حكمه فهو علّم شيوخه الحكمة » .

عد ١٧٥

انحدار إخوة يوسف إلى مصر وتعرفه إليهم

قد عمت المجاعة أرض فلسطين ، فانحدر بنو يعقوب إلى مصر ليمتاروا لهم طعاماً . فعرفهم يوسف أخوهم وتنكر لهم . وقلق لأنه لم يرَ بينهم شقيقه بنيامين. فاستدعاهم ، وتظاهر بأنه يحسبهم جواسيس ليستطلعهم أخبار أخيه وأبيه ، فأجابوه بسذاجة، ولم يكاتموه إلّا سرّ بيعهم له، وصرّحوا بأن صغيرهم باقٍ عند أبيهم فسكن قلقه من جرائه . لكنه واصل تعنيفهم لهم بأنهم جواسيس حالفاً بحياة فرعون . قال شباس : يظهر من الآثار أن هذا الحلف كان متوتراً عند المصريين ، وأنهم كانوا يخشون حقيقة هجوم بعض القبائل على بلادهم لاسيما بسبب المجاعة . وانه يظهر من البابير المحفوظ في برلين أنهم بنوا أسواراً تمتد من خليج السويس إلى بحيرة المنزلة تحصناً من مثل هذه المهاجمات ، وأن رعمسيس الثاني لم يبنِ هذا السور بل رممه على ما روى ديودورس الصقلي (ك ١ فصل ٥٧) . ولم يؤذن يوسف بانصراف إخوته إلى بلادهم إلّا بشرط أن يعودوا إليه وأخوهم الصغير معهم ، وأن يبقى شمعون أحدهم رهينة عنده على ذلك . وأمر أن تملأ أوعيتهم برّاً،

وترد فضة كل واحد في جوالقه، وأن يعطوا زاداً للطريق. فصنع لهم ذلك وبينما هم يفرغون أوعيتهم إذا بصرّة فضة كل منهم في جوالقه. فخافوا واغتمّ أبوهم لما قصوا عليه ما نالهم، وكيف استبقى المتسلط على مصر شمعون رهينة عنده إلى أن يأتوه ببنيامين، تصديقاً لقولهم إنهم ليسوا هم جواسيس. وحاول أن لا ينحدر



صورة أخذت عن جدران تاب إلى المتحف البريطاني تمثل روثانو اي سوريين يقدمون هداياهم لمتسلط في مصر

بنيامين لكنهم فرغوا من أكل الميرة التي أتوا بها، واشتد الجوع فألجئ يعقوب أن يسمح لهم بالعودة إلى مصر وبنيامين معهم وقال: إصطحبوا هدية إلى الرجل «شيئاً من البلسان وشيئاً من الدبس ونكعة ولاذناً وفستقاً ولوزاً»، فالبلسان والنكعة واللاذن هي من أصناف التجارة التي كانت قافلة الإسمعيليين تقلها إلى مصر عند مشتراهم يوسف، والدبس لا يراد به عسل النحل كما وهم بعضهم بل الدبس حقيقة المصطنع من عصير العنب، وهو في الأصل العبراني «دباش».

ولما بلغ بنو يعقوب مصر أمر يوسف قيّم بيته ، أن يدخلهم داره ، ويعدّ لهم مأدبة، فوهموا أنه يريد إلقاءهم في السجن بسبب الفضة التي وجدت في جوالقهم . وباحوا إلى القيّم بسرّ وهمهم، فأمّنهم واطمأنوا . « ولما قدم يوسف إلى البيت ادخلوا له الهدية التي في أيديهم وسجدوا له إلى الأرض » . فكان بذلك إتمام ما رآه في أحلام صباه . وفي المتحف البريطاني صورة أخذت من طيبة (تاب) ، ويظهر أن هذه الصورة نقشت في عصر الدولة الثامنة عشرة، وهي تمثل رجالاً من الروثانو، (وهم سكان سورية أو الساميون) يقدمون هدايا لفرعون أو أحد كبراء دولته وبعضهم ساجد له بوجهه إلى الأرض ، «وبعضهم رافع يديه يدعو له ويتوسل إليه، وبينهم صبيّ ، ويلقون تقادمهم عند رجلي الملك أو أحد كبار عماله ، وكل منهم إلا الصبي - مرتدٍ بثوب طويل أبيض معلم ، وسمات وجوههم وعيونهم أشبه بسمات اليهود أو العرب ، ولحاهم مطلقة نظيرهم حتى يخال الناظر ان الصورة رسم لما جاء في الكتاب عن تقدمة اخوة يوسف هدايا له ، وسجودهم أمامه ولا اختلاف إلّا في الأسماء وعدد الأشخاص .

وسألهم يوسف عن سلامة أبيهم ، فقالوا : انه في سلام ولا يزال حياً وخروا وسجدوا ونظر إلى بنيامين فقال : أهذا هو أخوكم الصغير الذي ذكرتموه لي ؟ وقال : يرأف الرب بك يا بنيّ وتحرك فؤاده إليه، فدخل المخدع وبكى، ثم غسل وجهه ، وتجلد، وقال: قدموا الطعام وقدموا له وحده ، ولهم وحدهم ، وللمصريين الآكلين عنده وحدهم ، لأن المصريين لم يكونوا يأكلون مع العبرانيين لأنه رجس عندهم . وفي المتحف البريطاني صور أخذت من مصر تمثل لنا هيئة الموائد عند المصريين ، فترى كلّاً من المدعوين جالساً بجانب مائدة مخصوصة متشحاً بأفخر ملابسه ، والأرقاء يقدمون لهم المشرب ، وبجانبهم راقصات يرقصنَ ، وأربعة أرقاء يضربون بآلات الطرب . وكان لحم الخنزير محظوراً أكله على المصريين، فيأكلون لحوم البقر والماعز والغنم مطبوخة ومشوية . قال هيرودت (ك ٢ ف ٤١) : إنّ المصريين كانوا يفضلون البقرات (إجلالاً لأيسيس) على جميع الحيوانات ، ولا يستعملون سكيناً أو إناء استعمله يوناني ، ولا يذوقون لحم البقر نفسه ولو نقياً إذا مسه سكين يوناني . وكانوا يعتبرون الأجانب أرجاساً فلا يؤاكلونهم ، وأكل يوسف وحده رعاية لمقامه، لكنه رفع حصصاً من بين يديه إلى إخوته، فكانت حصة بنيامين أكثر من حصّة خمسة منهم .

وشاء يوسف أن يمتحن إخوته ليرى ما يكنّون من جهة أخيه بنيامين. فأمر قيّم بيته أن يملأ جوالقهم طعاماً، ويجعل فضة كل منهم في فم جوالقه، ويضع جام الفضة التي يشرب يوسف به في فم جوالق بنيامين مع فضة ميرته. فصنع القيّم كما أمر يوسف، وانصرف اخوته صباحاً، فقال للقيم: قم فاسع في أثر القوم فإذا أدركتهم فقل لهم لِمَ كافأتم الخير بالشر؟ أليس هذا هو (الجام) الذي يشرب به مولاي ويتفاءل به؟ فلحقهم وقال لهم ذلك الكلام فاستغربوه واستاءوا منه. وأوردوا لتبرئتهم ما صنعوه بردهم الفضة التي وجدت أولاً في جوالقهم وقالوا: من وجد الجام معه يقتل، ويكون الباقون عبيداً لسيده، فحطوا الجوالق ففتشها، فإذا الجام في جوالق بنيامين. فمزقوا ثيابهم وحمّل كلٌّ منهم حماره وعادوا إلى المدينة، ووقعوا بين يدي يوسف، فقال لهم: ما هذا الصنيع؟ أما علمتم أن رجلاً مثلي يتفاءل؟ فقال يهوذا: بماذا نتكلم؟ وبماذا نتبرأ؟ ها نحن ومن وجد الجام في يده عبيد لسيدي. فقال يوسف: حاش لي أن أصنع هذا بل الرجل الذي وجد الجام في يده هو يكون لي عبداً، وأنتم تصعدون بسلام. فبسط إليه يهوذا ما كان لهم معه أولاً، وكم شق على أبيه أن يسمح لبنيامين أن ينحدر معهم إلى مصير لتعلق نفسه به، وما يتولاه من الكآبة إن لم يعد معهم، فيموت وتنحدر شيبته بحسرة إلى الجحيم (تك ف ٤٤).

وقد أنبأتنا الآثار المصرية أن قصور المصريين كانت ملأى بالأثاث والآنية النفيسة. وكانت الجامات والكؤوس لاسيما التي يستعملها رب البيت ثمينة المادة بديعة الصناعة. فقد وجد في المدافن كثير من هذه الاجؤم. وازدهت متاحف أوروبا بكثير منها وبعضها من ذهب وبعضها من فضة أو نحاس أو زجاج. ففي متحف باريس جام من ذهب نقش عليه اسم تحوتمس الثالث أحد فراعنة الدولة الثامنة عشرة، وهو بديع الصناعة. وهناك أيضاً جام آخر من فضة كان لأحد كبار عمال مصر، فلا بدع إن كان ليوسف جام من فضة. وقد ندد جاحدو الوحي بالكتاب قائلين: لم نجد أثراً ولا ذكراً للتفاؤل بالجامات في مصر أو غيرها من الأصقاع، وكيف اعتقد يوسف الفال أو تفاءل؟ على أنه قد حقق كثير من الجوالة أن المصريين كانوا يستعملون التفاؤل بالأجوام وما برح بعضهم يستعمله إلى الآن. وفي كتاب صيني كتب سنة ١٧٩٢م أن من جملة أنواع التفاؤل التي يستعملها أهل هذه البلدان انهم يصبون ماء في إناء ويبصرون ما يظهر لهم في الماء. وكان

الجام عند الفرس آلة للتفاؤل، وقد لهج شعراؤهم بجام توصل من بلادهم إلى سليمان واسكندر. فكان سبباً لنجاحهما ومجدهما. وذكر أحد هؤلاء الشعراء يوسف في عداد توصل هذا الجام إليهم. وقال القديس أفرام السرياني (في كتبه المطبوعة في رومة بالسريانية واللاتينية مجلد ١ صفحة ١٠٠): انه كان البعض يتفاءلون بالجام فينقرونه ويصغون لصوت رنته، فيستدلون به على ما يستقبل من الأمور. وأما كيف اعتقد يوسف الفأل أو تفاءل؟ فقال القديس توما (في الخلاصة اللاهوتية مجلد ٢ مبحث ١٩٥): «ان قول يوسف أما علمتم أن رجل مثلي يتفاءل؟ قاله هزلاً لا جدّاً على ما رأى أغسطينوس، ولعله أشار بذلك إلى ما تعتقده العامة به بعد تعبيره الأحلام (أي إنه ساحر ككهنتهم) وكذا قل في كلام قيّم بيته».

قال «الكتاب» (تك ف ٤٥) لم يستطع يوسف أن يضبط نفسه فنادى: أخرجوا كل أحد من بين يديَّ فخرجوا. وتعرف يوسف إلى إخوته قائلاً: أنا يوسف أخوكم أحي أبي بعد؟ فارتاع إخوته فقال لهم: تقدموا إليَّ فتقدّموا وأطلق صوته بالبكاء، وألقى نفسه على عنق بنيامين أخيه. فبكى وبكى بنيامين على عنقه، وقبّل سائر إخوته وبكى معهم، وقال: لا تأسفوا، ولا يشقّ عليكم أنكم بعتموني إلى هنا، فإن الله قد بعثني أمامكم لاحييكم، وصيرني أباً لفرعون وسيداً لجميع أهله، ومتسلطاً على أرض مصر كلّها. وقد مضت سنتا جوع في الأرض، وبقي خمس سنين ليس فيها حرث ولا حصاد. فبادروا وأشخصوا إلى أبي، وقولوا له كذا قال ابنك يوسف، فهلمَّ إليّ ولا تقف فتكون قريباً مني أنت، وبنوك وبنو بنيك وكل ما هو لك لئلا تفنى أنت وأهلك. ونما الخبر إلى بيت فرعون أن قد جاء إخوة يوسف، فقال له.فرعون: قل لإخوتك: حمّلوا دوابكم وانطلقوا وخذوا أباكم وبيوتكم، وتعالوا إليَّ فأعطيكم خير أرض مصر. وخذوا لكم عجلات لأطفالكم، ونسائكم، ولا تحزن نفوسكم على أثاثكم إن خير مصر هو لكم. وأعطاهم يوسف عجلات بأمر فرعون، وزاداً للطريق، وأعطى كلًّا منهم حلل ثياب، وبنيامين ثلاثمائة من الفضة وخمس حلل ثياب. وبعث إلى أبيه بمثل ذلك، وبعشرة حمير محملة من خير مصر، وعشر اتن محملة براً وخبزاً، وزاداً لأبيه للطريق وصرفهم وأوصاهم أن لا يتخاصموا في الطريق.

عد ١٧٦

انحدار يعقوب إلى مصر بأسرته وفي محلهم فيها

ارتحل إسرائيل بجميع ماله حتى جاء بئر سبع. فقدّم لله ذبائح. فظهر الله له في الحلم قائلاً: لا تخف أن تهبط إلى مصر، فإني سأجعلك ثمة أمة عظيمة، فقام يعقوب من بئر سبع، وحمل أبناؤه أباهم وأطفالهم ونساءهم على العجلات التي أرسلها فرعون. وأخذوا ماشيتهم وسرحهم، فكان جملة الداخلين إلى مصر مع ابني يوسف منسا وافرائيم سبعون نفساً. وشدّ يوسف على مركبته وصعد ليلاقي أباه في جاثان، فلما ظهر له ألقى بنفسه على عنقه وبكى طويلاً وقال له: دعني أموت الآن بعد أن رأيت وجهك، وقال يوسف لأبيه وإخوته: أنا صاعد إلى فرعون لأخبره بقدومكم. فإذا استدعاكم وقال لكم: ما حرفتكم قولوا: كنا نحن وآباؤنا إلى الآن ذوي ماشية لكي تقيموا بأرض جاثان، لأن كل راعي غنم هو عند المصريين رجس (تكوين فصل ٤٦).

إنما قصد يوسف بهذا أن يستمر أهله على حالة رعاية الماشية، وأن ينكبهم كثرة المخالطة مع المصريين، وأن يحلهم في أجود الأرض. وقد تعددت أقوال المفسرين في اعتبار المصريين كل راعي غنم رجساً، فقال الحجري في تفسير هذه الآية: إنما ذلك لأن الرعاة يذبحون ويأكلون لحوم غنمهم، وبقرهم التي كان المصريون يعبدونها، واستشهد لرأيه بقول الكتاب في سفر الخروج (ف ٨ عد ٢٦): أن موسى قال لفرعون: «ليس من الصواب أن تصنع (أي أن نذبح في أرض مصر) لأننا إنما نذبح للرب إلهنا ما هو رجس عند المصريين. فهل نذبح بحضرتهم ما هو رجس عندهم ولا يرجمونا»؟ وقال الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ١٦٤) ما ملخصه: قال بعضهم: «ان المصريين كانوا يعدّون الرعاة أرجاساً لتوقف نجاح بلادهم على الزراعة، ولأن اسم الرعاة يشير إلى الخساسة والوغادة والهمجية. وقالوا: إن الآثار تمثل الرعاة بهيئة ضعفاء شنيعي المنظر. وأن هيرودت أشار (في ك ٢ فصل ١٦٤) إلى أن المصريين كانوا يمقتون جميع الرعاة، لأن رعاة الخنازير منهم، ولا تستقيم النتيجة لأن مقت المصريين رعاة الخنازير إنما كان لرجاسة هذا الحيوان عندهم. فلا يتعدى إلى سائر الرعاة، وبعض الآثار المصرية يمثل الرعاة بهيئة الأرقاء، وبعضها يمثلهم

بشيء من التعظيم لكثرة ماشيتهم ، أو ما كان الأولى لحل هذه المشاكل ان نقول : إن المصريين كانوا يمقتون الرعاة لأن الملوك الرعاة أذلوهم واستحوذوا على بلادهم . وأبابي أحدهم أحسن قبول العبرانيين لأنهم من أهل وطنه القديم . وقرظ الأب فيكورو كلمت لأنه اهتدى (في تفسيره سفر التكوين) إلى هذا الوجه لتفسير هذه الآية قبل أن ينجلي تاريخ الملوك الرعاة كما انجلى الآن ، فلم يكن الرعاة الوطنيون أرجاساً بل كانوا يعتبرون الرعاة الأجانب أرجاساً من جرى الملوك الرعاة .

وأخذ يوسف أولاً خمسة من إخوته فمثلهم بين يدي فرعون ، فتلطف بهم وقال نيوسف : إن كنت تعلم أن فيهم ذوي حذقٍ فأقمهم على ماشيتي . ثم أدخل يوسف يعقوب أباه ومثله بين يدي فرعون ، فرحّب به وسأله عن عمره فقال : سنو غربتي مئة وثلاثون سنة، ولم تبلغ سني حياة آبائي. وعاش يعقوب بعد ذلك في مصر سبع عشرة سنة ، وأحلّ يوسف أخوته في أجود موضع من مصر، وهو أرض جاسان التي سماها الكتاب أرض رعمسيس أيضاً . وأقام بعض اخوته وكلاء على ماشية فرعون . وكان للفراعنة ماشية كثيرة ، ويكفي لاثبات ذلك ما ذكروه من تقادمهم للهياكل. فجاء في البابير المعروف بهاريس : أن رعمسيس الثالث قدم لهيكل طيبة (تاب) قطيع ماشية وعدده ستة وثمانون ألف رأس، ولهيكل هيلوبوليس (المطرية الآن أو تل الحصن) قطيعاً عدده خمسة وأربعون ألفاً وخمس مئة وأربعة وأربعون رأساً .

قد كان للعلماء ومفسري الكتاب قبل الإكتشافات الحديثة أقوال عديدة متضاربة في موقع أرض جاسان التي احتلها بنو إسرائيل . فإنّ الجهل بجغرافية مصر أوقع امهرهم في أغلاط بيّنة من ذلك، جعل العلامة كرنيلوس الحجري موقع مدينة رعمسيس وأرض جاسان في الصعيد في جنوبي مصر حيث توفر عدد السائحين في صدر النصرانية . ولم يسعد الحظ كلمت الشهير أن يحترز من التهور في مثل هذا الغلط على أن احتفار قناة السويس ، وابحاث العالم أدوار نافيل في هذه الأرض سنة ١٨٨٥ م على نفقة الجمعية الإنكليزية المعروفة بلجنة البحث في مصر ، كشفت لنا عن حقيقة موقع جاسان وأرض رعمسيس، فهي في الجهة الشمالية الشرقية من مصر حيث الآن المديرية المعروفة بالشرقية . فقد وجد نافيل هناك تمثال رعمسيس الثاني نفسه مكتوباً عليه اسمه ست مرات . واكتُشف في المحل المعروف الآن هناك بسفط الجنة على أثر يتبين منه أنّ هذا المحل كان يسمى كاسام . وكان هذا الاسم يطلق على

العمل كله، وليس كاسام إلّا جاسان مبدلاً فيه حرفان بما يقاربهما، كما جرى في كثير من هذه الأسماء، وهو في الجنوب الشرقي من الزقازيق، وفي الشرق من تل المسقوطة. وهناك سفط وتل الكبير. وقد جاء في سفر الخروج (ف١ ع ١١): أن بني إسرائيل «بنوا لفرعون مدينتي خزن وهما فيتوم ورعمسيس.

وحققت أبحاث نافيل أن أخربة تل المسقوطة إنما هي فيتوم القديمة حقيقة. ففيتوم أو بيتوم كلمة مركبة من بي ومعناه بيت كما في السريانية، ومن توم اسم أحد معبودات مصر، فكانت هذه المدينة مفردة لهذا الاله وتحت حمايته. وجميع الآثار التي وجدت هناك تجد عليها اسم الاله توم، وهناك وجد تمثال رعمسيس الذي سميت المدينة الثانية باسمه. ومن جملة هذه الآثار تمثال صغير من حجر أحمر كتب عليه اسم الإله توم ثلاث مرات، ووجدت صورة هذا الإله أيضاً وكثير من اللبن مصنوع من أوحال النيل يخالطها التبن وذلك من بقايا سور المدينة. وهذا اللبن هو الذي كان الفراعنة يسخرون بني إسرائيل بصنعه. فقد كان إذاً تل المسقوطة جزءاً من أرض جاسان أو أرض رعمسيس. ولا يخالف ذلك أن هذه الأرض لا ترى الآن خصبة جيدة التربة لأن أرمال البرية الحارة غطتها بعد أن كانت في أيام بني إسرائيل تسقى بمياه النيل. وتشهد لذلك آثار القناة الباقية إلى الآن ولم يشهد الكتاب وحده بجودة أرض جاسان بل شهدت لها الآثار أيضاً، فقد جاء في البابير المحفوظ الآن في لوندرة، وقد خطّ في مدة إقامة بني إسرائيل في مصر ان أرض رعمسيس كانت على غاية من العمران من حيث كثرة السكان، وغزارة ماء سقائها، وكثرة غلاتها. قال الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٢٢٤): «إن أرض جاسان يعود إليها خصبها إذا أحياها ماء النيل. وقد دلنا أحد سكان تل المسقوط عند زيارتنا لها في شهر آذار سنة ١٨٨٨ م على أرض فسيحة تبلغ ثماني مئة فدان (كما يقولون) إشتراها سنة ١٨٨٥ م. وسقاها بقناة صغيرة من ماء الإسمعيلية فأصبحت نضرة خصبة متوفرة الغلة» فهناك إذاً أقام يعقوب وهناك نما نسله كما سترى.

عد ١٧٧

وفاة يعقوب ثم يوسف في مصر

لما دنا أجل يعقوب دعا يوسف واستحلفه أن لا يدفنه في مصر، بل في مدفن

آبائه في حبرون. وأتاه يوسف بابنيه منسا وأفرائيم، فباركهما مقدماً أصغرهما أفرائيم على أكبرهما منسا ثم جمع بنيه وباركهم. وتنبأ على ما يكون لذرية كل منهم، وخصَّ يهوذا بإرث المواعد الالهية وبان المخلص يولد من نسله، وقدمه على إخوته: رأوبين وشمعون ولاوي مع أنهم أكبر منه سناً لجعلهم أنفسهم غير أهل للتقدم لما اقترفوا من الجرائم، ولاسيما إثخانهم في أرض شكيم عند افتضاض اختهم دينا. ولما فرغ من وصيته لبنيه ضم رجليه على السرير، فيظهر أنه كان يوصي جالساً ورجلاه ممتدتان، ولما فرغ ضم رجليه وفاضت روحه فما أهنأ موت الأبرار. فبكاه يوسف وأمر الأطباء أن يحنطوا جثته فحنطوها.

وقد اعتاد المصريون تحنيط جثث الموتى من أقدم الأيام. ذلك دليل على تيقنهم حياة أخرى وقيامة الموتى. وكان لهم من التحنيط أساليب متنوعة يجرون منها على ما شاءه أهل الميت من النفقة. وأقل أنواعه نفقة إخراج الأحشاء والدماغ ووضعها في قار مغلي، وحفظها في آنية من خزف أو غيره، وتجفيف سائر الجسم بوضعه في النترون مدة متطاولة نحواً من أربعين أو سبعين يوماً. ثم لف الجسم بعصائب من كتان نقي، وكثيراً ما توجد مكتوباً عليها أسماء الآلهة وآيات من السفر المعروف عندهم بسفر الموتى. وكانوا يضمون أيدي النساء على صدورهنَّ وأيدي الرجال على جانبي جثتهم، أو يضعون اليد اليسرى على كتف اليمنى. وكانت الخنافس رمزاً عندهم إلى عدم الموت، فكانوا يضعون مثالها موضع القلب ويعتبرون القلب مقر الضمير، فيكتبون على لفافته فقرة من الفصل الثلاثين من كتاب طريقة دفن الموتى هي: يا قلب يا قلب قد اتخذتك من أمي وكنت قلبي ما حييت على الأرض، فلا تكن شاهداً عليَّ ولا تشكوني إلى رئيسي الإلهي، ولا تثقل عليَّ أمام الإله الأعظم» (رواه مسبرو في تاريخ شعوب المشرق صفحة ٤١) ذلك دليلاً على اعتقادهم الدينونة.

وبعد إتمام التحنيط صعد يوسف ليدفن أباه، وصحبه آله إلّا أطفالهم، وجمّ غفير من عبيد فرعون، وشيوخ أرض مصر ومراكب وفرسان. فكان الموكب عظيماً جداً فأفضوا إلى بيدر اطاد في عبر الأردن. وقال القديس إيرونيموس: إنّ موقع هذا البيدر في عبر الأردن الشرقي. ثم قال: إنه في عبره الغربي يبعد ثلاثة أميال عن أريحا وميلين عن الأردن نحو الغرب. ولعل القول الأول حرّفه النساخ، أو ذكره هذا العلامة تبعاً لنص الكتاب. انه في عبر الاردن للقادم من مصر، إذ يكون قدومه من شرقي الاردن. وعبره في مغربه ولاسيما لأنه جعل موقع بيدر

أطاد في محل عين حجلة الآن (كاران مجلد ١ في السامرة صفحة ٥٣) . وهو تجاه مخاضة حجلة في شمالي الخليل، فهناك أقام يوسف مع صحبه مناحة لأبيه ، ولذلك سمي هذا المحل وقتئذ مناحة المصريين . ثم رفعوا جثة يعقوب إلى حبرون (الخليل) ، ودفنوه في المغارة المضاعفة مع ابراهيم وسارة واسحق ورفقا ولية (راجع عد ١٦٣) .

وخاف إخوة يوسف أن يتذكر أخوهم بعد وفاة أبيهم مساءتهم إليه فيجزيهم عليها شراً. فأرسلوا يقولون له ، إن أباه أوصى أن يغفر لاخوته ، فبكى يوسف حين قيل له هذا الكلام . فجاء إخوته ووقعوا بين يديه فقال : لا تخافوا هذه مشيئة الله ولاطفهم ، وعاش يوسف بعد وفاة أبيه نحواً من أربع وخمسين سنة ، لأن فرعون استوزره وعمره ثلاثون سنة ، ومرت سبع سني الشبع ، وسنتان من المجاعة إلى انحدار يعقوب إلى مصر . وعاش يعقوب في مصر سبع عشرة سنة فمجموع هذه السنين ست وخمسين سنة . وأنبأنا الكتاب أن يوسف مات وله من العمر مئة وعشر سنين فيكون الباقي منها أربع وخمسون سنة . وقبل موته استحلف آله أن ينقلوا عظامه إلى أرض الموعد متى افتقدهم الله وأخرجهم من مصر . فحنطت جثته على عادة المصريين ، ووضعت في تابوت حملوه معهم عند ارتحالهم من مصر إلى أرض كنعان . وجاء في سفر يشوع بن نون (ف ٢٤ ع ٣٢) : إنّ « عظام يوسف التي أصعدها بنو إسرائيل من مصر ، دفنوها في شكيم (نابلس) في قطعة الحقل الذي اشتراه يعقوب من بني حمور أبي شكيم بمئة نعجة (تك ف ٣٣ ع ١٩) وصار لبني يوسف ملكاً » . وقال القديس إيرونيموس (في المباحث العبرانية في التكوين) : إنّ مدفن يوسف كان يشاهد إلى أيامه في فلسطين . وقال العالم رونلدسن إنه زار في ١٨ تشرين الثاني سنة ١٨٦٨ م مدفناً في نابلس أجمع السامريون واليهود والمسلمون والنصارى على أنه مدفن يوسف ، وتلا هذا الجوالة الإنكليزية خطبة في هذا الشأن بحضرة أعضاء جمعية الآثار الكتابية في لوندرة في ٧ ك ٢ سنة ١٨٧٣م ، روى ذلك الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ١٩٦) وقال : « يحتمل أن يكون يوسف دفن في هذا المحل ولكن في حجرة والأثر الذي يشاهد الآن حديث وقد زرته في ٢٨ آذار سنة ١٨٨٨م وعليه كتابة إنكليزية ناطقة بأن العالم روجه عني بمرمته » .

لقد كانت المدة التي انقضت من إتيان ابراهيم إلى أرض كنعان إلى انحدار

يعقوب إلى مصر مئتين وخمس عشرة سنة ، لأن ابراهيم شخص إلى أرض كنعان وله من العمر خمس وسبعون سنة ، وولد اسحق وعمره مئة سنة أي لسنة ٢٥ من إتيانه إلى فلسطين . واسحق ولد يعقوب وعمره ستون سنة . ويعقوب انحدر إلى مصر وعمره مئة وثلاثون سنة كما رأيت ؛ فيكون المجموع ٢١٥ سنة .

الفصل الرابع

أخبار بني اسرائيل في مصر

عد ١٧٨

حالة بني اسرائيل أولاً في مصر واشتراكهم مع المصريين في بعض غزواتهم

نما بنو إسرائيل كثيراً في أرض جاسان الخصبة. ولم يبرحوا متميزين عن المصريين في دينهم وأدبهم ولغتهم. ولم يكن المصريون يهوون التقرب إليهم لأنهم رعاة ورُحّل. وقد رأيت أن الرعاة كانوا يحسبون في مصر أرجاساً ، وتلك عناية صمدانية ندرك من غايتها محافظة بني إسرائيل على اعتقادهم وحدانية الله. وعلى التقليدات التي تلقوها من ابراهيم واسحق ويعقوب ويوسف، ووقايتهم من سريان عدوى عقائد المصريين إليهم. على انه وإن كان للفراعنة الولاية العليا عليهم فكان لهم شيوخ يلون امرهم، فكان كل سبط يقسم إلى أسرات، ولكل اسرة شيخ ولشيوخ كل سبط رئيس يسميه المصريون هاك (والياً أو رئيساً). ويرأس هولاء عمال يسميهم المصريون سكوتريم (كتبة). تختارهم الحكومة من بني إسرائيل وهم المواخذون أمام الحكومة بتنفيذ أوامرها، وأداء التكاليف المفروضة على بني إسرائيل. فكان لإقامة بني إسرائيل في مصر وجهان نافع وضار. فالنافع قربهم من شعب

فاقهم حضارة، وتمدناً، فاقتبسوا منه بعض الصنائع، وأخذوا عنه عيشة الحضارة بدلاً من البدو. والضار تشوش بعض تقليداتهم وآدابهم وبعض الخلل في عبادة الاله الحق، ولذلك شاء الله إخراجهم من مصر.

قد حصلت ثورات عديدة في مدة إقامة بني إسرائيل في مصر منها طرد الملوك الرعاة، وعود البلاد إلى إستقلالها ومجدها كما رأيت في تاريخ الحثيين. ويظهر أن الملوك الوطنيين بعد الرعاة رفقوا ببني إسرائيل ولم يعنتوهم. وإنّ رجال هولاء كانوا من جنود الفراعنة في حملاتهم على آسيا، وحاولوا منذ ذلك العصر الإقامة في أرض موعدهم فلم تتيسر لهم. وجاء في سفر أخبار الأيام الأول (ف ٧ ع ٢٠) انّ أبناء ابراهيم بن يوسف نزلوا إلى جت (مدينة الفلسطينيين) ذكرين الآن ليأخذوا ماشيتهم فقتلهم رجال جت. وذكروا أن ابنة من ذرية أفرائيم بنت مدناً في بلاد كنعان، وأن بعض بني سيلا بن يهوذا استحوذوا على بعض مدن الموآبين؛ هذا ملخص ما رواه لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه الشرقي صفحة ١٩٥). وقد طالعت في هذه الأيام مقالة أثبتها الأب دي مور L'Abbé de Moor في المجلة الكتابية Revue Biblique في عددها الثالث الصادر في تموز سنة ١٨٩٢م معنونة: «العبرانيون في فلسطين قبل الخروج» وموضوعها الكلام في صفائح مسمارية كشف عنها سنة ١٨٨٧م في تل الامرنا بما بين النهرين، ذكرت فيها أسماء أورشليم واليهود بين أسماء الشعوب سكان فلسطين الذين انتصر عليهم أمانوفيس الرابع أحد فراعنة الدولة الثامنة عشرة بعد طرد الرعاة من مصر، وقبل خروج بني إسرائيل منها بزهاء مئة وخمسين سنة. فارتبك العلماء في مغزى هذه الصفائح، وفي التوفيق بين ما كتب وآيات الكتاب وآثار أخرى. فبذل الأب دي مور قصارى جدّه ليثبت أن هولاء اليهود الذين أبان الأثر الجديد اقامتهم في فلسطين قبل الخروج قد رافقوا الملوك الرعاة عندما طردهم المصريون، فأقاموا في فلسطين واورشليم خاصة وملكوا فيها. وأيد قوله هذا بحجج؛ منها قول مانيتون أبي التاريخ المصري إنّ الرعاة بنوا أورشليم أي رفقاء الرعاة ومنها أقوال أخرى لمانيتون أيضاً سمى بها الرعاة أورشليميين أو أراد العبرانيين الأورشليميين. ومنها أنه وجد في جريدة أسماء الشعوب الذين قهرهم تحوتمس الثالث أسماء يعقوبال ويوسفال أي بني يعقوب وبني يوسف ، وهذه الجريدة منقوشة على جدار الكرنك يعدد بها تحوتمس الشعوب الذين قهرهم بعد موقعة مجدو (راجع عد ٦٢). ومن حججه أيضاً ما كتب على

صفائح تل الامرنا المبحوث فيها، وأقوى حججه آية سفر أخبار الأيام الأول (ف ٧ ع ٢٠ وما يليه):

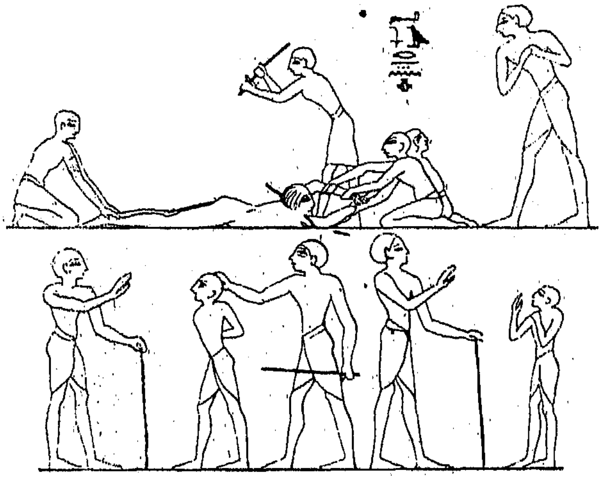
« وبنو أفرائيم شوتالح... وعاز والعاد فقتلهم رجال جت المولودون في الأرض لأنهم نزلوا ليأخذوا ماشيتهم، فناح أفرائيم أبوهم أياماً كثيرة وأقبل إخوته ليعزوه». ولا مرية أن افرائيم هو ابن يوسف، وجت هي مدينة فلسطين المشهورة. وخروج بني اسرائيل من مصر كان لسنين متطاولة بعد وفاة أفرائيم بن يوسف فلا مخرج لهذه الآية التي أعيا العلماء تفسيرها إلّا بأن يقال إن بعض العبرانيين حاربوا مع الرعاة لقربهم منهم موطناً في سورية وفلسطين. وخرجوا معهم عند خروجهم من مصر فأقاموا في اليهودية؛ هذا خلاصة ما جاء به الأب دي مور في مقالته.

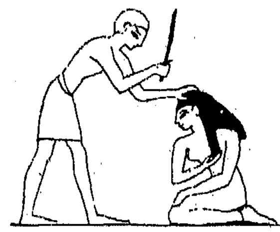
عد ١٧٩

بدء اضطهاد بني إسرائيل في مصر

قال الكتاب (في الفصل الأول من سفر الخروج عد ٦ وما يليه): «ومات يوسف وجميع إخوته وسائر ذلك الجيل ونما بنو إسرائيل وتوالدوا، وكثروا وعظموا جدّاً جدّاً وامتلأت الأرض منهم. وقام ملك جديد على مصر لم يكن يعرف يوسف، فقال لشعبه ان شعب بني إسرائيل أكثر وأعظم منا تعالوا نحتال عليهم كي لا يكثروا، فيكون أنهم إذا وقعت حرب ينضمون إلى أعدائنا ويحاربوننا. ويخرجون من الأرض. فأقاموا عليهم وكلاء تسخير لكي يعنتوهم بأثقالهم. فبنوا لفرعون مدينتي خزن وهما فيتوم ورعمسيس، غير انهم كانوا كلما أذلوهم ينمون ويمتدون حتى تخوفوا من قبل بني إسرائيل، فاستخدم المصريون بني إسرائيل بقسوة ونغصوا حياتهم بخدمة شاقة بالطين واللبن وسائر أعمال الأرض».

وقد جاءت الآثار المصرية مصداقاً لآي الكتاب هذه فقد وجدت على مدافن مصرية صور عديدة تمثل أسرى ساميين يعملون بالطين واللبن. ويبنون الأسوار تحت امرة عمال مصريين بيد كل منهم سوط أو عصا طويلة، حتى أن الناظر إلى تلك الصور يقضي لأول وهلة أن ما تلك الصور إلا ممثلة لما رواه الكتاب من استعباد المصريين لبني إسرائيل، وسنذكر إحدى هذه الصور في العدد ١٨٢. أجمع أهل العلم بالآثار المصرية أن خروج بني إسرائيل من مصر كان في عهد





صورة عن مدافن بني حسن في مصر تمثل هيئة الضرب بالعصا

الدولة التاسعة عشرة. وقال بعضهم ومنهم مسبرو (في تاريخ شعوب المشرق): إنهم خرجوا في عهد ساتي الثاني أحد فراعنة هذه الدولة. وقال لبسيوس ودي روجه وشباس ولانرمان وسايس وبروغش وإبار، وتابعهم في قولهم أكثر أهل العلم بهذا الفن في إفرنسة وإنكلترا وألمانيا: ان خروج بني إسرائيل كان في عهد منفتاح الأول ابن رعمسيس الثاني، وعليه فرعمسيس هذا هو الذي شرع يضطهد بني إسرئيل، وأثقلهم ببناء المدينتين اللتين سميت إحداهما رعمسيس باسمه. كما سميت الاسكندرية باسم اسكندر وقسطنطينية باسم قسطنطين.

وأنبأتنا الخطوط الهيروكليفية أن رعمسيس الثاني إنّما هو باني هذه المدينة، وقد حققته خاصة اكتشافات أدوار نافيل في فيتوم مدينة رعمسيس الأخرى، حيث كشف عن آثار عديدة لا تدع محلاً للامتراء في أن المدينتين بنيتا بأمر

رعمسيس، لأن اسم رعمسيس على كثير من هذه الآثار، ومن جملتها تمثال رعمسيس نفسه مكتوباً عليه اسمه ست مرات وهو الآن في جنة الإسمعيلية. ثم أنك تجد على مقربة من تل المسقوطة (حيث كان موقع فيتوم) صخراً كبيراً من الحجر المحبب (غرانيت) رسمت عليه صورة ملك جالس بين إلهين فهذا الملك هو رعمسيس الثاني. وقد نقش اسمه مكرراً على هذا الصخر والالهان بجانبه هما توم ورع. وقد مرّ (في عد ١٧٦) إن فيتوم أو بيتوم تأويلها بيت الاله توم أو معبده مركبة من بَي أو فَي بيت وتوم اسم الإله. ويراد به عندهم الشمس عند غروبها، ورع أو أمون رع يريدون به الشمس وقت خفائها. وحول هذا الصخر أخربة كثيرة وكبيرة وهي بقايا لبن مصنوع من وحول النيل يخالطها التبن. وكانت أسوار مدينة بيتوم مبنية بها حتى يمكن أن يثبت أن بعض بقايا هذا اللبن هي من عمل بني اسرائيل (طالع العدد ١٨٢).

قد وجد في منف بابير خُطَّ في عهد رعمسيس الثاني وهو الآن في متحف لايد (في هولندا) ترجمه العالم شباس، فإذا به بينتان قاطعتان لصحة ما جاء في الكتاب من أعنات بني إسرائيل وتسخيرهم بأبنية رعمسيس. وإليك البينة الأولى فمن مآل هذا البابير أن الكاتب كويسر يجيب رئيسه الكاتب (كان العمال يسمون كتبة) بكنفتاح عن شيء أمره به فيقول «إسترضاءً لسيدي أتممت أمره الذي انفذه إليّ قائلاً أعطِ الجنود قوتهم، واعطِ أيضاً العبريو (العبرانيين) الذين ينقلون الحجارة لبناء البكهان (المخازن أو الحصون العسكرية) الكبيرة للملك رعمسيس مريامان خليل العدل (العبرانيين) الذين وكل أمرهم إلى رئيس المدجايو (رجال الشحنة والضابطة) عمنيمان. فأنا أجريت عليهم رزقهم في كل شهر بمقتضى الأوامر السامية التي أنفذها سيّدي إليّ». والبينة الثانية هي رسالة أخرى كتبها الكاتب كنيامن إلى رئيسه كجاناهوي من المقربين إلى رعمسيس الثاني فقال: «أطعت ما أمرني به سيدي قائلاً: أعطِ الجنود أرزاقهم والعبريو أيضاً الذين ينقلون الحجارة لشمس الشمس (أي هيكل الشمس) الذي انصرفت إليه عناية رعمسيس مريمان في جنوب منف». فالبينتان قاطعتان خاصة إذا راعينا أن بني إسرائيل كانوا يعرفون في مصر باسم عبرانيين. ونرى فرعون نفسه يسميهم بهذا الاسم لأنه قال للقابلتين: «إذا استولدتما العبرانيات». وموسى نفسه قال: «وكلم ملك مصر قابلتي العبرانيات» (خروج ف ١ ع ١٥ و ١٦).

ولما رأى رعمسيس أن أعنات العبرانيين وأثقالهم بالأشغال الشاقة لا ينوله مأربه من انقاص عددهم. عمد إلى ذريعة أخرى بأن أمر قابلتي العبرانيات أن تقتلا كل ذكر يولد لهنّ. فاتقت القابلتان الله ولم تفعلا ، واحتجتا بأن العبرانيات قويات يَلدنَ قبل أن تدخل القابلة عليهنّ، فبارك الله القابلتين وعمّر بيوتهما. فاستشاط رعمسيس غضباً فأمر جميع شعبه أمراً فظيعاً أن يطرحوا في النهر كلَّ ذكر يولد للعبرانيين. ولم يكن الفراعنة يقدرون حياة الإنسان حق قدرها، تنبئنا بذلك ألوف الرجال الذين كانوا يهلكونهم في بناء آثارهم وغيرها. على أن أمر فرعون هذا لم ينفَّذ إلاَّ في مدَّة وجيزة. لأننا نرى عدد بني إسرائيل بعده بثمانين سنة قد اتصل إلى ستماية ألف مقاتل عند خروجهم من مصر. وقد مرّ في كلامنا على الحثيين أنَّ رعمسيس هذا غشى سورية بعساكره مرتين لمحاربة الحثيين والكنعانيين ونقش صورته ظافراً على صخر في جانب نهر الكلب.

عد ١٨٠

مولد موسى ومنشأه في بيت فرعون وفراره من مصر

وكان أن رجلاً من سبط لاوي يسمى عمران أو عمرام تزوج بابنة من قرائبه اللاويات اسمها يوكابد، وسماها يوسيفوس (في تاريخ اليهود) يوكابل وابن الأثير يوحانذ . فولدت له أولاً بنتاً سمَّتها مريم. ثم ابناً سمَّته هرون. ثم (ابناً آخر رأته حسناً وخافت عليه نفوذ أمر فرعون به فاحتفظته ثلاثة أشهر. ولما لم تستطع أن تخفيه بعدما أخذت له سفطاً من بردي. وطلته بالحمر والزفت وجعلت الولد فيه، ووضعته بين الخيزران على حافة النهر. ووقفت أخته من بعيد لتنظر ما يقع له فنزلت إبنة فرعون إلى النهر لتغتسل. وكانت جواريها سائرات على شاطىء النهر فرأت السفط بين الخيزران فأرسلت امتها فأخذته. ولما فتحته رأت فيه صبياً يبكي فرقَّت له وقالت هذا من أولاد العبرانيين . وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٢ ف ٥) أن إبنة فرعون هذه كان اسمها ترموتيس. وذكرت الآثار المصرية لرعمسيس امرأة سمَّتها تمرموت أو تمرموت وتأويل هذا الاسم « محبوبة الآله موت» . وروى يوسيفوس ثمة أيضاً أن ابنة فرعون استدعت كثيراً من المرضعات فلم يأخذ الطفل ثدي إحداهنّ. فقالت حينئذٍ مريم أخته لابنة فرعون لا يأخذ الطفل ثدي ظئرٍ من

غير امه فان أمرت أتيتك بمرضع عبرانية فقالت إليَّ بها . فأسرعت الفتاة فدعت أم الصبي فقالت لها إبنة فرعون خذي هذا الصبي وارضعيه، وأنا أعطيكِ أجرتكِ. فأخذته وأرضعته مع الحليب حب الإله الحق، والغيرة على بني قبيلته، وحفظ التقليدات العبرانية . ولما كبر جاءت به إبنة فرعون فاتخذته ابناً لها، وسمته موسى وقالت: لأني انتشلته من الماء فمعنى الكلمة النشيل لأن لفظة مو في المصرية معناها الماء وإيزاس أو ساس معناها نشل.

لم ينبئنا الكتاب شيئاً مما كان لموسى في بيت فرعون. على أن التقليدات اليهودية التي رواها يوسيفوس (في الفصل الآنف ذكره) تؤذن بأن ابنة فرعون أقامت عليه أساتذة من الكهنة يفقهونه علوم المصريين. وعنت بأن تنكبه حسد الكهنة والمنجمين الذين كانوا يتوسمون فيه ذكاءً سامياً، ويخشون ما يكون في مقبل أمره ويجعلون الملك واجساً منه. ومن أقاصيصهم أن موسى سلمت إليه قيادة الجيوش في حملة على الحبشة ولهم في ظفره فيها وفي تزوجه بتربيس بنت ملك الحبشة حكايات لا تصدَّق فنضرب عنها.

إن رفاه عيش موسى وعزازته في بيت فرعون لم ينسياه الضيق الملم بشعبه. فكان يكثر الترداد بين أظهرهم معزياً ومشجعاً لهم. وخرج يوماً إلى إخوته فإذا بمصري يضرب عبرانياً فلم يتمالك موسى عن أن يثب على المصري ويقتله ويطمره في الرمل. وخرج في اليوم التالي، فإذا بعبرانيين يتضاربان فقال للمعتدي لِمَ تضرب قريبك؟ فقال: من أقامك رئيساً وحاكماً علينا؟ أتريد أن تقتلني كما قتلت المصري؟ فخاف موسى وعلم أن الخبر قد ذاع، وأن فرعون يريد قتله مدفوعاً إلى ذلك بحسد المصريين له، فهرب موسى من وجه فرعون.

عد ١٨١

إقامة موسى في بلاد مدين وزواجه فيها وعوده إلى مصر

قد فرَّ موسى إلى أرض مدين وهي من بلاد العرب في شرقي البحر الأحمر. وقد مر بك عند كلامنا في ولد ابراهيم من قطورة أن هولاء المدينيين الذين لجأ موسى إليهم هم كوشيون أصلاً. وغير المدينيين ولد مدين ابن ابراهيم من قطورة الذين كانت مساكنهم في شرقي البحر الميت. وان بعض العلماء يرى أن للشعبين

أصلاً واحداً. وأنبأنا الكتاب (خروج ف ٢) أن موسى قعد عند بئر في أرض مدين فجاءت بنات رعوئيل كاهن مدين الذي يسميه الكتاب يترو أو يترون أيضاً ويسميه العلماء العرب شعيب. فاستقينَ وملأنَ المساقي ليسقينَ غنم أبيهنَّ فطردهنَّ الرعاة فانتصر لهنَّ موسى، وسقى غنم أبيهنَّ، فأخبرنَ أباهنَّ بما فعله الرجل إليهنَّ فاستدعاه وشكر له وأكرم مثواه. ورغب إليه أن يقيم عنده فارتضى موسى، ووكل إليه يترون العناية بماشيته، وزوّجه صفّورة ابنته فولدت لموسى ابناً سماه جرشوم: وقال: كنت نزيلاً في أرض غريبة فتأويله الغريب أو النزيل. ثم ولدت له ابناً ثانياً سماه اليعازر وقال: إن اله ابي ناصري أنقذني من يد فرعون. فتأويله عون الرب أو إنجاده.

إن موسى أقام في أرض مدين أربعين سنة وكان عمره إذ هرب إليها أربعين سنة، وقام على قيادة بني إسرائيل أربعين سنة فجملة سني عمره مئة وعشرون سنة، كما جاء في الفصل الأخير من سفر التثنية، وعليه فما جاء في الفصل الثالث من سفر الخروج من تجلي ملاك الرب له في جبل حوريب بلهيب نار في وسط العليقة كان في السنة الثمانين من عمره والأخيرة من سني إقامته في أرض مدين، لأن موسى همَّ بالعود إلى مصر بعد هذه الرؤيا التي افتتح الله بها رسالته إلى فرعون ليطلق الشعب إذ جاء في الكتاب: إن موسى مال لينظر ما بال العليقة تتوقد بالنار ولا تحترق. فناداه ملاك الرب من وسط العليقة قائلاً:

« إخلع نعليك من رجليك فإن الموضع الذي أنت قائم فيه أرض مقدسة ». وكان خلع النعلين في المشرق خاصةً دليلاً على الإحترام والتهيب. وناجاه الرب قائلاً: أنا إله أبائك ابراهيم واسحق ويعقوب، وقد نظرت إلى مذلّة شعبي في مصر، فالآن تعال أبعثك إلى فرعون، وأخرج شعبي من مصر فقال له موسى: من أنا حتى أمضي إلى فرعون وأخرج بني إسرائيل من مصر. فقال له الرب: أنا أكون معك. فقال له موسى: ها أنا سائر إليهم وقائل لهم إن إله آبائكم بعثني إليكم؛ فإن قالوا لي ما اسمه؟ فماذا أقول لهم؟ فقال له الرب: أنا هو الذي هو أنا الكائن أي أنا القيوم أنا هو الأزلي والأبدي، أنا هو الذي لا يتغير بل هو دائماً هو. فقال موسى: لا يكفيهم هذا بل يقولون لي لم يتجلَّ لك الرب؟ وكأنه يطلب من الرب آية فقال له الرب: ما تلك التي بيدك؟ قال: عصا. قال: ألقها على الأرض فألقاها، فصارت حيّة فهرب موسى من وجهها، فقال له الرب: أمدد يدك وأمسك بذنبها

ففعل، فعادت عصا في يده. ثم قال له أدخل يدك في جيبك فادخلها وأخرجها فإذا يده برصاء كالثلج. فقال له: اردها إلى جيبك. فردّها وأخرجها فعادت كسائر بدنه فصدق موسى قوة الله، واستمر متردداً بقوة نفسه فقال: رحماك يا رب إني بطيء النطق وثقيل اللسان. فقال له الرب: من الذي خلق للإنسان فماً، ومن الذي خلق الأخرس والأصم، والبصير والأعمى أليس إياي أنا الرب؟. والآن فامضِ فإني أكون مع فيك وأعلمك ما تتكلم به. فقال: رحماك يا رب إبعث من أنت باعثه فاتقد غضب الرب على موسى واسمعه أن أخاه هرون يكون معه. وهو يخاطب الشعب عنه وأمره أن يأخذ بيده العصا التي صارت حية فمضى موسى، ورجع إلى يترو حميه، وأعلمه بانطلاقه إلى إخوته، فشيعه بالسلام. فأخذ موسى امرأته وولديه، وأركبهم الحمير كعادة المصريين إلى اليوم. ولما كان في الطريق في المبيت التقاه ملاك الرب وأراد قتله. فأخذت صفورة صوانة فقطعت قلفة ابنها ومست رجليه وقالت: أنت لي عروس دم فكف عنه عندما قالت عروس دم من أجل الختان. لا تخلو آيات الكتاب هذه من غموض، وكثرت الأقوال في تفسيرها. وأظهرها أن الملاك أراد قتل موسى لمخالفته السنّة بترك ختان ابنه اليعازر لأن ابنه الأكبر جرشوم كان اختتن. وعرفت صفورة امرأة موسى علة إرادة الملاك إهلاكه. فأخذت الصوانة وختنت ابنها والضمير في رجليه من قوله: مست رجليه عائد إلى موسى على الأظهر لا إلى ابنها فمسّت رجلي موسى وقالت: أنت لي عروس دم. كأنها تقول: إن الملاك كان يريد قتلك فاستحييتك بختان ابنك فكأنك لي عروس جديد بالدم الذي وفيتك به الهلكة. وكف الملك عنه بعد الختان، فظهر أن ترك الختان كان علة لطلب اغتياله. والتقى هرون موسى في البرية فقصّ موسى عليه جميع كلام الرب الذي بعثه به. وأخبره بالآيات التي أمره بها. ومضيا إلى مصر فجمعا شيوخ بني إسرائيل كلّهم. وخاطبهم هرون بما كلم الرب به موسى، وصنع الآيات على عيون الشعب فخروا وسجدوا شاكرين لأن الرب افتقدهم.

عد ١٨٢

مخاطبة موسى وهرون فرعون ليطلق بني إسرائيل وما كان من قسوته

قد مرَّ بك أن فرعون الذي كان يلي مصر لدن عود موسى من مدين إنما هو منفتاح ثالث عشر أبناء رعمسيس. فقد كتب على جدار هيكل صيوا أنه كان

لرعمسيس مئة وأحد عشر ولداً، فمات في أيامه الإثنا عشر الأولون، وخلفه منفتاح. والبابيرات الكائنة الآن في متاحف لندرة وبولنية وتورينو، وقد خطت في عهد منفتاح هذا أنبأتنا أنه كان يقيم في مصر السفلى أي في منف وهليبولي (المعروفة اليوم بالمطرية). ورعمسيس مدينة أبيه (تل المسقوطة) وتانيس (صان في قرب الزقازيق). وهذه المدن مجاورة أرض جاسان أو واقعة فيها . وفي الأخيرة منها أي في تانيس كان يحاول مقاومة إرادة الله بإطلاق شعبه. وما في هذه البابيرات يطابق ما رواه موسى مكاناً وزماناً. ويتبيَّن منها أن منفتاح كان قاسياً فظاً يعتمد على السحرة كما جاء في سفر الخروج. وكان الليبيون وثبوا على تخوم مصر الغربية في عهد رعمسيس الثاني فانتصر عليهم، وبدد شملهم فتألبوا بعد موته مع سكان جزر البحر المتوسط وبعض آسيا الصغرى. ويظهر أن بعض السوريين شايعوهم، فوثبوا على شمالي مصر بحراً وبراً فروعوا المصريين ولكن استظهر عليهم منفتاح وأخذ منهم ٩٣٧٦ أسيراً.

وفصلت ذلك خطوط نقشت على جدار مدينة أبو وهيكل الكرنك. ونبهت هذه الأحداث منفتاح إلى زيادة الحذر من الأجانب، ولاسيما مَن توطنوا في شمالي مصر الشرقي أي العبرانيين خشية أن ينشئوا شغباً في مملكته أو يضافروا من غزاها. وقد كتب هذا الملك على هيكل الكرنك ما يشير إلى ذلك وهو: «إنّ هذه الأماكن أو أحدها لم تكن تحرَث بل تركت مرعى للماشية من جرى البرابرة (الأثر محطم فلم تكن وسيلة لتعيين المحل). وقد تواتر السطو في هذا المكان منذ عهد السلف لما كان ملوك مصر العليا رقداً في ظلال آثارهم. وكان ملوك مصر السفلى ينعمون في مدنهم تحدق بهم مواطن العتوّ والفساد، ولم يكن لجنودهم من منجد لكبت أولئك». روى ذلك شباس (في كتابه الموسوم بدرس القدم التاريخي صفحة ٢٠٤) وقال: إنّ هذا الكلام مؤذن بارتباك منفتاح من جرى تزايد عدد العبرانيين في عمل من بلاده كثر فيه من أقدم الأيام السطو، والعتوّ حتى لم تكن أرضه تحرث لعدم الأمن على استغلالها من مهاجمات العرب وغيرهم ، فكيف أن عظم فيه عداد أجنبيين واشتدّ ساعدهم فلا منجاة منهم ألاّ بإذلالهم وتقليل عديدهم ما أمكن. فرأف الله بشعبه وبعث موسى وهرون إلى هذا الملك ليطلبا إطلاق بني إسرائيل.

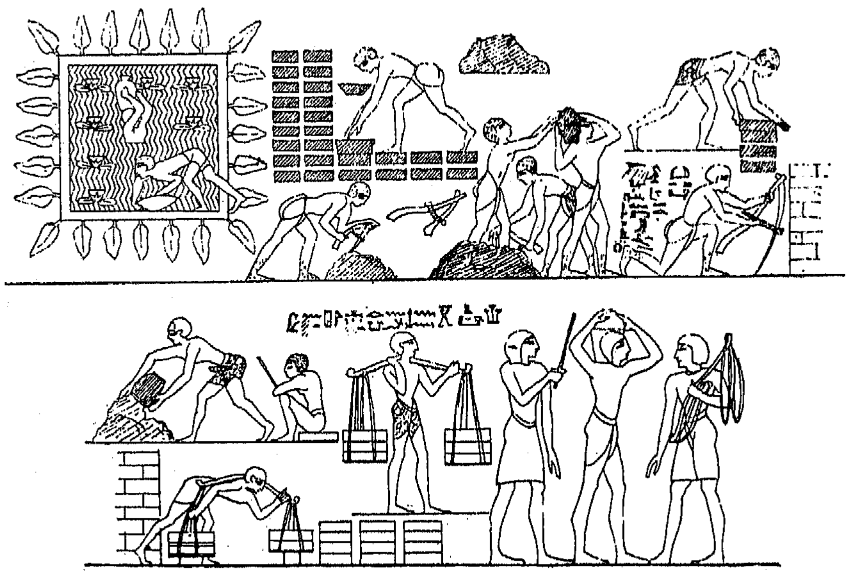
قال الكتاب (خروج ف ٥ ع ١ وما يليه): «دخل موسى وهارون وقالا

لفرعون: كذا قال الرب إله إسرائيل أطلق شعبي لكي يعيدوا لي في البرية. فقال فرعون: من هو الرب فأسمع لقوله واطلق إسرائيل... وأمر فرعون في ذلك اليوم مسخري الشعب ومدبريهم قائلاً: لا تعطوا الشعب تبناً بعد ليصنعوا اللبن مثل أمس فما قبل، بل ليذهبوا هم، ويجمعوا لهم تبناً ومقدار اللبن الذي كانوا يصنعونه أمس، فما قبلُ افرضوه عليهم ولا تنقصوا منه شيئاً... ليثقل العمل على الشعب فيشتغلوا به ولا يلتفتوا إلى كلام الكذب. فخرج مسخّرو الشعب ومدبروهم وخاطبوا الشعب قائلين كما قال فرعون»، فتفرق الشعب في جميع أرض مصر ليجمعوا جذامة عوض التبن. والمسخرون يلحون عليهم قائلين أكملوا أعمالكم فريضة كل يوم في يومها كما كان وقت إعطاء التبن، وضُرِبَ مدبرو بني إسرائيل الذين ولاّهم عليهم مسخّرو فرعون»: إن الجذامة من الزرع هي ما بقي بعد الحصاد كما في كتب اللغة والكلمة في العبرانية قش، وفي النسخة السريانية ܩܫܐ ܕܐܚܠܐ وقد ارتبك العلماء في تفسيرها فقد ترجمها بعضهم بالجذامة، كما روينا عن نسخة الآباء اليسوعيين المطبوعة في بيروت. ويظهر أنه اعتاص على القديس ايرونيموس لدى ترجمته سفر الخروج من العبرانية فهم المقصود بكلمة قش فلم يترجم الآية كلمة فكلمة بل اقتصر على قوله: «تفرّق الشعب في أرض مصر كلّها يجمع التبن». والتوى على كلمت أيضاً تفسير الآية فقال: «تفرق الشعب لجمع العصيفة أي التبن الدقيق المهمل في الحقل بدلاً من التبن الذي كانوا يعطونه قبلاً». وقرائن كلام الكتاب تقضي بأن يكون ما جمعه بنو إسرائيل غير التبن المعتاد، على أن الإكتشافات المصرية أبانت لنا أن كلمة قش التي ذكرها موسى في هذه الآية إنما هي مصرية، يراد بها نبات يكثر وجوده على شواطي النيل والأقنية المتفرعة عنه، ويترجح أنه البرديّ الذي تعمل منه الحصر أو ما تسميه عامتنا السعد. فقد وجد العالم نافيل صاحب إكتشافات تل المسقوطة في أرض جاسان ما لا يقدّر من هذا اللبن وحلل كثيراً منه، فوجد بعضه يخالطه عصيفة من البرديّ، وبعضه مخلوطاً بالتبن مصنوعاً من وحول النيل ليس إلّا. وإليك قوله في خطبته التي قدمها سنة ١٨٨٣م. في المجتمع الأول العام في شأن الإكتشافات المصرية.

«إن قسماً من هذا اللبن يخالطه التبن أو أفلاذ من البرديّ (أو القصب المراد به كل نبات أصله أنابيب)، وآثارها بيّنة وقسماً آخر منه مصطنع من وحول النيل وحدها لا يرى أثراً للتبن فيه». وقد لاحظ الدقتور لبسيوس أن اللبن الذي وجد في

تل المسقوطة وقد كان مبنياً فيه سور مدينة رعمسيس القديمة يخالطه تبن مجذم. ونقل بعضه إلى متحف برلين، وقاسه فكان طول كل لبنة منه ٤٤ وعرضها ٢٤ سنتيمتراً وثخانتها ١٢ سنتيمتراً. وقد اكتشفت شركة قناة السويس هناك طبقة من التراب المعدّ لاصطناع اللبن واصطنعت منها آجرّاً جديداً كما ذكر فرديناند دي لاسبس في خطبته في نانت التي طبعت في باريس سنة ١٨٦٧م حيث قال: «إنَّ يعقوب أقام في الوادي حيث كشفنا عن القناة القديمة المتفرعة من النيل، وهناك وجدت أخربة رعمسيس (المسقوطة) المدينة التي ذكرها الكتاب. وحيث كان العبرانيون يصنعون اللبن الشهير فشركة القناة البحرية وجدت عند حفرها في رعمسيس طبقات من التراب الذي كان العبرانيون يعملون منه لبنهم فصنعت منه الشركة لبناً بنت به الإسماعيلية».

وقد وجدت صورة في القرنة بجانب تاب (طيبة) على مدفن رجل يسمى



صورة عن مدفن رخمارا أحد عمال تحوتمس الثالث في القرنة بجانب تاب تمثل أسرى في مصر يصنعون اللبن

رخمارا أحد عمال تحوتمس الثالث، تمثل أكمل تمثيل ما جاء في سفر الخروج عن التسخير بصنع اللبن. فترى في هذه الصورة هيئة رجال غير مصريين يميزهم لونهم عن الوطنيين، والتقليد موضح بأنهم أسرى أخذهم الملك لبناء هيكل أبيه عمون. وترى من هؤلاء الأجانب من يحفر التراب بالمعاول ومن يدلي الماء، وغيرهم يعجن الطين، وغيرهم ينقله قبل اصطناعه، وبعضهم يضغطه بملزم من حشب، وبعض الأسرى يحملون اللبن على عواتقهم، وبعضهم ينقلونه إلى محل بناء الهيكل. وبيد بعض المصريين عصي وهم يعنتون العملة بقسوة لإتمام ما فرض عليهم. وقد رأى كثير من أهل العلم بالآثار المصرية منهم روزاليني (في كتابه في آثار مصر والنوبة مجلد ٢ صفحة ٢٥٤): أن هذه الصورة تمثل بني إسرائيل مسخرين بعمل اللبن. وإليك مثالاً من هذه الصورة.

عد ١٨٣

ضربات مصر[١] وهي آيات الله فيها على يد موسى وهرون

قد أمر الله موسى وهرون أن يعودا إلى فرعون، فعادا ومعهما العصا التي صارت ثعباناً في حوريب. فدخلا على فرعون فلم يعجب لحمل هرون عصا إذ كانت عادة الكهنة والأعيان في مصر أن يحملوا في يدهم عصا. وكثيراً ما ترى صوراً لكهنة وأعيان وبيدهم عصي. وقد توفّر في متاحف أوروبا عدد هذه العصي القديمة من أخشاب متنوعة وأكثرها من الأكاسيا. فطلب فرعون منهما آية يثبّتان بها قوّة الإله الذي أرسلهما. «فألقى هرون عصاه بين يدي فرعون وعبيده فصارت ثعباناً، فدعا فرعون أيضاً الحكماء والعرّافين، فصنع سحرة مصر كذلك بسحرهم. ألقى كل واحد عصاه فصارت العصي ثعابين. فابتلعت عصا هرون عصيهم» (خروج ف ٧) بياناً لعظمة إله إسرائيل. وقد حفظ التقليد إسمي ساحرين من سحرة فرعون. هؤلاء ذكرهما بولس الرسول (في رسالته الـ ٢ إلى تيموتاوس ف ٣ ع ٨): وهما «ياناس ويمبراس». وعسى الإكتشافات تأتينا يوماً باسمهما.

وقد اشتهرت مصر في كلّ عصر بسحرتها وعرّافيها. وكان من عادة الفراعنة

(١) أسماها ابن خلدون الجوائح جمع جائحة وهي الشدة والنازلة العظيمة.

أن يستدعوهم إليهم في كل أمر خطير كما نرى فرعون في عصر يوسف استقدمهم لتعبير أحلامه. وقد رأى أكثر القدماء من مفسّريّ الكتاب أن صيرورة عصيّ سحرة فرعون ثعابين كانت تخيُّلاً لا حقيقة. ونسبوا ذلك إلى قوة إبليس إذ جعل أعين الناظرين ترى عصيّ السحرة بهيئة حيّات. وأمّا الآن فأكثر المفسّرين على إعزاء ذلك إلى صناعة الرقية التي كانت معروفة من أقدم الأيام في مصر. ولا نحتاج في بلادنا إلى شرحها إذ قل بيننا من لم يتفق له أن يرى أحداً من هؤلاء الراقين يحملون الحيّات على أعناقهم وأيديهم. ويلعبون بها كيف شاءوا ويستخرجونها من خباياها بالصفير والتلفّظ ببعض كلمات. وقد جاء ذكر الرقية مكرَّراً في الكتاب منه (في مزمور ٥٧ ع ٥): «لهم سمّ كسمّ الحية الأفعى الصمّاء التي تسدّ أذنها فلا تسمع صوت الحواة ولا رُقى راقٍ ماهر». ومنه (في نبوة إرميا ف ٨ ع ١٧): «هاءنذا أبعث فيكم حيّات أراقم لا تُرقى فتلدغكم يقول الرب». وذكر الرقية من القدماء استرابون (ف ١٧) وبلين (في التاريخ الطبيعي ف ٧) وغيرهما. فعلى رأي القدماء أنه خيِّل إلى الناظرين بفعل إبليس أن عصيَّهم تسعى. وجاء في القرآن: «فإذا حبالهم وعصيّهم يخيّل إليهم من سحرهم أنها تسعى». وعلى رأي المتأخرين أن السّحرة كانوا حواة أعدوا حيّات وأرسلوها بدل عصيّهم في مجلس فرعون فسعت لكن ابتلعتها عصا هرون بياناً لعظمة إله إسرائيل ومع ذلك تقسّى قلب فرعون ولم يسمع لموسى وهرون.

فأمر الله موسى أن يمضي بالغداة إلى فرعون على شاطيء النهر وبيده العصا التي انقلبت حية وأن يضرب بها ماء النهر فينقلب دماً. فصنع كذلك موسى وهرون «رفع العصا وضرب الماء الذي في النهر على مشهد فرعون وجميع عبيده، فانقلب جميع الماء الذي في النهر دماً والسمك الذي في النهر مات وأنتن النهر، ولم يستطع المصريون أن يشربوا من ماء النهر وصار الدم في جميع أرض مصر... وحفر جميع المصريين حوالي النهر ليشربوا ماء» (خروج ف ٧ ع ٢٠ وما يليه). وهذه الضربة الأولى من الضربات العشر الآتي ذكرها ومما نلاحظه فيها أنها إذا اعتبرت بنفسها مجرّدة عن ظروفها وقرائن حدثها كانت طبيعية. وإذا اعتبرت بظروف مكانها وزمانها وإنزالها بكلمة وانقضائها بكلمة إلى غير ذلك من القرائن الملازمة لها كانت آيات ومعجزات حقة. فاحمرار ماء النيل مثلاً يحصل في كل سنة في شهر تموز عند بدء فيضان مائه لما يمازجه من الوحول لكن انقلابه دماً في غير وقت فيضانه (لأن الظاهر

من الكتاب أن تلك النقمة كانت في أواسط شباط)، وبضربة عصا وموت السمك فيه ونتانة النهر، وامتداد ذلك إلى أحواض المصريين، وآنية استقائهم وعدم سريان ذلك إلى جاسان حيث مساكن العبرانيين؛ ذلك كله آية لا يقدر عليها إلا من هو على كل شيءٍ قدير. وكذا قل في آيات الضفادع والجراد، والبرد إلى غيرها فتلك المصائب يكثر نزولها في مصر على أن نزولها بمجرد كلمة يتلفظ بها موسى وفي غير حينها المعتاد ووفرتها الخارقة العادة، وانكفافها من فور أمر موسى إنَّ ذلك إلّا آية معجزة. وكثيراً ما تستند عناية الله في صنع المعجزات إلى الفواعل الطبيعية معظّمة قواها ومبرزة أفعالها في غير حينها، وهذا لا يخرجها من حيز المعجزات.

الضربة الثانية بالضفادع فقد جاء في سفر الخروج (ف ٨) : إنَّ الرب أمر موسى أن يدخل إلى فرعون طالباً إطلاق الشعب، وإذا أبى ضرب تخوم مصر كلها بالضفادع فتقسّى قلب فرعون. فمدَّ هرون يده على مياه مصر فصعدت الضفادع وغطّت أرض مصر، وانتشرت في البيوت والمخادع وعلى الأَسرّة والناس، وفي التنانير والمعاجن. فدعا فرعون موسى وهرون وقال : إشفعا إلى الرب أن يرفع الضفادع عني وعن شعبي حتى أطلق الشعب. فقال له موسى: اقترح عليَّ متى تشاء أن تشفع الضفادع فيك فتقطع الضفادع قال : غداً. قال موسى : سيكون كما قلت لتعلم ان ليس للرب إلهنا نظير، وفعل الرب كما قال موسى وماتت الضفادع من البيوت والأقنية والحقول ، فجمعوها كوماً كوماً وأنتنت الأرض منها. وكان المصريون يعبدون من أقدم الأيام أي من عهد الدولة الخامسة إلهاً يقيهم إزعاج الضفادع وغيرها من الدبيب والذباب، وترى في آثارهم صور آلهة وعلى رأسها ضفدع منها في متحف بولاق تمثال إله وعلى رأسه ضفدع. وفي دندرة صورة كتب عليها : « وجهك أشبه بوجه ضفدع ». وكانوا يحسبون النيل إلهاً ويعبدونه فأراد الله بآياته أن يذلَّ النيل بالضربة الأولى محوّلاً ماءه دماً ، وأن يذري بآلهة الضفادع بالضربة الثانية ليظهر للمصريين عجز هذه الآلهة عن وقاية عبادها بل إتيانها بنفسها عليهم بالمضرّة.

« ولما رأى فرعون أنه قد حصل الفرج صلَّب قلبه ولم يسمع لهما » ، أي لموسى وهرون فأبلاه الله بالضربة الثالثة ، فإنَّ هرون مدَّ يده بعصاه بحسب أمر الرب فضرب تراب الأرض، فكان البعوض على الناس والبهائم حتى خيّل أن كل تراب الأرض صار بعوضاً في جميع أرض مصر. إن كلمة البعوض في العبرانية قينيم. وقال اوريجانوس (في خطبته ال ٤ في الخروج) في وصفه البعوض : « هو

حيوان صغير يحمله الهواء، وهو دقيق حتى لا تراه إلا عين مَنْ يحدّق إليه ويؤلم الجسم بمنخسه الحادّ ». ووصفه هيرودت (في ك ٢ من تاريخه): بأنه يزعج الناس ويقلقهم وهم جلوس على موائدهم ويحرمهم النوم. ويمتص الدم ويكسي الجسم لذعات أليمة وعليه فهو ما تسميه عامتنا الناموس أو السكيت. وهذا البعوض يكثر في مصر ولذلك يظهر من الآثار المصرية أن ستائر الأسِرَّة (وهي الناموسيات بلغة عامتنا) تقادم عهد استعمالها في وادي النيل، وترى بين هذه الآثار صوراً تمثل أشخاصاً بيدهم مراوح يراوحون بها وقاية لأعيانٍ من لذع هذا البعوض على أن الذي ابتلى الله به المصريين، كان خارقاً العادة وشرائع الطبيعة حتى خيل ان تراب مصر كلّه صار بعوضاً وانمحق بكلمة من موسى.

إنَّ سحرة فرعون صنعوا ما صنعه موسى وهرون في الجائحتين السالف ذكرهما. فإنهم حوّلوا الماء إلى هيئة دم، وأوجدوا ضفادع في حضرة فرعون. وكان لهم في ذلك وجهان: الأول أنهم حمّروا الماء بصبغ ألقوه فيه بخفة لا تدركها عيون الحاضرين، ونقلوا بعض الضفادع بصنعة كذلك إلى حضرة فرعون وأعوانه. والثاني أنهم عملوا ذلك بحيلة شيطانية سمح الله بها لمقاصد عنايته التي تعلو المدارك البشرية، ولتقسية قلب فرعون ليفرغ الله نقمه به وبشعبه، على أنهم حاولوا في الضربة الثالثة إخراج البعوض فلم يكن لهم إليه سبيل. فقالوا لفرعون: « هذه أصبع الله » ومع هذا ظل قلبه متقسيّاً. قال برجيا (في معجم اللاهوت الإعتقادي في كلمة سحر وسحرة) ما ملخصّه: « ليس ما يحملنا على أن نفترض أن سحرة مصر أتوا بشيء خارق لشرائع الطبيعة، والكتاب يبينّ لنا عكس ذلك. فكان للسحرة وقت يعدون به ما شاءوا، فإن فرعون استقدمهم وحوّلوا عصيّهم حيّات ورقية الحيات. وانتزاع قوتها على اللدغ أمر مستفاض في مصر والهند بل في بعض أقاليم أوربا أيضاً، حيث يتجر بالحشرات فشيء من الذكاء وخفة الحركة كان كافياً للسحرة ليخيلوا أن عصيّهم استحالت حيات. على أن تحويل ماء النيل دماً وفساده بضربة عصا آية تفوق الطبيعة. وأما صبغ ماء في حوض أو إناء بلون الدم فلا شيء من المعجز فيه، وكذا مد يد هرون إلى النيل وإخراجه منه ضفادع تغطي أرض مصر ثم إماتتها من فور أمر موسى آيتان حقتان وأما إيجاد بعض الضفادع بحيلة ما أمام فرعون فلا معجزة فيه ».

لم تنجع الجوائح الثلاث في فرعون ولا قرار سحرته بأن هذه أصبع الله فضربه

الله بالضربة الرابعة . وهي انه أرسل عليه وعلى عبيده وشعبه وبيوته الذبّان حتى امتلأت منها بيوت المصريين والأرض التي هم عليها . وميّز أرض جاسان المقيم فيها شعب الرب فلم يكن ثمَّ ذبان (خروج ف ٨ ع ٢١ وما يليه) . إنَّ كلمة الذبان في هذه الآية بالعبرانية عَرَب ومدلولها الخلط والإمتزاج، فيمكن أن يكون المراد كل صنف من الذباب دون تعيين صنف على أن الذبان في مصر من آفتها المنكّدة العيش ، وما أعظم تنكيدها وقد أرسل الله على المصريين منها ما فسدت الأرض من قبله كما صرَّح الكتاب فكانت هذه الضربة قاسية حتى نرى فرعون أخذ يتساهل إذ قال لموسى وهرون : «امضوا اذبحوا لإلهكم في الأرض فقال موسى : ليس من الصواب أن نصنع ذلك ، لأننا إنما نذبح للرب إلهنا ما هو رجس عند المصريين. أفنذبح بحضرتهم ما هو رجس عندهم ولا يرجموننا ؟» ، قال كلمت في تاريخ العهد القديم : ان المصريين كانوا يعبدون بعض الحيوان فلا يطيقون ذبح العبرانيين له . وقال روهربخر (في تاريخه البيعيّ) ما ملخصه إنَّ حكماء المصريين كانوا يجعلون بعض الحيوان ممثّلاً للاله، فيجعلون كبش الغنم أو تيس الماعز قائد القطيع مثالاً للرب مدّبر الكون ، والحيوان الكثير النتاج مثالاً للاله الخالق ، والنسر الحادّ البصر للإله الذي يرى كلّ شيء . وكان للثور والبقرة في عرفهم وفي لغتهم السرية والهيروكليفية رموز ودلائل على أمور مقدسة . ولم تكن عامّتهم تدرك هذه الأسرار، فكانت تسجد وتعبد هذه الحيوانات ، لا بما أنها ممثلة للاله فقط بل لاعتقادهم فيها شيئاً من الألوهية . ولا أقل من اجلالها كأشياء مفردة لله » فيستاءون من العبرانيين إذا ذبحوها لالههم . فقال فرعون أنا أطلقكم لتذبحوا للرب إلهكم في البرية ولكن لا تبعدا في المسير واشفعا فيَّ . وخرج موسى من عند فرعون فشفع إلى الرب فرفع الذبان عن فرعون وعن عبيده وشعبه ولم يبقَ واحدة .

لكنَّ فرعون صلَّب قلبه هذه المرة أيضاً ولم يطلق الشعب، فضربه الرب بالضربة الخامسة ، وهي وباء شديد أصاب الخيل والحمير والجمال والبقر والغنم، فماتت مواشي المصريين ولم يمت شيء من جميع ما هو لبني إسرائيل . وأرسل فرعون فإذا مواشي إسرائيل لم يمت منها واحد (خروج فصل ٩) . ومثل هذا الوباء يصيب أحياناً المواشي في مصر فيلجأ أهلها إلى شراء البقر من سورية، وجزائر البحر المتوسط لكنه لا يشتد اشتداده في ضربة موسى، ولا تمتاز به مواشي مصريّ عن مواشي عبراني . وقد قسا قلب فرعون هذه المرة أيضاً ولم تليّنه ضربة الماشية ،

فضربه الله وشعبه في أجسادهم بالجائحة السادسة، وهي القروح. فإن موسى وهرون أخذا بحسب أمر الرب ملء راحتيهما من رماد الأتون، وزرّاه موسى إلى السماء على مشهد فرعون فصار غباراً في جميع أرض مصر، وصيّر في الناس والبهائم قروحاً وبثوراً منتفخة، ولم يستطع السحرة أن يقفوا بين يدي موسى من أجل القروح. ولا يمكن تعيين هذا المرض إلا بكونه من الأمراض الوبائية، وقد أصاب كل طبقةٍ من الناس كما أشار إليه الكتاب بذكره السحرة، ومع ذلك قسا قلب فرعون أيضاً فضربه الرب الضربة السابعة بالبرد، إذ مدَّ موسى عصاه نحو السماء فأرسل الرب بروقاً ورعوداً وبرداً على أرض مصر، لم يكن مثله منذ يوم أسست مصر. فأمات الناس والبهائم وأيبس العشب وكسَّر جميع الشجر ولم يكن شيء من البرد في أرض جاسان التي فيها بنو إسرائيل.

وكان موسى أنذرهم بأنه أي إنسان أو بهيمة وجد في الصحراء ولم يأوَ إلى المنازل ينزل عليه البرد فيموت. فمن خاف كلام الرب من عبيد فرعون هرب بعبيده وماشيته إلى البيوت ومن لم يوجّه قلبه إلى كلام الرب ترك عبيده، وماشيته في الصحراء، فمات. وقد عيّن الكتاب وقت إنزال هذه الضربة بقوله: «إذ كان الشعير مسبلاً والكتان مبذراً». ويكون ذلك في مصر في شهر آذار. وأما الحنطة والقطاني فلم تتلف لأنها كانت متأخرة»، على أنها أتلفها بعد ذلك الجراد كما سيجيء، وذكر الكتاب ناراً مع البرد، والأرجح أن المراد بها البروق المتتالية. ولما عظمت الجائحة «استدعى فرعون موسى وهرون، وقال لهما: قد خطئت هذه المرة أيضاً الرب عادل، وأنا وشعبي منافقون فاشفعا إلى الرب فحسبنا ما نالنا من أصوات الرعود والبرد، فأطلقكم ولا تعودوا تمكثون... فخرج موسى وبسط يديه إلى الرب فكفت الرعود والبرد. ولم يعد المطر يهطل على الأرض» (خروج فصل ٩).

وقد عاد فرعون إلى معصيته وأخلف موسى ما وعده ولم يؤذن إلا في انطلاق الرجال من بني إسرائيل. وأخيراً طرد موسى وهرون من بين يديه فعاقبه الله بجائحة الجراد وهي الثامنة. فإنه أمر موسى أن يمدَّ عصاه على أرض مصر فساق ريحاً شرقية على الأرض طول ذلك اليوم وطول الليل، فحملت الريح الجراد على جميع أرض مصر واستقرَّ عليها كثيراً جداً لم يكن قبله جراد مثله، ولا يكون بعده كذلك. فغطّى وجه الأرض حتى أظلمت وأكل جميع عشبها وجميع ما تركه البرد وثمر الشجر، حتى لم يبقَ شيء من الخضرة. فبادر فرعون واستدعى موسى

وهرون وقال: قد خطئت إلى الرب إلهكما وإليكما، والآن فاصفحا عن ذنبي هذه المرة، واشفعا إلى الرب إلهكما أن يرفع عني هذه التهلكة. فخرجا من عند فرعون وشفع موسى إلى الرب فردَّ ريحاً غربية شديدة جدًّا فحملت الجراد وطرحته في بحر القلزم. ولم يبقَ جرادة واحدة في ناحية من نواحي مصر، ولكن قسا الرب قلب فرعون فلن يطلق بني إسرائيل، فابتلاه الله بالضربة التاسعة وهي أن موسى مدَّ يده نحو السماء فكان ظلام مدلهم في جميع أرض مصر ثلاثة أيام لم يكن الواحد يبصر أخاه ولم يقم أحد من مكانه. ولجميع بني إسرائيل كان نور في مساكنهم (خروج ف ١٠). وقد وصف كاتب سفر الحكمة (ف ١٧ وف ١٨) شدة هذه الجائحة. فممّا قاله: «لم يكن في قوة النار مهما اشتدت أن تأتي بضياء ولا في بريق النجوم أن ينير ذلك الليل المدلهم... حينئذ بطلت صناعة السحر وشعوذته وبرز على افتخارهم بالحكمة حجة مخزية... أما اولئك فكان جديراً بهم أن يفقدوا النور ويحبسوا في الظلمة لأنهم حبسوا بنيك الذين بهم سيمنح الدهر نور شريعتك الغير الفاني». والأظهر أن النقمة لم تكن بمجرد الظلام المدلهم خاصة لأنه جاء في سفر الحكمة ذكر أصوات قاصفة تدوي من حولهم، وأشباح مكفهرة تتراءى أمام وجوههم، ومرور وحوش، وفحيح أفاعي، وقعقعة حجارة متدحرجة، وزئير وحوش ضارية إلى غير ذلك. وقد رأى الأب فيكورو (مجلد ٢ صفحة ٣٣٦): أن الظلام حصل بأمر الله أن يشتد السموم المعروف في مصر بالخمسين اشتداداً خارقاً العادة، واستشهد لذلك بان آية سفر الخروج المنبئة بذلك. إنما هي في الترجمة السبعينية مؤذنة بهذا المعنى، وبأن اوريجانوس قال (في تفسير بشارة متى): «إنَّ الظلام المدلهم كان في مصر ثلاثة أيام لا من قبل انتقاص نور الشمس، ولا من قبل تكاثف السحب المظلمة، ولا من قبل كثافة الهواء». وقد كانت هذه الضربة موجعة إذ نراها جعلت فرعون يستدعي موسى، ويؤذن في انطلاق الشعب وأطفالهم بشرط أن يتركوا غنمهم وبقرهم. فقال له موسى: تعطينا ذبائح ومحرقات نقربّها إلى الرب إلهنا. فمواشينا أيضاً تمضي معنا لا يبقى منها ظلف. فقال له فرعون: إمضِ عني واحذر أن تعود النظر إلى وجهي فإنك يوم تنظر وجهي تقتل فقال موسى نعمّا؛ قلت؛ لا أعاود أرى وجهك أيضاً.

وقال الرب لموسى قد بقيت ضربة واحدة انزلها على فرعون والمصريين وبعد ذلك يطلقكم من ههنا جملةً بل يطردكم طرداً. فكلّم الشعب أن يطلب الرجل

من صاحبه، والمرأة من صاحبتها أمتعة من فضة وذهب، وأنا آتيكم حظوة في عيون المصريين فيعطونهم ما يسألون. ومضى بنو إسرائيل فصنعوا كما أمر الرب»، ولما كان نصف الليل ضرب الرب كل بكرٍ في جميع أرض مصر من بكر فرعون الجالس على عرشه إلى بكر الأسير الذي في السجن. وجميع أبكار البهائم. وكان صراخٌ عظيمٌ في مصر حيث لم يكن بيت إلا وفيه ميت» (خروج ف ١١ و ١٢): وهذه هي الجائحة العاشرة والأخيرة. وقال فيها صاحب سفر الحكمة (ف ١٨ ع ١٢): «وكان لكلهم اجمعين أموات لا يحصون قد ماتوا ميتة واحدة حتى ان الاحياء لم يكفوا لدفن الموتى». وأما بنو إسرائيل فذبحوا في ذلك المساء خروف الفصح بحسب ما أمر الرب موسى، ورشوا من دمه على أبوابهم. فعبر ملاك الرب عن بيوتهم بضربته فلم يمسّهم ضرّ. فدعا فرعون موسى وهرون ليلاً وقال: قوما فاخرجا من بين شعبي أنتما وبنو إسرائيل بغنمكم وبقركم وامضوا اعبدوا الرب وباركوني أيضاً. وألحّ المصريون على الشعب ليعجّلوا إطلاقهم لأنهم قالوا قد متنا بأجمعنا. فحمل الشعب عجينهم قبل أن يختمر، وأخذوا ما أعارهم المصريون من أمتعة فضة وذهب وثياباً. وكان ذلك يحقّ لهم مكافاة عن أتعابهم في بناء مدن وأقنية. وقد يمكن أن يكون الملاك المهلك أباد الأبكار بوباءٍ أو بوسيلة أخرى، تنفّذ أمر الرب على أنه لا يمكن أن تكون هذه التهلكة بوباءٍ طبيعي كما ادّعى بعض منكري الوحي لاسيما لشمول الموت الأبكار وحدهم ولا وجه طبيعيّ لذلك.

لا عجب من أننا لا نجد أثراً مصرياً ينبئنا بهذه الجوائح لأنها مصائب نزلت بهم لعصيانهم وهي مخزية لهم، وحاطّة من شأنهم. وقد لاحظ أهل العلم بالآثار المصرية أن المصريين لم يتركوا أثراً لكل ما كان خافضاً من شأنهم إلا إذا استعادوا شرفهم، وهو بديهي. فمن يرغب في تقليد ذكر خزيه وذله ومع هذا قد وجد أثرٌ دالٌ على الضربة الأخيرة وهي موت الأبكار. قال شباس (في تاريخ الدولة الـ ١٩): «إننا نجد في أثر مصريّ كائن في متحف برلين أشار إليه بروغش (في تاريخ مصر) ذكراً لابنٍ لمنفتاح الأول مات قبل أبيه كابن فرعون الوارد ذكره في سفر الخروج «حيث قال من بكر فرعون الجالس على عرشه» كما مرّ آنفاً.

وقد أتحفنا العالم لوت بإيضاحات أكثر دقةً في هذا الشأن قال: إنَّ فرعون الذي كان يلي مصر لدى عود موسى من مدين لا يمكن أن يكون إلا منفتاح، وإذا تقرّر ذلك لزمنا أن نحوّل بصرنا إلى تمثال كبير لمنفتاح كائن الآن في متحف

برلين، يمثّل ابن منفتاح البكر مشاركاً لأبيه في الملك ، كما يدلّ على ذلك التاج الذي على رأسه . ووصفه بالابن الذي يحبه أبوه والذي يعطف إليه قلب من وَلَده . ويسمى منفتاح باسم أبيه وقد صوّر ساجداً لسوتخ الإله العظيم رب السماء، فلا يلزم أن يكون الإنسان شديد التشبّث بإيمانه ليوقن أن هذا الأمير الذي مات قبل أبيه منفتاح، وترك الخلافة في الملك لساتي أخيه الأصغر، إنما هو بكر منفتاح الذي تهدده الرب بقوله : « قلت لك أطلق ابني ليعبدني وإن أبيت ان تطلقه هاأنذا قاتلُ ابنك البكر » (خروج ف ٤ ع ٢٣) . وقد أتمّ الرب ما هدده به كما جاء في سفر الخروج (ف ١١ ع ٥ وف ١٢ ع ٢٩) . « ضرب الرب كل بكر في جميع أرض مصر من بكر فرعون الجالس على عرشه إلى بكر الأسير » . فالجالس وصفٌ للبكر وقد كُرِّر ذلك في آيات ثلاث من الخروج، فالبرهان واضح: روى ذلك فيكورو في مؤلفه الكتاب والإكتشافات الحديثة (مجلد ٢ صفحة ٣٤١) .

الفصل الخامس

أخبار خروج بني إسرائيل من مصر إلى البرية

عد ١٨٤

مدّة إقامة بني إسرائيل في مصر

قد مرَّ في عد ٩٤ ذكر الخلاف الحاصل في تعيين سني العبودية التي قضاها بنو إسرائيل في مصر . وأبنّا أن منشأه الاختلاف بين النص العبراني وغيره من الترجمات التي صرّحت بأن مقام بني إسرائيل في مصر كان أربع مئة وثلاثين سنة . وبين الترجمتين السبعينيّة والسامريّة اللتين يتبيّن منهما أن الأربع والثلاثين سنة كانت من خروج ابراهيم من أور الكلدانيين إلى خروج بني إسرائيل من مصر . وأن يوسيفوس وغيره من القدماء والحدثاء، اعتمدوا على ما جاء في الترجمة السبعينيّة لكنّ الأكثرين من العلماء والمفسّرين عوّلوا على ما جاء صريحاً في النص العبراني في سفر التكوين (ف ١٥ ع ١٣)، حيث قال الله لابراهيم : « إنّ نسلك

سيكونون غرباء في أرضٍ ليست لهم . ويستعبدونهم ويعذّبونهم أربع مئة سنة » ثم في سفر الخروج (ف ٢ ع ٤٠) : « وكان مقام بني إسرائيل الذي أقاموه بمصر أربع مئة وثلاثين سنة » .

وقد أثبتنا هناك أن كثيراً من الآثار المصرية يُستخلص منه أنّ المدّة التي انقضت من عهد أبابي الذي استوزر يوسف في سنة ١٧ لملكه، إلى عهد منفتاح فرعون الخروج إنّما هي نحو من أربع مئة وثلاثين سنةً، لا مئتان وخمس عشرة سنة وعليه فالأظهر أن مدّة إقامة بني إسرائيل في مصر أربع مئة وثلاثون سنة ، ويؤيده النص العبراني الصريح، وأقوال كثير من الآباء والعلماء منهم من مشاهير الحدثاءِ لانرمان في التاريخ القديم لشعوب المشرق، وفيكورو في محال عديدة من كتبه والأب مور في مقالته في سلسلة تواريخ الكتاب، وتوفيقها مع الآثار المثبتة في مجلّة المباحث الدينية في عددها المؤرّخ في ١٥ أيلول سنة ١٨٩٣م وغيرهم كثيرون ، بل إنّ يوسيفوس نفسه الذي قال (في ك ٢ ف ٦ من تاريخ اليهود) « إن العبرانيين خرجوا من مصر لسنة ٤٣٠ من بلوغ أبينا ابراهيم إلى أرض كنعان ولسنة ٢١٥ من انحدار يعقوب إلى مصر » . كان قال قبلاً (ف ٥ من الكتاب الثاني المذكور) : « وانقضت أربع مئة سنة على هذا النحو كان المصريون فيها يجدون في إبادة أمتنا وبنو إسرائيل يجهدون في توطئة هذه المصاعب » . وقال العالم فلّاس (من مقالته في الشعوب القدماء المطبوعة في أمستردام سنة ١٧٦٩م) أن ذرية الأصل الواحد في مدّة ٤٣٣ سنة وأربعة أشهر يبلغ عديدها إلى ٢٤٥٧٦ شخصاً فإذا فرضنا إنّ السبعة والستين ذكراً الذين انحدروا إلى مصر مع يعقوب أقاموا فيها ٤٣٠ سنة كان عددهم عند خروجهم منها ١٦٤٦٥٩٢ نفساً فإذا أسقطنا النساء نصف هذا العدد كان الباقي ٨٢٣٢٩٦ ذكراً وإذا أسقطنا ربع هذا العدد أطفالاً وشيوخاً كان الرجال المقتدرون على حمل السلاح ٦١٧٤٧٢ رجلاً . وفي الكتاب إنّ عددهم عند خروجهم « نحو ست مئة ألف ماشٍ من الرجال خلا الأطفال » (خر ف ١٢ ع ٣٧) .

عد ١٨٥

المحل الذي ارتحل منه بنو إسرائيل وفي طريق خروجهم

إن لتعيين المحل الذي ارتحل منه بنو إسرائيل لدى خروجهم من مصر أهميّة إذ

يتعلّق به مبحث آخر، توفرت الأقوال فيه وهو تعيين معبرهم في البحر الأحمر، فإذا عُلم محل بدء سفرهم سهل العلم بطريقهم، وبالمحل الذي انتهوا إليه عند البحر الأحمر، فقال يوسيفوس (في ك ٢ رس ٥ من تاريخ اليهود): «إن العبرانيين ارتحلوا من مصر والمصريون يذرفون الدموع أسفاً على سوء معاملتهم لهم، وكان طريقهم في ليتوبولي، وكانت حينئذٍ صحراء فبنيت بعد ذلك هناك مدينة سمّيت بابل عندما استحوذ كمبيس على مصر». رقال في محل آخر إنّ بابل هذه كانت في محل القاهرة الآن. وقال أسطفان البيزنطي (في كلامه على المدن): «أن ليتوسبولي مدينة في مصر وهي حي في منف وتجاهها الأهرام». وعليه فرأي يوسيفوس أنّ بني إسرائيل رحلوا من منف أو القاهرة. وهذا غير ثابت ولم يكن يوسيفوس يعرف المحال التي تكلّم فيها. ولعلّه أسند رأيه إلى تقليد اليهود الذين أقاموا في مصر بعد أن دمَّرَ بختنصر أورشليم. ولم يكن لتقليد هولاء أسٌّ راهن ومع هذا اعتمد عليه وعلى رواية يوسيفوس بعض العلماء المسيحيين في صدر النصرانية وبعده دون أن يسبروا أساسه.

ولما جاء عصر التدقيق والتنقيب كان الأب سيكار P. Sicard اليسوعي[1] أوّل من عنيَ بالتنقيب عن طريق الإسرائيليين عند خروجهم من مصر إلّا أنه لم يبلغ من الحقيقة شأوا لأنه ظنَّ أن منفتاح ملك مصر وقتئذٍ كان يسكن مدينة منف على مقربة من القاهرة لا مدينة تانيس (صان)، كما حقّقت الآثار القديمة الآن، وأن رعمسيس المدينة التي صرّح الكتاب بأن بني إسرائيل هاجروا منها، إنّما هي في القرب من منف في جنوب القاهرة على نحو ثلاث ساعات منها في المحل المسمّى الآن البساتين. فلم يكن لهم والحالة هذه إلّا طريقان من منف إلى البحر الأحمر، الأول في الوادي الذي بين جبل طورا وبين جبل ديوشى، والثاني في الصحراء التي بين القاهرة والسويس التي سمّاها القدماء أرسينيا، وقطع بأنَّ بني إسرائيل سلكوا الطريق الأوّل. وقد تابع الأب سيكار في قوله كثير من علماء عصره ولاسيما في إفرنسة على أن الإكتشافات الحديثة محقت كل أشكالٍ؛ وأتت بالعلم اليقين أن منفتاح كان عند إنزال الجوائح بمصر، ولدى إطلاق بني إسرائيل في تانيس المعروفة الآن بصان والواقعة في الشمال الغربي من البحر الأحمر، وفي جوار أرض جاسان

(١) ولد في اوبين في افرنسة سنة ١٦٧٧ ومات في مصر سنة ١٧٢٦.

التي كان يسكنها بنو إسرائيل . وقد حقّقت هذه الآثار أيضاً أن رعمسيس المدينة لم تكن في القرب من منف والقاهرة ، بل من أرض جاسان وتانيس في مصر الشفلى (راجع ع ١٧٦) .

وعليه فممّا لا يشوبه ريب أن بني إسرائيل ارتحلوا من رعمسيس المدينة التي بناها رعمسيس الثاني في مصر السفلى إلى سكوت. ثم ارتحلوا من سكوت ونزلوا بأيتام في طرف البرية كما صرّح بذلك سفر الخروج (ف ١٢ ع ٣٧ و ف ١٣ ع ٢٠). «ولم يسيرهم الرب في طريق أرض فلسطين مع أنّه قريب لأن الله قال لعل الشعب يندمون إذا رأوا حرباً فيرجعون إلى مصر» (خروج ف ١٣ ع ١٧). إذ كان الأقرب مسافة أن يسيروا على شاطئ البحر المتوسط ويجتازوا من العريش إلى غزة على أن هذا الطريق كانت تحدق به حصون غاصة بالجنود المصرية. فتمنع مسيرهم ويتسنى لفرعون أن يدركهم ولم يشأ الله أن يعرض بني إسرائيل (وهم منهوكون بالعبودية وغير ممرنين على حمل السلاح)، للحرب مع الكنعانيين المحنكين بالحرب واللائذين بملك مصر فينجدهم لا محالة على الإسرائيليين . وقد أخرج بنو إسرائيل معهم عظام يوسف كما كان أوصاهم. ومن تقليد اليهود الذي أثبته القديس أسطفانوس في أعمال الرسل (ف ٧ ع ١٥ و ١٦) والقديس إيرونيموس أن العبرانيين أخذوا معهم عظام إخوة يوسف الأحد عشر.

عد ١٨٦

أقوال العلماء في طريق بني إسرائيل ومعبرهم في البحر الأحمر

قدمنا قول الكتاب أن بني إسرائيل ارتحلوا من رعمسيس إلى سكوت، وارتحلوا من سكوت ونزلوا بأيتام ثم أمر الرب موسى «أن يرجعوا وينزلوا أمام فم الحيروت بين مجدول والبحر أمام بعل صفون» (خروج ف ١٤ ع ٢). فأين سكوت وأيتام وفم الحيروت ومجدول وبعل صفون؟ فهذه مسألة معضّلة مهمة يتعلق على العلم بها بطريق العبرانيين إلى البحر الأحمر وبمعبرهم فيه. وقد توفرت فيها الأقوال وتضاربت، وقد أورد الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٣٦٢) منها قولين خاصة قول بروغش العلامة الألماني، وقول مهندسي ترعة السويس الإفرنسيين، وعقّبهما بذكر رأيه فنجتزئ بتلخيص هذه الأقوال. فالحاصل

من قول بروغش (في كتابه الخروج والآثار المصرية صفحة٢٥ وما يليها): إن للمسافر من رعمسيس (وهي تانيس على رأيه) إلى فلسطين طريقين، أحدهما نحو الشمال الشرقي من رعمسيس إلى بالوز (وهي الآن طينة أو فرما)، مارًّا بفيتوم إلى سكوت، على أن الآثار أنبأتنا أنّ هذا الطريق تكثر به الوحول فلم يكن مطروقاً ولا يسافر به جمٌّ غفير بعدد وذخائر وماشية. والطريق الثاني هوالطريق الذي كان الفراعنة يسيّرون به جنودهم وخيولهم ومركباتهم، ويسميه المصريون السكة السلطانية وهو مسافة أربع مراحل أي رعمسيس وأسوار سكوت وأيتام ومجدول.

وأثبت بروغش إستطراق هذه الطريق بأثر عُثر عليه اتفاقاً. والأولى أن يقال بعناية ربّانية (كما قال) في المتحف البريطاني خَطَّ هذا الأثر منذ ثلاثين قرناً كاتب مصري قص فيه أخبار سفره لينشد خادمين فرّا فقال: «مضيت من القصر الملكي في تانيس في مساء اليوم التاسع من الشهر الثالث من الصيف أتطلب الخادمين فبلغت أسوار سكوت في اليوم العاشر من ذلك الشهر. فخبرت ثمة أن الفارين ذهبا نحو الجنوب فبلغت في الثاني عشر إلى قيتام فقيل لي هناك إنّهما توجّها إلى شمال مجدول».وهذا الأثر هو البابير المعروف بأنستازي الخامس وقال بروغش: بعد ذلك ضع موسى وقومه موضع الفارّين وهذا الكاتب موضع فرعون تجد طريق العبرانيين.

وقد تعقّب فيكورو قول بروغش هذا لأوجهٍ منها إنَّ تانيس التي سافر منها الكاتب غير رعمسيس التي سافر منها العبرانيون. وأنّ سكوت التي جعل بروغش موقعها في شرقي تانيس قد حققت اكتشافات العالم نافيل إنّها في جنوبيها في محل المسقوطة الآن. ومنها أن أيتام التي حلّ فيها بنو إسرائيل غير قيتام التي بلغ الكاتب المصري إليها. ومنها أن الفارين توجّها إلى شمال مجدول والكتاب ينبئنا أن بني إسرائيل مضوا من أيتام نحو الجنوب. فإذاً قد كان طريق العبرانيين غير طريق الفارّين والكاتب المصري. وندّد فيكورو بهذا القول خاصة لأنه يؤدّي إلى أن بني إسرائيل لم يتوجّهوا من جهة البحر الأحمر بل من جهة البحر المتوسّط. ولم يجتازوا في البحر بل عبروا في مضيق من الأرض يفصل بين البحر المتوسط وبحيرة سربونيس المسمّاة الآن بحيرة بردويل. وأن جنود فرعون لم تغرق في بحرٍ بل في بحيرة أو آجامها وكلّ ذلك يخالف كلام الكتاب في سفر الخروج وغيره.

وأمّا أكثر المهندسين الموظفين في حفر خليج السويس ففرضوا أن البحر الأحمر

في أيام عبور المصريين من مصر إلى برية سينا كان متصلاً بالبحيرات المرة الواقعة في شمالي السويس. وفي جنوب بحيرة التمساح وزعم بعضهم إنّهم عبروا في هذه البحيرات. وإليك ما قاله فردينند دي لاسبس في خطبته التي ألقاها في نانت في ٨ كانون الأول سنة ١٨٦٦م: «جاء في الكتاب المقدس الذي تيقنت صدقه باكتشافاتي وأسفاري كلها أن موسى لمّا أخرج بني إسرائيل من مصر سار بهم من رعمسيس المدينة، حيث يُرى إلى الآن صخر يمثل أحد فراعنة مصر ويسمى رعمسيس، والمحطة الثانية التي حلوا فيها سماها الكتاب سكوت وتأويل الكلمة في العبرانية مظلة وخيمة، والعرب يسمون هذا المحل أم الخيم. وقام موسى بقومه من سكوت إلى محلة سماها الكتاب، أيتام وهناك محل تنجعه عشيرة من رعاة الماشية تسمّى إيتاميس. ومن عادة قبائل العرب أن تسمي الأرض التي تحلُّ فيها باسمها.

ولما عرف موسى أن جنود فرعون يتتبعون أثرهم، عاد إلى الوراء بشعبه بحسب أمر الله له، واحتلوا بحيروت أو فم الحيروت، وتأويل الكلمة محل القصب، والعرب تسمّي هذا المحل وادي بيت البوز أي وادي القصب. وكان هناك حينئذٍ مستنقعات من أمواه البحر الأحمر. وقد اكتشفنا ثمة طبقات من الملح البحري متجمعة من بخار ماء البحر في مدة قرون، وعثرنا أيضاً على أصداف البحر الأحمر. ولم يكن القدماء يحسبون طول الخليج إلّا خمسة عشر فرسخاً، ولا امترى البتة أن مجتمع أمواه البحيرات المرة إنّما هو الخليج المسمّى خليج هيروبوليس. وأمّا بحيروت أو فم الحيروت، فكان موقعها على ما يتلخّص من الكتاب بين البحر جنوباً ومجدول شمالاً، وبعل صفون شرقاً، وبيتوم غرباً، وكان البحر متّصلاً بالبحيرات المرة. وأمّا مجدول فكانت حصناً، سماه الرومانيون مكدول أو مكدلون. وترى أطلالها في جانب الطريق المؤدي إلى سورية. وبعل صفون كانت هيكلاً مقاماً على أرفع أكمة هناك تذكرة لحرب أثارها أوسيريس على تيفون (بحسب حكاياتهم)، وهي آخر ما يسقى بمياه النيل.

وبيتوم كانت على مدخل الوادي الذي يسمى إلى اليوم وادي توم... ولما احتل بنو إسرائيل فم الحيروت ظهرت لهم طلائع الجيش المصري، فارتعدوا لكنّ الله أثار عند المساء الريح الشديدة التي وصفها الكتاب، فامسك المصريين عن الوثوب عليهم إلى صباح اليوم التالي. وقد كنت شاهداً لمثل هذه الريح العاصفة إذ حللت في المحل نفسه عند أول ما أخذت في اكتشاف الخليج سنة ١٨٥٤م. فلم أتمكن أنا

ورفقائي من توثيق أطناب مظلتنا التي قلبتها العاصفة. وكانت الحصى تدمي وجوهنا وأيدينا. فشدّة الريح العاصفة في أيام موسى قذفت الأمواه من حيث لم تكن عميقة فاغتنم موسى العون الربّاني الذي أمدّه الله به، وسيّر العبرانيين في البحر طريقاً يبساً وعند سكون الريح عاد الماء إلى محله فغمر المصريين الذين كانوا دخلوا في أثر بني إسرائيل، وحيث أن ارتفاع الماء هناك من متر وثلاثين سنتيمتراً إلى متر وثمانين سنتيمتراً فأمسك جيش فرعون أو غرّقه».

ومن هؤلاء المهندسين العالِم لاكوانتر، وقد حقق أن البحيرات المرة كانت متّصلة بالبحر الأحمر وأنّ ارتفاع البرزخ المسمى الشالوف فصل بينهما وأن مياه البحيرات أشد ملوحة من مياه البحر. وذلك دليل على أنّ هذا الإتصال كان متقطّعاً، فتكون الأمواه تارة متّصلة وطوراً منفصلة. وعليه قال إنّ موسى إذا ارتحل من أيتام سير قومه على شاطىء البحيرات المرة الغربي، قاصداً أن يدخل الصحراء الواقعة في شرقي خليج السويس. فقطع الطريق عليهم جيش فرعون الآتي من منف في الجنوب الغربي، وأمسى بنو إسرائيل محصورين بين العسكر المصري جنوباً والبحيرات شرقاً. وجبل جنفّا (المسمى الآن جبل أحمد تاشر على ما روى فيكورو) غرباً، فخلّص الله شعبه بآية فاتحاً له في وسط البحيرات طريقاً يبساً وغرق أعداءهم في هذه الأمواه المتصلة بالبحر الأحمر فصدق قول الكتاب أن بني إسرائيل عبروه، والمصريين غرقوا فيه. وقد أبان لاكوانتر شديد التشبّث بقوله حتى سأل أن يستقصى الكشف في محال يعينها في هذه البحيرات فيأمل وجدان أثر لمركبات فرعون.

قد ندّد الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٣٨٧) بأقوال هولاء المهندسين. ولاسيما لاكوانتر مبيّناً أن برزخ الشالوف الفاصل بين خليج السويس والبحيرات المرة هو أقدم من موسى بقرون وأثبت ذلك من طبقات أرضه التي لا يمكن تكونها في عهد موسى ولا بعده، بل قد تقدمته كثيراً. وقال: إنّ الآثار المصرية لم تأتنا بإشارة إلى اتّصال البحر الأحمر بالبحيرات المرّة، بل أنبأتنا بما يخالف ذلك، وهو احتفار قناة توصل بينهما. فقد اكتشف بوكرد في القرن الماضي خط هذه القناة، واستتبع روبل مجراها مسافة ساعة ونصف، بل ذكرها هيرودت من أيامه وعزاها إلى رعمسيس الثاني أبي منفتاح الذي خرج بنو إسرائيل من مصر في عهده. وآثار هذه القناة باقية إلى يومنا هذا، وعليه فلم يكن البحر الأحمر في أيام موسى متصلاً بالبحيرات المرّة، ولا في وقت الأنواء الشديدة، ولا حاجة إلى

العدول عن ظاهر آيات الكتاب الصريحة بأن العبرانيين، عبروا البحر الأحمر أو بحر سوف أو بحر القلزم. والمعنى واحد ولا داعي إلى هجر أقوال الآباء والعلماء القدماء، وكثير من الحدثاء الذين أثبتوا أن المراد بآيات الكتاب المتعددة البحر الأحمر.

وبعد أن فنّد الأب فيكورو هذه الأقوال عاد إلى إيراد ما يراه الأمثل، والأظهر والأقرب إلى الصواب في هذا الباب فقال: إنّ بني إسرائيل ارتحلوا من جاسان في وادي توميلات في جنوبي المديريّة المسماة الآن الشرقية حيث قناة الماء التي كُشف عنها حديثاً. وقد رأيت آثارها في جوار بيتوم. وأنبأتنا الآثار إنّ ساتي الأوّل جد منفتاح إنّما هو الذي احتفرها، وكان مسير بني إسرائيل في القرب من الماء ضربة لازب لاستقائهم واستقاء ماشيتهم، وكانت مرحلتهم الأولى قصيرة. فجم غفير نظيرهم لا يتسنى له أن يسير مسافة طويلة خاصة في اليوم الأول من سفرهم. فحلوا في سكوت، وهي على رأيه حصن من حصون بيتوم، وفي اليوم التالي بلغوا أطراف البرية وحلوا في أيتام. والأرجح عنده أن المراد بايتام أحد الحصون التي بناها الفراعنة وقاية من غزوات العرب الرُحَّل.

وذكر ديودورس الصقلي هذه القلاع، وأثبتت الآثار المصرية وجودها، ويتبيّن من بابير محفوظ في متحف برلين، أنها بنيت منذ عهد أقدم ملوكهم، وكانت تسمى باللغة المصرية إتام وفي القبطية تام أو توم. ولا تخفى المقاربة بين هذا الاسم وبين اسم إيتام الذي ذكره الكتاب. وهذا الطريق كان يؤديهم إلى غزة، ولكنّ مسيرهم به هرباً من فرعون كان يوقعهم في يد حلفائه ملوك فلسطين. والبابير المعروف بانستازي الثالث ناطق بوجود هذه المحالفة يومئذٍ، ولذلك أمر الرّب موسى أن يرجع فيسير ببني إسرائيل نحو الجنوب أي نحو البحر الأحمر وجبل سينا، فساروا إلى أن حلوا أمام البحر ولم يصرّح الكتاب، كم كانت مدة انتقالهم من إيتام إلى أمام البحر أيوماً أم أكثر. وبعد المسافة مؤذن بأنهم قضوا أكثر من يوم، وكان مسيرهم على شاطىء البحيرات المرة الغربي، قضى عليهم بذلك احتياجهم إلى الماء، والكلأ لماشيتهم. وكانت تلك القطعة تروى بماء النيل وفم الحيروت[1]

(١) ويروى حيروت وبيحيروت مركبة من كلمة بي ومعناها في المصرية كالسريانية محل وبيت ومن حيروت وفي نسختنا السريانية ܦܘܡܐ ܕܚܝܪܘܬܐ فم الحيروت كما في النص العبراني.

يتعذر تعيين موقعها لتعذر تعيين موقع مجدول وبعل صفون، اللتين عرف موسى بهما فم الحيروت. ولكن لا يعدو أن يكون موقع هذه في شمالي خليج السويس عند آخره لأن موسى أتى من جهة الشمال ميمّماً المشرق فلا وجه لعوده نحو المغرب، بل أن يحل عند الطرف الشمالي من الخليج. وقد عثر إدوار نافيل في أخربة تل المسقوطة على صفيحة من عهد بتولمايس فيلادلفوس؛ كتب عليها اسم بيكارت أو بيحارت مرتين ولكن لم يعين موقعها، ولعلها بيحيروت التي ذكرها سفر الخروج وقال كثير من المحققين الحدثاء: إنّ بيحيروت هي المسماة الآن أجرود وهي واقعة بين البحيرات المرة والسويس على بعد أربع ساعات من السويس، ولا يبعد هذا عن الصواب وإن تعسّر القطع به.

وكذا لا يمكن القطع بتعيين محل مجدول، وقد وجد اسمها مكتوباً في الآثار المصرية مَكتل أو مكدل، ومعناه القلعة أو الحصن كمعنى مجدل أو مجدول. وهذا مؤذن بأن موقعها كان على التخوم بين مصر والبرية، وكان ثمة حصن. وفي أثر لساتي الأول أنّ هذا الملك مرّ بمدينة اسمها مجدل عند إيابه من سورية إلى مصر (ذكر ذلك بروغش وشباس وغيرهما). وأمّا بعل صفون فيرجّح أنه الجبل المسمى الآن جبل الطاقة (؟) الواقع في الجنوب الغربي من السويس. ويظهر أن هذا الاسم ساميّ دال على مهد الاله وقال بعضهم: إن بعل صفون معناه إله الشمال أو إله الريح الشمالية. وإنّ واضع هذا الاسم لهذا الجبل إنّما هم البحارة الفينيقيون الذين كانوا يسيّرون سفنهم من هناك نحو الجنوب، ويقدّمون محرقات لبعل إله هذا الجبل. انتهى ملخصاً.

عد ١٨٧

نجاة بني إسرائيل وغرق جنود فرعون في البحر الأحمر

قال الكتاب (خروج ف ١٤ ع ٥ وما يليه) «فلما أُخبر ملك مصر أن الشعب قد هربوا تغير قلبه وقلوب عبيده عليهم وقالوا: ماذا صنعنا فأطلقنا إسرائيل من خدمتنا، فشدَّ مركبته، وأخذ قومه معه وأخذ ست مئة مركبة مختارة، وجميع مراكب مصر... فاتّبعهم المصريون فأدركوهم وهم نازلون عند البحر»، قد كان المصريون حراصاً على إمساك أسراهم وعبيدهم لتواصل النفع بعملهم كما تبيّن من

كثير من آثارهم فلا مرية إن كان غمهم شديداً إذ رأوا شعباً كبيراً هاجر بلادهم، وأعدمهم الإنتفاع بأعماله لا إلى زمن ليقدموا الذبائح لإلههم كما كان يظن فرعون بل إلى ما لا نهاية له. ولذلك ركب فرعون بنفسه في مقدمة قومه، وأخذ ست مئة مركبة من مركباته وجيشاً كبيراً وأسرع في لحاق بني إسرائيل. وقد كتب منفتاح نفسه في أحد آثاره أنّه صنع كذلك عند محاربته غزاة أجنبيين انتصر عليهم في مبادئ ملكه. إذ قال إن الفرسان الراكبين خيول عظمته جدُّوا في تتبّع آثارهم»، فسار الجيش المصري من تانيس حيث كان الملك حينئذٍ كما مرّ فأدركوا بني إسرائيل عند خليج السويس، وقطعوا عليهم الطريق من جهة الشمال والشمال الشرقي. وكان في الغرب والجنوب جبل الطاقة وعر يستعصي عليهم المسير به. وفي الشرق البحر فضاقت بهم المسالك، وسدّت عليهم الطرق ولذلك ارتاع بنو إسرائيل إرتياعاً شديداً وقالوا لموسى: «أمِنْ عدم القبور في مصر أخرجتنا لنموت في البرية...



فقال لهم موسى: قفوا وانظروا خلاص الرب الذي يجريه اليوم لكم... ومدَّ موسى يده على البحر، فأرسل الرب ريحاً شرقيّة شديدة طول الليل حتى جعل في البحر جفافاً وقد انشقّ الماء، ودخل بنو إسرائيل في وسط البحر على اليبس والماء لهم سور عن يمينهم وعن يسارهم. وتبعهم المصريون، ودخلوا وراءهم جميع خيل فرعون ومراكبه وفرسانه إلى وسط البحر... وقال الرب لموسى: مد يدك على البحر فيرتد الماء على المصريين... فمد موسى يده ورجعت المياه، فغطّت مراكب وفرسان جميع جيش فرعون الداخلين وراءهم في البحر، ولم يبقَ منهم أحد».ولا يعلم حق العلم كم كانت المسافة التي اجتازها بنو إسرائيل في البحر، ويظهر أنها لم تكن طويلة لأنهم عبروا في ليلة واحدة، فيقدر أنّها مسافة ست إلى ثماني ساعات على كونهم مليونين من النفوس، ومنهم نساء وأطفال ومعهم ماشية. ويرجّح أن معبرهم كان من شاطئ الخليج الغربي بخط منحرف إلى شاطئه الجنوبي الشرقي. إنّ فرعون لم يغرق كما غرق عسكره لأن الكتاب لم يشر إلى ذلك، والتاريخ والآثار المصرية يظهر منها أنّه مات حتف أنفه وعلى فراشه. ودفن في المحل الذي يسمونه بيبسان الملوك في مدفن أُعِدَّ له. على أنَّ الآثار لم تنبئنا بشيء من الأحداث في عهده بعد السنة الثامنة من ملكه. وإن قال بعضهم: إنّه ولي مصر عشرين سنة دون أن يقيموا على مدعاهم دليلاً. ولا عجب من أننا لا نجد ذكراً لجائحة البحر الأحمر في الآثار المصرية، كما لم نجد ذكراً للضربات العشر لما مر من أن المصريين وغيرهم لم يشأوا تخليد إنخذالهم وخزيهم وهو طبيعي وبديهي.

ومع هذا قد روى العلامة شباس ترجمة اعلام أخذه عن البابير المعروف بأنستازي الخامس قد نسخ في عهد ساتي الثاني ولكن يمكن أن يكون كتب لأوّل مرّة في أيام منفتاح الأول، وقد أنفذه أحد قادة الجيش إلى بعض مأموريه، وهذه ترجمته: «إعلام، متى وصلت إليكم رسالتي هذه اهتمّوا سريعاً بأن تحضروا إليّ بالمدجيو (مرّ معنا أن المراد بهذه الكلمة رجال الشحنة الموكولة إليهم المحافظة على العبرانيين بعمل اللبن). الذين يلون السافكى (لا يعلم معنى هذا اللفظ) الأجانب العازمين على الصعود (أي من مصر نحو بلاد العرب. وهذا التعبير كان المصريون والعبرانيون يستعملونه للدلالة على الانطلاق من مصر)، ولا تحضروا جميع الرجال الذين عينت لكم أسماؤهم في درج. وأحرصوا على نفسكم وأن لا يتردّد الرجال في طاعة آمريهم، وايتوني بهم إلى تقهو (هو حصن من حصون المحافظة على

التخوم الشرقية) فانا أدخلكم وإيّاهم». وقال شباس: لو عيّن العبرانيون في هذه الرسالة باسمهم لما كان لأحد أن يمتري في دلالتها على خروجهم من مصر، ولكن سموا سافكي ولعلَّ هذا اللفظ دال على حالتهم أو شغلهم في مصر وعليه فلا يمكن القطع بأن المراد به العبرانيون. وإن أوجبت ذلك القرائن فيبقى الأمر في حيِّز الإحتمال .

زعم بعض ناكري الوحي أن العبرانيين انتهزوا فرصة الجزر في البحر الأحمر، فعبروه على اليبس الحاصل من قهقرة ماء البحر. ولما تتبّع المصريون أثرهم استولى المدّ في البحر فغرّقهم. وممّن تمحّلوا لذلك العالم دوبوا إمه الذي كان يصحب القائد بونابرت (نابوليون الأول) في غزوته إلى مصر. وتابعه أكثر مفسّريّ الكتاب من العقليين وسلفادور اليهودي. على أن آي الكتاب ناطقة بما يخالف زعمهم نطقاً جليّاً. وقد دقّق ونقّب كثير من الجوّابين والعلماء، وصرّحوا بأنه يستحيل حقيقة على مليونين من النفوس أن يعبروا سويّة مصحوبين بماشيتهم، وأطفالهم ونسائهم على ضفّة حاصلة من جزر البحر في مدة ساعات قليلة. ولا نرى آية عظّمت الأسفار المقدّسة قدرها كآية شق البحر الأحمر وإجازة بني إسرائيل فيه. وقد كثر ذكرها في أسفار العهدين القديم والحديث، وترنّم بها الانبياء في مواضع عديدة من كتبهم.

ومثل هذا الزعم في بطلانه زعم بعضهم أن عمود النار والغمام، إن هو إلا أقباس من النار كان موسى يسيّرها في مقدّمة قومه فتضيئهم. ولما اتبعهم المصريون سيّرها في أواخر قومه لتحجبهم عن نظر أعدائهم، فهذا يُسخر منه، ولا يلتفت إلى ردّه. فالأقباس لا تنير مليونين من النفوس، والكتاب يعزو هذا العمود إلى ملاك إذ قال (خروج ف ١٤ ع ١٩): «فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر إسرائيل فصار وراءهم، وانتقل عمود الغمام من أمامهم فوقف وراءهم، ودخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل فكان من هنا غماماً مظلماً، وكان من هناك ينير الليل فلم يقترب أحد الفريقين من الآخر طول الليل». وهذا العمود صحب بني إسرائيل مذ سافروا من سكوت على ما قال القديس إيرونيموس في رسالته إلى فابيول أو مذ سافروا من رعمسيس على ما قال غيره أو مذ سافروا من ايتام إلى ممات هرون على ما قال أكثر المفسرين : وكان مضيئاً في مدة الليل ومظلماً كغمام حالك في مدة النهار. فقد توفَّرت آيات الله في إخراج شعبه من مصر لتكون ذكرى وعبرةً لشعبه وغيرهم طول الأيام.

وقد سبَّح موسى وبنو إسرائيل بعد نجاتهم التسبيحة التي ذكرها سفر الخروج (في الفصل الخامس عشر منه) والمفتتحة: «أسبّح الرب فإنه قد تعظَّم بالمجد الفرس وراكبه طرحهما في البحر» . إلى آخرها وأخذت مريم أخت موسى وهرون الدفّ في يدها ، وخرجت النساء كلّهن وراءها بدفوف ورقص يترنَّمن بآي هذه التسبيحة ومريم وبعض رفيقاتها يجاوبنَ: سبّحوا الرب فإنه قد تعظّم بالمجد.

الفصل السادس

أخبار بني إسرائيل في برية سيناء

عد ١٨٨

لمعة في شبه جزيرة سينا

إنَّ سينا شبه جزيرة يحدّها خليج السويس غرباً والبحر الأحمر جنوباً وخليج عقبة شرقاً. وتتصل ببلاد العرب شمالاً وأعلى جبالها يُسمَّى الآن جبل أم شومر وجبل موسى وجبل سربال. وليست برية سينا صحارى تعلوها الرمال بل بلاد جبليّة متحجّرة، وليس فيها من الرمل إلا ما ندر خلافاً لصحارى مصر، وتربتها غير خصبة والنبات فيها قليل إلا في بعض الأودية، والهضاب حيث تكثر الأعشاب العطرية، وليس على أكامها تراب ولا خضر والماء قليل في أوديتها، وسماؤها نقيّة، ولكنَّ شمسها محرقة حتى تزيد فيها الحرارة مدة النهار ثلاثين درجة عليها مدة الليل. وسمّاها الكتاب (خروج ف ١٥ ع ٢٢) شور وهي كلمة عبرانية معناها السور. وفي السريانية ܫܘܪܐ فإنَّ العبرانيين رأوا تجاههم عند إقبالهم على هذه البلاد جبالاً شامخة من وراء البرية كأنها أسوار طبيعية للبلاد، فسمّوها شور أي سوراً، حتى قال هنري بلمر رئيس اللجنة الإنكليزية الآتي ذكرها وهو ينظر مع صحبه من عند عيون موسى إلى جبلي الراحة والتيه

من وراء البرية، أعجبوا من تسمية العبرانيين لهذه البلاد سوراً. فما أطبق هذه التسمية للحقيقة والوضع.

إنَّ أول من زار برية سينا في هذا العصر، واستقصى فيها إنما هو بوكرد لسنة ١٨١٠م. ثم تتبعه كثير من الجوّابين والزائرين على مشقة السفر، وقلة الأمن فيها إلى أن أرسل الإنكليز سنة ١٨٦٨م لجنة علمية للتنقيب فيها والاستطلاع على مواقعها. وكان رئيس هذه اللجنة العالم هنري بلمر، فأقامت هذه اللجنة في تلك الأنحاء ستة أشهر، وأخذت نحو ثلاثمائة صورة فوتغرافية تمثل أخصّ مواقع هذه البلاد، ورسمت لها عدة خرائط جغرافية، ونسخت كل ما عثرت عليه فيها من الخطوط، ونشرت خلاصة أعمالها وآرائها سنة ١٨٧٢م ونستشهد مرات أقوال هؤلاء العلماء في الأعداد التالية.

عد ١٨٩

مراحل بني إسرائيل من جانب البحر الأحمر إلى برية سين

أثبت كثيرون ما جاء في تقليدات أهل تلك الأنحاء أنَّ الإسرائيليين بعد أن عبروا البحر الأحمر حلّوا في الموضع المسمَّى الآن عيون موسى. فهناك صحراء كافية لاحتلالهم فيها بعض عيون ماء صافٍ لكنه ملح. وقال فيكورو (الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة ٤٤٢) إنه عدَّ هناك اثني عشر ينبوعاً عند زيارته هذا المحل في ٨ آذار سنة ١٨٨٨م، وهناك بعض النخيل أيضاً. وقال الكتاب (خروج ف ١٥ ع ٢٢): «ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر القلزم، وخرجوا إلى برية شور، فساروا ثلاثة أيام في البرية ولم يجدوا ماء فأفضوا إلى مارة» قال فيكورو (في المحل المذكور) إنَّ بني إسرائيل اجتازوا حينئذٍ في ساحل البحر الأحمر الذي طوله إلى مارة ثمانون كيلومتراً، وعرضه ثمانية عشر كيلومتراً وساروا هذه المسافة في مدة ثلاثة أيام فكأنهم ساروا في كل يوم ما يجتازه راكب واحد في مدة نحو أربع ساعات ونصف.

وقد تيقّن كل من جابوا هذه الأماكن بصدق كلام الكتاب إذ لم يجدوا هناك إلا أرضاً جرداء، ذات حصى سوداء ليس فيها من النبات إلا بعض أعشاب لا نضارة لها، وبعض شجيرات ذابلة ولا شيء من الماء هناك، حتى قال هنري بلمر

رئيس اللجنة الإنكليزية: «إنَّ كل ما هنالك لا يطبع في مخيّلة المسافر إلا تصوُّر برية لا ماء فيها». وقال فلستد (في كتاب رحلته ببلاد العرب المطبوع في لندرة سنة ١٨٣٨م): «يكره العرب الرحّل كل البلاد التي من حرارة إلى عيون موسى لعدم وجود الماء فيها».

وأما مارة التي أفضوا إليها فأكثر العلماء أكدوا على أنها الينبوع المسمّى اليوم عين حوارة؛ وهي على أكمة صغيرة هناك ويختلف طعم مائها باختلاف الفصول لكنه لا يخلو أبداً من مرارة. وقال بوكرد (في كتاب رحلته في سورية سنة ١٨٢٢م صفحة ٤٧٢) إنَّ الناس لا تستطيع شرب هذا الماء لمرارته، بل الجمال نفسها تأنف منه إلا إذا أضناها الظمأ. على أن اللجنة الإنكليزية لم تقطع بموقع مارة كل القطع بل قال رئيسها هنري بلمر إنَّه وجد أثراً لذلك في وادي مريرة في تلك الجهة إذ اكتشف سنة ١٨٦٩م هناك عين ماء مر المذاق.

إنَّ كل ما مرَّ مصداق لقول الكتاب: «فافضوا إلى مارة فلم يطيقوا أن يشربوا من مائها لأنه مرّ. ولذلك سمّيت مارة فتذمَّر الشعب على موسى وقالوا: ماذا نشرب؟ فصرخ إلى الرب، فأشار له إلى شجرة فألقى منها في الماء فصار عذباً». وسمّى بعضهم هذه الشجرة كركد، وقالوا إنها شجرة ذات أشواك يكثر نبتها حذاء الينابيع، تثمر في الصيف حبوباً حمراء عذبة المطعم، وإنَّ من خواصها جعل الماء أقلّ مرارة. ولكن أبى حكماء اللجنة الإنكليزية المصادقة على هذا الزعم. وقال بلمر رئيسهم لا يعلم أحد أيّ الشجر استعمل موسى في تحلية ماء مارة. فسفر الخروج لم يصرّح به، وأهل تلك البلاد لا يعرفون نباتاً يحلّي الماء. وقد مرَّ بنو إسرائيل في تلك البلاد، ولم تكن ثمار الأشجار ناضجة، ولكن قال فردينند دي لاسبس: (في خطبته السالف ذكرها في نانت سنة ١٨٦٦م): أخبرني بعض العرب أنهم يلقون في المياه المرّة نوعاً من الشوك يحمل ثمراً أحمر حامضاً فيمتصّ ما فيها من المواد الملحيّة والقلويّة، فتخفّ مرارتها وتصلح للشرب عند الحاجة. ومهما يكُ فذلك فضلٌ من الله سواء قيل إنه هدى موسى إلى شجرة يحلّي بطبعه مرارة الماء أو أنه أزال مرارته بآيةٍ مع توسّط الشجر.

ثم قدم بنو إسرائيل إلى ايليم وكان هناك اثنتا عشرة عين ماء، وسبعون نخلة فنزلوا هناك على الماء. وقد أجمع أكثر العلماء والجوّابين على أن موقع ايليم

هذه إنما هو في وادي غرندل. فهناك صحراء تبعد عن عيون موسى ستة وثمانين كيلومتراً. وتجد إلى اليوم أشجار النخل وغيرها من أشجار البرية. وهناك أيضاً ينبوع ماء يجري دائماً ومياهه صافية غزيرة لاسيما في أيام الربيع، وقت حلول بني إسرائيل هناك حتى يتفرَّع منه عدة ينابيع. «ثم ارتحلوا من ايليم وأقبل كل جماعة بني إسرائيل إلى برية سين التي بين ايليم وسيناء». كذا في سفر الخروج (فصل ١٦ عد ١) وفي سفر العدد (فصل ٢٣ عد ١٠)، وارتحلوا من ايليم ونزلوا على بحر القلزم، وارتحلوا من بحر القلزم ونزلوا ببرية سين». ففصل موسى في سفر العدد ما أجمله في سفر الخروج ومحلة بني إسرائيل هذه في جانب بحر القلزم الذي هو البحر الأحمر نفسه يتيسَّر لمن شهد هذه الأماكن تعيينها تعييناً أكيداً. فأقوم طريق لهم من ايليم إلى البحر كان أن يجتازوا في سفح الجبل المسمَّى حمام فرعون، وأن ينحدروا نحو ساحل البحر في وادي شبيقه ووادي طيبة. وعليه فأكثر مَنْ تجوَّلوا في هذه البلاد قضوا بأن محلة بني إسرائيل هذه كانت في أطراف وادي طيبة من جهة البحر، وأن موسى وعمدة قومه حلّوا على الأرجح عند ينابيع وادي طيبة ونخيله على بعد ألف وخمس مئة متر من الشاطيء، وبين هذا المحل وبين وادي غرندل الذي ارتحلوا منه مسافة ثلاثين كيلومتراً أي مسافة نحو خمس ساعات.

وقد كان لهم في مرحلتهم من وادي طيبة إلى برية سين طريقان يُسمَّى أحدهما طريق البحر، يُسار به على شاطيء البحر مسافة عدة كيلومترات، ثم يُصعد به نحو الجبل بوادي فيران. والثاني يُسمَّى طريق الشمال يُصعد به في وادي طيبة ثم يتحوَّل إلى الجنوب الشرقي إلى طرف المحل المعروف بدبة الرملة من جهة الغرب إلى أن يتصل بالطريق الذي على شاطئ البحر. وأجمع أعضاء اللجنة الإنكليزية أنَّ بني إسرائيل ارتحلوا في طريق البحر لسهولة مسلكه ووجود الماء فيه، وهو أرجح من قول غيرهم إنهم سلكوا طريق الشمال لقربه من برية سين. وهذه البرية هي الصحراء المعروفة الآن ببرية المرقى على ما رأى علماء اللجنة الإنكليزية، وهي واقعة بين الجبال شرقاً والبحر الأحمر غرباً وطولها ٢٢ كيلومتراً وعرضها خمسة كيلومترات وفيها ينبوعان: عين ذفاري وينبوعها عذب، وعين المرقى وماؤها مرّ ملح، والمسافة من وادي طيبة إلى عين ذفاري اثنان وعشرون كيلومتراً. وفي هذه البرية بعض المرعى. وبلغ إليها بنو إسرائيل بعد شهر من خروجهم من مصر».

عد ١٩٠

المن

لم يتذمَّر بنو إسرائيل في برية سين على موسى لحاجتهم إلى الماء إذ كان منه ما يكفيهم فيها. بل أنبأنا سفر الخروج (فصل ١٦ عد ٢ وما يليه) أنهم تذمَّروا لحاجتهم إلى الطعام، وقالوا لموسى وهرون: «ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر حيث كنا نجلس عند قدور اللحم، ونأكل من الطعام شبعنا فلِمَ أخرجتمانا إلى هذه البرية لتقتلا هذا الجمهور كله بالجوع؟ فقال الرب لموسى: ها أنا ممطر لكم خبزاً من السماء. فليخرج القوم ليلتقطوه، طعام كل يوم في يومه... وبالغداة كان يسقط الندى حول المحلة. ولما ارتفع سقيط الندى إذا على وجه البرية شيء دقيق.مكتَّل كالجليد على الأرض. فلما رآه بنو إسرائيل قال بعضهم لبعض: منهو (أي ما هو ما هذا فسمّي لذلك مناً)، لأنهم لم يعلموا ما هو... وسمّاه آل إسرائيل المن وهو كبزر الكزبرة أبيض وطعمه كقطائف بعسل». وكانوا يلتقطون منه كل واحد على قدر أكله عمراً لكل نفس. والعمر كيل. وقال بعضهم: إنه الوعاء الذي كانوا يشربون الماء به. وكانوا يقسمون ما جمعوه بهذا العمر. فمن أكثر لم يفضل له ومن أقلَّ لم ينقص له. وكانوا يلتقطونه في كل غداة. فإذا حميت الشمس كان يذوب. وما بقي منه إلى اليوم التالي دبَّ فيه الدود. وأنتن إلا في يوم السبت فكانوا يلتقطون منه يوم الجمعة ما يكفي مؤونة يومين، فلا يعتريه فساد ولا يجدون يوم السبت شيئاً منه في البرية.

زعم بعض الطبيعيين أن المنّ الذي أكله بنو إسرائيل في برية سينا لم يكن إلا شيئاً طبيعيّاً، فهو صمغ شجر الطرفاء. وإلى اليوم يلتقط العرب ورهبان دير طورسينا من هذا المنّ، ويأكلونه بالخبز كالعسل. وقد أخذ منه كثير من الجوّابين إلى أوروبا. فلا تنكر أن شجر الطرفاء كثير في تلك البلاد وأنه ينضح صمغاً يتعلّق على أغصانه كحباب الندى، ويسيل عند اشتداد حرارة الشمس في شهرَي حزيران وتموز، وله طعم العسل. ويسمّيه العرب المنّ لشبهه بالمنّ الذي أقات الله به بني إسرائيل، لكن بين منّ الطرفاء، وبين المنّ الذي أنزله الله على بني إسرائيل فرقاً كبيراً من أوجه عديدة؛ منها أولاً: إنَّ منَّ بني إسرائيل كانوا يلتقطونه كل يوم في السنة كلها، وفي مراحلهم كلّها من برية سين إلى أرض

الموعد. ومنّ الطرفاء لا تجد له عيناً ولا أثراً إلا في شهرَي حزيران وتموز. ثانياً: إنَّ المنَّ الربّانيّ كان يسقط عند الفجر ومن الطرفاء يسقط نحو نصف النهار إذ كان من إسرائيل يذوب. ثالثاً: إنَّ منَّ بني إسرائيل كان يقيت جمهورهم وهو نحو من مليونين، ومنّ الطرفاء قليل جدّاً حتى حقّق ستنلاي (في كتابه منّ سينا وفلسطين صفحة ٢٦) إنَّ ما يلتقط من المنّ في سينا هيهات أن يكفي مؤونة رجل واحد في مدة ستة أشهر. وقال بوكرد (في كتاب رحلته في سورية صفحة ٦٠١): إنَّ ما يلتقط منه في شبه جزيرة سينا كل سنة إنما هو خمس مئة إلى ست مئة ليبرا وزده ما استطعت، فلا يكفي بني إسرائيل مؤونة أسبوع واحد. رابعاً: إنَّ منّ بني إسرائيل كان ينتن في اليوم التالي إلا يوم السبت. ومنّ الطرفاء يمكن حفظه سنين عديدة. خامساً: إنَّ منّ بني إسرائيل كان كأنه القوت الوحيد لجمهورهم مدة أربعين سنة. ومنّ الطرفاء لا يكفي لقوت إنسان واحد لأنه دواء مسهّل قلَّ فيه الجوهر المغذّي. سادساً: إنَّ منّ بني إسرائيل «كانوا يطحنونه بالرّحى أو يدقونه في الهاون ويطبخونه في القدور ويضعونه مليلاً» (سفر العدد فصل ١١ عد ٨). ومنّ الطرفاء لا يصدق عليه شيء من ذلك. هذا وقد حلّل العالم برتلوت - أحد القائلين بأن المنّ كان طبيعيّاً - المنّ المأخوذ من سينا والمنّ المأخوذ من كردستان، فكانت نتيجة تحليله الكيماويّ أن أكبر جزء مما تألّف منه هذا المنّ إنما هو المادة السكريّة. وبعض المواد المسهلة التي لا تصلح للتغذية. فإذاً ما المنّ الذي اقتات به بنو إسرائيل إلا الخبز الذي نزل من السماء.

زعم بعضهم أن بني إسرائيل كانوا يذوقون بالمنّ أي طعم أراده كلّ منهم، وأسندوا ذلك إلى قول سفر الحكمة (فصل ١٦ عد ٢٠ و٢١): «وأرسلت لهم من السماء خبزاً مُعدّاً لا تعب. فيه يتضمّن كل لذة ويلائم كل ذوق، لأن جوهرك أبدى عذوبتك لبنيك. فكان يخدم شهوة المتناول ويتحوّل إلى ما شاء كل واحد». ففهموا الآية بحسب منطوق حروفها على أن القديس أغوسطينوس وغيره من الآباء والعلماء، أثبتوا أن المراد بكلام سفر الحكمة ليس هو إلا أن المنّ كان يلائم ذوق كل ممن يستعملونه، وخاصة لأنه جاء في سفر العدد (ف ١١ عد ٦): «والآن فنفوسنا يابسة لا شيء أمام عيوننا غير المنّ». ولو ذاق كلٌّ به ما شاء من الطعام لما قالوا: إنَّ نفوسهم يابسة: فالمنّ كان لذيذاً مغذيّاً يلائم كل ذوق فلا يأنف منه أحد ويخدم شهوة المتناول فيعيضه عن أحسن ما يشتهي.

عد ١٩١

السلوى

جاء في سفر الخروج (ف ١٦ ع ١٣) «ولمّا كان العشي صعدت السلوى فغطّت المحلّة». وجاء في سفر العدد (ف١١ ع٣١) «وهبّت ريح من لدن الرب فساقت سلوى من البحر، وألقته على المحلة على مسير يوم من هنا ويوم من هناك حوالى المحلّة. (وكان طيران السلوى) عن نحو ذراعين عن وجه الأرض فأقام الشعب يومهم كلّه وليلتهم وغدهم، يجمعون السلوى. فجمع أقلّهم عشرة أعمار فسطّحوها لهم مساطح حوالي المحلّة» لتجف، وتكون لهم مؤونة. والظاهر أن الله أرسل إليهم السلوى مرّتين الأولى في برية سين وهي التي ذكرها موسى في سفر الخروج، والثانية في محلّة قبور الشهوة، وهي التي ذكرها في سفر العدد وبين الأولى والثانية سنة، وكلتاهما في فصل الربيع. وقال علماء الزولوجيا (وهم أهل العلم بالحيوان) إنّ السلوى لا ترتفع عند طيرانها عن الأرض أكثر من ذراعين لاسيما إذا أضناها التعب. وحقّق الجوابون وغيرهم أن هذا الطائر يكثر مروره في برّية سيناء وسائر بلاد العرب في فصلي الربيع والخريف. فكانت المعجزة إذاً قائمةً بجعل الله الريح تسوقها بكثرتها العجيبة إلى محلّة بني إسرائيل. وتيسيره التقاطها وإنباء موسى بها قبل بلوغها وسوقها عند مسيس الحاجة إليها.

وإسم هذا الطائر في العبرانية شلوى وفي الكلدانية والسريانية ܣܠܘܝ (سلواي) وفي العربيّة سلوى. وواحدته سلواة وهو معروف في بلادنا بهذا الاسم وكذا فهمه قدماء المترجمين في الترجمات السبعينية واللاتينيّة والسريانيّة والعربية. وكذا ورد في القرآن أيضاً وإن قال بعض مفسريه: أن المراد بالسلوى السّمّانى على أنّ العالم لودلف لم يألُ جهداً ليثبّت (في كتابه تاريخ الحبشة ك ١ فصل ١٣ عد ٩٦): إنَّ المراد بكلام موسى ليس طائر السلوى بل الجراد ومن مستنداته أن اسمَ شلوى في العبرانية مشتق من أصل يدل على الكثرة والغزارة. فيصدق على الجراد أكثر من طائر السلوى. وإنّ الجراد يكثر في بلاد العرب، وتسوقه الريح إليهم ويلتقطونه ويملّحونه، ويذخّرونه مؤنة طيّبة المطعم نافعة للصحة لا يأنف منها أكابرهم وأعيانهم. وإنّ رأيه يؤيّده قول موسى إنّهم سطّحوها

مساطح حوالي المحلّة، ولو كان المسطوح طائر السلوى لدب فيه الدود وأنتن من تعريضه للشمس. غير أنّ اجماع نسخ الكتاب ومفسريه القدماء والحدثاء على أنّ المراد طائر السلوى يبطل إزعام لودلف ويمحقها أن العبرانيين سألوا موسى لحماً لأن نفوسهم سئمت المنّ فلا يغنيهم الجراد عن اللحم.

عد ١٩٢

ارتحال بني إسرائيل من برية سين إلى رفيديم

قد جاءَ في سفر الخروج (ف ١٧ ع ١) «ثم ارتحل كل جماعة بني إسرائيل من برية سين مرحلة مرحلة على حسب أمر الرب ونزلوا في رفيديم». ولكن جاءَ في سفر العدد (فصل ٣٣ ع ١٢) تفصيل المراحل حيث قيل: «وارتحلوا من برية سين ونزلوا بدفقة. وارتحلوا من دفقة ونزلوا بألوش، وارتحلوا من ألوش ونزلوا برفيديم». فالظاهر أن سفر الخروج لم يصرّح بذكر منزلتي دفقة وألوش، لأنه لم يكن فيهما شيء مهم. وللمسافر من بريّة سين إلى وادي فيران حيث موقع رفيديم القديمة ثلاث طرق: الأولى شمالية يسار بها من عين ذفارى السالف ذكرها، ويجتاز في جبل هناك إلى رفيديم ولكن هذه الطريق مستحدثة. والثانية يمرّ بها في وادي سدرة ووادي مكتَّب في جانب المحل المسمى مغارة حيث كان المصريون يحتفرون المعادن. والثالثة وهي الأيسر والأطول يسار بها على شاطئ البحر في جنوب سهل المرقى إلى مصب وادي فيران. ويصعد في هذا الوادي إلى رفيديم والمسافة بين برية سين ورفيديم في هذا الطريق ثمانية وسبعون كيلومتراً.

وقد رأى أعضاء اللجنة الإنكليزية أن السواد الأعظم من بني إسرائيل سار في هذا الطريق مع ماشيتهم، وأنّ بعض المشاة منهم سار في طريق وادي سدرة لانتقاصها سبعة عشر كيلومتراً عن الأولى. وزعم بعضهم أن مسير هولاء في هذا الطريق يمنع منه خوفهم من المصريين الذين كانوا يعملون في المعادن أو يحرسون العملة. ولكن هذا مردود بأن بني إسرائيل الذين كان عديدهم حينئذٍ زهاء ست مئة ألف رجل، لم يبالوا بنفر يحتفرون المعادن أو يحرسونها. ولم تتمكن اللجنة الإنكليزية من تعيين موقع دفقة، على أنّ العالم إبر الألماني استرعى الالتفات إلى المشابهة الكائنة بين اسم دفقة، وبين اسم مفقة الذي يراد به باللغة المصرية المواد الثمينة التي تخرج من معادن سيناء. فكأنه يشير إلى أن دفقة كان موقعها قريباً من

المغارة السالف ذكرها. وأمّا ألوش فلا يعلم في أي المواقع هذه بين دفقة ورفيديم. وأمّا رفيديم فموقعها في الوادي المعروف الآن بوادي فيران، وتأويل اسمها محل الراحة. والماء الآن قليل في المسافة بين برية سين ورفيديم فإن كان كذلك في أيام موسى، فيكون بنو إسرائيل أسرعوا في مسيرهم متزودين بقُربهم ما كان لا بد منه لهم من الماء، وكانوا يعلّلون أنفسهم بوجدانهم ماء في رفيديم فخاب ما أملوا فعاودوا على عادتهم الشكوى.

عد ١٩٣

آية إجراء الماء من الصخرة

قال الكتاب (خروج ف ١٧ ع ٣): «وعطش هناك الشعب إلى الماء وتذمّروا على موسى وقالوا: لِمَ أصعدتنا من مصر لتقتلنا وبنينا وماشيتنا بالعطش؟ فصرخ موسى إلى الرب قائلاً: ما أصنع بهولاء الشعب إنّهم عن قليل يرجمونني. فقال له الرب: مر أمام الشعب وخذ معك من شيوخ بني إسرائيل، وعصاك التي ضربت بها النهر... وها أنا قائم هناك أمامك على الصخرة في حوريب، فاضرب الصخرة فإنّه يخرج منها ماء، فيشرب الشعب فصنع موسى كذلك على مشهد شيوخ إسرائيل». فجرى الماء من الصخرة «وسمي ذلك الموضع المحنة والخصومة لسبب مخاصمة بني إسرائيل»، وتأويل حوريب الخراب واليبوسة إذ ليس هناك ماء. ورأت اللجنة الإنكليزيّة أن حوريب هذه غير حوريب التي تجلى الرب فيها لموسى في العليقة.

وأمّا الصخرة الوارد ذكرها هنا فقد أشغل الجوالين والزائرين البحث عنها من أقدم العهد، وحسبها رهبان دير القديسة كاترينا في جوار ديرهم. وكثيراً ما أروها زائريهم فصدّقوا بقولهم، وكتبوا فيها ما عنَّ لهم وأخصّهم شاو Shau الإنكليزي وبوكوك؛ الأول في كتابه الذي طبعه في اكسفرد لسنة ١٧٧٢م وملخص ما قال: «قد شهدنا رفيديم وتهيأ لنا أن نرى صخرة مريبة (وهي التي تسميها النسخة اللاتينية العاميّة المحنة والخصومة كما روينا آنفاً). فإذا هي محفوظة سالمة من التأثيرات الجوية وكرور الأيام وهي صخر من رخام أشبه بالحجر المحبّب مكعبه ستة يردات (واليرد أقل من المتر قليلاً). وهو في وسط الوادي منفصماً عمّا سواه ويظهر أنه منقطع أصلاً من جبل سيناء المحيط بهذا السهل.

والماء الذي جرى منه قد ثقب في إحدى زواياها قناة عمقها إنشان (الإنش جزء من إثني عشر جزءًا من القدم). وعرضها عشرون إنشاً وقد عاينّا ثقوباً عديدة على طول هذه القناة، وتلك أدلّة حيّة ناطقة بأن كل ثقب كان يصدر عين ماء. والمتأمل يرى أن مثل ذلك لا تأتي به صناعة ولا مصادفة بل كل ما شاهدنا دلّنا أن ثمة آية، وأن هذا المشهد يبدي حركة تقوية في قلب كل ناظر». وقال بوكوك ما خلاصته: «إنّ في الغرب والجنوب من جبل سيناء وادي يسمى وادي يَه أي وادي الله، ولا غرو أن ما كان منه في الغرب إنّما هو وادي رفيديم حيث حلّ بنو إسرائيل بعد ارتحالهم من بريّة سين. فأهل هذا المحل يدلون هناك على الصخرة التي يقولون إنّ موسى ضربها فجرت المياه. وهي صخرة ضخمة من الحجر المحبّب الأحمر طولها عشرة أقدام، وعرضها كذلك وعلوها إثنتا عشرة قدماً. وفي أسفل جانبيها منفجرات لا يظهر أنها صنع آلة وعددها من كل جانب نحو إثني عشر منفجراً، والعرب يسمون هذه الصخرة صخرة موسى. ويلقون عشباً في هذه المنفجرات ويطعمونه جمالهم زاعمين إنّه يبرئها من كل مرض». وقال بهذا المقال لاون دي لابورد وستنلاي وغيرهما.

على أنّ أعضاء اللجنة الإنكليزيّة لم يروا في منفجرات الصخرة المحكي عنها شيئاً من المعجزة. وأوردوا لعدم تصديقهم بأن هذه الصخرة صخرة موسى سببين: الأول أنّها ليست في وادي رفيديم بل في الوادي المسمى وادي اللجة. والثاني أنّ هذه الصخرة لا تنفرد بالعلامات التي استدلوا بها على أنها صخرة موسى، فإنّ في هذا الوادي نفسه صخرة أخرى تشبه الأولى كل الشبه، ولها مُثُل أخرى في أنحاءِ شبه جزيرة سيناء. وقد تابع الأب فيكورو أعضاء اللجنة الإنكليزية في رأيهم فقال: في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلّد ٢ صفحة ٤٧٦) ما ملخّصه: «لم تكن آية ضرب الصخرة وجري الماء في المحل الذي يعينه الآن رهبان سيناء، وصدّقهم فيه شاو وبوكوك، لأن رفيديم حيث جرى الماء من الصخرة ليس موقعها في وادي اللجة بل في وادي فيران، كما حقق لنا ذلك تقليد قديم حفظه أوسابيوس والقديس أيرونيموس في القرن الرابع وأنطونيوس الشهيد في القرن السابع. وأيّدته رؤية هذه المحال فالصخرة الحقيقيّة يلزم أن تكون في وادي فيران، وقد ذكر رجال اللجنة الإنكليزيّة تقليداً عند عرب تلك الأنحاء، يعيّن محل هذه الصخرة في بقعة

تسمّى حسي[1] الخطاطين وهم يعدون موسى من الخطاطين لأنه خطّ الشريعة ولهم عادة لا يعرف لها بدء، وهي أن كل من مرّ بهذا المحل رمى حجراً صغيراً دالاً على أنه لا ينسى المحل، ولا التقليد المشار إليه، فترى الحصى ركاماً فوق الصخور الكائنة هناك والعرب يقولون: إنَّ بني إسرائيل بعد أن شربوا من الماءِ الذي انفجر من الصخرة جلسوا يلعبون برمي الحصى على الصخور. ومَن يمشون الآن على هذه العادة يقصدون تذكر هذه الآية، والإستشفاع بموسى صانعها لبرء أقربائهم أو أصحابهم من المرض. ولا تنحصر عادة رمي الحصى على هذا المحل بل يعرف لها نظائر في محلات أخرى حيث وجِد تقليد دالّ على أمرٍ مهم، فالعالم بلمر هو أول من روى هذا التقليد وهو يعيّن محلاً يرجّح أنه محل هذه الآية.

قال الرسول: «إنّ آباءَنا شربوا شراباً واحداً روحيّاً لأنهم كانوا يشربون من الصخرة الروحانيّة التي كانت تسير معهم، وتلك الصخرة كانت المسيح». (قرنتية ١ ف ١٠ عد ٤) فقال بعض المفسرين والآباء إنّ الصخرة التي ضربها موسى فجّرت المياه كانت تسير مع بني إسرائيل أو كانت أمواهها تسيل في أقنية تابعة لهم حيث حلوا. واتّصل بعضهم إلى أن يقول إنّ مياه الصخرة لبثت تصحبهم ثماني وثلاثين سنة على انّ هذا التفسير غير صحيح بل الصحيح ما قال غير هولاء من المفسّرين والآباء وهو أن كلام الرسول مجازيّ ورمزي كما هو ظاهر من وصفه الشراب بالروحي، والصخرة بالروحانيّة ومن تصريحه بأن الصخرة كانت المسيح. فالصخرة أي مدلول الصخرة وهو المسيح كان يسير معهم بما أنه إله أجرى لهم الماء، وأنزل عليهم المن. وأيضاً لو كانت الصخرة تسير معهم بنفسها أو بمائها لما خاصموا موسى في قادش أيضاً لحاجتهم إلى الماء، كما ورد في سفر العدد (ف ٢٠). ولما أغفل موسى ذكر استمرار هذه الآية سنين طوالاً فهو لم يغفل ذكر استمرار المن أربعين سنة.

عد ١٩٤

حرب العمالقة

بينما كان بنو إسرائيل في رفيديم وافاهم العمالقة يقطعون الطريق عليهم فكانت

---

(١) الحَسي والحِسي والحِسى سهل من الأرض يستنقع فيه الماء وقيل غلَظ فوقه رمل يجمع ماء المطر وكلما نزحت دلواً اجتمعت أخرى.

الحرب التي ذُكِرَت في سِفر الخروج (ف١٧ ع ٨ وما يليه) .وقد مرَّ في كلامنا على غزوة كدرلاعومر ملك العيلاميين لجنوبي سورية أن كثيراً من العلماء يرون أن العمالقة هم ذرية عماليق بن أليفاز (من سريته تمنع) بن عيسو ابن اسحق ابن ابراهيم؛ وإنَّ العلماء العرب وكثيرين غيرهم يرون أن عماليق جد هولاء إنَّما هو من ذريّة حام لا من ذرية سام. ويؤيِّد قولهم أن غزوة كدرلاعومر كانت قبل مولد عيسو وأليفاز وذكر أنه ضرب العمالقة فأرجع إلى ما مرَّ هناك عد ١٥٥. فهولاء العمالقة، كانوا يسكنون برية فاران وما جاورها وسمعوا أخبار قدوم بني إسرائيل إلى أرضهم. وظنُّوا أنهم ينوون الإقامة فيها فانتظروا بلوغهم محلاً ييسر لهم فيه الإنتصار عليهم، وفاجأوهم في وادي فيران حيث كانوا بلغوا ضنكاً بسفرهم الشاق مسافة ثمانين كيلومتراً من بريَّة سين. فقال موسى ليشوع بن نون الذي كان يخدمه مذ كان حدثاً:

« إختر لنا رجالاً واخرج لمحاربة العمالقة، وغداً وأنا أقف على راس (الرابية) اليفاع، وعصا الله في يدي. فصنع يشوع كما قال له موسى في محاربة العمالقة. وموسى وهرون وحور صعدوا إلى رأس اليفاع؛ فكان إذا رفع موسى يده يغلب بنو إسرائيل، وإذا حطَّها تغلب العمالقة. ولمَّا كلَّت يدا موسى أخذا (أي هرون وحور) حجراً وجعلاه تحته فجلس عليه واسند هرون وحور يديه أحدهما من هنا والآخر من هناك، فكانت يداه ثابتتين إلى مغرب الشمس فهزم يشوع عماليق وقومه بحد السيف. وقال الرب لموسى: أكتب هذا ذكراً في الكتاب». فيظهر أنّ الحرب دامت النهار بطوله، وكانت للعمالقة حروب أخرى مع بني إسرائيل سيأتي ذكرها. وأمّا من هو حور هذا ؟ فزعم يوسيفوس أنّه زوج مريم أخت موسى. على أنَّ الآباء ونخصّ بالذكر منهم غريغوريوس النيصصي وامبروسيوس، أثبتوا أن مريم أخت موسى استمرَّت بتولاً لم تتزوّج، وأنَّ الصحيح أن حور من ذريَّة يهوذا فهو، ابن كالب بن حصرون غير كالب بن يوفنا. وأمّا اليفاع فهو اسم رابية قال فيكورو (في المحل الآنف ذكره) إنّها تسمّى اليوم جبل الطاحونة وإنَّ ارتفاعها ٢٢٠ متراً. وقد عمر المسيحيون الأولون في هذا المحل مدينة فاران ذكراً لهذه الآية، وكانت مدينة اسقفية وترى هناك إلى اليوم أطلال كنائس ومعابد وأديرة ومدافن. وقد كشفت اللجنة الإنكليزيَّة ثمة عن صفيحة مثلت عليها صورة رجل متَّشح بحلَّة، وذراعاها مبسوطتان

يصلي كما صوَّر لنا سفر الخروج موسى في موقعة رفيديم. ووجدوا أيضاً صورة ناتئة على أعلى باب تمثّل ثلاثة أشخاص في الهيئة الآنفة الذكر، فلا غرو أنّ سكّان فاران الأوّلين راموا أن يخلدوا بهذه الصور ذكر موقعة كانت سبباً لشهرة مدينتهم.

عد ١٩٥

اتيان يترو حمي موسى إليه في البرية ومشورته عليه في القضاء للشعب

إنَّ يترو حما موسى ويسميه العرب شعيباً كان كاهن مدين كما يسميه الكتاب. ويظهر أنّه كان يعبد الإله الحقيقي، أو أخذ يعبده حينئذٍ إذ جاء في سفر الخروج (ف ١٨ ع ١١) إنَّه قال لموسى: «الآن علمت أن الرب عظيم فوق جميع الآلهة بنفس الأمر الذي بغوا (المصريون) به عليهم (على بني إسرائيل). ثم قرب يترو حمو موسى محرقة وذبائح لله، وجاء هرون وجميع شيوخ إسرائيل ليأكلوا مع حمي موسى أمام الله»، والأرجح أن المدينيين قوم يترو سكّان العدوة الشرقيّة من البحر الأحمر هم غير المدينيين ذريّة مدين بن ابراهيم من قطورة سكان الجهة الشرقية من البحر الميت، فالأولون حاميون من ذرية كوش بن حام لتسمية الكتاب صفورة امرأة موسى كوشية (سفر العدد ف ١٢ ع ١). والثانون ساميون من ولد ابراهيم، وإن قال بعضهم إنَّ أصل القبيلتين واحد، وقد مرَّ لنا كلام في هذا الشأن. فلمَّا سمع يترو بجميع ما صنع الله لموسى وبني إسرائيل، أتى إليه ومعه صفورة ابنته امرأة موسى وجرشوم واليعازر إبناه، فيظهر أن موسى كان قد أرسلهم إلى يترو بعد أن نزل بهم إلى مصر كما جاء في الفصل الرابع من سفر الخروج. وخرج موسى للقاء حميه وسجد وقبّله، وسأل كل منهما عن سلامة صاحبه. وقصَّ موسى على حميه جميع ما صنع الرب بفرعون، والمصريين وجميع ما نالهم من المشقَّة في الطريق وكيف خلّصهم الرب.

ولمَّا رأى يترو موسى يجلس وحده ليقضي للشعب من الغداة إلى العشي قال له : ليس ما تصنعه بحسن فإنَّك تكلُّ أنت وهذا الشعب الذين معك أيضاً، فاسمع ما أشير به عليك. كن أنت للشعب من قبل الله ترفع دعاويهم إليه، وتنبئهم

بالفرائض والشرائع وتنهج لهم الطريق الذي يسلكونه. وانظر من جميع الشعب أناساً أقوياء أتقياء مستقيمين يكرهون الطمع، وولّ منهم عليهم رؤساء فئات بين ألف ومئة وخمسين وعشرة، فيقضون للشعب في كل أمر صغير ويرفعون إليك كل أمر عظيم، فسمع موسى من حميه وصنع جميع ما قاله له. ولمّا أزمع بنو إسرائيل على المسير من برية سيناء نحو أرض الموعد، سأل موسى حماه أن يبقى معهم ليهديهم الطرق. فاعتذر، ولذلك جاء في سفر الخروج (ف ١٨ ع ٢٧): «ثم صرف موسى حماه فمضوا إلى أرضه» ولكن يظهر أنّ حوباب بن يترو استمر معهم إذ جاء في سفر العدد (ف ١٠ ع ٢٩) إنَّ موسى قال لحوباب: «تعال معنا نحسن إليك... فقال له: وإنّما أمضي إلى أرضي وعشيرتي. فقال له: لا تتركنا فإنّك تعلم مواضع حلولنا في البريَّة، فتكون لنا بمنزلة الأبصار وإن سرت معنا فما يحسن الرب من خير نحسن به إليك». وقد صحبهم إلى أرض الموعد وأخذ نصيباً ممّا قسّمه يشوع بن نون.

عد ١٩٦

ارتحال بني إسرائيل من رفيديم إلى برّية سيناء ونزولهم الجبل وأي الجبال هو

جاء في سفر الخروج (ف ١٩ ع ١ وما يليه): «وفي الشهر الثالث لخروج بني إسرائيل من مصر في ذلك اليوم... رحلوا من رفيديم وجاءوا برية سيناء فنزلوا في البرية... تلقاءَ الجبل» إنَّ للمرتحل من رفيديم أي من وادي فيران إلى برية سيناء طريقين: الأول يسمى الآن طريق الواطية في الطرف الشمالي من وادي فيران، والثاني في محل يسمى الآن نجب الهواء في شرقي رفيديم، وممر الطريقين بين سلسلة جبال ارتفاعها من ست مئة إلى تسع مئة متر على أنَّ طريق نجب الهواء عسر المسلك، فالأظهر أنَّ العبرانيين سلكوا طريق الواطية إلى جبل سيناء. ثم إنَّ المسافة التي اجتازها بنو إسرائيل من عيون موسى إلى جبل سيناء هي نحو من مئتين وواحد وستين كيلومتراً، فإذا قسمت على إحدى عشرة مرحلة (كما كانت مراحلهم هذه) كان الحاصل أنّهم ساروا في كل مرحلة ٢٤ كيلومتراً إلاَّ قليلاً، عبارة عن مسافة أربع ساعات بناءً على أن الراكب يجتاز في كل ساعة ستة

كيلومترات، وليس ذلك قليلاً، وهم شعب كامل يسير بأطفاله وشيوخه ومواشيه، وإما تلقاء أي الجبال حلوا لأن هناك جبالاً أو قمماً لسلسلة جبل سيناء، يسمى كل منهما باسم خاص فأعم التقليدات أنَّ الجبل الذي حلوا تلقاءه إنَّما هو الجبل المسمى الآن جبل موسى. وقد صحح أعضاءُ اللجنة الإنكليزيّة هذا التقليد القديم. على أنَّ بعض الجوالين في هذا العصر، رأوا أنَّ الجبل الذي حلوا تلقاءه هو جبل سربال. وهو قمة من جبال سيناء تبعد عن رفيديم ستة كيلومترات أو سبعة، وسمي سربالاً أي درعاً لهيئة تحدر الماء على صخوره آونة الشتاء. فتكون أشبه بزرد درع نشرت عليها وارتفاعه عن ساحل البحر نحو ١٩٨٠ متراً ويبلغ بعض أعاليه ٢٠٦٠ متراً على أنَّ موقع هذا الجبل المحاط بثلاثة أودية ضيّقة، هي وادي الريم ووادي علامة ووادي عجلة، يقضي بأنه يكون صالحاً لنزول إسرائيل تلقاءه، ولاسيما إنَّهم أقاموا في برية جبل سينا مدَّة طويلة.

وقد صرَّح كثير من المؤلفين القدماء الذين ساحوا أو حجوا إلى جبل سيناء، أنّ هذا الجبل هو المعروف الآن بجبل موسى، ومن هؤلاء سيلفانوس أمون والقديس نيلوس راهب سيناء وانطونيوس الشهيد وغيرهم.

ثم ليس في جبل سربال ما نراه في جبل موسى من الآثار الدالَّة على إجلال القدماء له لتنزيل السنَّة عليه كبناء كنائس ومعابد وأنهاج طرق. وقد استمسك القائلون بأن سربال هو الجبل الذي نزلت عليه الشريعة، بوجود بعض خطوط قديمة في جواره لكن هذه الخطوط في جوار سربال أقل منها كثيراً في غيره كجبل المناجاة. وقد كان العلماء في أواخر القرن السالف، ومبادىء هذا القرن يظنون تلك الخطوط نمَّقها العبرانيون في أيام خروجهم من مصر، فظهر الآن بعد حلّ رموزها والإطّلاع على فحواها أنَّه لم يكن لبني إسرائيل يد فيها بل أنَّ ما كان منها سامياً قد كتبه النبطيون قبل قليل من التاريخ المسيحي أو بعده. وبعضها كتب باليونانية وقد قطعت اللجنة الإنكليزيَّة بأن سربال ليس الجبل الذي حلَّ بنو إسرائيل تلقاءه، وبالنتيجة ليس الجبل الذي نزلت السنَّة فيه على موسى.

فالصحيح إذاً أنّ الجبل الذي ذكره الكتاب إنَّما هو جبل سيناء، ويسمى الآن جبل موسى، وطول هذا الجبل ٣٢٠٠ متر وعرضه ١٦٠٠ متر وهو يمتد من الشمال الغربي إلى الجنوب الشرقي. وارتفاعه الأوسط على ساحل البحر ٢٠٠٠

متر وعن الأوداء ٤٥٠ متراً على أن له قمّتين الأولى جنوبية وارتفاعها ٢٢٤٤ متراً وهذه يسمونها جبل موسى، باسم الجبل كله وكانت تسمى قبلاً جبل المناجاة. والثانية في الشمال الغربي وتسمى رأس الصفصافة ومعظم ارتفاعها عن سطح البحر ٢١١٤ متراً. وفي الشمال الغربي من راس الصفصافة، سهل فسيح يسمى سهل الراحة، مساحة سطحه ألف وست مئة اكتار، والاكتار عبارة عن عشرة آلاف متر مربع فيكون المجموع ستة عشر مليون متر مربّع. وإذا ألحق به منفرجاً وادي الدير ووادي اللجة تضاعف اتساعه. فعلى أيِّ القمّتين تجلى الرب لموسى وأنزل عليه الشريعة؟ فرهبان دير القديسة كاترينا يزعمون استناداً إلى تقليد متوغل في القدم أن القمّة الجنوبيّة المسماة جبل موسى أو جبل المناجاة هي مهبط السنّة. وإنَّ راس الصفصافة لا أهميّة له على أنَّ معاينة هذه الأماكن تقضي بالمخالفة لزعمهم إذ ليس في سفح القمة الجنوبية أرض يمكن أن يجتمع فيها جمع غفير، وسهل الراحة محجوب عنها بقمة رأس الصفصافة.

وقد صرّح الكتاب بأن بني إسرائيل كانوا يرون قمة الجبل الذي نزّل الله السنّة عليه. ولذلك رأى روبينسون أوّلاً، ثم قطعت اللجنة الإنكليزيّة بأن راس الصفصافة إنّما هو مهبط الشريعة الموسوية. وهذا لا ينقص من حرمة جبل موسى فإنّه يرجّح أنّه الجبل الذي تجلّى الله لموسى عليه في العليقة، والنار تضطرم فيها وفي مناجاته له بعد الشريعة، كما تدل على ذلك تسميته القديمة جبل المناجاة. وتقليدات أهل تلك البلاد أنَّ الجبل المسمّى الآن جبل المناجاة، هو جبل منخفض في شرقي جبل موسى ويشرف على سهل الراحة: فهناك أُقيم خباءَ المحضر (قبة العهد)، إذ عليه يصدق ما ذكره الكتاب من أنَّ هذا الخباء كان خارجاً عن المحلّة، وكان من بني إسرائيل يمكنه أن يرى من باب خيمته موسى داخلاً في الخباء. انتهى (ملخّصاً عن الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلّد ٢ من صفحة ٤٨١ إلى صفحة ٤٩٩ طبعة ٤).

عد ١٩٧

تنزيل الله السنّة

لما حلَّ بنو إسرائيل تلقاء جبل سيناء صعد موسى إلى الجبل، فناداه الرب قائلاً: كذا تقول لبني إسرائيل قد رأيتم ما صنعت بالمصريين وكيف حملتكم على أجنحة

النسور، وأتيت بكم إليَّ والآن إن امتثلتم أوامري وحفظتم عهدي فإنّكم تكونون لي خاصة من جميع الشعوب لأن جميع الأرض لي، فعاد موسى ودعا شيوخ الشعب، وألقى إليهم جميع الكلام الذي أمره الرب به، فأجاب الشعب أجمع كل ما تكلّم به الرب نعمل بحسبه. ولمّا أنهى موسى كلامهم إلى الرب قال له: أمضِ إلى الشعب وقدسهم اليوم وغداً، وليغسلوا ثيابهم، ويكونوا مستعدين لليوم الثالث، فإن الرب يهبط أمام جميع الشعب على جبل سيناء. واجعل حداً للشعب من حواليه، واحذروا من أن تصعدوا الجبل أو تمسوا أطرافه فإن كل من يمس الجبل يقتل قتلاً بالرجم. وإذا نفخ في البوق جاز لهم أن يصعدوا فنزل موسى، وأعدَّ الشعب كما أمر الرب. وحدث في اليوم الثالث عند الصباح أنّها كانت أصوات وبروق وغمام كثيف على الجبل، وصوت بوقٍ شديد جدّاً. فأخرج موسى الشعب من المحلّة، فوقفوا أسفل الجبل (في سهل الراحة)، وهو مدخن كلّه كدخان الأتون. فارتجف الشعب جداً، ونادى الرب موسى إلى راس الجبل فصعد، فقال الرب له: انزل ناشد الشعب أن لا يقتحموا إلى الرب لينظروا فيسقط منهم كثيرون. وليتقدَّس الكهنة الذين يتقدَّمون إلى الرب كي لا يبطش الرب بهم، فامض وانزل ثم اصعد أنت وهرون معك. ففعل موسى كما أمر الرب، ثم تكلّم الرب على مسمع من الشعب منزلاً شريعته، وأوّلها الوصايا العشر وألحق بها السنن والأحكام الواردة في الفصول ٢٠ و ٢١ و ٢٢ و ٢٣ من سفر الخروج. فوعد الشعب أن يعمل بكل ما أمر الرب فكتب موسى جميع كلام الرب وبكّر في الغداة وبنى مذبحاً في أسفل الجبل، ونصب إثني عشر نصباً لاسباط إسرائيل الإثني عشر، وبعث فتيان بني إسرائيل فاصعدوا محرقات، وذبحوا ذبائح سلامة من العجول للرب.

قد أنكر جاحدو الوحي في القرن السالف أنَّ موسى كتب السنَّة وسائر أسفار التوراة المنسوبة إليه متمحلين لإنكارهم، بأنّه لم يكن له في البرية ما يكتبها به فقال فولتير ومن حذا حذوه إنَّه لم تكن وسيلة في تلك الأيام لكتب المرء أفكاره، إلاَّ بحفرها على حجر أو رصاص أو خشب أو لبن. ولم يكن للكلدان والمصريين حينئذٍ من ذريعة لإبلاغ الخلف ما كان لهم إلاَّ برسم ما يدل على مجمل أحداثهم بإيجاز، وخطوط هيروكليفيّة لا أن ينمقوا كتباً في البرية، وهم كل يوم بواد. وقال هرتمان الألماني في هذا القرن أيضاً إنَّه كان نوع من الكتابة في أيام موسى إلاَّ أنّها لم تكن إلاَّ سرًّا محفوظاً للكهنة فلم يتهيأ لبني

إسرائيل عرفانها على حالتهم الذليلة في مصر، وزعم مع غيره من الجاحدين أنّه لم يكن في إمكانهم وجدان المواد اللازمة لكتابة أسفار ضخمة كأسفار موسى الخمسة، ولاسيما أنّ التقليدات المحليّة كانت تحظر عليهم استعمال غير الحجر أو المعدن أو الخشب، ولا تبيحهم استعمال الرق. واختتم هرتمان كلامه بأن العبرانيين لم يعرفوا الكتابة قبل عصر القضاة.

إنّ هولاء الجاحدين كانوا قبل هذه الأيام، ولو أوردوا اليوم مثل هذه الحجج الباطلة لعيبوا بالجهل الفاحش. فقد صدّقوا بأن فنّ الكتابة كان في ذلك العصر نادراً عند القبائل اليافتية في أوربا، لكنّه كان في وادي النيل عاماً شاملاً. يعرفه المصري والعبراني أيضاً. وكنت ترى الكاتب المصري كيف اتّجهت، وقلمه بيده كما نرى الآن صوراً لهم تشذ عن العد نقشت قبل أيام الخروج، وفي عصره بل كان للمصريين ولوع أو هوس بالكتابة، حتّى عدّت من العلامات المميزة لهم، ولم تكن المواد اللازمة لها تعوزهم إذ كانوا يكتبون على الحجر والخشب والنسيج والبابير. وفي متاحف اوربا ما هو أكثر من أن يعد مكتوباً على المواد المذكورة في عصر الخروج وقبله. وعليه فإذا رأينا موسى حاملاً اللوحين، ووصايا الله مكتوبة عليها ورأيناه يأمر بأن تكتب هذه الوصايا على عتبات الأبواب، وعلى عصائب تُشدُّ بها الجبهة، وعلى غيرها علمنا بلا ريب أنَّ الكتابة مطروقة عند المتكلم ومن يكلمهم. وكان ذلك برهاناً آخر جلياً لصدق الكتاب لا للتكذيب به من وجه أنّ من يتكلّم كذلك يلزم أن يكون تربى في مصر، وتعلّم علومهم ومن يكلمهم يلزم أن يكونوا كذلك يعرفون الكتابة والقراءة وغيرهما مما اعتاده المصريون، كما كان موسى وبنو إسرائيل وعليه فتكون حجج الجاحدين حججاً عليهم.

عد ١٩٨

إبطاء موسى في الجبل وعبادة بني إسرائيل عجل الذهب

أنبأنا الكتاب (خروج ف ٢٤) أنّ موسى بعد أن أذاع شريعة الرب على بني إسرائيل، أمره أن يصعد هو وهرون وناداب وابيهو ابناه، وسبعون من شيوخ إسرائيل ليسجدوا للرب، ويشكروه على آلائه عن بعد ويتقدم موسى وحده فكان

كذلك. وبعد أن صعد موسى الجبل غطاه الغمام، وأقام موسى في الجبل أربعين يوماً وأربعين ليلة، وحينئذٍ أمره الرب بعمل الخباء وتابوت العهد، وبيَّن له كيف يلزم عملهما وكيف تكون خدمة الكهنة فيه، وعيَّن عاملين لصنعه، وهما بصلائيل بن اورى بن حور من سبط يهوذا، وآهلياب بن اجساماك من سبط دان وسلم إليه لوحي الوصايا كما فصل ذلك في سفر الخروج من ف ٢٥ إلى ف ٣٢. وسنأتي على ذكر ملخص ما ذكره الكتاب عن هذا الخباء وما حواه. أمَّا الشعب فرأوا أنَّ موسى أبطأ في النزول من الجبل، فاجتمعوا على هرون وقالوا له: قم فاصنع لنا آلهة تسير أمامنا، فإن موسى لا نعلم ماذا أصابه. ويظهر أنّهم أكثروا من الإلحاح على هرون، فأراد أن يصرفهم عن عزمهم بما خيَّل له أنَّهم يأبون صنعه. فقال لهم: إنزعوا شنوف الذهب التي في آذان نسائكم وبنيكم وبناتكم وآتوني بها فلم يتوقف الشعب عن العمل بقوله ، فأخذها منهم ودفعها إلى صانع وصوَّرها في قالب وصنعها عجلاً مسبوكاً. فقالوا هذه آلهتك يا إسرائيل التي أخرجتك من أرض مصر. فتناسوا حالاً تعليم الله بوحدانيَّة ذاته، ونطقوا بالشرك. ولا جرم فهم أرادوا أن يتابعوا المصريين بعبادتهم للاله ابيس الذي كانوا يرونهم يسجدن له أمام عجل أو صورة عجل، وكانوا يصورون أحياناً هذا الاله بهيئة إنسان ورأسه رأس عجل.

وقد أجهد العالم مونسو نفسه ليبرئ هرون من هذه الجريمة في كتاب أفرده لذلك، ومن حججه فيه أنَّ العجل الذي تسبب بسببه كان شبيهاً بالكاروبيم الذي كان الرب جالساً عليه عند تجليه لموسى في جبل سيناء. وإنَّه لم يأثم بسبك العجل، بل بوضعه وسيلة لتقدمة الشعب عبادة وثنية على أنَّ مونسو لم يصادف نصيراً له في رأيه هذا وحاول غيره أن يبرئ ساحة هرون بأنَّه إنَّما قصد أن يجعل الشعب يسجد للاله الحقيقي امام صورة عجل كأن لم يكن إلَّا صورة لله. واستدلُّوا على ذلك بأنه قال للشعب : غداً عيد للرب، واستعمل كلمة يهوه الدالة على الله لا على آلهة الأمم. وإنَّ الشعب تجاوز مقصده فسجد لعجل آكل عشب كما قال المرتل (مز ١٠٥ ع ١٩): «صنعوا عجلاً من حوريب، وسجدوا للمسبوك، وتبدلوا بمجدهم شكل ثور آكل عشب». على أنَّه لا يمكن تبرئة هرون من الاثم وهو لم ينكر ذنبه. وقد قال موسى في سفر التثنية (ف ٩ ع ٢): «وأمَّا هرون فغضب الرب عليه جداً حتى همَّ أن يبيده، فتضرَّعت لأجل هرون

أيضاً في ذلك الوقت». وسنأتي على إخجال الجاحدين لتنديدهم بالكتاب لذكره سبك العجل عند ردّنا تنديدهم به لما ذكره في عمل الخباء.

فقال الرب لموسى في الجبل: هلمّ فانزل فقد فُسِد شعبك الذي أخرجته من أرض مصر، ودعني يضطرم غضبي عليهم، فأفنيهم وأجعلك أنت أمّة عظيمة. فخشع موسى للرب ضارعاً إليه أن يرجع عن شدة غضبه، ويعود عن مساءة شعبه، ونزل موسى من الجبل ولوحا الشهادة في يده مكتوب على جانبيهما من هنا وهناك، بأمر الله الوصايا العشر، ولما دنا من المحلة رأى العجل والرقص فاتّقد غضبه، فرمى باللوحين من يديه، وكسّرهما في أسفل الجبل. ثم أخذ العجل الذي صنعوه فأحرقه بالنار وسحقه حتى صار ناعماً، وذراه على وجه الماء وأسقى بني إسرائيل، وأنب هرون على صنيعه. زعم بعض الربيين أن كل من شرب من ذلك الماء، وكان مذنباً بالسجود للعجل ضُرِب بقروح عرّفت موسى به فقتله بنو لاوي بأمره. وقال غيرهم من الربيين إنَّ كل من شربوا من هذا الماء، وكانوا أكثر عبادة للعجل تغير لون لحاهم إلى لون الذهب، واتصل ذلك أيضاً بأولادهم على أن هذه أقاصيص لا يعتد بها. والظاهر إنّه أسقاهم من الماء الذي ذرى على وجهه رماد العجل، ليروا بطلان ما عبدوا وأنّه لا يأتي بنفع ولا ضرّ ولو تناولوا رماده.

ثم وقف موسى على باب المحلة وقال: من هو للرب فليقبل إليّ. فاجتمع إليه جميع بني لاوي. فقال لهم: كذا قال الرب إله إسرائيل ليتقلد كل واحد سيفه وليقتل كل واحد أخاه وصاحبه وقريبه، فصنع بنو لاوي كما أمر موسى فسقط من الشعب في ذلك اليوم نحو ثلاثة آلاف رجل كذا في النص العبراني، والترجمات السبعينيّة والسريانيّة والسامرية. وكذا قرأ كثير من الآباء اليونان واللاتينيين، ولكن جاء في النسخة اللاتينية المعروفة بالعامية ثلاثة وعشرون ألفاً. ثم قال موسى للشعب في الغد قد خطئتم خطيئة عظيمة والآن أصعد إلى الرب لعلني أكفّر خطيئتكم. ورجع موسى إلى الرب وقال: يا ربُّ قد خطئ هولاء الشعب خطيئة عظيمة، والآن اغفر خطيئتهم وإلاّ فامحني من كتابك الذي كتبته. فقال له الرب: الذي خطئ إليّ إياه أمحو من كتابي، والآن امضِ وقِد الشعب إلى حيث قلت لك: هوذا ملاكي يسير أمامك (خر ف ٣٢). ثم قال له: انحت لك لوحي حجر كالأولين فاكتب عليهما الكلام الذي كان على اللوحين الأولين اللذين كسرتهما. واصعد في الغداة إلى جبل سيناء، ولا يصعد أحد معك. فنحت لوحي حجر كالأولين وبكّر إلى جبل سيناء وفي يده لوحا الحجر،

فهبط الرب في الغمام وأقام موسى هناك أربعين يوماً وأربعين ليلة، لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء. فكتب على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر، وأوصاه وصايا أخرى. وعاد موسى ولوحا الشهادة في يده ولم يعلم أن أديم وجهه قد صار مشعاً من مخاطبة الرب له، حتى خاف هرون وبنو إسرائيل من الدنو منه فأرجعهم موسى ، وأمرهم بجميع ما كلمه الرب به في طور سيناء، ولما فرغ من مخاطبتهم جعل على وجهه برقعاً، وكان يرفعه عند دخوله بين يدي الرب إلى أن يخرج فإذا خاطب بني إسرائيل رد البرقع على وجهه.

عد ١٩٩

خباء المحضر ورد إزعام من جحدوا صحة كلام الكتاب

لما كان عقل الإنسان قاصراً عن أن يسن لنفسه شريعة يقوِّم بها أعماله، ويقيم بفروضه. وعمَّت الوثنيَّة وطغى الشرك بالله والشرّ استجذب الله شعبه من مصر إلى البرية. فنزل على موسى شريعته وجعل اسمها التوحيد، وأمر بني إسرائيل العمل بها، وبما أن الإنسان مركب من نفس وجسد، ويلزمه أن يعبد الله خالقه بهما. وكان المحسوس أشد تأثيراً به من المعقول المجرد، الهم الناس مذ بدء نشأتهم إقامة المعابد والمساجد، بما أمكن من العظمة والأبَّهة إجلالاً له وحملاً لهم بالوسائل الخارجة أيضاً إلى توقيره وعبادته. ولذا أمر موسى بعد سن شريعته أن يجعل لشعبه الناقلة خباءً متنقلاً، أي مظلة بدلاً من المعبد الراسخ، وأن يكون له من العظمة ما يشعر بانه بيت الله أو خباؤه، ويميزه عن أخبيتهم. ولذلك أمر موسى (الخروج ف ٢٥) قائلاً: مر بني إسرائيل أن يأخذوا لي تقدمة عند كل إنسان ما تسخو به نفسه، وهذه هي التقدمة ذهب وفضة ونحاس وسمنجوني وأرجوان. وصبغ قرمز وبز وشعر معزى، وجلود كباش مصبوغة بالحمرة وجلود سمنجونية، وخشب سنط (وهو الاكاسيا) وهو كثير هناك. وزيت للمنارة وأطياب لدهن المسح وللبخور العَطِر، وحجارة جزع وحجارة كريمة لترصيع الأفُود، والصدرة من ملابس الأحبار. ولما أبلغ موسى ذلك إلى الشعب أتى الرجال والنساء باسورة وشنوف وخواتم وقلائد كل متاع من الذهب، وكل من وجد عنده سمنجوني وأرجوان وصبغ قرمز إلى سائر ما ذكره الرب أتى به، وكل امرأة حاذقة غزلت بيدها وأتت بغزل ، والاشراف

أتوا بحجارة الجزع، والحجارة الكريمة تطوعاً للرب. فصنع بصلائيل وأهلياب وكل من أودع الرب قلوبهم فهماً وحكمة الخباء بحسب كل ما أمر الرب به (خروج ف ٣٥)، وكان أهلياب «نجاراً ونساجاً حاذقاً ومطرزاً» (خروج ف ٣٨ ع ٢٣) وقد فصَّل موسى كل ما كان في الخباء في سفر الخروج من الفصل الخامس والعشرين إلى الفصل الثاني والثلاثين ثم من الفصل السادس والثلاثين إلى الفصل الأربعين.

ومجمل ما هنالك أنَّ هذا الخباء كان مظلة كبرى طولها ثلاثون ذراعاً، وعرضها عشر، وعلوها كذلك. وكان مقسوماً إلى قسمين أحدهما يسمى القدس وطوله عشرون ذراعاً وعرضه عشر. وكان فيه مائدة خبز التقدمة ومنارة الذهب ومذبح الذهب. وثانيهما يسمى قدس الأقداس وطوله عشر أذرع وعرضه كذلك، وكان فيه تابوت العهد وضمنه لوحا الوصايا، وقسط المنّ وعصا هرون. وكان يفصل بين القدسين ستار ثمين معلق على أربعة أعمدة من السنط مرصعة بصفائح من ذهب. وكان حول الخباء سرادق طولها مئة ذراع وعرضها خمسون ذراعاً، وكل ذلك قائم على أعمدة من السنط والواح. وكان سقف الخباء مغطى بأربعة أستار أولها من داخل كان مصنوعاً من الأرجوان. والثاني شعر المعزى لمنع نفوذ المطر إلى الداخل. والثالث من جلود كباش والرابع من جلود سمنجونية اللون. كانت الجهة الشرقية من الخباء مفتوحة معلقاً عليها في خمسة أعمدة ستر ثمين، يحجب ما كان في داخله. ومن شاء أكثر تفصيل لهيئة الخباء وما حواه وملابس الأحبار فيه فليطالع الفصول المشار إليها آنفاً.

كذَّب الجاحدون بكلام الكتاب في الخباء، وسخروا منه متهكمين وقالوا ما هو إلّا حكاية كتبت بعد بناء هيكل سليمان للشبه الكبير بين الهيكل والخباء. ومن هولاء: الكافران فولتر ورنان في المقالات التي كتبها في آخر حياته. وأخص ما تمحلوا به لاسناد أوهامهم قولهم من أين المعامل، والأدوات عند قوم رحل ليعملوا في البرية ما وصفه موسى في الخباء من المنائر والمذابح، وصفائح الذهب والترصيع بالحجارة الكريمة، والانسجة المصبغة. ومن أين العملة الماهرون وهم لم يكن بينهم من يصلح أحذيتهم؟ لكنهم طغوا وجهلوا، وجاءت الإكتشافات الحديثة تخجلهم بكفرهم وتخزيهم بجهلهم. والشبه بين الهيكل والخباء لا يقوم عليه نكير مذ كان سليمان صنع الهيكل على مثال الخباء، وأراد أن يكون بيت الله مبنياً راسخاً بعد أن كان مظلة منتقلة. ولم يرد ذكر الخباء مرة واحدة في الخروج ليسمى حكاية بل

كرر ذكره كأنه في كل صفحة بعد الخروج أي في باقي أسفار موسى، وأسفار يشوع بن نون والقضاة والملوك الأول والثاني إلى بناء الهيكل.

ولنأت إلى شهادة الآثار فهي أعظم مفحم للجاحدين، فقد اكتشفت معامل للمصريين في محل يسمى الآن وادي المغارة في جانب جبل سيناء، وعلى مقربة من محلة العبرانيين. كان المصريون يعملون بها ما يستخرجونه من معادن الذهب والنحاس هناك، وحققت اللجنة الإنكليزية وجود هذه المعامل والمعادن هناك. وتبينت أخربتها ومثل ذلك حققتها أبحاث الكونت لابورد ولبسيوس، ولوتان دي لافال. ونجد ذكر اكتشاف المعادن منذ عهد الدولتين الخامسة والسادسة في مصر، فإن أماني عامل الملك اوزرتيسان الأول، روى في أثرٍ له أنَّه كان يخفر من ينقلون ذهب معادن كبتوس. وقد كشف عن صفيحة في كوبان كتب عليها للسنة الثالثة من ملك رعمسيس مضطهد اليهود؛ إنَّ ساتي الأول احتفر بئراً ليشرب منها عملة المعادن، ومن يسيرون في البرية إليها راكبين الحمير فعمق ١٢٠ ذراعاً فلم يجد ماء لكن رعمسيس احتفر سبع أذرع أخرى أو ثماني فوجد الماء. وفي متحف تورين بابير يحوي خريطة هذه المعادن الذهبية للإهتداء إلى عروق الذهب فيها. وقد وجدت اللجنة الإنكليزية في وادي المغارة تمثالاً لفرعون الذي يسمّى سنافرو من الدولة الرابعة، ونقوشاً تمثل فرعون كاوبس الذي بنى أول أهرام هذه الدولة الرابعة فلم يكن إذاً مستحيلاً ولا عسراً على موسى أن يصنع عند جبل سيناء ما صنعه في الخباء، او في تابوت العهد وملابس الكهنة، فقد استخدم بصلائيل معامل وادي المغارة في صنع ما صنعه من ذهب أو فضة أو نحاس. أو أشغل العملة المصريين بعمله حسب ما شاء. وإذا كان بصلائيل عاملاً في المعادن وأهلياب نجاراً نساجاً طرازاً واستخدم هذان غيرهما ممن أودع الرب قلوبهم حكمةً وفهماً كما جاء في الكتاب فأي مستحيل أو أي غرابة في عمل الخباء لنكذب بآيات الكتاب؟.

ثم إنَّ بني إسرائيل لم يكونوا كلهم في مصر رعاة ماشية، ولم يشغلهم كلهم المصريون في عمل اللبن، بل أشغلوا بعضهم في معامل الصنائع أيضاً. وكان بينهم كثير من أسرى مصر وشعبها. وكان في مصر عملة ماهرون في الذهب والجواهر وترصيعها والحفر بها. ولنا على ذلك شهادات تشذُّ عن العدّ بما وجد في المدافن القديمة وغيرها من الحلي والتماثيل والصور التي يعجب منها احذق صناع هذا العصر، وقد ملئت بها متاحف اوربا ومتحف بولاق. وقد كشف عن خريطة لمعادن

الذهب التي كانت في وادي حمامات بين النيل والبحر الأحمر. وتلك الخريطة صنعت في أيام رعمسيس الثاني مضطهد اليهود. وقد ترجمها وأذاعها العالم ليابلان وأمر خديوي مصر سنة ١٨٧٤م بالبحث هناك عن آثار المعادن التي تشير إليها الخريطة، فوجد هناك كثيراً من الآنية والأدوات التي كانت تستعمل في تصفية الذهب والعمل فيه، وبعض المادة الحاوية العروق الذهبية أيضاً. وإذا راعينا أنَّ رعمسيس الثاني صانع هذه الخريطة هو الذي كان يسخر اليهود في الأعمال الشاقة لزمنا لزوماً بديهياً أن نسلم أنه سخَّر بعض اليهود في العمل بمعادن، ومعامل وادي حمامات أيضاً. ومن كان أهلاً منهم أشغل بعمل الحلي وغيره من المصنوعات الذهبية. ثم إنَّ كل ما ورد ذكره في عمل الخباء من نسج أو طراز أو ترصيع جواهر أو طلي بالذهب، والتصفيح به أو عمل الآنية منه أو من الفضة فكل ذلك من صنائع المصريين التي لا تعد أمثلتها في متاحف اوربا. ويستبعد كثيراً ان لا يكون بعض بني إسرائيل تعلم هذه الصنائع منهم مع إقامتهم بين أظهرهم أربعة قرون ونيفاً، وإذا لم يعسر على بني إسرائيل عمل ما كان في الخباء فبالأولى ان لا يعسر عليهم سبك عجل الذهب الذي عبدوه عند إبطاء موسى في الجبل، ولم يغفل الجاحدون عن انتقاد كلام الكتاب فيه.

وبعد أن تمَّ عمل الخباء وأدواته وما كان فيه، أمر الرب موسى أن يقيم هذا الخباء في اليوم الأول من الشهر الأول للسنة الثانية من الخروج، فكرس بالزيت المقدس المركب من زيت الزيتون والميعة وغيرهما أدوات الخباء، وآنيته ووضع التابوت والمذابح والمنائر فيه. واستدعى هرون وبنيه والبسهم بحضرة الشعب أثواب التقديس، ومسحهم بالدهن المشار إليه آنفاً، وقدم ذبائح لله. ويظهر ان الخباء أقيم على الجبل المسمى الآن جبل المناجاة. وهو أكمة مرتفعة قليلاً عن السهل، وكائنة في مدخل الوادي المسمّى الآن وادي الدير في شرقي جبل موسى، ومشرفة على سهل الراحة حيث حل بنو إسرائيل، فموقعها وموقع هذا السهل قاضيان بإقامة الخباء في أعلاها إذ جاء في سفر الخروج (فصل ٣٣ عد ٧ و ٨) إنَّ كلاً من بني إسرائيل كان يرى الخباء وموسى عند دخوله إليه.

الفصل السابع

ما بقي من مراحل بني إسرائيل إلى صحراء مواب

عد ٢٠٠

ارتحال بني إسرائيل من جبل سيناء إلى قبور الشهوة

بعد أن أقام بنو إسرائيل تلقاء جبل سيناء نحواً من سنة، ونزَّل الرب عليهم سنَّته، وأقاموا الخباء، ومسح أحبارهم، وأتمَّ نظامهم، أمر الرب موسى أن يعدَّهم. فكان عديدهم من ابن عشرين سنة فصاعداً ست مئة ألف وثلاثة آلاف وخمس مئة وخمسين رجلاً عدا اللاويين (سفر العدد ف ١ ع ٤٥ وما يليه). ثم انكشف الغمام عن الخباء فحمله اللاويون وارتحل بنو إسرائيل حوله بحسب النظام المذكور في الفصل الثاني من سفر العدد. وكان ارتحالهم في العشرين من الشهر الثاني للسنة الثانية بعد الخروج يؤمون برية فاران. وقد أقرَّت اللجنة الإنكليزية بعجزها عن تعيين الطريق الذي سار به بنو إسرائيل حينئذٍ، لكنها أوردت بعض افتراضات تقرب من الصحة. وحيث أنَّ أوَّل محلة احتلها بنو إسرائيل بعد ارتحالهم من برية سيناء إنَّما هي قبور الشهوة، فرأى أعضاء هذه اللجنة أن الأظهر أنَّ موقع قبور الشهوة هو في المحل المسمى اليوم رويس الاوبيرج، وهو بعيد ٤٢ كيلومتراً عن جبل موسى في طريق خليج عقبة. وذهب بعض العلماء إلى أنَّ بني إسرائيل عند ارتحالهم من سفح جبل سيناء ساروا نحو الشمال لكن الأظهر أنَّهم اتَّجهوا نحو المشرق إلى جهة خليج عقبة. وعليه فلا يصح أن يكون موقع قبور الشهوة في المحل المسمى الآن وادي العين في الشمال الشرقي من جبل موسى على بعد ٨٨ كيلومتراً منه – كما ظنَّ بعضهم – ولا في السهل الواقع في الشمال الغربي منه المعروف الآن بالواطية.

ويرجّح أنّه في رويس الاوبيرج كما رأى أعضاء اللجنة الإنكليزية. وروى الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٢ صفحة- ٥٥٣) أنَّ عند العرب هنالك تقليداً منبئاً بأنه قد مرَّ بهذا المحل منذ أحقاب جمهور كبير من الحجاج ماضين إلى حيصروت، فلبثوا فيه، وما يرى فيه من الآثار إنّما هي آثار عبورهم ثم تاهوا في التيه وانقطعت أخبارهم. فيمكن إنتاج شيء من هذا التقليد وإن غير راهن لأن قول العرب في رواية هذا التقليد «تاهوا» مشعرٌ بأن المراد بجمهور الحجاج الماضين إلى حيصروت بنو إسرائيل، وعن هذه الكلمة أخذ اسم بادية التيه أي تيه بني إسرائيل ، وقولهم حجاج يريدون به جمهوراً كحجاج مكة. ولكن يمكن اشتقاق الكلمة من حك العبرانية مثل ܚܓܐ (حكو) السريانية ومعناها العيد. وقد استعمل هذا اللفظ (في الخروج ف١٠ ع ٩) للدلالة على العيد الذي سأل موسى وهرون فرعون أن يأذن لبني إسرائيل أن يعملوه في البرية.

وأما الداعي لتسمية هذا المحل قبور الشهوة فهو ما جاء في سفر العدد (ف ١١ ع ٤ وما يليه) حيث قيل: «واشتهى الأخلاط (أي من خرجوا مع بني إسرائيل من مصر، ولم يكونوا منهم) الذين فيما بينهم شهوة فتابعهم بنو إسرائيل، وبكوا هم أيضاً وقالوا من يعطينا لحماً فقد ذكرنا السمك الذي كنا نأكله في مصر مجاناً والقثاء، والبطيخ والكراث والبصل والثوم، والآن فنفوسنا يابسة لا شيء أمام عيوننا غير المنّ». فلمّا سمع موسى الشعب يبكون بعشائرهم وقد اشتد غضب الرب جداً ساء ذلك موسى. وقال للرب: لِمَ ابتليت عبدك؟ حتى وضعت أثقال جميع هولاء الشعب عليّ! ألعلّي أنا ولدتهم؟ حتى تقول لي إحملهم في حجرك كما تحمل الحاضن الرضيع، من أين لي لحم أعطيه لجميعهم؟ فإن كنت فاعلاً بي كذا فاقتلني إن حظيت في عينيك ولا أرى بليتي. فقال له الرب: إجمع لي سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل وخذهم إلى خباء المحضر فيقفوا ثمة معك، فانزل وأتكلّم معك وآخذ من الروح الذي عليك وأحلّه عليهم، فيحملون معك أثقال الشعب، وقل للشعب تقدّموا للغد فتأكلون لحماً لا يوماً ولا يومين ولا خمسة أيام ولا عشرة أيام ولا عشرين يوماً بل شهراً من الزمان إلى أن يخرج من أنوفكم، ويصير لكم بشماً. فخرج موسى وأخبر الشعب وجمع سبعين رجلاً من شيوخ إسرائيل، ووقفهم حوالي الخباء وحل روح الرب عليهم، فتنبأوا إلاّ أنّهم لم يستمرّوا انبياء وبقي منهم الداد وميداد في المحلة فتنبأءا فيها. وعند انحيازهم إلى المحلة «هبّت ريح من لدن الرب

فساقت سلوى من البحر، وألقته على المحلة على مسيرة يوم من هنا ويوم من هناك حوالي المحلة على نحو ذراعين عن وجه الأرض، فأقام الشعب يومهم كله وليلتهم وغدهم يجمعون السلوى فجمع أقلهم عشرة أحمار[1] فسطحوها لهم مساطح حوالي المحلة، وبينما اللحم بعد بين أسنانهم قبل أن يمضغوه إذا اشتد غضب الرب فضربهم ضربة عظيمة جدًّا»، كأنه بلاهم بوباء إثر أكلهم السلوى، فمات منهم خلق كثير فقبروهم هناك، «فسمي ذلك الموضع قبور الشهوة لأنهم دفنوا فيه القوم المشتهين». وقد ذكرنا ما يتعلّق بالسلوى عند إنزالها المرة الأولى في برية سين فطالع عد ١٩١.

عد ٢٠١

ارتحال بني إسرائيل من قبور الشهوة إلى حصيروت وغيرها حتى قادش وتذمر مريم وهرون على موسى بسبب امرأته

جاء في سفر العدد (ف ١١ ع ٣٥): «ورحل الشعب من قبور الشهوة إلى حصيروت فأقاموا هناك». وحصيروت تسمى الآن عين حصيره أو حصاره على مسيرة أربعة وعشرين كيلومتراً من رويس الاويبرج نحو خليج عقبة. وهناك آثار محلة من ينابيع ماء جارية ونخيل. وكلمة حصيروت عبرانية تأويلها الحظيرة وهي الموضع الذي يحاط عليه لتأوي إليه الماشية. ومثل هذه الحظائر كان ولا شك كثيراً في بلاد العرب. ويظهر في سفر العدد (ف ١٢) إنّه هناك تكلمت مريم وهرون في موسى بسبب المرأة الحبشيّة التي تزوجها، لأنه كان قد اتّخذ زوجة حبشية (والأولى أن تترجم كوشية)، وهي صفورة امرأته فإنّها من المدينيين وهم على الأرجح قبيلتان إحداهما من ذرّية كوش بن حام ومنها امرأة موسى هذه. والثانية من ذرّية مدين بن ابراهيم من قطورة كما مر في عد ١٩٥.

وعلماء العرب يحسبون المدينيين سكان شرقي البحر الأحمر أجنبيين عنهم وليسوا من قبائل العرب السامية. وهذا مؤيد للقول بأنهم من ولد كوش بن حام،

(١) كذا في نسخة الآباء اليسوعيين في سفر العدد فصل ١١ عد ٣٢ ولكن في سفر الخروج فصل ١٦ عد ١٨ انهم كالوا المن بالعُمر وفي عد ٣٦ (وكان العمر عشر الألفية) فلعل مرتبي الحروف في المطبعة بدلوا العين بالحاء هنا.

وأمَّا الذي حمل مريم وهرون إلى التقول على موسى بسبب امرأته، فالظاهر من أمره أن صفورة تسببت في هذا التذمر بتفاخرها بالنعم التي اعطيها زوجها موسى. وكان العبرانيون يمقتون ذرية حام والمصريون والكوشيون منها. وكان موسى نهاهم عن التزوج بالأجنبيات، فرأوا أنَّه كان عليه أن يردَّها على أبيها لا أن يستبقيها. فانتصر الله لموسى وقال له: أخرج أنت وهرون ومريم إلى الخباء فخرجوا. وقال الرب لهرون ومريم: إسمعا كلامي إن يكن فيكم نبيٌّ للرب فبالرؤيا أتعرَّف له وفي حلم أخاطبه، وأما عبدي موسى فأخاطبه فماً إلى فم، فما بالكما لم تهابا أن تتكلَّما فيه؟ وأظهر الرب شدَّة غضبه عليهما ومضى ومال الغمام عن الخباء فإذا مريم برصاء كالثلج فشفع بها موسى لدى الرب فلم يقبل شفاعته، إلَّا أن تحجز سبعة أيام خارج المحلَّة فحجزت كذلك ولم يرتحل الشعب حتى أرجعت.

ثم قال الكتاب (سفر العدد ف ١٣): «وبعد ذلك ارتحل الشعب من حصيروت ونزلوا ببرية فاران»، فبرية فاران فسيحة الأنحاء، ولم يعين الكتاب في أي جهاتها حلُّوا، ولكن يوخذ من كلامه التالي في بعثه رجالاً يجسون أرض كنعان أنَّهم حلُّوا في قادش. لقول الكتاب بعد ذلك (عد ٢٧) إنَّ هولاء الجواسيس عادوا إلى موسى في برية فاران في قادش، وإذا كان الأمر كذلك فلا يكون مفهوم كلام الكتاب أن الشعب ارتحل من حصيروت توًّا إلى قادش فإن ما جاء في الفصل ١٢ من سفر العدد؛ إنَّما هو كلام مجمل موجز ورد تفصيله في الفصل الثالث والثلاثين منه حيث ذكر ثماني عشرة مرحلة بين حصيروت وقادش. ولمَّا لم يكن في هذه المراحل ما يهم موسى ذكره اضرب عن تفصيلها. وأبقى ذكر جميع المراحل من خروجهم من مصر إلى بلوغهم صحراء مواب، فأفرد له الفصل الثالث والثلاثين على أن تلك المراحل قلَّما كان فيها أمر مهم. وقد تتبعها كثير من العلماء والمكتشفون، ولهم في تعيين مواقعها أقوالٌ قلَّ منها ما يمكن إخراجه من حيِّز الإحتمالات. فنضرب عن تفصيلها مجانبةً لملل القراء، وأكثرها في بادية التيه المعروف بتيه بني إسرائيل. على أنَّ المرحلة الأخيرة قبل قادش وهي عصيون جابر معروفة وموقعها معيَّن، وهي على خليج عقبة وظنَّ بعضهم أنَّها وايلة مدينة واحدة. وليس ذلك بمقطوع به إذ جاء في سفر الأيام الثاني (ف ٨ ع ١٧). «ثم ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى ايلة على شاطئ البحر في أرض أدوم». فالظاهر منه أنَّهما مدينتان، ولعل ايلة سميت باسم ايلة من ولد عيسو الذي خلف اهليبامة في

الولاية على بلاد أدوم، كما في التكوين (ف ٣٦ ع ٤١). وقد انقضت مدَّة ارتحال بني إسرائيل من حصيروت إلى قادش دون أن يكون فيها حدث مهم. ولا أقل من أنّ الكتاب لا ينبئنا شيئاً من الأحداث المهمة الّا ثورة قورح من بني لاوي وداثان وأبيرام واون من بني رآوبين ومعهم مئتان وخمسون من رؤساء الجماعة وتذمرهم على موسى لاختصاص هرون وذريته بالكهنوت.

وقد صرَّح الكتاب بما عاقب الله به رؤساء الثائرين أي بانشقاق الأرض وابتلاعهم مع أولادهم ونسائهم، وبخروج نارٍ أحرقت محازبيهم المئتين والخمسين، ولما شكا الشعب وقالوا إنَّ العقاب شديد الصرامة انتشر فيهم وباء أهلك منهم أربعة عشر ألفاً، وانكفأت الضربة بتوسل موسى وهرون. وقد فصَّل الكتاب ذلك في الفصل السادس عشر من سفر العدد، ثم ذكر في الفصل السابع عشر أنَّ الرب أمر موسى أن يأخذ عصاً من كل بيتٍ من رؤسائهم فأخذ إثنتي عشرة عصاً، وكتب أسم كل واحدٍ على عصاه واسم هرون على عصا لاوي. فوضع موسى العصي أمام الرب في الخباء فأفرخت عصا هرون وأخرجت براعيم، وأزهرت وأنضجت نوراً. فأخرج موسى جميع العصي إلى بني إسرائيل ليتحققوا اختيار الرب هرون ونسله للكهنوت. وأمر الرب موسى أن يردَّ عصا هرون إلى أمام الشهادة لتحفظ آيةً لذوي التمرد.

وارتحل بنو إسرائيل من عصيون جابر إلى قادش وهي واقعة على تخوم الادوميين. وقال أعضاء اللجنة الإنكليزيّة: إنَّ موقعها في عين قادس في جبل مغرة وتسمى قادش برنع، وتوجد قادش أخرى في أعلى الجليل وقعت في نصيب سبط نفتاليم. وقال بعضهم إنّ قادش التي حلَّ بها بنو إسرائيل غير قادش برنع وإنَّهما مدينتان ومهما يكن فقد أقام بنو إسرائيل في قادش مدة متطاولة، كما يظهر من سفر تثنية الإشتراع (ف ١ ع ٤٦) حيث قال الله لهم: «فأقمتم في قادش ما أقمتم من الأيام الكثيرة».

عد ٢٠٢

ما كان لبني إسرائيل في قادش أعني وفاة مريم أخت موسى وإجراء الماء في الصخرة ثانية وإرسال الجواسيس إلى أرض الموعد

قد جاء في سفر العدد (ف ٢٠ ع ١): «أقام الشعب بقادش، وماتت ثم مريم ودفنت هناك»، وهي أخت موسى وبنت عمران. وكانت تكبر أخاها موسى بعشر

أو باثنتي عشرة سنة فهذا ما يقضي به ما جاء في الكتاب عن كلامها مع ابنة فرعون عند انتشال أخيها من النيل، والأظهر أنَّها استمرت بتولاً وإن قال بعضهم إنَّها زوجة حور (راجع عد ١٩٤). ولم يذكر الكتاب سني عمرها ولا يتأكَّد في أية سنة بعد الخروج ماتت فإن صحَّ قول كلمت إنَّها ماتت في السنة الأربعين للخروج كان عمرها إلى موتها مئة وثلاثين أو مئة واثنتين وثلاثين سنة بناءً على أنَّ موسى أخاها مات تلك السنة، وعمره مئة وعشرون سنة (تثنية ف ٣٤ عد ٧) وعمرها قبل مولد أخيها عشرٌ أو إثنتا عشرة سنة كما مرَّ. وقال يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ٤ ف ٤) إنَّها دفنت باحتفاء وأُنفق على دفنها من مال الجماعة. وإنَّ بني إسرائيل رثوها شهراً. وقال اوسابيوس أن سكان قادش كانوا إلى زمانه يدلون على قبر مريم في ضواحي مدينتهم.

وفي قادش أيضاً خاصم الشعب موسى وهرون لحاجتهم إلى الماء، فتجلى الرب لهما في باب الخباء وقال لموسى أن يجمع الجماعة ويأخذ عصاه ويضرب الصخرة فتجري المياه. فعمل كما أمر الرب وقال للجماعة اسمعوا أيَّها المتمردون أنخرج لكم من هذه الصخرة ماءً؟ ورفع يده وضرب الصخرة مرتين بعصاه فخرج ماءٌ كثيرٌ فشرب منه الجماعة وبهائمهم، وهناك قضى الرب على موسى وهرون بأنّهما لا يدخلان أرض الموعد، ولم يصرِّح في سفر العدد بالداعي لهذا القضاء، لأن الرب قال لموسى وهرون بما أنكما لم تؤمنا بي ولم تقدساني على عيون بني إسرائيل لذلك لا تدخلان أنتما هولاء الجماعة الأرض التي أعطيتها لهم. لكن المرتل أوضح ذلك في المزمور الـ ١٠٥ عد٣٢ إذ قال بموجب النص العبراني: «ثم أغضبوه على مياه الخصومة، فلحق موسى سوء من أجلهم لأنهم غاظوا روحه ففرطت شفتاه»، فكأن قوله أنخرج لكم من هذه الصخرة ماءً ؟ كان من باب الإستفهام الانكاري مع أنَّ الرب كان قال له ولهرون أن يكلِّما الصخرة فتعطي مياهها (سفر العدد ف ٢٠).

ومن قادش أرسل موسى بأمر الله إثني عشر رجلاً من كل سبط رجلاً من رؤسائه يجسون أرض كنعان. وقال دي لابور (في تفسيره الجغرافي في سفري الخروج والعدد): إنَّه بعثهم من رثمة أوَّل مرحلة بعد حصيروت، فعادوا إليه في قادش، وأمرهم موسى أن يطوفوا في البلاد، ويروا سكانها أشديدون هم أم ضعفاء؟ وقليلون أم كثيرون ؟ وما مساكنهم أخيام هي أم حصون؟ فمضوا وجسُّوا الأرض

من برية فاران إلى رحوب عند مدخل حماه. وظن بعضهم أن رحوب يراد بها سهل البقاع وبعلبك مستمسكين بقول الكتاب إنَّها عند مدخل حماه وبأن اسمها رحوب أي رحب، وفسيح ينطبق خير انطباق على تلك السهول. ولكن رأى غيرهم سنداً إلى ورود اسمها في سفر يشوع بن نون، وفي سفر القضاة دالاً على مدينة في سبط اشير، إنَّ رحوب كانت في أنحاء دان قريبة من منابع الأردن إلّا أن يوفِّق بين القولين أن مملكة رحوب كانت تخومها تمتد إلى دان ومنابع الأردن. وقد أتم الجواسيس تطوافهم في أربعين يوماً، وأتوا حبرون وهي الخليل الآن. وقال الكتاب: إنَّها بنيت قبل صوعن مصر (وهي تانيس القديمة وصان الآن) بسبع سنين. وقطع الجواسيس من ثم زرجونة بعنقود واحد من العنب، وحملوه بعتلة بين اثنين مع شيء من الرمان والتين فسمي الموضع وادي العنقود. وجاءوا موسى في برية فاران في قادش، وأروا الجماعة ثمر الأرض وقالوا إنَّ الأرض تدرُّ بالحقيقة لبناً وعسلاً وهذا ثمرها، غير أنَّ الشعب الساكنين فيها أقوياء، والمدن حصينة عظيمة جداً فهناك العمالقة مقيمون بأرض الجنوب، والحثيون واليوسيون والآموريون مقيمون بالجبل، والكنعانيون مقيمون عند البحر وعلى عدوة الأردن. وقد رأينا ثم من الجبابرة جبابرة بني عناق فصرنا في عيوننا كالجراد وكذلك كنا في عيونهم.

وخالفهم يشوع بن نون وكالب بن يوفنا قائلين نصعد ونرث الأرض، فإننا قادرون عليها. ووقع الرعب في الجماعة، ورفعوا أصواتهم في البكاء وتذمروا على موسى وهرون، فمزَّق يشوع بن نون وكالب بن يوفنا ثيابهما قائلين: إنَّ الأرض التي مررنا فيها لنتجسسها جيدة جداً فلا تخافوا سكانها، والرب معنا فلا ترهبوهم فقالت الجماعة كلها: ليرجما بالحجارة، وظهر مجد الرب في الخباء لجميع بني إسرائيل مغضباً عليهم. فأخذ موسى يتوسل إليه كي لا يهلكهم. وقضى الرب بأن جميع الرجال الذين خرجوا من مصر، وعمرهم عشرون سنة فصاعداً لا يدخل منهم أحد أرض الموعد إلّا يشوع بن نون وكالب بن يوفنا. وقال الرب للجماعة إنَّ أطفالكم الذين قلتم إنَّهم يكونون غنيمة لأعدائكم في أرض الموعد فإياهم أدخل الأرض التي رذلتموها، وأما جثثكم فتسقط في البرية إذ تكونون فيها بعدد الأيام التي تجسستم الأرض فيها، وهي أربعون يوماً كل يوم بسنة أي من يوم خروجهم من مصر إلى دخولهم أرض الموعد، فالرب رآهم غير أهل لمحاربة الكنعانيين، وسائر سكان فلسطين فأطال مدة إقامتهم في البرية ثماني وثلاثين سنة. وسوف نأتي على

ذكر المواضع التي أقاموا فيها هذه المدة الطويلة، وأما الرجال الذين بعثهم موسى ليجسوا الإرض ورجعوا وذمّروا عليه كل الجماعة، فضربهم الرب وأماتهم وأبقى يشوع بن نون وكالب بن يوفنا (العدد فصل ١٣ و ١٤).

عد ٢٠٣

ارتحال بنو إسرائيل من قادس في جانب جبل أدوم إلى جبل هور وموت هرون هناك

قد أضرب موسى عن ذكر ما كان في الثماني والثلاثين سنة التي أقاموا فيها بالبرية، وعاد بعد ذكره آية الصخرة في قادش ينبئنا (سفر العدد ف ٢٠ عد ١٤)، إنَّه أنفذ رسلاً من قادش إلى ملك أدوم، ولا يظن أنَّهم أقاموا كل هذه المدة في قادش بل الأظهر أنَّهم ارتحلوا عنها. ثم عاودوا الإقامة فيها، وأمَّا ملك أدوم هذا فهو من ذرية عيسو بن اسحق بن ابراهيم. وسمّيت هذه البلاد باسمه أدوم أو هو سُمّيَ باسمها على أحد القولين اللّذين ذكرناهما قبلاً. ومن كلام الكتاب الآتي يتّضح أنَّ ولاية هذه البلاد استمرت في ولد عيسو، إذ قال موسى لملك أدوم:

«قال أخوك إسرائيل قد علمت بجميع ما نالنا من المشقة، وإنَّ آباءَنا هبطوا مصر. فأقمنا بها أياماً كثيرة، فأساء المصريون إلينا وإلى آبائنا، فصرخنا إلى الرب فسمع صوتنا، وبعث ملاكاً وأخرجنا من مصر. وها نحن في مدينة قادش في طرف تخمك، دَعنا نمرُّ في أرضك ونحن لا نميل إلى حقل ولا كرم ولا نشرب ماء بئر، لكننا نسير في الطريق السلطاني لا نميل يمنةً ولا يسرةً إلى أن نجوز تخمك». فأبى ملك أدوم إلّا التهديد لهم إن جازوا بأرضه. ومنعهم الرب من محاربة الأدوميين، فتحوَّل إسرائيل عنهم واضطرُّوا أن يدوروا نحو الجنوب الشرقي حول جبل سعير مسكن الادوميين، ليعودوا من جهة الشمال. فارتحلوا من قادش وأقبلوا إلى جبل هور وهو على تخم بلاد ادوم في الجنوب. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٤ ف ٤) تقليداً يتبيَّن منه أن هذا الجبل واقع على مقربة من مدينة حجر قصبة بلاد العرب الحجرية، وإنها كانت تسمَّى قديماً اركا، وتسمى الآن حجر فحلَّ بنو إسرائيل لا على الجبل بل في سفحه. وجاء في تثنية الإشتراع (فصل ١٠ عد ٦). إنَّ هذه المنزلة تسمى موسير إذ قال: «وارتحل بنو إسرائيل من

ابار بني يقعان إلى موسير هناك مات هرون ودفن». فيظهر أنَّ اسم المحلة موسير واسم الجبل هور وهناك كلم الرب موسى قائلاً لينضم هرون إلى قومه لأنه لا يدخل الأرض التي اعطيتها لبني إسرائيل، لأنكما عصيتما أمري عند ماء الخصومة. وأمره ان ياخذ هرون واليعازر ابنه ويصعدهما جبل هور، وينزع عن هرون ثيابه ويلبسها اليعازر ابنه. فصنع موسى كما أمره الرب ومات هرون هناك في راس الجبل. وعاد موسى واليعازر إلى الجماعة فبكى جميع آل إسرائيل هرون ثلاثين يوماً، وكان عمره وقتئذٍ مئة وثلاثاً وعشرين سنة. وقد دفنه موسى واليعازر في مغارة بحيث لا يعرف أحد قبره لئلا يعبده بنو إسرائيل جرياً على ما آلفوا من عوائد المصريين أن يعبدوا مشاهيرهم إذا ماتوا. أو خشية أن ينتهك العرب هناك حرمة مدفنه، ومع هذا ففي جبل هور مدفن يسمونه مدفن هرون. وقد زاره كثير من الجوالة منهم العالم دي لابور وقال إنَّ العرب يجلّون إلى اليوم مدفن النبي هرون في أعلى جبل هور، ويسمى الجبل الآن جبل النبي هرون. وقد زاره أيضاً إربي ومنكل Yrbi et Mangles سنة ١٨١٨م وكتبا في هذا المدفن كثيراً وخلاصته أن جبل هور عسر المسلك جداً وإنَّ في قمّته مغارة في صخر، ومدفن هرون في داخلها، وهو قبر صغير أشبه بمدافن الإسلام. فيحتمل أنَّ البناء الذي يرى اليوم احدث في عصر قريب، وفي جوانبه الخارجة بعض الأعمدة وقطع من الحجر المحبب والرخام. وإنَّهما وجدا كتابة عبرانية ترجماها فلم يكن فحواها إلّا أنّ رجلاً يهودياً زار مع اسرته هذا المحل، وأنَّ في زاوية المغارة في الشمال الغربي منحدراً بسلّم إلى مغارة أخرى. وكان ثم حاجز من حديد يمنع الدنو من المدفن؛ فاتفق لهما أنَّ هذا الحاجز كان ساقطاً، فتيسر لهما أن يمسّا المدفن الذي يقال إنَّه مدفن هرون، ومن فوقه طنفسة رثة، وذكر ذلك فيكورو أيضاً في معجم الكتاب في كلمة هرون وقال إنَّ كثيراً من المسلمين أيضاً يحجون إلى قبر هرون، هناك تبركاً وإنَّ البناء الخارج فوق مغارة المدفن قد بُني بأنقاض معبد مسيحي كان هناك في مبادي القرن الثالث عشر.

عد ٢٠٤

حربهم مع ملك عراد ومراحلهم من جبل هور إلى صحراء مواب

قال الكتاب (سفر العدد ٢١): «وسمع الكنعاني ملك عراد المقيم في الجنوب:

أنَّ بني إسرائيل قد جاءوا على طريق أتاريم، فقاتلهم وسبى منهم سبياً». ويظهر من قوله إنَّ بعض عشائر الكنعانيين كانت قد ظعنت إلى عراد الواقعة في قرب العربية الحجرية. وظن هذا الملك أنَّ بني إسرائيل ينوون أخذ ملكه، ففاجأهم بالقتال واستظهر عليهم وسبى بعضهم. فخشعوا للرب فدفع الكنعانيين إليهم فأبسلوهم هم ومدنهم. وأكسبهم هذا الظفر جرأة على أعدائهم، وثقة بعون الرب لهم. على أنَّهم لم يعتموا أن عاودوا تشكيهم لأنهم رحلوا من جبل هور على طريق بحر القلزم ليدوروا من حول أرض أدوم. فضجرت نفوسهم من طول الطريق فعادوا يتذمرون على الله وعلى موسى. فأرسل الرب عليهم حيات نارية فلدغتهم ومات منهم قوم كثير. فأقبلوا إلى موسى يقولون: قد خطئنا بكلامنا على الرب وعليك، فتضرع موسى إلى الرب من أجلهم فقال له الرب إصنع لك حيَّة وارفعها على سارية فكل لديغ ينظر إليها يحيا. فصنع كذلك فكان أي إنسان لدغته حية، ونظر إلى الحية النحاسية يحيا فقال الجاحدون: لا غرو ان من نظر إلى صورة حية آملاً أن يبرأ ارتكب معصية عبادة الأوثان فكيف عرضهم موسى لذلك؟ وقد فاتهم أن مجرَّد النظر إلى حية أو غيرها ليس عبادة وقد أفصح لهم موسى أنَّ صورة الحيَّة لا قوة لها بنفسها على أن تحيي اللديغ، بل الله هو المحيي بهذه الوسيلة فأية عبادة وثنية في صنع ما أمر الله به؟ على أنَّه بعد أن تسكع بنو إسرائيل بعبادة المنحوتات في أيام ملوكهم، وأظهروا نوعاً من التكريم لهذه الحية خلافاً لأمر الله سحقها حزقيا لأن بني إسرائيل كانوا يقدمون لها البخور (ملوك ٤ ف ١٨ ع ٤).

وقد أنبأنا المخلِّص أنّ تلك الحيَّة كانت رمزاً وإشارة إليه إذ قال: «وكما رفع موسى الحية في البرية هكذا ينبغي أن يرفع ابن البشر» (يوحنا ٣ ع ١٤)، وقد ارتحل بنو إسرائيل من جبل هور إلى صحراء مواب ثماني مراحل أخرى، ذكر اكثرها في الفصل الحادي والعشرين من سفر العدد، وكلها من الفصل الثالث والثلاثين منه. وتملكوا في مدة ارتحالهم في هذه المراحل بعض أملاكهم في شرقي الأردن كما سترى في الفصل التالي.

إنَّ اللجنة الإنكليزية تتبعت آثار بني إسرائيل، وبحثت عن مراحلهم مذ عبروا البحر الأحمر إلى أن بلغوا جبل موسى غير أنَّها لم تفضِّل بتتبع آثارها من جبل موسى إلى شرقي الأردن. فبقي ذلك لمكتشفين آخرين يتحفوننا بأكثر تحقيق

وتدقيق في مواقع هذه المحال، ولا يحسن العدول عن ترجمة ما اختتم به العالم هولاند أحد أعضاء اللجنة الإنكليزية مقالته في أبحاثها قال: «إنَّ طريق بني إسرائيل لم تتعين كل مراحلها بتوكيد مطلق على أنَّ الإكتشافات التي عانينا مشقاتها أكسبت على المسألة انواراً ساطعة وبياناً جلياً. وأزيد على ذلك أنَّه ما من عضو من أعضاء اللجنة عاد إلى إنكلترا دون أن يكون متيقناً تيقناً لا يشوبه ريب بصحة التاريخ المقدس وثبوته. فالبرية نفسها وجبالها وأوداؤها وصخورها العارية والمحترقة تبين صحة كلام الكتاب، وتثبتها وتقدم لكل من عاينها بينة مفحمة لا يقام عليها نكير إنَّها هي البرية الكبرى المرعبة التي قاد فيها موسى شعب الله بأمره وارشاده».

قد مرَّ أنَّ بني إسرائيل أقاموا في البرية بعد إرسال الجواسيس إلى أرض لموعد ثماني وثلاثين سنة. وذلك نص صريح في الفصل الرابع من سفر العدد (عد ٣٣ و ٣٤) كما مرَّ في عد ٢٠٢. وأوضح منه قوله في سفر تثنية الإشتراع (ف ٢ ع ١٤): «وكانت جملة الأيام مذ سرنا من قادش برنع إلى أن عبرنا وادي زارد (في شرقي الأردن) ثماني وثلاثين سنة إلى أن انقرض جميع رجال الحرب من المحلة كما اقسم الرب فيهم»، فأين أقام بنو إسرائيل في هذه السنين المتطاولة؟ فهذه مسألة معضلة أعيى المفسرين حلها وذهبوا فيها مذاهب شتَّى.

فقال بعضهم إنَّ المراحل التي جاء ذكرها في سفر العدد (ف ٣٣) قبل قادش كانت بعد ارتحالهم منها. وقدم الكتاب ذكرها وقضى بنو إسرائيل الثماني والثلاثين سنة في هذه المراحل وقال غيرهم: إنَّ قادش اسم لمحلين حلَّ بنو إسرائيل فيهما. وقال آخرون إنَّهم حلوا في قادش مرتين الأُولى عند إرسال الجواسيس، والثانية عند ارتحالهم إلى هور حيث مات هرون لسنة الأربعين بعد الخروج. والذي أراه أكثر مطابقة للآيات الكريمة وقد أثبته العالم لاون دي لابورد (في كتاب تفسيره الجغرافي لسفري الخروج والعدد) الذي تتبع مراحل بني إسرائيل مرحلة مرحلة، وتابعه في رأيه العالم فولارد محشي معجم الكتاب لكلمت إنَّما هو أن بني إسرائيل استمرُّوا مدَّة الثماني والثلاثين سنة في برية قادش، وفي وادي عربه الفسيح الإرجاء مرتحلين من محل إلى آخر في برية

قادش نفسها التي يسميها العرب تيه بني إسرائيل على عادة الرحل، طلباً للانتجاع ، وكما نرى عشائر العرب في هذه الأيام في السلط والجولان. ويؤيد ذلك قول موسى (تثنية ف ١ ع ٢٦): «فأقمتم في قادش ما أقمتم من الأيام الكثيرة». وقد وضع العالم دي لابور جدولاً للمراحل التي ذكرت في أسفار الخروج، والعدد والتثنية مثبتاً الآي الواردة في كل منها في جانب الأخرى، فظهر من ذلك أنْ لا خلاف بينها إلاَّ من حيث الإيجاز والتفصيل. وقال العلامة فرنسيس لانرمان (مجلد ٢ في تاريخه الشرقي في تاريخ بني إسرائيل) : «استمر بنو إسرائيل ثماني وثلاثين سنة على العيشة الإرتحالية طائفين البرية التي يسميها العرب التيه أو تيه بني إسرائيل، ظاعنين من الشمال إلى الجنوب حتى عصيون جابر على خليج عقبة وعائدين من هناك إلى الشمال حتى قادش برنع.

الفصل الثامن

تملك بني إسرائيل البلاد التي في شرقي الأردن

عد ٢٠٥

نهي الرب بني إسرائيل عن محاربة الآدوميين والموآبيين والمعونيين ومن سكن بلادهم قبلهم

اجتاز بنو إسرائيل عند ارتحالهم إلى شرقي الأردن بلاد الأدوميين، وهم بنو عيسو والموآبيين وهم بنو مواب بن لوط من بنته الكبرى، والعمونيين وهم بنو عمون ابن لوط من بنته الصغرى فنهاهم الرب عن محاربة اخوتهم هؤلاء. أمَّا في الأدوميين فقال لموسى (تثنية ف ٢ ع ٤): «إنَّكم جائزون في تخم إخوتكم بني عيسو المقيمين بسعير فسيخافونكم، فتحرزوا جداً لا تناصبوهم. فإني لست معطيكم

من أرضهم شيئاً ولو موطىء قدم لأن جبل سعير قد وهبته لعيسو ميراثاً». ولذا لزمهم أن يدوروا حول جبل سعير في طريق الصحراء على ايلة وعصيون جابر الآنف ذكرهما. وأن يعودوا في طريق برية مواب، وأمّا في الموآبيين فقال له (هناك عد ٩): «لا تعادِ الموآبيين ولا تناصبهم حرباً فإني لست معطيكم من أرضهم ميراثاً إذ لبني لوط وهبت عاد (إسم بلادهم القديم) ميراثاً. وقال له في العمونيين (عد ١٩): «إذا دانيت جهة بني عمون فلا تعادِهم، ولا تناصبهم فإنّي لست معطيك من أرض بني عمون ميراثاً لأني لبني لوط وهبتها ميراثاً». إلاّ أنّ هولاء العشائر غمطوا نعمة الله وأثاروا غضبه عليهم لأنهم أساؤا إلى بني إسرائيل، وعاملوهم بالقسوة عند اجتيازهم إلى أرض كنعان وبعده والموآبيون خاصة أرادوا إفساد بني إسرائيل بتهتك بناتهم، وبالق ملكهم إستأجر بلعام بن بعور ليعلن بني إسرائيل عند احتلالهم صحراء مواب، ولذلك قال موسى فيهم بعد ذلك (تثنية ف ٢٣ ع ٣): «لا يدخل عمونيّ ولا موابيّ في جماعة الرب ولو في الجيل العاشر لا يدخل أحد منهم في جماعة الرب إلى الأبد لأنهم لم يلتقوكم بالخبز والماء في الطريق عند خروجكم من مصر ولأنهم استأجروا بلعام بن بعور... ليعلنكم»، ولذا كانت حروب عديدة بعد ذلك بين بني إسرائيل وهذه العشائر كما سترى.

لم يكتفِ موسى بذكر نهي الرب عن محاربة هولاء، بل أعلمنا أيضاً في (الفصل السالف ذكره) بمن سكن بلادهم قبلهم فقال (عد ١٢): «أمّا سعير (بلاد الأدوميين) فأقام بها الحوريون (بنو سعير الحورى) قبل بني عيسو، فطردوهم وأبادوهم من بين أيديهم وأقاموا مكانهم». ويظهر أنَّ الحوريين قبيلة قديمة جداً حتى عدد موسى (تك ف ٣٦) كثيراً من زعمائهم أو حكامهم قبل أن يقرضهم الأدوميون وبلادهم في جنوبي بلاد المؤابيين. وقال في بلاد المؤابيين (عد ١٠): «وكان الأيميون قد أقاموا بها قبلاً وهم شعب كثير طوال القامات كالعناقيين، وهم يحسبون جبابرة كالعناقيين والموابين يسمونهم ايميين». وقال في أرض العمونيين (عد ٢٠): «وهي أيضاً تحسب من أرض الجبابرة لأن الجبابرة أقاموا بها قبلاً والعمونيون يسمونهم زمزميين، وهم شعب عظيم كثير طويل القامات كالعناقيين، فأهلكهم الرب من بين أيديهم فطردوهم وأقاموا مكانهم». وأرض بني عمون في جنوبي السلط، وأرض بني مواب في جنوبي أرض بني عمون، والأظهر أن الجبابرة الذين أقاموا في هذه البلاد كانوا ساميين أصلاً وقد مرَّ لنا كلام في ذلك في عد ١٥٥.

عد ٢٠٦

تملك بني إسرائيل بلاد سيحون ملك الأموريين وعوج ملك باشان

جاء في الكتاب (سفر العدد ف ٢٠ والتثنية ف ٢) أنَّ موسى بعث رسلاً من قديموت احدى مراحل بني إسرائيل إلى سيحون ملك الأموريين قائلاً له: «دعني أمرُّ في طريق أرضك... ولا أميل يمنة ولا يسرة بفضة، تميرني طعاماً فآكل ...ـة تعطيني ماء فأشرب، وأعبر برجلي فقط». فأبىٰ سيحون أن يجيزهم في ... وخرج عليهم بجميع قومه للحرب إلى محل يسمى ياهص، فاستظهر عليه بنو ...يل فقتلوه وبنيه وكثيراً من قومه، وفتحوا جميع مدنه من عروعير (المسماة اليوم ...ـر) إلى جلعاد (السلط)، لم تبق قرية امتنعت عليهم. وفتحوا أحشبون (المسماة حسبان) قصبة ملكه وبحسب آية سفر العدد (ف ٢١ ع ٢٤): «ورثوا أرضه أرنون إلى يبوق»، وأرنون وادٍ ونهر يصب في بحر الميت، ويسمى الآن النهر ...ـب أو المعجب على رواية بعضهم، وكان قديماً فاصلاً بين أملاك الموابين في ...ـه وبين أملاك الاموريين في شماليه، كما يفصل الآن ولاية البلقاء في شماله بلاد الكرك في جنوبه (فيكورو في معجم الكتاب). ويبوق وادٍ ونهر يصب في ...ن بين البحر الميت، وبحيرة طبرية وهو المسمى الآن نهر الزرقاء، ووادي الزرقاء ...ما في كتاب أعلام الأماكن الواردة في الكتاب، ومواقعها واسمائها الآن[1] يوسيفوس (ك ٤ من تاريخ اليهود ف ٥): إنَّ مملكة الآموريين هذه كان ...ـا جنوباً نهر أرنون (المعجب) وشمالاً نهر يبوق (نهر الزرقاء) وغرباً الأردن، كلمة يبوق بمعنى تارك وفي السريانية ܫܒܩ (شباق) بمعنى ترك، وقد الكتاب أن سيحون هذا «كان حارب ملك مواب قبلاً، فأخذ من يده جميع إلى أرنون». فالمراد أن سيحون كان عبر الأردن من عدوته الغربية إلى عدوته ...ـية. وأخذ أملاكاً من بني مواب، وأقام هناك هذه المملكة الآمورية التي ملكها ...سرائيل.

...ـد اكتشف العالم دي سولسي في أخربة تل شيحان في تلك الأنحاء تمثالاً ...ون مطعوناً بحربة أحد أعدائه مجندلاً على الأرض، فأخذ هذا التمثال إلى

---

[1] هذا الكتاب لجورج ارمسترونك وقد اعاد النظر فيه ويلسون والماجور كوندر الشهيرين ونشرته لجنة البحث في فلسطين.

إفرنسة، وهداه إلى الدوك دي لوين الشهير. وهو الآن في متحف اللوفر. ولعل اسم تل شيحان أُخذ عن سيحون فتقارب اللفظان ظاهراً.

جاء في الكتاب (سفر العدد فصل ٢١ عد ٣٣ تثنية فصل ٣ عد ١) أنَّ بني إسرائيل صعدوا بعد استيلائهم على بلاد سيحون في طريق باشان، فخرج عليهم عوج ملكها بجميع قومه للحرب في ادرعي. وأمرهم الرب أن لا يخافوه وأسلمه وقومه إلى أيديهم حتى لم يبقَ لهم شريد، وفتحوا جميع مدنهم ولم تبقَ لهم قرية لم يأخذوها، «ستين مدينة كل بقعة ارجوب مملكة عوج في باشان». وغنموا البهائم وما كان في المدن، فكان ما أخذوه من الملكين سيحون وعوج كل الأرض التي في عبر الأردن، من وادي ارنون (وادي المعجب الآن) إلى جبل حرمون (جبل الشيخ الآن). «وحرمون يسميه الصيدونيون سريون والآموريون يسمونه سنير... وعوج هذا هو وحده بقي من الجبابرة، وسريره سرير من حديد، وهو لم يزل في ربة بني عمون طوله تسع أذرع، وعرضه أربع أذرع بذراع الرجل». وقد كان عوج من ذرية الجبابرة المسمين رافائيم أو رافائيين الذين كانوا في فلسطين قبل أن يغشاها الكنعانيون. وكان قد ألَّب جماعة من الأموريين وغيرهم من الكنعانيين فغزا مملكة باشان فاستظهر على العمونيين ولاتها قبله وأزاحهم منها نحو المشرق فكانت تخوم مملكته جبل جلعاد (السلط) شرقا، والأردن غربا ولبنان وجبل الشيخ شمالا، ونهر يبوق أي نهر الزرقاء جنوبا. وقال كلمت من معجم الكتاب إن التسع الأذرع عبارة عن خمس عشرة قدما وأربعة قراريط ونصف، والأربع الأذرع عبارة عن ست أقدام وعشرة قراريط. وادرعي هي التي يسميها العرب أذرعات وتسمى الآن ذرعات وموقعها في جهة اللجاة الغربية. وربة بني عمون هي المسماة الآن عمان (فيكورو في معجم الكتاب) في الجنوب الغربي من قلعة الزرقاء في ولاية البلقاء، وسميت بعد فيلدلفيا (اعلام الأماكن الكتابية الآنف ذكره).

عد ٢٠٧

دعوة بالاق ملك الموآبيين لبلعام ليلعن بني إسرائيل

ارتحل بنو إسرائيل بعد إنتصارهم على ملكي الآموريين وباشان. فحلوا في صحراء موآب على عبر الأردن تجاه أريحا، فخاف بالاق بن صفور ملك الموآبيين

وطأة بني إسرائيل بلاده. وأخذهم ملكه كما فعلوا بسيحون وعوج. فحالف شيوخ المدينيين، وهم من ولد مدين بن ابراهيم من زوجه قطورة. وأغراهم بمناصبة بني إسرائيل قائلا: «الآن تلحس هذه الجماعة كل ما حوالينا، كما يلحس الثور خضر الصحراء». فاستدعوا رجلا اشتهر بالعرافة يسمى بلعام بن بعور، من فاتور التي على النهر أي نهر الفرات إذ جاء في فصل ٢٣ عد ٤ من سفر التثنية: «من فتور في آرام النهرين»، ولم يكن القدماء يعرفون فتور مدينته فكشفت لنا الخطوط المسمارية عن موقعها، وهي المسماة ربسك الآن على عدوة الفرات من جهة سورية. كما ظهر من الخطوط المنقوشة على مسلة سلمناصر، ومن صفيحة وجدها لايرد وهي التاسعة والثمانون من الآثار التي ذكرها هذا العالم. وكان بالاق يعتقد أن من لعنه بلعام خذله الله لأنه نبي الرب. فتردد بلعام في مطاوعة الوفد بأن يحضر معهم، ويلعن بني إسرائيل، ولو قدموا له حلوان العرافة قائلا: إن الرب لا يؤذن له في المضي معهم ولا بلعن شعب إسرائيل لأنه مبارك، فبعث بالاق إليه رؤساء كثيرين أجلّ من اولئك واعداً أنه سيكرمه جداً، ويصنع له كل ما يقوله فأبى المسير أولاً قائلاً: لو أعطاني بالاق ملء بيته فضة وذهباً، لم أستطع أن أتجاوز أمر الرب لكنه قال بالغداة: إن الرب أذن له في المسير معهم فشد على اثانه وصحبهم، فاعترضه ملاك الرب في طريقه فجفلت الأثان في الصحراء. ثم زحمت الحائط فضغطت رجل بلعام فزاد في ضربها؛ ثم ربضت الأثان لاعتراض ملاك الرب لها في موضع ضيق. فكرر ضربها بالعصا فانطقها الله بالتوبيخ له على ضربه إياها. وكشف الرب عن بصره فرأى ملاك الله واقفاً في الطريق، وسيفه مسلول فخرّ ساجداً على وجهه فنهاه الملاك عن أن يقول غير ما يقوله له، وسار بلعام إلى أن التقاه بالاق ودخلا المدينة، ولما كانت الغداة أخذ بالاق بلعام فصعد به إلى مشارف مجل يسمى بعل، فنظر أقصى الشعب، وأمر بلعام بالاق ببناء سبعة مذابح، وأن يعد عليها سبعة عجول، وسبعة أكباش، فصنع وانفرد بلعام، وعاد إلى بالاق يبارك الشعب بدلاً من أن يلعنه. ثم أخذه بالاق إلى موضع ثان وثالث، وكان بلعام يعيد بركة الشعب وينبئ بانتصاره وتسلطه. فغضب عليه بالاق، وقال: إنما دعوتك لتلعن أعدائي فاذا أنت قد باركتهم ثلاث مرات فانصرف إلى موضعك، لقد كنت عزمت أن أكرمك فحرمك الرب الكرامة، وانصرف بلعام إلى قومه (العدد فصل ٢٢ و ٢٣ و ٢٤). وقد قال لبالاق والمدينيين قبل انصرافه إنهم إذا أحبوا ينتصروا على بني إسرائيل

فليغروهم بعبادة غير إلههم، وبالفحشاء ففعلوا ما أشار عليهم به كما سترى.

أما من هو بلعام؟ أنبي صادق هو أم عراف كاذب؟ ففي هذا أقوال : قال اوريجانوس (خطبة ١٣ في سفر العدد) إن كل ما كان لبلعام من المعرفة والقوة إنما كان بوسائل سحرية، وكان اللعن دأبه فإن إبليس دأبه اللعن. وقال توادوريطوس (مبحث ٣٩ و ٤٢ في سفر العدد) إن بلعام لم يكن يستشير الرب في ما يقول بل كان الرب يلهمه ما يقول مجبراً. وقال القديس كيرلس الاسكندري (في ك ٤ و ٦ في السجود بالروح): إنه كان شريراً ونبياً كاذباً لا ينطق بالحق إلا مجبراً. وشبهه القديس امبروسيوس (في رسالته ٥٠) بقيافا الذي نطق بالحق جاهلاً ما يقول، على أن القديس ايرونيموس (في المباحث العبرانية في التكوين)، يظهر أنه تابع رأي العبرانيين بقوله إن بلعام كان ممن يؤمن بالإله الحق، وقد بنى له مذابح وكان نبياً صادقاً وإن سيئ السيرة وإن موسى صرح بأنه استشار الرب، وإنه دعا الرب إذ قال (عد فصل ٢٢ عد ١٨): «لم أستطع أن أتجاوز أمر الرب إلهي فاعمل شيئا صغيرا أو كبيرا» وقال القديس اغوسطينوس (في ك ٢ في أمور شتى) إن بلعام سيكون في يوم الدين ممن يقولون للديان: «يا رب أليس باسمك تنبأنا»؟ ويظهر من قوله إنه حسبه نبياً صادقاً، وإن أثيما ومن عداد المرذولين. وقال برجيا من المتأخرين (في معجم اللاهوت): «لا يمكن دون مخالفة نص الكتاب أن يحسب بلعام نبياً كاذباً، أو كافراً، أو وثنياً». وقد أشار القديس بطرس الرسول إلى شيء من ذلك إذ قال (رسالته ٢ فصل ٢ عد ١٥): «وقد تركوا الطريق المستقيم واتبعوا طريق بلعام ابن بعور الذي أحب اجرة الظلم. إلّا إنه قد ناله التوبيخ على معصيته إذ ردع حماقة النبي حمار أبكم نطق له بصوت إنسان».

ومثل هذا الخلاف في نطق اتان بلعام أكلام حقيقي هو أم مجرد مجاز يراد به ما قام في مخيلة بلعام فقال القديس اغوسطينوس (مبحث ٤٨ و ٥٠ في التكوين) إن الاتان نطقت بكلام حقيقي، وإنَّ آية الكتاب يلزم فهمها بمعناها الحرفي، وتابعه على قوله كثير من المفسرين مثبتين إن تلك معجزة حقة كسائر معجزاته تعالى مع العبرانيين. وأيدوا ذلك بما ذكرناه آنفاً من قول بطرس الرسول في رسالته وقالوا: لم يهب الله الأتان عقلاً ناطقاً بل أنطقها بكلام توبيخ كما ينطق به إنسان. على أنه يظهر من كلام القديس غريغوريوس نيصص (في ترجمة موسى) أن الأتان لم تنطق بكلمات مفصلة بل تأول بلعام مجرد نهيقها بالمعنى الذي ذكر.

وكان بلعام عرافاً متعوداً التطير بأصوات الحيوانات والطيور. وذكر موسى ذلك تهكماً بالعرافة كأن الأثان نطقت به. وقال ميمونيد إن هذه المحاورة بين بلعام واثانه إلا اختلاق ومجاز نبأنا موسى به ما قام في مخيلة بلعام على سبيل التاريخ وهو تصوري فقط. وقال بعضهم في وجه كلام بلعام مع اثانه كأنها ناطقة إنه كان يعتقد التناسخ أي تقمص النفس من بدن إلى بدن آخر، إنسانيا كان أو غير إنساني فحسب اثانه متقمصة بنفس إنسان ما؛ (ملخص عن معجم الكتاب لكلمت في كلمة بلعام).

عد ٢٠٨

اغواء بنات مواب ومدين لبني إسرائيل والإنتقام من المدينيين

دعا المواَبيون والمدينيون بني إسرائيل إلى أعياد بعل فغور معبودهم. وأرسلوا بناتهم عملا بمشورة بلعام يغرين بني إسرائيل بالفحشاء، والسجود لآلهتهم فعلق في قلوب كثيرين من الشعب حب الموآبيات والمدينيات، وسجد بعضهم لبعل فغور. فاشتد غضب الرب عليهم، فقال موسى لقضاة إسرائيل أقتلوا كل واحد من تعلق من قومه ببعل فغور. والأوجه في تأول هذا اللفظ بعل الفجور أي سيده أو إلهه. وبين كان الشعب يبكي عند باب خباء المحضر، فإذا زمري بن سالوا أحد روساء سبط شمعون مر أمام موسى والشعب تصحبه كزبي بنت صور أحد روساء مدين. وأدخلها خباءه فتتبعهما فنحاس بن اليعازر بن هرون، ورمحه بيده فطعنهما كليهما الرجل والمرأة في بطنها، فكفت الضربة عن بني إسرائيل إذ ردت غيرة فنحاس سخط الرب عنهم، وقال الرب لموسى إنه معط فنحاس عهد سلامة وإنه يكون له ولنسله من بعده عهد كهنوت أبدي جزاء غيرته لأهله، وتكفيره عن بني إسرائيل. وكان عدد من قتلهم القضاة بحسب أمر الرب لموسى أو أفناهم الوباء الذي عبر عنه الكتاب بالضربة أربعة وعشرين ألفا، وأمر الرب موسى أن يضايقوا المدينيين ويضربوهم لأنهم ضايقوا بني إسرائيل بما تسببوا لهم به من الشر وضربة الرب لهم (سفر العدد ف ٢٥).

وأنبأنا الكتاب (فصل ٣١ من سفر العدد) أن موسى جرد إثني عشر ألف مقاتل من كل سبط ألفا، فسيّرهم ومعهم فنحاس بن أليعازر الكاهن، يغزون إلى

مدين. وكانت في يد فنحاس أمتعة القدس (يرجّح أن المراد بها تابوت العهد) وأبواق الهتاف. فقاتلوا المدينيين ونصرهم الرب عليهم، فقتلوا منهم كثيرين وملوكهم أي ولاتهم الخمسة . وسماهم الكتاب أوي ورقم وصور وحور ورابع وكان بلعام هناك فقتلوه بالسيف، وسبوا نساء مدين وأطفالهم. وغنموا بهائمهم ومواشيهم واثاثهم وأحرقوا مساكنهم، وقصورهم وعادوا إلى موسى في صحراء مواب، ولم يفقد أحد منهم، فسخط موسى على وكلاء الجيش وقال: هل استبقيتم الإناث كلهن؟ إن هؤلاء هن اللّائي حملن بني إسرائيل بمؤامرة بلعام على أن يتمردوا على الرب فحلت الضربة في جماعة إسرائيل، فاقتلوا كل ذكر وكل امرأة وأما اناث الأطفال اللّائي لم يبلغنَ سن الزواج فاستبقوهنَّ لكم. ففعلوا بحسب أمره ولو كان ذلك بغير أمر الرب لعيب موسى بشدة القسوة. ولم يمتلك فنحاس ورجاله بلاد مدين لأنها أرض عبرانيين من ذرية ابراهيم، وموعدهم أرض الكنعانيين. واجتزأ أن ينكّل بأهلها ويدمر بلادهم جزاءً لما جنت أيديهم وما عثت نساؤهم.

وقد فصل موسى ما غنمه المحاربون من المدينيين فكان من الغنم ست مئة ألف وخمسة وسبعين ألفاً، ومن البقر إثنين وسبعين ألفاً، ومن الحمير واحداً وستين ألفاً. ومن البنات اللّائي لم يبلغن مبلغ النساء إثنين وثلاثين ألفاً، ويظهر من هذا أن المدينيين كانوا أغنياء كثيراً بالماشية، لاسيما الغنم وبالاثاث والحلي كما يتحصل مما سيأتي. وقد تذرع بهذا جاحدو الوحي فكذبوا بصحته، وعدُّوه من المبالغات البعيدة عن الصدق وهو لا منافاة فيه لحال بلادٍ عمَّ خصبها وانفسحت أرجاؤها، وتوفرت مراعيها. فلو حسبنا في بلاد مدين كلها ست مئة وخمسة وسبعين مالك غنم، وجعلنا لكل منهم ألف رأس منها لوجدنا العدد الذي عينه الكتاب. وهذا الحساب معقول لاسيما في بلاد انصرفت عناية أهلها إلى تربية المواشي، وكان بها مورد ثروتهم. وكذا قل في البقر فلو جعلنا في كل البلاد ستة وثلاثين ألف ذراع لكان لهم الإثنان والسبعون ألفاً من الفدن عدا البقر التي لا تحرث. ولأمر ظاهر في عدد الحمير أيضاً فقد طاش إذاً هذا السهم للمنددين كسائر مهامهم.

وقد قسم موسى الغنيمة من الناس والبهائم نصفين، نصفاً للغزاة المحاربين وهم الإثنا عشر ألفاً، ونصفاً لجماعة إسرائيل. وأخذ من نصيب المحاربين رأساً واحداً من كل خمس مئة رأس من الناس، والغنم والبقر والحمير وضيعة للرب، دفعها إلى إليعازر الكاهن، فأصابه من الغنم ست مئة وخمسة وسبعون رأساً، ومن البقر إثنين

وسبعين رأساً، ومن الحمير واحد وستون رأساً، ومن الناس إثنين وثلاثون نفساً. وأخذ من نصيب الجماعة واحداً من خمسين من الناس، والبقر والحمير والغنم وسائر البهائم. ودفع ذلك إلى اللاويين متولّي حراسة مسكن الرب وإذا راعيت نصف عدد البهائم والإناث المذكورة آنفاً، وفرضت منه اثنين من المئة واحداً واحداً من الخمسين للاويين علمت كم أصابهم من هذه الغنائم. وإنّما أمر الرب موسى أن يأخذ من نصيب المحاربين واحداً من كل خمس مئة، ومن نصيب الجماعة واحداً من خمسين لأن المحاربين كافحوا معرضين نفوسهم لخطر القتل، وأمّا سائر الجماعة فنالوا غنيمة باردة. واعتبر نوع هذه القسمة بعد ذلك سنّة في إسرائيل. ثم تقدم روساء الألوف وروساء المئين إلى موسى، وقدّموا قرباناً للرب ما وجدوه من أدوات الذهب من حجل وسوار وخاتم وقرط وقلادة تكفيراً عن نفوسهم. فكان جملة ذهب التقدمة ستة عشر ألفاً وسبع مئة وخمسين مثقالاً، ولو كانت ذهباً مسكوكاً لعادلت أحد عشر ألفاً من الليرات الإفرنسية، ولا مبالغة في هذا القدر بالنظر إلى بلاد غنية توفرت فيها الثروات ولو ضوعف أضعافاً. وأدخل موسى إليعازر الكاهن الذهب إلى خباء المحضر ذكراً لبني إسرائيل أمام الرب.

عد ٢٠٩

تمليك موسى سبطي رآوبين وجاد ونصف سبط منسا الأرض التي في شرقي الأردن

جاء في الكتاب (سفر العدد فصل٣٣) إنّه كان لبني رآوبين وجاد مواشٍ كثيرة جدًّا. ونظروا الأرض التي ملكها بنو إسرائيل في عبر الأرض الشرقي من سيحون ملك الآموريين، وعوج ملك باشان صالحة للماشية. فتقدّموا إلى موسى واليعازر الكاهن، ورؤساء الجماعة يسألون أن يعطوا هذه الأرض ميراثاً لهم. ولا يجوزون الأردن فقال لهم موسى: أيخرج إخوتكم إلى الحرب وتقعدوا انتم ههنا؟ إنَّ هذا يفضي إلى قلق الشعب ووهنٍ في قوته، وذكّرهم بما صنع آباؤهم في البرية مما أسخط الرب عليهم، فقالوا: إنّنا نبني حظائر لمواشينا هنا وبيوتاً لأطفالنا، ونحن نتجرد مسرعين أمام بني إسرائيل حتى ندخلهم مكانهم، ولا نرجع إلى بيوتنا حتى يستحوذ كل من إخواننا على ميراثه، ونحن لا نرث معهم شيئاً من عبر الأردن إلى

هناك. فحسن كلامهم في عيني موسى والجماعة. فأعطى موسى بني جاد وبني رآوبين ونصف سبط منسا بن يوسف مملكة سيحون ملك الآموريين ومملكة عوج ملك باشان، فبنى بنو جاد ديبون وهي ديبان الآن في شمالي نهر المعجب. ونحو الجنوب من جبل عطروش وعطاروت. ويرجح إنَّها كانت عند الجبل المسمى الآن عطروس الآنف ذكره. وعراعير المسماة الآن عراعر في جنوبي ديبان وشمالي الكرك وعطروت شوفان ولا يعرف موقعها، ويعزير ويرجَّح أنَّها كانت في محل بيت زرعة الآن، وجعل اوسابيوس والقديس ايرونيموس موقعها على بعد عشرة أميال من عمان نحو الغرب وخمسة عشر ميلاً من حسبان نحو الجنوب.

وبنوا أيضاً يجبيهة وتعرف الآن بخربة الجبيهة، بين السلط شمالاً وعمان جنوباً. ثم بيت نمره، المعروفة الآن بتل نمرين وبيت هاوان، وتسمى اليوم تل رامه في جانب كفرين في شرقي أريحا، وبنى بنو رآوبين حشبون وهي حسبان الآن في الشمال الشرقي من جبل نبو والعالا أو العالة، وتسمى اليوم العال، وهي في الشرق الشمالي من حسبان قريبة منها ثم قريتائيم. ويرجحّ أنَّها المسماة الآن القُرية بين ديبان جنوباً وميدبا شمالاً ونبو. ويظهر أنَّه كان موقعها في سفح جبل نبو وبعل معون، وتسمى اليوم تل معين، أو معين في الغرب الجنوبي من ميدبا وفي الجنوب من جبل نبو وسبمه أو سبام. ويحتمل أن موقعها كان في محل سوميا الآن في غربي حسبان وشمالي جبل بنو[١].

ومضى بنو ماكير بن منسا بن يوسف ففتحوا جلعاد وهي السلط، وطردوا الآموريين منها، فأعطاهم موسى إيَّاها فأقاموا فيها. ومضى يائير من سبط منسا أيضاً واستولى على مزارعها، وسماها حُوُّوت يائير أي ما أحياه يائير. ومضى نويح وفتح قنات وتوابعها، وسماها نويح باسمه ولا يعرف موقعها إلى اليوم، ولكن في شرقي الأردُن موضع يسمى وادي قانه، فربما كانت هناك وعليه فكان مقام بني رآوبين في جنوبي تلك الأرض، ومقام بني جاد في شماليها، ونصف سبط منسا في أرض باشان أو باسان.

وأمر موسى أن يعطى اللاويون ثماني وأربعين مدينة في انصبة أسباط إسرائيل

(١) أخذنا اسماء هذه المدن القديمة عن الكتاب واسماءها الآن عن كتاب أعلام الأماكن الكتابية الآنف ذكره.

في عبر الأردن، وأرض الكنعانيين مع محاجرها لماشيتهم. وأن تكون ست مدن منها مدن ملجأ، يلجأ إليها من قتل نفساً غير متعمد وأن تكون ثلاث من مدن الملجأ هذه في عبر الأردن، وثلاث في أرض كنعان. وقال (تثنية ف ١٩ ع ٩): إذا وسَّع الرب تخومكم، فزيدوا ثلاثاً على هذا الثلاث. وعين مدن الملجأ الثلاث في عبر الأردن. وهي باصر في البرية في أرض السهل للراوبيين. وراموت في جلعاد للجاديين. وجولان في باشان للمنسيين». (تثنية ف ٤ ع ٤٣). أمَّا باصر فيرجَّح أنَّها بصر الحريري من قرى اللجاة الجنوبية، تبعد خمسة أميال عن اذرعات وأما راموت جلعاد فموقعها في بلاد السلط، وربما كانت في المحل المسمى الآن ريمون. وأمَّا جولان فكان موقعها في سهل الجولان بل سمي باسمها. وقال اوسابيوس إنَّها كانت في أيامه مدينة مهمة ولم يعين موقعها.

وتقدمت بنات صلفحاد من عشائر منسا إلى موسى واليعازر الكاهن، ورؤساء الجماعة قائلات: إنَّ أبانا مات في البرية ولم يكن من جملة القوم الذين اجتمعوا على الرب مع قورح، ولم يكن له بنون فلماذا يسقط اسم أبينا من بين عشيرته؟ فاعطنا ميراثاً بين أعمامنا، فرفع موسى أمرهنَّ إلى الرب فقال له إنَّهنَّ نطقن بالصواب، فانقل ميراث أبيهنَّ إليهنَّ. وأعلم الرب موسى حينئذٍ كيف يقسم الميراث في بني إسرائيل إذ قال: «أي رجل مات وليس له ابن، فانقلوا ميراثه إلى ابنته فإن لم تكن له بنت فاعطوا ميراثه لاخوته، فإن لم يكن له إخوة فاعطوه لأعمامه، فإن لم يكن له أعمام فاعطوه لأدنى ذوي قرابته في عشيرته». (عدد فصل ٢٧) ورد بنو منسا سؤال بنات صلفحاد بأنهنَّ سيصرنَ نساءً لأحد رجال أسباط بني إسرائيل، فيسقط ميراثهنَّ من ميراث بني منسا، ويزاد على ميراث السبط الذي يتزوجن منه. فأمر موسى عن أمر الرب أن بنات صلفحاد يتزوجنَ بمن يحسن لديهنَّ لكن يجب أن يكون من عشيرة أبيهنَّ حتى لا يتحول الميراث من سبطٍ إلى آخر فتزوجن ببني أعمامهنَّ (عدد ف ٣٦).

عد ٢١٠

إحصاء موسى بني إسرائيل وتسليمه قيادتهم إلى يشوع بن نون وموته.

قد أمر الرب موسى أن يحصي بني إسرائيل الإحصاء الثالث، إذ كان الأول

عند خروجهم من مصر. والثاني في برية سيناء فكان عدد الرجال من ابن عشرين سنة فصاعداً ست مئة ألف ومئة وثلاثة وسبعين رجلاً. ولم يكن باقياً ممن عُدّوا في برية سيناء الاكالب بن يوفنا. ويشوع بن نون ذاك بحسب قول الرب إنَّهم يموتون في البرية إلّا هذين الرجلين، ومع هذا لم ينقص عدد الشعب عما كان عليه لدن خروجه من مصر. وقد أحصي اللاويون وحدهم فكان عددهم من ابن شهر فصاعداً ثلاثة وعشرون ألفاً (عدد فصل ٢٦).

قد أنبأنا موسى (تثنية ف ٣ ع ٢٥) أنَّه سأل الرب قائلاً: «دعني أجوز فأرى الأرض الصالحة التي في عبر الأردن هذا الجبل الحسن ولبنان». فقال له الرب: «حسبك لا تزد في الكلام معي في هذا الشأن، لكن إصعد إلى قمة الفسجة وارفع طرفك غرباً وشمالاً وجنوباً وشرقاً، وانظر بعينيك لأنك لا تجوز هذا الأردن. ومر يشوع وشدده وشجعه فإنَّه هو يعبر أمام هؤلاء الشعب، ويورثهم الأرض التي تراها». والفسجة قمة في جبل نبو تسمى الآن راس السياغة (على ما في كتاب أعلام الأماكن الآنف الذكر). ومن وقف عليها رأى قسماً كبيراً من أرض فلسطين. ومن وقف على شاطىء البحر الميت غرباً غير بعيد عن مصب الأردن، رأى حسناً جبل نبو. وهذه القمة تجاهه نحو الشمال، فمن هناك نظر موسى أرض الموعد. ثم سلَّم قيادة الشعب إلى يشوع بن نون، وأمره أن يستشير دائماً رئيس الأحبار، وأن يقسم معه أرض الموعد في عبر الأردن على بني إسرائيل بالقرعة. وخطب في بني إسرائيل خطباً عديدة ذكرهم بها بأخص مواد السنَّة مغيراً أو مزيداً عليها أشياء إقتضاها الزمان، وحض الشعب على اتقاء الرب والعمل بسننه مبيناً لهم حسن الثواب إن عملوا بها وشرَّ العقاب إن خالفوها. ودفع كتب الشريعة إلى الكهنة آمراً أن يتلوها على مسامع الشعب مرة في كل سبع سنين في عيد المظال. ثم ترنَّم أمام جماعة بني إسرائيل بالنشيد المثبت في الفصل ٣٢ من سفر التثنية مستهلاً بقوله: «انصتي أيَّتها السماوات فأتكلم ولتستمع الأرض لأقوال فيَّ». وهذا النشيد يلزم كل عبراني مدى الدهر أن يستظهره حافظاً إياه بلا كتاب. ثم بارك بني إسرائيل بركات نبوية ذكرت في الفصل ٣٣ من ذاك السفر. وصعد إلى جبل نبو ومات على هذا الجبل وعمره مئة وعشرون سنة، ولم يكل بصره ولم تذهب نضرته، ودفنه الرب في الوادي في أرض مواب تجاه بيت فغور التي يرجَّح أنَّها المسماة المريجة الآن، ولم يعرف أحد قبره إلى يومنا هذا كما جاء في الفصل الأخير من سفر

التثنية الذي أضافه يشوع بن نون أو غيره من الكتبة الملهمين إلى هذا السفر. وقد أخفى الله قبر موسى لئلاً يعبده بنو إسرائيل تشبهاً بالمصريين، وقد كان بين بني إسرائيل قوم ممن كان عمرهم لدن الخروج أقل من عشرين سنة. وبكى بنو إسرائيل موسى ثلاثين يوماً.

عد ٢١١
الأسفار التي كتبها موسى

قد كتب موسى الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم وهي أسفار التكوين، والخروج، والأحبار، والعدد، وتثنية الإشتراع. فذكر في التكوين خلق الله السماء والأرض، وما فيها وإبداع الإنسان الأول والمرأة الأولى، ثم أنساب الآباء قبل الطوفان وبعده ومواطنهم. وتفرق أعقابهم في الآفاق بعد بلبلة ألسنتهم في بابل. ودوّن أخبار نوح وابراهيم، واسحق ويعقوب ويوسف إلى انحدار يعقوب بذريته إلى مصر ووفاته، ووفاة يوسف فيها. وذكر في سفر الخروج مولد موسى، وتبني ابنة فرعون له وهربه إلى مدين، وإرسال الرب له ليخرج شعبه من مصر. وعمل الله المعجزات على يده فيها وخروج بني إسرائيل منها، واجتيازهم في البحر الأحمر، وحلولهم في طور سيناء وتنزيل الله الشريعة عليه وأمره بعمل خباء المحضر. ويلي هذا السفر سفر الأحبار وقد فصّل موسى به بأمر الله ما يلزم الكهنة والأحبار عمله، وطرائق تقدمة الذبائح، والمحرقات، وتكملة الوصايا الشرعية والطقسية. ويليه سفر العدد وقد انطوى على تكملة تاريخ ارتحال بني إسرائيل من جبل سيناء إلى صحراء مواب، وتفصيل بعض مراحلهم التي كان موسى ذكرها قبلاً مجملة وعلى سنن أضافها إلى السنن التي ذكرت في سفري الخروج والأحبار. ويلي هذا السفر تثنية الاشتراع وقد وضعه موسى بمنزلة مذكرة للأحداث التي جرت لهم، وللسنن التي فرضها بأمر الله مكرراً ذكر ما ورد في أسفار الخروج والأحبار والعدد، وزائداً أو منقحاً بعض المواد لاقتضاء تقلب الحال زيادة أو تنقيحاً.

وقد أيدنا في ما مرَّ من كلامنا إلى الآن صحة كثير من أي هذه الأسفار بالآثار القديمة، والإكتشافات الحديثة المصرية والآشورية والبابلية والسورية، كما رأيت وما برحت هذه الإكتشافات تزيد المنددين افحاماً، والجاحدين بكماً والمؤمنين تمكناً وتشبثاً بعرى الدين الكاثوليكي المقدس.

وقد رأينا أن نلخّص هنا عن الموجز الكتابي للأب فيكورو (مجلد ١ عد ٢٣٩ وما يليه) أخص الحجج المثبتة أنَّ موسى كتب أسفار التوراة الخمسة هذه وأنَّه صادق بما كتب. إنَّ مصادر هذه الحجج أربعة الكتاب المقدس نفسه، والتوراة السامرية، والآثار المصرية، واللغة المكتوبة بها أسفار التوراة، ففي الحجة الأُولى نقول: قد أجمع اليهود والنصارى على أنَّ موسى كتب أسفار التوراة الخمسة، وأنَّه لم يكتب إلّا ما كان حقيقياً وصادقاً. واس هذا الإجماع آيات بيّنات في أسفار التوراة نفسها، وفي سائر الأسفار المنزلة، فقد جاء في سفر الخروج (ف ١٧ ع ١٤) أنَّ الرب أمر موسى أن يكتب في الكتاب تاريخ محاربة بني إسرائيل للعمالقة، وقال الرب لموسى: « أكتب هذا ذكراً في الكتاب». بالتعريف كما في النص العبراني لا في كتاب بالتنكير. وهذا دال صريح الدلالة على أنَّه كان لموسى كتاب يدون به تاريخ ما يحدث لبني إسرائيل. وجاء في هذا السفر (ف ٢٤ ع ٤): «وكتب موسى جميع كلام الرب» . وقال بعد ذلك (ع٧): «وأخذ كتاب العهد وتلا على مسامع الشعب»، وعليه فلم يكتب موسى السنَّة وحدها بل الأحداث التاريخيَّة أيضاً.

وقد صرَّح موسى بذلك أكثر تصريح بما كتبه في سفر تثنية الإشتراع (فصل ٣١ عد ٩ وما يليه). «وكتب موسى هذه التوراة، ودفعها إلى الكهنة بني لاوي... وسائر شيوخ إسرائيل، وأمرهم موسى قائلاً في نهاية السبع السنين... حينما يأتي جميع بني إسرائيل ليمتثلوا لدى الرب... تنادي عليهم بهذه التوراة على مسمع من جميع إسرائيل. إجمع الشعب الرجال والنساء والأطفال، والغريب الذي في مدنك لكي يسمعوا ويتعلموا، ويتّقوا الرب إلهكم. ويتحرّوا العمل بجميع كلام هذه التوراة» ومن ذلك قوله بعيد هذا (عد ٢٤): «ولما فرغ موسى من رقم كلام هذه التوراة في سفر بتمامها أمر موسى اللاويين... إن خذوا هذه التوراة واجعلوه إلى جانب تابوت عهد الرب إلهكم فيكون ثم عليكم شاهداً». وقد مرَّ أن الفصل الأخير من سفرِ التثنية المنبئ بموت موسى، قد علقه يشوع بن نون أو كاتب غيره بمنزلة ذيل على هذا السفر.

ثم إنَّ سائر أسفار الكتاب التي كتبت بعد التوراة تثبت صحتها، وحقيقة نسبتها إلى موسى فسفر يشوع بن نون مفعم بالايعاز إلى أسفار التوراة حتى قال بعض المنددين إنَّها وسفر يشوع من قلم كاتب واحد، ونقتصر من ذلك على

ذكر أقواله: «تشدد وتشجع جداً لتحفظ جميع الشريعة التي أمرك بها موسى عبدي... لا يبرح سفر هذه التوراة من فيك بل تأمل فيه نهاراً وليلاً». (يشوع ف ١ ع ٧ و ٨)، «كما أمر موسى عبد الرب بني إسرائيل على ما هو مكتوب في سفر توراة موسى» (يشوع ف ٨ ع ٣١): «فتشددوا جدًّا لتحفظوا جميع المكتوب في توراة موسى وتعملوا به ولا تعدلوا عنه يمنة ولا يسرة (يشوع فصل ٢٣ عد ٦). وسفر القضاة مفعم أيضاً بالإشارات إلى أسفار التوارة، ونراها في سفرّي الملوك الأول، والثاني قاعدة وسنّة لبني إسرائيل من أيام غالي إلى ممات داود. وقد كثر في جميع الأسفار الباقية اخبارية أو نبوية أو حكمية ذكر موسى، وما عمله الله على يده من المعجزات وما نزله عليه من السنن كما ذكره موسى في أسفار التوراة. وليست الفصول الأولى من سفر أخبار الأيام إلّا خلاصة ما كتبه موسى في الأنساب والمواليد، وقلّما تجد صفحة في الزبور لا تحوي إشارة ما كتبه موسى. وقد تواتر ذكر المخلص ورسله آيات من أسفار العهد الجديد، ويضيق المقام عن استقراء جميع الآيات المثبتة ما نحن مثبتون، وعليه فأسفار الكتاب كلها تثبت أن موسى كتب أسفار التوراة الخمس وإن صدقها مجمع عليه في أسفار العهدين القديم والجديد.

الحجة الثانية من التوراة السامرية أنَّ للسامريين توراة باللغة العبرانية، ولكنها مكتوبة بالحروف القديمة على الهيئة الفينيقية. وهي غير الترجمة السامرية أو الآرامية التي كانت أيديهم تتداولها قديماً، وغير الترجمة العربية التي في أيديهم الآن. وتلك التوراة السامرية القديمة تطابق جوهراً توراتنا ولا تخالفها إلّا بأمور عرضية أو بتعيين بعض السنين. وقد اطّلع عليها الآباء القدماء، واستشهدوا بها ونخصّ بالذكر منهم أوريجانوس (في سفر العدد فصل ١٣ عد ١) وإيرونيموس (في مقدمة سفر الملوك الأولى). إلّا أنّها تورّت عنّا بظلمات الجهل إلى بدء القرن الثاني عشر. وقد عثر بطرس دلّا فالّي على نسخة منها في دمشق سنة ١٦١٦م، وهي التي طبعت في الجامعتين (بوليكلوت أي الكتاب المقدس بعدَّة لغات مجموعة معاً) الباريسية، واللندنية سنة ١٦٤٥م وسنة ١٦٥٧م. ولا يعلم حق العلم متى تلقى السامريون التوراة لكن الأرجح والظاهر من سفر الملوك الرابع (فصل ١٧ عد ٢٥ وما يليه)، أنّهم تلقّوها من الكاهن الإسرائيلي الذي بعثه إليهم ملك آشور، عندما أرسل الرب عليهم أسوداً تقتل منهم في مبدأ إقامتهم في السامرة في مكان بني إسرائيل المبين

إلى آشور. «وأقام الكاهن بيت أيل وأخذ يعلمهم كيف يتّقون الرب»، ولم يستطع الجاحدون إلى الآن إقامة حجة ثابتة توجب التسليم لهم بتلقي السامريين التوراة في غير الوقت المشار إليه، أعني بعيد خراب السامرة وجلاء بني إسرائيل إلى بلاد آشور، وإقامة السامريين مكانهم، وقد كان ذلك لسنة ٧٢١ ق.م. فإذاً وجود التوراة عند السامريين أعداء اليهود مطابقة لتوراتنا بينة قاطعة على عراقة أسفار موسى الخمسة في القدم، ولا أقل من أن تثبت هذه البينة أن هذه الأسفار أقدم من العصر الذي تمحله لها كثير من الجاحدين والمنددين.

الحجة الثالثة تؤخذ من الآثار المصرية، وقد رأيت عند الكلام في أخبار يوسف وإقامة بني إسرائيل في مصر، وخروجهم منها الطباق الكائن بين كلام موسى في آيات عديدة وما جاء في الآثار المصرية مصداقاً لكلامه، ودلَّ ذلك صريح الدلالة على أنَّ كتاب سفرَي التكوين والخروج كان له العلم التام بأحوال مصر لاسيما أحوالها على ما كانت عليه في أيام رعمسيس الثاني، ومن سلفه فما جاء في الكتاب عن حالة البلاد، ومدنها ولاسيما التي على تخومها وتألف جنودها إنَّما هو دال حقيقة على عصر رعمسيس، لا على عصر الفراعنة الذين كانوا في أيام سليمان وخلفائه.

فإن كانت التوراة دوِّنت في آخر مدَّة ملوك يهوذا كما زعم الجاحدون فلِمَ كانت منبئة إنباء مدققاً بحال مصر القديمة؟ ولم تنبئ بحالها على عهد أولئك الملوك؟ ولِمَ كانت رواية التوراة أخبار حالة مصر مختلفة عن رواية الانبياء لها؟ ولِمَ كانت الروايتان كلتاهما تطابقان حالة البلاد في العصرين كما شهدت أثارها صريح الشهادة؟ وكيف مثلت لنا التوراة مصر بهيئة مملكة واحدة؟ ولم تشر إلى تقسم هذه المملكة إلى أمريات صغيرة، كما صرَّح بذلك أشعيا إذ قال (فصل ١٩ عد ٢) «وأسلِّح مصر على مصر، فيقاتل الإنسان أخاه، والرجل صديقه، مدينةٌ مدينةً، ومملكةٌ مملكةً». ولماذا نرى الأعلام المذكورة في التوراة تطابق ما كشفت عنه الآثار المصرية على عهد رعمسيس ومن سلفه؟ ولا نرى فيها مثالاً واحداً للأعلام السامية التي اعتادت وضعها الدول المصرية المعاصرة لسليمان. فلماذا نجد في التوراة أسماء صوعن ورعمسيس، وصوعر ولا نجد أسماء مجدل وتحفنيس وغيرهما مما ذكره الانبياء. ثم إنَّ لنا في علاقات مصر مع البلاد الأجنبية دليلاً آخر على ما نحن مثبتون مثلاً إنَّ الحبشة تولَّت مصر قبل أيام حزقيا، وفي مدة ملكه ولا نجد ذكراً

لذلك في التوراة كما لم تذكر دولة الآشوريين الأولى التي نشأت في أيام انحطاط مملكة مصر، ولو كتبت التوراة في عهد ملوك يهوذا كما وهم الجاحدون لرأينا فيها ذكر هذه الأحداث المهمة لا ذكر أخبار رعمسيس وأسلافه. إنَّ بعض أهل العلم بالآثار المصرية قد عارضوا اخبار التوراة بما كشفت عنه الآثار المصرية، واضعين كلًّا منها بجانب الآخر فتيقَّنوا ما بينهما من المطابقة. ولا يمكن الجمع بينهما بهذه الدقة دون أن يكون كاتب التوراة مقيماً بمصر عند وقوع تلك الأحداث، ولا يمكن التقليد أن يحفظها على سلامتها التامة مدة قرون عديدة.

الحجة الرابعة تؤخذ من اللغة العبرانية المكتوبة بها التوراة، قد رأى الماهرون باللغة العبرانية أن في أسفار موسى كثيراً من الكلمات، وأساليب التعبير الدالة على قدم هذه الأسفار ومخالفتها من حيث ألفاظ اللغة، ونحوها للأسفار التي كتبت بعدها باللغة العبرانية. من ذلك استعمال هو ضمير المذكر الغائب بدلاً من هي ضمير المؤنثة الغائبة في مئة وخمس وتسعين آية من التوراة، ولم يرد الضمير هي بصيغة التأنيث إلَّا في إحدى عشرة آية، ويحتمل أن يكون النساخ المتأخرون أصلحوا ذلك في الإحدى عشرة آية، وقد استعملت كلمة نعر العبرانية المذكرة ومعناها الشاب في إحدى وعشرين آية بدلاً من نعرة المؤنثة بمعنى الشابة، ولم ترد الكلمة بصيغة التأنيث إلَّا في آية واحدة. ويحتمل أن يكون ناسخ متأخر أصلح في هذه الآية فعدم الفرق بين المذكر والمؤنث دليل قاطع على العراقة في القدم، وعلى أنَّ اللغة العبرانية لم تكن قد ضبطت في أيام كاتب تلك الأسفار، بالأصول النحوية التي ضبطت بها بعد ذلك إذ لا تجد أثراً لمثل ذلك في الأسفار العبرانية التي كتبت بعد موسى. وقد لاحظ الماهرون في اللغة العبرانية أيضاً ان في أسفار التوراة أصولاً خاصة بها لا توجد في الأسفار المتأخرة، منها أنَّه إذا اجتمع موصوفان ربط الأول مع الثاني بحرف اليود (الياء) وهو اصطلاح قديم لا تجد له أثراً إلَّا نادراً في اللغة العبرانية بعد موسى. وكذا تجد في أسفار موسى فعل الأمر منتهياً بحرف النون، ولا مثيل لذلك في الأسفار المتأخرة، وللمصدر في أسفار موسى صيغة غير صيغته في غيرها . وذكروا ألفاظاً وعبارات كثيرة في أسفار موسى لا وجود لها في غيرها، وقالوا ليس في أسفار موسى كلمات أجنبية إلَّا الكلمات المصرية. وقد أطال واجاد الأب فيكورو بإثبات هذه الحقيقة في كتابه الآخر الموسوم بالأسفار المقدسة، وانتقاد العقليين لها (مجلد ٣٠ من صفحة ٩ إلى صفحة ٢١٣).

وقد نسب كثير من القدماء والحدثاء كتابة سفر أيوب الصديق إلى موسى ومنهم القديس أفرام السرياني، إذ قال في مقدمة كلامه على هذا السفر ܟܬܒܐ. ܕܐܝܘܒ ܡܘܫܐ ܟܬܒܗ أي أنَّ موسى كتب كتاب أيوب ولكن قال غيرهم: إنَّ أيوب نفسه كتب سفره بالسريانية أو العربية، فترجمه موسى إلى العبرانية. وعزاه بعضهم إلى أصدقاء أيوب أو أحدهم، وغيرهم إلى سليمان وأصله شعر فصيح العبارة، بليغ الإشارة، ولكن ناظمه لم يقيد نفسه بوزنٍ ولا قافية، وهذا دالٌّ على قدمه، والأظهر أن أيوب كان في زمان موسى، وأقام بأرض عوص المنسوبة إلى عوص بن آرام بن سام والأرجح أنَّها اللجاة وحوران.

الفصل التاسع

يشوع بن نون وأخبار بني إسرائيل في أيامه

عد ٢١٢

يشوع بن نون والسفر المنسوب إليه ومجمل أعماله

إنَّ يشوع بن نون هو من سبط افرائيم بن يوسف، وكان خادماً أميناً لموسى بل مؤازراً له، وعهد إليه موسى بقيادة بني إسرائيل بعد وفاته. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٥ ف ١) أنَّه كان له من العمر خمس وثمانون سنة حين تولى قيادة بني إسرائيل، وعليه فكان عمره خمساً وأربعين سنة عند خروجهم من مصر. ولم يبقَ ممن خرجوا منها، وعمرهم فوق العشرين سنة إلَّا يشوع هذا، وكالب بن يوفنا كما مرّ. إنَّ كل ما سنورده في هذا الفصل من أخبار بني إسرائيل مسنده السفر المنسوب إليه، وتلك النسبة وإن لم تكن يقينية فتؤيدها أدلة راهنة عديدة منها أنَّ تقليد اليهود المصرح به في كتاب التلمود، يعزو هذا السفر إلى يشوع. وقد

تابعهم على ذلك كثير من المحققين والمدققين. ومنها أنّه جاء في هذا السفر (فصل ٢٤ عد ٢٦): «وكتب يشوع هذا الكلام في سفر توراة الله» أي كتب هذا السفر وألحقه بأسفار موسى.

ويستغرب أن يكون يشوع غفل عن أن يدوّن الأحداث المهمة التي أجراها الله على يده. وتقاعد عن إتمام فرض تستلزمه رسالته. وتستثنى من ذلك الآيات الأخيرة من هذا السفر المنبئة بموت يشوع، واليعازر الحبر، فإنّها من قلم كاتب آخر قديم. ان لنا بيّنات قاطعة على قدم سفر يشوع منها أنْ لا ذكر فيه لبيت لحم موطن داود بين مدن يهوذا، وذاك دليل قاطع بأنّ هذا السفر كتب قبل أيام داود، وإلّا لما أهمل الكاتب ذكرها. ومنها أنّه جاء فيه (فصل ١٥ عد ٦٣): «أمّا اليبوسيون سكان اورشليم فلم يقدر بنو يهوذا على طردهم، فاقام اليبوسيون مع بني إسرائيل في أورشليم إلى اليوم». وعليه فكاتب هذا السفر كان قبل السنة الثامنة من ملك داود التي فيها تولى داود صهيون، أي أورشليم (كما في ملوك ٢ فصل ٥ عد ٥٧). ومنها أنّ هذا السفر وصف صيدون بالكبيرة (فصل ١١ عد ٨)، مع أنّ صيدون أخربها الفلسطينيون في زمان القضاة سنة ١٢٠٩ ق.م، وأخذت صور سؤددها، فإذاً كان الكتاب قبل أيام ملوك إسرائيل.

قد أعدّت عناية الله يشوع لأمرين كبيرين إفتتاح بلاد فلسطين، وقسمتها على أسباط بني أسرائيل. فأتمّ أوّلهما بما قيّض الله له من النصر، والفوز في مواقع عديدة فتيسّر له ثانيهما. وكانت بلاد فلسطين يومئذٍ منقسمة إلى ممالك عديدة لكن هذه الممالك لم تكن إلّا أعمالًا أو أقطاعاً مستقلًا أحدها عن الآخر، ويلي كلًّا منها حاكم يسمونه ملكاً يتأمّر على عشيرته، وهذه العشائر هي التي سماها الكتاب الحثيين واليبوسيين والآموريين الخ. وقد جاءت الآثار المصرية مصداقاً لما ورد في الكتاب، فقد كشف العالم مريات عن وجه مساكن في أخربة هيكل الكرنك على مقربة من تاب (طيبة) القديمة، دوّن عليه تحوتمس الثالث أحد ملوك الدولة الثامنة عشرة أكثر من ست مئة اسم موضع، استحوذ عليها وبين هذه الأسماء مئة وتسعة عشر علماً لعشائر ومواضع في فلسطين، وهي منقسمة إلى ست دوائر كأنها ست إمارات. ويمكن أن تقرأ أسماؤها كما يأتي يابوسي (اليبوسيون)، آموري (الآموريون)، كركاسي (الجرجسيون)، حيوى (الحوويون)، عرقي (العرقيون او الحثيون)، سيني (السينيون أو الفرزيون)، وقد

رقمت هذه الخطوط في مدة إقامة بني إسرائيل في مصر قبل خروجهم منها. ٠

عد ٢١٣

عبور يشوع الأردن ببني إسرائيل واختتانهم

قد أنبأنا الكتاب (يشوع ف ١) أنَّ الرب أمر يشوع بن نون بعد وفاة موسى أن يتشدَّد ويتشجَّع، وأن يقوم فيعبر الأردن هو وجميع الشعب إلى الأرض التي الرب معطيها لبني إسرائيل من البرية ولبنان إلى نهر الفرات. جميع أرض الحثيين (طالع عد ٥٦) وافتتح يشوع أعمال قيادته بأن أرسل من شطيم حيث كانت محلتهم جاسوسين لينظرا أرض عبر الأردن وأريحا. فدخلا بيت امرأة بغيّ اسمها راحاب، وعرف ملك اريحا بقدومهما، وأرسل جنداً للقبض عليهما فأخفتهما راحاب وقالت إنَّهما خرجا ولا تدري أين ذهبا، وأنبأت الرجلين بفرط الخوف المستحوذ على قلوب الكنعانيين من مهاجمة بني إسرائيل لهم. وسألتهما أن يرأف بنو أسرائيل بها وبأهلها متى تولّوا أريحا. فواعداها ودلَّتهما بحبل من الطاق لأنَّ بيتها كان في حائط السور، ووافقاها على علامة أن تعقد من خيوط القرمز في الطاق التي دلّتهما منه، فينجو كل من كان في بيتها أبوها وأمُّها وإخوتها، وجميع بيت أبيها وعادا إلى يشوع فحدثاه بجميع ما وقع لهما.

فبكر يشوع في الغداة ورحل من شطيم، وأقبل إلى الأردن هو وجميع بني إسرائيل. وباتوا هناك قبل أن يعبروا وكلَّم يشوع الكهنة قائلًا احملوا تابوت عهد الرب، واعبروا أمام الشعب فحملوه، وساروا أمامهم ولما انغمست أقدام الكهنة حاملي التابوت في حاشية المياه، والأردن طافح من جميع شطوطه كل أيام الحصاد ، وقف الماء المنحدر من فوق وقام نداً واحداً ممتداً جداً، وانقطع الماء المنحدر إلى بحر الغور (البحر الميت) تماماً. وعبر الشعب قبالة اريحا ووقف الكهنة على اليبس حتى فرغ الشعب كلّه من عبور الأردن، ودعا يشوع بأمر الرب أثني عشر رجلًا من كل سبط قائلًا إرفعوا من ههنا من وسط الأردن من موقف أرجل الكهنة إثني عشر حجراً، واعبروا بها وضعوها في المبيت الذي تبيتون به الليلة. فرفع كل من الإثني عشر حجراً على كتفه، ووضعوها في مبيتهم لتكون تذكرة لهم ان مياه الأردن انفلقت أمام تابوت عهد الرب عند عبورهم الأردن. ونصب يشوع إثني عشر حجراً في وسط الأردن في موقف أرجل الكهنة حاملي التابوت «وهي

هناك إلى يومنا هذا». ولمّا صعد الكهنة من وسط الأردن، رجعت مياه الأردن إلى موضعها وجرت كما كانت تجري قبلًا (يشوع فصل ١ إلى ٥).

لا مراء بأن انفلاق مياه الأردن معجزة خارقة نظام الطبيعة، كشق البحر الأحمر وغيره من الآيات التي ذكرها الكتاب، ولا ينكر إمكان صيرورة المعجزات إلّا من ينكر أنّ الله على كلّ شيء قدير، فيخرق نظام الطبيعة أو يغيّره كلّما شاء لأنّه بادع كل كائن سواه وربه، وسنن الطبيعة طوع يده. وقال أوسابيوس (في كتابه في المواضع العبرانية) إنّ الحجارة التي نصبت تذكرة لهذه الآية استمرّت قروناً في محلّها، وكان سكان تلك البلاد يدلون الغرباء عليها. وجاء في أخبار رحلة السائح الإفرنسي من بوردو الذي زار الأماكن المقدسة سنة ٣٣٣ للميلاد: «وبقي فوق ذلك الينبوع (وهو الذي حلّى اليشاع ماءه) اثر لبيت راحاب البغي الذي دخله الجاسوسان فأخفتهما، ولمّا سقطت أسوار أريحا استمرّ هذا البيت سالماً، فهناك كانت أريحا التي دار بنو إسرائيل بتابوت العهد حول أسوارها، فتهدّمت ولا يظهر من آثارها إلّا محل تابوت العهد والإثنا عشر حجراً التي رفعها بنو اسرائيل من الأردن». وجاء أيضاً في كتاب رحلة أنطونيوس الشهيد الذي كتب سنة ٥٧٠ أو سنة ٦٠٠ أنّ بيت راحاب بقيت آثاره، وأقيم معبد للعذراء في محل الغرفة التي أخفت الجاسوسين فيها. وأمّا الحجارة التي رفعها بنو إسرائيل من الأردن فهي باقية وراء المذبح في كنيسة كبيرة غير بعيدة عن المدينة.

وجاء في الكتاب (يشوع ف ٥) أنّ الرب قال ليشوع إصنع لك سكاكين من صوان، واختن بني إسرائيل لأن من خرجوا من مصر كانوا مختونين فيها وماتوا. وأمّا جميع الشعب الذين ولدوا في البرية، فلم يختتنوا لأنهم كانوا رحلًا لا مقر لهم في البرية مدة أربعين سنة، فاختتن جميع هولاء. واستعمال السكاكين من صوان مؤذن بقدم الختان، وقد مر في كلامنا في ابراهيم أن الله أمره أن يختن كل مولود من نسله. وأبنّا ثمة أنّ الختان كان عند المصريين قبل ابراهيم، فهو منذ العصر الحجري أي مذ كانت الآلات القاطعة تصنع من حجر قبل أن اعتادوا صنعها من حديد. وحوفظ على استعمال الآلات الحجرية رعاية وتذكرة للأصل. وقال بعضهم إنّ استعمال الصوان أسلم من استعمال الحديد لعدم تهيج محل القطع. وقد وجد الأب ريشار سكاكين من صوان سنة ١٧٧٠م في محلة بني إسرائيل، وسنأتي على تفصيل ذلك عند الكلام في مدفن يشوع. وقد صرّح الكتاب بأن محلتهم

هناك دعيت الجلجال إذ جاء في سفر يشوع (فصل ٥ عد ٩) «فقال الرب ليشوع: اليوم كشفت عار المصريين عنكم، فدُعِيَ ذلك الموضع الجلجال إلى هذا اليوم». ولذاك قال يوسيفوس: إنَّ معنى الجلجال الحرية لأن بني إسرائيل تحرروا ثمة من عبودية مصر ومشاق البرية. وقال العالم كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ١١٨) إنَّ الجلجال كانت في المحل المسمَّى الآن تل جلجول، واستشهد يوسيفوس الذي قال: إنَّ الجلجال كانت على بعد خمسين غلوة في غربي الأردن (عبارة عن مسير ساعة ونصف)، وعلى بعد عشر غلوات في شرقي أريحا (عبارة عن ١٨٥٠ متراً)، وحقق كاران بالمعاينة أنَّ هذا الموقع هو المسمَّى الآن تل جلجول. وتوجد مواضع أخرى تسمى الجلجال سيأتي ذكرها وهناك صنع بنو أسرائيل الفصح، وأكلوا من غلة الأرض بعد الفصح فطيراً وفريكاً، فانقطع المن منذ أكلوا من غلَّة الأرض.

عد ٢١٤

سقوط أسوار أريحا وإبسال بني إسرائيل جميع ما كان فيها

كانت أريحا بمنزلة مفتاح لبلاد فلسطين وأنبأنا الكتاب (يشوع فصل ٦) أنَّها كانت مغلقة مقفلة من وجه بني إسرائيل لم يكن أحد يخرج منها ولا أحد يدخلها. فأمر الرب يشوع أن يطوف رجال الحرب حول المدينة كل يوم مرة، وأن يحمل سبعة كهنة سبعة أبواق الهتاف أمام تابوت العهد، وأن يطوفوا في اليوم السابع سبع مرات حول المدينة وينفخ الكهنة في الأبواق. ففعلوا كذلك وفي اليوم السابع طافوا حول المدينة سبع مرات، وفي الأخيرة منها نفخ الكهنة في الأبواق، وهتف الشعب كلُّه هتافاً شديداً، فسقط السور المنيع مكانه، فصعد الشعب إلى المدينة كل واحد على وجهه. وأخذوا المدينة وأبسلوا كل ما فيها بحد السيف من رجل وامرأة، وطفل وشيخ حتى البقر والغنم والحمير. ولم يبقوا إلَّا على راحاب البغي التي آوت الجاسوسين، وأبيها وأمها وإخوتها وجميع ما هو لها، وأقام هولاء بين بني إسرائيل. وقتل يشوع ملك أريحا كما صرَّح الكتاب في الفصول الآتية كما سترى.

وأحرق رجال الحرب المدينة وجميع ما فيها بالنار إلَّا الذهب والفضة، وآنية النحاس والحديد، فإنَّهم جعلوها في خزانة بيت الرب. وقد أباحهم الله هذا القتل

والتدمير ليشتد رعبهم على سكان الأرض التي جعلها لهم ميراثاً، فيتيسر لهم إمتلاكها عنوة كما فعلوا. وقد أشار الكتاب إلى ذلك بقوله (يشوع فصل ٦ عد ٢٧): وكان الرب مع يشوع وذاع خبره في كل الأرض»، ففر كثير من الكنعانيين من وجه بأسه. وروى بروكوب أنّه وجد في بلاد المغرب عمودان من حجر أبيض، نقش عليهما باللغة الفينيقية ما معناه، «إنّما نحن هم الذين فروا من سطو يشوع بن نون». رواه بوجولا في تاريخ أورشليم (مجلد ١ فصل ٢) وقال: حاول بعضهم أن ينكر صحة رواية بروكوب لكنهم لم يقيموا على زعمهم حجةً إلّا مجرد الإنكار لها.

قد لعن يشوع أريحا قائلًا: «ملعون لدى الرب الرجل الذي ينهض ويبني هذه المدينة أريحا، ببكره يؤسسها، وبأصغر بنيه ينصب أبوابها». (يشوع فصل ٦ عد ٢٦)، وقد صدقت نبوته في حيئيل الذي من بيت ايل أريحا، فإنّه شاء تجديد بنائها في أيام أحاب ملك إسرائيل. ففجع بموت بكره المسمى أبيرام لدى تأسيسها، وبأصغر بنيه المدعو سجوب لدى إقامة أبوابها كما جاء نصاً في سفر الملوك الثالث (فصل ١٦ عد ٣٤)، ثم تهدم هذا البناء. ويظهر أن بعض بني إسرائيل جددوا بناء هذه المدينة بعد عودهم من الجلاء البابلي لا في محلها القديم بل على مقربة منه نحو الجنوب. وهذه المدينة الحديثة هي التي شرفتها أقدام المخلص مرات. إنَّ كلمة أريحا تحتمل أن تؤول بالقمر فإنَّ يرحا ܝܪܚܐ السريانية تأويلها القمر والشهر فكأن سكانها الأولين من الكنعانيين كانوا يعبدون القمر، وتحتمل أن تؤول بالرائحة فإن جناتها وورودها كانت شهيرة.

عد ٢١٥

محاربة بني إسرائيل أهل العي

إنَّ مدينة العي التي يسميها يوسيفوس عينا، وفي الترجمة العربية القديمة غاي، كان موقعها في الغربي الشمالي من أريحا. وجاء في كتاب أعلام الأماكن الكتابية المطبوع بنفقة اللجنة الإنكليزية للبحث في فلسطين، أنَّها كانت في المحل المسمى الآن تل عيان، في الشرقي الجنوبي من بيت اين التي هي بيت ايل القديمة أو في الجنوب الشرقي منها على مقربة من دير ديوان. وقال العالم كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٥٩) إنَّ موقع العي في محل خربة الكديرة الآن، وإنَّ روبينسون

على ما يُظن هو أول من اهتدى إلى ذلك، وإنَّها في الجنوب الشرقي من بيت اين (بيت ايل)، وإنَّه متابع لروبينسون على رأيه. فإلى هذه المدينة أرسل يشوع من أريحا قوماً يجسونها، فعادوا وقالوا ليشوع: لا تكلف كلَّ الشعب إلى هنالك، فإنَّ أهلها قلائل بل يصعد نحو ألفي رجل أو ثلاثة آلاف، فصعد نحو ثلاثة آلاف رجل فهزمهم رجال العي، وقتلوا منهم نحو ستة وثلاثين رجلاً فاذعر الشعب. ومزق يشوع ثيابه، وسقط على وجهه على الأرض قدام تابوت الرب هو وشيوخ إسرائيل يستعطفون الله على شعبه فقال ليشوع: قد أجرم إسرائيل بإخفائه ما حظر عليه أخذه من غنائم أريحا، ورمى القرعة بين الأسباط وعشائر كل سبط وبيوته ورجاله فأخذ عاكان بن كرمي من سبط يهوذا، فاستنطقه يشوع فقال: «رأيت في الغنيمة رداءً بابلياً حسناً، ومئتي مثقال فضة، وسبيكة من ذهب وزنها خمسون مثقالاً، فاشتهيتها وأخذتها، وها هي مدفونة في الأرض في وسط خبائي والفضة تحتها». فأرسل يشوع فأخذ ذلك من وسط الخباء، وطرحه أمام تابوت الرب وأخذ عاكان والفضة والرداء والسبيكة وبنيه وبناته وبقره وحميره، وخباءه وأتوا بهم وادي عكور وهو الآن وادي كلت (كتاب أعلام الأماكن الكتابية). فرجموه بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورضي الرب عنهم لاقتصاصهم من الجرم الذي أسخطه بمخالفة أمره وقد شاء الرب ذلك ليكون عبرة وتذكرة لهم (يشوع ف ٧).

ثم سيَّر يشوع ليلاً ثلاثين ألف رجل جبابرة بأس، ليكمنوا من وراء المدينة. وبكر غدوة وصعد هو وشيوخ إسرائيل أمام الشعب إلى العي، فخرج ملكها برجاله لقتالهم، فأظهر يشوع وعسكره الإنهزام أمامهم، فتتبع أهل العي بني إسرائيل حتى أبعدوا عن المدينة. فسدَّد يشوع حربته والعلم عليها، فوثب الكامنون على المدينة فدخلوها والقوا النار فيها، وخرجوا وراء أهلها فصار القوم في وسط إسرائيل هؤلاء من هنا واولئك من هنالك، فضربوهم حتى لم يبقَ منهم باقٍ ولا شريد، وقبضوا على ملك العي حياً، وقادوه إلى يشوع ورجعوا إلى المدينة. فقتلوا من بقي فيها فكان جملة من قتلوا من رجل وامرأة إثني عشر ألفاً. وغنم بنو إسرائيل سلب المدينة بحسب أمر الرب، وعلَّق يشوع ملك العي على خشبة ثم ألقوا جثته عند مدخل باب المدينة، وجعلوا عليه جثوة كبيرة من الحجارة (يشوع فصل ٨) فكان ما عمله يشوع حيلة حربية كثرت أمثالها بين المحاربين. وأرشدهم الله إليها نقمةً من سكان العي الآموريين، وتيسيراً لامتلاك

شعبه أرض موعدهم وهو مالك الأرقاب الذي يميت ويحيي ويجزي كلًّا بما جنت يداه.

عد ٢١٦

مسالمة بني إسرائيل لسكان جبعون

أما جبعون فهي المسماة الآن الجيب أو الجب، وقال يوسفوس (تاريخ اليهود ك ٧ فصل ١١) إنَّها بعيدة عن أورشليم نحو خمسين غلوة (الغلوة ثلاث مئة إلى أربع مئة ذراع) شمالًا، وقال كاران (ك ١ في اليهودية صفحة ٣٨٦): ليس من يقيم نكيراً على أن جبعون هي المسماة الآن الجيب، وإنَّها بعيدة عن أورشليم نحو الشمال عشرة كيلومترات أي مسافة نحو ساعتين. وإنَّ بهاء الدين سماها في ترجمة الملك صلاح الدين في أيام الصليبيين الجيب كما تسمى الآن. وكذا جاء في كتاب أعلام الأماكن. وقال كلمت في معجم الكتاب إنَّها بعيدة عن الجلجال مسافة ثماني ساعات أو تسع غرباً. فسكان هذه المدينة سمعوا بما فعله يشوع بأريحا وبالعي. فاحتالوا بأن أخذوا لحميرهم حقائب رثَّة، وزقاق خمر عتيقة مشققة مرقعةٌ، وجعلوا نعالًا مرقعةً في أرجلهم، وثياباً بالية عليهم، وجميع خبز زادهم يابسٌ عفنٌ، ومضوا إلى يشوع في محلة الجلجال. وقالوا: إنَّنا قادمون من أرض بعيدة على اسم الرب الهكم لأننا سمعنا بخبره، وبجميع ما صنع في مصر وبسيحون ملك حشبون، وعوج ملك باشان. فأرسلنا شيوخنا وسكان أرضنا لنقطع لهم عهداً منكم وهذا خبزنا تزودناه سخناً من بيوتنا، وها هو الآن يابس وعفن، وهذه زقاق الخمر ملأناها جديدة، وها هي مشققة وهذه ثيابنا ونعالنا قد تعتقت، ولم تلتمس جماعة إسرائيل مشورة الرب فسالموهم، وقطعوا لهم عهداً، وحلفوا لهم أنَّهم يستبقونهم. ولكن سمعوا بعد ثلاثة أيام أنَّهم جيران لهم وساكنون بينهم، فأتوا مدنهم وهي جبعون المحكى عنها وكفيرة وهي خربة قفيرة اليوم على بعد ثمانية أميال في الشمال الغربي من أورشليم على ما في كتاب إعلام الأماكن، وعلى ما روى كاران (مجلد ١ في اليهودية صفحة ٢٨٤). ثم بئروت وهي البيري الآن في شمالي أورشليم، وشرقي رام الله كما في كتاب أعلام الأماكن، وكما روى كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٩)

وقال: إنَّها على بعد نحو ثلاث ساعات من أورشليم في الطريق المؤدية منها

إلى نابلس والناصرة، وإنَّ التقليد الراجح الصحة يتبين منه ان هذا هو المحل الذي انتبهت فيه العذراء، والقديس يوسف إلى تخلف يسوع عنهما، ثم قرية يعاريم (أي محل الأشواك)، والأظهر أنَّها المسماة الآن قرية العنب، وقرية أبي غوش على بعد تسعة أو عشرة أميال من أورشليم في الطريق المؤدي إلى يافا (كما في كتاب أعلام الأماكن وفي كتاب كاران مجلد ١ في اليهودية صفحة ٦٢».

لم يضرب بنو إسرائيل أهل جبعون حرمة للعهد الذي قطعوه لهم، ومبرة ليمينهم بالله، وجعلهم يشوع والرؤساء محتطبي حطب ومستقي ماء لكل الجماعة ولمذبح الرب، فأذعنوا لذلك ورعوا الزمام لبني إسرائيل في ما عُيِّنوا له (يشوع فصل ١٠)، على أنّ شاول أهلك جماً غفيراً منهم لحسبانه انَّه يلزمه استئصال بقايا الكنعانيين والجبعونيين من الحوويين. فانتقم الله لدمهم بمجاعة في أيام داود دامت ثلاث سنين، وكفَّر داود عنها بتسليمه إلى الجبعونيين سبعة من ولد شاول فقتلوهم. وقد صرَّح الكتاب بذلك في الفصل الحادي والعشرين من سفر الملوك الثاني. ولم يأت الكتاب بعد ذلك بذكرهم بمنزلة فصيلة مستقلة.

عد ٢١٧
تألب ملوك الجنوب على يشوع وبني إسرائيل

قال الكتاب (يشوع فصل ١٠): ولمَّا سمع أدونيصادق ملك أورشليم بما فعله يشوع بأهل أريحا، وملكها وأهل العي وملكها، وإنَّ أهل جبعون سالموا بني إسرائيل، وأقاموا فيما بينهم، فخاف خوفاً شديداً لأن جبعون مدينة عظيمة مثل إحدى المدن الملكية، وهي أكبر من العي وجميع رجالها جبابرة. فأرسل أدونيصادق إلى هوهام ملك حبرون وهي الخليل، وإلى فرآم ملك يرموت، وهي المعروفة الآن بخربة يرموك على مسافة نحو ثلاث ساعات شمالاً من بيت جبرين، ويافيع ملك لاكيش «وهي المعروفة الآن بخربة أم الاكيس في الغرب الجنوبي من بيت جبرين، وفي غربي عجلون الآتي ذكرها». ثم «دبير ملك عجلون» وتُعْرَف إلى الآن بهذا الاسم، وهي في الغربي الصريح من بيت جبرين على مسافة أربع ساعات، وتبعد ستة عشر ميلًا عن غزة شمالًا (أعلام الأماكن

وكاران في مجلد ٢ في اليهودية). وأرسل ملك أورشليم يقول لهؤلاء الملوك الأربعة: هلموا إليَّ وناصروني، فنضرب جبعون لأنها سالمت يشوع وبني إسرائيل. فاجتمعوا ونزلوا على جبعون وحاربوها. فاستنجد اهلها بيشوع، فزحف عليهم بغتةً سائراً الليل كلَّه من الجلجال فهزم الرب ملوك الآموريين ورجالهم، وضربهم ضربة عظيمة في جبعون، وتعقبهم يشوع في طريق عقبة بيت حورون (وهي المعروفة اليوم بيت أور في الغرب من الجب (جبعون)، وهي محلتان عليا وسفلى واستمر بنو إسرائيل يطاردونهم إلى عزيقة لم يتعين إلى الآن موقعها فهي بين بيت جبرين وأورشليم قريبة من خربة الشويكة[1]. وإلى مقيدة وقال أوسابيوس: إنَّ هذه المدينة بعيدة ثمانية أميال عن بيت جبرين، وفي كتاب أعلام الأماكن الكتابية أنَّه يحتمل أن كان موقعها في محل قرية المغار الآن، وقال فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ١٨٦): ويحتمل أن يكون موقعها عند سفح جبل بيت أور قريباً من السهل وبين كان ملوك الآموريين منهزمين من وجه إسرائيل في مهبط بيت حورون (بيت أور)، رماهم الرب ببرد كالحجارة فقتل منهم كثيرون، وهرب الملوك الخمسة، واختبأوا في مغارة بمقيدة فقال لهم يشوع: دحرجوا حجارةً كباراً على فم المغارة. ووكّلوا عليها قوماً يحفظونها، وأنتم هلمُّوا على أعقاب أعدائكم وأهلكوا ساقتهم. ففعلوا كذلك حتى أفنوهم ودخل من بقي منهم المدن المحصنة، ورجعوا إلى يشوع في مقيدة وفتحوا فم المغارة، وأخرجوا الملوك الخمسة منها وضربهم يشوع وقتلهم، وعلّقهم على خمس خشبات إلى المساء ثم أنزلوهم عن الخشب، وطرحوهم في المغارة التي اختبأوا فيها وجعلوا على فم المغارة حجاراً كباراً، وفتح يشوع في

(١) ففي كتاب أعلام الأماكن الكتابية ومواقعها ان عزيقة كانت في تل زكريا أو في دير العاشق فزكريا هي بين بيت جبرين وبيت الجمال ودير العاشق في وادي سارق وقال كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٣٣٣) ان عزيقة لا بد ان تكون قريبة من سوكو لأنهما ذكرتا معاً في آيات عديدة ومنها في سفر الملوك الأول .فصل ٧ عد ١) حيث قيل ان الفلسطينيين «نزلوا بين سوكو وعزيقة» حيث صرع داود جليات الجبار ولا مراء ان سوكو هي خربة الشويكة البعيدة سبعة أميال ونصف عن بيت جبرين إلى جهة أورشليم وعزيقة أقرب منها إليها. وقد ذكر أوسابيوس والقديس ايرونيموس أنها بين بيت جبرين وأورشليم. وذكر الآب فيكورو (في معجم الكتاب) كل هذه الأقوال وقال إنَّ كلمة عاشق يمكن ان تكون مكسر عزيقة وان كانت بعيدة عن الشويكة.

ذلك اليوم مقيدة وضربها بحد السيف، وأبسل ملكها وكل الأنفس التي فيها.

عد ٢١٨

ايقاف يشوع الشمس والقمر عن مسيرهما

جاء في الكتاب: إنَّه لما كان بنو أسرائيل يطاردون ملوك الآموريين، كلَّم يشوع الرب، «فقال على مشهد إسرائيل: يا شمس قفي على جبعون! ويا قمر أثبت على وادي أيّالون! فوقفت الشمس وثبت القمر إلى أن انتقم الشعب من أعدائهم... فوقفت الشمس في كبد السماء، ولم تمل للمغيب مدة يوم كامل، ولم يكن مثل ذلك اليوم قبله ولا بعده سمع فيه الرب لصوت إنسان» (يشوع فصل ١٠ عد ١٢ وما يليه)، قال الأب فيكورو (في الموجز الكتابي عد ٤٢٥ وما يليه): أنّ هنا أربعة مباحث في أي وقت من النهار أوقف يشوع الشمس؟ وكم كانت مدة وقوفها؟ وبأية وسيلة صنع الله هذه الآية، وكيف يرد ما ورد عليها من الإعتراض؟ وقال في المبحث الأول: إنَّ وقت وقوف الشمس كان عند مغيبها فلا محل لالتماس الآية إلا عند مداهمة الليل، وكفه بني أسرائيل عن تتبع أعدائهم. وقوله في كبد السماء يرادف قوله في السماء، ولا يمكن تحقيق مدة وقوف الشمس لأن الآية في النص العبراني، «ولم تمل (الشمس) للمغيب مدة نحو يوم كامل، ولم يكن مثل ذلك اليوم». فهذا النص قيد المدة بنحو يوم كامل ولم يطلقه، وليس فيه الكلمات «قبله ولا بعده». فكان ذلك مانعاً من تحقيق المدة ومؤذناً فقط بأن الوقت كان طويلًا على أن ميمونيد اليهودي، وبعض البروتسطنت وقليلًا من العلماء الكاثوليكيين أيضاً وهموا أنَّ كلام يشوع مجازي وشعري ليس المراد منه إلَّا تمني يشوع طول ذلك النهار، ووقوف الشمس لاستئصال بني إسرائيل أعدائهم لا إنَّ النهار طال أو الشمس وقفت حقيقة واستمسك أصحاب هذا الراي بقول الكتاب، « وذلك مكتوب في سفر المستقيم» قائلين ليس هذا السفر إلَّا نفثات شعرية على أن زعمهم مردود بصراحة آي الكتاب وأجماع التقليد على مخالفته.

وأمَّا بأية وسيلة أطال النهار؟ فلا يخلو أن يكون إمَّا بأن الله أوقف الكرة الأرضية عن دورانها اليومي، إمَّا بأنَّه جعل أنوار الشمس تضيء بني أسرائيل

كلّما لزم من الوقت للحاقهم أعدائهم دون إيقاف الأرض بغتةً عن حركتها، فيرد على الأول: إنَّ وقوف الأرض عن حركتها ينشأ عنه طبعاً دمار عام في الكائنات الأرضية كهدم الأبنية، ودك الجبال، وتشوش كبير في الأجرام السموية، وخروج الأرض عن نقطة دورانها بتشوش حركة القمر. وقد فات المعترضين أنَّ الله الذي هو قادر على إيقاف حركة الأرض هو قادر أيضاً على تدارك ما ينتج عنه من الغوائل الطبيعية. وإنَّ حركة الأرض السنوية حول الشمس، وحركة القمر حول الأرض، لا علاقة لهما بدوران الأرض اليومي على محورها، وأمَّا على التفسير الثاني وهو وقوف الشمس ظاهراً دون إيقاف حركة الأرض، فلا يعسر على الله وهو على كل شي قدير أن يتصرَّف بأشعة نور الشمس كما يشاء بانبعاثها، أو انكسارها لتنير أرض فلسطين، فبعد مغيب الشمس نرى أنوارها في الأفق مدة الشفَق، وقبل بزوغها إلى الأفق نرى أنوارها فيه مدة الفلق، فهل يعسر على الله أن يطيل مدة الشفَق ساعات عديدة في صقع مخصوص؟ وحينئذٍ يصدق القول: إنَّ الشمس واقفة وإنَّ النهار طال، ولا يتأتى من ذلك دمار في الكائنات الأرضية ولا تشوش في الأجرام السماوية.

فيقول الجاحدون لا أثر في تواريخ القبائل القديمة لوقوف الشمس، أو لطول نهار أكثر من عادته، ولو صدق كلام يشوع لظهر هذا الوقوف في البسيطة كلها فلا يعتد بقولهم، إذ لا تاريخ لذلك العصر، وليس ما يثبت أنَّ طول النهار عم غير فلسطين. فيقولون أيضاً إنَّ حركة الأرض أو الشمس مخالف لسنن الطبيعة ولكن الا يستطيع باري الطبيعة الذي فرض لها هذه السنن أن يغيِّرها أو يصرف قوَّتها إلى ما شاء؟ وقد تكلَّم كاتب السفر المقدَّس في وقوف الشمس بحسب مفهوم القوم في ذلك العصر، ولم يكن عليه وهو في معمعة الحرب أن يراعي علم الفلك، ويخاطب قومه بما لا يعلمون. فهذا ملخَّص ما جاء به الأب فيكورو في كتابه المارّ ذكره. وقد أطال واجاد بكلامه على هذه الآية في كتابه الآخر الموسوم بالأسفار المقدسة وانتقاد العقليين لها (مجلد ٤ من صفحة ٤٥٩ إلى صفحة ٤٨٥) حيث أفصح بأن نبذ مجمع الفصح المقدَّس مقالات كليلاي التي أثبت بها دوران الأرض حول الشمس لم يكن من العقائد الدينية ولم يثبته أحد من الأحبار الأعظمين بمنزلة سنَّة في الكنيسة. وإنَّ القول بأن الأرض تدور حول الشمس لم يكن حديثاً بل قال به البيتاغوريون لنحو خمسة قرون قبل

التاريخ المسيحي. وأيّده نيقولاوس دي كوسا في إيطاليا. ولم تنبذه الكنيسة بل رقّت القائل به إلى مقام الكردينالية، ثم أثبته نيقولاوس كوبرنيكوس في القرن الخامس عشر قبل كليلاي، وقد فرط من مجمع الفحص نبذ مقالات هذا العالم فالكنيسة الكاثوليكية لا تعتبر كل ما جرى في إحدى المجامع الرومانية معصوماً من الضلال، بل هذه العصمة لرأسها المنظور متى بت أمراً بمنزلة معلّم للكنيسة كلّها وأمر جميع المؤمنين بتنزيله منزلة عقيدة دينية ولم يأمر أحد من الأحبار الأعظمين بشيء من ذلك في شأن مذهب كليلاي.

عد ٢١٩

افتتاح يشوع مدناً أخرى في جنوبي فلسطين

قال الكتاب (يشوع ف ١٠ عد ٢٩): «ثم اجتاز يشوع وجميع اسرائيل معه من مقيدة إلى لبنه، وحاربها فاسلمها الرب ايضاً إلى أيدي اسرائيل هي وملكها... وقتلوا كل نفس فيها لم يبقوا فيها باقياً وفعلوا بملكها كما فعلوا بملك أريحا». وموقع لبنه غير معين إلى الآن ففي اعلام الأماكن الكتابية أنّ موضعها غير معروف. وقد ذكر اسمها بين مقيدة ولاكيش، وفي معجم الكتاب لكلمت أنّ اوسابيوس والقديس ايرونيموس قالا إنها كانت في عمل بيت جبرين. واجتاز يشوع من لبنه إلى لاكيش (خربة ام الاكيس طالع عد ٢١٧) فافتتحوها في اليوم الثاني، وقتلوا كل نفس فيها كما فعلوا بلبنه. وصعد هورام ملك جازر لنصرة لاكيش فضربه يشوع هو وقومه حتى لم يبقَ منهم باقياً. أما جازر ففي اعلام الأماكن الكتابية انها تسمى اليوم تل جازر وهي بعيدة أربعة اميال نحو الغرب من عمواص المسماة قديماً نيكوبوليس. واجتازوا من لاكيش إلى عجلون وتسمى الآن أيضاً بهذا الاسم (طالع عد ٢١٧) وحاربوها وافتتحوها في ذلك اليوم وضربوا أهلها بحد السيف وصعدوا من عجلون إلى حبرون (الخليل) وحاربوها، وافتتحوها، وضربوها بحد السيف هي وملكها ومدنها وكل نفس فيها. وعادوا إلى دبير (وسماها الكتاب في محل آخر قرية سفر أي قرية الأسفار أو الكتب، ورجّح كاران أنها كانت في المحل المسمّى الآن خربة سراسير وخربة دويربان في ناحية الخليل. وذكر قول العالم وان دي فلد أنها كانت في محل خربة الدلبة الّتي تبعد مسافة ساعتين عن الخليل نحو الجنوب الغربي وضعّف هذا القول). وحاربوها

وأخذوها هي وملكها وسائر مدنها، وضربوهم بحد السيف. وضرب يشوع جميع أرض الجبل أي جبل اليهودية والجنوب والسهل والسفوح وقتل ملوكها واستحوذ على جنوب فلسطين كله ولم يبقَ من أهله إلّا من تحصّنوا في الحصون، ولم يفتتح أورشليم حينئذٍ وإن قتل ملكها.

عد ٢٢٠

اعتصاب ملوك شمال فلسطين على بني اسرائيل وتشتيت يشوع شملهم

أخذ الرعب من ملوك الكنعانيين الشماليين كل مأخذ، وراعهم أن يسطو يشوع عليهم كما سطا على ملوك الجنوب، فعمدوا إلى مهاجمة بني اسرائيل قبل دنوهم إليهم، واعتصبوا يداً واحدة. وكان مقدام هذه العصبة يابين ملك حاصور. فقد جاء في سفر يشوع (فصل ١١ عد ١) ولما سمع يابين ملك حاصور ما فعله يشوع بملوك الجنوب، أرسل إلى يوباب ملك مادون وإلى ملك شمرون وملك اكشاف ليناصروه في محاربة بني اسرائيل. أما حاصور مدينة رئيس العصبة فالذي في اعلام الأماكن الكتابية يرجّح أنها كانت في جبل حصيره في الجليل قريبة من قادس والذي اعتمده كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٣٦٤). مسنداً إلى آيات عديدة ذكرت فيها حاصور وإلى أقوال ليوسفيوس أن هذه المدينة كانت على بحيرة الحولة عند طرفها الشمالي الغربي في المحل المسمّى الآن تل الحرّاوي، وجعلها روبينسون في خربة الخريبة، ودي سولسي في خربة الخان وكل هذه الأماكن قريبة من بحيرة الحولة. وأما مادون فيرجح أنها كانت في محل خربة مادين في غربي بحيرة طبرية، وشمرون سمونيه هي الآن قرية صغيرة تبعد خمسة أميال عن الناصرة غرباً. واكشاف كفر ياسيف الآن هي قرية تبعد ستة أميال عن عكاء في الشمال الشرقي منها (عن اعلام الأماكن في أسماء هذه المدن الثلاث). ورجّح كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٢٦٩) إنَّ موقع اكشاف كان في قرية كشاف على بعد كيلومترين من الطيبة في قضاء نابلس.

لم يقتصر يابين على دعوة الملوك الآنف ذكرهم لمظاهرته لأن الكتاب قال (عد ٢) إنَّهُ أرسل أيضاً «إلى الملوك الذين إلى الشمال في الجبل وفي الغور

جنوبي كنَّروت وفي السهل وفي بقاع غور غرباً وإلى الكنعانيين شرقاً وغرباً، والآموريين والحثيين واليبوسيين في الجبل، والحويين تحت حرمون في أرض المصفاة» المتبادر إلى الفهم من قوله إلى الشمال في الجبل ان المراد الملوك الذين كانوا في لبنان أو في أطرافه من جهة مرج عيون، وبلاد الشقيف فهي في الشمال من مملكة يابان، وأما كنَّروت فقال فيها كاران (مجلد ١ في الجليل صفحة ٢١٠) إنها كانت في المحل المسمّى الآن أبو شوشة في جانب بحيرة جناشر التي هي بحيرة طبرية، وان اسم كنَّروت في اللاتينية Genereth جنرات أو كنرات على الاصطلاح القديم ليس هو إلّا اسم كنروت في العبرانية، وبهذا الاسم سميت بحيرة جاناشر نسبة إلى المدينة القديمة الّتي كانت في جانب البحيرة. وقال القديس ايرونيموس ان هيرودس ملك اليهودية جدَّد هذه المدينة، فدعاها طبرية باسم طيباريوس قيصر. وقالوا إنَّه اول من سماها به وجاء في التلمود الأورشليمي ان كنَّروت المذكوة في سفر يشوع بن نون، هي جاناشر وأنَّ اسمها مركب من جنا جنة وسار بمعنى ملك فتأويله جنة الملك أو الجنة الملكية لخصب أراضيها، وقد مر في اعلام الحثيين أن سار بمعنى ملك.

وأمَّا بقاع غور غرباً فيتبادر إلى الفهم أن المراد به الجولان فهو في غربي بحيرة طبرية وشماليها. والمراد في الجبل بعد قوله اليابوسيين جبل اليهودية، وحرمون جبل الشيخ. وأمَّا أرض المصفاة فالذي في كتاب الأعلام الكتابية أنَّه يظهر أنَّها البقاع. ويؤيده أنه جاء بعد ذلك (عد ٨) إن بني إسرائيل ضربوا هؤلاء الملوك وتعقبوهم إلى صيدون (صيدا) الكبيرة وبقعة المصفاة شرقا. فخرج هؤلاء الملوك في خلق كثير، وبخيل ومراكب عديدة جداً، ونزلوا جميعاً على مياه ميروم لمحاربة بني إسرائيل وأمر الرب يشوع أن لا يرهبهم، فخرج يشوع عليهم بجميع رجال الحرب، وانقضُّوا عليهم بغتة عند مياه ميروم والمراد بها بحيرة الحولة على ما في الاعلام الكتابية وفي كتاب كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٤٥٠).

ولكن جاء في معجم الكتاب لكلمت أنَّ مياه ميروم هي في ناحية الكرمل قريبة من مجدُّو (اللجون الآن)، وأسند قوله إلى أنَّ الملك يابين وحلفاءه لا يدعون يشوع يتوغل في بلادهم إلى بحيرة الحولة، فالأوجه أن يقطعوا عليه الطريق عند مضيق مجدو، كما فعل ملوك سورية مراراً بملوك مصر عند غزوهم

بلادهم. ومهما يكن من أمر المكان فقد أسلم الرب يابين وحلفاءه وجيوشهم إلى أيدي بني إسرائيل فضربوهم، وتعقبوهم غرباً إلى صيدا وإلى مياه سرفوت (وهي صرفند على ما في كتاب الاعلام وقيل إنّها بحيرة طبرية). وشرقاً إلى بقعة المصفاة وهي البقاع كما مر حتى لم يبقَ منها باقٍ. وعرقب يشوع خيلهم واحرق مراكبهم بالنار وافتتح حاصور مدينة رئيس العصبة وأحرقها، وقتل ملكها يابين واستولى على كل تلك المدن، وأبسل ملوكها بحد السيف، وغنم بنو إسرائيل غنائم تلك المدن، وقتلوا أهلها وانبسط حكم يشوع من الجبل الأملس الممتد جهة سعير وهو في بلاد الأدوميين إلى بعل جاد في بقعة لبنان تحت جبل حرمون، وبعل جاد هي بانياس من منبع الأردن على ما في كتاب الاعلام الكتابية.

عد ٢٢١

محاربة يشوع بني عناق وتدويخه بلادهم

عاد يشوع ظافراً غانماً في شمالي فلسطين إلى جنوبيها فحارب بني عناق وقرضهم (يشوع فصل ١١ عد ٢١). وبنو عناق هم ولد عناق بن أربع، وبه سميت الخليل في أقدم الأعصر قرية أربع. ثم دعيت حبرون في أيام ابراهيم الخليل والآن الخليل. وجاء في سفر العدد (فصل ١٣ عد ٢٣)، وفي سفر يشوع (فصل ١٥ عد ١٤) أنّه كان لعناق ثلاثة بنين، وهم شيشاي وأحيمان وتلماي، فكانوا آباء عشائر دُعيت بني عناق وكانوا جبابرة حتى قال بنو إسرائيل إنّهم كانوا في أعينهم كالجراد وكانت مواطنهم الخليل وغزة واشدود وغيرها في جنوبي فلسطين. وقد قرضهم يشوع من حبرون (الخليل)، ودبير (خربة سراسير طالع عد ٢١٩)، وعتاب هي المسماة الآن أيضاً بهذا الاسم تبعد عن دبير ميلين ونصف غرباً على ما في كتاب اعلام الأماكن الكتابية، وفي كتاب كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٣٦٥). وقد سماها خربة عناب الكبيرة. وطردهم يشوع أيضاً من سائر جبل يهوذا، ولم يبقَ عناقي في أرض بني أسرائيل إلّا في غزة الباقية على اسمها، وفي جت وهي الآن تل الصافي بعيدة خمسة أميال عن بيت جبرين في الطريق المؤدية منها إلى اللّد على ما في إعلام الأماكن الكتابية. أو هي ذكرين في الطريق المذكورة، وأقرب من تل الصافي إلى بيت جبرين على ما في كتاب كاران (مجلّد ٢ في اليهودية صفحة ١٠٩). ثم في أشدود أسدود الآن في ناحية المجدل من

شمالي عسقلان. وقد مرَّ في (عد ٢١٩) إنَّ يشوع حارب سكَّان حبرون ودبير وقتل ملكيهما كما في سفر يشوع (فصل ١٠ عد ٣٦ و ٣٨)، ثم ذكر (فصل ١١) ما جاء هنا، فكأنَّه افتتح حبرون ودبير قبل محاربة يابين كما في الفصل العاشر ثم ذكر قرضه العناقيين منهما ومن باقي مدنهم في الفصل الحادي عشر أو ذكر فتحهما استطراداً مع باقي المدن التي افتتحها مع هذا الفتح لم يكن إلَّا بعد انتصاره على يابين وحلفائه في الشمال.

وكذا ولي بنو إسرائيل أرض فلسطين في مدَّة ست سنين أو سبع، واستفحل أمرهم فيها ولكن بقي الكنعانيون في المدن البحرية وفي بعض المدن المحصَّنة وفي غزة، وجت (ذكرين) واشدود وعسقلون وعقرون (عاقر الآن). وهي المدن الخمس التي فرَّ إليها بنو عناق، وتحصَّنوا فيها وقد حلَّ فيها بعدًا الفلسطينيون فكانت مراكز أقطابهم واستمر كثير من الكنعانيين في أملاك سبط افرائيم وفي الأرض التي أعطيها نصف سبط منسّى في عبر الأردن. وفرَّ كثير منهم إلى المدن البحرية وتشتتوا جاليات في الآفاق كما مرَّ في مقالة الفينيقيين. وقد عدَّ يشوع (فصل ١٢) الملوك الذين قتلهم بنو إسرائيل، فكانوا واحداً وثلاثين ملكاً منهم سيحون ملك الآموريين وعوج ملك باشان قتلهما موسى. وباقيهم وهم تسعة وعشرون ملكاً قتلهم يشوع بن نون وقد مرَّ في عد ٢١٢ ذكر ما كانت عليه حالة هؤلاء الملوك وإنَّ الآثار المصرية أثبتت تقسيم فلسطين في تلك الأعصر إلى ممالك صغيرة كهذه.

عد ٢٢٢
قسمة أرض فلسطين على بني إسرائيل

قد أمر الرب يشوع أن يقسم ما ملكوه من البلاد على بني إسرائيل، وإن بقي قسم كبير من أرض موعدهم بيد أعدائهم في فلسطين وغيرها. وكان موسى قسم في أيامه ما ملكوه في عبر الأردن على بني رآوبين وبني جاد ونصف سبط منسا. وكان رجال هولاء تجنَّدوا مع إخوانهم في حروبهم السالف ذكرها بل كانوا في مقدمة جيوشهم كما تعهَّدوا أمام الرب وموسى حين رغبوا إليه أن يعطيهم أرض عبر الأردن ميراثاً كما مرَّ. فأطلقهم يشوع بعد حروبه فعادوا إلى أرضهم وأهلهم. أمَّا نصيب سبط رآوبين فكان في شرقي البحر الميت، وكان من مدنهم عروعير

(عراعير الآن)، وميدبا (وتعرف اليوم أيضاً بهذا الآسم)، وحشبون (حسبان الآن) إلى غيرها من المدن والسهول. وكانت هذه البلاد مملكة سيحون ملك الآموريين، وكانت قبله بلاد المؤآبيين وهي الآن في ولاية البلقاء .وكان نصيب بني جاد في شمالي نصيب رأوبين ومن مدنه جلعاد وهي السلط ويعزير وهي بيت زرعة الآن وربة أو ربة عمون وهي عمان الآن، ودعيت في زمان اليونانيين فيلادلفيا. ويمتد هذا النصيب على عدوة الأردن الذي هو تخم له طرف بحر كنارت وهو بحيرة طبرية، وكانت هذه البلاد بلاد العمونيين. وكان قد استحوذ سيحون على بعضها وعرج على بعضها الآخر. وأمّا نصيب نصف سبط منسا فكان في شمالي نصيب جاد، وهو جميع السهول الواقعة على عدوة الأردن الشرقية بين بحيرة طبرية جنوباً وبحيرة الحولة شمالاً، حيث الجولان الآن وكان من مدنهم إدرعي أذرعات الآن وعشتاروت والراجح أنّها تل عشترة في الجولان. وهذه البلاد كانت مملكة عوج ملك باشان، فهذه البلاد هي التي قسمها موسى على سبطي رآوبين وجاد ونصف سبط منسا وكلّها في عبر الاردن شرقاً.

وبعد أن استراح يشوع من حروبه اجتمع هو واليعازر رئيس الأحبار ورؤساء الأسباط، وقسموا الأرض التي ملكوها في غربي الأردن بالقرعة، وبعد أن أفرزوا أنصبة سبطي يهوذا وافرائيم ونصف سبط منسا، وبقي سبعة الأسباط متقاعدين عن امتلاك أرضهم، فأمرهم يشوع أن يأخذوا من كل سبط ثلاثة رجال يسيرون في الأرض، ويخطّطونها ويقسمونها سبعة أقسام، وأن يعودوا إليه فيلقى القرعة أمام الرب فيمتلك كل منهم ما أصابه، ففعلوا فكان نصيب كل من الأسباط بعد هذه القرعة كما يأتي.

فكانت تخوم سبط يهوذا شرقاً البحر الميت، وغرباً نصيب شمعون، وجنوباً البرية وتخوم مصر، وشمالاً نصيب سبط بنيامين في أورشليم وما جاورها، ونصيب سبط دان فكان في هذا السهم ناحية الخليل وما في جوارها. وأصاب سبط شمعون ما يتاخمه غرباً البحر المتوسط، وشرقاً نصيب بني يهوذا وما كان باقياً في يد بني عناق غزة وما جاورها، ومن مدنه بئر سبع وتل الشريعة. واصاب سبط بنيامين أورشليم وما جاورها شرقاً إلى نهر الأردن، وغرباً إلى قرية يعريم (أبي غوش الآن) وتخوم سبط دان، وجنوباً نصيب سبط يهوذا، وشمالاً نصيب سبط افرائيم ومن مدنه أورشليم وأريحا وجبعة. وأصاب سبط دان ما تخومه غرباً البحر

المتوسط. وشرقاً أملاك سبط بنيامين، وشمالاً نصيب بني افرائيم، وجنوباً نصيب بني يهوذا. فكان نصيبا بنيامين ودان متحاذيين شرقياً وغربياً. الأول في الجبل وفيه أورشليم إلى الأردن، والثاني في غربيه وفيه يافا واللد وصرعة. وأصاب سبط افرائيم ما يحدّه شرقاً نهر الأردن من تخم بنيامين إلى تخم منسا، وغرباً البحر المتوسط على تخم دان، وجنوباً أملاك دان وبنيامين، وشمالاً أملاك نصف سبط منسا، وفي هذا النصيب نابلس الآن وسبسطة وهي السامرة وكفرسابا إلى غيرها. وأصاب نصف سبط منسا ما يتاخمه شرقاً نهر الأردن بين تخمَي افرائيم ويساكر، وغرباً البحر المتوسط إلى جبل الكرمل، وجنوباً أملاك بني افرائيم، وشمالاً نصيبا زابلون ويساكر. ومن مدنه قيسارية فلسطين وعتلت ودورا وهي الطنطورة الآن. وأصاب سبط يساكر ما يحده شرقاً نهر الأردن بين تخمَي منسا وزابلون، وغرباً أملاك زابلون ومنسا، وشمالاً نصيب منسا، وجنوباً نصيب منسا وجنوباً نصيب زابلون وكان في هذا النصيب جانب كبير من مرج بن عامر وناحية جنين وجلبون وهي جلبوع القديمة ونورس ونين وهي نائين القديمة.

وأصاب سبط زابلون ما يحده شرقاً نهر الأردن وبحيرة طبرية، وغرباً البحر المتوسط في جهة حيفا، وشمالاً نصيب سبط نفتالي وآشير، وجنوباً أملاك سبطَي يساكر ومنسا. ومن مدن هذا السهم طبرية والناصرة وما بينهما وفي جوارهما من المدن. وأصاب سبط آشير ما يحده غرباً البحر المتوسط في جهة صيدا وصور وعكا، وشرقاً سهم سبط نفتالي، وشمالاً بلاد الشقيف واقليم الشومر، وجنوباً سهم زابلون، وكان في سهم آشير الجانب الأكبر من بلاد بشاره الآن وبعض الشومر والشقيف وبعض سنجق عكا. واصاب سبط نفتالي ما يحاذي سبط آشير شرقاً، فكان لأشير البلاد الساحلية، ولنفتالي البلاد الجبلية. فكانت حدود نصيبه سهم آشير غرباً ونهر الأردن من بحيرة طبرية إلى بحيرة الحولة شرقاً، وناحية مرج عيون وبعض الشقيف شمالاً، وسهم زابلون جنوباً، ومن مدنه صفد وقدس وهي قادس القديمة والجش والجرمق وناحية الشاغور. وسوف نعلق في آخر هذا المجلد خريطة سورية وفي جانبها خريطة هذه الأسهم إن شاء الله. ولم يعطَ بنو لاوي سهماً معيناً بل أُعطوا ثمانياً واربعين مدينة أو قرية مشتتة في أنصبة أسباط إسرائيل ليقيموا بخدمة الرب بينهم؛ ومنها ست مدن للملجأ حتى يهرب إليها كل قاتل نفساً سهواً بغير عمد. وكانت هذه المدن الست، ثلاث في عبر الأردن وهي باصر (بص

الحريري) في سبط رآوبين، وراموت جلعاد (السلط) في سبط جاد. وجولان في باشان في سبط منسا (طالع عد ٢٠٩). وثلاث في غربي الأردن، وهي قادش في الجليل في نصيب نفتالي في غربي بحيرة الحولة على ما في أعلام الأماكن كما مرّ آنفاً. ثم شكيم في جبل افرائيم وهي نابلس الآن. ثم حبرون في جبل يهوذا وهي الخليل. وقد تقدم كالب بن يوفنا إلى يشوع راغباً في أن يعطى جبل حبرون كما وعده موسى بعد عوده من تجسس أرض الموعد فأعطيه. فطرد بني عناق من هنالك، وصعد إلى دبير (سراسير) ووعد من يأخذها أن يعطيه ابنته عكسة زوجةً، فافتتحها ابن اخيه فأنجز وعده له (يشوع فصل ١٥). على أن ما أعطيه كالب إنما هو صحراء حبرون وقراها. وأما المدينة فأعطيها بنو هرون كما هو مصرّح في سفر يشوع (فصل ٢١ عد ١٢). ووقع تخم بني دان الذي كان في جهة يافا ضيقاً عليهم، فصعدوا وحاربوا لاشم وضربوا أهلها بحدّ السيف وسكن بعضهم فيها، وسموها لاشم دان باسم دان أبيهم. وتسمى لايش ودان وموقعها في محل تل القاضي حيث ينابيع الأردن، تبعد ميلين غرباً عن بانياس (كتاب أعلام الأماكن الكتابية وكاران مجلد ٢ في الجليل صفحة ٣٣٨).

وبعد الفراغ من قسمة الأرض أعطى بنو إسرائيل يشوع بأمر الرب المدينة التي طلبها وهي ثمنة سارح في جبل افرائيم، فبنى المدينة وأقام فيها بين بني افرائيم لأنه من سبطهم (يشوع فصل ١٩). وثمنة سارح هي المحلّ المعروف الآن بخربة تبنة في جبال افرائيم، تبعد نحو ساعتين ونصف نحو الشمال الغربي من جفنة وسنجيء على ذكر هذا المحل عند الكلام في مدفن يشوع.

عد ٢٢٣
نصب خباء المحضر في شيلو

جاء في سفر يشوع (فصل ١٨ عد ١): «والتأمت كل جماعة بني إسرائيل في شيلو، ونصبوا هناك خباء المحضر وأُخضِعت الأرض بين أيديهم». وشيلو هذه تسمى الآن خربة سيلون. وقال أوسابيوس انها بعيدة اثني عشر ميلاً عن نابلس جنوباً. وقال القدّيس ايرونيموس انها تبعد عنها عشرة أميال فقط، ورجّح كاران قول أوسابيوس وهي في شمال (بيت اين)، وفي شرقي الطريق المؤدي من بيت اين

الى نابلس (كاران مجلد ٢ في السامرة صفحة ٢٤). وقال الأب فيكورو: (الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ١٨٩) إنَّ روبينسون الجوّالة الاميركي هو أول من اهتدى الى موقعها سنة ١٨٣٨ م، وأنّ تعيين موقعها في سيلون لا مرية فيه. فهناك أقيم خباء المحضر ووضع فيه تابوت العهد، واستمر ثمة إلى أن أخذه الفلسطينيون في زمان عالي الكاهن كما سترى. وقال علماء اليهود إنّ تابوت العهد بقي في شيلو ٣٦٩ سنة. فكان هناك المركز الديني لبني إسرائيل كما كانت أورشليم بعداً، ولما بنى بنو رآوبين وجاد ونصف سبط منسا مذبحاً للرب في عبر الأردن، قلق منهم بنو إسرائيل وهمّوا بقتالهم ثم اكتفوا بأن يرسلوا إليهم فنحاس بن اليعازر الكاهن، ومعه عشرة رؤساء لينذروهم بالإنكفاف عن هذه المعصية فأذعنوا، واعتذروا بأنهم لم يقدُموا على ذلك إلّا ليكون لهم مذبح للربّ كإخوانهم في غربي الأردن (يشوع ف٢٢). وفي سيلون الآن أطلال على أكمة يُستدلّ منها أنه كان هناك خباء المحضر حتى حملت رؤية هذه الأطلال اللجنة الإنكليزية التي تفحّصت عن آثار فلسطين سنة ١٨٧٨م على القطع بأنه هناك كان بيت الربّ حقبة طويلة، إذ بنوا أسافله بالحجارة وظلّلوا اعاليه بالخباء (كوندر في كتابه في اعمال هذه اللجنة مجلد ١ صفحة ٨٣). وقال الأب فيكورو(في المحل المذكور آنفاً) بعد أن روى ما مرّ، إنَّ كلَّ من زار هذه الأماكن كما زارها هو سنة ١٨٨٨م قطع ولا ريب بأنّه هناك كان خباء المحضر لا سيما أنّ عند سفح الأكمة سهلاً فسيحاً بيضاويّ الشكل يتيسّر للشعب كله أن يرى منه خباء الربّ.

عد ٢٢٤

وفاة يشوع بن نون ومدفنه

قد شاخ يشوع وطعن في السنّ فاستدعى اليه جميع بني اسرائيل، وشيوخهم ورؤساءهم وقضاتهم وعرفاءهم، وذكّرهم بما صنع الربّ الى آبائهم واليهم، وحرّضهم ليحفظوا كلَّ ما كُتِبَ في توراة موسى، ولا يعدلوا عنه يمنةً ولا يسرةً. ويتنكّبوا الإختلاط مع الأمم ويعتزلوا مصاهرتهم. وقال، إن عملتم بذلك هزم الواحد منكم الفاً. وإن اختلطتم ببقية هؤلاء الأمم كانوا لكم وهقاً ومعثرة وسوطاً على جنوبكم وشوكاً في عيونكم. فأجاب الشعب وقالوا: حاشَ لنا ان نترك الربّ ونعبد

آلهة غريبة. واذعنوا لما اوصاهم به، فقطع يشوع عهداً للشعب في ذلك اليوم، وكتب هذا الكلام في سفر توراة الله. وأخذ حجراً كبيراً واقامه هناك تحت البلّوطة التي عند مقدس الربّ، وقال هذا الحجر يكون شاهداً عليكم لئلا تجحدوا الهكم، وصرف الشعب كل واحد الى ملكه. ومات يشوع بعد ذلك وهو ابن مئة وعشر سنين، فدفنوه في ارض ميراثه في ثمنة سارح التي في جبل افرائيم الى شمال جبل جاعش (يشوع فصل ٢٣ و ٢٤). ولا إشكال في أنّ الآيات الأخيرة من سفر يشوع المنبئة بموته، ودفنه هي لكاتبٍ قديمٍ غيره. وإن صدق قول يوسيفوس الذي رويناه في عد ٢١٢ أنّ يشوع كان عمره يوم وليَّ قيادة اسرائيل خمساً وثمانين سنةً، وقد مات وعمره مئة وعشر سنين، فتكون مدّة قيادته خمساً وعشرين سنة وعلى هذا أكثر العلماء. وإن ظهر من جداول كلمت المعلقة في فاتحة معجم الكتاب أنَّ مدة قيادته لم تكن الّا السبع السنين التي افتتح فيها فلسطين.

قد مرَّ آنفاً أنّ ثمنة سارح كان موقعها في المحل المسمّى الآن تبنة او تبنى في جنوبي نابلس. وقد كشف فيها العالِم كاران عن مدفن يشوع بن نون في ٣١ آب سنة ١٨٦٣م ثم شخص الى هذا المحل ثانية سنة ١٨٧٠م فازداد تيقناً بذلك، وتابعه على رأيه العالم دي سولسي الذي تعهد هذا المحل بعد اشهر من زيارة كاران له سنة ١٨٦٣م ثم الأبّ ريشار الذي جال في فلسطين في شهرَي ايار وحزيران سنة ١٨٧٠م، والذي حمل هؤلاء جميعا على القطع بأنّ قبر يشوع بن نون هنالك إنّما هو الحجج الآتية:

اولاً: إنَّ الكتاب صرّح بأن يشوع دفن في ثمنة سارح كما روينا عن سفر يشوع (فصل ٢٤ عد ٣٠) . وجاء في سفر القضاة (فصل ٢ عد ٩) أنه دفن «في ثمنة حارس في جبل افرائيم إلى شمال جبل جاعش» وقد حققت التقليدات القديمة وظروف المحل، وقرائن الحال أنّ ثمنة القديمة كانت في محل تبنة الآن، ويؤيد ذلك تقارب الحروف في اسمَيّ ثمنة وتبنة وابدال الميم بالباء مستفاض في إعلام كثيرة وقلب الحروف كما في سارح وحمارس ليس بنادر ايضاً.

ثانياً: إنَّ كاران كشف ثمة عن مقبرة فيها ثمانية مدافن يمتاز باقيها بزيادة

اتقانه، وبإقامة رواق أمامه، وكلٌّ ما فيه دالٌّ على قدمه، وفي الرواق ثقوب معدة لوضع المصابيح فيها وقت حفلة أو زيارة حتى يقضي كل ناظر دون تلُّوم أنّ هناك مدفن رجل كريم كبير في قومه، وأن المدافن التي إلى جانبه إنَّما هي مدافن بعض اسرته. وقد انبأنا الكتاب انه هناك اقام يشوع ومات ودفن ، فإذن هذا المدفن مدفنه ويؤيده ان في جنوبه جبلاً قضى العلماء المشار اليهم أنه الجبل الذي سمَّاه الكتاب جاعش. وقال أنّ يشوع دفن الى شماله.

ثالثاً: إنَّ الأب ريشار المار ذكره وجد في محلة الجلجال كثيراً من السكاكين الصوّانية التي ختن بها يشوع بني اسرائيل هناك (طالع عد ٢١٤). ثم مضى الى مدفن تبنة بعد أن أعلمه كاران أمره، فبحث ووجد كثيراً من هذه السكاكين الصوّانية في المدفن وفي ما جاوره.

وفي النسخة السبعينية كلام خلا عنه النصّ العبراني والترجمة اللاتينية العامّية وهو (بعد قوله فبنى المدينة واقام فيها). « وأخذ سكاكين الحجر التي ختن بها بنو اسرائيل الذين كانوا ولِدوا في مدّة عبورهم البرية ووضعها في ثمنة سارح». وزادت كلامها في دفنه: « ووضعوا هناك في القبر حيث دفنوه سكاكين الحجر التي ختن بها بني اسرائيل في الجلجال عندما اقتادهم من مصر. واتمّوا بذلك وصية الرب وهذه السكاكين باقية هناك إلى اليوم». وقد كتب الأب ريشار من بيروت في ٢٠حزيران سنة ١٨٧٠م رسالة إلى أحد اصدقائه اذاعتها المجلّة العلميّة المسماة Les Mondes (العوالم)، أفصح فيها بأنه وجد بعض هذه السكاكين في الجلجال، ثم في مدفن يشوع وجواره وحقق أنّ هناك قبر يشوع بلا مرية. ثم شخص الأب ريشار في ٥ آب سنة ١٨٧٢م إلى اديمبورك فخطب في مجلس المجمع العلمي الذي كان حينئذٍ ملتئماً في هذه المدينة. وأرى المجتمعين السكاكين الصوّانية التي لقِيَها في الجلجال، وفي مدفن يشوع وغيره مثبتاً أنَّ ذلك دليل صراح على أنّ ذلك المدفن إنَّما هو مدفن يشوع بن نون وقال تزيد ذلك بيانا شهادة الترجمة السبعينية بأنّ سكاكين الحجر التي صُنِعت في الجلجال، وُضِعَ قسم منها في مدفن يشوع وقد وجدناه الآن، وها هو. ثم اتى الأب ريشار في آخر الشهر المذكور الى باريس، وعرض هذه السكاكين على منظر جمعية العلوم فيها فكان لذلك احسن وقع في اذهان علمائها. وقد اختتم العالِم كاران كلامه

في هذا المدفن بقوله (مجلد ٢ في السامرة صفحة ١٠٤) لا أرى بعد وجدان هذه السكاكين العديدة سبيلاً الى الإمترآء في أنّ هناك حقا قبر يشوع بن نون، وقد تابع الأب فيكورو العالِم كاران على رأيه ذاكراً جُلَّ كلامه (مجلد ٣ في الكتاب والاكتشافات الحديثة صفحة ١٩١)، والرسم المعلَّق هنا يُريك هيئة هذا المدفن الآن.



صورة مدفن يشوع بن نون في تبنة

الفصل العاشر

قضاة بني اسرائيل بعد يشوع

عد ٢٢٥

سفر القضاة

لما كان كلامنا في هذا الفصل على ما تضمّنه سفر القضاة تحتّم علينا أن نبيّن متى دُوّن هذا السفر، ومن كتبه وخلاصة ما حواه. أن الظاهر من اختتامه بموت شمشون أنه لم يُكتَب قبل انتصار صموئيل على اعداء شعب الله كما في سفر الملوك الأول (ف ٧). ثم قد ورد في سفر القضاة مرّاتٍ هذا القول. « ولم يكن في تلك الأيام ملك لإسرائيل». وهذا مشعر بأن هذا السفر كُتِبَ بعد ارتقاء شاول الى منصّة الملك في اسرائيل. وقد صُرِّحَ فيه (ف ١ ع ٢١) أنّ اليابوسيين كانوا مقيمين في اورشليم مع بني بنيامين الى هذا اليوم. وهذا دالّ على أن هذا السفر كُتِبَ قبل عهد داود اذ جاء في سفر الملوك الثاني (ف ٥ عد ٦ و ٧): إنَّ داود هو الذي طرد اليبوسيين من اورشليم واقام سدَّة ملكه فيها. فالحاصل من كل ذلك أن هذا السفر كُتِبَ بعد موت شمشون وقبل ارتقاء داود منصَّة الملك. وقد عزاه علماء التلمود الى صموئيل، وهذا لا يبعد عن الصواب وينطبق خير انطباق على ما ذكرناه آنفاً ، وإن لم يمكن القطع به مطلقاً، ولم يرتِّب أحد من العلماء القدماء في قدم سفر القضاة. ولم يأبَ العقليون انفسهم التسليم بأنه عريق في القدم، بل اثبتوا أنه اول اسفار العهد القديم، وانزلوه منزلة سفر التكوين عندنا وإن نددوا ببعض ما حواه كما سترى في كلامنا الآتي.

وأمّا ما حواه هذا السفر فمقدمة أبان فيها الكاتب حالة بني اسرائيل بعد وفاة يشوع بن نون، واهتمام بعضهم بمحاربة من بقي بينهم من الكنعانيين تكملة

لامتلاكهم أرض موعدهم، وتقاعد بعضهم عن طرد أعدائهم وضربهم الجزية على من دان لهم منهم. ثم تقلبهم في أمر دينهم فاذا استراحوا بطروا، ولووا عن الرب إلههم إلى آلهة الأمم وعبدوها. وإذا ضايقهم اعداؤهم تابوا الى الله فأقام لهم مخلّصاً سمُّوه قاضياً أو حاكماً فيهم. ولم يكن لهم مركز لانضمام كلمتهم بل كانوا كعشائر البدو في أيامنا.

وهذه المقدمة ينطوي عليها الفصلان الأول والثاني. ثم أخذ الكاتب من الفصل الثالث الى الفصل السابع عشر يروي لنا أخبار هؤلاء القضاة وما كان من اعمالهم، فذكر منهم اثني عشر أو ثلاثة عشر قاضياً اذا حسبنا بينهم ابيملك الذي سينجلي لك ما كان من أمره. وهم عتنيئيل واهود وشمجر ودابورة مع باراق، وجدعون وابيملك وتولع ويائر ويفتاح وابصان وايلون وعبدون وشمشون. وقصَّ كاتب السفر أخبار بعضهم، واجتزأ بذكر اسماء بعضهم ومدة ولايتهم. ثم علَّق على سفره في الفصلين السابع عشر والثامن عشر ذيلاً ذكر فيه خبر ميخا الذي صنع صنماً مسبوكاً. وسجد له واقام له كاهناً ثم اخذه منه بنو دان عند استيلائهم على لايش (دان وهي الان تلّ القاضي)، ونصبوه هناك وعبدوه. وروى في الفصول الثلاثة الاخيرة خبر الرجل اللاوي الذي مرَّ في جبع بنيامين مع امرأته، فأماتها اهل هذه المدينة بأعمالهم الفاحشة، ومحاربة بني اسرائيل لبني بنيامين وإهلاك السواد الأعظم منهم. فهذه خلاصة هذا السفر وسترى تفصيلها.

عد ٢٢٦

مدة قضاة بني اسرائيل

إنَّ في تعيين مدَّة هؤلاء القضاة عقبات ومشاكل يعتاص الاهتداء الى وجه حلها لأنه اذا حُسِبَت السنون التي ذكرها الكتاب لكلٍ منهم، ومدة مضايقتهم منذ تعبّدهم لكوشان رشعتائيم ملك آرام النهرين، الى وفاة شمشون كان مجموع هذه السنين اربع مئة وعشر سنين، واذا أُضيفَ إليها مدة ولاية عالي وهي اربعون سنة على ما في سفر الملوك الأوَل (فصل ٤ عد ١٨)، وأُهمل حسبان مدة صموئيل كان مجموع سني هؤلاء القضاة أربع مئة وخمسين سنة.على اننا نرى في سفر الملوك الثالث (فصل ٦ عد ١) أنَّ سليمان شرع ببناء الهيكل في السنة الاربع

والثمانين لخروج بني اسرائيل من مصر. ويُلزَم أن يضاف الى سني القضاة مدة مُلكِ شاول وهي أربعون سنة، ومدة مُلكِ داود وهي أربعون سنة أيضاً ومدة اربع سنين من مُلكِ سليمان. فيكون مجموع السنين من ولاية القضاة الى بناء الهيكل خمس مئة واربع وثلاثين سنة. ويُلزم أن يضاف إلى هذا العدد مدة اقامة بني اسرائيل في البرية، وهي اربعون سنة، ومدة ولاية يشوع وهي خمس وعشرون سنة – كما مرَّ – فيكون المجموع خمس مئة وتسع وتسعين سنة، وهذا مخالف لما في سفر الملوك. ولذلك توفَّرت الاقوال وتضاربت، وأصحّها ان هؤلاء القضاة كان احيانا اثنان او ثلاثة منهم في وقت واحد. وقد جاء في سفر القضاة نفسه (فصل ١١ عد ٢٦) التصريح بأنه انقضى على بني اسرائيل منذ بلوغهم شرقي الاردن الى زمان يفتاح ثلاث مئة سنة، وعليه وضع الأب فيكورو (في الموجز الكتابي عد ٤٤٩) لتوفيق هذا الخلاف الجدول الآتي .

سنة.	
٤٠	مدة إقامة بني اسرائيل في البرية
٣٠٠	من ولاية يشوع إلى يفتاح
٦	يفتاح
٧	أبصان
١٠	أيلون
٨	عبدون
٢٥	من عبدون الى ارتقاء شاول عرش المُلك
٤٠	شاول
٤٠	داود
٤	سليمان
٤٨٠	المجموع

والذي أراه بخامد فكرتي على سبيل استخراج العدد غير المعلوم من المعلوم أن نراعي عدد السنين المنصوص عليه. ولا يحتمل اللبس لنستخرج منه مدة سني

القضاة الحاصل الاشكال فيها من قبيل ان كان بعضهم مع غيره في وقت واحد او كان احدهم في شرقي الأردن والآخر في غربه فاليك الجدول الآتي :

سنة	
٤٨٠	المدة من الخروج إلى بناء الهيكل (ملوك ٣ ف ٦ ع ١)
٤٠	مدة اقامة بني اسرائيل في البرية كما في آيات عديدة
٢٥	قيادة يشوع (يوسيفوس ك ٥ من تاريخ اليهود فصل ١)
٤٠	مُلك شاول (اعمال الرسل فصل ١٣ عد ٢١)
٤٠	مُلك داود (ملوك ٢ فصل ٥ عد ٤)
٤	من مدة مُلك سليمان (ملوك ٣ فصل ٦ عد ١)
٣٣١	فتكون مدة القضاة
٤٨٠	

ويُرجَّح أن أبصان وايلون وعبدون كانوا يلون شرقي الأردن في مدة ولاية عالي وصموئيل وسطو شمشون في غربه. طالع جدولاً آخر سنثبته عد ٢٨١. قال فرنسيس لانرمان في تاريخه القديم للمشرق (مجلّد ٦ صفحة ٢٠٨) ما ملخصه لا يطمعنَّ أحد بأنه يستطيع أن يعيِّن بالدقة تاريخ الاحداث وسني كلٍّ من القضاة التي جاء ذكرها في سفر القضاة، فمن جدَّ من العلماء في هذا التعيين أضاع تعبه ووقته، وحالت مشاكل دون مرامه. ففي اسفار الملوك اعداد تخالف اعداد السنين في تعيين مدة القضاة، ويوسيفوس المؤرخ اليهودي والراوي الأمين لتقليد أمّتِه لم يثبت على قول في تعيين مدة القضاة بل قال فيه ثلاثة أقوال : يخالف احدها الآخر على أن تقدُّم علم التاريخ بما ظهر من الآثار المصرية يبيحنا أن نعلِّل النفس بأمل ان يتهيأ لنا في وقت قريب تعيين زمان مؤكد للخروج بمعارضة تواريخ مصر بما جاء في الكتاب. ويضطر كل عالم الآن ان يُقِرّ بانه يلزم ان يطرح من عداد السنين التي انقضت بين خروج بني اسرائيل من مصر واقامة ملك فيهم أكثر ممّا جاء في كل التقاويم التي اذيعت حتى الآن.

عد ٢٢٧

محاربة بني يهوذا وشمعون وبني يوسف بعض الكنعانيين

جاء في سفر القضاة (ف ١) أن بني اسرائيل سألوا الرب بعد وفاة يشوع قائلين: من منا يصعد في مقدمتنا لمحاربة الكنعانيين ؟ فقال الرب: يهوذا يصعد لأني إلى يده قد أسلمت الارض، لأنّ الله أراد أن يكون ملوك اسرائيل من هذا السبط وأن يكون منه المخلّص. واتفق بنو يهوذا وبنو شمعون على مقاتلة الكنعانيين الذين في ارض نصيبهم. وقصدوا أولاً بازق التي روى لانرمان انه لا يمكن تعيين موقعها ولكن يلزم بين اورشليم والأردن على انه جاء في كتاب اعلام الاماكن الكتابية انه يُحتمل ان يكون في موضع خربة بزقة على بعد ستة اميال في الجنوب الشرقي من اللّد. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٥ ف ٢) أن الكنعانيين أملوا الانتصار على بني اسرائيل بعد وفاة يشوع. فجمعوا عسكراً غفيراً في جانب مدينة بازق، وامّروا عليه ملكها المسمى ادوناي بازق اي سيد بازق او واليها، لأن تأويل ادوناي بالعبرانية السيد او المتسلّط. فاستظهر عليهم بنو اسرائيل، وقتلوا منهم عشرة آلاف رجل، وشتتوا شمل الباقين وادركوا ادوناي بازق، وقطعوا اباهيم يديه ورجليه، وعلى رواية يوسيفوس بأنهم قطعوا يديه ورجليه فكان ما جرى عليه نقمةً من الله، فقد اعترف أنه صنع كذلك سبعين ملكاً كانوا يلتقطون الخبز تحت مائدته، فعاقبه الله كما جنى، واتوا به الى معسكرهم الحال قريباً من اورشليم فمات هناك.

وحارب بنو يهوذا اورشليم، وافتتحوها، ولكن روى يوسيفوس انهم افتتحوا المدينة السفلى. وقتلوا اهلها واحرقوها بالنار، وكانت المدينة العليا محصّنة فلم يفتتحوها لكن النص صريح بأنهم افتتحوا اورشليم، فيطلق على كلها. ولذلك قال بعضهم انهم افتتحوها فلم يتمكنوا من حفظها بل عاد اليبوسيون اليها او لم يطردوهم منها، فلبثوا فيها مع بني بنيامين كما جاء في عد ٢١ من الفصل الاول نفسه من سفر القضاة، ومهما يكن فقد استمر اليبوسيون في أورشليم الى ان افتتحها داود.

وحارب بنو يهوذا حبرون ايضاً (الخليل) فاستولوا عليها وضربوا بني عناق فيها وسلموها الى كالب إبن يوفنا كما وعده موسى، وكما طلب هو من يشوع. وقد مرّ (في عد ٢٢٢) انّ كالب بن يوفنا هو الذي افتتح حبرون ودبير، ولا بدّ ان

كان مع اله بني يهوذا، فذكر سفر القضاة هنا لهذا الفتح اعادة لما جاء ذكره في سفر يشوع كما تبين من أن قرائن الخبر في السفرين واحدة. ثم انطلق بنو يهوذا مع بني شمعون الى صفات فاخذوها وضربوا اهلها بالسيف، وسموها حرمة اي المحرّمة. ولا يمكن القطع بموقع صفات فكتاب اعلام الاماكن لم يعين موقعها بل اورد فيه عدة احتمالات. وكاران لم يذكرها بالخصوص بل ذكر شيئاً عند كلامه في مريشه في وادي صفاته الذي رأى بعضهم ان صفات كانت على جانبه فقال ما ملخصّه ان مريشة هي خربة مراش الآن، وقد جاء ذكرها مع وادي صفاته في سفر اخبار الايام الثاني (فصل ١٤ عد ٩) حيث قيل: « فخرج عليهم اي على بني يهوذا زارح الكوشي... فخرج آسا عليه وتصافا للحرب في وادي صفاته مريشة». وقال: إن مريشة خربة مراش تبعد ميلين عن بيت جبرين نحو الجنوب، وان روبينسيون جنح الى جعل موقع صفاته في محل تل الصافي الآن التي تبعد مسافة نحو ثلاث ساعات عن خربة مراش، فان صحَّ ان صفات كانت على جانب وادي صفاته فيكون موقعها في ناحية بيت جبرين. ثم افتتح بنو يهوذا غزة وتخومها واشقلون (عسقلان) وتخومها. وعقرون (عاقر)، وتخومها وسائر مدن الجبل. واما مدن الساحل فلم يفتتحوها اذ كان لاهلها مركبات من حديد تحول دون الدنو منها.

ثم صعد بنو يوسف أي سبط افرائيم ونصف سبط منسا أو سبط افرائيم وحده على ما روى يوسيفوس، فحاصروا بيت ايل (بيت اين الآن) الى ان دلَّهم رجل خارج منها على مدخل اليها. فافتتحوها وضربوا أهلها بالسيف، واستبقوا الرجل وعشيرته. وكان اسمها قبلاً لوز فانطلق ذلك الرجل الى ارض الحثيين، وبنى مدينة وسماها لوز (طالع ما ذكرناه في عد ٥٦ في اسم هذه المدينة وموقعها). واما باقي الاسباط فلم تهزهم الحمية أو لم تساعدهم القوة على طرد الكنعانيين كما اوصاهم موسى ويشوع في المدن الساحلية كعكاء وصيداء وغيرها، وفي بعض المدن الجبلية، وحيث تقوّى بنو اسرائيل ضربوا عليهم جزية، وحيث ضعفوا سالموهم وتركوهم يسكنون بين اظهرهم. وحققت لنا الآثار المصرية بقاء الكنعانيين في السواحل، اذ ذكرت هذه الآثار غزوة رعمسيس الثالث ومرور جنوده في هذه السواحل. ولم تأتِ بكلمة في بني اسرائيل ،ولا جاءت في سفر القضاة كلمة في مرور عساكر مصريين في بلاد بني اسرائيل أو مضايقتها لهم.

عد ٢٢٨

تسلط كوشان رشعتائيم ملك آرام على بني اسرائيل وتخليص عتنيئيل لهم

لم يكتف بنو اسرائيل بمسالمة بعض الكنعانيين بل اتخذوا بناتهم زوجات لهم. وأعطوا بناتهم لبنيهم، وعبدوا آلهتهم البعليم (اي الابعال) والعشتاروت، فاشتدَّ غضب الرب عليهم. ولما كان الكنعانيون لم تعاودهم القوة للتسلّط على بني اسرائيل باعهم الرب إلى يد كوشان رشعتائيم ملك آرام النهرين. فتعبدوا له ثماني سنين. وسمى يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ٥ فصل ٣) هذا الملك «كوزرتا ملك الآشوريين». وقال رولينسون إنّه يحتمل ان يكون اشوريش عليم حفيد آشور ديان وابو تجلت فلاصر الاول الذي قال فيه «إنّه الملك القدير وغازي البلاد الاجنبية». وتابعه سايس (في كتابه معارضة تاريخ آشور وبابل). ولكن ندد فيكورو بقولهما اذ لم يكن لهما فيه حجّة تؤيده، فان لم يكن كوشان معلوماً بشخصه فمعلوم أنه كان من بلاد ما بين النهرين لتصريح الكتاب بانه ملك آرام النهرين. ولا عبرة لزعم كراتس انه ملك ادوم وقد تصفحت أدوم بآرام للمقاربة في العبرانية بين صورتَي الحرفين المقابلَين الدال والراء كما هما في لغتنا أيضاً. فكوشان غشى فلسطين بعساكره واخضع بني اسرائيل لسلطته. وكانوا يدفعون اليه جزيتهم كل سنة، يحملونها إلى مقرّه فيظهر انهم تقاعدوا عن حملها إليه أو لاح له ما يدل على عصيانهم. فزحف إليهم بجنوده ينوي التنكيل بهم، فصرخ بنو اسرائيل الى الرب فأقام لهم مخلّصا وهو عتنيئيل قناز اخي كالب الاصغر، وكان مزوجاً بعكسه ابنة عمه كالب وعده بها يوم حصار قرية سفر فكان هو اول من افتتحها كما مرَّ عد ٢٢٢. فعتنيئيل حضَّ اخوانه بني اسرائيل على التوبة إلى الله مذكراً لهم بآياته يوم كانوا يتّقونه واياه وحده يعبدون فاذعنوا لكلامه. وامَّروه عليهم فجمع عسكراً من بني اسرائيل، وخرج لمحاربة كوشان فاسلمه الرب الى يده واستظهر على جنوده وشتت شملهم. ولم ينبئنا الكتاب اين كانت تلك الحرب، ولم يطرفنا بشيء من التفصيل ولكن ظهر من كلامه ان الضربة كانت قاضية لذكره ان بني اسرائيل استراحوا بعدها اربعين سنة، وان سلطة كوشان كانت عمَّت بلاد فلسطين حتى جنوبها، لأن عتنيئيل الذي شتت جنوده كان من سبط يهوذا ساكنا في قرية سفر اي دبير (وهي سراسير الآن) على مقربة من الخليل (قضاة ف ٣).

عدد ٢٢٩

تعبّد بني اسرائيل لعجلون ملك مواب وتنجية اهود لهم

مات عتنيئيل فعاد بنو إسرائيل إلى شرهم، فلم يجلب الرب عليهم هذه المرة ملكاً من قاصي البلاد ويجعله آلة لنقمته، بل اثار عليهم عجلون ملك الموآبيين من ذريتهم، اي من ذرّية مواب بن لوط من بنته الكبرى، وكان الرب حظر على الاسرائليين في أيام موسى أن يحاربوا الموابيين حرمةً للوط. وكانت مساكنهم في الجنوب الشرقي من فلسطين وراء البحر الميت. ولما كانوا ضعفاء لا يملكون من الارض إلّا يسيراً استنجدوا بالعمونيين أبناء خالتهم واخوانهم لانهم ابناء لوط من بنته الصغرى. وكانت مساكنهم في الشمال الشرقي من أرض الموآبيين. ولجأوا إلى العمالقة، وكانوا رُحّلاً في البرية الواقعة في شرقي تخوم الموآبيين، وأمر هؤلاء على جيشهم عجلون ملك الموآبيين. فانتصروا على بني اسرائيل الذين في شرقي الاردن وعبروا هذا النهر، ولم يقتصروا على إجبار بني اسرائيل ليدفعوا لهم الجزية كما فعل كوشان ملك آرام النهرين، بل ارادوا انتزاع املاكهم ايضا لضيق ارض مواب فاخذ عجلون مدينة النخل المراد بها على الارجح اريحا. واقام فيها ثماني عشرة سنة مستعبداً بني اسرائيل، والظاهر أن هذا الاعتباد لم يكن عامّاً ولكن لا أقل من ان يكون شاملاً مَنْ اقام من بني اسرائيل في شرقي الاردن وسبط بنيامين الذي اريحا في نصيبه وسبط يهوذا لقربه من العدو.

وصرخ بنو اسرائيل الى الرب فأقام لهم مخلِّصاً أهود بن جيرا من سبط بنيامين. وكان رجلاً أعسر يعمل بيده العسرى بدلاً من اليسرى، والاظهر انه كان يعمل بكلتا يديه كما كان كثيرٌ من سبطه (قضاة ف ٢٠ عد ١٦). فأرسل بنو إسرائيل على يده هدية أو جزيتهم إلى ملك عجلون. وعمل لنفسه سيفاً ذا حدين طوله ذراع اشتمل عليه تحت ثوبه على فخذه اليمنى ليبسر له إنتضاؤه بيده اليسرى، وليخفي اشتماله عليه فقدم الهدية وشيَّع حامليها. وذهب الى المنحوتات المقامة في الجلجال في جانب أريحا ليظهر أنه يستشيرها بامرٍ. وعاد يقول للملك لي إليك كلامُ سرٍّ ايها الملك فقال: صه. فخرج من عند الملك جميع الواقفين لديه ولم يخطر على بال أن رجلاً منفرداً أعزل لا سلاح له يفتك بالملك، فلما خلا به في غرفة صيفية له في أعلى داره قال أهود لي كلام إليك من عند الله فنهض عن

سريره تهيباً، وكان غرض اهود من كلامه أن لا تخطئه الضربة اذا كان على سريره فمدَّ يسراه، وأخذ السيف عن فخذه اليمنى، ووجأه في بطنه فغاص القائم أيضاً وراء النصل، واطبق الشحم عليهما لأنه كان سميناً. ولم ينزع اهود السيف وخرج واغلق أبواب الغرفة واقفلها وأفلت. ودخل عبيد الملك فإذا ابواب الغرفة مقفلة فظنوه يقضي حاجة في مخدع المصيف، ولما استبطأوه اخذوا مفاتيح، وفتحوا فإذا مولاهم صريعٌ على الارض ميتاً، وأما اهود فبلغ الى سعيره. (لم يتعين موقعها، ويظهر انه في جبل افرائيم على ما قال فيكورو وعلى ما في كتاب أعلام الاماكن: ونفخ في البوق في جبل افرائيم، فنزل بنو اسرائيل من الجبل على اثره، واستولوا على مخاوض الاردن، وضربوا من كان عند الملك، ومن فرَّ وقع بيدهم في معابر النهر. فقتلوا من الموابيين حينئذٍ نحو عشرة الاف رجل كل شجاع وكل ذي بأس، فذُلَّ الموآبيون لهم واستراحت الارض ثمانين سنة (قضاة ف ٣).

وليس المراد باستراحة الارض أن الراحة عمَّت جميع ارض بني إسرائيل، فقد انبأنا الكتاب بأثر ما مرَّ دون فاصل أن شمجر بن عنات يصحبه قوم من حارثي الارض ضربوا الفلسطينيين الذين كانوا يعتدون عليهم في الجنوب، فقتلوا منهم ست مئة رجل، ولم يكن لهم سلاح إلّا منساس البقر فعُدَّ شمجر من مخلصي بني اسرائيل وهو الثالث من القضاة وسوف نأتيك ببيان اصل الفلسطينيين.

ان استعمال حيلة كالتي عمدَ إليها اهود في قتل عجلون كان مستباحاً مستفاضاً عند جميع القدماء، ولا سيَّما الشرقيين وكانوا يحسبونه نوعاً من الحرب، وربما فضلوه عليها لاقلاله عدد القتلى والمصابين. وقد ترنَّم اليونان بتقريظ هرموديوس، وارستوجيتون لأنهما اتيا مثل ما أتاه اهود. وقرَّظ الرومانيون موشيوس سكافولا (اي الاعسر ايضاً)، لانه فعل مثل ذلك ببرسينا الذي حاصر روما. وما احسن ما قاله هردر في تاريخ شعراء العبرانيين (صفحة ٤٣٦): «ليس اخص من التنديد بسفر القضاة، وبما رواه عن بعضهم، فمن دأب هؤلاء المنددين ان يتناسوا الزمن الذي كُتِبَ هذا السفر فيه. فالقبائل القديمة كانت تستبيح استعمال اخبث الحيَل في حروبها، ولم تزل هذه العادة عند بعض الشعوب الذين لم يبلغوا ذروة التمدُّن. فانهم على ما لهم من البسالة والسطوة يؤثرون الحيلة على القوّة، وكانت الضرورة تقضي بهذا الدهاء على شعبٍ يضطهده جيرانه وهو قلق في داخله. ولم تبق الحمية الطائفية الّا في بعض افراده، ولم يكن له رئيس ولا حاكم يهتمّ

بالمصالح العامة وهل لفردٍ ولو عظُمت شجاعته ان يدّعي مقاومة عسكر برمته؟ ولم تكن في تلك الايام الاختراعات التي جعلت الحرب صناعة وعلماً، او ليست هذه الاختراعات نفسها أكبر حيلة ودهاء. وهل من حيلة او شجاعة أخسّ مما يقذفه احد المدافع»؟ هذا والكتاب لم يثن في محل على ما عمله اهود بل اقتصر على ذكره فقط.

عد ٢٣٠

دابورة وباراق وتخليصهما بني اسرائيل من يد ملك حاصور

مضى على الكنعانيين نحو من خمسين سنة بعد تذليل بني اسرائيل لهم، فعاودتهم القوة لينهضوا من سقطتهم خاصة في شمالي فلسطين حيث استمرّ جمٌّ غفير منهم يتيسر لهم لدى الحاجة ان يستنجدوا بالفينيقيين، وسكان جبل لبنان الذي لم يدخله بنو اسرائيل، فسوَّلت انفسهم لهم أن يأخذوا بثأرهم. وعاد بنو إسرائيل يتمرغون بشرّهم فباعهم الرب الى يد يابين ملك حاصور التي على جانب بحيرة الحولة. (في المحل المسمى الآن تل الهراوى أو في جبل حضيرة وهو خليفة يابين الآخر الذي حارب يشوع بن نون مؤلّباً عليه ملوك الشمال، وكان له رئيس جيش يسمى سيسرا مقيماً بحروشت الامم وهي مدينة أخرى على بحيرة الحولة (في المحل المسمى الآن الحراثية اعلام الاماكن). وربما كان سيسرا ملكاً او قيلاً محالفاً ليابين، لأن دابورا قالت في نشيدها: «وفد الملوك وقاتلوا» (قضاة ف ٥ عد ١٩). وعليه فكان من ضايقوا بني اسرائيل ملوكاً لا ملكاً واحداً ويابين رئيس عصبتهم. وضايقوا بني اسرائيل الذين في شمال فلسطين عشرين سنة، واثقلوهم بجزيات فاحشة ولم يجسر بنو إسرائيل ان يخلعوا نيره، وكانت مركباتهم المصفَّحة بالحديد تروّع بني اسرائيل.

وكانت قوات الممالك في تلك الأيام تقاس بعدد مركباتها، وقد أبقت لنا الآثار المصرية على ذكر هذه المركبات في سورية. فالشاعر بنتاور المصري روى انه كان للحثيين عند محاربتهم رعمسيس الثاني الفان وخمس مئة مركبة للحرب. وفي آثار رعمسيس الثالث انه كان للكنعانيين عند استظهاره عليهم في موقعه مجدّو (اللجون) تسع مئة وأربع وتسعون مركبة. ولم يكن لبني اسرائيل مركبات لاقامتهم

في الجبال. وكان في معسكر سيسرا تسع مئة مركبة لإقامتهم في السهول، فضاق بنو اسرائيل ذرعاً ولم يجدوا لهم ملجأً ولا منصاً إلا بأن يصرخوا إلى الله كما كانوا عند ضيقتهم يفعلون. فرأف الرب بهم وأقام لهم هذه المرة مخلّصة وهي امرأة. كانت تسكن في جبل افرائيم وتسمى دابورة. وتأويل اسمها بالعبرانية نحلة (كما قال يوسيفوس ك ٥ ف ٦ في تاريخ اليهود) وكانت نبيّة، ولها من شهرة الحكمة ما جعلها حكماً يلجأ اليها المتنازعون من كل فج لفصل دعاويهم، فأخذتها الغيرة على انقاذ شعبها. فأرسلت ودعت باراق (وتأويله البرق كما قال يوسيفوس: في المحل المذكور) بن ابينوعم من قادش نفتالي، وهي المعروفة الآن من اعمال صفد وقالت له من قِبَلِ الرب ان يجيش في جبل طابور عشرة آلاف رجل من بني نفتالي وزابلون. فلم يشأ ان ينطلق الّا ان تصحبه دابورة فانطلقت معه الى قادش. وعلم سيسرا أن باراق ورجاله صعدوا الى جبل طابور فجمع مركباته ورجاله ومضى لقتالهم، ولمّا كانت المركبات لا تسير في الجبل فخيّم بعسكره في مرج بن عامر على نهر قيشون المعروف الآن بالنهر المقطع. وقالت دابورة لباراق قمْ فان الرب اليوم يدفع سيسرا الى يديك. فنزل من جبل طابور ووراءه عشرة آلاف رجل، والقى الرب رعباً على سيسرا وجنوده فانهزموا من وجه بني اسرائيل، فتتبّعوا آثارهم الى حروشت الأمم المار ذكرها وصنعوا بهم مقتلةً. وروى يوسيفوس (في الفصل الآنف ذكره) انه لمّا اقبل بنو اسرائيل على الكنعانيين انزل الرب مطراً مدراراً وبرداً وريحاً عاصفة بوجه الكنعانيين حتى لم يقووا على استعمال سلاحهم. وكانت العاصفة من جهة ظهر بني اسرائيل، والى ذلك اشارة في تسبحة دابورة حيث قالت: «من السما نشب القتال، الكواكب من حبكها حاربت سيسرا نهر قيشون جرفهم» (قضاة ف ٥ عد ٢٠). اما سيسرا فنزل من مركبته وفرّ راجلاً، وكان حابر القيني احد اقرباء امرأة موسى الذين كانوا اختلطوا ببني اسرائيل ساكناً هناك في خيمة وكان بينه وبين يابين مسالمة.

فخرجت ياعيل امرأة حابر لإستقبال سيسرا وقالت له: مل يا سيدي لا تخف فدخل خيمتها، وسألها ان تسقيه فناولته عوض الماء لبناً فساعد على نعاسه، فاسترخى ونام وغطته بالقطيفة. فاخذت ياعيل وتد الخيمة من حديد بشمالها والميتدة بيمناها وضربت الوتد في صدغه حتى غرز في الارض، واذا بباراق جاد في اثره فقالت له ياعيل: تعالَ أرِكَ الرجل الذي انت طالبه، فدخل فاذا بسيسرا ساقطٌ

ميتاً والوتد في صدغه، فتقوى بنو اسرائيل على يابين واذلّوا قومه. وسبّحت دابورة تسبحتها الشهيرة المثبتة في الفصل الخامس من سفر القضاة وهي شعر، بل قال فيها هردر أنها احسن اشعار العبرانيين الحماسية، واستراحت الارض اربعين سنة. ويراد بها ارض الشمال والصريح في الكتاب أن رجال باراق الذين اصلوا نار الحرب كانو من سبطّي نفتالي وزابلون فقط.ويتلخص من تسبحة دابورة انه نجدهم بعضٌ من اسباط بنيامين ويساكر وافرائيم. واستمر الباقون في الجنوب وعبر الاردن وسبط دان واشير (على قرب هذا السبط الاخير من ساحة الحرب)، لا تهزهم الحمية على انجاد اخواتهم بل آثروا عليه الراحة في املاكهم آمنين، وكانت هذه الانقسامات علةّ لتواتر المصائب عليهم فان الله يجعل احياناً نقايص الناس انفسهم نقمة منهم.

عاب بعض المنددين ياعيل بخيانتها سيسرا، وعابوا الكتاب بمدحه ما صنعت، وقد فاتهم أن قتل سيسرا كان عادلاً لإشهاره الحرب على بني اسرائيل، وياعيل تحسب من عديدهم. وكانت شرائع الحرب حينئذٍ تبيح قتل العدو وان فاراً، وكان على سيسرا أن يتحاشى دخول خيمة سكانها من اعدائه. واما قولها له ان لا يخاف فمحمول على أنها اخذتها الشفقة عليه أولاً، فأوته ثم تروّت فرأت انه عدو لشعبها، وانها مندوبة لقتله حباً بشعبها ووطنها ففعلت. ولم يثنِ الكتاب عليها لعملها عملاً صالحاً بل اثنى على شجاعتها، وحبها وطنها وسنن الحرب في تلك الايام ومعاملة الكنعانيين بني اسرائيل في مثل هذه الاحداث، قد صوغت لهذه المرأة عمل ما نراه اليوم خيانة، وكان ذلك قبل سنة المخلص الكملى التي ارشدت الى الرفق بالاعداء ايضاً (فيكورو الموجز الكتابي عد ٤٥٤).

عد ٢٣١

جدعون وتخليص بني اسرائيل من المدينيين

مرّ أن الارض التي استراحت اربعين سنة بعد اذلال يابين، يُراد بها ارض من حاربوا مع باراق اي سكان نصيب نفتالي وزابلون ومَن جاورهم. اذ انبأنا الكتاب (قضاة ف ٦) أنّ آثام غير هؤلاء من بني اسرائيل اسخطت الرب، فدفعهم الى ايدي بني مدين سبع سنين. وبنو مدين هؤلاء من ذرّية ابراهيم من قطورة امرأته. ويؤيده انهم كانوا يتكلمون بلغة العبرانيين كما يظهر من ان جدعون فَهِمَ كلام

الرجل الذي كان يقصّ حلمه على صاحبه (قضاة ف ٧ عد ١٣)، وهم الذين ضربهم بنو اسرائيل في ايام موسى لمعاونة بناتهم الموابين على اغواء بني اسرائيل. وكانت مساكنهم في شرقي البحر الميت وراء مساكن بني اسرائيل في عبر الاردن، والاظهر انهم غير المديانيين الذين كانوا يسكنون في شرقي بحر الاحمر، ومنهم يترو حمو موسى، فهؤلاء من ذرّية كوش (طالع عد ١٩٥ وعد ٢٠١). فالمدينيون الذين من ولد ابراهيم كانوا يأتون كل سنة مع العمالقة سكان الشمال في جزيرة العرب، ومع بني المشرق المراد بهم العرب الرحّل سكان انحاء حوران. وينكلون بني اسرائيل، ويفسدون غلّة الارض إلى مدخل غزّة ولا يبقون ميرةً ولا غنماً ولا بقراً ولا حميراً. ويأتون بماشيتهم وخيامهم في مثل كثرة الجراد، حتى اضطّر بنو اسرائيل ان يختفوا او يخفوا مالهم في المغاور والكهوف والحصون مدة السنين السبع.

فصرخوا الى الرب فأرسل اليهم نبيّاً يذكرهم بانقاذه اياهم من المصريين، وسائر ظالميهم. وظهر ملاك لجدعون بن يواش الابيعزري في عفرة، وهو يدوس الحنطة في المعصرة مكان أن يدرسها بالنّورج. وفي الاندر هرباً من المدنيين، فأعلمه ان الرب مرسله ليخلّص إسرائيل، فاعتذر بأنّ عشيرته أضعف عشيرة وبأنه اصغر اخوته. وسأل علامة يعلم بها انه يكلمه بذلك من قِبَل الرب، فحقق الملاك له هذا بأنه مدَّ طرف العصا التي بيده ومسَّ اللحم والفطير اللذَين كان اعدهما له. فصعدت نار من الصخرة التهمت اللحم والفطير وغاب الملاك عن عينيه.

وابتنى جدعون مذبحاً للرب دعاه سلام الرب قال الكتاب: « وهو إلى هذا اليوم لا يزال في عفرة». وجاء في كتاب اعلام الاماكن أنه يُحتَمَل ان عفرة هذه كان موقعها في القرية المسماة الآن فرعاتا، تبعد ستة اميال عن نابلس غرباً. واراد جدعون تحقيق رسالته من قِبَل الرب فضرع اليه قائلاً: هآنذا واضع جزّاز صوف في البيدر، فإذا سقط الندى على الجزّاز وحده وعلى سائر الارض جفاف علمت انك مخلّص اسرائيل على يدي فكان كذلك. وعصر الجزّاز في الغد فخرج منه من الماء ملءُ سطل ثم قال: اجرّب هذه المرة ايضاً بالجزّاز ، ليكن على الجزّاز وحده جفاف وعلى سائر الارض ندى، وصنع كذلك فكان في تلك الليلة على الجزّاز وحده جفاف، وعلى سائر الأرض ندى فتيَقّن إرسال الرب له.

وقال الرب لجدعون ان يقوّض مذبح البعل الذي لأبيه، ومنه يستلمح أن اباه كان يعبد البعل، وان يقطع الغابة التي حوله وان يبتني مذبحاً للرب هناك ويقدّم عليه ثوراً كان لأبيه. فأخذ عشرة رجال وفعل كما امره الرب ليلاً خوفاً من بيت أبيه واهل مدينته، لكنه لم يختفِ، وطلب اهل المدينة من ابيه ان يخرجه ليُقتَل. فقال ابوه ان كان البعل إلهاً فلينتقم لنفسه ممن هدم مذبحه، وهذا يمنع من القطع بأنّ اباه كان يعبد البعل. ودعا ابنه يدبعل لكي ينتقم منه البعل واما جدعون فنفخ في البوق فتبعه بعض قومه وأرسل رسلاً الى بني منسا فاتبعوه، والى بني آشير وزابولون ونفتالي فصعدوا للتقاهم. فاجتمع اليه اثنان وثلاثون الفاً، واعتصب جميع المدينيين والعمالقة وبنو المشرق. فعبروا الاردن ونزلوا وادي يزرعيل حيث زرعين الآن من ناحية جنين (اعلام الاماكن). وتقدموا في السهل الذي هو مرج بن عامر الى محلٍ غير بعيد عن المحلّ الذي كُسِرَ سيسرا فيه. فبكّر جدعون ونزل بقومه على عين صرود المسماة الآن عين جلود في الشمال الغربي من جبل جلبوع الى الجنوب من محلة المدينيين.

وقال الرب لجدعون أن ينادي على مسامع الشعب إنّ من كان خائفاً فليرجع، فعاد منهم اثنان وعشرون الفاً، وبقي معه عشرة آلاف. فقال له الرب ان الشعب كثير ايضاً فيفتخر إسرائيل بأنه خلّص نفسه، فأنزلهم الى الماء وكل من ولغ في الماء بلسانه من راحته الى فمه فأقمه ناحيةً، ومن جثوا على ركبهم ليشربوا فناحيةً اخرى. فكان عدد من ولغ الماء من راحته إلى فمه ثلاث مئة رجل فقط فابقى جدعون هؤلاء معه، وصرف الباقين الى اماكنهم. وقال له الرب إن كنت تخاف فادنُ من محلّة العدى ليلاً مع فورة غلامك واسمع ما يقولون. ولما جاء جدعون اذا برجل مديني يقص حلماً على صاحبه، كأني برغيف خبز يتقلّب على عسكر مدين فانقلب حتى صار الى الخيمة، وصدمها فسقطت. فأجاب صاحبه وقال: انّما هذا سيف جدعون بن يواش جبار اسرائيل الذي دفع الله الى يده مدين كل المحلّة، فعاد جدعون موقناً بالظفر. وقسم الثلاث مئة رجل ثلاث فرق، وجعل ابواقاً في ايديهم وجراراً فارغة في ضمنها مشاعل. وقال لقومه إصنعوا ما تروني صانعاً واحتاط محلة المدينيين من ثلاث جهات ونفخوا في الابواق. وهتفوا السيف للرب ولجدعون، وكسروا الجرار فظهرت المشاعل. فضجّ جيش مدين، وجعل كلّ منهم سيفه في صاحبه فقتل بعضهم بعضاً، وفرّ الباقون الى بيت الشطة الى صريدة حتى

انتهوا الى عدوة آبل محولة التي عند طبات. اما بيت الشطة فهي المحل المسمى الآن شطة في شرقي عين جالود نحو الاردن، وهو اسمها القديم نفسه لأنّ بيت معناها البيت او المحل او القرية . وصريدة – وفي بعض النسخ العبرانية صريرة – لم يتعيَّن موقعها، ولكن لا بدَّ ان يكون بين شطة وابل محولة شرقاً (اعلام الاماكن وكاران مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٠٢).

وأما ابل محولة فالذي قاله كاران (في المجلد المذكور صفحة ٢٧٧) إنّها كانت في محل خربة الحمام المالح بعيدة أربعة عشر ميلاً عن بيسان نحو الجنوب والذي في اعلام الاماكن انها كانت في المحل المسمى الآن العين الحلوة بعيدة عشرة اميال عن بسان جنوباً، والمحلان قريبان من الاردن واحدهما من الاخر، وطبات لا يعلم موقعها معيناً، ولكن لا بدَّ ان كانت في جانب ابل محولة والاردن كما قيل في اعلام الاماكن. واجتمع رجال اسرائيل من بني نفتالي واشير وجميع سبط منسا وتعقبوا أثر المدينيين، وارسل جدعون رسلاً الى جميع جبل افرائيم ليقطعوا عليهم معابر النهر ففعلوا، وقبضوا على قائدَين من قواد مدين وهما عوريب (اي الغراب) وذيب (اي الذئب) فقتلوهما، واتوا برأسَيهما الى جدعون في عبر الاردن.

فلام رجال إفرائيم جدعون لانه لم يَدْعُهُمْ للقتال، فتخلَّص من لومهم بقوله، ليس ان خصاصة افرائيم افضل من قطاف أبيعزر، فالخصاصة ما يبقى في الكرم بعد قطافه، والقطاف جمع قطف اي العناقيد المقطوفة. وابيعزر اسم عشيرته فكأنه يقول انهم فعلوا اكثر مما فعل لانه هزم عوريب وذيباً، واما هما فقتلوهما. ويظهر منه ان جدعون لم يكن كمياً شجاعاً فقط بل كان متقلباً في السياسة ايضاً. ثم عبر جدعون الاردن برجاله الثلاث مئة مطارداً زاباح وصلمناع مَلكَيْ مدين. وقال لاهل سكوت (في كتاب اعلام الاماكن ان الظاهر انها كانت في محل تل درعالا في شرقي الاردن). ولأهل فنوئيل (مدينة في شرقي سكوت لم يتعيَّن موقعها) من سبط جاد اعطوا القوم الذين في عقبي ارغفة خبز لانهم قد اعيوا. فقالوا له ألَعَلَّ اكُفَّ زاباح وصلمناع في يدك حتى نعطي عسكرك خبزاً؟ فلم يعطوهم خشية ان يعود المدينيون فينتقموا منهم. فهددهم جدعون بما اجراه بعده عليهم كما سترى وظلَّ مطارِداً مَلِكَيْ مدين الى قرقر. قال اوسابيوس والقديس ايرونيموس ان موقع هذه المدينة في شمالي مدينة حجر في بلاد العرب. وفي اعلام الاماكن ان اسمها الآن غير معيَّن ويُحتَمَل ان يكون المراد بها عمل او مدينة فهناك ادرك جدعون الملكين،

ومعهما خمسة عشر الف رجل، وكان من تجندوا في ساحة القتال مئة وعشرين الف رجل. ولما اقبل جدعون على الملكين وعسكرهما تسارعوا الى الفرار فجدّ رجال جدعون في اثر الملكين، فادركوهما وقبضوا عليهما ورجعوا بهما من عند عقبة الشمس كذا في الترجمتين السبعينية والسريانية، وفي نسخة الآباء اليسوعيين ولكن في اللاتينية المعروفة بالعامّية « ورجع قبل مطلع الشمس»، ولعلّه الأصح اذ لم يوجد ثمة محل يسمى عقبة الشمس.

وعاد جدعون الى سكوت فقبض على شيوخها وقال لهم هوذا المِلكان اللذان عيرتموني بهما، واخذ اشواكاً من البرية، ونوارج وعاقبهم بوضعهم على الاشواك تحت النوارج، وهدم برج فنوئيل وقتل رجالها، وقال لزاباح وصلمناع كيف كان الرجال الذين قتلتماهم بطابور ؟ فقالا كانوا مثلك وهيئتهم كهيئة ابناء الملوك. فقال انّما هم اخوتي وابناء امي ولو ابقيتما عليهم لما كنت اقتلكما. وقال لياتر بكره قمْ فاقتلهما، فلم يخرط سيفه خوفاً لانه كان صبياً. فقام جدعون وقتلهما، واخذ اهلّة الفضة التي كانت في اعناق جمالهما. ومنه يظهر قدم عادة العرب في تزيين اعناق جمالهم باهلّةٍ وغيرها من الحلى الى اليوم. وقد كانت ضربة جدعون المدينيين مذللة لهم اعواماً طوالاً اذ قال الكتاب ذُلّ مدين امام بني اسرائيل، ولم يعودوا يرفعون رؤوسهم» (قضاة ف ٨ ع ٢٨).

وبعد هذا الظفر قال رجال اسرائيل لجدعون: تسلط علينا انت وابنك وابن ابنك. فقال لهم جدعون: لا انا اتسلط عليكم ولا ابني بل الرب يتسلط عليكم. ولكن اقترح عليهم أن يعطيه كل واحد منهم خرصاً من غنيمته. فقالوا: لك ذلك وبسطوا رداءً، فالقى عليه كل امرىءٍ منهم خرصان غنيمته، فكان وزن خرصان الذهب التي طلبها الفاً وسبع مئة مثقال ذهب ما خلا الاهلة والنطفات اي القروط والثياب الارجوانية التي كانت على ملوك مدين، وما خلا القلائد التي كانت في اعناق جمالهم. وقد اتفق الكتاب والآثار المصرية، والآشورية والسورة في الدلالة على ان تَحلي الرجال، والنساء والدواب ايضاً بالحلى كان من اقدم الدهر عامًّا في المشرق، فصاغ جدعون ذلك الذهب افوداً، وهو احد الملابس الكهنوتية كالبطارشيل في أيامنا، وجعله في مدينة عفرة (فرعاتا) وكانت الناس تتقاطر من كل فج لتراه به حتى نشأ عن ذلك نوع من العبادة الوثنية لهذا الافود.

والى هذا اشار الكتاب بقوله ان هذا الافود صار وهقاً لجدعون، وبيته على أنه في الترجمتين القديمتين السريانية والعربية، وفي كتب بعض المفسرين كلمة تمثال مكان الافود. والنص العبراني غير صريح، والالف والسبع مئة مثقال ذهب تعادل اربعة وعشرين الف غرام ومئة واربعين غراماً اي نحو ثمانية آلاف درهم، اذا حُسِبَ كل مثقال ٢٠. ١٤ غراماً كما كانوا يحسبون بعد السبي البابلي. وعمل الافود لا يستلزم هذا القدر الكبير من الذهب. ومات جدعون وله سبعون ولداً لانه اتَّخذ نساءً كثيرات، ودفن في مدفن يواش ابيه في عفرة، واستراحت الارض بعد انتصاره أربعين سنة (قضاة ف ٦ و ٧ و ٨).

عد ٢٣٢

ابيملك وتولع ويائير

كان لجدعون سرية في شكيم (نابلس) وُلِدَ له منها ابنٌ سماه ابيملك، فانطلق بعد وفاة ابيه، فكلَّم أخواله وعشيرتهم قائلاً ايّ الامرين خيرٌ لكم؟! أأن يتسلَّط عليكم اخوتي سبعون رجلاً أم أن يتسلَّط عليكم رجلٌ واحد؟ واذكروا اني عظمكم ولحمكم، فمالت قلوب اهل شكيم إليه وقالوا: إنه اخونا واعطوه سبعين مثقالاً من الفضة عبارة عن نحو من الف غرام من بيت بعل بريت الذي كانوا يعبدونه. وكانت عادة اهل شكيم ككثيرٍ غيرهم من القدماء ان يضعوا كنوزهم وما كان ثميناً عندهم في هياكلهم لاعتبارهم الهياكل محلاً حريزاً مباركاً. وقد وُجِدَ في كثيرٍ من الهياكل خزائن يستودعونها ما كان ثميناً. فأخذ ابيملك الفضة، واستأجر بها رجالاً بطالين اشقياء تبعوه، فجاء بيت ابيه في عفرة، وقتل اخوته، ولم ينجُ منهم إلَّا يواتام إصغرهم، فاجتمع اهل شكيم وبيت ملّو، وهي مدينة مصاقبة لشكيم. وقال كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ٤٦٤) انها تسمّى الآن خربة الدوّارة ومضوا فأقاموا ابيملك ملكاً عليهم.

فانطلق يواتام اخوه ووقف على قمّة جبل جرزيم (وهو جبل الطور حيث يجتمع السامريون في أعيادهم كل سنة في جانب نابلس). ورفع صوته وقال: إسمعوا لي يا اهل شكيم سمع الله لكم. ذهبت الشجر مرة ليمسحنَ عليهنَّ ملكاً فقلنَ لشجرة الزيتون كوني علينا ملكة فقالت: أأدع زيتي الذي لاجله تكرّمني

الآلهة والناس، واذهب لاستعلي على الشجر؟ فقلنَ للتينة: كوني انتِ ملكة علينا فقالت: أأدع حلاوتي وثمرتي الطيبة واذهب لاستعلي على الشجر؟ فقلنَ للجفنة: كوني انتِ علينا ملكة، فقالت: أأدع مسطاري الذي يسرُّ الله والناس، واذهب لاستعلي على الشجر؟ فقلنَ للعوسجة: تعالي انتِ فكوني علينا ملكة فقالت: ان كنتنَّ حقاً تمسحنني ملكة عليكنَّ فتعايلنَ استظللنَ بظلي، وإلَّا فلتخرج نار من العوسجة وتحرق ارز لبنان. والآن ان كنتم فعلتم بالحق والاستقامة فملكتم ابيملك عليكم، وكافأتم جدعون على تخليصكم من اهل مدين بذبحكم سبعين رجلاً من بنيه، فافرحوا بأبيملك وليفرح هو بكم. وإلَّا فلتخرج منه نارٌ، وتأكل أهل شكيم وبيت ملّو، ولتخرج نارٌ منهم وتأكل ابيملك. وهرب يواتام، واختفى من وجه اخيه ومَلِكَ أبيملك على اسرائيل ثلاث سنين، ثم ثار عليه أهل شكيم، فحاربهم ونكَّلَ بهم اولاً. وتيسّر له أن يدخل المدينة بعد أن خرج منها، وقتل الشعب الذي كان فيها، وهدم المدينة وزرع في أرضها ملحاً، فانهم كانوا اذا ارادوا أن يجعلوا الارض عاقراً لا تنبت القوا فيها ملحاً. ومن بقي من اهل شكيم فرّوا الى برج حصين كان فيه هيكل بريت معبودهم. فحاصره ابيملك، وجمع حطباً حوله واحرقه، فأباد من السكان نحو الف نسمة. ثم انطلق الى تاباص المسماة الآن توباس، وهي في الشمال الشرقي من نابلس تبعد عنها ثلاثة عشر ميلاً. (ذكره اوسابيوس وحققه كاران مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٥٩). فأخذها وكان فيها صرح حصين لجأ اليه جميع الرجال والنساء، فحاصره أبيملك وتقدَّم ليحرقه فألقت امرأة قمامة رحى اصابت رأس ابيملك، فشدخت جمجمته فاستدعى حامل سلاحه وقال له: استل سيفك واقتلني لئلا يقال عني انَّ امرأةً قتلته، فوجأه الغلام فمات، وانتقم الله منه على ما صنعه باخوته (قضاة ف ٩).

وقام بعد ابيملك لخلاص اسرائيل تولع بن فواة من سبط يساكر، وكان مقيماً بشامير (لم يُعَيّن موقعها كما في كتاب اعلام الاماكن) في جبل افرائيم. فتولى قضاء اسرائيل ثلاثاً وعشرين سنة، ومات ودفن في قريته شامير. وقام بعده يائير الجلعادي فتولى القضاء على اسرائيل اثنتين وعشرين سنة، وكان له ثلاثون ابناً يركبون ثلاثين جحشاً، وكان لهم ثلاثون مدينة تسمى مزارع يائير، وهي في ارض جلعاد (السلط). ولم يطرفنا الكتاب بشيء غير ذلك من اخبارهما، ويظهر ان ولاية يائير كانت في جلعاد وعبر الاردن الشرقي فقط.

عد ٢٣٣
يفتاح

وعاد بنو اسرائيل فعبدوا آلهة الآراميين والصيدونيين وغيرهم، فاشتد غضب الرب عليهم، واسلمهم إلى أيدي الفلسطينيين، وبني عمون فضايقوهم ثماني عشرة سنة. وبعد ان اذلَّ بنو عمون الاسرائيليين الذين في عبر الاردن، اتوا ينكلون ببني يهوذا وبنيامين وافرائيم في غربي الاردن فصرخوا الى الرب، فذكَّرهم بتخليصه لهم مرات عديدة، وبعودتهم الى عبادة الآلهة الغريبة. ولذلك صرف وجهه عنهم قائلاً: إذهبوا فاستغيثوا بالآلهة التي اخترتموها، فأزالوا الآلهة الغريبة من بينهم، وخشعوا له. فرقَّ قلبه لمشقَّة اسرائيل واجتمع بنو عمون، ونزلوا بجلعاد (السلط)، واجتمع بنو إسرائيل، ونزلوا بالمصفاة المعروفة الآن بسوف في شمالي نهر اليبوق، وهو نهر الزرقاء (كتاب اعلام الاماكن) وقالوا أيُّ رجلٍ ابتدأ الحرب مع بني عمون فهو يكون رئيساً على سكان جلعاد كلهم. وكان رجل من جلعاد اسمه جلعاد كبلده وله ابن من امرأة بغيّ اسمه يفتاح، وله بنون آخرون من زوجته الشرعية، طردوا يفتاح لئلا يقاسمهم الميراث فهرب من وجه اخوته. واقام في ارض طوب التي لم يُعَيَّن موقعها الى الآن، ويُرَجَّح انها كانت في شرقي الاردن.

وقال الأب مرتينوس اليسوعي في ما أذاعه البشير من كتابه تاريخ لبنان ان مملكة طوب كان موقعها في انحاء حرمون (جبل الشيخ)، ولعلَّها كانت في منحدره الشرقي في الجهة المسمَّاة الآن بالبلاس. فجمع يفتاح اليه في هذه الارض قوماً بطالين، كانوا يخرجون معه لشنّ الغارة وسلب المارَّة. فانطلق شيوخ جلعاد اليه وكلَّفوه ان يأتي فيكون لهم قائداً فعزَّز نفسه اولاً وقال انكم ابغضتموني وطردتموني، فكيف اتيتموني الآن في شدَّتكم؟ ويظهر انه كان خبيراً بضروب السياسة، فلم يرضَ ان يأتي معهم إلَّا ان يعاهدوه امام الرب، بأنه اذا انقضت الحرب استمر رئيساً عليهم فعاهدوه. فأتى معهم وارسل رسلاً الى ملك بني عمون يسأله لِمَ حمل عليهم؟ ويرغب اليه ان ينكف عن حربهم، فأجابه ملك العمونيين: إنَّ بني اسرائيل اخذوا ارضهم عند خروجهم من مصر، فليردوها عليهم، فأرسل له يفتاح رسلاً آخرين، يبيِّن له ان بني اسرائيل في ايام موسى تحاشوا بأمر الله محاربة الموآبيين والعمونيين، لانهم من نسل لوط وانه قد مضى عليهم وهم مقيمون في

هذه الارض ثلاث مئة سنة. فلماذا لم يسترجعوا ارضهم في تلك المدَّة؟ فلم يسمع ملك عمون كلامه، وزحف بجيشه الى بني اسرائيل. «ونذر يفتاح نذراً للرب وقال: ان دفعت بني عمون الى يدي، فكل خارج يخرج من باب بيتي للقائي حين ايابي سالماً...يكون للرب اصعده محرقة». وهاجم يفتاح بني عمون فسلّمهم الرب الى يده، فضربهم من عروعير (عراعير الآن) الى حدِّ منِّيت عشرين مدينة والى آبل الكروم ضربة عظيمة جداً. فذلَّ بنو عمون امام بني اسرائيل. قال الاب فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٣٣) إنَّ الجوالة الانكليزي تريسترم طاف بلاد مواب سنة ١٨٧٢م واهتدى الى موقع إبل الكروم، وهي بعيدة عشرين دقيقة عن ديبان المعروفة بهذا الاسم ايضاً، وذلك الموقع يسمى الآن كروم ديبان، واما في منِّيت فقال: ظنَّ بعضهم انَّ موقعها كان في المحل المسمى الآن منجه، في شرقي حشبون (حسبان الآن). وهو بعيد أحد عشر كيلومتراً عنها؛ لكننا لم نجد هناك اثراً دالاً على ذلك. ونقل كلمت عن أوسابيوس: انَّ منِّيت بعيدة اربعة اميال عن حشبون شرقاً على طريق فيلادلفية، وهي عمَّان الآن، وفي اعلام الاماكن أنَّ موقعها في المحل المسمى المنية الآن في جنوبي جبل نبو على قول بعضهم.

وعاد يفتاح الى بيته في المصفاة فإذا ابنته خارجة للقائه بالدفوف والرقص، وهي وحيدة لا ولد له سواها. فقال لها: أوه يا بنية قد صرعتني لأني أبرزت نذري للرب، ولا سبيل لنكثه. فقالت: يا أبتِ ان كنتَ قد أبرزتَ نذرك فاصنع بي ما خرج من فيك بعدما انتقم الرب من اعدائك. وطلبت أن يمهلها شهرين لتتردد في الجبال، وتبكي بتوليتها هي واترابها، ففسح لها شهرين فانطلقت، وبكت على الجبال بتوليتها مع اترابها، ثم رجعت الى أبيها فأتمَّ بها النذر الذي نذره وهي لم تعرف رجلاً، وكانت بنات اسرائيل يمضين كل سنة وينحنَ على ابنة يفتاح اربعة أيام.

قد أجمع الآباء القدماء، والتقليد اليهودي والمسيحي الى القرن الحادي عشر ان يفتاح قدَّم ابنته محرقةً للرب. ولكن رأى بعض الحدثاء أنَّ يفتاح لم يُضَحِ بابنته بل نذر ان تبقى بتولاً، ومن حجج هؤلاء أنَّ شريعة موسى حظَّرت صريحاً تقدمة الضحايا البشرية، فلا يُظَنُّ ان يفتاح اراد ان يبرز نذراً مخالفاً للسنَّة، ومنها انه لو كان يفتاح نذر حقيقةً ان يقدِّم ابنته ضحيَّة لما جاز له أن يقدمها بنفسه اذ لم يكن

كاهناً، ومنها ان الكتاب لم يَعب يفتاح بل نرى الرسول عدَّه مع غيره من الآباء. بقوله: ماذا اقول؟ وزماني قصير عن ان اخبر بأمر جدعون، وباراق وشمشون ويفتاح وداود وصموئيل والانبياء» (عبرانية ف ١١ ع٣٢). وقد ردَّ اصحاب القول الاول الحجج المار ذكرها بقولهم: إنَّ حظر السنَّة تقدمة الضحايا البشرية لا تكون منه حجة، بأنّ يفتاح لم يُضَحِّ بابنته اذ يمكنه مخالفة السنَّة كما خالفها بنو اسرائيل بتضحيتهم ببنيهم وبناتهم ايضاً. وكذا يمكنه ان يخالف السنَّة بتضحيتها، وان لم يكن كاهناً. وذكر الرسول يفتاح بين باقي من ذكرهم لا يمكن تنزيله منزلة ثناء على كل اعماله.

فما من قائل ان الرسول بهذا الذكر اثنى على داود بقتل اوريا ايضاً او على شمشون بكثير من اعماله. وقالوا: إنَّ آية الكتاب «كل خارج يخرج من بيتي يكون للرب أصعده محرقة». صريحة تأبى كل تأويل، ويراد بها شخص فلا يمكن حملها على بتولية ابنته، وقال القديس توما: إنّ يفتاح ركب الحماقة بنذره والمعصية باتمامه (الخلاصة اللاهوتية قسم ثانٍ مبحث ٨٨). وكذا قال كثيرٌ من الآباء والعلماء، ولكن انثنى العلماء الحدثاء قائلين: إنَّ كلام الكتاب مجازي، فالمحرقة لا يراد بها محرقة دموية بل يراد بها انقطاع ابنة يفتاح عن الزواج. وهذا الانقطاع كان في المشرق في ذلك العصر محرقةً كبرى، اذ كان عندهم عاراً على المرأة ان لا تلد وهذا واضح من قول اليصابات بعد ولادتها يوحنا: «هذا ما صنعه بي الرب لينزع عاري من بين بني البشر» (لوقا ف ١ ع ٢٥).

ويفتاح بنذره أن تبقى ابنته بتولاً كان يعدم نفسه الامل بأن تكون له ذرية وهذا محرقة من قبله اذ لم يكن له ولد غيرها. وتذرَّع هؤلاء لقولهم بباقي آيات الكتاب وهي: «لم تعرف رجلاً، وابكي بتوليتي، وبكت بتوليتها على الجبال» على أنّ صراحة آية الكتاب بأنه نذر ان يصعدها محرقة، وقوله انه اتمَّ نذره بها ومراعاة عادات البلاد والايام، وجهالة نذر العفّة في تلك الايام. كل ذلك يرجِّح قول من رأوا ان يفتاح قدَّم ابنته محرقة حقاً (فيكورو الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٣٥ والموجز الكتابي عد ٤٥٧ وما يليه).

واجتمع رجال بني إفرائيم، وعنَّفوا يفتاح لانه لم يدعهم لمحاربة العمونيين، فلم يُخمد غضبهم برقة كلامه كما فعل جدعون معهم بل اضطرمت نار الوغى بينهم.

تبيَّن من سفره أنّ بني عناق كانوا يسكنون غزة، وعسقلون وعقرون (عاقر) التي سكنها بعد ذلك الفلسطينيون. وقد ورد ذكرهم ثمة لأول مرة في سفر القضاة حيث جاء أن شمجر حاربهم بمنساس البقر مع أمثاله من الحارثين، وقتل منهم ست مئة رجل.

وقد كان للعلماء ومفسّري الكتاب أقوال متعددة متباينة في أصل الفلسطينيين، ولم ينجلِ أصلهم وذرّيتهم، وارتحالهم إلّا من امدٍ قريب بعد أن أحيا العلماء اللغة الهيروكليفية. وانبعثت رمم تلك الصوَر، فظهر من ورائها كنوز معارف اثمن من كنوز الذهب، ومنها أنّ الفلسطينيين لم يكونوا من قبائل سورية بل من ذرّية البلاسج السكان القدماء في بلاد اليونان، وفي اسمهم نفسه الحروف الأصلية في كلمة بلاسج أو فلاسج، لأنَّ ابدال الباء بالفاء كثير في مثل هذه الأسماء. وإنما بُدِّلت الجيم الأخيرة بالتاء او الطاء تخفيفاً، وقد جاء في كثيرٍ من آي الكتاب وأقوال المؤلفين أنّ منشأهم جزيرة كريت. أو هي أول مرحلة معروفة لهم، فقد ورد في سفر الملوك الأول (ف ٣٠ ع ١٤). «وقد غزونا جنوب الكريتيين وما ليهوذا، وجنوبي كالب»، ولا مراء في أنّ المُراد بالكريتيين هنا الفلسطينيون، وجاء في نبوّة حزقيال (ف ٢٥ ع ١٦). «هأنذا امدُّ يدي على الفلسطينيين وأُقرِض الكريتيين وأُبيد بقية ساحل البحر». وفي نبوّة صفنيا (ف ٢ ع ٥). «ويلٌ لسكان ساحل البحر لأمَّة الكريتيين، إنَّ كلمة الرب عليكم يا كنعان أرضِ الفلسطينيين، فأبيدك حتى لا يبقى فيك ساكن وصرَّح تاشيتوس (في تاريخه ق ٢) أنَّ الفلسطينيين اتوا من كريت.

وقد كشفت لنا الآثار المصرية المنبئة بتاريخ رعمسيس الثالث عن أنّ الفلسطينيين أتوا من كريت. ففي قصر مدينة آبو في تاب (طيبة) صُوَرٌ وخطوط دالة على حصول محالفة بين الكريتيين وغيرهم من عشائر البلاسج في أيام رعمسيس الثالث أحد ملوك الدولة العشرين من الدول المصرية. فغشوا سورية ومصر بعد افتتاح يشوع بن نون بلاد كنعان وأتى بعضهم بحراً والسواد الأعظم منهم، أكريتيون، فحاربهم رعمسيس الثالث، وآنتصر عليهم وأسر جميعهم. وكانوا عشيرة برمَّتها رجالاً ونساءً واطفالاً، ولم يرَ من السداد أن يبيد هذه العشيرة جمعاء، فعوَّل على آستبقائهم، وإعطائهم ارضاً يسكنونها. فأقام رعمسيس الفلسطا (كما في الأصل) الفلسطينيين في جانب بلاد كنعان بين يافو (يافا)، ونهر مصر فسكنوا غزة

وأشدود، وعسقلان حيث يمكن الحرس المصري أن يرقب تحركاتهم. روى ذلك الأب فيكورو في الكتاب والإكتشافات الحديثة (مجلد ٣ صفحة ٣٣٨). ولانرمان في تاريخه القديم للمشرق (مجلد ٦ صفحة ٢١٤ طبعة ٩). ومسبرو في تاريخه القديم لشعوب المشرق (صفحة ٣١٣ طبعة ٤).

وكان هؤلاء الفلسطينون أولاً ضعفاء يؤيده قتل شمجر كثيرين منهم بمنساس البقر، ولكن زادهم قوة إنحطاط الدولة المصرية، ولحوق كثير من أبناء جلدتهم الى فلسطين، وآستحوذوا على جت. وهي ذكرين الآن وعلى عقرون وهي عاقر الآن. فكان لهم خمسة أقطاب أو خمسة أمراء شديدو التحالف بينهم. وسوّلت لهم انفسهم الإستيلاء على بلاد كنعان، وإخضاع بني اسرائيل والفينيقيين لهم فافتتحوا صيدا نحو سنة ١٢٠٠ ق.م وأخربوها كما ذكرنا في مقالة الفينيقيين عد ١١٣. وهل البلاسج الذين منهم الفلسطينيون هم من نسل يافث أو من نسل حام؟ فالعلامة لانرمان (في المحل السالف ذكره) يقول: إنهم يافتيون تِبعاً لرأي الجمهور لا سيما القدماء على أنّ الأب دي كارا أكثر من الحجج على أنّ البلاسج من الحثيين من ولد حام، طالع ما دوّناه مشبعاً بهذا الشأن في مقالة الحثيين عد ٨٦ و ٨٨.

عد ٢٣٥

مولد شمشون وزواجه

قال الكتاب (قضاة ١٣ ع ٢) كان رجل من صرعة من قبيلة دان، وكانت امرأته عاقراً لا تلد، فتراءى ملاك الرب لها وقال إنكِ ستحبلين وتلدين ابناً لا يعلو رأسه موسى لأنه يكون ناسكاً أو نذيراً لله. ويبدأ بخلاص اسرائيل من أيدي الفلسطينيين وأن تحتفظ على نفسها مدة حملها، وعلى الصبي مدة حياته من شرب المسكر ومن أكل ما يكون نجساً. وأخبرت زوجها بما قال لها الملاك، فظهر لهما ثانيةً. وأثبت لهما بآيةٍ ما بشرهما به، وحبلت المرأة فولدت شمشون. فكان نذيراً كما قال الملاك وهو أول نذير ذكره الكتاب، ولمّا شبَّ شمشون كان يتردد بين صرعة واشتاوول. أمّا صرعة فما برحت تسمّى بهذا الإسم، وقال اوسابيوس وايرونيموس إنها بعيدة عشرة اميال عن بيت جبرين شمالاً، وقال كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ١٧) إنَّ صرعة واقعة حقيقة في الطريق المؤدّي من بيت جبرين الى عمواص، ولكن

بُعدها عن بيت جبرين هو خمسة عشر ميلاً، وأما اشتاوول فقال كاران في المجلد المذكور (صفحة ١٣) إنها تسمى الآن اشوع ولا تبعد عن صرعة إلّا اربع كيلومترات والموضعان في جانب السكة الحديدية الموصلة بين يافا واورشليم.

ونزل شمشون إلى تمنه المسماة الآن تبنة في جوار صرعة، غير تمنه سارح مدينة يشوع بن نون. فهام في حب امرأةٍ من بنات فلسطين، وطلب الى أبيه وأمه أن يتخذاها له زوجةً، فمانعاه من ذلك لأنها اجنبية فأصرَّ على طلبه، ونزلا معه الى تمنه. ورأى شمشون في كروم تمنه شبل لبوة يزأر فوثب عليه، وفسخه بيديه كما يفسخ جدياً صغيراً، ولم يخبر أباه وأمه بما فعل. وقد روى سويدا أن بطلاً يونانياً يسمّى يوليداماس فعل مثل ذلك، أي أنّه قتل أسداً في جبل أوليمبوس، وهو أعزل لا سلاح بيده. وروى الكتاب أنَّ داود ايضاً قتل اسداً كما سترى، وقد توفرت في ألآثار الآشورية صُوَر أزدوبار يخنق اسداً بيده اليسرى. وكثيراً ما قتل المصارعون اسداً في المحاضر الرومانية وغيرها.

وعاد شمشون بعد أيام أي بعد سنة لتُزَفَّ اليه المرأة التي خطبها أولاً، فكانت مدة الخطبة عند العبرانيين سنة، فحاد لينظر في جثة الأسد فإذا في جوف الأسد خشرم من النحل وعسل، فاستشار منه على كفّيه ومضى وهو يأكل. وأعطى منه أباه وأمه فأكلا، ولم يخبرهما من أين اشتاره. وقد أكثر المنددون بالكتاب من الطنطنة بتعييب تاريخ شمشون بهذه الآية زاعمين أن النحل يأنف من الجثث، فكيف يتخذها خليّة ويصنع فيها عسله؟ لكنهم قد تعاموا عن أن النحل وإن نأى عن الجثث فلا ينأى عن العظام اليابسة، وعن أنّ قول الكتاب بعد أيام كثيراً ما أراد به مدد طوال. وروى هيرودت (ك ٥ فصل ١١٤) أنَّ النحل عسَّل في جمجمة اوناسيوس حاكم قبرص الذي قطع اعداؤه رأسه، واستبقوه معلقاً امامهم. والجثث في البلاد الحارة كفلسطين تجفُّ في الصيف وتَيبس كالمومياء في وقت وجيز ولا تنتن، فلا يفرّ النحل منها كما حقق كثير من الجوّالة في فلسطين. وأثبتوا أن النحل البري فيها كثير، وأنه يتّخذ خلاياه في الكهوف، والمغاور وثقوب الأشجار بحيث يستظل من حرّ الشمس.

وأدب شمشون مأدبة العرس مدة سبعة أيام لأنه كذلك كانت تصنع الفتيان. وصحبه ثلاثون رجلاً وكان عشوراً فقال لهم إني ملقٍ عليكم لغزاً، فإن حللتموه لي

في سبعة أيام الوليمة أعطيتكم ثلاثين قميصاً، وثلاثين حلّة من الثياب، وإن لم تحلّوه اعطيتموني كذلك. ومنه يظهر أنّ ملابسهم كانت يومئذٍ القميص والحلة أي الرداء الطويل فوق القميص. وكذا نرى اليوم أكثر السكان هناك، وفي سائر الأمم البدوية في المشرق. فقالوا له ألقِ لغزك. فقال لهم خرج من الآكل أُكل، ومن الشديد حلاوة، فلم يكن لهم الى حلّ لغزه سبيل. وقالوا لعرسه خادعي زوجك ليحلّ لنا اللغز وإلّا حرقناكِ مع بيت ابيكِ، أَلِتسلبوننا دعوتمونا فأكثرت من التدلل والبكاء عليه، وضايقته فأطلعها على اللغز، وباحت بسرّه اليهم. فقالوا له لا أحلى من العسل ولا أشدّ من الأسد. فقال لهم لولا أنكم حرثتم على عجلتي لم تكشفوا لغزي. وروى يوسيفوس انه قال: «ولا ادهى من النساء»، وآشتدّ غضبه فنزل الى اشقلون (عسقلان الآن)، وقتل ثلاثين رجلاً وأخذ ثيابهم، وأعطى الحلل لحالّي اللغز. ولا عجب من قتل رجل ثلاثين رجلاً في أيام لم يكن فيها سلاح ايامنا. ولم يقل الكتاب أنه قتلهم مجتمعين، وقد انبأتنا التواريخ أنّ كثيرين قتل كلٌ منهم أكثر من هذا العدد، وشمشون كان قاضياً ورئيساً في قومه الذين يضطهدهم الفلسطينيون، فجاز له أن ينكّل بأعداء قومه (قضاة فصل ١٤).

عد ٢٣٦

إحراق شمشون زروع الفلسطينيين وقتله كثيرين منهم بلحى الحمار

وأتى شمشون في أوان الحصاد يزور إمرأته، وحمل اليها جدياً من المعز. ويظهر من هذه الآية وغيرها أنّ اهل ذلك الجيل كانوا يؤثرون لحم الجدي على لحم الغنم في الولائم والهدايا. ولمّا أراد شمشون أن يدخل على امرأته في حجرتها صدّه ابوها وقال إنك ابغضتها فزوجتها من أحد اصحابك، ولكن هذه أختها الصغرى أحسن منها فلتكن لك بدلاً منها. فقال شمشون إني بريء الآن من الفلسطينيين إذا انزلت بهم شرّا. وانطلق واصطاد ثلاث مئة ثعلب، وأخذ مشاعل فجعل الثعالب ذنَباً الى ذَنَب وبين كل ذَنَبين مشعلاً، وأوقد المشاعل، وأرسل الثعالب في زرع الفلسطينيين، فأُحرقت الأكداس والزرع حتى الزيتون. ولا يتحتم من كلام الكتاب أن يكون شمشون قد صاد كل هذه الثعالب منفرداً بل يُرجّح انه أُعين على صيدها والكلمة في العبرانية هنا ثعليم وفي السريانية ܬܥܠܐ (تعلى). فتتحمل تفسيرها بالتعالب كما ترجمتها النسخة اللاتينية المعروفة بالعامية أو ببنات آوى، والحقل وهو لفظ

فارسي يُراد به نوع من الثعالب، وأثبت كثير من الجوالة في فلسطين وفرة الثعالب فيها.

وقال السيد مينرلن في كتابه الموسوم بالأماكن المقدسة (طبعة سنة ١٨٥٨م مجلد ٢ صفحة ١٥٦) أنه بينما كان في محلة قريبة من محل شمشون سُمِع عواء الثعالب من جميع المغاور والكهوف والغابات وقال: «لا أعلم إن كان ثمة ثلاث مئة ثعلب، لكنني موقن أنه لو وُجِدَ شمشون آخر وأراد أن يحرق زروع بلاد الفلسطينيين لصاد من هذا الوادي وحده ما كفى وناف على عداد الثعالب اللازم لحرقها»، وكان إحراق زروع العِدى من عادات كل جيلٍ وكل مكان. فقد وُجِدَت صفيحة مصرية تُعرَف بصفيحة أونا نُقِشَ عليها لنحو من ثمانية وعشرين أو ثلاثين قرناً قبل المخلِّص على ما رأى شباس (في كتابه دروس القدم صفحة ١٢٢) ما ترجمته: «ذهب الجنود بسلام فيقوضون الحصون المنيعة. ذهب الجنود بسلام فيبيدون زيتون البلاد وكرومها. ذهب الجنود بسلام فيحرقون الزروع». وجاء في إثر لاوزر تاسان الثالث في سمنة على عدوة النيل خط فيه «أنَّ هؤلاء (أي سودان بلاد النوبة) ليسوا رجالاً يستحقون الإلتفات فقد أخذت نساءهم وقبضت على شعبهم عند خروجهم لإستقاء الماء من الآبار، وأهلكت مواشيهم وأحرقت زروعهم». ولا حاجة الى أن نذكر مواطنينا بدبيب هذه العادة السيئة الى بلادنا من أقدم الأعصر بل نتمنى نسخها.

أمَّا الفلسطينيون فلشدَّة حنقهم أحرقوا المرأة وأباها بالنار. وأما شمشون فضربهم ضربة أخرى عظيمة لم يفصِّلها الكتاب. ثم نزل وأقام في كهف صخرة عيطم قال الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٥٥) يُحتَمل أن هذا الكهف كان في آخر سفح جبل يهوذا على مقربة من دير دوبان. ولكن في كتاب أعلام الأماكن أنه كان في قرية بيت عتاب في غربي بيت لحم، فصعد الفلسطينيون وحلّوا في أرض يهوذا فقال لهم لماذا صعدتم علينا؟ فقالوا: لنوثق شمشون ونصنع به كما صنع بنا. فأتى ثلاثة آلاف رجل من يهوذا الى كهف صخرة عيطم، وقالوا لشمشون أما تعلم أنَّ الفلسطينيين متسلطون علينا؟ فجئنا لنوثقك ونسلمك الى ايديهم. فقال لهم: إحلفوا لي أنكم لا تقعون أنتم بي، فقالوا لا نقتلك ولكن نوثقك ونسلمك إليهم. فأوثقوه بحبلَين جديدَين وأصعدوه من صخرة عيطم، ولمَّا انتهى الى حيث الفلسطينيون صاحوا عند لقائه، فقطع الحبلَين

الموثوق بهما كأنهما كتّان مشيط بالنار، ووجد لحى الحمار فتناوله، فقتل به ألف رجل، وقال بلحى الحمار كدَّست كومة كومتين، وبفك حمار قتلت ألف رجل. ورخى اللحى من يده، ودعا ذاك المكان رامة لحى. أمَّا قطعه الحبلين فبالقوَّة غير العاديَّة التي حباه الله إياها، وأما ضربه ألف رجل كما في النص العبراني، أو قتلهم كما في الترجمات فنسبته الى شمشون نسبة ظفر الجنود الى القائد. فكثيراً ما يقال إنَّ فلاناً القائد إفتتح المدينة أو كسر جيش العدو ولا يكون المُراد منه أنه فعل ذلك بنفسه منفرداً، فقد يكون بعض من بني يهوذا عاونوا شمشون على قتل الفلسطينيين بعد أن رأوه قطع وثاقه وبطش بأعدائهم. وهب أنه صنع ذلك بنفسه فما على الله أمر عسير، وقد كان الرعب تولَّى قلوب الفلسطينيين لما سمعوه ورأوا من أعمال هذا البطل.

وقد عطش شمشون بعد هذه الموقعة حتى كاد يهلك عطشاً فصرخ الى الرب، «فشقَّ الله مورم الفك فخرجت منه مياه فشرب، ورجعت روحه إليه (أي قوته) وعاش، ولذلك دعا ذلك الموضع عين الداعي وهي في لحى الى اليوم». كذا في نسخة الآباء اليسوعيين البيروتية، ومورم الفك منبت الأضراس فيه. وفي الترجمة العربية التي طبعها الأمريكيون في بيروت سنة ١٨٨٤م «وشقَّ الله الكفة التي في لحى فخرج منها ماء فشرب». والكفة كل مستدير ونقرة يجتمع فيها الماء. وقال بعض المفسرين تِبعاً لظاهر الآية أن الماء خرج من فكّ الحمار والله على كل شئ قدير، ولكن يظهر من الترجمة الكلدانية أنّ الماء خرج لا من اللحى أي الفك بل من المحل الذي رماه فيه، وسمى رامة لحى أي مرمى اللحى. فالعرب وغيرهم من أصحاب اللغات يسمّون كل صخر مرتفع ومنقطع عن غيره سناً. وعليه فيكون المعنى أن الله شقَّ سناً أي صخراً في المحل المسمى لحى، فخرجت منه مياه وباقي الآية مشعر بذلك كقوله: «ولذلك دعا ذلك الموضع عين الداعي وهو في لحى الى اليوم». وإلَّا لقال: «واللحى باقٍ الى اليوم».

وذكر كلمت أنّ كليكاس (في قسم ٢ من تاريخه). وأنطونينوس الشهيد (في أخبار رحلته)، ذكرا عين الداعي هذه وقالا إنها كانت في أيامهما ولم يشيرا الى أنها خارجة من فك حمار. وقال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٥ فصل ١٠): إنَّ العين خرجت من صخر وعليه مشى أكثر المفسرين ولا حاجة الى تكثير المعجزات. فكيف إخراج الماء من صخر أو من الأرض. وقال بروكوب (في مقدمات مكتبة

الآباء اليونان مجلد ٨٧ جزء ١) «يقال إنَّ الله فتح ثقباً في الفك فأخرج منه المياه والأمثل أنه فتح الأرض بالفك». وأما موقع اللحى أو رامة لحى فقال فيه كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٣٩٦) إنّه كان في المحلِ المسمى الآن خربة عين اللحى قريباً من عتان في غربي بيت لحم وبيت جالا. وأُسنِدَ ذلك الى أنّ الاسم الآن وفي سفر القضاة واحد الى قرب هذا المحل من عتان حيث كانت صخرة عيطم التي لجأ شمشون إليها. ولا يُقدَّر أن الفلسطينيين إجتمعوا في محل بعيد عن مخبأ شمشون.

عد ٢٣٧

إقتلاع شمشون باب غزة وحمله وقبض الفلسطينيين عليه وموته

جاء في سفر القضاة (فصل ١٦) أن شمشون انطلق الى غزة ودخل الى بيت بغي أو صاحبة نزل، فاحتاط به الفلسطينيون سكان غزة وكمنوا له الليل كله عند باب المدينة، وأوصدوا الباب وقالوا عند الصبح نقتله. فقام شمشون عند نصف الليل فأخذ مصراعَي باب المدينة بعضّادتيه وقلع الباب ومغلاقه. وصعد به الى رأس الجبل الذي قبالة حبرون وهو اكمة في الجنوب الغربي من غزة تسمّى المنطاد. فالتقليد القديم وأهل غزة الآن ايضاً يقولون إنّ شمشون على هذه الأكمة وضع باب المدينة (فيكورو الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٥٩).

وأحبَّ شمشون بعد ذلك امرأة اسمها دليلة ساكنة في وادي سوريق وهو الوادي الممتد من سفح الجبل المبنيّة عليه صرعة المار ذكرها نحو الغرب. قال كثيرٌ من الآباء القدماء منهم فم الذهب (خطبة ١٧)، والقديس أفرام (في تفسيره سفر التكوين) إنّ شمشون اتّخذ هذه المرأة زوجة شرعية. وقال غيرهم إنّها كانت سرية تسراها وعلِم بذلك أقطاب الفلسطينيين، فصعدوا إليها وأغروها بمال وقالوا خادعيه وأنظري بماذا قوّته؟ وبماذا نتمكّن منه؟ وأخذت تتدلل عليه وتسأله بتلطّف بماذا قوّته وشعَر بمكرها فقال إذا اوثقوني بسبعة أوطار طريئة لم تجفّ، فأضعف وأصير كواحد من الناس. فدفع إليها الأقطاب هذه الأوتار فشدَّته بها والكمين رابض عندها، وقالت دهمك الفلسطينيون يا شمشون، فقطع الأوتار كما يقطع خيط المشاقه إذا شيط بالنار، وعادت تتدلّل عليه وتعتبه لأنه كذّبها الحديث فقال لها إن أوثقوني بحبال جديدة لم تُستعمَل قطّ فإني أضعف فشدَّته كذلك، وصاحت دهمك

الفلسطينيون يا شمشون والكمين رابض، فقطع الحبال كما يقطع الخيط. فقالت إلى متى تخدعني وتكذبني؟ فأخبرني بما توثَق؟ فقال: أوثَق اذا ضُفِرَت سبع خصل رأسي مع السدى (ما مدٌّ من خيوط النسيج وهو خلاف لحمته). فشدَّت خصل شعره بالسدى ومكّنتها بالوتد وقالت كالأول فاستيقظ من نومه وقلع وتد النسيج والسدى. وعادت تضايقه وتضاجره كل يوم فضاقت نفسه وكاشفها بسرّه قائلاً لم يعلُ موسى رأسي لأني نذير للرب من بطن أمي، فإن حُلِقَ رأسي فارقتني قوّتي. ورأت أنه كاشفها بما في قلبه فدعت اقطاب الفلسطينيين وأضجعته على ركبتيها، ودعت رجلاً فحلق سبع خصل رأسه. وصاحت دهمك الفلسطينيون يا شمشون فاستيقظ من نومه وقال أخرج كما كنت أصنع كل مرة وأنتفض وهو لا يعلم أنّ الرب فارقه لإخلافه نذره، ووثب الفلسطينيون الكامنون فقبضوا عليه وفقوا عينيه وشدّوه بسلسلتين من نحاس، ونزلوا به الى غزة وكان يطحن في السجن. ولا نحتاج الى إخبار قومنا بما أعلم تومسن الانكليزي قومه بالإرحاء التي تدار باليد، ووضع صورة إمرأتين تديران رحى فإنَّ هذه الإرحاء ما برحت في كثير من قرانا وهي المعروفة بالجاروشة.

وقد حان أوان الأخذ بالثأر فإنَّ شعر شمشون أخذ يطول، واجتمع أقطاب الفلسطينيين ليذبحوا ذبيحة لداجون معبودهم. وأتوا بشمشون ليلعب أمامهم فأتى ولعب وأقاموه بين العمد. فقال للصبي الآخذ بيده دعني المس العمد القائم عليها البيت حتى اتكئ عليها. وكان البيت غاصاً بالرجال والنساء وفوق السطح نحو ثلاثة آلاف منهم يتفرجون على شمشون وهو يلعب. فصلّى الى الله صلوة خاشعة وقبض على العمودين اللذين في الوسط القائم عليهما البيت واتكأ عليهما آخذاً احدهما بيمينه والآخر بشماله وقال: لتمت نفسي مع الفلسطينيين، وانحنى بشدَّة فسقط البيت على الأقطاب وجميع من فيه، فكان الموتى الذين قتلهم في موته أكثر من الذين قتلهم في حياته. ونزل إخوته وأهله فحملوه ودفنوه بين صرعة واشتاوول في قبر منوح أبيه وكان قد تولّى القضاء على اسرائيل عشرين سنة.

وأصحّ تفسير للآيات المنبئة بسقوط البناء على شمشون والفلسطينيين هو ما ذكره العالِم ستارك في مقالته في غزة وشاطئ فلسطين حيث قال ما ملَّخصه إنَّ الملعب لم يكن هيكل داجون نفسه بل أروقة بجانبه قائمة على أعمدة يتخللها عرصة تجتمع الناس فيها وعلى أسطحة الأروقة المستوية. فيتيسَّر للشهَّد رؤية

اللاعبين. ويصل بين الأعمدة المتقاربة جذوع من خشب فزعزعة عمودين منها أدَّت الى إنقياض البناء كله فمات من كان تحته ومن كان فوقه. ويظهر أن شمشون صنع ذلك بالقوة غير العادية التي حباه الله بها وكانت عاودته بعد أن طال شعره. وقد أراد الله ذلك انتقاماً من الفلسطينيين الذين كانوا يضطهدون شعبه فجعل شمشون ينتقم منهم في حياته وعند مماته. ورأى بعض الآباء والعلماء أنه يمكن تبرئة شمشون من الإثم، فهو كان قاضياً وحاكماً ومدافعاً عن بني اسرائيل، فكان له أن يتعمَّد مضرَّة اعدائهم ونفع قومه ولو بتعريض نفسه للموت كما فعل ويفعل كثير من الملوك وقواد الجيوش، بإقتحامهم بأنفسهم حومة الوغى.

وقد وجد العالِم كاران مدفن شمشون اذ قال (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٣٢٤): إنه بينما كان في قرية عتاب القريبة من صرعة أخبره بعض سكانها أنه يوجد محلٌ على مقربة من صرعة وعرطوف يسمى خربة عسلين. وأنَّ ثمة معبداً تسمّيه العامة ولي شيخ غريب وأنهم يسمّونه قبر شمشون. ويعتقدونه كذلك. وقال ذكَّرتني هذه الأخبار أنّ شمشون بعد أن مات تحت الردم في غزة حمله اخوته، ودفنوه في مدفن ابيه منوح بين صرعة واشتاوول. وقال لي سكان بيت عتاب: إنّ القرية المسماة الآن أشوع كانت تسمى قديماً اشوعال أو اشتوعال. فرأيت أنّ هذه الا اشتاوول التي ذكرها الكتاب وصرعه معاً والمدفن بينهما. وقد شخصت الى خربة عسلين وعاينت مقام ولي شيخ غريب، وهو الآن معبد للإسلام وقد يكون المعبد بُنِيَ فوق المدفن. ولما كانت خربة عسلين واقعة بين صرعة جنوباً وبين اشوعال أي اشتاوول في الشرق الشمالي رأيت أنّ المحل المسمَّى الآن ولي شيخ غريب هو مدفن شمشون. ويؤيد ذلك أنّ الربي اسحق كالو الذي جال في فلسطين سنة ١٣٣٣م قال في مقالته الموسومة بطرق اورشليم: «ومن اورشليم الى صرعة وطن شمشون...والسكان يدلّون هناك على مدفن شمشون وهو أثر قديم مزيَّن بفك الحمار الذي قتل به الفلسطينيين». والحاصل أنّ مواقع هذه المحال المطابقة لنص الكتاب والتقليد الذي حفظه سكان تلك الناحية، وما رواه الربي اسحق المذكور، جعلت كاران يرى أنّ هناك مدفن شمشون وأبيه منوح، وتبعه في ذلك الاب فيكورو (الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٣٧٠) ذاكراً كلام كاران برمته وجميع هذه الأماكن واقعة بين الرملة واورشليم حيث الخط الحديدي الآن.

عد ٢٣٨

أحداث داخلية في مدة القضاة

قد ذيَّل كاتب سفر القضاة سفره بخبر حدثَين ذكرهما في الفصول الأخيرة منه، فهما مقدمان حدثاً وإن تأخرا وضعاً أولهما أنّ رجلاً من جبل افرائيم اسمه ميخا أخذ ألف ومئة مثقال فضة من أمه فردّها عليها؛ فأخذت أمه مئتي مثقال منها ودفعتها الى الصائغ فعملها صنماً منقوشاً، وكرّس ميخا يد أحد بنيه فصار له كاهناً، ثم أخذ لاوياً فكرّس يده وجعله كاهناً له. وكان بنو دان أرسلوا رجالاً ليجسّوا الأرض، ويوسعوا ميراثهم، فباتوا في بيت ميخا وعرفوا الفتى اللاوي. ولما أتوا برجالهم للإستيلاء على لايش التي سموها دان (تل القاضي الآن) أخذوا اللاوي والصنم ونصبوه في مدينتهم الجديدة، وعبدوه إكتفاءً به عن بيت الله في شيلو (سيلون).

والحدث الثاني أنّ رجلاً لاوياً من جبل افرائيم اتّخذ امرأة من بيت لحم يهوذا فتركته وعادت إلى أهلها. فسار في طلبها وعاد بها الى بيته وأغربت الشمس عليهما عند يبوس (أورشليم)، ولم يُرِد المبيت فيها لأنَّ اهلها من الكنعانيين. وتقدّما إلى جبع وهي المعروفة الآن بتل الفول على بعد ميلين ونصف شمالاً من اورشليم على ما رجّح كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ١٩٢) سنداً الى شهادة يوسيفوس وحجج روبينسون. ودخل الرجل وامرأته بيتاً ليبيتا فيه فاختطف قوم اشرار المرأة، وفجروا بها حتى أدّى الى موتها. فحملها رجلها على حماره الى مكانه وقطّعها مع عظامها اثنتي عشرة قطعة، ووزعها في جميع تخوم إسرائيل. فاستفظع بنو اسرائيل هذا الصنيع وأئتمروا، وخرج أربع مئة الف من كل أسباط اسرائيل بطلب الجانين ليقتصّوا منهم بقتلهم. ويصرفوا الشرّ والعار عن بني اسرائيل. فأبى بنو بنيامين أن يسمعوا لمقال اخوتهم، فحاربهم بنو اسرائيل فقُتل من بني إسرائيل اثنان وعشرون ألف رجل.

فخشعوا إلى الرب وصاموا وعادوا إلى الحرب مع آل بنيامين. فقتلوا منهم خمسة وعشرين ألفاً. وارتدوا إلى الناس الذين في المدينة فقتلوهم، واحرقوا مدنهم بالنار. وحلفوا بأن لا يزوّج رجل منهم ابنته لأحد من بني بنيامين، ثم ندموا على قرضهم سبطاً من اسباط اسرائيل، ولم يكن باقياً من سبط بنيامين، إلّا ست مئة

رجل فرّوا وآختفوا في صخرة الرمّون وهي رومان الآن في شرقي بيت اين (اعلام الاماكن). ولما لم يجدوا احداً من أهل يابيش جلعاد (السلط) عاونهم على بنيامين سيَّروا إليها إثني عشر ألفاً فقتلوا الرجال والنساء، وآستبقوا اربع مئة صبيَّة اشخصوهنَّ الى شيلو، واستدعوا البنياميين فصالحوهم وأزوجوهم هؤلاء البنات. وبقي مئتان منهم، فأرسلوهم عند خروج البنات الى الرقص في عيد سنوي في شيلو فكمنوا في الكروم، وخطفوا مئتي بنت من شيلو وتزوجوا بهنَّ وقالوا لا يكون اهلهنَّ أخلفوا يمينهم لأنهم لم يعطوهم إياهنَّ طوعاً. فهذا مثالٌ لما كان عليه بنو إسرائيل في تلك الأيام من الهمجيَّة.

كانت راعوت الموابية في عهد القضاة أيضاً على أنّ الكتاب أفرد لها سفراً مخصوصاً فنذكر خبرها في العدد التالي.

الفصل الحادي عشر

راعوت وعالي الحبر وصموئيل النبي

عد ٢٣٩

راعوت الموابية

قد أنبأنا الكتاب بأخبار راعوت في السفر المنسوب إليها متضمناً أربعة فصول فقط؛ وموضوع هذا السفر بيان نسب داود، أصل السلالة الملكية التي وُلد منها المخلِّص. وهذا النسب لم يذكر في سفر الملوك بل ذكر في هذا السفر في الفصل الرابع منه من عد ١٨ إلى عد ٢٢ قال الأب فيكورو (الموجز الكتابي عد ١٦٠): «إنَّ هذا النسب غير كامل إذ لم يذكر به من فارص بن يهوذا إلى داود إلَّا عشرة آباء. وهذا العدد غير كافٍ لمدَّة ستة أو ثمانية قرون على أنَّ الكاتب أراد أن يذكر أخصّ أجداد داود فقط وأن يثبت أنَّه من أصل يهوذا بن يعقوب».

وقد جاء في الفصل الأول من بشارة متى أن عدد هولاء الآباء من فارص بن يهوذا الذي نزل مع أبيه إلى مصر إلى سلمون الذي تزوَّج براحاب إنَّما هو سبعة كما في سفر راعوت أيضاً. وعدد السبعة الآباء في مدَّة عبودية بني إسرائيل في مصر وهي أربع مئة سنة، ومدَّة إقامتهم في البرية وهي أربعون سنة هو كافٍ لهذه المدَّة التي مجموعها أربع مئة وسبعون سنة. ولكن العدد الذي ذكر في بشارة متى وسفر راعوت وهو أنّ سلمون ولد بوعر الذي تزوج براعوت. وولد منها عوبيد وعوبيد ولد يسى، ويسى ولد داود. هو غير كافٍ لمدَّة القضاة ولمدَّة ملك شاول أربعين سنة فإن كان حذفٌ من أسماء هولاء الآباء فيكون في هذه المدَّة من سلمون إلى داود إلَّا أن يقال: إنَّ هولاء الآباء كانت أعمارهم طويلة أو أن يقال مع لانرمان: إنَّ مدَّة القضاة كانت أقل ممَّا جاء في كل التقاويم التي أذيعت حتَّى الآن. طالع ما ذكرناه في عد ٢٢٦ وقد كانت راعوت في مدَّة القضاة ولذا حسب بعضهم السفر المنسوب إليها ذيلًا وتتمة لسفر القضاة، ولكن لا يمكن أن يعيّن في مدَّة أي القضاة كانت الأحداث المحكى عنها في هذا السفر. فرجَّح بعضهم أن الجوع الذي استهل السفر بذكره كان في أيام تسلُّط المدينيين على بني إسرائيل أي في مدَّة جدعون. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٥ ف ٩): بوعز الذي تزوَّج براعوت كان في أيام عالي الآتي ذكره. وكذا لا علم يقين لنا بمن كتب هذا السفر فنسق عباراته مخالف لنسق سفر القضاة وسفري الملوك الأولين. وعزاه كثير من العلماء إلى صموئيل، وقال غيرهم: إنَّ حزقيا كتبه ولا حجَّة لهم في ما يدَّعون، والظاهر أنَّه دُوِّن في أيام داود أو بعيد موته لاختتام النسب الوارد فيه بذكر هذا الملك.

وأمَّا الأخبار الواردة في هذا السفر فهي أنّه كان في أيام حكم القضاة جوع في أرض فلسطين. فهاجر رجل من بيت لحم يهوذا اسمه اليملك إلى أرض مواب هو وزوجته نعمى وابناه محلون، وكليون فتوفي اليملك. واتَّخذ ابناه امرأتين موابيتين اسم الواحدة عرفة، واسم الأخرى راعوت، وأقاما هناك عشر سنين وماتا. فعزمت نعمي على العود لوطنها، ورافقتها كنَّتاها فسألتهما أن يبقيا في وطنهما بين أهليهما. وألحَّت نعمى عليهما فبكتا وأذعنت عرفة لسؤالها، وأمَّا راعوت فأصرَّت على مرافقة حماتها حتى الموت. وقالت: حيثما ذهبت أذهب، وحيثما بتٍّ أبت، شعبك شعبي والهك إلهي وحيثما تموتي أمت، وهناك أدفن وذهبتا كلتاهما حتى دخلتا بيت لحم،

وكان لاليملك ذو قرابة اسمه بوعز. فذهبت راعوت لتلقط سنابل من وراء الحصّادين. واتّفق أن كان قطعة أرض لبوعز وأنّ راعوت مضت إليها ولمّا أقبل بوعز سأل غلامه القائم على الحصّادين لمن هذه الفتاة؟ فقال هي فتاة موابية رجعت مع نعمى من أرض مواب. فقال لها بوعز لا تذهبي تلتقطي من حقل آخر، ولا تبرحي من ههنا ولاطفها وأثنى عليها بصنيعها مع حماتها، وأباحها أن تشرب من أوعيتهم، وتأكل من خبزهم، وتغمس لقمتها بالخل معهم. وقدّم لها فريكاً فأكلت وشبعت، واستبقت ما فضل معها وأعطت حماتها عند عودتها ما فضل عنها بعد شبعها. وقالت لها حماتها: إنَّ بوعز هو ذو قرابة لهم وأن تلازم حقله، وأن تغتسل وتتطيب وتلبس ثِيابها وإذا رقد تعاين مرقده وتكشف جهة رجليه، وتضجع فيخبرها بما تصنع ففعلت راعوت ما قالت حماتها.

وقلق بوعز عند انتصاف الليل فإذا بامرأة مضجعة عند رجليه فسألها من هي؟ فقالت: أنا راعوت آمتك فابسط ذيل ثوبك لأنك وليّ، فباركها وقال إنّها فاضلة ونعم إنّه ولي، لكنّ لها ولياً أقرب منه. وتركها تبيت ليلتها، وقامت قبل أن يعرف الإنسان صاحبه. فكال لها ستة أكيال شعير وجعلها عليها، فعادت إلى حماتها فأخبرتها بما كان. ودخل بوعز المدينة وجلس على الباب فإذا الولي الذي تكلّم عنه عابر، فدعا بعشرة رجال من أشياخ المدينة وقال للولي إنّ نعمى باعت حصّة حقل اليملك أخينا، فإن كنت تريد أن تفتكّ فافعل، وإلّا فاخبرني لأنّه ليس من يفتك غيرك وأنا بعدك. فقال أنا أفتكّ. فقال بوعز إنّك يوم تشتري الحقل تأخذ راعوت امرأة الميت لتقيم اسمه على ميراثه، فقال الولي: إشترِ أنت لنفسك، وخلع نعله وكذا كانت العادة في إسرائيل في أمر الفكاك والمبادلة أن يخلع الرجل نعله ويدفعه لصاحبه. فاشهد بوعز جميع الشيوخ وجميع الحاضرين أنّه اشترى جميع ما كان لاليملك وابنيه، وأنّه أخذ راعوت امرأةً له فقال جميع القوم فليجعلها الرب كراحيل وليا. واتّخذ بوعز راعوت فولدت له عوبيد وهو أبو يسى أبي داود، وقال كثير من المفسرين إنّ بوعز وراعوت لم يرتكبا اثماً عند إضجاعهما جهة رجليه.

عد ٢٤٠

عالي الحبر

إنَّ عالي كان من قضاة بني إسرائيل وبينما كان يلي قضاءهم في شيلو مركز الأمة حيث بيت الرب كان شمشون ينكل بالفلسطينيين في جنوب البلاد، على أنَّ كاتب سفر القضاة أغفل ذكر عالي، وكاتب سفرَي الملوك الأولين المعروفين بسفري صموئيل لم يذكره إلّا استطراداً في معرض ذكر أخبار صموئيل. ولم ينبئنا الكتاب أنّه شهد حرباً أو خلَّص بني إسرائيل من عدو لهم كما فعل باراق وجدعون وغيرهما، بل إنّه كان حبراً يعنى بإتمام ما فُرض في السنَّة الموسوية. ويدعو إلى عبادة الله في خباء المحضر المنصوب في شيلو. ويفصل الدعاوى بين بني أسرائيل فكان حبراً وحاكماً معاً، وهو من ذريّة هرون لكنَّه لم يكن من ولد اليعازر الذين لهم حق رئاسة الأحبار بل من ولد إيتامار بن هرون أيضاً. ولم يذكر الكتاب لِمَ أو متى أو كيف انتقلت رئاسة الأحبار من بني اليعازر إلى بني إيتامار، وقد استمرَّت فيهم إلى أيام سليمان، بل تبيَّن منه أنّ عالي كان فاضلًا غيوراً ورعاً لكنه كان ضعيفاً لا يتمالك كف ابنيه حفني وفنحاس عن المساوي وانتهاك حرمة الهيكل، بل كان يعتبهما عتاباً رقيقاً يزيدهما تورطاً.

وكان الفلسطينيون ازدادوا جرأة وسطوًا، ولم يقتصروا على مضايقة بني إسرائيل في الجنوب بل تطرق اعتداؤهم إلى من سكن منهم في وسط فلسطين وشمالها وإلى الفينيقيين أيضاً. فخرج بنو إسرائيل لقتالهم ونزلوا في المحل الذي سمي بعد ذلك حجر النصرة. ونزل الفلسطينيون في أفيق وقد جاء في معجم الكتاب لفيكورو ذكر قولين في حجر النصرة وافيق أوَّلهما لكوندر وكارمون كانا قالا فيه إنَّ حجر النصرة كان في محل دير أبان الآن بعيداً نحو ثلاثة أميال شرقاً عن عين شمس وهي بيت شمس القديمة، في شمالي بيت الجمال، وعليه فرجحّ أن أفيق كانت في المحل المسمَّى الآن البلاد الفوقا على بعد نحو ستة كيلومترات في الجنوب الغربي من دير ابان. وثانيهما لبيرش وتوما شابلين. قال أوَّلهما إنَّ حجر النصرة كان في محل خربة صموئيل الآن على بعد ألف وست مئة متر جنوباً من المحل المسمى النبي صموئيل في الشمال الغربي من اورشليم. وقال ثانيهما: إنَّ حجر النصرة كان في محل بيت عكسه الآن. واتَّفق إثناهما أن أفيق كانت في محل

القسطل في غربي اورشليم وشرقي أبي غوش. ومهما يكن من أمر المكان فقد التحمت الحرب، وانهزم بنو إسرائيل من وجه الفلسطينيين وقتل منهم أربعة آلاف رجل. وعادوا إلى محلاتهم جزعين، فأرسلوا وحملوا تابوت عهد الرب من شيلو إلى معسكرهم. وسار معه حفني وفنحاس ابنا عالي، فأكثر بنو إسرائيل من الهتاف عند حلول التابوت بينهم، وأملوا النصر به على أعدائهم كما دكّت به أسوار أريحا أيام أجدادهم، لكنّهم لم يشاكلوهم إيماناً وتكلاناً على الله، ولهذا خذلهم عند عودهم إلى محاربة الفلسطينيين. فانهزموا وتشتّت شملهم، وهرب كلٌّ منهم إلى خيمته وقتل منهم ثلاثون ألف رجل، منهم حفني وفنحاس وأخذ تابوت عهد الله وجرى رجل إلى شيلو، وأذاع الخبر فيها فتعالى الضجيج وسمع عالي، وكان ابن ثمانٍ وتسعين سنة فسقط عن الكرسي إلى خلفه فاندقّ عظم عنقه ومات. وكان قد تولّى قضاء إسرائيل أربعين سنة كذا في النص العبراني، والترجمة اللاتينية العامية ولكن في السبعينية عشرين سنة. وكانت كنّته امرأة فنحاس حبلى وقد دنت أيام ولادتها، فلمّا سمعت أنّ التابوت أُخذ وأنّ حماها وبعلها ماتا سقطت، وولدت وأشرفت على الموت. فقال لها من حولها لا تخافي قد ولدتِ غلاماً فلم تجبهم ولم تمل قلبها وسمّت الصبي إيكابور قائلة قد انتقل المجد عن إسرائيل. وقال يوسيفوس إنّ معنى الكلمة عار وذل، لكنّه رواها يواخاب أو يوكاب. (ملوك أوّل فصل ٤).

عد ٢٤١

ضربات الله الفلسطينيين لإمساكهم تابوت العهد واضطرارهم إلى ردّه

لم يحسب الفلسطينيون إنتصارهم على بني إسرائيل نصرة شعب على شعب فقط، بل وهموا أنّه انتصار داجون معبودهم على إله بني إسرائيل. فأخذوا تابوت العهد وأقاموه في هيكل داجون في اشدود (اسدود) كأنّه ليسجد له. وكانوا يعتقدون داجون مصدر القوّة المولدة على نحو ما كان الكنعانيون مصدر هذه القوة في بعل. وقد دلّتنا الآثار القديمة أنّهم كانوا يصورون معبودهم هذا نصفه الأعلى بهيئة إنسان، ونصفه السفلي بهيئة سمكة تذكرة لأسفارهم البحرية. وقد اتّفقت في هذا أكثر التماثيل التي بلغت الينا وإن اختلفت في بعض الأعراض. ومن هذه التماثيل صفيحتان من فضّة إحداهما في منضد بروسبر دوبرا في باريس، والثانية في متحف مكتبة الأمة هناك تمثلان إلهاً رأسه وذراعاه بشرية، وسائر جسمه بهيئة

الدُخس (الدلفين) وبيد كل منهما سمكة، وكأنهما عائمان في تيار البحر. وقرينة داجون أو امرأته المسماة درغات تُصوَّر بهيئة امرأة وسمكة، ومن صورها كذلك التمثال الذي في متحف اللوفر في باريس. وقد شاء الله أن يخزي الفلسطينيين ومعبودهم، فإنَّه لمَّا دخل الكهنة في الغد بيت داجون وجدوا تمثاله ملقى على وجهه على الأرض أمام تابوت الرب فردُّوه إلى موضعه.

وبكروا في صباح الغد فإذا بداجون ملقى على الأرض أمام التابوت ورأسه وكفَّاه مقطوعة عند إسكفة الباب وجثَّته وحدها في موضعها. قال الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلَّد ٣ صفحة ٣٩١) إنَّ في متحف اللوفر تمثالاً آشورياً نقل إليه من قصر سرغون يمثِّل داجون ساقطاً على وجهه ورأسه، مقطوع من عنقه ويداه محطَّمتان وأسفل جسمه الذي هو بهيئة سمكة باقٍ على سلامته.

ولم يكتف الله بإذلال داجون بل أنبأنا الكتاب أن قد «ثقلت يد الرب على الأشدوديين فدمَّرهم وضربهم بالبواسير في أشدود وتخومها». الكلمة العبرانية أفاليم المترجمة هنا بالبواسير تدل على شي مرتفع أو أكمة ولذا ذهب بعض المفسّرين أنّ المراد البواسير، وذهب غيرهم إلى أنّ المراد نوع من الدمَّل أو الخراج. وسمى يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ٦ ف ١) هذا المرض دستريا والأظهر أنَّه البواسير. وروى هيرودت (ك ٢ من تاريخه ف ١٠٥) أنَّ التتر لمَّا نهبوا هيكل أفروديط في عسقلان أصيبوا بمرض يستحى منه. فقال كثير من العلماء ما مصدر هذا التقليد الذي رواه هيرودت إلَّا المرض الذي أصاب الأشدوديين عند إمساكهم تابوت العهد. وجاءت في أكثر نسخ الترجمة السبعينية وفي اللاتينية العامية ذكر ضربة أخرى إذ قيل وهاجت القرى والصحارى في وسط أرضهم، وتولَّدت الفيران وحدث اضطراب موت شديد في المدينة. فهذه الآية يخلو عنها النص العبراني والترجمتان السريانية والعربية، على إنَّه جاء في النص العبراني (فصل ٦ عد ٥) أنَّ الأشدوديين صنعوا «خمسة بواسير من ذهب، وخمس فيران من ذهب. فهذا مؤيِّد لرواية السبعينية واللاتينية ومثبت نزول هذه الضربة بالأشدوديين. وقد أضرَّت الفيران بزروعهم وأشجارهم فكان ذلك عقاباً آخر لهم ومدعاةً لردِّهم تابوت الرب. وكثيراً ما تضرُّ الفيران في زروع فلسطين إلى اليوم. فحملت هذه الضربات أهل أشدود أن يستدعوا إليهم أقطاب الفلسطينيين ويستشيروهم في ما يفرج ضيقهم فقالوا: ننقل هذا التابوت إلى جت (ذكرين). وفعلوا فأصاب أهل جت ما أصاب الأشدوديين،

فصرخوا ونقلوه إلى عقرون (عاقر) فأصابهم ما أصاب غيرهم، فأجمعوا على ردّه لئلّا يقتلهم وشعبهم (ملوك ١ فصل ٥).

ودعا الفلسطينيون الكهان والعرافين ليخبروهم كيف يرسلون تابوت العهد إلى موضعه. فقالوا لا ترسلوه فارغاً بل أدّوا له كفارة على عدد أقطاب الفلسطينيين خمسة بواسير من ذهب، وخمس فيران من ذهب، فتصوغون مثال بواسيركم، ومثال فيرانكم المفسدة لأرضكم، وتؤدون بذلك مجداً لإله إسرائيل لعلّه يخفّف يده عنكم وعن آلهتكم وأرضكم. واصنعوا عجلة جديدة، وخذوا بقرتين مرضعين لم يعلُهما نير، وشدّوا البقرتين إلى العجلة وردوا عجليهما إلى البيت، واجعلوا التابوت على العجلة وأدوات الذهب في صندوق بجانبه، وانظروا فإن صعدت البقرتان به في طريق تخومه جهة بيت شمس يكون هو الذي أنزل بنا هذا البلاء العظيم، وإلّا علمنا إنّما كان ذلك اتّفاقاً.

ففعل القوم كذلك فتوجّهت البقرتان في سبيلهما على طريق بيت شمس وهما تخوران (تصيحان) في مسيرهما، ولم تميلا يمنة ولا يسرة إلى أن وقفتا في حقل يشوع الذي من بيت شمس. فأتى بيت أهل شمس فرحين برؤية التابوت، وأنزل اللاويون التابوت عن العجلة والصندوق الذي فيه التماثيل الذهبية. وكان هناك صخر عظيم، فشققوا خشب العجلة وأصعدوا البقرتين محرقة للرب وقدّموا ذبائح أخرى شكراً لله. وكانت مدّة إقامة التابوت في أرض الفلسطينيين سبعة أشهر (ملوك ١ ف ٦). وقد مرّ أن بيت شمس الآن في شمالي بيت الجمال وفي الجنوب الغربي من قرية أبي غوش.

إنّ أهل بيت شمس انقصوا من الإحترام المفروض لتابوت عهد الرب. كأن مسّه من لم يكونوا كهنة منهم او فتحوه لينظروا ما فيه دون تجلة وإكرام. فسخط الرب عليهم وأمات بعضهم إذ قال الكتاب (ملوك ١ فصل ٦ عد ١٩): «وضرب الرب أهل بيت شمس لأنّهم نظروا إلى تابوت الرب، وقتل من الشعب سبعين رجلًا وكانوا خمسين ألفاً» كذا في ترجمة الآباء اليسوعيين المطبوعة في بيروت وعليها فلا إشكال في الآية إذ يكون المعنى أنّه اجتمع في بيت شمس عند حلول التابوت فيها خمسون ألف من الأنحاء المجاورة، ولمّا لم يبدوا التكريم المفروض له ضرب الرب سبعين رجلًا ممّن كانوا منهم أكثر قحة. إلّا أنّ النص العبراني: «وقتل

من الشعب سبعين رجلًا خمسين ألف رجل». وفي الترجمة اللاتينية العامية: «ضرب الرب بعضاً من رجال بيت شمس لأنَّهم نظروا إلى تابوت الرب، وضرب من الشعب سبعين رجلًا وخمسين ألفاً من السفلة». وفي ترجمة الأميركان البيروتية: «وضرب من الشعب خمسين ألفاً رجل وسبعين رجلًا». ولذا أعضلت الآية المفسّرين، وذهبوا في تفسيرها مذاهب أصحُّها أنّ بعض النسّاخ القدماء أغفلوا كلمة كانوا قبل قوله خمسين ألف رجل، ليكون صحيحاً قد جاءت الآية كما جاءت في ترجمة اليسوعيين، أو إنَّ النسّاخ زادوا سهواً «خمسين ألف رجل» ولا أصل لها في النص. واحتج القائلون بهذا المذهب ومنهم كايل الشهير بأنَّ هذه العبارة ساقطة في كثير من النسخ المخطوطة العبرانية وبأنَّ يوسيفوس لم يذكر إلَّا سبعين رجلًا، وبأنَّه لم يسمع في العبرانية ذكر عدد العقود قبل عدد الألوف فكان المتحتِّم أن يقال: خمسين ألف رجل وسبعين رجلًا، وبأنَّ حرف العطف ساقط من كلمة خمسين. فناح الشعب لأنَّ الرب ضربه هذه الضربة العظيمة. وأرسل أهل بيت شمس رسلًا إلى سكان قرية يعاريم ليأتوا ويصعدوا تابوت عهد الرب إلى قريتهم، فأتوا وأدخلوه بيت أبيناداب في الأكمة، وقدَّسوا اليعازر ابنه لحراسة التابوت. واستمر التابوت عشرين سنة في قرية يعاريم التي يرجِّح كاران أنَّها المسماة الآن قرية العنب أو قرية أبي غوش على طريق المركبات من يافا إلى أورشليم وتبعد عشرة أميال عن أورشليم؛ معنى يعاريم الأشواك أو الغابات ويعرا ܝܥܪܐ السريانية التي تجمع ܝܥܪ̈ܝܢ (يعرين). معناها الأشواك فكأنَّه كان هناك قديماً غابات جعل محلَّها كروماً فسمِّيت قرية العنب.

عد ٢٤٢

مولد صموئيل وخدمته في هيكل الرب في شيلو

افتتح كاتب سفر الملوك كلامه بخبر مولد صموئيل، لكنَّ عالي الحبر كان قبله بل كان صموئيل يخدمه في الهيكل . فقدَّمنا خبر عالي وما كان في أيَّامه على ذكر صموئيل وإن أخَّره الكتاب وضعاً. فقد جاء في الفصل الأول من سفر الملوك الأول أنَّه كان رجل من الرامتائيم صوفيم في جبل أفرائيم اسمه القانه مزوَّجاً بامرأتين اسم إحداهما حنَّه، واسم الأخرى فننة. فرزقت فننة بنين ولم يكن لحنَّة ولد وكانت ضرَّتها تغضبها معنتة لها لذلك. وكانت حنَّة مكتئبة النفس، وكان زوجها

يشخص كلَّ سنة من مدينته إلى شيلو ليسجد للرب مع امرأتيه. فصلَّت حنَّة إلى الرب، وبكت ونذرت أنَّها إن رزقها الرب ابناً جعلته نذيراً لله كل أيام حياته، ولا يعلو رأسه موسى، فاستجابها الرب وحملت وولدت ابناً دعته صموئيل، ومعناه الملتمس أو المسؤول من الرب أو سمع الرب. وبعد فطامه جاءت أمُّه به إلى هيكل الرب في شيلو فكان يخدم عالي فيه. وليس المراد بالفطام كفُّه عن الرضاع بل المراد به إستغناؤه عن أمِّه، فإنَّ العادة في فلسطين فطام الأولاد في السنة الثالثة بعد مولدهم. فنرى أم المكابيين تقول لأصغر أبنائها (مكابيين ٢ فصل ٧ عد ٢٧): «يا بنيَّ ارحمني أنا التي حملتك في جوفي تسعة أشهر وأرضعتك ثلاث سنين». وإلَّا لكان صموئيل وقراً على عالي لا خادماً في بيت الرب. وقدَّمت حنَّة ذبيحة للرب عند تقدمة ابنها لخدمة بيته. وفاهت بتسبحة بليغة أشبه بتسبحة العذراء بعد تجسُّد المخلِّص بها وهي مثبتة في الفصل الثاني من سفر الملوك الأول. وكانت أمُّه تنسج له كلَّ سنة جبة صغيرة، وتأتيه بها عند صعودها إلى الهيكل. ودعا الرب ذات ليلة صموئيل، فظنَّ عالي يدعوه فركض إليه وقال لبَّيك فأجابه عالي: لم أدعُكَ يا بنيّ إرجع فنم. فعاد ونام فدعاه الرب ثانية فهبَّ إلى عالي فأجابه كالأوَّل فمضى ونام. ثم دعاه الرب ثالثة، وانطلق إلى عالي ففهم عالي أنَّ الرب هو الذي يدعو الصبي فقال له إذهب فنم! وإن دعاك أيضاً فقل: تكلَّم يا رب فإنَّ عبدك يسمع، وكان كذلك فأعلمه الرب ما يحلُّ ببني إسرائيل وبعالي الحبر وابنيه حفني وفنحاس كما رأيت. ومن الصباح استنطقه عالي عمَّا كلَّمه الرب به فلم يكتمه شيئًا. وذاع خبر صموئيل، وعلم كل بني إسرائيل أنَّ الرب ائتمنه نبيًا. وكانوا يسمعون له واختاروه بعد موت عالي، وابنيه قاضياً في إسرائيل فكان آخر القضاة وأوَّل الانبياء، وكان يقيم في الرامتائيم صوفيم الآتي بيان موقعها.

أطال كاران الكلام وأجاده (مجلَّد ١ في اليهودية صفحة ٣٦٣ إلى صفحة ٣٨٤) في بيان موقع الرامتائيم صوفيم المسماة أحياناً الرامة. وممَّا قاله إنَّ بعض العلماء ظنَّ موقعها في جبل الفريديس في الجنوب الشرقي من بيت لحم على مسافة أربعة أميال. وحسبه بعضهم في محل صوبا الآن في غربي أورشليم على بعد ستة أميال عنها، واسندوه إلى تقارب الحروف في اسمي صوبا وصوفيم. وقال آخرون إنَّ موقعها كان في رام الله في شمالي أورشليم وغربي البيري، ثم حقَّق أنَّ موقعها كان في المحل المسمى الآن النبي صموئيل قائمة في الشمال الغربي من أورشليم

على الطريق القديم المؤدي من يافا إلى أورشليم، مثبتاً ذلك بانطباق آيات عديدة من الكتاب على هذا الموقع، وبأنَّ قرية النبي صموئيل قائمة على أكمتين تصدق عليها تسمية الرامتائيم أي الرامتين، والرامة المحل المرتفع وإنَّ كلمة صوفيم مشعرة بنسبة هذا المحل إلى صموئيل إذ ذكر الكتاب أحد جدود صموئيل يسمَّى صوف بقوله في أبيه القانة إنَّه: «إبن يروحام بن اليهو بن توحو بن صوف» فضلاً عن تسمية المحل باسمه منذ زمان لا يعرف بدؤه.

عد ٢٤٣

الأسفار المنسوبة إلى صموئيل

إنَّ الأسفار الأربعة التي نسمِّيها أسفار الملوك ليست من قلم كاتب واحد وإن كان موضوعها واحداً، بل إنَّ النص العبراني يسمِّي الأولَين منها سفري صموئيل، والآخَرين سفري الملوك. وكذلك تسمِّيها نسختنا السريانية على أنَّ الترجمتين السبعينيَّة واللاتينيَّة العامية قسمتاها إلى أربعة أسفار معزوة إلى الملوك. فتغلَّبت تسميتها بأسفار الملوك، ولم تكن تسمية السفرين الأولين منها سفري صموئيل للقطع بأنَّ هذا النبي كتبهما، بل لأنَّ أخص مدار الكلام فيهما إنَّما هو على ميلاده، وقضائه في إسرائيل، ومسحه الملكين شاول وداود وسائر أعماله. ومع هذا قد أثبت يوسيفوس وكثير من الآباء أنَّ صموئيل كتبهما إلّا أخبار الأحداث التي جرت بعد موته. وقال كثير من اليهود وعلماء هذا العصر إنّ صموئيل دوَّن الأربعة والعشرين فصلًا من السفر الأول، وإنَّ النبيين جاد وناتان دوَّنا الباقي واحتجُّوا لقولهم بآية من سفر أخبار الأيام الأول (ف ٢٩ عد ٢٩) وهي: «وأخبار داود الملك الأولى والأخيرة مكتوبة في كلام صموئيل الرائي وناتان النبي وجاد الرائي». إلَّا أن هذه الآية لا تثبت أن صموئيل كتب السفرين المنسوبين إليه، ويمكن تخريجهما أنَّ كاتب سفر أخبار الأيام أراد بكلام صموئيل سفري الملوك الأوَّلين بحسبما كان يسميهما العبرانيون، لا لأنَّ صموئيل كتبهما بل لأن مدار كلامهما عليه، لاسيَّما لأنَّ الأحداث المحكى عنها في السفر الثاني جرت بعد موت صموئيل، وفي السفر الأوَّل نفسه آيات لا جرم إنَّها كتبت بعد الأحداث المنبئة بها، ولم يكتبها كاتب معاصر لها منها قوله: «وتولَّى صموئيل قضاء إسرائيل كلَّ أيَّام حياته» (ملوك ١ ف ٧ ع ١٥). وقوله: «لأنَّ الذي يقال له اليوم نبي كان يقال له من قبل رآءٍ» (ملوك

١ ف ٩ ع ٩). وقوله «فلذلك صارت صقلاج لملوك يهوذا إلى اليوم» (ملوك ١ ف ٢٧ ع ٦). وعزا آخرون هذين السفرين إلى داود وغيرهم إلى أشعيا وأرميا وحزقيال، أو عزرا وليس لأصحاب كل هذه الأقوال بينة قاطعة عليها. والحاصل أنّ الأمثل أن نقول إنَّ كاتبهما نكرة لم يعرف إلى الآن وكل ما يمكن ترجيحه إنَّما هو أنّ السفرين كتبا بعيد موت سليمان في أيام راحبعام ابنه، وإنّه لا مرية في أنّ السفر الثاني لم يكتبه صموئيل لأنَ ما انطوى عليه كان بعد وفاته، على أن كاتب السفرين الأوّلين هو غير كاتب السفرين الأخيرين، وإن قال كثيرٌ من المدقّقين إنّهما واحد. ويستدل على ذلك باختلاف النفس وطريقة الكتابة. فالسفران الأولان غاية في فصاحة اللغة العبرانية ونقاوتها في الألفاظ والأساليب الأعجمية. والسفران الأخيران ينحطّان لغةً عن الأوّلين ويمازجهما ألفاظ آرامية كلدانية. وكاتب الأوّلين صرف عنايته في تدوين أخبار الأشخاص وأطال العبارة، وكاتب الآخيرين أوجز العبارة. وأهمل ذكر قرائن عديدة وصرف من العناية في تدوين أخبار الأحداث أكثر منها في تعريف الأشخاص وأنسابهم، ثم ترى في السفرين الاخيرين ذكراً صريحاً لأسفار موسى وترى كاتبهما يستشهدها، ولا ترى مثل ذلك في السفرين الأوّلين إلى غير ذلك من الأدلّة (ملخّص عن الموجز الكتابي لفيكورو عد ٤٦٤ وما يليه).

عد ٢٤٤

محاربة بني إسرائيل للفلسطينيين وظفرهم بهم بإرشاد صموئيل

قد ضايق الفلسطينيون بني إسرائيل فاجتمع هولاء لدى صموئيل شاكين إليه ضيقهم وذلّهم. فقال لهم إنْ كنتم تائبين إلى الرب من كل قلوبكم فأزيلوا الإلهة الغريبة والعشتاروت من بينكم وأعدّوا قلوبكم للرب واعبدوه وحده فينقذكم. فأزالوها وعبدوا الرب وحده وقال أحشدوا كل إسرائيل إلى المصفاة فأصلي لأجلكم إلى الرب، فاجتمعوا ثمة واستقوا ماءً وصبوه أمام الرب. وكان هذا طريقة دينية دالة على توبة القلب، وإليها أشار أرميا في مراثيه بقوله (فصل ٢ عد ١٩): «اريقي كالماء قلبك قبالة وجه السيّد»، وصاموا في ذلك اليوم وأخذ صموئيل حملًا رضيعاً وأصعده بجملته محرقة للرب.

وعرف الفلسطينيون أنّهم مجتمعون فلم يتم صموئيل المحرقة إلّا وأقبل

اقطابهم لمحاربة بني إسرائيل، فخاف هولاء وقالوا لصموئيل لا تكفَّ عن الصراخ لأجلنا إلى الرب فارعد الرب بصوت عظيم على الفلسطينيين وزعجهم، فانهزموا من وجه إسرائيل. قال يوسيفوس (ك ٦ من تاريخ اليهود ف ٢) إنَّهم شعروا بالأرض تميد تحت أرجلهم، وكأنَّها تفتح فاها لتبتلعهم. وأغشى على أبصارهم برق ورعد قاصف فشلت أيديهم عن حمل سلاحهم، فرموه وانهزموا، وإلى ذلك أشار يشوع بن سيراخ بقوله (ف ٤٦ عد ١٦ وما يليه): «صموئيل المحبوب عند الرب نبي الرب سنَّ الملك، ومسح روساء شعبه قضى للجماعة بحسب شريعة الرب... دعا الرب القدير عندما كان أعداؤه يضيقون من كل جهة واصعد حملًا رضيعاً، فارعد الرب من السماء وبقصيف عظيم اسمع صوته وحطَّم روساء الصوريين وجميع أقطاب فلسطين». فضربهم بنو إسرائيل من المصفاة إلى ما تحت بيت كار فأخذ صموئيل حجراً ونصبه بين المصفاة والسن وسماه حجر النصرة. وقال إلى ههنا نصرنا الرب. وسيأتي بيان موقع هذه الأماكن وانتهز بنو إسرائيل الفرصة فاستردُّوا المدن التي أخذها الفلسطينيون منهم من عقرون (عاقر) إلى جت (ذكرين).

وروى لانرمان في تاريخه القديم للمشرق (مجلَّد ٦ في بني إسرائيل) أنَّ بني إسرائيل أجبروا الفلسطينيين يومئذ على إمضاء عهدة صلح أقرُّوا لهم بها باستقلالهم بعد أن ضايقوهم أربعين سنة. واختصُّوا أنفسهم بالحق على إقامة مركز لجنودهم في جبعة، وأن لا يحمل من جاورهم من بني إسرائيل سلاحاً خشية الغدر بهم. وقال الكتاب: إنّ صموئيل كان يذهب في كل سنة ويطوف في بيت ايل والجلجال والمصفاة، ويقضي لإسرائيل في جميع تلك الأماكن ثم يأوب إلى بيته في الرامة، فلم يكن كباراق وجدعون ينقذ شعبه من أعدائهم فقط بل كان أيضاً حاكماً فيهم، يفصل دعاويهم ويلي أمرهم ويضم كلمتهم وبذلك أعدَّهم لطريقة الحكم الملكية (ملوك ١ ف ٧).

أمَّا المصفاة الآنف ذكرها فقد حقَّق كاران (مجلَّد ١ في اليهودية صفحة ٣٩٥ وما يليها) أنَّ موقعها كان في محل قرية شعفات الآن في شمالي أورشليم على مقربة منها وفي الشرق الجنوبي من قرية النبي صموئيل. وقال روبينسون إنَّ المصفاة كانت في محل هذه القرية الأخيرة وإنَّ الرامة كانت في صوبا (طالع عد ٢٤٢). وذكر الكتاب عدَّة مدن أخرى باسم المصفاة أو مصفاة دون التحلية بال إحداها

في جلعاد (السلط)، والثانية في بلاد مواب في شرقي الأردن أيضاً، والثالثة في سفح لبنان في ناحية بانياس. والرابعة في نصيب سبط يهوذا. وأمَّا بيت كار فالذي في كتاب الأعلام الكتابية أنَّه يحتمل ان كان موقعها في عين كارم وأمَّا حجر النصرة فقد ذكرنا موقعه في عد ٢٤٠ فطالعه هناك. قال الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلَّد ٣ صفحة ٤٠٣) لا ريب في أن الرامتائيم صوفيم وطن صموئيل والمصفاة قرية يعريم (قرية أبي غوش) وجبعون لم تكن إحداها بعيدة عن الأخرى.

عد ٢٤٥

إلحاح بني إسرائيل على صموئيل أن يقيم لهم ملكاً

جاء في الكتاب (ملوك ١ ف ٨) ولما شاخ صموئيل قلَّد ابنيه يوئيل وابيا قضاء إسرائيل، وكانا قاضيين في بئر سبع في طرف فلسطين الجنوبي. وروى يوسيفوس (ك ٦ في تاريخ اليهود ف ٣) أنَّ صموئيل أمر ابنيه أن يقيم أحدهما في بيت ايل، والثاني في بئر سبع ليقضي كلٌّ منهما لفريق من الشعب. وكذلك قال العالم كريتس الالماني في تاريخ اليهود. على أنَّ الإبنين لم يسلكا في سبل أبيهما لكنَّهما مالا إلى الحرص، وقبلا الرشوة وحابيا في القضاء وذاع صنيعهما. فاجتمع شيوخ إسرائيل وأتوا الرامة (قرية النبي صموئيل) يشكون أمرهم إلى أبيهما، ويسألونه أن يقيم عليهم ملكاً كجميع الأمم، فساء هذا الكلام صموئيل فصلَّى إلى الرب، فأوحى إليه أن اسمع لكلام الشعب في جميع ما يقولونه، فإنَّهم لم يسأموك أنت وإنَّما سأموني أنا في تولِّيَ عليهم، ولكن أشهد عليهم واخبرهم بسنن الملك الذي يملك عليهم. فبذل صموئيل قصارى جهده لكفهم عمَّا يسألون فلم يذعنوا له، فذكر لهم كلمات الرب عمَّا يصنعه الملوك الذين يستبدُّون فيهم قائلاً هذه سنَّة الملك الذي يملك عليكم يأخذ بنيكم، ويجعلهم لنفسه ولعجلته وفرسانه، فيركضون أمام عجلته. ويتَّخذ لنفسه رؤساء ألف ورؤساء خمسين، واكرةً لحرثه وحصاده وصناعاً لآلات حربه وأدوات عجلاته. ويتَّخذ بناتكم عطَّارات وطبَّاخات وخبَّازات. ويأخذ حقولكم وكرومكم وأفضل زيتونكم ويعطيها لعبيده. ويأخذ عشوراً من زرعكم وكرومكم ويعطيها لخصيانه وعبيده. ويأخذ عبيدكم وإماءكم وشبَّانكم

الحسان وحميركم ويستعملهم في شغله. ويعشّر ماشيتكم وأنتم تكونون له عبيداً فتصرخون من ملككم الذي اخترتم لأنفسكم. فلا يجيبكم الرب فأبى الشعب أن يسمعوا لصوت صموئيل وقالوا: كلَّا بل يملك علينا ملك كسائر الشعوب، فيقضي بيننا ويخرج أمامنا ويحارب حروبنا. فتكلَّم صموئيل بكلام الشعب على مسامع الرب فأوحى إليه أن أسمع لصوتهم، وولِّ عليهم ملكاً فقال لهم: إنصرفوا كلٌّ إلى مدينته ريثما أفكّر بمن يكون ملكا واجتمع بكم ثانية.

الفصل الثاني عشر

شاول وتتمة أخبار صموئيل

عد ٢٤٦

تولية صموئيل شاول ملكاً على إسرائيل

قد أنبأنا الكتاب (ملوك ١ ف ٩ و ١٠) أنَّه كان رجلٌ من سبط بنيامين اسمه قيس، وكان له ابنٌ يسمى شاول لم يكُ في إسرائيل رجلٌ أحسن منه. وكان يزيد طولًا على جميع الشعب من كتفه فما فوق. واتفق أن ضلَّت اتنٌ لقيس فأرسل شاول ابنه وواحداً من غلمانه في طلبها فلم يجدها. فهمَّ بالعود إلى أبيه، وكان مع غلامه على مقربة من الرامة موطن صموئيل. فقال الغلام: هوذا رجل الله في هذه المدينة، فهلمَّ بنا إليه لعلَّه يدلُّنا على طريقنا التي نسلكها. فصعدا إلى المدينة، وفيما هما داخلان في وسطها إذا صموئيل قد صادفهما، وهو خارج ليصعد إلى المشرف أي الأكمة التي كان بنى فيها مذبحاً. وكان الرب قد أوحى إليه قبل أن يأتيه شاول بيوم، وانَّ غداً في مثل هذه الساعة أُرسل إليك رجلًا من أرض بنيامين، فامسحه قائداً على شعبي فيخلِّصهم. ولمَّا رآه صموئيل قال له الرب هوذا الرجل، وقال شاول له أخبرني أين بيت الرائي؟ فأجابه صموئيل: أنا هو، وأنبأه أنَّ الأتن التي خرج في طلبها قد وجدت، وقال لمن كل نفيس في إسرائيل إلَّا لك ولكل بيت أبيك، فقال شاول: ألست أنا بنيامينياً من أصغر أسباط إسرائيل وعشيرتي أصغر

جميع عشائر سبطي؟ فكيف تقول لي مثل هذا الكلام؟ ودعاه صموئيل مع غلامه ليأكلا معه في المشرف، واجلسهما في صدر المدعوين، وعاد معهما إلى المدينة، وباتا عنده.

ثم دعاه النبي باكراً، وسارا معاً إلى طرف المدينة، فقال النبي له مُر الغلام أن يتقدَّم ويمرَّ أمامنا وقِفْ أنت فأسمعك كلام الله. وأخذ صموئيل قارورة الدهن وصبَّ على رأسه وقبَّله وقال إنَّ الرب قد مسحك قائداً على ميراثه، وأطلقه منبئاً له بكل ما يلتقيه في طريقه، وبما يقال له، وإنَّه يحلُّ عليه روح الرب فيتنبأ مع الانبياء، وعندما حوّل منكبه لينصرف من عند صموئيل أبدل الله قلبه، ووقَّع له كلَّ ما قاله النبي. وأقبل إلى الاكمة التي عيَّنها له فإذا بجماعة من الانبياء قد استقبلوه، فحلَّ عليه روح الله، فتنبأ بينهم ولمَّا رآه كل من كان يعرفه قالوا أشاول أيضاً من الأنبياء؟! فذهبت مثلًا. ولكلمة النبي في الكتاب معنيان: الأوَّل النبي حقيقة وهو من يتجلَّى الله له، ويكشف له عن أمورٍ مستقبلية فينطق بها، والنبي بهذا المعنى مرادف للرائي وهو من يكشف الله له بالرؤيا عن أمورٍ خفيَّة. والمعنى الثاني المعلم والمنذر، فإنَّ صموئيل أقام جمعيات يتَّفقه بها الشبَّان بما يتعلَّق بسنَّة الله، والحض على حفظها لينذروا الشعب بكلمة الله ويحرّضوه على العمل بسنَّته. وكانت هذه الجمعيات تسمى مدارس الانبياء، وطلبتها يسمُّون انبياء أي معلِّمين ومنذرين، ويُظنُّ أنَّه بهذا المعنى قيل في شاول أنَّه تنبَّأ أي أخذ ينذر بكلام الله ويحضُّ على العمل بسنَّته.

وكان صموئيل أوصى شاول أن يوافيه في اليوم السابع إلى المصفاة (شعفات). ففي ذلك اليوم دعا الشعب إليها، وخطب فيهم مذكِّراً لهم بإحسان الله إليهم مذ كانوا في مصر، ورفضهم له وإلحاحهم أن يقام عليهم ملك، وأمرهم أن يقفوا أمام الرب على حسب أسباطهم وعشايرهم، لينتخب منهم ملكاً بإلقاء القرعة تنكُّباً للغيرة والخلاف بينهم. فأصابت القرعة سبط بنيامين، ثم القى القرعة بين عشائره فوقعت لعشيرة مطري ثم لشاول بن قيس. فطلبوه فلم يجدوه، وقد كان اختبأ بين الأمتعة، فهداهم الرب إليه فأسرعوا وأخذوه، ووقف بين الشعب، فإذا هو يزيد طولًا على الشعب كافة من كتفه فما فوق، فهتف الشعب كلُّهم يحيى الملك. فكتب صموئيل السنن التي يلزم الملك أن يسير بها، وأخصَّها أن يكون خاضعاً أبداً لشريعة الله عاملًا بمشورة الأحبار. ووضع ما كتبه أمام الرب كأنَّه في تابوت العهد،

وصرف الشعب كلّ امرئٍ إلى منزله. وانصرف شاول إلى بيته في جبع وهي المسماة قديماً جبعة شاول أيضاً، والآن تل الفول على ما حقّق كروس الألماني، وروبينسون الإنكليزي وكاران (مجلّد ١ في السامرة صفحة ١٨٨)، أو هي جبعة الآن كما في أعلام الأماكن، وفي قول آخر لكاران وهي في الشمال الشرقي من أورشليم. ووافق من مسَّ الله قلبهم شاول وازدراه بعض بني إسرائيل قائلين كيف يخلّصنا هذا ولم يهدوا إليه الهدايا؟ فما أقدم في المشرق عادة تقديم الهدايا لمن حاز رتبة أو رُقيَ مقاماً بسبيل التهنئة، ولم يكترث شاول بمن لم يريدوه بل تعامى عنهم كأنَّه غير عالم بهم.

عد ٢٤٧

محاربة شاول لناحاش ملك العمونيين

لم يمضِ شهرٌ على انتخاب شاول ملكاً إلّا صعد ناحاش ملك العمونيين الذين كان قد ذلّلهم نفتاح، ونزل على يابيش جلعاد وهي مدينة كانت لنصف سبط منسّا في شرقي الأردن، ولعلّها كانت في المحل المسمَّى اليوم وادي اليابيس في ناحية السلط. وقال أوسابيوس إنَّ موقعها كان في شرقي بحيرة طبرية (كتاب أعلام الأماكن). وضايق ناحاش أهل يابيش فقالوا له إقطع لنا عهداً نخدمك، فأجابهم: إنَّه لا يقطع لهم عهداً إلّا أنَّه يقلع كل عين يمنى لهم، ويجعل ذلك عاراً على جميع إسرائيل. فقال له شيوخ يابيش أمهلنا سبعة أيام حتى ننفذ رسلاً إلى جميع تخوم إسرائيل، فإن لم يكن لنا مخلّص خرجنا إليك لتقلع عيوننا. ووافى رسلهم إلى جبع مدينة شاول وقصُّوا ما كان لهم فرفع الشعب أصواتهم بالبكاء، واشتدَّ غضب شاول، وأخذ ثورَين فقطعهما، وأنفذ رسلاً إلى جميع تخوم إسرائيل يقولون كل من لم يخرج وراء شاول وصموئيل هكذا يصنع ببقره. فهاج الشعب وخرجوا فكان عديدهم ثلاث مئة ألف رجل، ورجال يهوذا ثلاثين ألفاً، وروى يوسيفوس (ك ٦ في تاريخ اليهود ف ٦) أنَّهم كانوا سبع مئة ألف، ورجال يهوذا سبعين ألفاً وتلك مبالغة مخالفة لنص الكتاب. وقد خصَّ سبط يهوذا بالذكر لأنَّ بني يهوذا كانوا اعتزلوا في مدَّة القضاة مشاركة سائر بني إسرائيل في حروبهم إلّا عندما قبضوا على شمشون وسلّموه إلى الفلسطينيين. وأرسل شاول رسل يابيش يقولون

لقومهم إنَّه غداً يكون لهم خلاص عندما تحمى الشمس. ففرحوا وأرسلوا يقولون لبني عمون غداً نخرج إليكم فتصنعون بنا ما يحسن في عيونكم. ولم يكذبوا في ما قالوا بل أخفوا كيفية خروجهم إليهم كيلا يباغتوهم بالقتال، أمَّا شاول فعبر الأردن ليلًا ولمَّا كان الغد رتب عسكره ثلاث فرق، ودخلوا في وسط المحلة عند هجيع الصبح، فقاتلوا بني عمون حتى حمي النهار، فتشتَّت من بقي منهم وتفرَّقوا شذر مزر، ووجد ناحاش ملكهم مجندلًا بين القتلى. وصموئيل كان معهم إذ قال الشعب له من الذي يقول أشاول يملك علينا؟ اخرجوا القوم لنقتلهم، فأبدى شاول حلمه ودرايته السياسية إذ قال لا يُقتل اليوم أحد لأنَّ الرب أجرى فيه خلاصاً لإسرائيل. فانضم إليه مخالفوه. وقال صموئيل هلمُّوا بنا إلى الجلجال (المسمَّى الآن جلجول حذاء أريحا) لنجدِّد هناك الملك فانطلقوا، وجدَّدوا تمليك شاول وذبحوا ذبائح سلامة أمام الرب، وفرح شاول وبنو إسرائيل أجمعون فرحاً عظيماً (ملوك ١ ف ١١).

عد ٢٤٨
محاربة شاول للفلسطينيين

إنَّ شاول في السنة الثانية لمُلكه انتخب لنفسه ثلاثة الآف رجل من بني إسرائيل ليكونوا جنوداً يقيمون عنده. وأقام منهم الفين في مكماش المسماة الآن مخماس على سبعة أميال من أورشليم شمالاً (كتاب اعلام الأماكن). وجعل ألفاً منهم تحت إمرة ابنه يوناثان في جبع بنيامين، وهي المسماة الآن جبعة في جوار مخماس على ما في كتاب اعلام الأماكن أو تل الفول على ما روينا انفاً عن كاران. وقد رأيت قبيله أن الفلسطينيين استبقوا لأنفسهم محرساً عسكرياً في جبعة، فضرب يوناثان رجال هذا المحرس. فهاج الفلسطينيون واجتمعوا لمحاربة بني إسرائيل، وكان لهم ثلاثون ألف مركبة، (وروى أكثر المدققين ثلاثة آلاف مركبة) وستة آلاف فارس، وشعب يشذّ عن العد، وصعدوا وعسكروا في مكماش (مخماس). فتولّى الرعب بني اسرائيل حتى اختبأ الجبناء منهم في المغاور والغياض والآبار، وجاز قومٌ منهم الأردن ليستأمنوا هناك. واجتمع بعض الشجعان مع شاول في الجلجال (جلجول)، وأقام ثمة شاول سبعة أيام ينتظر صموئيل بحسب موعده ليقدّم الذبائح

لله التماساً للظفر، فلم يأتِ وطفق الشعب يتفرق عن شاول، فأقدم على إصعاد المحرقة ولما فرغ من إصعادها إذا صموئيل قد أقبل، فخرج شاول للقائه فلامه النبي شديد اللوم على اختلاسه حق الكهنة بتقدمة الذبائح خلافاً للسنة، ولما افترضه النبي عليه بأمر الرب عند انتخابه قائلاً إنّك بحماقةٍ فعلت إذ لم تحفظ وصية الرب، والآن لا يدوم ملكك لأن الرب اختار له رجلاً غيرك على وفق قلبه، فاعتذر له شاول بأنه رأى الشعب يتفرقون عنه، وأنه هو لم يأتِ في أيام الميعاد، والفلسطينيون مجتمعون في مكماش، وصعد صموئيل من الجلجال إلى جبع بنيامين، وتبعه شاول ورجاله ولم يكن باقياً منهم إلّا ست مئة رجل.

وخرجت ثلاث فرق من محلة الفلسطينيين يخرّبون في أرض اسرائيل. فأخذت فرقةٌ منها في طريق عفرة. وهي المعروفة الآن بالطيبة في الشمال الصريح من مخماس. وفي الشمال الشرقي من بيت اين. وعلى خمسة عشر ميلاً من أورشليم شمالاً. وهي غير عفره موطن جدعون كما في كتاب اعلام الأماكن الكتابية وكما حقق كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٤٧)، وفرقة أخذت في طريق بيت حورون. وهي بيت اور العليا الآن في الشمال الغربي من أورشليم وفي الجنوب الغربي من رام الله. وفرقة أخذت في طريق التخم المشرف على وادي صبوعين ناحية البرية. قال كاران (في المحل المار ذكره) إنّ وادي صبوعين لم يتحقق تعيينه إلى الآن، على أنّ الكلمة العبرانية صبوعيم معناها الضبع. وفي البرية الكائنة بين مخماس وأريحا محل يسمّى الآن شق الضبع، وان هو في العربية إلّا ترجمة الكلمة العبرانية. ولما كانت الفرقة الأولى سارت شمالاً والثانية غرباً، فيظهر أنَّ الثالثة سارت شرقاً نحو البرية المشار إليها. وأما في الجنوب فكان شاول ورجاله فلم يتوجه إليه الفلسطينيون. وقال اوسابيوس والقديس ايرونيموس إنَّ صبوعين أو صبوعيم كانت على شاطئ بحيرة لوط غرباً. ولم يكن في أرض اسرائيل حدّاد منعهم من ذلك الفلسطينيون لئلّا يعملوا سيفاً أو رمحاً، وكان يذهب كل امرئ منهم إلى الفلسطينيين ليحدّد سكته، ومنجله وفأسه ومعوله، ولمّا حان وقت الحرب لم يوجد سيف ولا رمح إلّا في أيدي شاول ويوناثان ابنه.

وخرجت طلائع الفلسطينيين إلى معبر مكماش (مخماس)، فقال يوناثان ذات يومٍ لحامل سلاحه هلمّ نعبر إلى محرس الفلسطينيين من غير أن يعلم أباه، وكان في

ذلك المعبر سن صخرة من هذه الجهة، وسن صخرة من تلك السن الواحدة من جهة الشمال مقابل مكماش، والأخرى في الجنوب مقابل جبع (جبعة). وقد كتب العالم كاران عند زيارته هذه الأماكن (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٦٤): «إنَّ وادي ماسوينيت الفاصل بين جبعة ومخماس هو عميقٌ جداً، وكأنه عمودي في بعض محاله لا سيَّما نحو الشرق، وعلى جانِبَي الوادي أكمتان صخريَّتان إحداهما شمالية، والأخرى جنوبية طبق ما نصَّ الكتاب». فعبر يوناثان بين صخور الأكمة الشمالية مع حامل سلاحه، وأظهرا أنفسهما لمحرس الفلسطينيين، فقالوا هوذا العبرانيون خارجون من الحجرة التي اختبأوا فيها، وقالوا ليوناثان وغلامه: تعاليا إلينا نعلمكما أمراً وكان يوناثان قال للغلام إن قالوا قِفا حتى نصل اليكما وقفنا ثابتين، وإن قالوا إصعدا إلينا صَعِدنا، فيكون هذا علامة لنا أن الرب أسلمهم إلى ايدينا.

وصعد يوناثان على يديه ورجليه وحامل سلاحه وراءه، ووثبا على المحرس فكانت المقتلة الأولى التي عملاها نحو عشرين رجلاً في نحو نصف تلم فدان أرض، أي في قدر نصف ما يحرثه الفدان في نهار، فحلَّ الرعب في المحلَّة. وارتعد المحرس والمخربون ايضاً. قال يوسيفوس (ك ٦ من تاريخ اليهود) إنَّ يوناثان وغلامه إنصرفا من وجه الأعداء، وصعدا من محلٍ آخر على صخرٍ لم يكن عليه حرس فوجدا الأعداء نائمين، فأعملا السيف بهم فأخذوا يطرحون سلاحهم لينجوا بأنفسهم، وبعضهم يقتل بعضاً يظنهم أعداءً لأنَّ عسكرهم كان من أمم مختلفة، وبعضهم كان يدفع بعضاً ويزحمه فارًّا فيقعون من على الصخور. وقالَ كريتس (في تاريخ اليهود) تولَّى الرعب الفلسطينيين لمهاجمتهم بغتةً وهم على صخرٍ عالٍ لا يتسنَّى لأحد الصعود إليه دون أن يجتاز في المحرس، فتوهَّموا أنّ موجودات غير طبيعية تقاتلهم. ورأت طلائع عسكر شاول تشتت شمل الفلسطينيين، وافتقدوا من غاب من عندهم فإذا يوناثان وحامل سلاحه ليسا هناك. وأسرع شاول ومن معه إلى محل المعركة ومعهم تابوت العهد فإذا بسيف كل واحد على صاحبه وانضمَّ إلى عسكر شاول العبرانيون الذين كانوا مع الفلسطينيين خوفاً منهم. وظهر من كانوا اختبأوا في جبل أفرائيم، وانضمّوا إلى شاول حتى صار عسكره نحو عشرة آلاف رجل، فتتبَّعوا أثر الفلسطينيين يقتلون منهم. وقال شاول ملعون الرجل الذي يذوق طعاماً إلى المساء حتى أنتقم من أعدائي، فامتنع الشعب عن الأكل النهار كله. ومرّوا في غاب كَثُرَ فيه النحل والعسل حتى كان العسل يسيل على الأرض.

ولم يمدد أحدهم اليه يداً إلّا يوناثان فإنه مدَّ طرف عصاه، وغمسها في شهد العسل وردَّها إلى فمه، ولم يكن عالماً بما حتَّم أبوه، فقال له رجلٌ إنَّ أباك حلَّف الشعب أن لا يذوق اليوم طعاماً، فلم يصوِّب عمل أبيه، واعتذر عن عمله بجهله الأمر. واستمروا يطاردون الفلسطينيين من مكماش إلى أيَّالون وهي يالو الآن على ما روى كاران اسمها بالعربية. وأظنها يعلو كما في الخريطة الجغرافية العربية وهي في شرقي عمواص، وهو المحل الذي أوقف يشوع بن نون فيه الشمس عن المسير. وقد أعيا الشعب من كدِّه النهار كله دون قوت، فأخذوا بقراً وغنماً وذبحوا على الأرض، وأكلوا بالدم فمنعهم شاول عن ذلك فدحرجوا صخرةً عظيمةً، وكانوا يذبحون عليها ويأكلون. وبنى شاول مذبحاً فكان أول مذبح بناه للرب، وأراد شاول أن ينزل وراء الفلسطينيين ليلاً فقال الكاهن لنسأل الله. فسأل شاول الله هل أنزل وراءهم وهل تدفعهم إلى يدي؟ فلم يجبه. وشعر بأنَّ الشعب اقترف إثماً، وحلف له أنه لو كان الإثم بابنه يوناثان، ليموتنَّ موتاً. واقترعوا فأصابت القرعة يوناثان فسأله أبوه ماذا عملت؟ فقال إنه ذاق العسل برأس العصا. وأراد أبوه قتله مبرَّةً ليمينه، ولكن أبى الشعب قتله لأنَّ الخلاص جرى على يده فلم يُقتَل.

وحارب شاول كل من حوله من الموآبيين والعمونيين وملوك صوبا، (الراجح أنهم كانوا في سهول البقاع وبعلبك)، وكان ظافراً حيث ما توجَّه، ولم يطرفنا الكتاب بشيء من تفصيل أخبار هذه الحروب، وكان أبناء شاول يوناثان ويشوي وملك يشوع، وله بنتان اسم الكبرى ميراب والصغرى ميكل، وكان أبنير بن نير عمّ شاول قائداً لجيوشه. وكان كل ما رأى رجلاً ذا بأس ضمَّه إليه (ملوك ١ ف ١٤).

عد ٢٤٩
محاربة شاول للعمالقة

قد أنبأنا الكتاب (ملوك ١ ف ١٥): إنَّ صموئيل أتى إلى شاول قائلاً أنا الذي أرسلني الرب لأمسحك ملكاً على شعبه فاسمع الآن ما يقول الرب. قد إفتقدت ما صنع عماليق ببني إسرائيل وكيف وقفوا لهم في الطريق عند خروجهم من مصر، فهلم الآن، واضرب عماليق ولا تعفُ عن أحد منهم الرجال والنساء، وأبسل

بهائمهم أيضاً. وقد أبنّا عند كلامنا في غزوة كدرلاعومر لسورية من هم العمالقة ومن ذريّة من هم. فطالع عد ١٥٥. وقد مرَّ في الكلام على القضاة أنّ هؤلاء العمالقة شايعوا المدينيين. فضايقوا بني إسرائيل، وخلّصهم أهود ثم ناصروا المدينيين، فضايقوهم مرّةً أخرى، ونجّاهم جدعون. ويظهر من كلام صموئيل لملكهم أجاج أنهم كانوا يسطون في أيامه على بني إسرائيل الساكنين في شرقي الأردن. ويقتلون بعضهم، فلهذا أمَرَ الرب شاول أن يبيدهم على آخرهم فجمع شاول رجالاً من بني إسرائيل، وأحصاهم فكانوا مئتي ألف راجل، وعشرة آلاف رجل من سبط يهوذا. وبالغ يوسيفوس (ك ٦ في تاريخ اليهود ف ٨) على عادته أن يزيد عددهم فقال كانوا أربع مئة ألف عدا ثلاثين ألفاً من سبط يهوذا.

وزحف شاول بعسكره إلى مدينة عماليق وكَمَنَ في الوادي، وأرسل يقول للقينيين ذوي قرابة يترو حمي موسى (الذين يظهر أنّ بعضهم توطّنوا بين العمالقة) أن يعتزلوا من بين العمالقة لئلا يهلكهم معهم، وهم قد صنعوا رحمةً إلى بني إسرائيل عند خروجهم من مصر. وضرب شاول بني عماليق من حويلة إلى آشور التي قبالة مصر، والمدينتان في بلاد العرب. وقتل كل من وجده بحدّ السيف، وأسر أجاج ملكهم وأبقاه حياً، وعفا أيضاً عن خيار الغنم والبقر، وكل سمين وكل ما كان جيداً، ولم يبسلوا إلّا كل من كان حقيراً مهزولاً خلافاً لأمر الرب. قال يوسيفوس (في المحل المشار إليه) إنّ شاول أباد بعضهم بالسلاح وبعضهم بمنعهم عن الزاد أو الماء حتى دوّخ بلادهم كلها. وعاد شاول ظافراً غانماً، وأقام نصباً لانتصاره على جبل الكرمل الذي في أملاك سبط يهوذا في المحل المعروف الآن بخربة الكرمل على عشرة أميال من الخليل جنوباً، كما ذكر أوسابيوس وإيرونيموس، وحققه كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ١٦٦). فهناك أقام شاول نصب إنتصاره لا في الكرمل الذي على البحر المتوسط، ثم نزل إلى الجلجال (جلجول) يقدّم محرقةً للرب.

فأوحى الرب إلى صموئيل أنه متسخطّ على شاول لأنه مال عن أتباعه، ولم يعمل بأمره أن يبيد العمالقة وماشيتهم. فشق ذلك على صموئيل، وصرخ إلى الرب ليله كله، وبكّر للقاء شاول، فإذا هو يُصْعِد محرقةً للرب في الجلجال من خيار الغنيمة التي غنمها من عماليق. فالتقاه شاول قائلاً مبارك أنت إلى الرب إني قد

أقمت كلامه. فقال صموئيل فما هو إذاً صوت الغنم والبقر الذي أنا سامع مع أن الرب أمرك بقرض عماليق وماله؟ فاعتذر بأنَّ الشعب عفا عن خيار الغنم والبقر ليذبحوا للرب، وجئت بأجاج ملك عماليق وأبسلت العمالقة.

فقال له صموئيل: كنتَ حقيراً في عيني نفسك، فمسحك الرب ملكاً على إسرائيل. وقال لكَ إنطلق فافنِ العمالقة، فملت إلى الغنيمة وخالفتَ أمره. أترى الرب يُسَرُّ بالمحرقات كما يُسرُّ بالطاعة لكلامه؟ إنَّ الطاعة خيرٌ من الذبيحة، قد رذلتَ كلام الرب، فرذلك من المُلك. فقال شاول قد خطئتُ لخوفي من الشعب فاغفر خطيئتي، وارجع معي لأستغفر الرب. فأجابه لا أرجع معك، وتحوَّل لينصرف فأخذ شاول بطرف ردائه فانشقَّ، فقال له صموئيل: سيشق الرب مملكة إسرائيل عنك، ويدفعها إلى صاحبك الذي هو خيرٌ منك. فقال شاول: قد خَطِئت فاحفظ كرامتي أمام شيوخ الشعب وبني إسرائيل وارجع معي لأسجد للرب فرجع صموئيل وراء شاول، فسجد للرب ثم قال صموئيل هلمَّ لي بأجاج ملك عماليق، فشخص أمامه مترفاً مرتعداً. فقال له صموئيل: كما أثكل سيفك النساء في إسرائيل تُثكل أمك بين النساء، وأمر بقتله في الجلجال. وانصرف صموئيل إلى الرامة وصعد شاول إلى بيته في جبع (جبعة). ولم يعد صموئيل يعاين شاول إلى يوم وفاته. وقد جاء في سفر الملوك نفسه (ملوك ١ فصل ١٩ ع ٢٤): إنَّ شاول «تنبأ أمام صموئيل». وهذا يدلُّ على أنّ قوله لم يعد صموئيل يعاين شاول إلى يوم وفاته، معناه أنه امتنع من زيارته لا من أن يراه مصادفة كما في الآية الثانية.

عد ٢٥٠
مسح صموئيل داود ليكون ملكاً موضع شاول

قد جاء في سفر الملوك (فصل ١٦) إنَّ الرب قال لصموئيل إلى متى تنوح على شاول وأنا قد رذلته؟ فاملأ قرنك دهناً، واذهب إلى يسى من بيت لحم لأني اخترت من بنيه ملكاً. فقال صموئيل إن سمع شاول يقتلني. فقال له الرب خذ معك عجلة، وقلّ إني جئت لأذبح للرب، وادعُ يسى إلى الذبيحة وأنا أعلِّمك ماذا تصنع؟ ومن تمسح؟ ففعل صموئيل، وأتى بيت لحم فاضطرب شيوخها وقالوا:

أَلِسلامٍ قدومك؟ فقال أتيت أذبح للرب، فقدِسوا أنفسكم، وتعالوا معي إلى الذبيحة. ويظهر من هذه الآيات وغيرها أنهم كانوا يومئذٍ يقدمون الذبائح مرات في غير خباء المحضر، وأتى يسّى وأولاده إلى الذبيحة. ونظر صموئيل إلى أليآب أكبر أبناء يسّى فقال: أأمام الرب مسيحه؟ فقال له الرب لا تنظر إلى منظره، وطول قامته. فإنَّ الإنسان إنما ينظر إلى العينين. وأما أنا فأنظر إلى القلب. وأجاز يسى أبناء السبعة وصموئيل يقول عن كلٍ منهم لم يختره الرب ثم سأل يسّى أهؤلاء جميع الغلمان؟ فأجابه: بقي الصغير وهو يرعى الغنم. فقال جئنا به. فأتى وكان أشقر حسن العينين وسيم المنظر. فقال له الرب هذا هو قمْ فامسحه. فأخذ صموئيل قرن الدهن ومسحه، فحلَّ روح الرب عليه من ذلك اليوم فصاعداً، وأمر صموئيل أن يبقى الأمر سرًّا مكتوماً.

أما شاول فمذ أعلمه النبي بانتزاع المُلك منه فارقه روح الرب واعتراه داء المنخوليا (٢). وكان أعوانه ينسبون داءه إلى روح شرير، وأشاروا إليه أن يستدعي رجلاً يحسن الضرب بالكنارة حتى إذا اعترته نوبة المرض فرّج كربه بضرب الكنارة فيستريح وينتعش. وهداه بعضهم (ربما كان بتلقين صموئيل) إلى داود بن يسّى فأرسل إلى أبيه أن يبعث إليه به. فأخذ يسى حماراً حمل عليه خبزاً وزقَّ خمر وجدياً من المعز، وأرسلها مع داود إلى شاول. ولما تمثَّل أمامه أحبَّه جداً وجعله حامل سلاحه. وكان إذا اعترى شاول الداء أخذ داود الكنارة، وضرب بيده فيستريح شاول وينتعش. هذا ما جاء في الفصل السادس عشر من سفر الملوك الأول، ولكن في الفصل السابع عشر منه (عد ٥٥ وما يليه): «وإذ رأى شاول داود حين خرج للقاء الفلسطيني، قال لأبنير رئيس جيشه ابن مَن هذا الغلام؟ فقال أبنير طِبْ نفساً أيها الملك إني لا أعرفه. فقال الملك: سَلْ إبنُ مَن هذا الفتى؟ فلما رجع داود من قتله الفلسطيني، أخذه أبنير وأدخله على شاول ورأس الفلسطيني بيده. فقال له شاول ابن مَن أنتَ يا فتى؟ فقال له داود: أنا ابن عبدك يسّى من بيت لحم». فأكثر جاحدو الوحي من تعظيم هذه المعضلة، وقالوا إنها مستغلقة لا يُهتدى إلى وجه حلِّها. وقال أحدهم فولتر:

(١) وهو اضطراب ملازم العقل تسببه شدة الغم والكلمة يونانية مركبة من مالان أي اسود وخولي أي مرّة لقولهم انه مسبب عن الخط المذكور أي المرّة السوداء.

«كيف جهل شاول من هو داود؟ وكيف خفيَ عليه ضارب كنارته وحامل سلاحه؟ فنحن لا نرى وجهاً لحلّ هذه المعضلة». على أنّ الآباء القدماء والعلماء الحدثاء رأوا المسألة معضلة لكنهم لم يروها مستغلقة بل إهتدوا إلى أوجه عديدة لحلّها.

فقال بعضهم - ومنهم كريتس - في تاريخ اليهود أن صرع داود جليات كان قبل أن يستقدمه شاول ليُفرج كربه بضرب كنارته، وقبل أن يجعله حامل سلاحه. لكن الكتاب قدَّم وضعاً ذكر ما تأخَّر زماناً ولهذا أمثلةٌ عديدة في الكتاب مرَّ بنا ذكر بعضها. واحتجّوا لقولهم بتسمية داود غلاماً وفتى عند قتله جليات كما رأيت آنفاً وتسميته «جبار بأس ورجل حرب حصيف الكلام». (ملوك ١ فصل ١٦ عد ١٨). عند استقدام شاول له إليه، وأيَّدوه بأنه جاء في الكتاب عن داود بعد صرعه جليات «وكان داود يضرب بيده كما كان يفعل كل يوم وكان في يد شاول رمح فأشرع شاول الرمح، وقال أخرق داود الحائط فتنحَّى داود من بين يديه مرتين» (ملوك ١ فصل ١٨ عد ١٠ و ١١). وأخبار قتله جليات ذُكِرَت في الفصل السابع عشر وقال هؤلاء أيضاً إنَّ كُتُب الأقدمين - وإن كانوا من الكُتَّاب الملهمين - ملأى من الإعادات ومن التقديم والتأخير في الوضع. فموسى مثلاً ذكر أبناء نوح أربع مرات في سفر التكوين (أي في فصل ٥ عد ٣٢ وفصل ٦ عد ١٠، وفصل ٩ عد ١٨، وفصل ١٠ عد ١). فإن صحَّ قول هؤلاء امتحقت كلُّ ضالَّة وزال كلُّ إشكال.

وأما إذا كان استقدام شاول داود قبل قتله جليات كما هو ظاهر الكتاب، وعليه مشى أكثر الآباء والعلماء فلهم في حلِّ المعضلة أوجه عديدة، نذكر بعضها. قال القديس أفرام جهبذ الكنيسة السريانية (في تفسيره سفر الملوك الأول مجلد ١ من كتبه السريانية المطبوعة في رومة صفحة ٣٧٠): «إنَّ شاول الملك كان يعرف راعي الغنم الذي من بيت لحم المعرفة الكافية. وكان قد قرَّبه إليه، وجعله حامل سلاحه، وضارب كنّارته على أنّ شجاعة داود قد أذهلته وزادته اعتباراً بعينيه. وكان وعد بأنه يزوِّج ابنته بمن قهر جليات، فرام الإستقصاء الجهيد عن نسب من كان مزمعاً أن يصاهره كما يفعل كل أب فَطِن صالح. ولذا كلَّف أبنير بأن يسأل عنه وهذا أمر بديهي وعلى غايةٍ من الصواب والسداد. ولعله أيضاً فكر أنه هو

الذي سوف يخلفه كما كان صموئيل قال له. وقال تاودوريطوس (في خطبته ٤٣ في سفر الملوك الأول): «كيف لم يعرف شاول داود؟ فيجاب بأحد أمرين إما أنّ الداء الذي كان يعتريه لم يكن يمكّنه من عرفان من يضرب له بالكنّارة، إما أنّ حسده له جعله يدقق بالإستقصاء عنه من أين هو وابن مَن هو؟» وقال كلمت (في معجم الكتاب في كلمة داود): إنَّ داود كان ترك شاول من مدة فتبدَّل منظره وصوته وقامته. وكان يقوم أمامه بملابس ضارب الكنّارة أو جندي يحمل سلاح الملك. فرآه عند محاربته جليات رجلاً بأثواب راعي غنم، فخفي عليه هذا وقد خلت أكثر نسخ الترجمة السبعينية عن الآيات المنبئة بسؤال شاول عن داود وإن وُجِدَت في بعضها وفي النص العبراني وغيره من الترجمات.

عد ٢٥١
قتل داود جليات الجبار

جاء في الفصل السابع عشر من سفر الملوك الأول أنّ الفلسطينيين جمعوا عساكرهم للحرب. ونزلوا بين سوكو وعزيقة واجتمع شاول ورجال إسرائيل، ونزلوا وادي البطمة وبين الجيشين الوادي. أما سوكو فهي خربة الشويكة اليوم على بعد سبعة أميال ونصف من بيت جبرين نحو أورشليم. وأما عزيقة فكان موقعها في دير العاشق أو في تلِّ زكريا مصاقبة لخربة الشويكة. وأقرب منها إلى أورشليم (طالع عد ٢١٧). وأما وادي البطمة فهو في محل كلوني الآن وتسمّيه السبعينية وادي السنديان. قال ميشود (في مراسلات المشرق رسالته ٩٣ مجلد ٤): «قد عبرنا الوادي الذي انتقى منه داود الخمسة الحجارة الملس ليصرع بها خصمه فكان على جانبنا الجبل الذي كان عليه معسكر إسرائيل، وعلى جانبنا الآخر محلة الفلسطينيين. وقد بنى الصليبيون ثمة مدينة سمّوها كلونيا تذكرة لظفر داود وأطلالها باقية هناك» في المحل المسمى كلوني. ولما صاف القوم للقتال خرج مبارز من عسكر الفلسطينيين اسمه جليات من جت (ذكرين). وروى لانرمان (في تاريخه الشرقي مجلد ٦ في تاريخ العبرانيين) أنه من ذرية بني عناق الأقدمين. وقال الكتاب: كان طوله ست أذرع وشبراً وقدَّر كلمت (في تاريخ العهد القديم) أنها إثنتا عشرة قدماً ونصف وعلى رأسه بيضة من نحاس. وكان لابساً درعاً حرشفية

وزنها خمسة آلاف مثقال نحاس. أي سبعة آلاف وخمس مئة درهم بحساب المثقال درهماً ونصفاً، عبارة عن ثماني عشرة أُقَّة وثلاث مئة درهم. وعلى رجليه ساقان من نحاس. وبين كفَّيه مزراقٌ من نحاس، وقناة رمحه كنول النساج أي كالخشبة التي يطوى عليها النسيج المعروفة بالمطوى، ووزن سنان رمحه ست مئة مثقال من حديد عبارة عن أُقَّتين ونيِّف.

وروى يوسيفوس (ك ٦ في تاريخ اليهود فصل ١٠): إنَّ طوله أربع أذرع وشبر وكان بين يديه رجل يحمل مجنبه، فوقف هذا ونادى صفوف إسرائيل لِمَ الحرب ووفرة إراقة الدماء؟ فأنا فلسطيني وأنتم عبيد شاول، فاختاروا رجلاً ينازلني فإن قتلني صرنا لكم عبيداً، وإن قتلته تصيرون أنتم لنا عبيداً. ولهذا مثلٌ في التواريخ القديمة واستمرَّ على ذلك اربعين يوماً، فارتاع شاول وبنو إسرائيل من هذا الكلام. وكان بين عسكر شاول ثلاثة من إخوة داود، فقال أبوهم لداود خذ إيفة مكيال من هذا الفريك وهذه العشرة الرغفان، وامضِ إفتقد إخوتك في المحلة، فبكَّر داود ووكَّل الغنم إلى من يحفظها. وانطلق إلى المترسة وبينما هو يكلِّم إخوته إذا جليات خرج يكرر تقريعه لبني إسرائيل. وسمع داود رجالاً يقولون من قتل هذا المبارز أغناه الملك وزوَّجه إبنته. فقال : من عسى أن يكون هذا الفلسطيني الأقلف، حتى يقرع صفوف الله الحي؟ وصرَّح بعزمه أن ينازله فاستشاط أخوه ألياب غضباً عليه وقال له لماذا نزلتَ إلى هنا؟ وعند من خلَّفت تلك الغنيمات في البرية، فانصرف داود إلى ناحية أخرى. وقال إنه ينازل جليات وبلغ شاول كلامه فاستحضره وقال إنه يحارب الفلسطيني. فقال له شاول لا طاقة لك بقتاله لأنك غلام وهو رجل حرب منذ صباه. فأجابه داود كان عبدك يرعى غنم أبيه فقتل أسداً ودباً طرقا غنمه. وسيكون هذا الفلسطيني كأحدهما، وينقذني الرب هنا كما أنقذني هناك. وألبس شاول داود سلاحه. فلم يُحسِن الحركة فيه فنزعه عنه وأخذ عصاه بيده، وانتقى خمسة حجارة ملس من الوادي، ووضعها في كنف الرعاية (الجراب) ومقلاعه بيده، وبرز للفلسطيني فاستخفَّ به وقال أكلبٌ أنا حتى تأتيني بالعصا؟ تعال فأجعل لحمك لطير السماء ووحش القفر، ولعن داود بآلهته. فقال له داود أنت تأتيني بالسيف والرمح والمزراق، وأنا آتيك باسم الرب إله إسرائيل الذي قرَّعته. ومدَّ داود يده إلى الكنف، وأخذ منه حجراً قذفه بالمقلاع، فانغرز الحجر في جبهة الفلسطيني فسقط على الأرض. وأسرع داود فاخترط سيف الفلسطيني من غمده، وقطع رأسه

به فتولّى الرعب الفلسطينيين لمّا رأوا جبّارهم صريعاً، وولّوا الإدبار منذعرين متشتتين. فتعقبهم بنو إسرائيل يقتلون منهم إلى جت (ذكرين)، وإلى أبواب عقرون (عاقر). ثم رجعوا عن مطاردتهم، وانتهبوا محلتهم وأخذ داود رأس الفلسطيني وجاء به إلى شاول ثم وضعه في أورشليم، ووضع عدته في خيمته ثم وضع السيف في بيت الرب كما يتّضح من فصل ٢١ عد ٩ في سفر الملوك الأول.

قد ندّد الطبيعيون بالكتاب لقوله:إنّ داود جاء برأس جليات إلى أورشليم مع أنه لم يفتتح أورشليم إلّا بعد أن قبض على زمام الملك كما في سفر الملوك الثاني (فصل ٥ عد ٩). وقد فاتهم أنّ أورشليم كان يسكنها يومئذٍ بنو إسرائيل واليبوسيون معاً. والذي إفتتحه داود بعد تولّيه الملك إنما هو حصن صهيون الذي سمّاه مدينة داود كما هو بيّن لكل ذي عينين يطالع ما استشهدوا به نفسه.

عد ٢٥٢

حصول النفرة بين شاول وداود

أحبَّ شاول داود أولاً وقرّبه إليه، وصافاه يوناثان بن شاول، وأخلص له في الوداد، وقطع معه عهداً، ووهبه رداءه وسائر ثيابه وسيفه وقوسه ومنطقته. وكان داود يخرج حيثما وجّهه شاول ويتصرّف بحكمة. وأحبه جميع الشعب ولا سيما عبيد شاول. فداخل شاول الحسد والغيرة وقد بلغه أنّ النساء كنَّ عند رجوعهم من حرب الفلسطينيين يغنينَ قائلات قتل شاول ألوفه وداود ربواته. ووجس أن يكون داود خلفاً له بالملك بعد إنتزاعه منه كما هدّده صموئيل. فعَظُمَت شجونه، وتولّته الكآبة، وعاوده مرضه، فاستدعى داود ليضرب له بالكنّارة، وأشرع الرمح ليخرق داود به فتنحّى داود من بين يديه مرتين، وأضمر قتله لكنه قال لا تكن يدي عليه بل يد الفلسطينيين، وأسمعه أنه يزوّجه بميراب ابنته الكبرى بشرط أن يكون ذا بأس. ويحارب حروب الرب، فقال داود من أنا وما عشيرة أبي حتى أكون صهر الملك؟ وفي ميعاد إعطائه إيّاها زفّها أبوها إلى غيره، وكانت ميكال أختها الصغرى تحب داود. فقال شاول أعطيها له فتكون له وهقاً ويقتله الفلسطينيون. ولذلك أرسل يقول لداود أن لا رغبة له في المهر لكنه يريد مئة قلفة من الفلسطينيين إنتقاماً منهم. فذهب داود ورجاله وقتل من الفلسطينيين مئتَي رجل، وجاء بقلفهم فعُرِضَت على الملك بتمامها. وقد استطرق القدماء قطع قلف الأعداء، فجاء في كتاب

شمبوليون كاشف الكنوز الهيروكليفية. أنه وجد في قصر مدينة أبو في تاب (طيبة) خطوطاً هيروكليفية مؤداها «أنَّ رؤساء العسكر المصري أقاموا الأسرى في حضرة الملك رعمسيس الأول (قبل داود بقرون). فكان عددهم ثلاثة آلاف وعدد الأيدي المقطوعة ثلاثة آلاف وعدد القلف المقطوعة ثلاثة آلاف»، وعن خطوط أخرى هناك.

«وكان رئيس كل فرقة من الجنود يقدِّم حساب الأيدي اليمنى المزلومة من الأعداء في معمعة القتال وعدد قلفهم». فزوَّجه شاول ميكال ابنته واستمرَّ واجساً منه. بل كلَّم ابنه يوناثان وغيره أن يقتلوه. فلم يكتم يوناثان داود خبر سخط أبيه عليه، وحرَّصه أن يحتفظ لنفسه ويختبئ. ثم كلَّم أباه مذكراً إياه بفضل داود وأعماله الحسنة، وبفظاعة إثمه إذا أراق دماً ذكياً إعتباطاً. فحلف شاول أنه لا يقتل داود، وأدخله يوناثان على أبيه فكان بين يديه كما كان قبلاً. وعادت الحرب مع الفلسطينيين، فضربهم داود ضربات عظيمة فهربوا من وجهه. ولم يأتنا الكتاب بتفصيل أخبار هذه الحرب بل أنبأنا أنّ شاول عاوده مرضه، وأتى داود يضرب له في الكنَّارة. فأشرع رمحه ثانيةً على داود ليخرقه فأخطأه الرمح، ونشب في الحائط ونجا داود تلك الليلة. فوجَّه شاول رسلاً ليقتلوه في بيته. فدلَّته امرأته ميكال من كوَّة وهرب ناجياً، وأتى صموئيل في الرامة. وأخبره بكل ما صنع به شاول، وانطلقا وأقاما بنايوت وهي محلة قريبة من الرامة، وتابعة لها كما يظهر من قول الكتاب التابع في نايوت في الرامة. فأنفذ شاول رسلاً ليأخذوا داود، فرأوا صموئيل في رأس جماعة الأنبياء وهم يتنبأون أي ينذرون بحفظ سنَّة الرب. فتنبأ الرسل ايضاً أي جعلوا يتكلمون كأولئك الانبياء أي المعلمين وكذلك كان لمن أوفدهم شاول ثانياً وثالثاً. فانطلق شاول بنفسه ولمَّا دنا من مقام صموئيل وداود أصابه ما أصاب وفوده وزيادةً. فإنه إنطرح عرياناً نهاره وليله أجمع إذ عاودته نوبة دائه شديدة حتى فقد رشده (ملوك ١ فصل ١٨ و ١٩).

عد ٢٥٣

هرب داود من وجه شاول وإتيانه ألى أحيملك الكاهن

قد هرب داود من نايوت وأتى إلى يوناثان وقال له ما جرمي عند أبيك حتى يريد قتلي؟ فأجابه يوناثان إنَّ أباه لم يكاشفه بشيء من هذا، ولم يعتد أن يكتمه ما يصنع. فقال له داود إنَّ أباك يعلم ودادك لي فلم يشأ أن يعلمك لئلا تحزن، ولكن

ما كان بيني وبين الموت إلّا خطوة، واتفقا أن يكاشف يوناثان أباه في أمر داود يوم الإتكاء للطعام في رأس الشهر. وخرجا إلى الصحراء فعيّنا محلاً يلتقيان فيه للنبأ بما يكون. وفي اليوم الثاني من الشهر قال شاول ليوناثان لماذا لم يأتِ ابن يسى لا أمس ولا اليوم إلى الطعام؟ فأجاب يوناثان أنه قد استأذنني ليمضي إلى بيت لحم لأنَّ لعشيرتهم ذبيحة. فغضب شاول على يوناثان، وعيّره بتعصبه له وقال ما دام ابن يسى حيّاً فلا تثبت أنت ولا مملكتك. فإتني به لأنه مستوجب الموت، فقال يوناثان أيَّ سوء صنع؟ فأشرع أبوه الرمح ليطعنه به فقام يوناثان عن المائدة مغضباً وخرج إلى الحقل بحسب ميعاده لداود ومعه غلام صغير وسهام. وكان قد عاهد داود أن يرميها وإن قال لغلامه الأسهم خلفك فخُذْها كان خيراً لداود، فيُقبِل إليه وإن قال له: الأسهم أمامك كان شرّا لداود فينصرف. فرمى يوناثان سهماً وأرسل الغلام يلتقطه وناداه السهم أمامك أعجل لا تقف، والتقط الغلام السهم وعاد إلى مولاه وهو لا يعلم شيئاً. وصرفه يوناثان بالسهام إلى المدينة. وقام داود من مخبئه وخرَّ أمام يوناثان ثلاث مرّات لأنه ابن الملك، وقبّل كلٌّ منهما صاحبه وبكيا. وكان بكاء داود أشدَّ. وجددا عهد الموالاة بينهما وبين ذريتهما. وعاد يوناثان إلى المدينة ومضى داود في طريقه.

وأتى داود إلى نوب وهي إما المسماة الآن بيت نوبا على ثمانية أميال شرقاً عن اللدّ، وأما المسماة بيت أنابه على ما روى كاران، وأظنها عنابي على ما في خريطة سورية. وهذه البلدة على اربعة أميال شرقاً عن اللدّ ايضاً (كاران مجلد ١ في اليهودية صفحة ٣١٥). وهي غير نوب أو نوبا التي في شرقي الأردن. وكان غرض داود من إتيانه إليها أن يرى أحيملك الكاهن، ويأخذ سيف جليات الذي كان وضعه في مقدس الرب في هذه المدينة الكهنوتية، فارتعد الكاهن حين رآه وحده. فقال له داود: إنَّ الملك أمره بحاجةٍ خفيّة. وأنه واعد غلمانه إلى موضع كذا. وسأله أن يعطيه خمسة أرغفة أو ما تيسّر فأجابه الكاهن أن ليس عنده خبز مباح إنّما عنده خبز مقدّس، ولا يباح تناوله إلّا لمن كان طاهراً. فهل الغلمان طاهرون؟ فأوجب داود ذلك فدفع إليه الحبر خبز الوجوه المرفوع من أمام الرب ليوضع خبز سخن في موضعه. وهذا ما استشهده المخلّص لإبكام الفريسيين عن تذمّرهم لفرك التلاميذ سنبلاً يوم السبت كما روى متى (فصل ١٢ عد ٣). وذكر أبياتار في بشارة مرقس (فصل ٢ عد ٢٥) موضع احيملك إنما هو سهو من النسّاخ أو لأن

أبياتار هو ابن أحيملك وكان يعاونه في خدمته. وسأل داود الحبر أليس عندك ههنا رمحٌ أو سيف؟ فقال إنَّ ههنا سيف جليات الذي قتلته. فقال داود ومن لي بمثله عليَّ به؟ وكان هناك وقتئذٍ دويج الأدومي كبير رعاة شاول. فأخبره ما كان بين داود وأحيملك، وكذا تسبَّب قتل الكهنة وخراب نوب كما سترى (ملوك فصل ٢٠ و ٢١).

عد ٢٥٤

هرب داود إلى جت ومواب وقتل شاول كهنة نوب

وأتى داود أكيش ملك جت. وقد مرّ في مواضع عديدة أن موقع جت كان حيث ذكرين الآن على خمسة إلى سبعة أميال عن بيت جبرين في الشمال الغربي على ما رجّح كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ١٠٨). أو كان حيث تل الصافي الآن على مقربة من ذكرين شمالاً على ما في أعلام الأماكن الكتابية. ولما بلغ داود إلى جت عرفه بعض أهلها، فقالوا لملكها أليس هذا داود الذي كانت الإسرائيليات يغنينَ له قائلات قتل شاول ألوفه وداود ربواته؟ فخاف داود جدًّا وتظاهر بالجنون بين أيديهم. فقال أكيش أمن قلة المجانين عندي أتيتموني بهذا ليتجننَّ بين يديَّ. إنَّ داود خاف جدًّا من ان شاول يقتله وصمم على الاختباء من وجهه، ورأى أنّ اختفاءَه في أرض الفلسطينيين آمن منه في أرض العبرانيين فلا الفلسطينيون يظنون أنّ الدَّ أعدائهم، وقاتل جبارهم يختفي بين أظهرهم،ولا أحد من بني إسرائيل يخال له ذلك في بال ولما كشف أمره لم يكن له منجاة من الخطر إلّا بتظاهره بالجنون. لأنَّ قرائن الحال توجبه عليه وتقضي بتصديقه به فلا يقدم على مثل عمله إلّا من اختلَّ عقله هذا ما رأيته أحسن أقوال المفسرين وأسدَّها.

قد انصرف داود من جت وهرب إلى مغارة عدلام. وقال كثيرون إنَّ هذه المغارة هي المعروفة الآن بخربة خريتون نسبة إلى القديس خريتون الذي نسك فيها. وهي على ثمانية أميال عن بيت لحم جنوباً بين جبل فريديس وتقوع، والظاهر من كلام اوسابيوس إنَّها كانت في أيامه قرية كبيرة على عشرة أميال من بيت جبرين شرقاً، وقد ترجم القديس ايرونيموس كلامه ولم يصلح به شيئاً فكأنه تابعه فيه. وقال آخرون إنَّ مغارة عدلام كانت في جوار عين جدي. روى كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ١٣٥ وما يليها) هذه الأقوال ولم يصحح أو يُرَجِّح أحدها. ولما

سمع أخوة داود وجميع بيت أبيه أنه في عدلام نزلوا إليه، واجتمع إليه كلُ من كان في ضيق وعليه دين أو مرت نفسه فقام عليهم رئيساً وكانوا نحو أربع مئة رجل، فانطلق بهم داود إلى مصفاة مواب حيث كان ملك مواب فقال له داود ليقم أبي وأمي عندكم حتى أنظر ما يصنع الله لي. وأرسل صموئيل جاد النبي إلى داود ليعود إلى أرض يهوذا فعاد ودخل غيضة حارث. وجاء في كتاب الأعلام الكتابية انها كانت في جبل الخليل على مقربة من القرية المسماة اليوم حلحول في شمالي الخليل. وسمع شاول ان داود قد ظهر هو والرجال الذين معه، فأخذ يؤنّب آل بنيامين على ميلهم إلى داود وكتمانهم عليه معاهدة ابنه يوناثان له.

فقص عليه دويج الأدومي الذي كان في نوب عند مرور داود من هنالك ما صنعه احيملك لداود. وإنَّه دفع إليه سيف جليات الجبار، فأرسل شاول فدعا احيملك الحبر وجميع الكهنة الذين في نوب. وعنّفهم على أنهم حالفوا داود وأعطوه خبزاً وسيفاً. فقال احيملك إنَّه لا يعلم هو والكهنة بقليل ولا كثير مما كان بين الملك وداود بل عهدوه صهره ومسرعاً في طاعته. وأمر الملك السعاة الواقفين بين يديه أن يعطفوا ويقتلوا كهنة الرب. فلم يمدد أحدهم إلى الكهنة يداً حرمة للرب. فأمر دويج الأدومي ان يقتلهم. فقتل منهم في ذلك اليوم خمسة وثمانين رجلاً. ثم ضرب نوب مدينتهم بحد السيف فأهلك الرجال والنساء الأطفال والماشية، ونجا ابن لاحيملك اسمه ابياتار وأتى إلى داود؛ وأخبره بما صنع شاول فأمنَّه داود قائلاً لا تخف لأن الذي يطلب نفسي هو الذي يطلب نفسك (ملوك ١ فصل ٢٢).

عد ٢٥٥

مطاردة شاول لداود وعفو داود عن قتله

قد خُبر داود في مفرّه أنّ الفلسطينيين يحاربون عقيلة وينتهبون البيادر، وسأل الرب فأوحى إليه ان سر إليها وخلّص أهلها. فسار إليها برجاله وضرب الفلسطينيين ضربة عظيمة، واستاق مواشيهم وخلّص أهل عقيلة التي تسمى الآن كيلا على ستة أميال شرقاً من بيت جبرين (على ما روى كاران مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٣٤٢)، وعلى ستة أميال غرباً من حلحول (على ما في كتاب الأعلام الكتابية).

فهي في وسط الطريق بين بيت جبرين وحلحول، وعلم شاول أن داود في عقيلة فظن أنَّه يظفر به لأنَّه داخل مدينة ذات أبواب واغلاق. وهمَّ بالخروج إليه، وسأل داود الرب بواسطة ابياتار الكاهن، فاعلمه أنّ شاول يخرج إليه، وأنَّ أهل عقيلة يسلمونه إلى يده فانصرف داود مع نحو من ست مئة رجل نحو البرية، وأقام في الجبل في برية زيف، فخرج شاول في طلبه. وأتى ابنه يوناثان إلى داود خفية وشدَّد يده بالله قائلًا: لا تخف لأنَّ أبي لا يظفر بك وأنت تملك على إسرائيل، وأنا أكون لك ثانياً. وتعاهدا على ذلك وصعد سكان زيف إلى شاول، وتعهّدوا بأن يسلّموا داود إلى يده. وعلم داود فانتقل إلى برية معون فتعقَّبه شاول. ولكن ورد إليه رسول يخبره أنّ الفلسطينيين انتشروا في الأرض فعاد عن لحاق داود إلى لقاء الفلسطينيين.

أمَّا زيف فكان موقعها في المحل المسمَّى اليوم تل زيف في الجنوب الشرقي من الخليل وفي الجنوب الغربي من بني نعيم. على أربعة أميال من الخليل (كاران مجلَّد ٣ في اليهودية صفحة ١٦٠ وكتاب الإعلام الكتابية). وأمّا معون فكانت في المحل المعروف الآن بتل معين في جنوبي زيف والخليل (كاران في المجلَّد المذكور صفحة ١٧١ وكتاب الإعلام). وشخص داود من معون إلى حصون عين جدي وهي المعروفة بهذا الاسم حتى اليوم في شرقي بحيرة لوط. ولمَّا رجع شاول من وراء الفلسطينيين قيل له إنَّ داود في عين جدي، فأخذ ثلاثة آلاف رجل منتخبين وسار في طلبه، ودخل مغارة في طريقه لحاجة نفسه. وكان داود وأصحابه في باطنها فأغرى داود بعض أصحابه بقتل شاول قائلين هذا هو اليوم الذي قال لك الرب هاءنذا أدفع فيه عدوَّك إلى يدك فتصنع به ما حسن لك. فأبى إلَّا المخالفة لهم وزجرهم كي لا يمد أحد إليه يداً لكنَّه جاء من ورائه خفية وقطع طرف ردائه. ولمَّا خرج سار داود وراءه ونادى يا سيِّدي الملك فالتفت شاول وخرَّ داود على وجهه ساجداً. وقال لماذا يصدِّق مولاي من يقولون له إنَّ داود يطلب أذاه فإليك بيّنة قاطعة أنَّه كان في يدي اليوم أن أقتلك في المغارة؟ وقد أشيرَ عليَّ بذلك، لكنَّني أشفقت وقلت لا أرفع يدي على مسيح الرب. فانظر يا أبي أنظر طرف ردائك في يدي، وكما قطعته كان لي أن أقتلك وأنت تتصيّد نفسي لتأخذها وراء من خرج ملك إسرائيل، ووراء من أنت مطارد وراء كلب ميّت وبرغوث واحد فليحكم الرب بيني وبينك. ولمَّا سمع شاول صوت داود بكى وقال له: أنت أبرُّ منّي لأنَّك جزيتني خيراً وأنا جزيتك شرًّا، ولقد علمت الآن أنَّك ستصير ملكاً

فاحلف لي أنّك لا تقرض ذريتي من بعدي. فحلف له فانصرف شاول إلى بيته وصعد داود وأصحابه إلى محال حصينة (ملوك ١ ف ٢٣ و ٢٤).

عد ٢٥٦
وفاة صموئيل

قد أنبأنا الكتاب (ملوك ١ ف ٢٥) أنّ صموئيل توفّيَ فاجتمع جميع إسرائيل وناحوا عليه. قال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٦ ف ١٤): إنّ مناحة بني إسرائيل على صموئيل شملت جميعهم بل كان أسف كل منهم عليه أسف من فقد أقرب أقربائه، فقد تسامى بفضله وفضيلته وغيرته على سنّة الرب وجدّه في إكساب بني إسرائيل مجداً. وتفرّد باستقامة مسلكه، ونزاهة أمياله، ويكفي مؤونة بيان كل ذلك ما قاله للشعب في محضر حافل عند إقامته شاول ملكاً وهو: «هاءنذا فاشهدوا عليّ قدّام الرب وقدّام مسيحه ثور من أخذت أو حمار من أخذت أو من ظلمت، أو من ضغطت أو من يد من ارتشيت لأغضي عينيّ عنه. فارد لكم فقالوا: ما ظلمتنا ولا ضغطنا ولا أخذت من يد أحدنا شيئاً». (ملوك ١ ف ١٢ ع ٣ و ٤). وقد مرّ أنّه يرجّح أن يكون كتب سفر القضاة، وسفر راعوت ويحتمل أن يكون كتب من سفر الملوك الأوّل إلى الفصل الخامس والعشرين المنبئ بموته. ويحسب أوّل الانبياء أي الانبياء الذين كانوا في عهد ملوك بني إسرائيل إلى عودهم من سبي بابل، فإنّ موسى كان نبيًا ودابورة نبيّة، وكانا قبله بل كان هو مؤسّس مدرسة الانبياء كما يظهر من سفر الملوك الأوّل (ف ١٠ ع ٥ و ١٠). وكان لهذه المدرسة رئيس كما يتبيّن من هذا السفر (ف ١٩ ع ٢٠) وكانوا يسمّونه أباً (ملوك ١ ف ١٠ ع ١٢)، ومعلّماً (ملوك ٤ فصل ٢ عد ٣). وكانوا هم يسمّون أبناء الانبياء (ملوك ٤ فصل ٦ عد ١). وكانوا يعكفون على تسبيح الله (ملوك ١ فصل ١٠ عد ٥ وغيره). وكانت مواد دروسهم سنّة الرب وطرائف الإنذار بها. والأظهر أنّ رئيسهم كان يُمسح بالدهن المقدّس كما مُسح اليشاع (ملوك ٣ فصل ١٩ عد ١٦). ولم يكن جميعهم انبياء حقيقة ينذرون بالمستقبلات، ولكن قد خرج من مدرستهم كثير من الانبياء وسائرهم علماء ومنذرون فقط (طالع عد ٢٤٦). وعليه فقد كان صموئيل أوّل من وضع طريقة

التعليم والتهذيب الديني. وأقام مدرستهم أوّل الأمر في موطنه الرامة، وأنبأنا الكتاب أنّه كان مثل هذه المدرسة في بيت أيل وأريحا والجلجال وغيرها.

روى كلمت (في تاريخ العهد القديم) أنّ صموئيل عاش نحو ثماني وتسعين سنة صرف منها عشرين سنة في القضاء لبني إسرائيل قبل مسحه شاول. وعاش مع شاول ثماني وثلاثين سنة. ولكن روى يوسيفوس (ك ٦ في تاريخ اليهود فصل ١٤) إنّه ولي القضاء للشعب إثنتي عشرة سنة، وعاش مع شاول ثماني عشرة سنة. ودفن في بيته أي في موطنه الرامة. وقد مرّ أن الأرجح إنّها كانت في المحل المسمّى اليوم النبي صموئيل في الشمال الغربي من أورشليم. قال لانرمان (مجلّد ٦ من تاريخ المشرق في ملك شاول) إنّ مقتل الكهنة وأهل نوب الآنف ذكره كان بعد موت صموئيل. فقدّم الكتاب وضعاً ما تأخّر زماناً. ومن أدلّة ذلك أنّ شاول لم يكن ليقترف جريمة فظيعة كهذه في حياة صموئيل الذي كان يهابه ويخشاه ويؤيّده. إنّنا لا نرى في الكتاب أنّ صموئيل فاه بكلمة تونيب على هذا الصنيع الذريع خلافاً لما تعوّد من إتّقاد نار غيرته.

عد ٢٥٧

تتمّة أخبار داود في مفرّه وعفوه ثانيةً عن قتل شاول

قد مرّ أنّ داود لم يركن إلى كلام شاول ومضى إلى محال حصينة. والظاهر من آي الكتاب أنه أقام في بريّة معون (تل معين السالف تعريفها). واحتاج الزاد لرجاله فأرسل إلى رجلٍ غني في معون اسمه نابال كان يجزّ غنمه الكثيرة جداً سائلاً إياه أن يعطيهم ما تيسّر لقوتهم لأنهم أحسنوا إلى رعاته، وذبوا عنهم. وكان وقت الجزاز عندهم كوقت قطاف الكروم، يكثرون فيه من معدّات اللهو والمسرّة فأبى الرجل إلّا أن يسمع غلمان داود ما يسوءهم قائلاً من هو داود؟ وقد كَثُرَ العبيد الذين أبقوا من عند مواليهم. ولمّا علم داود إحتدم صدره غيظاً، وأخذ اربع مئة رجل من رجاله ينوي التنكيل به. وكان لنابال امرأة اسمها أبيجائيل (أو أبيغال) ذكية جميلة علمت بإحسان داود وفظاظة زوجها، فأخذت مِئتَيْ رغيف وزِقَّيْ خمر وخمسة خرفان مطبوخة وخمس كيلات من الفريك، ومِئتَيْ عنقود من الزبيب، ومِئتَيْ قرص من التين. ومضت إلى داود فالتقت به في طريقها فخمدت جذوة

غيظه بتذللها ورقَّة كلامها. فتقبَّل هديتها وعادت إلى بيتها، وقصَّت على زوجها ما كان فارتاع جداً حتى عبَّر الكتاب عن ذلك بقوله: «مات قلبه في جوفه وصار كحجر». وبعد عشرة أيام مات فشكر داود الرب لأنه إنتقم من نابال على غير يده. ثم تزوج داود بأبيجائيل إمرأته، واتخذ امرأة أخرى اسمها أحينوعم. وكان شاول أعطى ميكال ابنته زوجة داود لرجلٍ آخر بعد فراره (ملوك ١ فصل ٢٥).

وعاد أهل زيف (تل زيف) يخبرون شاول أنّ داود مختبئ في البرية قريباً منهم. فأخذ شاول ثلاثة آلاف رجل من منتخبي إسرائيل ليطلب داود. وأرسل داود جواسيس فعلِمَ محل إقامته، فغَشِيَه ليلاً ومعه أبيشاي بن صروية فوجده نائماً في المترسة ورمحه مركوز عند رأسه، وأبنير قائد جيشه والشعب رقودٌ حوله، فقال أبيشاي لداود دعني أطعنه بهذا الرمح طعنة واحدة ولا أثني عليه، فأجابه داود من الذي يمدُّ يده إلى مسيح الرب ويكون بريئاً؟ وأخذ داود رمح شاول، وكوز الماء من عند رأسه وانصرفا، ووقف داود على قمة الجبل من بُعْدٍ وصاح بالشعب وبأبنير ابن نير فأجاب أبنير من أنت يا من يصيح بالملك؟ فقال له داود كيف لم تحرس سيِّدك الملك؟ فقد جاء واحد من الشعب ليقتله فانظر أين رمح الملك، وكوز الماء اللذان كانا عند رأسه. فعرف شاول صوت داود وقال أصوتك هذا يا ابني داود؟ فقال: نعم وما بالك يا سيدي تطلب عبدك أخرجتَ لتطلب برغوثاً واحداً كما يطلب الحجل في الجبال؟ فقال شاول قد أخطأت فارجع يا ابني داود فإني لا أعود أوذيك فنفسي كانت كريمة في عينيك وأنا قد فعلت بحماقة. ونادى داود هذا رمح الملك فليعبر أحد الغلمان، ويأخذه ويكافئ الرب كل واحد بحسب برِّه وأمانته. وانصرف داود لسبيله غير آمن ورجع شاول إلى مكانه (ملوك ١ فصل ٢٦).

رأى داود أنّ فراره إلى أرض الفلسطينيين خير وسيلة تقي نفسه من القتل وقومه من الضرّ. فعاد ثانية إلى أكيش ملك جت (ذكرين) ولم يخشَ هذه المرة غدر الفلسطينيين به إذ كان يصحبه ست مئة رجل من شجعان قومه. وكان الفلسطينيون يلقون به نصيراً على شاول وأعوانه، ولا أقل من أن يدخلوا بهذه الذريعة الإنقسام بين بني إسرائيل. فقَبِلَه أكيش مشترطاً عليه الأمانة له والمناصرة على شاول. وكفَّ شاول عن طلب داود فأقام أياماً في جت، ثم سأل أكيش أن يعطيه قرية في الصحراء، فيسكن فيها مع إمرأتيه ورجاله فأعطاه صقلاج. وهي على ما في كتاب

أعلام الأماكن مدينة كانت من نصيب سبط شمعون، وهي اليوم أطلال في جنوبي بئر سبع وفي شرقي خلاصة تسمى أسلوج. وقد اكتشفها رولاند سنة ١٨٤٢م. وأقام داود في بلاد الفلسطينيين سنة واربعة أشهر. كذا في نسخة الآباء اليسوعيين المطبوعة في بيروت بالعربية. وفي كتب كثير من المفسرين ولكن فى النص العبرانى «أياماً واربعة أشهر». وفي الترجمة السريانية ܫܢܬܐ ܚܕܐ ܘܐܪ̈ܒܥܐ ܝܪ̈ܚܝܢ وقال كلمت: إنَّ داود أقام أربعة أشهر في جت وستة في صقلاج، وكان يخرج هو وأصحابه ويغزون الشجوريين والجرزيين، وهم (على ما قال كلمت في تاريخ العهد القديم) من عشائر الكنعانيين ساكني جنوبي فلسطين ثم العمالقة. وقد مرَّ تعريف أصلهم وكان هؤلاء جميعاً أعداء لبني إسرائيل. ولذلك قال الكتاب إنَّ داود كان يضرب البلاد فلا يبقى على رجل ولا على إمرأة. ويأخذ الغنم والبقر والحمير والجمال. والثياب ويرجع إلى أكيش فيقول له: أين غزوتم اليوم؟ فيقول داود: في جنوبي يهوذا وجنوبي اليرحميليين من عشائر بني إسرائيل. وجنوبي القينيين وهم من ذوي قرابة يترو حمي موسى. وأعطوا أرضاً في نصيب سبط يهوذا. وكان داود يقول لأكيش ذلك ليصدقه بأنه جعل نفسه مكروهاً لدى شعبه بأنه مخلّص له. قال بعض المفسرين لا يمكن تبرئة ساحة داود من الكذب لمخالفة كلامه الحقيقة وعندهم أنّ هذا من جملة نقائصه التي استغفر الله عنها. وقال غيرهم ليس في كلامه إلّا إخفاء الحقيقة وتلبيس الجواب على لاكيش فلم يصرِّح له بمن غزا، وقال الحق: لأن من كان يغزوهم كانوا في جنوبي يهوذا.

وجاء في سفر أخبار الأيام (فصل ١٢) أنه جاء لمناصرة داود في صقلاج رجالٌ أشدّاء وكثيرون من سبط بنيامين أقرباء شاول ومن سبط يهوذا وسبط جاد سكان عبر الأردن. فقبلهم داود وجعلهم رؤساء غزاة وتوفر الحشد عند داود وكان هذا ميسراً لإرتقائه منصة الملك بعد مقتل شاول كما سيجيء.

عد ٢٥٨

محاربة الفلسطينيين لشاول وقتله

قد أمّل أكيش الظفر ببني إسرائيل لإنقسامهم ولحسبانه أنّ داود ورجاله يناصرونه على شاول وأنصاره، فأغري سائر أقطاب الفلسطينيين باستئناف الحرب.

واستدعى داود وقال له لا بدَّ أن تخرج معي في الجيش أنت وأصحابك، فقال داود ستعلم ما يصنع عبدك. فحمل أكيش كلامه على ما يتبادر الفهم إليه فقال: إذن أقيمك حافظاً لرأسي كل الأيام فبات داود مرتبكاً في أمره لا يريد ولا يستبيح أن يشائع الفلسطينيين على إخوانه شعب الله، ولا أن يغالط أكيش ففرَّج الله كربه إذ سأل أقطاب الفلسطينيين أكيش بعد مضيّهم إلى مكان الحرب أن يسرح داود ورجاله خشية أن ينقلبوا عليهم إذا استعرت نار الوغى. فانصرف داود ورجاله شاكراً الله، وتقدمت جيوش الفلسطينيين نحو الشمال إلى مرج ابن عامر، ونزلوا بشونم وهي سونم الآن في شمالي زرعين في ناحية جنين من متصرفية نابلس (كتاب أعلام الأماكن). وجمع شاول رجاله ونزلوا بجلبوع وهو المسمى الآن جبل جلبوع أو جلبون على ما في كتاب أعلام الأماكن نسبةً إلى قريةٍ هناك تسمى جلبون، أو جبل فقوعة على ما روى كاران (مجلد ٢ في السامرة صفحة ٣٢٥). نسبةً إلى قرية تسمى فقوع وهذا الجبل في شمالي سولم محلة الفلسطينيين.

ورأى شاول كثرة جيوش الفلسطينيين فخاف وارتعد قلبه جداً، وسأل الرب فلم يجبه لا بالحلم ولا بالكهنة ولا بالانبياء. وقال له بعض رجاله إنَّ في عين دور (تسمّى إلى اليوم بهذا الاسم هي على ستة أميال من الناصرة شرقاً) امرأة ذات تابعة (جنيَّة). فتنكر شاول وانطلق ليلاً مع رجلين إلى العرّافة فأبت اولاً أن تكهّن له خوفاً من الملك الذي كان نفى العرافين وأصحاب التوابع. ولمّا أمَّنها قالت: من تريد أن أُصعِد لك؟ قال صموئيل. ولما رأته المرأة صرخت وقالت إنها ترى رجلاً شيخاً صاعداً متردياً برداءٍ فعرف شاول أنه صموئيل فخرَّ على الأرض وسجد. فقال صموئيل لشاول لماذا أقلقتني وأصعدتني؟ فقال شاول قد ضاق فيَّ الأمر جداً والله فارقني. ولم يعد يجيبني فدعوتك لتعلّمني ماذا أصنع. فقال صموئيل لماذا تسألني والرب قد فارقك وصار عدوك؟ وشقّ المملكة من يدك ودفعها إلى صاحبك داود. وغداً تكونون معي أنت وبنوك أيضاً في القبور أو الحياة الأخرى، فسقط شاول في الحال بطوله على الأرض، وارتاع جداً ولم تعد له قوة ليذوق طعاماً كلَّ يومه. ثم انصرف إلى معسكره (ملوك ١ ف ٢٨).

إنَّ في آيات الكتاب المارّ ذكرها إشكالاً أدَّى إلى اختلاف في أقوال الآباء العلماء. فمن قائل: إنَّ الشيطان تشبّه بملاك النور وظهر لشاول بهيئة صموئيل، وأعلمه بسماح الله بما يكون له ولبنيه حقيقةً على مثال ما نرى في الإنجيل، أنَّ

الشياطين كانوا يشهدون للمسيح أنه ابن الله. وممن قالوا بهذا القديس يوستينوس الشهيد واوريجانوس وانسطاس الانطاكي والقديس أغوسطينوس في أحد أقواله. ومن قائل إنه لم يكن للشيطان ولا للعرّافة ذريعة بظهور صموئيل بل أراد الله وهو على كل شيء قدير أن يتراءى صموئيل لشاول. فيبرز القضاء عليه بالموت جزاءً لجرائمه على مثال ما ظهر موسى وإيليا للمخلّص عند تجلّيه. وبهذا قال كثير من الآباء والعلماء واستمسكوا لإثباته بقول الكتاب: «فلما رأت المرأة صموئيل صرخت بصوت عظيم». فهذا مُشعِر بأنها رأت غير ما كانت تنتظر وغير ما اعتادت عليه في تكهنها. واستشهدوا لرأيهم بقول ابن سيراخ (فصل ٤٦ عد ٢٢ وما يليه) في صموئيل. «ومن بعد رقاده تنبأ وأخبر الملك بوفاته، ورفع من الأرض صوته بالنبؤة لمحو إثم الشعب». ورجح هذا القول من الحدثاء كلمت في معجم الكتاب وفيكورو في الموجز الكتابي (عد ٤٨٥). وساسي في تفسير الآيات المار ذكرها وهو الأظهر والأمثل.

وتقدّم الفلسطينيون إلى يزرعيل وهي زرعين الآن في جنوبي سولم التي كانت محلتهم فيها وفي شمالي جلبوع حيث كان جيش شاول. وتسعَّرت نار الحرب فانهزم رجال إسرائيل من وجه الفلسطينيين الذين شدوا على أثر شاول وبنيه فقتلوا يوناثان، وأبيناداب وملكيشوع بني شاول. وأدرك الرماة بالقسي أباهم وأثخنوه بالجراح. فقال لحامل سلاحه أستل سيفك وأوجأني به لئلا يقتلني هؤلاء القلف ويتشفوا بشنيعهم بي. فأبى حامل سلاحه أن يمدَّ إليه يداً فأخذ شاول سيفه وسقط عليه فمات. ولما رأى حامل سلاحه أنه مات سقط هو أيضاً على سيفه، ومات معه. ولما رأى رجال إسرائيل الذين في نواحي الأردن أن قد مات شاول وهرب جيشه، فخلوا مساكنهم وفرّوا. فأتى الفلسطينيون وأقاموا فيها وفي الغد وجد الفلسطينيون شاول وبنيه صرعى بين القتلى، فقطعوا رأسه ونزعوا سلاحه وعلَّقوه في بيت عشتاروت ربّتهم. «وعلقوا جسده على سور بيت شان وهي بيسان الآن في الشرق الجنوبي من جبل جلبوع، وسمع أهل يابيش جلعاد (وادي اليابي في السلط) بما صنع الفلسطينيون بشاول. فنهض كل ذي بأس منهم وساروا الليل كلّه، فأخذوا جثث شاول وبنيه عن سور بيسان، وأتوا بها مدينتهم وأحرقوها، وأخذوا العظام ودفنوها في بلدهم» وصاموا سبعة أيام متذكرين إحسان شاول إليهم بإنقاذهم من ناحاش ملك العمونيين كما مرَّ (ملوك ١ ف ٣١).

عد ٢٥٩

محاربة داود العمالقة ومناحته على شاول وبنيه

قد عاد داود من معسكر الفلسطينيين إلى صقلاج مدينته فوجد العمالقة غزوها إبان غيبته، وأحرقوا بيوتها وسبوا منها النساء والأطفال حتى امرأتيّ داود. فرفع هو ورجاله والشعب أصواتهم بالبكاء حتى لم يبقَ لهم قوة أن يبكوا. فاعتصم داود بالله وسار برجاله في أثر العمالقة، فصادف في طريقه رجلاً مصرياً كان عبداً لرجل عماليقي تركه مولاه في الطريق لمرضه فهداهم إلى محلَّة العمالقة. وكانوا فيها يأكلون ويشربون، ويرقصون فرحين بما نالوه من الغنيمة. وكان تخلَّف من رجال داود مئتان في الطريق، فحاربهم برجاله الأربع مئة النهار كلّه ولم ينجُ منهم إلّا أربع مئة من الفتيان، ركبوا على الجمال وهربوا تاركين غنائمهم. واستخلص داود إمرأتيه وكل ما أخذ العمالقة. ولم يُفقَد لهم شيء لا صغير ولا كبير ولا بنون ولا بنات. بل أخذوا كلَّ ما كان للعمالقة هناك من غنم وبقر، وأحبَّ رفقاء داود أن لا يقاسموا الغنيمة أصحابهم الذين أعيوا عن لحاقهم. فقال داود إنَّ نصيب النازل إلى الحرب يكون كنصيب القائم على الأمتعة على السواء يقتسمون. فكان ذلك سنَّة وحكماً في بني إسرائيل، وبعث داود بعد عوده إلى صقلاج من الغنيمة إلى كثير من شيوخ المحال التي أقام فيها كان ليعوِّضهم من الخسائر التي ألحقها بهم أو ليحبِّبهم إليه.

وفي اليوم الثالث بعد رجوع داود إلى صقلاج من قتل العمالقة أقبل رجلٌ وثيابه ممزقة وعلى رأسه تراب يخبر داود أن قد سقط من الشعب كثيرون ومات شاول وابنه يوناثان. وأنَّ شاول قال له أن ينهض عليه ويقتله فقتله لأنه عَلِمَ أنه لا يحيا بعد، وأخذ التاج عن رأسه وانتزع السوار من ساعده وأتى بهما داود. قال كل ذلك آملاً أن يمنَّ على داود بما صنع فيجيزه على صنيعه. وكأنه كان أول من وجد شاول قتيلاً فأخذ تاجه وسواره فمزَّق داود ثيابه، وتابعه بذلك رجاله. وناحوا وبكوا على شاول وصاموا إلى المساء. ثم سأل داود الغلام مخبره من أين أنت؟ فقال: أنا ابن رجلٍ غريب عماليقي. فقال له داود كيف لم تَهَبْ أن تمدَّ يدك إلى مسيح الرب؟ فدمك على هامتك لأنَّ فمك شهد عليك بأنك قتلت مسيح الرب. ودعا واحداً من الغلمان وقال أوقع به فضربه ومات. ورثى داود شاول ويوناثان المرثية

الشهيرة المثبتة في الفصل الأول من سفر الملوك الثاني المفتتحة: «الظبي يا إسرائيل مجدَّل على روابيك كيف تصرَّعت الجبابرة؟ لا تخبروا في جت ولا تبشِّروا في أسواق شقلون (عسقلان). لئلا تفرح بنات الفلسطينيين وتطرب بنات القلف، يا جبال الجلبوع لا يكن فيكنَّ ندى ولا مطر». إلى أن يقول: «يا بنات إسرائيل إبكينَ على شاول الذي كان يكسوكنَّ القرمز ترفاً ويرصِّع لباسكنَّ بحلى الذهب... قد ضاق ذرعي عليك يا أخي يوناثان لقد كنتَ شهياً لديَّ جداً وكان حبك عندي أولى من حبِّ النساء وقد أحببتكَ حبَّ أمٍ لابنها الوحيد».

الفصل الثالث عشر

أخبار داود في مدَّة مُلكِه

عد ٢٦٠

إقامة بني يهوذا داود ملكاً وسائر بني إسرائيل أشبوشت بن شاول

وصعد داود بعد مناحته على شاول إلى حبرون (الخليل) بوحي الله، فأتى رجال يهوذا ومسحوه ملكاً عليهم. وكانت باكورة أعماله أن بعث رسلاً إلى أهل يابيش جلعاد (وادي اليابس في السلط) يشكر لهم بما صنعوا من الإحسان في دفن شاول. ويشدِّدهم وينبئهم أنّ بني يهوذا مسحوه ملكاً عليهم. فلم يكن من أبنير بن نير عم شاول ورئيس جيشه إلَّا أن أخذ أشبوشت بن شاول، وعبر به الأردن وملَّكه على سائر بني إسرائيل. وجعل قصبة مُلكِه محنائيم المسماة اليوم محنه. وفي كتاب أعلام الأماكن أنها على أربعة عشر ميلاً في الجنوب الشرقي من بيسان، وعلى مقربة من يابيس جلعاد. وفسَّر يوسيفوس (ك٧ من تاريخ اليهود فصل ١) اسمها بمعنى المحلَّتَيْن أو المخيَّمَيْن، فدان لأشبوشت سكان عبر الأردن وكثير من أسباط إسرائيل إلَّا سبط يهوذا وكان عمره يوم مَلِكَ أربعين سنة. واستتبَّ له المُلْك على مريديه سنتين وفي السنة الثالثة عبر أبنير بن نير ورجال أشبوشت الأردن، وأتوا

جبعون المعروفة الآن بالجب في شمالي أورشليم (أعلام الأماكن). وقد مرَّ ذكرها عند الكلام في إحتيال اهلها على بني إسرائيل في عهد يشوع بن نون. وعرف داود بخروج جيش أشبوشت. فأرسل لملتقاهم يوآب بن صروية أخت داود. (يوسيفوس في المحل الآنف ذكره) ورجال داود، فالتقى الجيشان على بركة جبعون ولما كان كلٌّ من القائدَين صديقاً للآخر ولم تكن شحناء بين الفريقين قال أبنير ليواب ليبرز بعض الغلمان من كل فريق على سبيل اللعب كما قال الكتاب أو على سبيل إمتحان قوة الرجال في الفريقين كما قال يوسيفوس فبرز إثنا عشر رجلاً من سبط بنيامين من جهة أشبوشت، وإثنا عشر رجلاً من رجال داود وأخذ كلٌّ واحدٍ برأس صاحبه ووجأه بسيفه في جنبه فسقطوا جميعاً، وسُمِيَ المكان حقل الصناديد. وأفضى ذلك إلى قتال شديد كانت عاقبته إنهزام أبنير ورجال أشبوشت، ومطاردة يواب وأخويه بيشاي وعسائيل لأبنير إلى أن قتل أبنير عسائيل، وكان عدد القتلى من رجال داود تسعة عشر رجلاً وعسائيل ومن رجال أشبوشت ثلاث مئة وستين رجلاً. وعاد أبنير برجاله إلى محنائيم عند أشبوشت ويواب برجاله إلى حبرون عند داود. قال الكتاب (ملوك ٢ فصل ٣) وطالت الحرب بين بيت شاول وبيت داود ولم يزل داود يتقوّى وبيت شاول يضعف. وكان أبنير قائد جيش أشبوشت يتردَّد إلى سريَّة كانت لشاول أو كان تزوجها. ولم يكن له أن يتَّخذ أرملة الملك فعتَّب أشبوشت لدخوله على سريَّة أبيه. فاستشاط صدر أبنير غيظاً وأرسل رسلاً إلى داود ليقطع معه عهداً فيردُّ اليه جميع إسرائيل. فقطع داود معه عهداً، وطلب منه أن يأتيه بميكال امرأته إبنة شاول (التي كان أعطاها لغير داود) عندما يأتي إليه. ووفد أبنير إلى داود في حبرون ومعه ميكال فصنع له ولرجاله مأدبة. ورحَّب به وأكرم مثواه. ثم إنطلق أبنير ليجمع شيوخ بني إسرائيل ليبتّوا عهداً مع داود ويملّكوه فيهم. وعاد بعدئذٍ يواب ورجاله، من الغزو ومعهم غنيمة عظيمة فأُخبر عمَّا كان لأبنير وخشي أن يشاطره وجاهته لدى الملك. وتذكَّر قتله عسائيل أخاه فسعى به أنه إنما جاء ليخدع الملك ويقف على ما يصنعه.ووجَّه رسلاً فردّوا أبنير من طريقه على غير علمٍ من داود. ولما رجع مال به يواب ليفاوضه على دعة، وضربه في بطنه فمات بدم عسائيل أخيه. فساءت فعلته داود جداً وقال أنا بريءٌ ومملكتي أمام الرب من دم أبنير. وتسخَّط على يواب ودعا عليه وعلى بيته، وبالغ في مظاهر النوح والأسف على أبنير حتى حَسُنَ ذلك في عيون الشعب كله وأيقنوا أنه لم يكن للملك يد في قتل أبنير.

وسمع أشبوشت بأن قد مات أبنير بحبرون فاسترخت يداه وارتاع جميع إسرائيل. وكان لأشبوشت رئيسا غزاة اسم احدهما ريكاب، واسم الآخر بعنه إبنا رمّون البئيروتي نسبةً إلى بئيروت المسماة الآن البيري على تسعة أميال في الطريق من أورشليم إلى نابلس. فهذان دخلا بيت أشبوشت بينما كان نائماً عند قائلة الظهيرة وكانت الحاجبة أغفت وهي تنقّي الحنطة. فقتلاه وقطعا رأسه وأتيا به إلى داود وقالا: هوذا رأس أشبوشت بن شاول عدوّك فقال لهما حيٌّ الرب الذي خلّصني من كلِّ ضيق إنَّ الذي ظنَّ أنه يبشّرني بقتل شاول قتلته في صقلاج. وكان يستوجب جائزة فما يكون لرجلين بغِيّيْن قتلا رجلاً بريئاً في بيته على سريره ألا أطلب دمه من أيديكما، وأبيدكما وأمر داود الغلمان فقتلوهما، وقطعوا أيديهما وأرجلهما وعلّقوهما على بركة حبرون. وأخذوا رأس أشبوشت ودفنوه في قبر أبنير في حبرون (ملوك ٢ فصل ٤).

عد ٢٦١

إستقلال داود في مُلك إسرائيل وفتحه قلعة صهيون ومحالفته لحيرام

قد جاء في الكتاب (ملوك٢ فصل ٥): وأقبل جميع أسباط إسرائيل إلى داود في حبرون وأقرّوا له في المُلك فاستقلَّ به. «وقد فصل في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ١٢) عدد الرجال الذين أقبلوا إلى داود ليبايعوه المُلك فكان مجموعهم ٣٥٩٦٠٠ رجلاً. إذا كان عدد رجال يساكر عشرين ألفاً كما رواه يوسيفوس (ك ٧ من تاريخ اليهود فصل ٢)» إذ لم يتعيَّن في سفر أخبار الأيام عدد الرجال من هذا السبط بل قيل فقط «رؤساء يساكر مئتان وجميع إخوتهم تحت أمرهم». واستمرَّ هؤلاء جميعاً عند داود ثلاثة أيام يأكلون ويشربون لأنَّ رجال جميع الأسباط حتى يساكر وزبلون ونفتالي سكان شمالي فلسطين كانوا يقلّون على الحمير والجمال المؤن والذخائر، من خبز ودقيق وأقراص تين وعناقيد زبيب وخمر وزيت، ويسوقون بقراً وغنماً وكان الإحتفاء شائقاً بهجاً. وكان لداود من العمر يوم مَلِكَ على يهوذا ثلاثون سنة واستمرَّ على ذلك سبع سنين وستة أشهر فملِكَ على بني إسرائيل في السنة الثامنة والثلاثين من عمره. ومَلِكَ كذلك ثلاثاً وثلاثين سنة فجملة مُلْكِهِ أربعون سنة وستة أشهر.

وانتهز داود فرصةً ليفتح حصن صهيون في يبوس (أورشليم) ويأخذه من يد

اليبوسيين إحدى عشائر كنعان. فسار إلى هنالك برجاله فتمرّد اليبوسيون وقالوا لداود إنك لا تدخل إلى ههنا حتى لا يبقى منّا أعمى ولا مقعداً. فكأنهم يقولون مستخفين به أنّ العميان والمقعدين يكفون لردِّك عن متمناك ولا حاجة إلى عناء رجال حربنا بقتالك، فكانوا يحسبون قلعتهم في صهيون حصينة منيعة. وروى يوسيفوس في المحل السالف ذكره أنّه لم يظهر من اليبوسيين عن أول حصار داود قلعتهم إلّا العميان والمقعدين. ووعد داود أن يجيز كل من قتل يبوسياً وكل من بلغ إلى قناة الماء أو إلى أولئك العرج والعميان. فكان يواب أول من إفتتح مع أبطاله قلعة صهيون. فملكها داود وسمّاها مدينة داود وأقام في هذا الحصن وبنى ما حوله من ملّو فداخلاً. قال كلمت (في معجم الكتاب): ملّو وادٍ كان يفصل بين يبوس القديمة وحصن صهيون، ويتصل بعين شيلوحه فردم داود هذا الوادي وسواه، وأقام ثمة قصراً له ومساكن لأعوانه ومجتمعاً للشعب. وزاد ابنه سليمان شيئاً هنالك كما يظهر من سفر الملوك الثالث (ف ٩ ع ١٥). وعرف داود أنّ الرب أقرّه ملكاً على إسرائيل وعظّم ملكه من أجل شعبه.

وكان شاول يعيش مقتصداً وأما داود فكان مترفاً، وأكثر من إتخاذ النساء فإنه تزوج بأحينوعم أليزرعيلية، وأبيجال امرأة نابال الكرملية كما مرَّ. وولد منهما أمون وكلاب. ثم اتَّخذ معكة بنت تلماي ملك جشور[1] فولد منها أبيشالوم. وجحيت فولد منها أدونيا. ثم أبيطال فولدت له شفطيا. ثم عجلة فولدت له يترعام. وبعد مجيئه من حبرون إلى أورشليم تزوج بزوجات وسراري فولدنَ له بنين وبنات. وذكر الكتاب له من هؤلاء أحد عشر ابناً منهم ناثان وسليمان. وسمع حيرام ملك صور أخبار عظمة داود ومجده وأنه بنى قصراً لسكناه، فتاق إلى محالفته كلفاً براحته ونجاح تجارة أمّته، فوجّه رسلاً إلى داود يستعطفه إلى صداقته، وأرسل إليه أخشاباً من أرز لبنان ونجارين ونحاتين لتجميل قصره. وقد استمرت الصداقة بين داود وسليمان وملوك صور وكانت وبالاً على بني إسرائيل كما سترى طالع عد ١١٦ و١١٧.

---

(١) الاظهر ان مملكة هذا الملك كانت في جنوبي جبل الشيخ وشمالي السلط حيث الجولان والجيدور الآن.

عد ٢٦٢

حرب وادي الجبابرة بين داود والفلسطينيين

لما كان الخلاف بين شاول وداود كان الفلسطينيون يُظهِرون الرضى عن داود ويبطّنون الحذر منه. ولكن لما أجمع بنو إسرائيل على تمليكه واستفحل أمره قلبوا مجن السياسة وخشوا سطوة داود وشدة بأسه وآثروا الهجوم على الدفاع خشية أن يزداد داود صولة وتمكّناً، لذا تألّبوا وانتشروا في وادى الجبابرة قال كاران (مجلد ١ في اليهودية صفحة ٢٤٨) أنّ في تعيين موقع هذا الوادي قولَيْن. فقال أوسابيوس إنه في شمالي أورشليم. وذكر القديس إيرونيموس قوله ولم يغيِّر منه شيئاً وتابعهما عليه بعضهم. ولكن رأى جمهور العلماء أنّ هذا الوادي في جنوبي أورشليم بينها وبين بيت لحم، وهو المتحصل من كلام الكتاب ومن قول يوسيفوس. ويسمَّى هذا المحل الآن البقعة. انتهى كلام كاران.

وفي كتاب الأعلام الكتابية أنَّ وادي الجبابرة يسمَّى البقعة وهو في جنوبي أورشليم على طريق بيت لحم. ولما عرف داود إقتراب أعدائه سأل الرب فأوحى إليه أن يصعد إليهم فزحف برجاله فضربهم في الموضع المسمى بعل خراصيم. ويلزم أن يكون في وادي الجبابرة وأن يتعيَّن موقعه إلى اليوم. فانذعر الفلسطينيون وولّوا هاربين تاركين ذخائرهم وأصنامهم أيضاً. فغنِمها داود ورجاله وأحرق الأصنام. فيُظَن أنها كانت من خشب مموَّه أو مصفَّح بالذهب أو الفضَّة. وجاء في فصل ٢٣ من سفر الملوك الثاني وفي فصل ١١ من سفر أخبار الأيام الأول في معرض ذكر أبطال داود تتمَّة لأخبار هذه الحرب إنَّ داود كان في حصن وكان محرس الفلسطينيين في بيت لحم فتأوَّه وقال من يسقيني شربة ماء من بئر بيت لحم؟ فاخترق ثلاثة من أبطاله محلة الفلسطينيين واستقوا من هذه البئر ماء، وأتوه به فلم يشرب بل قال حاشَ لي يا رب أن افعل هذا أأشرب دم قوم خاطروا بأنفسهم؟

على أنّ إنكسار الفلسطينيين يومئذٍ لم يكن فاصلاً بل إنتشروا ثانية في وادي الجبابرة. وروى يوسيفوس أنهم إستنجدوا بغيرهم من ملوك سورية فنجدوهم. وسأل داود الرب فقال له لا تصعد بل أعطف من خلفهم. وآتِهِم من حيال أشجار البكاء في العبرانية بوكيم، وفي اليونانية كلو تومن، وفي اللاتينية محلة الباكين. ويُحتَمَل أن يكون المُراد بالكلمة محلة أشجار التوت. وزعم بعضهم أنّ هذا الموضع في شيلو

(سيلون الآن). لكن الأظهر أنه على مقربة من أورشليم ووادي الجبابرة حيث كان الفلسطينيون. وجعل له الرب علامة أنه إذا سمع صوت خطوات حاصلاً من حركة أغصان الشجر، فليضرب محلة الفلسطينيين ففعل داود كما أمره الرب، وشتّت شمل أعدائه. ويظهر من قول أشعيا (ف ٢٨ عد ٢١) ومن المزمور ال ١٧ أنّ الرب أرهب الفلسطينيين حينئذٍ بعاصف شديد أثاره عليهم. فتتبّع داود آثارهم من جبع إلى مدخل جازر. فإن قُدِّرَ أنّ وادي الجبابرة في شمالي فلسطين تبعاً لقول أوسابيوس لزم أن تكون جبع هذه جبعة شاول التي كانت في المحل المسمّى الآن تل الفول أو أن تكون جبعون المسمّاة اليوم الجب لأنهما في شمالي أورشليم. وإن قُدِّرَ أنّ وادي الجبابرة في جنوبي أورشليم تبعاً لقول جمهورهم لزم أن تكون جبع هذه في الموضع المسمّى إلى اليوم جبع في غربي بيت لحم وبيت جالا. وأما جازر وفي اللاتينية كادر وكادار فيُظَنُّ أنها المسمّاة اليوم قطره على مقربة من خلده والمنصورة في غربي أورشليم. قال بذلك كاران (مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٣٥) وهي على ساعة من عاقر عقرون القديمة مدينة الفلسطينيين. وقال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٧ فصل ٤) إنَّ بني إسرائيل طاردوا الفلسطينيين إلى جازر التي هي تخم المملكتين مملكة إسرائيل ومملكة الفلسطينيين، وروى كلمت في تاريخ العهد القديم أنّ جازر قريبة من عقرون.

عد ٢٦٣

نقل داود تابوت عهد الرب إلى أورشليم وإهتمامه ببناء بيت الله

قد استدعى داود منتخبين من جميع بني إسرائيل ونهض بهم إلى قرية يعريم المسمّاة الآن قرية العنب أو قرية أبي غوش. وأخذوا تابوت عهد الرب من بيت أبيناداب حيث وُضِعَ بعد إرجاع الفلسطينيين له كما مرَّ وجعلوه على عجلة جديدة. كان عزة وأحيو إبنا أبيناداب يقودانها، وكان داود ومنتخبو بني إسرائيل جميعاً يلعبون أمام التابوت بالكنّارات والعيدان والدفوف والصنوج وغيرها من آلات الطرب. ولما أفضوا إلى بيدر نكون الذي لا يعلم موضعه إلّا أنّه في الطريق بين قرية أبي غوش وأورشليم. رمحت الثيران فمدَّ عزة يده إلى التابوت فأمسكه لئلا يسقط فأماته الله لجسارته إما لأنه مسَّ تابوت الرب وليس هو كاهناً أما لأنه إفتكر أنّ الرب غير قادر على وقاية تابوته من السقوط.

وأراد الله في كلتا الحالتين أن يُعَلِّمهم الإجلال والتهيُّب لتابوته. وشقَّ على داود كثيراً ضرب الرب لعزة ولذلك خاف أن يُنزِل تابوت الرب في قصره. وعدل به إلى بيت رجلٍ يسمَّى عوبيدارومِ الحتي. وبقيَ التابوت هناك ثلاثة أشهر فبارك الرب عوبيد وكل بيته، وعرف داود بذلك فزال خوفه واستدعى اللاويين كلهم ليحملوا التابوت، وأمرهم أن يتقدَّسوا هم وجميع الشعب. وعيَّن مرنمين ومغنين يضربون بآلات الطرب وكان كلَّما خطا اللاويون حاملو التابوت ست خطوات ذبحوا ثوراً وكبشاً مسمناً. وكان داود يرقص بكل قوته وجميع آل إسرائيل يكثرون الهتاف والتبويق وضرب آلات الطرب إلى أن وضعوا التابوت في وسط المظلَّة التي أعدَّها له داود في قصره. وأصعد داود محرقات وذبائح سلامة، وبارك الشعب باسم رب الجنود. ووزَّع على كل جمهور إسرائيل رجالاً ونساءً لكل واحد جردقة خبز وقطعة لحم وقرصاً من الزلابي أو الحلواء. ورأت ميكال إبنة شاول داود زوجها يرقص أمام التابوت فازدرته في قلبها. ولما أتت لملاقاته قالت ما كان أمجد ملك إسرائيل اليوم حيث تعرّى من ثوبه الملكي كما يتعرّى أحد السفهاء. فقال لها: صنعت ذلك وأصنعه في كل فرصة أمام تابوت الرب الذي اصطفاني على أبيكِ وعلى جميع بيته. قال الكتاب ولم تلد ميكال ولداً إلى يوم ماتت فكأنه يعزو ذلك إلى إزدرائها بداود لرقصه أمام التابوت. وأقام داود مرنِّمين يسبِّحون الله أمام التابوت في أوقات معيَّنة. ونظم بعض مزاميره لذلك (ملوك ٢ فصل ٦ وسفر أخبار الأيام الأول فصل ١٣ وفصل١٥ وفصل ١٦).

وكان داود تبعاً لمشورات صموئيل يعزز جانب الدين وسنَّة الله. وكان يحبُّ الانبياء والأحبار ويبالغ في إكرامهم وإجلالهم. وكان يوناثان وجاد النبيَّان أخلص الأصدقاء له. فقال لناثان أنظر إني مقيم في بيت فسيح متقن مزدان بأخشاب الأرز وتابوت عهد الرب مقام في داخل الشقق. وكان كلام الرب في تلك الليلة إلى يوناثان ليقول لداود: أأنتَ تبني لي بيتاً لسكناي؟ ولم أسكن بيتاً مذ أخرجت بني اسرائيل من مصر، وأن يذكِّره بنعم الله وإختياره له من مربض الغنم. ويعده بأنه يقيم من صلبه من يبني له بيتاً ويقرُّ عرش ملكه. ويكون الله له أباً وهو يكون له إبناً. فقصَّ ناثان الرؤيا على داود فدخل أمام تابوت الرب يتذلل مبدياً عواطف الشكر على ما أسبغه الله عليه من الآلاء وما وعد به من قرار الملك في ذرِّيته خاشعاً لله بتوسلات حميمة. تراها في الفصل السابع من

سفر الملوك الثاني والفصل السابع عشر من سفر أخبار الأيام الأول.

ويظهر أنّ الله لم يحب أن داود يبني له الهيكل لما صرَّح به داود نفسه في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢٢ عد ٢) حيث جاء «وقال داود: يا بُنَيّ أنه قد كان في نفسي أن أبني بيتاً لاسم الرب إلٰهي غير أنه قد صار إليَّ كلام الرب قائلاً: أنك قد سفكت دماءً كثيرة وباشرت حروباً عظيمة فلا تبنِ أنتَ لي بيتاً... فهوذا يولد لك ابن... هو يبني بيتاً لاسمي» وكذلك قال داود للشعب: كما ورد في سفر أخبار الأيام الأول أيضاً (فصل ٢٨ عد ٣). فهذا وما اقترفه داود من الإثم كما سترى منعاه الحظ بأن يبني بيت الله وإن رحض آثامه بدموع توبته على أنّ داود كان يذخّر كل ما يغنمه من ذهب وفضة ونحاس لينفقه ابنه في بناء الهيكل.

عد ٢٦٤

إخضاع داود الفلسطينيين والموابين وملك صوبة وآرامي دمشق

إنَّ كلام يوناثان لداود من قِبَل الرب زاده شجاعة واتكالاً على الله فعزم أن يُخضِع جميع أعداء شعبه، وأن يتولّى الأرض التي وعدهم بها من تخوم مصر إلى شاطئ الفرات. فاستأنف الحرب مع الفلسطينيين وأذلَّهم، وافتتح جت (ذكرين) عاصمتهم وما جاورها من مدنهم وقراهم. ولما ذُلَّ له مجاوروه وأمَّن سطوتهم عبر الأردن بعسكر جرار فضرب الموابين، وبدَّد شملهم وأسر منهم جمّاً غفيراً وكان يضجعهم على الأرض، ويقيسهم بحبل فيقتل من كانوا على طول حبلَيْن. ويستبقي من كانوا على طول حبل، وكانت الحرب في تلك الأيام تبيح الظافر قتل الأسرى الذين حملوا السلاح عليه أو إستبقائهم. قال الكتاب «وصار الموآبيون عبيداً لداود يؤدون الجزية».

ثم ضرب داود هدد عازر بن رحوب ملك صوبة وقد كان ذاهباً ليسترد سلطته على نهر الفرات، وأخذ منه داود ألف وسبع مئة فارس وعشرين ألف راجل وعرقب خيل المراكب، وأبقى منها مئة مركبة والظاهر أنّ مملكة صوبة كانت في شمالي سورية المجوفة، تمتدُّ من شمالي لبنان الشرقي نحو حمص وحماه وحلب. وفي شرقي لبنان المذكور حيث يبرود والنبك وصدد والقريتين إلى تدمر والفرات. وعلى ذلك أدلَّة منها ما سيأتي من أن توعي ملك حماه كانت له حروب مع هدد

عازر ملك صوبة. وبعث ابنه يهنئ داود بانتصاره عليه فقد كان مجاوراً له ومنها أيضاً مجاورتها لمملكة دمشق. فسيأتي أنّ آراميي هذه المدينة أتوا لنجدة هدد على داود. ومنها قوله إنَّ هذا الملك كان ذاهباً ليستردَّ سلطته على نهر الفرات. وجاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ١٨ عد ٣): «وضرب داود هدد عازر ملك صوبة في حماه (أي في جوار حماه). وقد كان ذاهباً ليمدَّ سلطته على نهر الفرات». فسواءً ذهب ليمدَّ أو ليستردَّ سلطته على نهر الفرات فمجاورة مملكته لدمشق من جهة حماه من أخرى وغزوته نواحي الفرات يدل صريح الدلالة أن مملكته كانت حيث ذكرنا.

وجاء آراميّو دمشق وهم من ذرية آرام بن سام لنجدة هدد عازر ملك صوبة. وتسعَّرت نار الحرب بينهم وبين عسكر داود فاستظهر داود عليهم. وشتت شملهم وقتل منهم إثنين وعشرين ألف رجل، وأقام في آرام دمشق محافظين. فكان الآراميون يؤدون الجزية ولم يذكر الكتاب اسم ملك دمشق يومئذٍ. ولكن روى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك٧ فصل ٦) أنّه كان يسمَّى هدد وهو أسم معبود السوريين. وحقق مكروب (ك ١ راس ٢٣) أنه كان يُراد به الشمس وإنَّ تأويل هدد الواحد أو الوحيد، وعليه فأصله حدَّ بالحاء أو حدَّ حدّ مكرَّرة فإنَّ **ܚܕ** في السريانية الآرامية معناها الواحد أو الأحد.

وروى يوسيفوس في المحل المذكور أنّ نقولا الدمشقي العالم الشهير (وُلِدَ في دمشق لسنة ٧٤ ق.م). ذكر هذه الحرب في الكتاب الرابع من تاريخه فقال: «وبعد سنين طوال كان مالكاً في دمشق وسورية كلها عدا قونيقي ملك أقوى أمراء هذه البلاد يسمَّى هدد. وكانت له حروب مع داود ملك اليهود فاستظهر داود عليه في موقعه هائلة في قرب الفرات، بعد أن أبدى هدد البسالة والأعمال الخطيرة آياتٍ تشهد له بأنه كان قائداً كبيراً وملكاً عظيماً». إلى أن يقول العالِم المذكور: ومن بعد وفاة هذا الملك خلفه ملوك من نسله سُمِيَ جميعهم هدد باسمه. كما سمَّى بتولمايس كل من خلف بتولمايس في مصر، وكان عددهم من ذرّيته إثني عشر ملكاً، وقد عقبوه لا بالمُلك وحده بل بالمجد والفخار أيضاً. وثالثهم الذي فاق شرفاً على جميعهم، أحبَّ أن يأخذ بثأر جدِّه عما أنزله بهم اليهود (في أيام داود) من الخسران. فضربهم في زمان آحاب الملك ودمَّر كل البلاد المجاورة السامرة.

وسمع توعي ملك حماه أنّ داود بدَّد جيوش هدد عازر وآراميّي دمشق، فأرسل ابنه آرام إلى داود ليحييه، ويهنئه بانتصاره على هدد الذي كان عدواً لتوعي وكانت بينهما حروب. وأرسل إلى داود مع ابنه آنية من فضة وذهب ونحاس. قال يوسيفوس (في المحل المذكور) أنّ توعي لم يوفد ابنه على داود تحبباً إليه بل ليعقد معه عهدة خشية أن يصيبه ما أصاب هدد خصمه. فأكرم داود مثوى ابن توعي وتقبّل هداياه، ووقَّع على عهدةٍ بينهما. فأصبح داود يلي سورية كلها من الفرات إلى حدود مصر، وجمع داود كلَّ ما غنمه من أعدائه وما أهداه إليه توعي من فضة وذهب ونحاس، وأتى به إلى أورشليم وازدخره إلى ابنه لينفقه في بناء الهيكل.

إنَّ ما إكتُشِفَ من الآثار الآشورية والمصرية لم يأتنا ببيّنات قاطعة على ملك داود واستفحال أمره في سورية كلها. لكنه لا يخلو من أدلَّة على ذلك فإنه يتبيَّن من آثار الآشوريين أنّ دولتهم القديرة الزاهرة إعتراها وقتئذٍ كسوف أو إنحطاط بعد وفاة سمسي بين الذي كان يلي أمرها سنة ١٠٨٠ ق.م. فأمنت واهنة خاملة الذكر حتى لا تعرف أسماء ملوكها مدة مئة وخمسين سنة، ولا تجد في خطوطهم القديمة أثراً إلَّا لإنتصار ملك آرام أو سورية على جنود آشور في عهد ملكهم آشور بامار حتى أخذ منه ناحية الفرات نفسها.

وإليك ما خُطَّ على الصفيحة المعروفة بصفيحة سلمناصر: «عبرت أنا (سلمناصر) نهر ساغورا (الساجور) عند مصبّه في الفرات. وكانت مدينة مولكينا الواقعة على عدوة الفرات ضمَّها إلى بلادي تجلت فلاصر الأب القدير الذي مَلكَ هذه البلاد قبلي. ولكن آشور تخلَّى عنها إلى ملك آرام. (كذا يعبر سلمناصر عن إنخذال سالفه بخروج هذه المدينة من مُلكِهِ). فاستعدت أنا هذه المدينة وأرجعتها إلى حالها القديمة وأسكنت فيها أبناء آشور». فانحطاط دولة آشور يسّر امتداد دولة داود إلى شاطئ الفرات دون مُعارِض. وأنبأتنا الآثار المصرية أن قد توفرت في تلك الحقبة التقسمات والحروب الأهلية في مصر. فجعلت داود في مأمن من سطو المصريين على جنوبي مملكته. وتَقَسّم سورية وما جاورها من بلاد العرب إلى ممالك عديدة ضعيفة يسّر له الإنتصار على جميعها فدانت لسلطته. وكانت تؤدي الجزية صاغرة ومحافظو داود في كلٍ منها. فعَظُمَت مملكة داود وضاهت مملكتَي مصر وآشور في أيام مجدهما، لكنها كانت قصيرة العمر لم تحيا كذلك إلَّا في أيامه

وأيام سليمان ابنه، ولم تتخلف في سورية إلى اليوم. وكان رجال دولة داود يواب ابن صورية أخت داود رئيساً على جيشه. ويوشافاط بن أحيلود مسجلاً وهو حافظ مهر الملك أو مسجّل الوقائع.وصادوق بن أحيطوب وأحيملك بن أبياتار كاهنَين. وسرايا كاتباً وبنايا بن يوياداع رئيساً على الجلادين والسعاة.

وعن كلمت أنّ هؤلاء كانوا فِرَقاً من الجنود اتخذهم الملك من غير بني إسرائيل قال الكتاب: «وبنو داود كانوا كهنة». على أنهم لم يكونوا كهنة حقيقة لأنَّ الكهنوت خص بسبط لاوي بل المُراد أنهم كانوا كهنة مجازاً أي أشبه بالكهنة سيرةً ونزاهةً وكرامة لدى الشعب. وجاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ١٨ عد ١٧): «وبنو داود كانوا الأولين تحت يد الملك». وكان داود حكيماً عادلاً دأبه النزاهة والإستقامة لا يجور بحكمه على أحد ولا يحابي ذكوراً للإحسان والوداد. إستدعى مفيبوشت بن يوناثان بن شاول الذي كان زمن الرجلين، وأقامه لديه وكان يأكل على مائدته كأحد ابنائه. وردَّ عليه جميع مزارع أبيه وجعل صيبا خادمه قيّماً على أملاك مفيبوشت ليحرثها ويستغلها له (ملوك ٢ فصل ٨ و ٩).

عد ٢٦٥

حرب داود مع العمونيين والآراميين

وكان أن توفي ملك بني عمون فمَلِكَ حنون ابنه مكانه. فأرسل داود وفداً يعزّيه عن أبيه متذكراً أنه أحسن إليه عند فراره من وجه شاول. فأوهم رؤساء بني عمون ملكهم أن وفد داود جواسيس أرسلهم ليجسّوا أرضه رغبةً أن يلحقها بملكه، فقبض حنون على رجال داود. وحلق نصف لحاهم، وقطع نصف ثيابهم حتى استاههم، ثم أطلقهم. وخُبِرَ داود فأرسل رجالاً للقائهم. وكانوا خجلين جداً فقال: امكثوا في أريحا حتى تنبت لحاكم ويظهر منه أنّ بني إسرائيل كانوا حينئذٍ يطلقون لحاهم. واستفاق بنو عمون إلى سوء فعلتهم. وخافوا بطش داود وتنكيله بهم، فاستأجروا آراميّ بيت رحوب، وآراميّ صوبا عشرين ألف راجل. ومن ملك معكة ألف رجل. ومن رجال طوب إثني عشر ألف رجل. أما بيت رحوب وتسمّى رحوب فقط ومعناها الرحب والواسع، فالأظهر أنّ موقعها كان بين بانياس جنوباً إلى مملكة حماه شمالاً فتشمل سهول بقاع العزيز وبعلبك. وعن بعضهم إنَّ بيت رحوب هي المسماة الآن هونين في الشمال الغربي من بحيرة الحولة. وأنَّ المملكة

المنسوبة إليها كانت في جهة بانياس وسهول الحولة. وأما صوبة فقد مرَّ ذكرها آنفاً عد ٢٦٤ ومعكة معناها الضيقة والحرجة. وفي كتاب أعلام الأماكن أنّ موقعها كان في جنوبي صوبة وغربي رحوب. وفي غيره أنها كانت في شرقي رحوب تمتدُّ قليلاً في سهل الحولة، وتتَّصل بالجبل المسمى اليوم جبل حيش في جنوبي جبل الشيخ. ويظهر أنّ هذه المملكة كانت صغيرة إذ لم يستأجر العمونيون منها إلّا ألف رجل. وطوب ومعناها الصالح يُظَن أنّ موقعها كان في منحدر جبل الشيخ من ناحية الشرق في الجهة المعروفة اليوم بالبلاس. وجاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ١٩ عد ٦ و ٧) أنّ بني عمون أرسلوا «ألف قنطارمن الفضة ليستأجروا لهم مراكب وفرساناً من آراميّ معكة ومن صوبا. فاستأجروا لهم اثنين وثلاثين ألف مركبة». قال كلمت في تاريخ العهد القديم يُحتمَل أن يكون عدد المركبات هذا قد أدخل النسّاخ عليه زيادة سهواً.

فلما أُخبِرَ داود بما يُعدُّه بنو عمون أرسل يواب قائد جيشه وجميع الأبطال. فخرج بنو عمون واصطفوا للقتال عند مدخل المدينة. ويظهر من سفر أخبار الأيام (في المحل السالف ذكره) أنها ميدبا المعروفة إلى اليوم بهذا الإسم. ولكن روى يوسيفوس أنها ربَّة أي ربَّة عمون التي سُميَت في أيام اليونان فيلدلفية وهي عمان الآن. وانفرد آراميّو صوبا ورحوب ورجال طوب ومعكة وأقاموا في الصحراء. فرأى يواب أنّ القتال مصوَّبٌ إليه من الأمام والخلف. فقسم عسكره إلى شطرين رأس أحدهما وانطلق به للقاء الآراميين، ورأس على باقي الجنود أخاه أبيشاي لقتال بني عمون. وقال لأخيه إن قَوِيَ عليَّ الآراميون أتيتَ لنجدتي وإن قَوِيَ عليك بنو عمون أذهبُ لنجدتك . وازدلف يواب ورجاله لقتال الآراميين فانهزموا من وجهه. ورأى بنو عمون أن قد انهزم الآراميون فانهزموا هم أيضاً من وجه إبيشاي، ودخلوا المدينة فكفَّ يواب عن قتالهم وعاد إلى أورشليم.

على أنّ هذه الموقعة لم تكن الفاصلة وحرَّش هدد عازر بين القوم ليستأنفوا الحرب. واستدعى رجالاً من الآراميين في عبر الفرات، وانضمَّ إليهم غيرهم من الآراميين. وقلَّد هدد شوباك رئيس جنده قيادة الجيش. وأخبر داود بتألبهم عليه. فرأى الأمر جللاً يقضي عليه أن يشهد الحرب بنفسه. فعبر الأردن، وزحف إلى الآراميين فانهزموا من وجهه. وأهلك منهم سبع مئة مركبة، وأربعين ألف فارس. وروت بعض النسخ ويوسيفوس أربعين ألف رجل. وضُرِبَ شوباك قائدهم فمات

هناك. ولما رأى سائر الملوك أنّ جيش هدد عازر قد إنكسر ذُعِروا وهربوا ومعهم ثمانية وخمسون ألفاً وصالحوا داود ودانوا له. وخاف الآراميون أن يعودوا لنجدة بني عمون (ملوك ٢ فصل ١٠). وفي السنة التالية أرسل داود يواب ورجال إسرائيل فدمّروا مدن بني عمون، وحاصروا ربّة عمون عاصمتهم المار تعريفها. ولما تيقّن يواب فتحها أرسل إلى داود أن يأتي، فيأخذها كيلا يكون الفتح باسم يواب بل باسم الملك. فسار داود بعسكر من الشعب فافتتح ربّة «وأخذ تاج ملكام عن رأسه وكان وزنه قنطاراً من الذهب ومرصّعاً بالحجارة الكريمة فكان فوق رأس داود وأخرج من المدينة غنيمة وافرة جداً». وأمات من كان فيها شرَّ الميتات معذّباً إياهم بالمناشير وبالطرح في أتون الآجرّ وكذلك صنع في سائر مدن بني عمون، وكانت سنّة تلك الأيام تبيح مثل العذابات التي أنزلها داود بالعمونيين، ولعلّ ذلك كان بأمر الله الذي كان أمر شاول أن يبيدهم دون شفقة فلم يفعل، فأعلمه صموئيل سخط الله عليه لذلك.

قال فولتير في تاج ملكام الذي وضعه داود على رأسه: «زعموا أنّ وزنة الذهب (أو القنطار كما روينا عن ترجمة الآباء اليسوعيين) تساوي تسعين ليبرا والليبرا ست عشرة إنشيا (أوقية في اصطلاح الأطباء) فلا يستطيع إنسان أن يحمل على رأسه مثل هذا التاج». قال دوكلو (في تفسير سفر الملوك الثاني في طبعة الأب مين) إنّ الآية معضلة إذا اقتصرنا على الترجمة اللاتينية العامية. ولكن قال كثير من العلماء: أنه إذا روعي النصّ العبراني في سفر الملوك وفي سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢٠ عد ٣) كان المفهوم قيمة التاج أو ثمنه لا وزنه لأنه كان مرصعاً بجواهر كريمة فيساوي الذهب، وهذه الجواهر قيمة وزنة من الذهب فضلاً عن أنّ الككر العبرانية التي عبّرت عنها الترجمات بوزنة لا يعلم قدر وزنها الأكيد. انتهى كلام دوكلو ولا يُخفى على ذي إلمام بالتاريخ أنّ القدماء كانوا يتعاملون بالمعادن وغيرها موزونة. واستمرَّ المتأخرون يعبّرون عن القِيَم والأثمان باسماء الأوزان من ذلك المثقال والدرهم وغيرها، فإنها وُضِعَت في الأصل للوزن ثم إستُعمِلَت للتعبير عن قيمة أو ثمن بحسب إصطلاحهم هذا. والقنطار في العربية أربعون أوقية من ذهب على أحد الأقوال فلا يستحيل وضعه على الرأس.

عد ٢٦٦

إثما داود وتوبته

بينما كان داود في أورشليم وعسكر بني إسرائيل يحارب العمونيين اقترف داود ذينك الإثمين الفاضحين: مفاجرته بتشابع امرأة أوريا الحثي وتسببه بقتل زوجها. فقد رآها عن سطحه تستحمّ فهام بها، وعلقت منه وأراد أن يستر حملها، فاستدعى أوريا من المعسكر فاستخبره، ثم أمره أن يذهب فينام في بيته. فقال إنَّ تابوت الرب وبني إسرائيل في الخيام على وجه الصحراء، وأنا أدخل بيتي وآكل وأشرب وأدخل على أهلي ! لا وحياتك لا أفعل هذا وبقي في أورشليم يوماً آخر وحده. فدعاه داود وأكل بين يديه، وشرب وأسكره ولم ينزل إلى بيته فصرفه إلى المعسكر، وكتب إلى يواب كتاباً أرسله بيده قال فيه وجّهوا أوريا إلى حيث يكون القتال شديداً، وارجعوا من ورائه فيُضرَب ويموت. فجعله يواب عند محاصرة ربَّة عمون في الموضع الذي علم أنّ فيه رجال البأس. وخرج رجال المدينة وضربوا بني إسرائيل فسقط بعضهم وقُتِلَ أوريا الحثي أيضاً. وأرسل يواب فأخبر داود بما كان وبقتل أوريا وبعد أن أتمَّت امرأته مناحة بعلها ضمَّها داود إلى بيته فكانت زوجةً له. فهذان الإثمان سوَّدا صفحات تاريخ داود إلى اليوم وقد صرف ما بقي من حياته آسفاً باكياً، مستغفراً الله مكفِّراً عن إقترافه لهما. ويشهد لذلك أكثر زبوره ولا سيَّما مزموره الخمسين المفتتَح: «إرحمني يا الله كعظيم رحمتك» إلى باقي تضرعاته الخاشعة ويُظَن أنه ألَّف هذا المزمور على أثر ما أنذره ناثان من قِبَل الرب بفظاعة إثمه وسوء عاقبته (ملوك ٢ ف ١١).

وقد أرسل الرب ناثان إلى داود وقال له كان رجلان في مدينة أحدهما غني والآخر فقير، وكان للغني غنم وبقر كثيرة جداً، ولم يكن للفقير غير رخلة واحدة صغيرة قد إشتراها ورباها، وكانت تأكل من لقمته وتشرب من كأسه وترقد في حضنه. فنزل بالغني ضيف فشحَّ أن يأخذ من غنمه وبقره ليقتري ضيفه، فأخذ رخلة الفقير وهيأها للوافد عليه. فغضب داود وقال حيٌّ الرب إنَّ الرجل الذي صنع هذا يستوجب الموت ويردّ بدل الرخلة اربعاً. فقال له ناثان: أنت هو الرجل؛ وذكَّره بما صنع الرب إليه وما أقدم هو عليه من قتل أوريا وأخذه زوجته. ونبأه ما سيحلُّ به من المصائب جزاءً لما جنى. أي أن الرب يثير عليه الشرّ من بيته كما فعل

أبشالوم ابنه، ويأخذ أزواجه ويدفعهنّ إلى غيره فيفخر بهنّ جهرةً لا كما فعل هو سرّاً مع زوجة أوريا. فخشع داود وقال قد خطِئت إلى الرب. فقال له ناثان: قد نقل الرب خطيئتك عنك فلا تموت قتيلاً كما قتلت أوريا بل يموت الابن الذي يولد لك من بتشابع. وكانت تلك المصائب تباعاً على داود وأولها أنّ الرب ضرب الابن الذي ولدته له بتشابع فأكثر داود من التضرّع لله والصوم والإضجاع على الأرض في حين مرضه علّ الرب يعفو عن الصبي. فلم يستجب وأذعن داود بعد موته لقضاء الله وطابت نفسه وأكل وشرب. وولدت له بتشابع بعد ذلك ابناً سمّاه سليمان وأرسل الرب على لسان ناثان النبي وسماه يد يديه أي محبوب الرب (ملوك ٢ فصل١٢).

عد ٢٦٧

خروج أبشالوم على داود أبيه

أنبأنا سفر الملوك الثاني في الفصلين الثالث عشر والرابع عشر منه بمصيبةٍ أخرى حلّت بداود لإثمه وهي أنّ ابنه أمنون أوقع العار بتامار أخته لأبيه، وشقيقة أبشالوم الذي احتدم صدره غيظاً على أخيه أمنون لإذلاله أخته وأضمر له السوء. ثم دعاه لوليمةٍ حين جزاز غنمه، وأمر غلمانه أن يقتلوا أمنون فقتلوه. وهرب أبشالوم من وجه أبيه، والتجأ إلى تلماي بن عميهود ملك جشور الواقعة في جنوبي جبل الشيخ في جهة الجولان والجيدور الآن. وأقام أبشالوم ثمة ثلاث سنين عند جدّه تلماي لأنه ابن معكة بنت تلماي (طالع عد ٢٦١) إلى أن رضيَ داود عنه وعاد إلى أورشليم، ولكن أمسك أبوه عنه أن يراه سنتين إلى أن صالحه، وسمح أن يدخل عليه وسجد بوجهه إلى الأرض فقبّله أبوه.

فما عتّم أبشالوم بعد نَيل رضى أبيه أن أنزل به مصيبة أخرى، فإنّه اتّخذ له مركبةً وخيلاً وخمسين خادماً يجرون بين يديه. وكان يُبكر ويجلس بجانب طريق باب الملك فينمُّ لأصحاب الدعاوى بسياسة أبيه ورجاله. ويلاطفهم ويقبّلهم ويسترق قلوبهم. قال الكتاب (ملوك ٢ فصل ٥ عد ٧): «وكان بعد أربعين سنة أنّ أبشالوم قال للملك: دعني أنطلق فأقضي نذري الذي نذرته للرب في حبرون». فقد عنى العلماء والمفسرون ذكر الأربعين سنة وذهبوا في تفسير الآية مذهبين فقال بعضهم منهم كلمت أنه وقع تحريف سهواً في النصّ العبراني فكتب الناسخ أربعين سنة

مكان أربع سنين وقد جاء في نسختنا السريانية ܘܡܢ ܒܬܪ ܐܪܒܥ ܫܢ̈ܝܢ ومن بعد أربع سنين ومثله ورد في كتب كثيرة قديمة مخطوطة في اللاتينية وكذلك في الترجمة العربية. وهكذا ترى يوسيفوس وتاوادوريطوس وغيرهما من الآباء والمفسرين رووا أربع سنين لا أربعين سنة، وصحح بعضهم النص العبراني وأكثروا البحث في بدء هذه الأربعين سنة فقال بعضهم إنَّ بدءها سنة مسح صموئيل داود ملكاً في أيام شاول. ورجَّح هذا فيكورو في معجم الكتاب وقال آخرون إنَّ بدءها سنة فرض شاول سنّة المُلك في إسرائيل مضافاً إليها عمر أبشالوم الذي كان حينئذٍ ينيف على الثلاثين سنة. وللمذهبَين محامون ومدافعون. ويظهر لنا أنّ المذهب الأول هو الأوجه والأمثل. وعليه فبعد أن استمال أبشالوم قلوب كثيرين إليه في مدة أربع سنين مضى إلى حبرون وسار معه مئتا رجل من أورشليم على سلامة نيَّة. وأرسل جواسيس إلى جميع إسرائيل واستدعى أحيتوفل الجيلوني مشير داود ليأتي إليه من مدينته جيلو، وهي على الراجح بيت جالا الآن (كاران مجلد ١ في اليهودية صفحة ١١٨). فتزايد الشعب عند أبشالوم واشتدت المحالفة حتى اضطرَّ داود أن يلجأ إلى الفرار. فخرج وجميع آل بيته مشاة وترك عشراً من السراري لحفظ البيت وكان الجميع يبكون. فعبروا وادي قدرون المعروف في جانب أورشليم. وأتى صادوق الكاهن واللاويون بتابوت عهد الرب فأرجعهم داود به إلى المدينة. وانتهى إلى جبل الزيتون فصلَّى لله هناك وأرجع حوشاي الأركي صديقه إلى أورشليم ليستقصي مقاصد أبشالوم ويخبره، فبلغ المدينة وأبشالوم داخل فيها فسار داود حتى بلغ بحوريم التي كانت في محل قرية أبي ديس الآن الواقعة في جنوبي الطريق المؤدي من أورشليم إلى أريحا على خمسة كيلومترات في الشرق الجنوبي من جبل الزيتون. (كاران مجلد ١ في السامرة صفحة ١٦١). وخرج من بحوريم رجل من عشيرة شاول اسمه شمعي بن جيرا يلعن داود ويشتمه ويعيِّره ويرجمه بالحجارة. فهمَّ أبيشاي بن صروية أن يقطع رأسه فنهاه داود صابراً متجلِّداً عالماً أنّ الله شاء ذلك تأديباً له.

أما أبشالوم فدخل أورشليم برجاله وأحيتوفل معهم ودخل عليه حوشاي الأركي مبدياً له الصداقة. وأشار أحيتوفل على أبشالوم أن يدخل على سراري أبيه اللاتي تركهنَّ لحفظ بيته ليعلم بنو إسرائيل أنه صار مكروهاً من أبيه فتشتدُّ أيدي محازبيه. فعمل بهذه المشورة السيئة على مشهد رجاله إذ نصب لهنَّ خيمة على السطح

ولعله السطح نفسه الذي من فوقه ابتدأ إثم داود بنظره إلى بتشباع. فتمَّ ما أنذر به ناثان النبي داود لدخوله على امرأة أوريا. وقال أحيتوفل لأبشالوم أن ينتخب إثني عشر ألف رجل ويسعى في طلب داود تلك الليلة. وخالفه حوشاي وأشار أن ينظر أبشالوم اجتماع جميع بني إسرائيل إليه. فآثر أبشالوم مشورته على مشورة أحيتوفل وقام داود بعسكره ليلاً وعبر الأردن، ووافى إلى محنائيم المسماة اليوم محنة في جبل عجلون. وقد أقام فيها أشبوشت بن شاول بعد مقتل أبيه (طالع عد ٢٦٠). ولما رأى أحيتوفل إعراض أبشالوم عن العمل برأيه ركب حماره وانصرف إلى بيته فخنق نفسه.

وأقام أبشالوم عماسا بدل يواب قائداً لجيشه، وزحف بعسكره إلى أرض جلعاد (السلط). وأحصى داود الشعب الذين معه وأقام عليهم رؤساء ألوف ومئتين. وأمر يواب على ثلث جيشه، وأخاه أبيشاي على ثلثه، وأتاي الحتي على ثلثه. ولم ينبئنا الكتاب كم كانت جنوده؟ ويظهر أنهم كانوا كثيرين لقسمتهم إلى ثلاثة أقسام. ولكن روى يوسيفوس أنهم لم يكونوا إلّا أربعة آلاف. أحبَّ داود أن يخرج للقتال فمانعه الشعب تعزيزاً لشأنه ولكي ينجدهم إذا انكسروا في القتال، وقال على مسمع الشعب: ترفّقوا لي بالفتى أبشالوم.

واصطفَّ الجيشان للقتال في غابة أفرائيم التي لم يتعيَّن محلها إلى اليوم، ولكنها لا بد أنها كانت في شرقي الأردن على مقربة من محنائيم (محنة كتاب الأعلام الكتابية). ولم يلبث عسكر أبشالوم أن انكسر من وجه رجال داود وقتل منهم عشرون ألفاً. وافترست الغابة من الشعب أكثر مما افترس السيف. وهرب أبشالوم مسرعاً وكان راكباً بغلاً، فدخل تحت أغصان بلوطة ملتفة فتعلّق شعره الطويل بها ومرَّ البغل تحته فرُفع بين السماء والأرض. ورآه رجلٌ وأخبر يواب فلامه لأنه لم يقتله، وأغراه بقتله فلم يشأ أن يفعل حرمةً لتوصاة الملك بالترفق به وسعى يواب فأنشب ثلاث حراب في قلبه وإذ كان لم يزل حيّاً أحاط به، عشرة من غلمان يواب فقتلوه. ونفخ يواب في البوق فكفَّ الشعب عن القتال. وأخذوا جثة أبشالوم وطرحوها في جب في الغابة وجمعوا فوقه جثوة عظيمة من الحجارة وهرب كل امرئ من رجاله إلى بيته. ولما بلغ داود خبر وفاته إرتعش وكان يبكي ويقول وهو يتمشّى يا بنيَّ أبشالوم يا بنيَّ يا بنيَّ أبشالوم يا ليتني متُّ عوضاً منك يا أبشالوم؛ (ملوك ٢ فصل ١٥ إلى ١٩).

عد ٢٦٨

مدفن أبشالوم

جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ١٨ عد ١٨): «وكان أبشالوم في حياته قد أخذ وأقام لنفسه النصب الذي في وادي الملك. لأنه قال ليس لي ابنٌ يُذكر به اسمي ودعا النصب باسمه». فوادي الملك لا ريب أنه وادي يوشافاط في شرقي أورشليم حيث مدفن كبير تسمّيه العامة قبر أبشالوم. ولكن في الآية السابقة أنهم أخذوا جثة أبشالوم وطرحوها في جب في الغابة جمعوا فوقه جثوة عظيمة جداً من الحجارة. فقال بعضهم إنَّ جثة أبشالوم استمرت في جبها وليس في وادي يوشافاط إلّا أثر النصب الذي أقامه أبشالوم. وقال غيرهم: إن داود نقل جثة ابنه إلى النصب الذي كان أقامه لنفسه محتجين لذلك بشدَّة. أسِفَ داود على ابنه فلا يُظَن أنه ترك جثته في غابة، وكذلك اختلافهم في الأثر القائم الآن من قِبَل هيئة بنائه فقال بعضهم إنه مشبهٌ هيئة أبنية اليونان فلا يمكن أن يكون من عهد داود. وقال غيرهم إنّه مشبهٌ هيئة أبنية المصريين فيمكن أن يكون من عهد داود وسليمان. وقال الأب فيكورو في معجم الكتاب: «إنَّ التقليد الآن يحسب قبر أبشالوم والنصب الذي أقامه واحداً ولكن ليس لهذا التقليد بيّنة راهنة. وإذا نظرنا إلى التقليد في صدر النصرانية وجدنا ما يخالف تقليد هذه الأيام فقد شهد يوسيفوس (ك ٧ في تاريخ اليهود فصل ٩) إنَّ النصب الذي أقامه أبشالوم إحياءً لذكره لم يكن إلّا عموداً من رخام أبيض ثم إنَّ النقوش اليونانية والمصرية التي في أسفل ذلك الأثر لا تؤذن بأن بناءه كان في عصر ملوك إسرائيل». هذا ما جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ١٤ عد ٢٧): «ووُلِدَ لأبشالوم ثلاثة بنين وابنة واحدة سماها تامار». فكيف يوفّق هذا مع قوله «أن ليس له ابنٌ يُذكَر به اسمه». فقال بعضهم أنه أقام النصب قبل أن يلد بنين. وقال غيرهم أنه أقامه بعد موتهم إذ لم يَرِد ذكرٌ لإبنٍ له فيما بعد.

عد ٢٦٩

عودة داود إلى أورشليم وما كان حينئذٍ

أقام داود بعد مقتل أبشالوم في بيته يبكي وينتحب عليه حتى صارت النصرة مناحة. فدخل يواب على الملك وقال: أخزَيتَ وجوه جميع عبيدك الذين نجّوا

نفسك، وأنفس بنيك وبناتك وأزواجك وسراريك بحبك لمبغضيك وإبغاضك لمحبيك. فقُم الآن وطيِّب قلوب عبيدك. وان لم تخرج فلا يبيت الليلة عندك أحد. فقام الملك وجلس بالباب فأقبل الشعب كلهم بين يديه. وكان في جميع أسباط إسرائيل خصامٌ وأسفٌ لثورتهم على الملك الذي خلَّصهم من أعدائهم، وأعلى شأنهم وبعث الملك إلى صادوق وأبياتار الكاهِنَيْن ليذَكِّرا جميع شيوخ إسرائيل أنهم من عظمه ولحمه. وليقولا لعماسا قائد جيش أبشالوم أنّه من ذوي قربى الملك أيضاً. وأنّه سيكون رئيس الجيش أمامه بدل يواب لأنه قتل أبشالوم خلافاً لنهيه. فانضمّ رجال سبط يهوذا كأنّهم رجلٌ واحد، وألقوا الملك إلى الأردن عند الجلجال (جلجول). وبادر شمعي البنياميني الذي كان قد أهان داود إلى لقياه ومعه ألف رجل من سبطه وخرَّ ساجداً للملك مستغفراً عمَّا أساء به إليه فأراد أبيشاي قتله لأنه لعن مسيح الرب فازدجره داود. وأمَّن شمعي وأتى صبيا قيِّم بيت شاول وبنوه الخمسة عشر وعبيده العشرون لملاقاة الملك. ونزل مفيبوشت بن شاول للقائه، وأنبأنا الكتاب في هذا السبيل بما كان الحداد في تلك الأيام فقال: «وكان لم يُغسِل رجليه ولم يُحفِ شواربه (أي تُرِكَت ولم يؤخذ منها). ولم يرحض ثيابه مذ يوم خرج الملك إلى اليوم الذي عاد فيه سالماً». وعتبه الملك لأنه لم يمضِ معه فاعتذر بعرجه وبمكر خادمه به، وقد كان صبياً، سعى بمولاه عند الملك وقال لداود لدى سؤاله عنه إنّه مقيم بأورشليم لأنّه قال اليوم يردُّ عليَّ آل إسرائيل مُلكَ أبي. فقال لصيبا كل ما هو لمفيبوشت فهو لك (ملوك ٢ فصل ١٦ عد ٣ و ٤).

ولذا رأينا داود يقول لمفيبوشت عند لقياه على تذلُّله له: «حسبك أن تتكلم في أمورك. فقد قلت إنَّ الحقول تقسم بينك وبين صيبا» بعد أن كان أعطاه إياها كلها. وقد حملت هذه الآية كثيراً من الآباء المفسرين على العجب كيف عامل داود ابن يوناثان صديقه بهذه القسوة، وقضى عليه هذا القضاء الجائر بأن يعطي ولو نصف حقوله لقيم بيته. والتمس بعضهم معذرةً لداود بتيَقُّنِه كلام صيبا المار ذكره، فعاقبه هذا العقاب. وبرّأ بعضهم ساحته من الإثم ومن حججهم إنَّ حقول شاول كانت تحقُّ لداود فوهبها لمفيبوشت ثم استردَّ هبته لما رآه ناكراً إحسانه. وأوجب بعضهم الإثم عليه حتى قال بعض العلماء اليهود أنّ هذا القضاء الجائر كان من أسباب شق مملكة إسرائيل بعد سليمان من قِبَلِ الله. ولكن أجمع الجمهور على أنّه إذا ثَبتَ إثم داود هذا فيكون قد تاب عنه وردَّ على مفيبوشت نصف حقوله، أو

عاضه منه بغيره لا سيما لتلطّف مفيبوشت لقوله للملك: «ليأخذ (صيبا) الجميع أيضاً بعد ما عاد سيدي الملك إلى بيته بسلام». وقد خَطِئ داود في كل حال بفرط تصديقه كلام صيبا قبل أن يسمع حجة مفيبوشت، وقد انتبه إلى خطئه وعدل عن حكمه الأول بأن يعطي مفيبوشت نصف حقوله لكنه رآه لم يزل جائراً. فعاضه على الراجح من حقوله بغيرها. والحدث مثال لذوي المناصب كيلا يفرطوا في التصديق لسعاية من يزدلفون إليهم بغيرهم بل يتلوّموا في حكمهم ويتروّوا.

واجتمع جميع رجال إسرائيل عند الملك بعد عبوره الأردن. ولاموا رجال يهوذا لأنّهم ذهبوا خفيةً إلى الملك قبلهم. فأجابهم رجال يهوذا لأنَّ الملك ذو قرابة لنا. ولِمَ غيظكم أنتم؟ لعلنا أكلنا من عند الملك أو أجازنا بجائزة؟ فقال رجال إسرائيل إنَّ لنا عشرة سهام في الملك. ونحن أولى منكم بداود. وكان كلام رجال يهوذا أقسى من كلام رجال إسرائيل. فقام رجلٌ عاثٍ اسمه شابع بن بكري من سبط بنيامين ونفخ في البوق وقال ليس لنا نصيب مع داود ولا ميراث مع ابن يسى فارجعوا يا بني إسرائيل كلٌ إلى محله فأنفضوا متبعين شابع ولازم بني يهوذا ملكهم إلى أورشليم. فما أخبث هذه العادة التي ما برحت مستطرقة عند سفلة قومنا أن يعدل عن المصلحة العامة أو تشوِّش الراحة للتقصير عن شيء من المداراة والمجاملة أو أن ينقاد الجمهور لكلام مفسد ذي أربٍ فاسد فيضحي بشأنه ونفعه من غير رؤية ولا تبصُّر بسوء العاقبة.

قد أقام داود السراري العشر اللائي دخل عليهنَّ أبشالوم في بيت حجز ولم يدخل عليهنَّ بل أجرى لهنَّ النفقة إلى يوم وفاتهنَّ. وأراد أن يتدارك ثورة شابع فقال لعماسا اجمع إليَّ رجال يهوذا في ثلاثة أيام. وأبطأ عماسا عن الميعاد الذي ضربه له فقال لأبيشاي أخي يواب إنَّ شابع يصنع بنا شرًّا مما صنع أبشالوم فخُذْ جنودي وانطلق في أثره، فخرج جميع رجال يواب في طلب شابع فالتقوا بعماسا عند صخرة جبعون (الجب). وكان يواب محتزماً بثوبه وفوقه منطقة سيفٍ مشدود على حقويه ولما تقدم ليحيي عماسا اندلق السيف أو دلقه، وأخذ بيده اليمنى لحية عماسا ليقبله وضربه بيسراه بالسيف في بطنه فذلق أمعاءه إلى الأرض ومات. وسار يواب ورجاله في طلب شابع الذي كان جاوز جميع أسباط إسرائيل، وانتهى إلى إبل بيت معكة وهي إبل الآن على ستة أميال ونصف من بانياس غرباً على ما في كتاب أعلام الأماكن؛ وهي في قضاء مرجعيون في جنوبي الخيّم والقليعة، وتسمّى

إبل الهواء وإبل القمح. وقد ورد اسمها تارةً مع العاطف إبل وبيت معكة وطوراً دونه إبل بيت معكة. فقال كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٣٤٨) إنّه يظهر أنّ إبل وبيت معكة محلتان أو حيّان في مدينة واحدة وهذه غير إبل الواقعة في الجنوب الشرقي من الجدَيْدَة. فتبع يواب شابع إلى هناك وحاصر المدينة وجدَّ رجاله في هدم سورها فنادت امرأة حكيمة يواب مونبة له على طلبه أن يُهلك مدينة إبل أما في إسرائيل فأجابها حاش لي أن أُتلف وأُهلك لكنني أطلب شابع الذي عصى داود فسلّموه إليَّ وحده وأنا أنصرف عن مدينتكم. وأقنعت المرأة بحكمتها شعب المدينة فقطعوا رأس شابع وألقوه إلى يواب فنفخ في البوق، ورجع كلٌّ إلى محله وعاد يواب إلى أورشليم (ملاك ٢٠ فصل ٢٠). وروى يوسيفوس أنه أخذ رأس شابع فقدمه إلى داود.

عد ٢٧٠

المجاعة في أيام داود وقتل أبناء شاول

كان جوعٌ في أيام داود ثلاث سنين ،سنة بعد سنة فسأل داود الرب، فأوحى إليه أنّ ذلك لأنَّ شاول قتل الجبعونيين سكان جبعون (الجب الآن). وقد مرَّ أنّ قدماءهم احتالوا على يشوع بن نون بأنهم قادمون من محلٍ بعيد يتطلبون الخضوع له ليستأمنوه فأمّنهم، وحلف لهم وانكشف مكرهم، فلم يخلف يمينه بل أمر بني إسرائيل أن يبقوا عليهم، وأن يكونوا محتطبي حطب مستقي ماء لكل الجماعة، فسعا عليهم شاول مخلفاً عهد الرب. وقتل كثيرين منهم لا يُعلَم لأيّ الأسباب ولا في أي الأوقات. ويُرجّح أنه أقدم على ذلك في آخر مدة مُلكه حين قتل كهنة نوب (بيت نوبا)، وأهلها كما مرَّ ويتبيَّن من هذا وغيره أنّ هذا الجوع كان في بدء مُلكِ داود وقبل حروبه المار ذكرها، فهو مقدمٌ عليها زماناً وأن أخّر الكتاب ذكره وضعاً لأهمية الحروب. ومنه يظهر أيضاً أنّ العقاب من أجل إثم شاول لم يتأخر كثيراً عن إقترافه كما هو ظاهر الكتاب.

ولما عَلِمَ داود علة النازلة استدعى من بقي من الجبعونيين، وسألهم ما يبغون ترضيةً لهم فرغبوا في أن يُسلَّمَ إليهم سبعة من بني شاول فيصلبوهم في جبع شاول (خربة تل الفول) مدينته. فأمر أن يُعطوا ابنَين كانت قد ولدتهما رصفة لشاول وخمسة من بني ميراب بنت شاول. وأشفق على مفيبوشت بن يوناثان بن شاول

من أجل عهد المَوَدَّة الذي كان بينه وبين يوناثان. فصلب الجبعونيون السبعة في الجبل. وأخذت رصفة أم الأولَين مسحاً وفرشته لنفسها على الصخر، وأقامت أشهراً لا تدع طير السماء تعثر عليهم نهاراً ولا وخش الصحراء ليلاً. وأُخبر داود بما صنعت فمدحها، وانطلق فأخذ عظام شاول ويوناثان من يابيش جلعاد (السلط) التي كان أهل هذه المدينة سرقوها من ساحة بيت شان (باسان) حيث علّقهما الفلسطينيون يوم إنكسارهما في جلبوع وضمها إلى عظام المصلوبَيْن. ودفنها في مقبرة قيس في صيلع بأرض بنيامين ولم يعيَّن إلى الآن موقع صيلع هذه، ويترجَّح أنّه كان على مقربة من جبعة شاول المسماة الآن خربة تل الفول على مذهب كاران (ملوك ٢ فصل ٢١ إلى عدد ١٥).

عد ٢٧١

وقائع أخرى لداود مع الفلسطينيين

كانت لبني إسرائيل وقائع مع الفلسطينيين أوجز الكتاب (ملوك ٢ فصل ٢١ عد ١٥ وما يليه) بذكرها، وشهد داود أولاها وكلّت يداه ودهمه بيشينوب أحد الجبابرة الذي كان وزن رمحه ثلاث مئة مثقال من نحاس وكاد يقتله. فتداركه أبيشاي بن صروية فقتل الفلسطيني فاستحلف داود رجاله أن لا يخرج معهم إلى الحرب لئلا يُطفئ سراج إسرائيل. ولم يذكر الكتاب محل هذه الوقيعة لكنه ذكر وقعة أخرى في جوب ولا يُعلم موقع هذه المدينة. ولكن جاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢٠ عد ٤) أنّ هذه الحرب نشبت في جازر وفي كتاب أعلام الأماكن أنّ جازر تسمى اليوم تل جازر على أربعة أميال غرباً من عمواص. وقتل حينئذٍ سكاي الحوشي سفاي من بني الجبابرة فذلَّ الفلسطينيون. والواقعة الثالثة كانت في جوب أيضاً، وقُتل فيها الحانان بن ياعير أحد قواد داود أخا جليات الجتي المسمى لحميَ، وكانت قناة رمحه كنول النساج. وكانت وقيعة أخرى في جت مدينة الفلسطينيين (ذكرين الآن أو تل الصافي). وقتل فيها يوناثان بن شمعا أخي داود أحد أبناء الجبابرة من الفلسطينيين، وكان طويل القامة أغنش اليدين والرِجلين أي له أربع وعشرون إصبعاً فهؤلاء الأربعة كانوا من بني الجبابرة في جت. فسقطوا بيد داود وأيدي رجاله، وقتل غيرهم كثيرون ولكن اقتصر الكتاب على ذكر الجبابرة منهم لينبئنا بإذلال داود لهم وانبساط ملكه. وقد ذكر الكتاب

في أثر هذه الوقائع نشيد داود الذي ترنَّم به شاكراً الله على نجاته من أيدي جميع أعدائه وفاتحته: «الرب صخرتي وملجأي ومنقذي». وهو من جملة زبوره وقد أثبته سفر الملوك الثاني في الفصل الثاني والعشرين منه وعدَّد في الفصل الثالث والعشرين أبطال داود وأعمالهم الخطيرة.

عد ٢٧٢

إحصاء داود بني إسرائيل وغضب الرب لذلك

قد شاء داود إحصاء بني إسرائيل. فأمر يواب أن طُفْ في جميع أسباط إسرائيل واحصوا الشعب ولم يكن يواب يصوِّب هذا الإحصاء. فغلب كلام الملك على رأيه ورأي رؤساء الجيش، وخرجوا فطافوا في أرض بني إسرائيل كلها، وعادوا إلى أورشليم بعد تسعة أشهر وعشرين يوماً، فرفع يواب جملة العدد إلى الملك فكان عدد بني إسرائيل عدا بني يهوذا ثماني مئة ألف رجل ذي بأس مخترط سيف ورجال يهوذا خمس مئة ألف رجل؛ هذا ما جاء في سفر الملوك الثاني (فصل ٢٤ عدد ٩). ولكن جاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢١ عد ٥) «فكان إسرائيل كلهم ألف ألف ومئة ألف رجل مخترط سيف، ويهوذا أربع مئة ألف وسبعين رجل مخترط سيف. فأما اللاويون والبنياميون فلم يحصهما بينهم لأنَّ كلام الملك كان مكروهاً لدى يواب». ولا نعلم أي العددين صحيح وأيهما حرَّفه النساخ على غير عمد وقال كلمت في تاريخ العهد القديم: يُظنُّ أنّ التحريف وقع في رواية سفر أخبار الأيام الأول. فأنَّ المذكرات التي أُخذ عنها هذا السفر استمرت مشتتة أياماً طوالاً، ولم يُدوَّن هذا السفر مأخوذاً عنها إلَّا بعد العودة من الجلاء البابلي. ويظهر أنّ عدد بني إسرائيل كان يومئذٍ نحواً من خمسة ملايين من النفوس.

قد أغضب هذا الإحصاء الرب أما لأنَّ مصدره الخيلاء والتكبر، وإما لأنَّ غرض داود منه أن يحدث ضريبة على رأس كل رجل. وأورد يوسيفوس (ك ٧ في تاريخ اليهود فصل ١٠) وجهاً آخر: وهو أنه قد جاء في سفر الخروج (فصل ٣٠ عد ١٢) «إذا أحصيت جملة بني إسرائيل... فليعطِ كل رجل فدى نفسه للرب عندما تحصيهم لئلا تحل بهم ضربة بعد تعدادهم. هذا ما يعطيه كلُّ مَن جاز عليه العدد نصف مثقال بمثقال القدس». وخالف داود هذه الفريضة. فأمر الرب جاد

النبي أن يمضي إلى داود، ويذكّره بإثمه وأن يخيّره ليختار إحدى ثلاث ضربات أما الجوع مدة سبع سنين، أما الهرب أمام أعدائه ثلاثة أشهر، وأما الوباء ثلاثة أيام. وفي الترجمتين السبعينية والعربية «ثلاث سنين مكان سبع». وفي سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢١ عد ١٢) «أما ثلاث سنين جوعاً» في النص العبراني والترجمات فيظهر أنّ الرواية الثانية أصحّ ويرجّحها وجود العدد الثلاثي في الضربات الثلاث. فقال داود: خَطِئت جداً في ما صنعت ولنقع في يد الرب لأنَّ مراحمه كثيرة ولا أقع في يد الناس. فأرسل الرب وباء في إسرائيل، فمات من الشعب سبعون ألف رجل. وصرخ داود إلى الرب قائلاً: أنا الذي خطئت وأما أولئك الخراف فماذا فعلوا؟ فلتكن يدك عليَّ وعلى بيت أبي. ورأى داود ملاك الرب المهلك في الجو فوق بيدر أرونا أو أرون اليبوسي مستلاً سيفه ليدمّر أورشليم والرب يقول له: كفى كفَّ يدك الآن. ووفد جاد على داود يقول له اصعد فأقم مذبحاً، للرب في بيدر أرونا. فصعد داود إلى هناك فخرَّ له أرونا ساجداً، ولما أخبره الملك بما في نيّته قال هوذا البقر للمحرقة والنوارج وأدوات البقر تكون حطباً فأبى داود إلَّا أن يشتري منه فاشترى البيدر والبقر بخمسين مثقالاً من الفضة. وقال فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفح ٤٤٤) أنّ الخمسين مثقالاً من الفضة تساوي الآن مئة وخمسين فرنكاً ولكن سفر أخبار الأيام الأول في المحل المذكور «وأدّى داود إلى أرنان عن المكان ست مئة مثقال من الذهب». والتوفيق بأنه شرى منه البيدر والبقر بخمسين مثقال من الفضة ثم شرى الأرض كلها بست مئة مثقال من الذهب. فأعدَّ داود هناك محل الهيكل الذي أقامه ابنه سليمان، وابتنى ثمة مذبحاً وأصعد محرقات وذبائح. فتعطّف الرب وكفَّ الضربة عن إسرائيل (ملوك ٢ ف ٢٤).

عد ٢٧٣

شيخوخة داود وتمليكه سليمان قبل وفاته

إنَّ مدار ما يأتي من كلامنا إنما هو على ما تضمنه سفر الملوك الثالث. فإنَّ سفر الملوك أو سفر صموئيل الأول اشتمل على أخبار عالي وصموئيل وشاول. والثاني تضمَّن أخبار داود في مدة ملكه. وأما سفر الملوك الثالث فانطوى على أخبار أيام داود الأخيرة، وأخبار سليمان وملوك يهوذا وإسرائيل حتى آحاب. والرابع

على أخبار سائر ملوك يهوذا وإسرائيل إلى الجلاء البابلي. وقد مرَّ أنّ كاتب سفري الملوك الأول والثاني هو غير كاتب الثالث والرابع منها، وللعلماء والمفسرين في كاتب السفرَين الآخرَين أقوال أقربها إلى الصدق، وأشبهها بالصحيح قول كثير من قدمائهم وحدثائهم إنَّ أرميا النبي إنما هو كاتب هذَين السفرَين، واستدلوا على ذلك بالمشابهة التامة لغةً وتصوراً بين هذَين السفرَين، وما كتبه أرميا حتى أنّ خاتمة سفر الملوك الرابع، وخاتمة سفر أرميا واحدة بألفاظهما وحروفهما في أربع آيات قد عزاهما علماء التلمود إلى أرميا (عد ٢٩). فالتقليد القديم ومشابهة أسلوب الكتابة في سفرَيْ نبوّة أرميا ومراثيه بيّنتان وإن غير قاطعين على أنّ كاتب هذه الأسفار واحد (ملخص عن الموجز الكتابي لفيكورو عد ٤٧٣).

قد جاء في فاتحة سفر الملوك الثالث أنّ داود شاخ وطعن في السنّ، وكانوا يدثرونه بالثياب فلم يدفأ، فالتمس له أعوانه فتاة عذراء تسمَّى أبيشاج الشونمية نسبةً إلى شونم وهي شولم الآن في مرج ابن عامر تخدمه، وتضجع معه فتدفئه ولم يعرفها الملك. وطمع أدونيا أحد أبناء داود من امرأته حجيت أم أبشالوم أن يملك مكان أبيه لأنه أكبر إخوته بعد أبشالوم، فترفَّع وسلك مسلك أخيه بأن اتَّخذ له مراكب وفرساناً وخمسين رجلاً يجرون بين يديه. وكان جميل الصورة كأخيه، وكان يواب قائد الجيش وأبياتار الحبر يعاونانه. ولكن كان صادوق الحبر ونبايا بن يوياداع وناثان النبي، وغيرهم من أبطال داود يخالفونه، فأولم ودعا إلى وليمته جميع إخوته أبناء الملك (خلا سليمان) ومريديه. وذبح غنماً وبقراً ومسمنات، وكان إجتماعهم في جانب أورشليم في المحل المسمى قديماً حجر زُحَلَت بجانب عين روجل. قال فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٤١٩): إنَّ هذه العين كانت حيث بئر أيوب الآن. ومعنى روجل في العبرانية الدوَّاس أي من يدوس الثياب برجليه لرحضها. فكأنه كان عند هذه العين مغسل. وكان القصارون يضعون الثياب على هذا الحجر لتيسير غسلها على ما قال بعض الربيين، وقال غيرهم: بل كان هذا الحجر ربيعة تمتحن بإشالته القوي.

وعلِمَ ناثان النبي ما ينوي أدونيا فكلَّم بتشابع أم سليمان مشيراً عليها أن تدخل على الملك، فتخبره ما يصنع أدونيا. وتذكِّره بيمينه أن يجلس سليمان ابنها على عرشه، ووعدها النبي أن يدخل على الملك في إثرها فقصَّ كلاهما على داود ما أجراه أدونيا. فاستدعى صادوق الحبر وناثان النبي وبنايا بن يوياداع وغيرهم من

حاشيته، وأمر أن خُذوا معكم عبيدي وأركِبوا سليمان ابني على بغلتي، وانزلوا به إلى جيحون، وهي عينٌ كانت في محل عين العذراء الآن على ما قال فيكورو في المحل المذكور. فأتوا بسليمان إلى هناك باحتفاءٍ شائق وأخذ صادوق الحبر قرن الدهن من الخباء ومسح سليمان، وهتفوا بالبوق، ونادى جميع الشعب ليحيَ الملك سليمان. وأدخلوه المدينة والأرض تكاد تتصدَّع من أصوات تهلُّلهم. وسمع أدونيا ومدعووه هذه الجلبة، فقالوا: ما هذه الأصوات التي تضطرب منها المدينة؟ ووفد عليهم يوناثان بن أبياتار الحبر وقال: ملَّكَ سيدنا الملك سليمان ومسحه صادوق وناثان النبي. فارتاع أدونيا وجميع مدعويه وذهبوا كلٌّ واحدٍ في سبيله. وأما أدونيا فخاف وانطلق وأخذ بقرون المذبح ونبئ سليمان فقال: إن كان ذا صلاح فلا تسقط شعرة منه على الأرض، وإن وجد به سوء فإنه يموت. وأرسل فأنزله عن المذبح فأتى وسجد للملك. فقال له: إنصرف إلى بيتك (ملوك ٣ فصل ١).

عد ٢٧٤
ما أعدَّه داود لبناء الهيكل والخدمة فيه

أضرب كاتب سفر الملوك الثالث عما أعدَّه داود لبناء الهيكل والخدمة فيه، ولكن أفصح بذكره كاتب سفر أخبار الأيام الأول (من الفصل ٢٢ إلى الفصل ٢٩) فقال بعد ذكره شراء داود أرض أرونا اليبوسي وتقدمته الذبائح على بيدره: إنَّ داود أمر أن يُجمع الأجانب الذين في أرض إسرائيل، وأقام منهم رجالاً لقطع الحجارة. وآخرين لنحتها وتهيئتها للبناء، وجهزَّ مالاً غزيراً ونحاساً وحديداً وخشب أرز كان حلفاؤه الصيدونيون والصوريون أحضروه إليه كثيراً لأنَّه قال إنَّ سليمان ابني صبيٌّ غضٌ، والبيت الذي يُبنى للرب يلزم أن يكون عظيماً في كلِّ الأرض. ودعا سليمان إليه وقال يا بنَّي إنه قد كان في نفسي أن أبني بيتاً للرب غير أنه صار إليَّ كلام الرب أنك قد سفكت دماءً كثيرة وباشرت حروباً عظيمة فلا تبني أنت بيتاً لاسمي فهوذا يولد لك ابن يكون رجل سلام وأنا أريحه، فهو يبني بيتاً لاسمي وهو يكون لي ابناً وأنا أكون له أباً وأقرّ عرش مُلكه. فالآن يا بنيَّ ليكن الرب معك فتفلح، وتبني بيت الرب كما تكلَّم عنك فتقوَّ وتشدَّد. وهأنذا قد جهَّزت لبيت الرب من مذلتي مئة ألف قنطارٍ من الذهب وألف ألف قنطارٍ من الفضة ومن النحاس والحديد ما يفوت الوزن لكثرته.

تذرّع الطبيعيون بفرط عظمة هذه الأموال ليكذّبوا بالكتاب، وتعاموا عن أن يهتدوا إلى وجهٍ لتخريج المسألة على كثرة أوجهها؛ وأولها أننا لا نعلم علم اليقين ما المراد بالقنطار أو الوزنة المترجمة بهما كلمة ككر العبرانية ولا ما تساوي من نقود أيامنا حتى يمكن القطع باستحالة جمع هذه الأموال الغزيرة. ثانيها أن ليس على الله أن يصنع المعجزات بجعله كلَّ ناسخ معصوماً من الخطأ على عمدٍ أو غير عمد. وقد رأينا وسنرى أمثلة لتحريف النساخ بعض الكلام لا سيما في الأعداد منها ما مرَّ من أنّ الفلسطينيين كان لهم ثلاثون ألف مركبة وستة آلاف فارس (ملوك ١ فصل ١٣ عد ٥) مع أنّ أكبر الممالك لم يكن لها مثل هذا العدد من المركبات فأولى أن لا يكون للفلسطينيين على قلة عددهم وضيق بلادهم. ولما كان الكتاب يعبِّر بالفارس غالباً عمن يحارب بالمركبة، وأنبأتنا الآثار المصرية أنّ كلَّ مركبة كانت تقلُّ رجلَيْن، ظهر أنّ الصحيح أنّ مركبات الفلسطينيين كانت ثلاثة آلاف مركبة لا ثلاثين ألف كما أوصل تحريف النساخ الآية إلينا. فأي العجب أن يكونوا حرّفوا عدد قناطير داود من الذهب والفضة. ثالثها أنّ العبرانيين كانوا يعبِّرون عن الأعداد بالحروف كما نصنع بحساب الجمّل أي الحساب بالحروف الهجائية.

وقد أثبت القديس إيرونيموس وكثيرٌ من الربيين، أنه منذ أيام المكابيين كان يعبَّر عن العدد بالحروف وأخذ اليونانيون ذلك عن الفينيقيين أو العبرانيين من أقدم الأيام لأنهم يحسبون بحروفهم كما تلقّوها من الفينيقيين لا بحسب نظامها الذي أدخلوه متأخراً، ذلك كما نحسب نحن بحسب الأصل السرياني لا بحسب نظام أحرفنا العربية الآن، والحروف العبرانية متقاربة الشكل والصورة فتتعسر كثيراً مجّانية الخطأ والتحريف أو التصحيح فيها (ملخص عن الموجز الكتابي لفيكورو عد ٥٠٧). وأزيد وجهاً آخر لم أره في ما لديَّ من كتبهم، ولكن لا بدَّ أن يكون بعضهم ذكره وهو أنّ الكلام في عدد قناطير الذهب والفضة على سبيل المبالغة للتعبير عن قناطير كثيرة على مثال ما ورد متواتراً في الكتاب في وصف الجنود وغيرها، بالكثرة أنها كرمل البحر وعلى مثال ما في الآية المحكى عنها نفسها. «ومن النحاس والحديد ما يفوت الوزن». فاستعمل كاتب السفر أعظم الأعداد أي مئة ألف قنطار من الذهب وألف ألف قنطار من الفضة للتعبير عن كثرتهما الوافرة. وفي لغاتنا الشرقية لذلك أمثلة، ومن هذا الباب قول يوحنا الإنجيلي في آيات المخلّص أنها لو كُتبت واحدةً واحدة لم يسعها العالم صحفاً مكتوبة كما أظن.

وقد سلّم داود إلى سليمان رسم هيكل الرب الذي يبنيه، وما يكون في داخله وخارجه من رواق وغرف ومخادع وخزائن وقال: إنه قد تلقّى كل ذلك من لدن الله ليفهم جميع أعمال الرسم. ثم أمر بإحصاء اللاويين من ابن ثلاثين سنة فما فوق فكان عددهم ثمانية وثلاثين الفاً. فجعل منهم أربعة وعشرين ألفاً يناظرون مناوبةً على بناء الهيكل. وستة آلاف ولاةً وقضاة يفصلون دعاوى الشعب في كلِّ محل. وأربعة آلاف يحرسون مناوبةً أبواب الهيكل وأربعة آلاف يسبّحون للرب على آلات التسبيح، وكان رؤساء المرنمين أساف وهيمان ويدوتون. وكان اللاويون يقفون تحت يد الكهنة في خدمة الهيكل. وقسّم هؤلاء إلى أربع وعشرين فرقة تخدم كل فرقة من نهار السبت إلى نهار السبت الذي يليه. وجعل الكهنة من بني هرون خاصة وقسمهم بالقرعة إلى أربع وعشرين فرقة. فكان منها لذريّة العازر بن هرون ست عشرة فرقة. ولذريّة أيتامار ابنه الثاني ثماني فِرَق. ويظهر من بشارة لوقا (فصل ١)، أنَّ هذا التقسيم استمرَّ معمولاً به إلى أيام المخلّص. إذ نرى ذكريا بُشر بمولد يوحنا عندما بلغت نوبته في وضع البخور. وكان من خصائص الكهنة تقدمة البخور في كل صباح ومساء ووضع خبز التقدمة نحو المذبح وتقدمة الذبائح، وحفظ الموازين والمكاييل في الهيكل إلى غيرها، وكانوا يتناوبون هذه الخدمة كاللاويين كل سبت.

لم يقتصر داود على فرض نظام لخدمة الرب في الهيكل، وعلى تعيين القضاة والولاة بل افترض نظاماً لحرس الملك في بلاطه، ليكون له نحو من ثلاث مئة ألف رجل من أحسن رجال بني إسرائيل يؤدون هذه الخدمة مناوبةً في كل شهرٍ أربعة وعشرون ألفاً تفادياً من مضرّة الخدمة الدائمة بأعمال حقولهم والكسب لعيالهم. وأقام إثني عشر رئيساً من أبطاله يرأس كلٌ منهم الحرس شهراً. ونصب نظاراً لخزائن الملك وخزانة البلاد وقهارمة على حقول الملك وكرومه وماشيته حتى لم يدع شيئاً مهمّا إلّا وفرض له نظاماً سديداً يدهش الاهتداء إليه في تلك الأيام (سفر أخبار الأيام الأول فصل ٢٢ إلى ٢٨).

عد ٢٧٥

وصايا داود لرؤساء الشعب وسليمان ووفاته

وجمع داود جميع رؤساء إسرائيل ورؤساء الأسباط. ورؤساء الفِرق الذين

يخدمون الملك. ورؤساء الآلوف، ورؤساء المئين. والوكلاء على جميع موجودات الملك وأبناءه والخصيان والجبابرة وجميع ذوي البأس إلى أورشليم. وقام الملك على قدميه، خاطباً فيهم، محرّضاً لهم أن يتّقوا الرب، ويحفظوا جميع وصاياه. ومعيداً ما كان قاله لسليمان منفرداً أنه كان في نفسه أن يبني للرب بيتاً، فأوحى إليه أنه رجل حروب وقد سفك الدماء، وأنه اصطفى ابنه سليمان ملكاً فهو يبني بيت الرب. والتفت إلى سليمان وقال وأنت يا ابني فاعرف إله أبيك واعبده بقلبٍ سليم، ونفسٍ راغبة لأنه فاحص القلوب، وخواطر الأفكار إذا طلبته فإنك تجده. وإن تركته فإنه يخذلك إلى الأبد. وأعطاه ذهباً وفضة لعمل آنية الخدمة في الهيكل ثم قال للمجتمعين: إني لرغبتي في بيت إلٰهي لي مال خاص من الذهب والفضة، وهبته لبيت إلٰهي علاوةً على ما أعددته له ثلاثة آلاف قنطار ذهب من ذهب أوفير. وسبعة آلاف قنطار فضة مصفاة لتصفيح جدران البيت، وحينئذٍ تطوّع رؤساء الآباء والأسباط وسائر الرؤساء. وأدّوا لخدمة بيت الله خمسة آلاف قنطار وعشرة آلاف درهم من الذهب، وعشرة آلاف قنطار من الفضة، وثمانية عشر ألف قنطار من النحاس، ومئة ألف قنطار من الحديد، والذين عندهم حجارة كريمة أدوها لخزانة بيت الرب. وبارك داود الرب أمام كل الجماعة، ودعا لهم ولسليمان فخرّ الجماعة وسجدوا للرب وذبحوا ذبائح، وأصعدوا محرقات، وأكلوا وشربوا بفرحٍ عظيم، ومسحوا سليمان ثانيةً ملكاً على إسرائيل، وجلس على عرش أبيه (سفر أخبار الأيام الأول فصل ٢٨ ٢٩). راجع ما ذكرناه في العدد السابق عن عدد هذه القناطير.

ولما دنا يوم وفاة داود أوصى ابنه سليمان أن يتشدّد ويحفظ وصايا الرب ويعمل برسومه، وشهاداته على ما هو مكتوب في توراة موسى ليفلح في كل ما يعمل، وحيثما توجّه ثم قال إنك تعلم ما صنع بي يواب ابن صروية بقتل أبشالوم وأبنير بن نير، وعماسا بن ياتر فاصنع به بمقتضى حكمتك، ولا تدع شيبته تنزل إلى الجحيم (القبر) بسلام، وعندك شمعي بن جيرا الذي لعنني يوم إنطلقت إلى محنائيم. ثم نزل إلى لقائي عند الأردن فأمنته. وأما الآن فلا تُبرئه فأنك رجلٌ حكيم، وأنزِل شيبته بالدم إلى الجحيم. إنَّ يواب كان قديراً نفاذ الكلمة في الجيش والبلاد، فأغضى داود سياسة على سفكه غدراً دم قائدَين بريئَين هما أبنير وعماسا، وقتله أبشالوم خلافاً لنهي الملك عنه فكان العدل يوجب عقابه، وقرائن الحال لا تمكّن داود منه. فأجلّه إلى زمان، ولما رأى دنّو المنون أوصى سليمان أن يقتص منه

عما جنت يداه ويتمّم فرض العدالة بجزائه. وكذلك شمعي فإنه لم يلعن الملك فقط بل رماه بالحجارة وهو منهزم من وجه ابنه فأمّنه عند استغفاره ولم يشأ قتله حينئذٍ لأنه كان يوم إنتصار من قِبَل الرب ورعايةً لمقتضيات الحال فترك له جريمة الإهانة لشخصه. ولم يسقط حق الحكومة على جزائه بل أجلّه إلى وقتٍ أكثر ملائمة فلم يتسنَ له في حياته فأوصى به ابنه عند مماته.

وأوصاه أن يصنع الخير والمعروف إلى ابناء برزلاي الجلعادي، وأن يكونوا من الآكلين على مائدته، لأنَّ أباهم أحسن الصنيع إلى داود عند هربه إلى محنائيم (محنة) من وجه أبشالوم. وأضاف الملك وحاشيته وقد رافقه أبناؤه عند عوده إلى أورشليم. وبعد أن أوصى داود الملك العادل الصالح ابنه أن يعاقب من ساء ويثيب من أحسن أضجع مع أبائه. فدفنه ابنه سليمان بعظيم الاحتفاء والاجلال في مدينة داود.

وقال بطرس الرسول في خطبته إلى اليهود (أعمال الرسل فصل ٢ عد ٢٩): إنَّ قبره كان باقياً عندهم إلى أيامه. وقد مَلِكَ داود أربعين سنة سبعاً منها في حبرون (الخليل)، وثلاثاً وثلاثين في أورشليم، وفي سنة بدء مُلكه وتمليك ابنه سليمان خاف فقال لانرمان: ابتدأ مُلك داود سنة ١٠١٢ ق.م. وانتهى سنة ٩٧٣ق.م وقال كلمت ملك سنة ١٠٥٠ ومات سنة ١٠١٠ وقال الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٤٢٠ و ٤٤٢) إنَّ القول الذي يسلّم به جمهور العلماء إنما هو أنّ داود ملك سنة ١٠٥٥ ق.م ومات سنة ١٠١٥ فملك سليمان إلى سنة ٩٧٥ وسوف نستأنف الكلام في هذا الشأن.

قد كتب داود الزبور والأظهر أن ليس كلها له بل كتب بعضها أساف وهيمان ويدوتون. بدليل أنّ بعض الزبور علّق عليها اسم كاتبها وبعضها جاء فيه ذكر سبي بابل، فلا يمكن أن يكون لداود وللمرنمين المذكورين لأنهم كانوا قبل سبي بابل بقرون. وروى يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ٧ ف ١٢) إنَّ سليمان دفن مع جثة أبيه أموالاً غزيرة. وأنه لما حاصر أنطيوخوس بن دمتريوس أورشليم فتح هركان عظيم الأحبار مدفن داود فأخذ منه ثلاثة آلاف وزنة ذهب دفع بعضها إلى الملك فرفع الحصار عن أورشليم. وأنَّ هيرودوس استخرج بعد ذلك مقداراً من المال من جهةٍ أخرى من مدفن داود. فقد يمكن أن يكون يوسيفوس تلقى هذا الخبر عن مذكرات تقليد شفاهي ولكن لا يمكن القطع بصحته.

الفصل الرابع عشر

سليمان

عد ٢٧٦
بواكير أعمال سليمان

معنى سليمان ذو السلم والسلامة سُمي به لأنه وُلد لأبيه من بتشابع في مدة السلم والراحة التي عقبت محاربة داود للعمونيين وهو بمعنى فريدريك عند الألمان وإيريناوس عند اليونان. وكان عمر سليمان يوم مَلِكَ عشرين سنة. وقد حباه الله بأحسن الأخلاق الطبيعية والمعنوية. وجمع في باكورات أعماله بين الذكاء والسطوة. فأمال قلوب شعبه وغيَّرهم إلى محبته وأهابته. فقد زاحمه أخوه أدونيا على الملك وكانت عادات ملوك آسيا في مثل ذلك تقضي بقتل من غُلب كلفاً باستتباب الراحة في المملكة. أما سليمان فقد عفا عن أخيه على شريطة أن لا يصنع سوءًا وأن ينكف عن مطمعه فعاد يمنّن قائلاً: إنَّ حقَّ الملك له ويطلب بعد وفاة أبيه أن يتزوج بأبيشاج الشونمية مدفئته متعمداً تقوية دعواه، وإكثار محازبيه بهذه الذريعة. ولجأ في مطلبه إلى أم الملك حتى إذا أذعن ابنها لها نال أدونيا ما يبتغي وان ردَّ سؤالها أوقع فتوراً بينهما. فتدارك سليمان الأمر بحكمته فاسترضى أمه برقة كلامه إذ قال لها ما بالك تطلبين له أبيشاج؟ أطلبي له الملك لأنه أخي الذي هو أكبر مني. وأرسل على يد بنايا بن يوياداع فبطش به كيلا يواصل مساعيه الخبيثة ويقلق الراحة فمات.

وإذا راعينا عادات أيامهم لقينا معذرة لقتل سليمان أخاه، ووجدنا مثلاً لذلك في تلك الأيام منها ما أنبأتنا به الآثار الآشورية أنّ آشور بانيبال ملك آشور أهلك أخاه سولموجينا. ومن الآثار الهندية صورة الملك أوتنك زايب جالساً على عرشه يحدِّق به رجال دولته وأحد أعوانه يطرح بين يديه رأس أخيه المسمى دارا شروك مقتولاً بأمره.

ثم عزل سليمان أبياتار الحبر عن كهانة الرب لأنه كان محازباً لأدونيا. وقد قال له الملك: انصرف إلى عناتوت إلى حقولك فإنك رجل مستحق الموت لكنني لست أقتلك اليوم لأنك حملت تابوت الرب بين يدَي أبي، وعانيت كل ما عاناه. وعناتوت هي المسماة اليوم عيناتا على ثلاثة أميال في الشمال الشرقي من أورشليم (كتاب أعلام الأماكن الكتابية. وكاران نقلاً عن أوسابيوس والقديس إيرونيموس ويوسيفوس). وبقي صادوق وحده عظيم الأحبار كما كان عظيم الأحبار أبداً واحداً إلّا في مدة داود إذ قضت عليه أحوال أيامه أن يكون للأحبار رئيسان أبياتار وصادوق.

ونمى الخبر إلى يواب فخاف لأنه كان قد حازب أدونيا وتذكر قتله أبنير وعماسا. وهرع إلى خباء بيت الرب، وأخذ بقرون المذبح فأرسل الملك إليه بنايا بن يوياداع فقال له: أمر الملك أن تخرج من هنا فقال كلاًّ، ولكن ههنا أموت فعاد بنايا، وأخبر الملك بما قال. فأجابه سليمان: إفعل به ما قال وأبطش به وأدفنه. واصرف عني وعن بيت أبي الدم الذكي الذي سفكه دم أبنير وعماسا اللذّين قتلهما عامداً، وفي حين سلم وعلى غير علم أبي وليردد الرب دمهما على رأسه ورؤوس ذريته. فانطلق بنايا وقتله ودفنه في بيته في البرية، وعهد الملك بقيادة جيشه إلى بنايا. لقد عُني بعض مفسري الكتاب بتبرئة سليمان وبنايا من الإثم لقتل يواب في جانب المذبح مستمسكين بأنَّ المذابح في تلك الأيام كانت تقدم عليها الذبائح الدموية لله خلافاً لمذابحنا في العهد الجديد. وقتل الأثيم محرقة لله فلا حرج على سليمان ولا على بنايا بقتله هنالك وأوجب غيرهم الإثم عليهما لأنَّ السنَّة حظَّرت ذلك، وكان للملك أن يقيم خفراً ينتظر خروج يواب ليقتله وقال لم يكن سليمان أعطى بعد الحكمة من الله ففرط منه الأمر بقتل يواب آخذاً بقرون المذبح كما أقدم بعداً على ما هو شرّ من هذا الاثم، (ملخص عن كسبردوس سنكتيوس في تفسير أسفار الملوك عن طبعة الأب مين). وقد استدعى سليمان شمعي الذي كان لعن داود وهو من بحوريم (قرية أبي ديس الآن) وأمره ان يبني بيتاً في أورشليم ولا يخرج خارج المدينة، واستحلفه على ذلك فحلف عل أنه أي يوم خرج يموت موتاً. واتفق بعد ثلاث سنين أن أبقى له عبدان إلى أكيش ملك جت (ذكرين)، فخرج في طلبهما وأتى بهما فخبّر سليمان بخروجه وعودته فاستدعاه وذكّره بيمينه للرب وبما فعل بداود أبيه، وأمر بنايا بن يوياداع فقتله.

عد ٢٧٧

زواج سليمان بابنة فرعون

قد استقر المُلك في يد سليمان ومات مخالفوه. وأخذ الروع بمحالفيهم كل مأخذ، واستتبت الراحة واستفحل أمره. وكانت المملكة التي أورثه أبوه إياها فسيحة الأرجاء كثيرة الشعوب تمتد من الفرات إلى تخوم مصر. وعمّت صولته بلاده فشاء أن يكون في مأمن من سطو الخارجين، فحالف فرعون ملك مصر. وتزوج ابنته. وأما من كان فرعون هذا ومن أية دولة هو؟! فقال مسبرو (كتاب تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ٣٣٣ و ٣٥٦ طبعة ٤) إنه بسيناكس الثاني أحد ملوك الدولة الحادية والعشرين. وقد أثبتت الآثار المصرية أنّ هذه الدولة كثُر فيها التنازع على المُلك. ولذلك كان ملوكها يحتاجون إلى محالفات مع الأجانب فسُرَّ فرعون بزواج ابنته بسليمان كما سُرَّ العبرانيون بأن يصاهر ملكهم فرعون بعد أن كانوا أسرى لدولته. وبين المفسرين خلاف في ما إذا كان مثل هذا الزواج مخالفاً لسنّة موسى أو مباحاً بها وأكثرهم على سنّة موسى لم تحظّر على العبرانيين إلّا التزوج بالكنعانيات، وإباحته بغيرهنَّ من الأجنبيات. وقال بعضهم: قد تكون الأميرة المصرية تهودت، ولا أثر للعبادة المصرية الوثنية في فلسطين منذ تلك الأيام على أنّ دي سولسي قال (في كتاب رحلته حول البحر الميت) إنه اكتشف معبداً مصرياً في القرب من أورشليم كان سليمان قد بناه لإمرأته بنت فرعون. وقال الأب فيكورو (في المحل المذكور صفحة ٤٢٦) نرى حجة تثبت مقال دي سولسي بل نرى هذا المعبد أحدث نشأة من ذلك العصر.

كان من عادة الملوك أن يعطوا بناتهم عند زواجهنَّ مهراً وافراً فلا علم لنا بما أتت به ابنة فرعون إلى سليمان صداقاً. وقد كُشف في مصر آثار منبئة بعقود زواج فإذا هي حاوية غالباً ذكر أملاك عديدة أُعطيتها المرأة عند زفافها. على أنه جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ١٦) استطراداً ذكر شيء من مهر بنت فرعون إذ قيل إنَّ فرعون صعد إلى جازر وأخذها وأحرقها وقتل الكنعانيين المقيمين فيها. ووهبها مهراً لابنته زوجة سليمان. وأما موقع جازر هذه فقد مرَّ (عد ٢٧١) نقلاً عن كتاب الأعلام الكتابية إنه كان في المحل المسمى اليوم تل جازر على اربعة أميال غرباً من عمواص. وقال فيكورو (في المجلد المذكور صفحة ٤٢٨) فيها إنَّ

موقعها استمر إلى سنة ١٨٧٠م نكرة لا تُعرف إلى أن كشف عنه كارمون كانو مهتدياً إليه بما جاء في كتاب تاريخ القدس وحبرون لمجير الدين. وقد وُجد ثمة خطوطاً بالعبرانية واليونانية تصرِّح باسمها جازر وهي على خمسة كيلومترات عن خلدة قبالة القرية المسماة الآن أبوشوشة على يمين المسافر من يافا إلى أورشليم. وهناك أطلال دالة على أنه كان ثمة مدينة محصنة. وتعريف فيكورو لها لا يخالف وضعاً تعريف كتاب الاعلام الكتابية لموقعها، فقد عرفها فيكورو بما في جنوبها وهو خلدة وفي شمالها وهو أبوشوشة وعُرفت في الكتاب المذكور بما في شرقها وهو عمواص.

عد ٢٧٨

حكمة سليمان وقضاؤه بين المرأتين البغيين

قال الكتاب (ملوك ٣ فصل ٣ عد ٣): «وأحب سليمان الرب سالكاً على سنن داود أبيه لكنه كان يذبح ويقتّر (أي يقدم البخور) على المشارف». وبين المفسرين خلاف في ما إذا كان سليمان اثم في ذبحه وتقتيره على المشارف أو لم يأثم. فبرَّأ بعضهم ساحته من الإثم سنداً إلى أنّ داود وإليّا وغيرهما ذبحوا ذبائح لله في غير بيت الرب. وأنه قبل بناء بيت الرب لم تكن السنَّة الآمرة بتقدمة الذبائح فيه ملزمة. وأوجب بعضهم الإثم عليه لأنَّ السنَّة صرَّحت بخطر مثل ذلك إذ قيل (تثنية ف ١٢ ع ١٣): «إحذر أن تُصعد محرقاتك في أي موضع رأيته إلَّا في الموضع الذي يختاره الرب». (ملخص عن سنكتيوس في تفسير هذه الآيات). وليس الأمر كذلك في ما ذكره الكتاب بعد الآية السالفة «وانطلق الملك إلى جبعون (الجب) ليذبح هناك لأنّها هي المشرف الأعظم. وأصعد سليمان ألف محرقة على ذلك المذبح». فقد جاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٢١ عد ٢٩): «إنَّ مسكن الرب الذي عمله موسى في البرية ومذبح المحرقة كانا في ذلك الوقت في مشرف جبعون». ولا يعلم متى نقل خباء المحضر إلى جبعون.

فقد مرَّ أنّ داود نقل تابوت العهد من قرية يعريم (أبي غوش) إلى أورشليم. ويظهر من هذه الآية أنّ الخباء ومذبح النحاس اللذين صنعا في البرية كانا يومئذٍ في جبعون، ولذلك تقبّل الرب ذبائح سليمان وتجلّى له في الحلم ليلاً وقال له أُطلب ما

أعطيك، فلم يطلب إلّا حكمةً وفهماً ليحكم حكماً مستقيماً بين الشعب الذي ألقى الرب أزمته إليه. فحسن هذا الطلب في عيني الرب وقال بما أنك لم تسأل أياماً طوالاً ولا غنى ولا نفوس أعدائك بل سألت حكمةً لتفقه الحكم. فهأنذا معطيك قلباً حكيماً فهماً حتّى أنه لم يكن قبلك مثلك ولا يقوم بعدك نظيرك. وما لم تسأله أعطيتك إياه الغنى والمجد أيضاً وإن حفظتَ وصاياي كداود أبيك أطيل أيامك. وعاد سليمان إلى أورشليم وأصعد فيها أيضاً محرقات وذبائح وعمل مأدبة لجميع عبيده.

قد أبرز سليمان ذلك القضاء المشتهر بين امرأتَين بغيّين كانتا تسكنان بيتاً واحداً، وولدت كل واحدة منهما ابناً فمات ابن إحداهما لأنها أضجعت عليه فوضعته في جانب الأخرى، وأخذت ابنها الحيّ. ولما استيقظت هذه عرفت أنّه ليس ابنها وأخذت كلٌّ منهما تدّعي الابن الحيّ أمام سليمان فقال: عليّ بسيفٍ فأتوا به فقال: اشطروا هذا الولد الحي واعطوا كلاً منهما شطراً. فقالت أمه لا يا سيدي أعطوها الصبي حياً ولا تقتلوه. وقالت الأخرى بل اشطروه فلا يكون لا لي ولا لكِ. فقال الملك: إدفعوا الولد للأولى لأنها أمه، فسمع جميع إسرائيل هذا القضاء فهابوا وجه الملك لأنهم رأوا حكمة الله فيه.

إنَّ إحكام سليمان سياسة مملكته زاد في محبة شعبه له، ومكَّن علاقاته مع محالفيه. وأراع مخالفيه فرقَّته حكمته ذرى المجد والمهابة. فشاول قلَّ ما صنع لنجاح مملكته فلم يكن له أعوان ولا اتخذ جنوداً مستمرين في الخدمة إلَّا عدداً يسيراً ولم يجعل لنفسه مركزاً ثابتاً. وكان إذا فرغ من مهام مملكته انقطع إلى الإهتمام بحقوله ولم يفرض ضريبة ولا جزية على شعبه. وداود أكسب المُلك رونقاً ونظاماً وأقام الجندية ووضع أصولاً للسياسة. ورتَّب الخدم الدينية . وجعل أورشليم عاصمة لملكه فكانت بمنزلة القلب من جسم الأمَّة. ويُرجَّح أنه لم يفرض ضرائب ولا جزية على الشعب، وكانت نفقاته من ريع أملاكه وماشيته. ومن الغرامات الحربية التي كان يكره عليها من استظهر عليهم. وأما سليمان ففاق أباه وجميع ملوك أمَّته بحكمته وتدبير مملكته. وعظمت سطوته وصولته وغناه وكثرة آثاره وفخامتها.

عد ٢٧٩

هيئة حكومة سليمان وموارد دخله ونفقاته

كانت دولة سليمان مؤلفة من موظفين في بلاطه وعمال في جهات البلاد. فكان عزريا بن صادوق الحبر رئيساً للموظفين في البلاط واليحورف وأحيا كاتبي أسرار الملك ويوشافاط بن أحيلود مسجلاً كما كان في أيام أبيه. وبنايا بن يوياداع رئيساً على الجيش. وكان أبياتار الحبر حالف أدونيا فاضطر أن يعزله من منصبه. وبقي له لقب حبر ولكن كان صادوق وحده قائماً في منصب الحبرية ورئاسة الدين. وعزريا بن ناثان أخي سليمان رئيس العمال في الجهات. وأخوه زابور نديم الملك ومستشاره. واحيشار قيم بلاطه وأدونيرام على الخراج. وكان للملك جنود كثيرون، وكانت مملكة سليمان منقسمة إلى اثنتي عشرة ولاية وله فيها إثنا عشر والياً أو عاملاً. أخص فروض هؤلاء الحكام جباية الجزيات. واستيفاء الأموال الأميرية. وكانت هذه الضرائب تؤخذ عيناً أي يؤخذ قسم من الغلال كما يؤخذ في هذه الأيام من غلال الأرض السلطانية. وقد اكتُشفت في هذا العصر آثار كثيرة آشورية يتبيَّن منها أنّ الضرائب كانت تؤخذ عيناً من الغلات والماشية ونتاجها. وكذلك كانت العادة في مصر فقد قال مسبرو (التاريخ القديم لشعوب المشرق صفحة ١٩ طبعة ٤) إعتماداً على آثار مصرية: «إنَّ الأهلين كانوا يعطون الملك وعماله الضرائب عيناً بحسب غناهم. وكان توزيع ذلك يستلزم إحصاء النفوس ومساحة الأرضين بتواتر». وكان على ولاة الأعمال الإثني عشر أن يقدِّم كلٌّ منهم ميرة (مصروف الطعام) للقصر الملكي شهراً في كل سنة.

وكان لسليمان موارد أخرى للدخل منها التقادم التي اعتادوا رفعها إلى الملوك عند تبوّئهم العرش كما يظهر من سفر الملوك الأول (فصل ١٠ عد ٢٧). حيث ورد أنّ مخالفي شاول «ازدروه ولم يقدّموا له الهدايا» وقد مرَّ معنا ذكر ذلك. ثم في آونة الحرب كما يظهر من السفر المذكور (فصل ١٦ عد ٢٠) إنَّ يسَّى بعث مع ابنه داود إلى شاول عند حربه مع الفلسطينيين «خبزاً وزق خمر وجدياً». ثم لدى المثول أمام الملك كما يتبيَّن من سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٥) حيث قيل: «وكان كل واحد يأتيه (أي يأتي سليمان) بهداياه من آنية فضة وآنية ذهب. ولباس وسلاح وأطياب وخيل وبغال في كل سنة». وكانت لسليمان ضرائب بطريق

المكوس على البضائع والسلع التي يؤتى بها إلى بلاده أو تمر بها. فقد جاء في الفصل المذكور (عد ١٥): «غير الوارد من المكاسين ومن تجارة التجار وجميع ملوك العرب وولاة الأرض». هذا خلا الجزيات التي كان يضربها على الولاة الأجانب الخاضعين له وعدا إحتكاره بعض صنوف التجارة كالذهب والخيل كما هو بيِّن من سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ٢٧ وفصل ١٠ عد ٢٨).

وأما نفقاته فقال فيها الكتاب (فصل ٤ عد ٢٢ وما يليه) وكان طعام سليمان في كل يوم ثلاثين كرّاً من السميذ وهو لباب الدقيق. وستين كرّاً من الدقيق وعشرة ثيران مسمنة وعشرين ثوراً من المرعى. ومئة من الشآه هذا غير الأيائل (جمع أيل) والظباء واليحامير (جمع يحمور وهو حمار الوحش أو طائر) وسمان الطير. والكرّ يساوي كيلو غرام و ٢٣٠ غراماً. فقال بعضهم إنَّ هذه الميرة تكفي لقوت ثلاثين ألف نفس. وقال غيرهم إنها كافية لثمانية وأربعين ألفاً أو لأربعة وخمسين ألفاً من النفوس. وقال الأب فيكورو (المجلد المذكور صفحة ٤٣٨): والأظهر إنها لا تموّن إلّا أربعة عشر ألف نفس. والراجح أنّ الجنود كانوا ينفقون على أنفسهم لا سيما أنهم لم يكونوا يتجندون إلّا شهراً في كل سنة بحسب النظام الذي فرضه داود. وليست هذه النفقات كثيرة على قصر ملكي في المشرق.

فقد روى ثقات أنّ ملوك الفرس في تلك الأيام كانوا ينفقون كل يوم ألف ثور. وروى تافرينا (في مقالته الموسومة بداخل قصر السلطان المطبوعة في باريس سنة ١٦٧٥ م) إنه كان ينفق في القصر خمس مئة خروف كل يوم. «وكان لسليمان أربعون ألف مزود لخيل مراكبه وإثنا عشر ألف فارس». كذا في سفر الملوك الثالث (فصل ٤ عد ٢٦). ولكن جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٩ عد ٢٥): «وكان لسليمان أربعة آلاف مزود لخيل المراكب وإثنا عشر ألف فارس فأقامهم في مدن المراكب وفي أورشليم». فكانت آية سفر الملوك هذه وسيلة لتنديد فولتر وتهكمه بالكتاب وأخطأ معنى اللفظ اللاتيني Praescpia ففهمه بمعنى مربط لا بمعنى مزود أي معتلف أو معلف كما هو في الأصل العبراني. وفرض في كل مربط عشرة أفراس فكان مجموع خيل سليمان على زعمه أربع مئة ألف فرس. وجعل الإثني عشر ألف فارس إثني عشر ألف مربط فكوّن منها مئة وعشرين ألف فرس فكان المجموع خمس مئة ألف وعشرين ألف فرس. سخر من الكتاب بذكرها قائلاً: هذا كثير على ملك لم يحارب على أنه إذا فهم كلام الكتاب بمعناه

الصحيح وبحسب النص العبراني أي أربعين ألف مزود أو معلف فلا يكون لسليمان إلّا أربعين ألف فرس. وهذا ليس بالكثير على مثله ولو أضفنا إليه إثني عشر ألف فرس لأثني عشر ألف فارس.

وقد كان عسكره منذ أيام أبيه زهاء ثلاث مئة ألف رجل فيكون لسدسهم فقط أفراس لكن المحققين من العلماء والمفسرين أثبتوا أنّ العدد الوارد في سفر الملوك زلة قلم من النساخ. وصوابه أربعة آلاف مزود كما في سفر أخبار الأيام ويؤيده أنه جاء في الكتاب أنّ سليمان كان له ألف وأربع مئة مركبة فالأربعة آلاف فرس لا تزيد على ما يلزم لها. وقد رأينا وسنرى أمثلة كثيرة لزلات أقلام النساخ طالع ما ذكرناه في عد٢٧٤. (ملخص عن دوكلو في تفسير الآيات المذكورة في طبعة الأب مين).

عد ٢٨٠

محالفة سليمان لحيرام ملك صور وأخشاب الأرز

لم يُعنَ سليمان بنظام مملكته في الداخل فقط بل حرص على حفظ علائق الوداد مع أصدقاء أبيه وحلفائه في خارج المملكة، فجدد مع حيرام الثاني ملك صور ما كان بينه وبين داود من التحالف والتحاب. وقد مرَّ في مقالة الفينيقيين عد ١١٧ ما كان سليمان وحيرام من المراسلات. وكان حيرام أرسل إلى داود أخشاباً من الأرز لم يرها سليمان كافية لبناء بيت الرب فأرسل يقول لحيرام قد علمت إنَّ داود أبي لم يقدر أن يبني بيتاً للرب إلٰهه بسبب الحروب التي أحاطت به وقد أراحني الرب من كل الجهات، فنويت أن أبني هذا البيت، فمُر بأن يُقطع لي أرزٌ من لبنان وعبيدي يكونون مع عبيدك، وأجرة عبيدك أؤديها كما تحب. ففرح حيرام بكلام سليمان وأجابه إنه سيتم كل مرضاته في خشب الأرز وخشب السرو، وإنَّ عبيده ينزلون ذلك من لبنان إلى البحر. فيجعله أطوافاً في البحر إلى الموضع الذي يسميه سليمان له. وإنَّ ما يرضيه إنما هو أن يرسل سليمان إليه بعض المون، فكان حيرام ينزل الأخشاب من الجبل إلى جبيل ويرسلها أطوافاً إلى يافا.

وهذا مؤذن بأنَّ أشجار الأرز كانت في جبال بلاد جبيل أيضاً لا في جبّة بشري وحدها كما هي الآن، وإلّا لزم شحنها من طرابلس إلى البترون لا من

جبيل؛ وكان سليمان يرسل إلى حيرام كل سنة عشرين ألف كرّ من الحنطة، وعشرين ألف كرّ من زيت الرضّى وقد مرَّ أنّ الكر يساوي ٣٣٨ كيلو غرام و٢٣٠ غراماً. وزاد في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢ عد ١٠) عشرين ألف كرّ من الشعير، وعشرين ألف بتّ من الخمر، والبتّ مكيال أو إناء متعارف عندهم. وسخَّر سليمان من بني إسرائيل ثلاثين ألف رجل لقطع الأخشاب من لبنان مع رجال حيرام. وكانوا يتناوبون العمل فيمضي عشرة آلاف رجل منهم فيقيمون في لبنان شهراً وفي بيتهم شهرين. وقد كان لهؤلاء المسخرين طعامهم كما كان لرجال حيرام.

كان لخشب الأرز عند الأقدمين منزلة عليا لصلابته ونصاعة لونه، وذكاء رائحته، وندرة وجوده. حتى كان ملوك مصر وآشور وغيرهم يتباهون به في قصورهم. وقد أنبأتنا خطوطهم الهيروكليفية والمسمارية أنهم كثيراً ما استأتوا من هذه الأخشاب من لبنان أو جعلوها جزية على أهله. بل وُجدت أطلال قصورهم قطع عديدة منها تحملت كرور القرون الكثيرة عليها وهي سالمة لم يعرُها فساد ولم ينخرها سوس.

وروى العالِم لايرد في كتابه في نينوى وبابل، أنه بين كان يحفر في أخربة قصر آشور نزيربال في نمرود وكان البرد شديداً. أصلى عمَلَته ناراً ليصطلوا، وألقوا فيها قطع خشب كانوا وجدوها في تلك الأخربة، فدلَّته رائحتها على أنها من خشب الأرز. فتكون حفظت رائحتها على كرور ثلاثة آلاف سنة عليها. وقد نُقِلَ بعض هذه الاخشاب إلى المتحف البريطاني وصقل بعضها فظهرت ألوانه زاهية. وروى سميث في تاريخ آشور بانيبال إنّه كُتِبَ على أثر لهذا الملك أنّه اعتمد بناء قصره على أرز لبنان. وقال شباس (في كتابه الموسوم بدروس القدم صفحة ١٢٧): إنَّ المصريين قبل أيام ابراهيم كانوا ينقلون الأخشاب للبناء من شواطئ فينيقية إلى مصر. وقد كُتِبَ على صفيحة في متحف اللوفر أنّ أمانيسانب كان مأموراً أن يزيِّن مذابح هيكل أبيدوس بخشب الأرز. وكانوا يستعملون هذا الخشب في مصر لعمل كثيرٍ من الآنية ولعمل توابيت الموتى.

وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢ عد ١٧ و ١٨) أنّ سليمان أحصى جميع الاجانب الذين في أرض إسرائيل فكانوا مئة وخمسين ألفاً وثلاثة آلاف

وست مئة رجل، فأخذ منهم سبعين ألف حمّال. وثمانين ألف قطاع في الجبل. وثلاثة آلاف وست مئة يناظرون على عمل القوم. وإذا نظرنا إلى حالة تلك الأيام وصعوبة النقل فيها لعدم وجود آلات عصرنا لم نستعظم عدد المئة والثلاثة والخمسين ألفاً الذين أعملهم سليمان في قطع أخشابه، وحجاره ونقلها من الجبل إلى جبيل. ومن يافا إلى أورشليم. ومن محل الحجارة إلى موضع الهيكل. ولو أضفنا إلى هؤلاء الثلاثين ألفاً الذين سخّرهم سليمان من بني إسرائيل.

فقد روى هيرودت أنّ هرم كابوس في مصر لزم لبنائه عمل مئة ألف رجل في مدة عشرين سنة. وروى بلين إنَّ رعمسيس لزمه عشرون ألف رجل لنصب مسلة. وقد زعم بعض المفسرين منهم كلمت إنَّ حجارة الهيكل قُطعت من جبل لبنان أيضاً لقول الكتاب يقطعون في الجبل لكن الإكتشافات الحديثة حققت أنّ ما بقي من حجارة الأساس إلى اليوم مقطوع من المقاطع المسماة الملكية الكائنة في جبل بيت زيتا من ضواحي أورشليم. فيلزم أن تكون حجارة سائر البناء كذلك فالمراد بالجبل إذاً جبل بيت زيتا لا جبل لبنان. ولا يُعلم كم كان عدد الفينيقيين الذين كانوا يعملون في هيكل سليمان. ولكن الظاهر أنّ كثيراً من البنّائين والنحّاتين كانوا من جبيل لذكر الكتاب لهم ذكراً مخصوصاً إذ قال: «نحتها بنّاؤو سليمان وبنّاؤو حيرام والجبليون» أي الجبيليون وقد شهد حزقيال (فصل ٢٧ عد ٩) بمهارتهم.

عد ٢٨١

هيكل سليمان وأولاً في سنة بنائه

جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٦ عد ١): «وكان في السنة الأربع مئة والثمانين لخروج بني إسرائيل من مصر، في السنة الرابعة من مُلك سليمان على إسرائيل في شهر زيو وهو الشهر الثاني إنه بنى بيت الرب». كذا في النص العبراني وفي الترجمة اللاتينية المعروفة بالعامية، وفي الترجمات الكلدانية والسريانية والعربية. وأما الترجمة السبعينية ففي نسخها المخطوطة التي في المكتبة الواتيكانية وفي مكتبة كمبريديج. «في السنة الأربع مئة والأربعين». وتابعتها على ذلك الجامعة (الكتاب المقدّس بعدة لغات) التي طُبعت في إنكلترا، ولكن في نسخها التي كانت عند الكاردينال كسيمانس وغيرها «السنة الأربع مئة والثمانين»،كما في النصّ العبراني. وتابعها على ذلك من طبعوا جامعتَي انفرس وباريس. وقال يوسيفوس (في ك ٨

فصل ٢ من تاريخ اليهود) إنَّ تلك السنة كانت السنة ٥٩٢ للخروج. وسنة ١٠٢٠ بعد خروج ابراهيم من أور الكلدانيين. وسنة ١٤٤٠ بعد الطوفان. وسنة ٣٢٠٢ لخلق العالم. فيوسيفوس ممن قالوا: إنَّ سني العبودية في مصر لم تكن إلَّا مئتين وخمس عشرة سنة كما مرَّ في عد ٩٤. ولم يقرّ على رأي في هذه الأعداد فلا يُعتدّ بها.

ان آية سفر الملوك هذه كبيرة الأهمية ولا سيما لكشفها عن عداد السنين التي مرّت من وفاة موسى إلى ملك شاول على بني إسرائيل. وقد اعتاص حصر هذه السنين على المفسرين والعلماء لعدم حصر سني القضاة كما مرّ؛ فإذا جُعل عدد الأربع مئة والثمانين سنة اساً لحساب السنين من الخروج إلى بناء الهيكل، وحُطَّ منه ما صرّح الكتاب به وهو أربعون سنة، مدة إقامة بني إسرائيل في البرية، وخمسٌ وعشرون سنة مدة قيادة يشوع بن نون لهم، وأربعون سنة مدة مُلك شاول، وأربعون سنة مدة مُلك داود وأربع سنين من مُلك سليمان قبل الشروع في بناء الهيكل، كانت مدة القضاة من موت يشوع إلى مسح شاول ملكاً ثلاث مئة وإحدى وثلاثين سنة بحسب الجدول الذي وضعناه في عد ٢٢٦. وقد وضع الأب فيكورو (الموجز الكتابي عد ٤٥٠) جدولاً آخر، أبان به هذه السنين، وبجانبها السنين التي بعد الخروج إلى الهيكل. فآثرنا تلخيصه تكثيراً للفوائد وتكملةً لما ذكرناه في العدد المذكور ولإفتراضه أن الشروع في بناء الهيكل كان سنة ١٠١٢ ق.م كان الخروج عنده سنة ١٤٩٢ بعد حط ٤٨٠ سنة المذكورة.

سنة ق.م	سنة	قبل بناء الهيكل
١٤٩٢	...	الخروج
١٤٥٢	٤٠	إقامة بني إسرائيل في البرية
١٤٢٧	٢٥	مدة يشوع بن نون
١٤٠٩	١٨	راحة من الحروب
١٤٠١	٠٨	إستيلاء كوشان رشعتائيم
١٣٦١	٤٠	قضاء عتنيئيل واستراحة
١٣٤٣	١٨	إستيلاء الموابين عليهم

١٢٦٣	٨٠	قضاء أهود وسلم في جنوبي فلسطين وكان في شماله إستيلاء يابين وقضاء دبورا وباراق
١٢٥٦	٠٧	إستيلاء المدينيين
١٢١٦	٤٠	قضاء جدعون وسلم
١٢١٣	٠٣	قضاء أبيملك
١١٩٠	٢٣	قضاء تولع
١١٦٨	٢٢	قضاء يائير الجلعادي
١١٠٨	٦٠	وكان في غربي الأردن إستيلاء الفلسطينيين في مدة عالي سنة ٤٠ منها ٢٠ سنة كان فيها تنكيل شمشون بهم ثم ٢٠ سنة في قضاء صموئيل مجموعها ٦٠ سنة وكان في شرقي الأردن إستيلاء العمونيين ١٨ وقضاء يفتاح ٦ سنين وابصان ٧ وأيلون ١٠ وعبدون ٨ ومن قضاء صموئيل ١١ مجموعها ٦٠ سنة
١٠٩٥	١٣	تتمة مدة صموئيل إلى مسح شاول
١٠٥٥	٤٠	شاول
١٠١٥	٤٠	داود
١٠١١	٠٤	سليمان إلى بناء الهيكل
	٤٨١	فالمجموع أربع مئة وثمانون سنة بعد الخروج. وسنة إحدى وثمانين شرع في بناء الهيكل.

ويجدر بنا أن نثبّت هنا الجدول الذي وضعه الأب البلجيكي في مقالته المعلقة في المجلة الموسومة بالعلم الكاثوليكي؛ مجلة المباحث الدينية في عددها الصادر في ٢٥ أيلول سنة ١٨٩٣ م في بيان الطباق بين تواريخ الكتاب والآثار الآشورية والمصرية. وقد ذكرنا خلاصة هذه المقالة في عد ١٥١ من هذا الكتاب، ومن رأي المؤلف إنَّ الخروج كان سنة ١٥٠٠ ق.م، وإنَّ بناء الهيكل أخذ فيه سنة ١٠٢٠ ق.م وإليك الجدول.

سنة ق.م

٠٧٢١	خراب السامرة وارتقاء سرغون عرش آشور

٠٧٢٤	سبي هوشع ملك إسرائيل في السنة ٩ من ملكه وسنة ٦ من مُلك حزقيا في يهوذا
١٠٢٠	وقد جعل مدة ملوك إسرائيل إلى بناء الهيكل ٢٩٦ فقال الاخذ في بناء الهيكل
١٥٠٠	الخروج سنة ٤٨٠ قبل بناء الهيكل
١٩٣٠	إقامة بني إسرائيل في مصر سنة ٤٣٠
٢٠٦٠	دخول يعقوب إلى مصر وعمره ١٣٠ فيكون مولده
٢١٢٠	اسحق ولد يعقوب وعمره ٦٠ فيكون مولده
٢٢٢٠	ابراهيم ولد اسحق وعمره ١٠٠ فيكون ولد

فإذا أسقطنا خمساً وسبعين سنة كما كان عمر ابراهيم عندما شخص إلى أرض كنعان فيكون بلوغ ابراهيم فلسطين سنة ٢١٤٥ على رأي هذا العالِم. وإذا أسقطنا من هذا العدد ٢١٥ مدة إقامة ابراهيم ونسله في فلسطين، و ٤٣٠ سنة مدة العبودية في مصر كان المجموع ٦٤٥ وكان الخروج ١٥٠٠ كما هو رأيه وهو لا يختلف عن رأي فيكورو إلّا بثماني سنين. فإن أضفنا إلى هذا الجدول سني حياة الآباء من الطوفان إلى مولد ابراهيم، وهي ٢٩٢ سنة كما في الجدول الذي وضعناه في عد ١٥١. ثم سني الآباء من آدم إلى الطوفان وهي ١٦٥٦ سنة كما في الجدول الذي وضعناه في عد ٢٣ بحسب النصّ العبراني. كان مجموع السنين من خلق آدم إلى الميلاد ٤١٦٨ ولا تنسَ ما ذكرنا من الاختلاف في ذلك بين النسخ. وما للعلماء من الأقوال المتباينة في هذا الشأن. ومما يستدعي الإلتفات خاصة قصر المدة التي من الطوفان إلى مولد ابراهيم على ٢٩٢ سنة بحسب النص العبراني. فهذه المدة غير كافية لما ظهر بالآثار المصرية والبابلية من التمدُّن والتقدُّم وكثرة العدد في أنحاء مصر وبابل وغيرهما.

وقد عنى العلماء والمفسّرون تحقيق هذا البحث وحلّ هذه المعضلة. فلجأ بعضهم إلى تصحيح رواية الترجمة السبعينية أي أن هذه المدة ١٠٧٧ أو ١٠١٧ لا ٢٩٢ سنة. وحاول غيرهم إيجاد طريقة أخرى لحساب هذه السنين. فقال الأب شفاليا إنَّ المراد بالسنة السار وهو كناية عن ثماني عشرة سنة وستة أشهر (طالع عد ٢٣)، أو جزء من السار وتابعه على بعض مذهبه الأب دومكس النائب الأول في

كنيسة سيدة الانتصار في باريس والذي توفاه الله من عهدٍ قريب. وكان لنا صديقاً عزيزاً فهذا عرض على العلماء طريقة يراد بموجبها باسماء أرفخشاد وبنيه إلى تارح لا أعلام فردية بل أسرات أو دُول تحسب سنوها بحسب أعمار أولئك الآباء كاملة لا بحسبها إلى أن ولدوا أبناءهم كما حسبها جمهورهم. وقد نشرت المجلة الموسومة بالمجلة الكتابية فصلاً مطوّلاً في هذا الشأن للأب اكتاف راي في عددها الرابع الصادر في شهر تشرين الأول سنة ١٨٩٣.

عد ٢٨٢

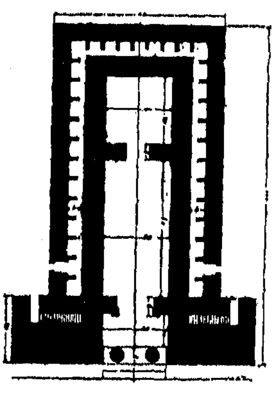
محل الهيكل وهيئته

أما محل الهيكل فكان في بيدر أرونا اليبوسي، والأرض التي شراها داود منه في جانبه، والذي عليه الأكثرون أنّ هناك الجبل الذي أمر الله ابراهيم أن يذبح ابنه عليه. وسُمي في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣ عد ١) جبل الموريا. أي جبل الرب على أنّ قمة الجبل كانت تضيق عن بناء الهيكل فلزم توسيعها،وتسوية الأرض وإقامة جدار وعضائد متينة إرساخاً للبناء. فبُني شرقاً وغرباً حائطان عظيمان متوازيان. ورُدم ما بينهما وأما في الشمال فخفضت الأرض وترى إلى الآن صخراً في الجهة الشمالية الغربية. قُطع جزء منه فتكّون منه حائط طبيعي لا يقلّ علوُّه عن ثمانية أمتار. وعكس ذلك في الجنوب فأنَّ الأرض هناك كانت منخفضة فاحتيج إلى رفعها بعمل عقود باقية إلى اليوم. ولكن قال دي فكوا (كتابه في هيكل أورشليم): إنَّ العقود التي في جنوبي ساحة الحرم الشريف هي من صنع العرب على مثال ما كان أولاً؛ وربما بقي شيء من بناء سليمان تحت الزاوية الجنوبية من الحرم وتحت الجامع الأقصى. وقال دي سولسي (في كتابه تاريخ الصناعة اليهودية صفحة ١٧٠) لا ريبة في أن سور الحرم هو سور هيكل سليمان. وقد قاس هذا العالِم ساحة الهيكل على ما هي عليه الآن فقال إنَّ طولها شرقاً ٣٨٤ متراً وجنوباً ٢٢٥ متراً. وأما غربها فلا يقاس بخطٍ مستقيم لميلةٍ فيه إلى جهتها الشرقية حتى كان شمالها أطول من جنوبها. وقاستها لجنة إنكليزية فقالت: إنَّ طولها شمالاً ٢٠٤٢ قدماً إنكليزياً وشرقاً ١٥٣٠، وجنوباً ٩٢٢ وغرباً ١٦٠٠ قدماً على أنّ هذه الساحة لم تكن في أيام سليمان على سعتها الآن. قال يوسيفوس (ك ٥ في حرب اليهود فصل ١) إنَّ السور الخارج من جهة الجنوب وُسِّع في عصر المكابيين. وقال أيضاً: إنَّ هيرودس وسَّع السور وزاده أربع غلوات إلى ست.

إنَّ الحجارة التي أقامها سليمان في أسوار الهيكل كانت غريبة في ضخامتها. وقد قال الكتاب فيها (ملوك ٣ فصل ٥ عد ١٧): «وأمر الملك أن يقلعوا حجارة كبيرة حجارة ثمينة لتأسيس البيت». وقال يوسيفوس (ك ١٥ فصل ١١ من تاريخ اليهود وك ٥ في حربهم) إنَّ هذه الحجارة من أغرب ما يسمع الإنسان به وإنه كان منها ما طوله أربعون ذراعاً (ثلاثون متراً). وقد بالغ فأنَّ أكبر الحجارة في بناء قلعة بعلبك لا يبلغ هذا الطول مع أنها أكبر بلا مراء من الصخور التي في هيكل سليمان. وضخامة الحجارة في البناء من اصطلاحات الفينيقيين وذلك ظاهر في أورشليم وبعلبك، وأسوار طرطوس وهيكل عشتروت في الباف في قبرص وغيرها. قال العالِم واران أحد أعضاء اللجنة العلمية الإنكليزية للبحث في فلسطين إنَّ احتفاره في أورشليم أدّاه إلى التحقيق أنّ سور الهيكل الجنوبي كان بناؤه في عصرَين لأنَّ الجهة الشرقية من الباب المضاعف هي منذ عهد سليمان، والجهة الغربية من أيام هيرودس، وأحسن ما حُفظ هناك من بناء سليمان إنما هو الحائط الغربي حيث يجتمع اليهود كلَّ يوم جمعة فينوحون على خراب الهيكل. إلى أن يقول أنه كشف في أسس ساحة الهيكل سنة ١٨٦٨ م عن حجارة نُقشت عليها حروف لا شك في أنها فينيقية إلَّا أنّه اعتاص عليه وعلى غيره من العلماء حلُّ رموزها. والراجح أنها علامات وُضعت على هذه الحجارة في مقطعها لتعيين محل وضعها في البناء. والحاصل أنّ إكتشافات واران وأبحاث دي فكوا في كتابه في هيكل أورشليم، ودي سولسي في كتابه الموسوم بالصناعة اليهودية، وكثيرٌ غيرهم من المدققين قد محقت كلَّ ريب في صحة ما رواه الكتاب، واتحفتنا ببيّنات دامغات على بقاء آثار كثيرة هناك من أيام سليمان.

أما هيئة الهيكل فكانت أشبه بهيئة خباء المحضر الذي صنعه موسى في البرية؛ فإن عارضنا ما جاء في سفر الخروج عن الخباء بما جاء في سفر الملوك الثالث عن الهيكل، ألفينا الرسم واحداً إلَّا أنّ الهيكل كان ضعفَي الخباء طولاً وعرضاً. والخباء كان من أخشاب وأنسجة وجلود، والهيكل من حجارة مرصَّعة داخلاً بأخشاب الأرز والسرو، ومصفَّحة أو مغشاة بالذهب. فلم تكن عظمة الهيكل بكبره واتساعه بل باتقانه وزخرفه ووفرة المواد النفيسة التي وشاها بها. وكان طوله ستين ذراعاً (تقرب من ذراع أيامنا)، وعرضه عشرين ذراعاً، وعلوّه عشرين ذراعاً في قدس الأقداس، وثلاثين في باقيه. وكان مقسوماً إلى قسمين قدس الأقداس، وكان طوله عشرين ذراعاً، وعرضه وعلوّه كذلك ولم يكن يدخله إلَّا عظيم الأحبار مرةً واحدةً

في السنة. وكان فيه تابوت العهد حاوياً لوحي الوصايا وقسط المن. ومظلالاً باجنحة كاروبين كبيرين تتصل أجنحتهما بالحائطين، ويماس أحدها الآخر في الوسط. ثم القدس وهو موقف الشعب للصلاة، وموضع تقدمة الذبائح وكان طوله أربعين ذراعاً، وعرضه عشرين ذراعاً، وعلوّه ثلاثين ذراعاً. وكان فيه عشر منائر من ذهب في كلٍّ منها سبعة مصابيح. وعشر موائد من ذهب، يوسع عليها خبز التقدمة خمسٌ على اليمين، وخمسٌ على اليسار. ثم مذبح البخور من خشب الأرز مصفَّح بصفائح من ذهب. وكان بين قدس الأقداس والقدس باب من خشب الزيتون. وكان أمام الهيكل رواق عرضه عشرين ذراعاً، وطوله على ما في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣ عد ٤) مئة وعشرين ذراعاً. وبين أبوابه وأبواب الهيكل عشرة أذرع. وكان حول الهيكل ثلاثون مخدعاً في ثلاث طبقات، وساحتان فسيحتان أو داران تسمى إحداهما دار الكهنة. والثانية دار الشعب. وأما ما كان داخل الهيكل من النقوش والزيّن والترصيع والتصفيح بالذهب وأخشاب الأرز والسرو، والآنية الذهبية والنحاسية. وما كان في جوانبه من الأعمدة وهيئة البحر والمغتسلات، كلٌّ ذلك يقصر عنه الوصف ويشذُّ عن العدّ، ومن شاء تفضيلاً أكثر فليطالع الفصلَين السادس والسابع من سفر الملوك الثالث، والفصلَين الثالث والرابع من سفر أخبار الأيام الثاني، وقد كُمِّل بناء الهيكل في سبع سنين. وكان صانع ما كان في الهيكل من النحاس رجلاً اسمه حيرام ابن أرملةٍ من سبط نفتالي وأبوه منصور صانع نحاس ودونك صورة تمثِّل رسم الهيكل على ما كان عليه بنفسه.



صورة هيكل سليمان

عد ٢٨٣

تدشين سليمان للهيكل

لما أراد سليمان أن يدشّن الهيكل وينقل إليه تابوت عهد الرب من حيث أقامه داود في صهيون، جمع إليه شيوخ إسرائيل، وجميع رؤساء الأسباط، وعظماء بني إسرائيل، وكبراء مملكته جماعة عظيمة جداً اجتمعت: «من مدخل حماه إلى وادي مصر». (ملوك ٣ فصل ٨ عد ٦٥ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٧ عد ٨). فيظهر أنّ الحشد كان من اليهود وغيرهم. وكان هذا التدشين في الشهر السابع بين تشرين الأول وتشرين الثاني في السنة الثانية عشرة لمُلك سليمان. فحمل الكهنة تابوت عهد الرب من مدينة داود ووضعوه في المحل المعدّ له في قدس الأقداس مظللاً بأجنحة الكاروبين. وأصعدوا أيضاً إلى الهيكل الجديد خباء المحضر الذي صُنع في البرية مع كلّ آنية القدس التي كانت فيه. وقد مرَّ إنه كان باقياً في جبعون. وقدموا يومئذٍ ذبائح من الغنم والبقر عبَّر الكتاب عن كثرتها بقوله: «ما لا يُحصى ولا يُعدّ». وذُكر بعد ذلك أنها كانت إثنين وعشرين ألفاً من البقر، ومئة وعشرين ألفاً من الغنم. وكان جميع الكهنة واللاويين إذ لم تراع وقتئذٍ قسمة الفرق وجميع المرنمين تحت يد أساف وهيمان ويدوتون مع بنيهم وأخوتهم أربعة آلاف مرنّم. وبيدهم الصنوج والعيدان والكنارات ومعهم مئة وعشرون كاهناً يهتفون في الأبواق، جميعهم كرجلٍ واحد في التسبيح والإعتراف للرب. وأقبل سليمان بوجهه وبارك كل جماعة إسرائيل الذين كانوا وقوفاً، وخطب فيهم مذكّراً لهم بإحسان الله إليهم واختياره داود أباه ليملك في شعبه ويملّكه بعده، وبتوفيق الله إيَّاه ليبني له بيتاً، ويخصَّ أورشليم بهذا المجد المؤثَّل الأبدي.

ثم جثا سليمان أمام مذبح الرب وبسط يديه نحو السماء، وطفق يتذلل أمام الله بتلك الصلوات الخاشعة والتوسلات الحارة المثبّتة في الفصل الثامن من ثالث أسفار الملوك (من عد ٢٣ إلى عد ٦٢). ومن جملتها لتكن عيناك مفتوحتين على هذا البيت الليل والنهار، واستجب تضرُّع عبدك وشعبك الذين يصلّون نحو هذا الموضِع. وإذا أساء أحدٌ إلى صاحبه فاوجب عليه اليمين، وأتى ليحلف أمام مذبحك فاقضِ بين عبيدك بأن تحكم على المنافق وتذكّي البار. وإذا انهزم شعبك أمام أعدائهم ثم تابوا إليك في هذا البيت، فاسمع واغفر خطيئة شعبك، وارأف بهم.

وإذا احتبست السماء عن المطر وصلّوا نحو هذا البيت، فاسمع واغفر وأنزل المطر على الأرض التي وهبتها لشعبك. وإذا حدث في الأرض جوع أو وباء أو لفح غلال أو يرقان أو جراد أو دبى (وهو أصغر الجراد أو هو نبات أجنحة أو النمل)، فكل من صلّى إليك في هذا البيت فاجزه بحسب طرقه. وكذلك الأجنبي الذي أتى من أرضٍ بعيدة لأجل اسمك لسماعهم بيدك القديرة، فإذا صلّى في هذا البيت، فاسمع واصنع بحسب جميع ما يدعوك الأجنبي ليعرف الجميع اسمك. ويتّقوك ويعلموا أن اسمك دُعي على هذا البيت (هذا تلطّف من سليمان بالأجانب الشاهدين الحفلة وإغراءٌ لهم بعبادة الله). وإذا خرج شعبك إلى الحرب وصلّوا إلى جهة البيت الذي بنيت فاسمع واقضِ قضاءهم. وإذا خطئوا إليك وجلاهم جالوهم وعادوا إلى أنفسهم وتابوا وصلّوا إليك جهة أرضهم فاسمع وأرجعهم من جلائهم.

ولما أتمّ سليمان هذه الصلوات هبطت النار من السماء، وأكلت المحرقة والذبائح، وملأ الغمام بيت الرب شهادةً لتقديسه له. وكان الجميع معاينين هبوط النار ومجد الرب. فخرّوا بوجوههم إلى الأرض، وسجدوا للرب ولبثوا معيّدين فرحين سبعة أيام. وعقبها عيد المظال، فاحتفلوا له مدة سبعة أيام أخرى ثم انصرفوا طيبي القلب داعين للملك (ملوك ٣ فصل ٨ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٥ و ٦ و ٧). وتجلّى الرب له ثانيةً وبشّره بأنه سمع صلاته وقدّس البيت وأمره أن يواظب العمل بوصاياه فيقرّ ملكه، وإن زاغ هو والشعب عن رسومه فيقرض إسرائيل، وينفي البيت الذي قدّسه من حضرته، فسجد سليمان واعداً بإتمام كل ما أمر الرب به.

عد ٢٨٤

باقي أبنية سليمان في أورشليم

قد أحدث سليمان أبنية أخرى عديدة في أورشليم وغيرها. نذكر هنا ما أنشأه في أورشليم وجوارها، ونأتي في العدد التالي على ذكر باقي آثاره. بنى سليمان في أورشليم قصوراً، أشهرها القصر المسمى غابة لبنان، لا لأنه كان في لبنان كما وهم بعض القدماء بل لكثرة ما كان فيه من أخشاب أرز لبنان. وأنبأنا الكتاب (ملوك ٣ فصل ٧) أنّه كان مئة ذراع طولاً، وخمسين ذراعاً عرضاً، وثلاثين ذراعاً سمكاً بناه على أربعة صفوف من عمد الأرز وكان على العمد جوائز من الأرز وسقفه بالأرز

من فوق. وكان في هذه الدار خمس وأربعون غرفة في ثلاث طبقات، كل طبقة خمس عشرة غرفة. وصنع رواقاً أمام العمد طوله خمسون ذراعاً، وعرضه ثلاثون ذراعاً، وأنشأ رواقاً آخر سُمي رواق العرش، لأنه كان يجلس فيه للقضاء، وكان مصفَّحاً بالأرز من الأرض إلى السقف. وبنى أيضاً داراً أخرى لسكناه بديعة الصناعة لم يُبن الكتاب لنا طولها وعرضها وعدد غرفها. ولكن لا جرم أنها كانت كثيرة لكثرة نساء الملك وحاشيته؛ بل أنبأنا بأنَّ جميع أبنية سليمان هذه كانت من حجارة ثمينة على قياس الحجارة المنحوتة، منشورة بمناشير من داخل ومن خارج من الأساس إلى الشرفات، وإنَّ الأساس كان من حجارةٍ ثمينة ضخمة طول بعضها عشرة أذرع وبعضها ثماني أذرع.

وقد أثبتت إكتشافات واران المشار إليه سنة ١٨٦٨ م وسنة ١٨٦٩ م أنَّ هذه الدار كانت في الزاوية الجنوبية الشرقية من الحرم. وبنى سليمان داراً خصَّها بامرأته بنت فرعون. ورأى كلمت إنَّ سليمان لم يشأ أن تسكن امرأته هذه قريبة من الهيكل لأنها وثنية، وبقي سليمان في عمل هذه الدور ثلاث عشرة سنة.

قد أجرى سليمان الماء إلى أورشليم من المحل المعروف ببرك سليمان في الجنوب الغربي من بيت لحم و بيتجالا. ورأى بعض المفسرين إنَّ سليمان أشار إلى هذه البرك بقوله في سفر الجامعة (فصل ٢ عد ٦): «صنعت لي برك ماء لأسقي بها الخمائل النامية الأشجار». وفي سفر نشيد الأنشاد (فصل ٤ عد ١٢): «أختي العروس جنَّة مقفلة وعينٌ مختومة». فقالوا أراد ببرك الماء البرك المنسوبة إليه، وبالعين المختومة العين القريبة من هذه البرك على مئة وثلاثين خطوة من البركة العليا منها. وتسمى الآن راس العين وعين صالح. قال الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٥٠٦) إنَّ ماء العين المختومة كان يُقسم في قناتين إحداهما تصبُّ في البرك، والثانية يجري الماء فيها إلى أورشليم. وإنَّ العالِم واران الإنكليزي رأى إنه ثمة ثلاث قنوات متباينة العلو لكنه لم يجد أثراً منها إلَّا للعليا والسفلى، فالعليا يجري بها ماء العين المختومة والماء الذي يجتمع عن الصخور في وادي بيار، فيتَّصل بالماء المذكور في قرب البركة العليا، وما فاض منه إنصبَّ في البرك، وآثار هذه القناة ظاهرة إلى بيت لحم. وكانت تتصل إلى أورشليم، وتصبّ عند باب يافا. وإما القناة السفلى فآثارها باقية، وكان يجري بها ما فاض في برك سليمان

وماء عين عتان، وماء وادي عروب. ويصب عند الهيكل حيث الحرم الآن وموقع العين المختومة يعلو ستين متراً على موقع الحرم.

قال كاران (ك ٣ في اليهودية صفحة ١١١ وما يليها) في العين المختومة إنها تحت الأرض ويعسر كثيراً النزول إليها، وإنه كابد مشقة بنزوله إلى أصل الينبوع. فوجد ثمة غرفتين معقودتين بحجارة منحوتة مُحكمة التركيب، وقناة توصل الماء إلى البركة العليا من برك سليمان. وإنه ييسر كثيراً ختم هذه العين، ومنع الإستقاء منها بوضع حجر على بابها تعلوه العلامة الملكية إلى أن قال لا أعرف ينبوعاً آخر في فلسطين يصدق عليه اسم العين المختومة كما يصدق على هذه العين، وإنَّ الاظهر والأرجح عنده إنَّ هذه البرك من صنع سليمان. وأثبت ذلك بإجماع المسلمين والنصارى واليهود على حفظ التقليد الذي يعزوها إلى سليمان، وإنَّ هيئة بنائها المتين توجب نسبها إليه وإن طرأ عليه زيادات، وإصلاحات حديثة، وإذا كان سليمان صنع تلك البرك هناك ليسقي الخمائل فلأن يكفي عاصمته والهيكل مؤونة الماء هو الأولى، أي أنّ القناة الموصلة الماء إلى أورشليم هي من صنع سليمان أيضاً ولم ينفرد كاران بهذا المذهب بل هو مذهب كثير من المدققين أيضاً.

على أنّ يوسيفوس قال (في ك ٢ في حرب اليهود فصل ١٤) إنَّ بيلاطس البنطي أحدث اضطراباً بين اليهود لأنه أراد أن يأخذ مالاً من تقادم القربان ليُجري الماء إلى أورشليم من ينبوع يبعد عنها أربع مئة إستادة (أي غلوة والغلوة نحو ثلاثة مئة ذراع). وقال في تاريخ اليهود (ك ٨ فصل ٧) إنه يبعد مئتي غلوة لكن الصحيح أنّ بيلاطس أصلح القناة التي كانت من عهد سليمان لا أنه أحدثها. وقال دي سولسي (في رحلته إلى سورية وحول البحر الميت مجلد ٢ صفحة ٣٥٧) «لا أتوقف دقيقة في أن كل ما يرى من آثار القناة في طريق بيت لحم إنما هو من صنع ملوك يهوذا... ولم يصنع بيلاطس إلَّا مرمَّة القناة القديمة». والقناة من برك سليمان إلى أورشليم ما برحت محفوظة، وإن غير صالحة لجلب الماء إليها. وقد عنى كامل باشا وثريا باشا عند ولايتهما على القدس سنة ١٨٥٦ م وسنة ١٨٦٠ م بمرمة هذه القناة وجلب الماء ليصب في بركة في الحرم.

قال سليمان في سفر الجامعة (فصل ٢ عد ٤ و ٥): «إتخذت أعمالاً عظيمة، وبنيت لي بيوتاً، وغرست لي كروماً، وأنشأت لي جنات وفراديس، وغرست فيها

أشجاراً من كلّ ثمر». وروى يوسيفوس (ك ٨ من تاريخ اليهود فصل ٢) إنَّ سليمان كان يخرج من أورشليم غدوة مصحوباً بجنده ممتطياً مركبة بديعة متشحاً بسربال أبيض. ويمضي إلى محلٍ في البرية بعيد عن أورشليم ستين غلوة واسمه عثان طلباً لترويح القلب، إذ كان له هناك جنات غنّاء وينابيع مفرحة وأرضٍ خصبة. وقال الأب فيكورو (في المحل المذكور صفحة ٥٠٧)، وكاران (كتاب ٣ في اليهودية صفحة ١٠٥) إنَّ منتزه سليمان هذا وجناته كانت في وادي أرطاس القريب من عثان، وأنها هي الجنة المقفلة التي شبَّه محبوبته بها في آية سفر النشيد المذكورة آنفاً. وقد أثبتا قولهما بشهادة يوسيفوس وبالتقليد الذي حفِظه المسلمون والنصارى اليهود، إذ يسمّون محلاً في أرطاس ببستان سليمان ومما قاله كاران (في المحل المذكور): «وعليه فأرى ما يراه سكان فلسطين وأكثر الجوالة إنَّ وادي أرطاس هو الجنة المقفلة». ولاحظ كوارسميوس إنها وصفت بمقفلة لا لإقفالها بجدار صناعية بل لإحاطتها بتلال وأكام طبيعية. وتسمية هذا الوادي وادي إرطاس يُحتمل أن تكون من أيام الرومانيين فأنَّ Hortus (أُرطوس) معناها في اللاتينية الجنة والبستان. وقد عبرت النسخة اللاتينية عن الجنة المقفلة بهذا اللفظ. وفي هذا الوادي الآن جنَّة لرجلٍ يهودي الأصل وقد إنحاز إلى مذهب البروتسطنت يسمَّى ماشولام. وقد غرس في بضع سنوات هناك كثيراً من الأشجار، والبقول التي تُربَّى في أوروبا فنمت أتمَّ نماء.

لم يجتزئ سليمان بما جمَّل أورشليم به من بناء الهيكل والقصور وإجراء الماء إليها، بل حوَّطها بأسوار تتكفل بردّ العدى عن عاصمة ملكه (ملوك ٣ فصل ٩ عد ١٢). وكان داود حصَّن مدينة صهيون بأسوار فسوَّر ابنه أورشليم كلها بأسوار منيعة. وقد حُصِّنت أورشليم بعد ذلك مرات ولا سيما في أيام هيرودس. وأكثر أصحاب البحث يرون أنّ الحجارة الضخمة التي في الجنوب الغربي من الحرم حيث يجتمع اليهود للمناحة كما مرَّ إنما هي من بقايا أسوار سليمان، ولهم أبحاث طويلة رابكة في أسوار أورشليم وتمييز آثار أحدها عن آثار الأخر نضرب عن ذكرها حبّاً بالإيجاز.

عد ٢٨٥
أبنية سليمان في غير أورشليم

قد حصَّن سليمان حاصور ومجدو (ملوك ٣ فصل ٩ عد ١٥). وجعلهما قلعتين تصدَّان الأعداء عن الدنو عن عاصمة ملكه من جهة الشمال، أما حاصور فموقعها فوق بحيرة الحولة في جنوبي جبل الشيخ. وقال كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٣٦٤) إنها كانت في المحل المسمى الآن تل الهراوي، وتابعه على ذلك ويلسون، ولكن ذهب روبينسون إلى أنها كانت في محل خربة الخريبة ودي سولسى، إلى أنها كانت في محل خربة الخان. والخربتان على مقربة من تل الهراوي المار ذكره. وحاصور هي مدينة يابان الذي حارب يشوع بن نون (يشوع فصل ١١ عد ١). ويابان الآخر الذي ضايق بني إسرائيل، وظفر به باراق ودابورة (قضاة فصل ٤ عد ١) كما مرّ. وأما مجدّو فقال فيها كاران (مجلد ٢ في السامرة صفحة ٢٣٥) إنها المسماة الآن لجون في الجنوب الغربي من الناصرة على مدخل مرج ابن عامر من جهة الغرب، ولا ريب في أنها المسماة في أيام الرومانيين Legio (لاجيو وتأويلها فرقة من الجنود)، فكأنها كانت مخفراً يقيم فيه بعض جنودهم. وقد أثبت روبينسون (في كتابه الأبحاث الكتابية في فلسطين مجلد ٢) إنَّ مجدّو هي لجون الآن ببراهين عديدة منها أنّ الكتاب ذكر غالباً مجدّو وتعناك معاً، ولا وجه لذلك إلَّا القرب بين المحلين. وتعناك هي تعنق الآن ولا تبعد عن لجون إلَّا أربعة أميال فإذاً مجدّو هي لجون. وجاء كذلك في كتاب الأعلام الكتابية مع زيادة عليه بأنَّ بعضهم رأى أنّ مجدّو كانت في المحل المسمى اليوم تل المتسلم على مقربة من لجون شمالاً. وقد مرَّ بنا مرات ذكر مجدّو وأهميتها عند القدماء وحروب المصريين فيها. وقال مسبرو (في تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ١٩١): كان الفراعنة إذا افتتحوا مجدّو لم يلاقهم من يقاومهم إلى قادس في جانب حمص، ولذلك جدَّد سليمان بناء مجدّو أو حصَّنها بأسوار لتكون قفلاً لعاصمته من جهة الشمال.

وحصَّن سليمان أيضاً جازر وبيت حورون السفلى (ملوك ٣ فصل ٩ عد ١٧). أما جازر فقد مرَّ في كلامنا على زواج سليمان بابنة فرعون أنَّ ملك مصر كان افتتحها، ووهبها مهراً لابنته امرأة سليمان، وإنها كانت في محل تل جازر

الآن. وأما بيت حورون السفلى فقد مرَّ في عد ٢١٧ أنها المسماة الآن بيت أور في الغرب الشمالي من الجبّ، وأنها محلتان عليا وسفلى، فجاء في المحل المذكور في سفر الملوك إنَّ سليمان بنى أي حصَّن بيت حورون السفلى. وفي سفر أخبار الأيامُ الثاني (فصل ٨ عد ٥) إنه «بنى بيت حورون العليا وبيت حورون السفلى مدينتين محصَّنتين بالأسوار والأبواب والمغاليق». وبيت أور في جانب الطريق المؤدي من يافا إلى القدس، وأول من حقق أنها بيت حورون إنما هو العلامة كلارك ولم يخالفه أحد إلى اليوم.

وجاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٩ عد ١٨). وبنى سليمان «بعلة وتدمر في البرية». وفي سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٨ عد ٣) «ومضى سليمان إلى حماة صوبة، وتغلّب عليها، وبنى تدمر في البرية، وجميع مدن الخزن التي بناها في حماة». أما بعلة فسنفرد إليها العدد التالي، وأما تدمر فقال فيها يوسيفوس (ك ١٣ فصل ٢ من تاريخ اليهود): «إنَّ هذا الملك السعيد بعد أن استحوذ على البرية التي في أعلى سورية بنى هنالك مدينة كبرى على مسافة يومين عن سورية العليا، ويوم واحد عن الفرات، وستة أيام عن بابل الكبرى. وقد رأى بناء هذه المدينة لازماً على بعده من محالّ سورية المأهولة إذ لم يكن إلَّا هناك ينابيع وآبار يستقي المسافرون الماء منها. وأحاطها بأسوار منيعة وسماها تدمر (أي العجيبة). وكذلك سماها السريان واما اليونان فسموها بلمير أي النخيل». على أنّه لم يكن الداعي لبناء سليمان تدمر غزارة مائها فقط بل تعمد فيه تأمين طريق الفرات أيضاً من سطو البدو على المارة والتجار.

قال الأب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٥١١) إنَّ خضوع أهل حماة صوبة قد وطَّد ولاية الإسرائيليين على تلك الأنحاء. فأصبحت القوافل تسير من دمشق وحماة إلى تدمر، ومن تدمر إلى تبسك (على الفرات) آمنة من سطو العرب والآراميين. فإنشاء سليمان تدمر من أعظم آيات حكمته، وكانت محطة كبرى للتجارة فمن عهد سليمان إلى عهد الرومانيين، كانت أكثر القوافل التي تيمّم شطوط الفرات أو دجلة تسير من هذه المدينة، وتأوب إليها ببضائع الفرس والهند الثمينة. وقدَّر بلينيوس تجارة روما وحدها في تدمر بما يساوي خمسة وعشرين مليون من الفرنكات في نقود أيامنا، على أنّ الآثار الباقية الآن في تدمر ليست أطلال بناء سليمان بل من آثار الرومانيين. وأقدم أثر فيها لا يجاوز قدمه

صدر التاريخ المسيحي، وقد كشف دي فكوا هناك عن مئة وأربعة وثلاثين أثراً مكتوباً. ولم يكن معروفاً قبله إلّا ثلاثة عشر أثراً (كتابه في الخطوط السامية في سورية انتهى كلام فيكورو ملخّصاً). وكان للرومانيين في تدمر حرب عوان مع أميرتها زينب المعروفة عند عامتنا بزبيدة ولا محل في هذا الجزء لاستقصاء أخبارها.

وقد أنبأنا الكتاب (في المحل المذكور) أنَّ سليمان بنى أيضاً مدناً للخزن ومدناً للمركبات والفرسان في أورشليم ولبنان وكل أرض سلطانه، والمراد أنه بنى مخازن كبيرة وعديدة يجمع بها الغلال، وحصوناً ومخافر يقيم بها الجنود، ومرابط للخيل ومواضع للمركبات في أورشليم، وفلسطين ولبنان وسائر البلاد التي ولي أمرها. ويظهر أنّ المخافر كانت تمتد من أورشليم إلى حماة وتدمر شمالاً، وإلى مصر وإيله على شط البحر الأحمر جنوباً لاستتباب الراحة وتأمين الطرق. قال يوسيفوس (ك ٨ من تاريخ اليهود فصل ٢): «إنَّ ما أوتيه سليمان بفضل الله من الحكمة كان يعمّ كل شيء ولا تغفل عنايته عن شيء فقد إهتمّ بتمهيدالطرق العامة، ورصَّف بالحجارة السوداء كلَّ السبل المؤدية إلى أورشليم من أنحاء فلسطين رغباً في راحة أبناء السبيل وعنواناً لمجده». وكان سليمان قد أخضع لسلطانه كل من كان باقياً من الأموريين والحثيين (في مملكته). والفرزيين والحويين واليبوسيين. وخصَّ يوسيفوس بالذكر «الكنعانيين الذين كانوا يسكنون أنحاء لبنان إلى حماة». وكان يسخّر هؤلاء في الأبنية، ورصف الطرق وغيرها من الخدم الدنيئة، ويصطفي من بني إسرائيل رجالاً للحرب وخداماً في بلاطه، وفرساناً ورؤساء للجنود وقادة للمركبات. وكان منهم خمس مئة وخمسون رجلاً يتسلطون على الأجانب العاملين (ملوك ٣ فصل ٩).

عد ٢٨٦
بعلة التي بناها سليمان وبعلبك

قد عدَّ الكتاب بعلة من جملة المدن التي بناها سليمان. وذهب بعض المفسرين والجوّابين، والعلماء إلى أنّ المراد بها بعلبك. قال أحدهم بربيا دي بوكاج: «إنَّ بعلة التي بناها سليمان، والأولى أن يقال جدَّد بناءها في الوادي الخصب الفاصل بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي المسمى الآن البقاع إنما هي مدينة بعلبك. وتأويلها مدينة الشمس، وسماها اليونان اليوبولي مترجمين اسمها القديم ترجمة مدققة. وفي هذه

المدينة التي كانت الشمس معبود أهلها آثار بديعة بقيت أطلالها، وهيكل الشمس فيها من أعظم ما يحمل على العجب العجاب». وقال كاران (في أحد فصوله في المجلة المعروفة بالأرض المقدسة سنة ١٨٨٢م) إنَّ هذا القول يمكن الإعتماد عليه وخالفه روبينسون في المباحث الكتابية. وذهب أكثر المحققين أنّ بعلة هذه لا يراد بها بعلبك بل مدينة أخرى في فلسطين. وقد كثُرت المدن المسماة ببعلة في هذه البلاد فمنها بعلة في نصيب دان ورد ذكرها في سفر يشوع (فصل ١٩ عد ٤٤ حيث قيل: «وجبتون وبعلات وهود». وبعلة من نصيب يهوذا ورد ذكرها هناك (فصل ١٥ عد ٩) حيث قيل: «ويمتد التخم إلى بعلة التي هي قرية يعاريم». (قرية أبي غوش) وبعلة أخرى في جنوبي نصيب سبط يهوذا أيضاً ذكرت هناك (فصل ١٥ عد ٢٩) حيث قيل: «بعلة رعييم». وقد رجّح معجم الكتاب لفيكورو أنّ بعلة التي بناها سليمان؛ إنما هي بعلة الوارد ذكرها في الفصل التاسع عشر من سفر يشوع بين جبتون ويهود، ولما كانت يهود محل اليهودية الآن في شرقي يافا على رأي أكثرهم، وجبتون في محل قرية كيبية في الجنوب الشرقي من اليهودية يُرجح أن يكون موقع بعلة بين يهودية وكيبية في نواحي يافا. وقال بعضهم إنَّ بعلة كان موقعها في دير بلوط في تلك الأنحاء وإنَّ ليس كلمة بلوط إلّا تصحيف كلمة بعلة. ورجّح كاران هذا التصحيف (مجلد ٢ في السامرة صفحة ١٣٠) وفي كتاب الأعلام الكتابية، إنَّ بعلة كانت في المحل المسمى اليوم بلعين على مقربة من بيت أور السفلى في الشمال الغربي منها.

ومثل هذا الخلاف في أنّ بعلة يراد بها بعلبك أو غيرها الخلاف في أعلام أخرى وردت في الكتاب. وأثبت بعضهم أنّ المراد بها بعلبك وأنكره غيرهم. ومن هذه الاعلام بعل جاد التي ذكرت في سفر يشوع (فصل ١١ عد ١٧) حيث قيل: «من الجبل الأملس الممتد جهة سعير إلى بعل جاد في بقعة لبنان». فقال طمسون وريتر وغيرهما إنَّ المراد بعلبك. وخالفهم روبينسون في المحل المذكور ومنها بعل هامون الوارد ذكرها في نشيد الإنشاد (فصل ٨ عد ١١) بقوله: «كان لسليمان كرم ببعل هامون». فقال ويلسون المراد بذلك بعلبك وخالفه غيره ومنها بقعة اون التي ورد ذكرها في نبوّة عاموس (فصل ١ عد ٤ وما يليه) حيث قيل: «فأرسل ناراً على بيت خرائيل فتأكل قصور بنهدد واكسر مزلاج (مغلاق) دمشق. واستأصل الساكن من بقعة اون والقابض على الصولجان من بيت عدن». فقال كثيرون منهم

كلمت أيضاً إنَّ بقعة اون يراد بها البقاع أي السهول الفاصلة بين لبنان الغربي ولبنان الشرقي ومدينتها وهي بعلبك. ولذلك مخالفون (ملخص عن معجم الكتاب لفيكورو).

وقد ورد اسم بعلبك في الآثار المصرية قبل سليمان مسماة تيبقعات (مسبرو في تاريخه القديم لشعوب المشرق صفحة ١٩١ طبعة ٤). وسماها اليونان والرومانيون اليوبولي أي مدينة الشمس لعبادة أهلها الشمس كاليوبولي في مصر وعادت تسمى بعلبك في صدر الإسلام وإلى اليوم.

وقال بعضهم إنَّ الاسم العربي ترجمة اليوبولي اليونانية لأنَّ بك بمعنى مدينة ولا تخفى المقاربة بين بعل وال أو اليوس فيكون المعنى مدينة البعل أي اليوس باليونانية وهو الشمس. ولكن بك لم ترِد باللغات السامية بمعنى مدينة بل وردت باكي في اللغة المصرية بهذا المعنى. ولذلك قال بعضهم إنَّ الكلمة منحوتة من بعل وبك في العربية بمعنى زاحم. وتباكّوا على الشيء إزدحموا عليه فيكون اسم المدينة مشيراً إلى كثرة البعول المعبودة فيها أو إلى إزدحام الناس لعبادة الآلهة فيها. كما سمي بطن في مكة ببكة لإزدحام الناس فيه. وظن رنان (في كتابه في فينيقية) إنَّ ما اسم بعلبك إلّا مكسر بعل بقاع مقابلاً لبعل حرمون. وإذا صحَّ أنّ سليمان بنى شيئاً في بعلبك كما يقتضيه جعله تدمر محطة للتجارة وبعلبك في وسط الطريق إليها. فلا يصح أنه أول بانٍ لها لأنَّ أبنيتها السفلية قاضية بأنها قبل عصر سليمان. وتؤيده ضخامة الصخور المنقطعة النظير المبني بها جدارها الغربي وهي أكبر كثيراً من الحجارة التي في هيكل أورشليم وأسوارها. ومن يظن أنّ سليمان أراد أن يولي بعلبك عظمة لم يولها بيت ربّه وقصوره في مدينته وأسوار عاصمته.

ولم يقف أهل البحث إلى الآن على تاريخ مؤكد لبناء بعلبك، والأظهر عندهم أنّها من صنع الفينيقيين والكنعانيين القدماء استمساكاً بتسميتها ببعل وهو معبود الكنعانيين؛ وضخامة صخور بنائها. وهذا من إصطلاحات الفينيقيين وظاهر في كثير من أطلالهم وإن عزا رنان (في فينيقية صفحة ٣١٩) وبرو (في تاريخ الصناعة في القدم مجلد ٣ صفحة ١٠٥) تلك الصخور الضخام إلى الرومانيين أيضاً سنداً إلى أنّ في آثار الرومانيين ما يشبه هذه الصخور، وأما زمان بنائها فغير معلوم. وقد تكلّم فيها دي لامرتين في كتاب رحلته إلى المشرق (مجلد ٣ صفحة ١٥٧) مبدياً

العجب العجاب من آثارها وعاذراً العرب بوهمهم أنها ليست من عمل البشر بل من صنع الجن. وحسب أنّ صخورها نقلها الجبابرة الأقدمون أو الرجال الذين كانوا قبل الطوفان. وأما أخربة الهيكل أو الهياكل الكائنة في اعلاها فهي من صنع الملوك الرومانيين. فقد ذكر يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٣) أنَّ بومبايوس مرَّ بها متوجهاً إلى دمشق وكان أهلها خاضعين للرومانيين. ويوليوس قيصر جعلها جالية رومانية وأنطونيوس بيوس الذي استوى على عرش الملك من سنة ١٣٣ إلى سنة ١٦١ للمخلّص، أنشأ فيها هيكلاً كبيراً تكرمةً لجوبيتر (المشتري). ويرى على مسكوكات سبتيموس ساويروس (الذي رقي منصة الملك سنة ١٩٥ وتوفي سنة ٢١١) صورة هيكل ورواق أمامه قائم على عشرة أعمدة، وصورة هيكل آخر قائم على أعمدة عديدة أشبه بما يُرى الآن في بعلبك. فلعلَّ أنطونينوس بنى الهيكل الكبير وسبتيموس بنى الرواق والهيكل الصغير وكان من معبودات أهلها الزهرة ربة العشق، وما أدراك ما كان هنالك من الفواحش إلى أن أدخل قسطنطين الدين المسيحي في مدينة الشمس والعشق وبنى هناك كنيسة كبرى (ذكره أوسابيوس في ترجمة قسطنطين).

عد ٢٨٧

تجارة سليمان

إنَّ أبنية سليمان ومهامه الكبيرة ومظاهر عزه الباذخ وشرفه الشامخ كانت تستلزم نفقات وافرة لا تفي بها المكوس والضرائب والجزيات والهدايا. فحذا حذو ملك صور بإتجاره غير مراعٍ ما حذَّر الرب منه من يقوم ملكاً في إسرائيل بقوله: «لا يستكثر من الخيل فلا يرد الشعب إلى مصر بسبب كثرة الخيل... ولا يستكثر من النساء لئلا يزيغ قلبه، ولا يبالغ في إستكثار الذهب والفضة» (تثنية فصل ١٧ عد ١٦ و ١٧). فلم يكتفِ سليمان بوضع المكوس على سلع التجارة الواردة إلى مملكته، بل أخذ يزاحم التجار بنقل السلع إليها من بلاد العرب ومصر وما بين النهرين. وكان إتجاره في مصر بشراء المركبات والخيل. فكان تجاره يشترون المركبة بست مئة من الفضة، وقدَّرها فيكورو بنحو من ألف وسبع مئة فرنك، والفرس بمئة وخمسين أي بنحو من أربع مئة وخمسين فرنكاً، وكان سليمان يستبقي بعض هذه المركبات والخيل لنفسه ويبيع باقيها من جميع ملوك الحثيين والآراميين (ملوك ٣ فصل ١٠).

قد مرَّ في عد ١٥٤ إنَّ الملوك الرعاة جلبوا الخيل إلى مصر ولم تكن فيها قبلهم. وأبانت آثار مصر إنه كان لملوكها بعد ذلك ولوع شديد بالخيل ولا سيما في عهد الدولتين الثامنة عشرة والتاسعة عشرة أي قبل خروج بني إسرائيل من مصر. وكانوا يحفظون سلسلة خيلهم كما صنع العرب بعدهم فيزداد ثمن الفرس ما ازداد تحقيق أصله، بل حفظت الآثار أسماء بعض الأفراس التي كانت تجرُّ مركبات الملوك. وقد اكتشف العالِم مريات صفيحة من ناباطا في مصر كُتب عليها سنة ٧٤٥ ق.م ما محصله أنّ مصر كانت يومئذٍ منقسمة إلى إمارات عديدة، وفي كلٍّ منها سلالة من أصل خيل يقدمون أجودها للغازي الحبشي الذي كان يسمى بيانكي مريمان، وإنَّ سوق التجارة بالخيل كانت رائجة وقتئذٍ رواجها أيام سليمان. ويتبيَّن من هذه الآثار ومن صور الخيل التي ترى عليها أنّ خيل مصر كانت أكبر وأجود من خيل بلاد العرب وسورية. وقد اكسبتنا هذه الآثار فصل الخلاف الذي كان بين مفسري الكتاب في ما إذا كانت مركبات سليمان تُجر بأربعة أفراس أو أقل، فقد ظهر الآن أنّها كانت تُجر بفرسين فقط لأنَّ صوَر المركبات المصرية من حربية وغير حربية لا يُرى فيها إلَّا فرسان.

على أنّ تجارة سليمان في مصر لم تكن رابحة كتجارته البحرية، فقد كان سليمان يعلم أن غنى أهل فينيقية وثروتهم منبعهما أسفارهم البحرية. ولكنه لم يكن له من يصنع السفن ولا من يمارس الملاحة. فلجأ إلى صديقه حيرام ملك صور ليمده بصانعي سفن وملاحين. وكان الفينيقيون استحوذوا على البحر المتوسط ولم يكن لهم مرفأ على البحر الأحمر أو خليج العجم. ولم تكن لهم وسيلة ليستأتوا سلع بلاد العرب والكلدان والهند إلَّا القوافل. فاشتراك المنفعة بين الملكين دعاهما إلى عقد شركة بينهما وأرسل حيرام عمَلة يصنعون السفن في عصيون جابر على خليج عقبه. وهو ترعة شرقية من البحر الأحمر تقابل ترعة السويس الغربية وقد مرَّ ذكر عصيون جابر في مراحل بني إسرائيل وهي في جانب ايله. وقال فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٣ صفحة ٥٢١) إنها كانت في محل القرية المسماة الآن عقبة حيث منزلة للحجاج المصريين. وقد مضى سليمان إلى هناك عند صنع هذه السفن، وقد صرَّح بذلك سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٨ عد ١٨) حيث قيل: «ثم ذهب سليمان إلى عصيون جابر وإلى ايله».

قد جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٠ عد ٢٢) في النسخة اللاتينية

العامية: إنَّ هذه السفن كانت تذهب إلى ترشيش، ولكن ترشيش يراد بها إسبانيا التي كانت سفن الفينيقيين تسير إليها طلباً للفضة والنحاس. فأصح من ذلك ما جاء في النص العبراني: «لأنَّ الملك كانت له في البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام، فكانت سفن ترشيش تأتي مرَّة في كل ثلاث سنين» فالمراد بسفن ترشيش السفن الكبيرة القوية كما يسمي الإنكليز اليوم جميع سفنهم الكبيرة القوية هندية، وإن لم تسيَّر إلى الهند، بل لمجرد الاشعار بعظمتها ومتانتها ولا يظن أنّ الفينيقيين أرادوا أن يقاسموا سليمان غنائمهم من إسبانيا. والسفن المصنوعة في عصيون جابر يستحيل عليها البلوغ إلى إسبانيا إلَّا أن تدور حول أفريقيا كلها. فإذا لم تكن سفن سليمان تسير إلى إسبانيا بل إلى اوفير كما هو مصرَّح في سفر الملوك الثالث فصل ٩ عد ٢٨.

عد ٢٨٨

اوفير محل تجارة سليمان وسلع تجارتها

كتب بعض أهل العلم كتباً في تحقيق موقع اوفير فقال بعضهم: إنه ببلاد العرب، وغيرهم إنه بأفريقية الشرقية وآخرون إنه بجزيرة سيلان أو ملاكاً من أعمال الهند وغيرهم غير ذلك. وما كان له وجه معقول من هذه الأقوال ثلاثة: أولها أوفير بأفريقية الشرقية لأنَّ هنالك محلاً يسمى فورا ويضعفه أنّ فورا بعيدة عن البحر نحو مئتي ميل فلا يسار إليها بسفن. والثاني إنّها ببلاد العرب ودليله أنّ أحد أبناء يقطان سمى أوفير، وسكن في بلاد العرب فسمى المحل باسمه (طالع عد ٣٩)، وهذا مردود بأنَّ السفر إلى أوفير هذه لا يستلزم صرف ثلاث سنين كما نصَّ الكتاب وبأنَّ وحدة الاسم لا تقضي بوحدة المسمى.

والثالث وهو الأظهر والأشبه بالصواب هو أنّ أوفير عمل في الهند وأثبت هذا القول ذووه بأدلَّة كأنها قاطعة؛ منها أنّ اسماء السلع التي كانت سفن سليمان تقلُّها من أوفير عدا الذهب، وهي القردة والطاووس وخشب الصندل والعاج ليست عبرانية. ولدى البحث عن أصلها وُجد أنها من لغة السنسكريت الهندية. فقال العالِم لاسان Lassan في كتابه في الهند الذي طُبع سنة ١٨٦٦م إلى سنة ١٨٧٤م إنَّ كلمة كوف أو قوف التي عبَّر بها الكتاب عن القردة هي في لغة الهنود كابي، وأصل وضعه للدلالة على الخفيف أو السريع، وإبدال الباء بالفاء

مطروق كثيراً، وكوف ليست عبرانية فهي كابي الهندية. وكلمة تيكيم أو تيكي التي عبَّر بها الكتاب عن الطاووس ليست عبرانية أصلاً، وأهل الملابار يسمّون الطاووس توكي فإن حذفت من تيكيم الواردة بالعبرانية حرفي الجمع أي الياء والميم، بقيت الكلمة تيكي أو توكي، كما هي في الهندية، وزد على ذلك إنَّ هذا الطائر هندي أصلاً ولا يُرى برياً إلَّا فيها. وكذلك كلمة الموك أو الكوم التي عبَّر بها الكتاب عن خشب الصندل ليست عبرانية، بل أنّ هذا الخشب يسمَّى في اللغة السنسكريتية والكو أو والكوم ولا يوجد إلَّا في أعمال الهند.

وكذا قُل في العاج الذي كان سلع تجارة سليمان فإنك ترى الكتاب يسميه في الأصل العبراني سان أو سان كرنوت أي سناً أو سن القرن إلَّا عند الكلام في تجارة سليمان، فيسمى سان هبّيم فالفيل يسمى في اللغة الهندية إيبها كُسرت فصارت هبّا؛ فألحق الكاتب العبراني بها علامة الجمع، وأضاف إليها لفظة سان فصارت سان هبّيم أي سن الفيل أو سن الأفيال. فأخذ هذه الكلمات عن اللغة الهندية دالٌ على أنّ أوفير التي أُتي منها بهذه السلع هي من أعمال الهند. ويؤيد هذا الدليل كثرة معادن الذهب في الهند ولا سيما في جبال حملايا. وصرف ثلاث سنين في المضي إلى أوفير والعود منها كما نصَّ الكتاب، ولو كانت أوفير في بلاد العرب أو أفريقية لما لزم صرف كل هذه المدة. ويؤيده أيضاً قول يوسيفوس (في ك ٨ فصل ٢ من تاريخ اليهود): «إنَّ حيرام الملك أبدى لسليمان خالص الوداد فإنه أرسل إليه ما شاء من الملاحين الماهرين بسفر الابحار ليمضوا مع عبيده لجلب الذهب من عمل من أعمال الهند كان يسمى سوفير واسمه الآن بلاد الذهب» وسمَّت الترجمة السبعينية أوفير سوفير واللغة القبطية تسمِّي الهند سوفير. وقال القديس إيرونيموس (كتابه في الأماكن العبرانية) إنَّ أوفير عمل في الهند وتابعه على ذلك غيره من الآباء والعلماء فكل ما مرَّ يثبت أنّ أوفير عمل في الهند.

ويُرجّح أنّ هذا العمل كان عند مصبّ الهندوس حيث كان يتيسَّر لسكان شمالي الهند أن ينقلوا ذهبهم وحجارتهم الثمينة. وسلع تجارتهم بهذا النهر إلى شاطئ البحر فيبيعوها من التجار. وقال كتاب الجغرافية من الهنود إنَّ في المحل المذكور شعباً يسمى أبهيرا. وقال أبو الفدا في الجغرافيا: إنَّ في الهند مرفأ يسمى سوبارة. تكثر فيه التجارة وهو على مسافة خمسة أيام من سندان فإسما أبهيرا

وسوبارة يقربان من اسمَي أوفير وسوفير وإبدال الباء بالفاء لا تُعد أمثاله وعليه فسفن سليمان كانت ترسو عند مصبّ الهندوس.

وقد جاء في الكتاب (ملوك ٣ فصل ٩ عد ٢٨) إنَّ سفن سليمان أتت من أوفير بأربع مئة قنطار من الذهب. قال فيكورو (في المحل المذكور) إنَّ هذه القيمة تعادل نحو سبعة عشر ألف كيلو غرام، ونحو خمسة وأربعين مليوناً من الفرنكات. وعمل سليمان من هذا الذهب خمس مئة مجنب وجعل جميع آنية شربه وآنية بيت غابة لبنان من ذهب خالص. وعمل عرشاً كبيراً من عاج يصعد إليه بست درجات وعلى كل درجة أسدان. وألبس كل ذلك ذهباً أبريزاً ولم تكن الفضة تُحسب شيئاً لكثرتها حتى عبَّر الكتاب عنها بقوله كانت الفضة في أورشليم مثل الحجارة. وأما الصندل فكان فيه لذكاء رائحته عند إتقاده. وعمل منه سليمان درابزيناً لبيت الرب وبيت الملك، وكنَّارات وعيداناً للمغنين. وأما العاج فكان استعماله كثيراً عند القدماء في مصر وبابل وآشور وروما وفي متاحف أوروبا آنية كثيرة من العاج.

وأما القِرَدة فكانت لانبساط سليمان وأهل بلاطه بها، وربما كان يهدي أصدقاءه من الملوك والأمراء منها، وربما باع تجّاره بعضها فقد كانت القِرَدة في كل عصر ومكان تحمل الناس على التفرُّج بها، فعلى مسلَّة القرود صوَّر أربعة قِرَدة تُقاد بمقوَد، وقرد صغير راكب على أكتاف رجل. وصوَّر المصريون في تمثيل أمور مهمة كصورة دينونة الموتى على البابير الذي وُجد في مصر، ومنه عدة نسخ في متحف اللوفر في باريس. وأما الطاووس فقد حمل جمال ريشه وكثرة ألوانه القدماء كأهل عصرنا على ترويح النفس به. وكان أول دخوله من آسيا إلى أثينا في القرن الخامس قبل الميلاد. وروى أنتيفون إنَّ رجلاً من أثينا ربَّى هذا الطائر فكانت الناس تتقاطر لرؤيته من مكدونية وتساليا، وكان يُباع الطائر منه بألف درهم. وروى اليان (كتابه في الحيوانات) إنَّ اسكندر الكبير قضى العجب العجاب عند بلوغه الهند من جمال الطاووس وفرض عقوبة شديدة على من يُنزل به ضرًّا.

عد ٢٨٩

سليمان وملكة سبا

قد أنبأنا الكتاب (ملوك ٣ فصل ١٠) أنّ سليمان عظم على جميع ملوك

الأرض في الغنى والحكمة. وكان الكبراء من كلٍّ صوب يلتمسون مواجهته ليسمعوا الحكمة التي أودعها الله في قلبه. وكان كلٌّ واحدٍ يأتيه بهدايا من آنية فضة وذهب، ولباس وسلاح، وأطياب وخيل وبغال في كلّ سنة. وسمعت ملكة سبا بخبر سليمان واسم الرب فقدمت إليه وهي التي سماها الإنجيل ملكة التيمن وقال إنّها أتت من أقاصي الأرض لتسمع حكمة سليمان، وذهب بعضهم إلى أنها ملكة سبا في جنوبي العربية على شاطئ البحر المحيط، وكان القدماء يوهمون أن لا أرض بعده حتى قال تاشيتوش (ك ٥ في تاريخه): «إنّ الأرض تنتهي أطرافها إلى المشرق في بلاد العرب»، وذهب آخرون أن ملكة سبا هي ملكة الحبشة. وقال يوسيفوس (في المحل المار ذكره) إنّها تسمّى نيكوليس وإنّها كانت ملكة مصر والحبشة وسماها المؤرخون العرب بلقيس. والاظهر أنها كانت ملكة سبا في جنوبي بلاد العرب، وربما امتدت سلطتها إلى بعض أعمال الحبشة وكان بعض القدماء يسمّون سبا بالحبشة. والأحباش يسمّون هذه الملكة مكادا. وقد أذاع العالِم فرنسيس بروتوريوس سنة ١٨٧٠م جزءاً من كتاب بالحبشية موسوم بمجد الملوك مع ترجمته إلى اللاتينية والمتحصل من هذا الكتاب ومن أخبار كومبس وتاميزيار (في كتاب رحلتها إلى الحبشة مجلد ٣ الذي طُبع في باريس سنة ١٨٤٣م) أنّ هذه الملكة مكادا سمعت بأخبار سليمان فوافت إليه وقدمت له هدايا نفيسة. وأقامت عنده أياماً فعلقت منه وولدت بعد عودها ابناً سمته مينالك كان أصلاً لسلالة ملكية في الحبشة دامت على منصتها قروناً. وفي الحبشة إلى اليوم قوم من اليهود يسمون فالسكاس أي المهاجرين يدّعون أنّهم في الحبشة من أيام سليمان.

وروى مرتين فلاد المرسل الألماني والعالِم هالافي من أخبارهم أنهم يدّعون بأنّ مينالك ابن ملكة سبا من سليمان أرسلته أمه إلى أورشليم يتربى عند أبيه، ولما بلغ أشده أكره بنو إسرائيل سليمان ليرده على أمه فأبى، إلّا أن يبعث كلٌّ منهم ابنه البكر رفيقاً لمينالك ففعلوا. وصار مينالك بعد عوده ملكاً على الحبشة، وتزوج رفقاؤه بنساء حبشيات فكانوا أجداد الفالسكاس. وتبعهم إثنا عشر كاهناً من ذرية هرون فلا نعتد هذا صحيحاً بل أوردناه مفاكهة. ونرى الأقرب إلى الصواب ما يقوله بعض هؤلاء الفالسكاس وهو إنهم من ذرية اليهود الذين هربوا إلى مصر في أيام أرميا كما هو ظاهر من نبوته (فصل ٤٣ و ٤٤). أو أنهم من ولد اليهود الذين فروا من فلسطين إلى جبال الحبشة عندما أخرب طيطوس أورشليم. وقد جاءت

الآثار المصرية والآشورية مصداقاً لولاية بعض الملكات على بلاد العرب والحبشة. وقد مرَّ معنا ذكر بعضهنَّ. وترى في آثار تجلت فلاصر الثاني اسم شمسة ملكة العرب مسماة بملكة سبا. ثم اسم ملكة أخرى زبيبة ملكة أرض العريبي (العرب) أدت إلى هذا الملك الجزية فضةً وذهباً وحديداً.

قال الكتاب إنَّ ملكة سبا قدمت لتختبر سليمان بأحاجي فقد كانت عادة القدماء أن يطارح بعضهم بعضاً أحاجي وألغازاً ومعميات مفاكهة وترويضاً للعقل، وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٢) عن ميناندر الذي ترجم تواريخ صور إلى اليونانية أن سليمان وحيرام كان يطارح أحدهما الآخر ألغازاً وأحاجي وإنه كان عند حيرام شاب اسمه يمون يحل ألغاز سليمان، وإنَّ ديون المؤرخ تكلَّم في هذين الملكين ومما قاله: إنّ حيرام عجز ذات يوم عن حلِّ ألغاز سليمان فدفع له مبلغاً من المال، ثم أرسل إليه عبد يمون فحلَّ تلك الألغاز. وألقى على سليمان ألغازاً تعسَّر عليه حلُّها فرد عليه سليمان المبلغ الذي كان أخذه. وقد مرَّ لنا كلام في ذلك في عدد ١١٧. وتتبّع الكتاب كلامه بقوله إنّ ملكة سبا كلّمت سليمان بجميع ما كان في خاطرها من الأحاجي، ففسر لها سليمان جميع كلامها ولم يخفَ عليه شيء لم يفسره لها فعجبت بحكمته.

ومما قال الكتاب إنَّ هذه الملكة دخلت أورشليم في موكب عظيم جداً، ومعها جمال موقرة أطياباً وذهباً كثيرة جداً، وحجارة كريمة. ثم بيَّن مقدار الذهب فقال، إنه مئة وعشرون قنطاراً وهي تعادل على ما مرَّ نحواً من ثلاثة عشر مليوناً من الفرنكات. وقد سخر فولتر من كلام الكتاب هذا وقال إنَّ المئة والعشرين قنطاراً من الذهب تساوي ستة عشر مليوناً وثمان مئة ألف من الليرات الإفرنسية. فقال دوكلو (في حواشي تفسير هذه الآيات لسانكتيوس في طبعة الأب مين) رادّاً زعم فولتر إن كلامه هذا هذيان أو جهل فاحش ولو حسب القنطار حساب الوزن، وإذا حسب بحسب القيمة كان أقلّ من ذلك كثيراً. ولا يُستغرب هذا القدر على ملكة كثُر الذهب في بلادها وتوفرت الثروة والغنى. وقد قضت ملكة سبا العجب العجاب من حكمة سليمان والبيت الذي بناه، وطعام موائده، وقيام عبيده ولباسهم ومحرقاته التي كان يُصعدها في بيت الرب. وعبَّر الكتاب عن عجبها بقوله: إنه لم يبقَ فيها روح وحققت لسليمان أنه زاد عندها الخبَر الخبَر كثيراً وأعطاها سليمان كل بغيتها فوق ما أعطاها من العطايا ثم انصرفت هي وعبيدها إلى أرضها.

عد ٢٩٠
آثام سليمان وإثارة الرب الفاتنين عليه

قضى سليمان أكثر سني ملكه راقياً أوج المعالي متسامياً على ملوك الأرض بحكمته وغناه، راتعاً وشعبه في بحبوحة السلم والرغد والترف؛ لكن ما عتَّم أن انحطَّ من ذروة مجده، وكسف لألأ مجده لأنه أحبَّ نساءً غريبات كثيرات مع ابنة فرعون من الموآبيين والعمونيين والأدوميين، والصيدونيين والحثيين وغيرهم من الأمم التي نهى الرب بني إسرائيل عن الإختلاط معهم لئلا يميلوا بقلوب شعبه إلى اتِّباع آلهتهم. فكان لسليمان سبع مئة زوجة وثلاث مئة سرية، فأذاعت نساؤه قلبه. وكان كلما تقدَّم في سنِّه زاد ضعفه ووهن عزمه في المحافظة على سنَّة الله حتى حملته نساؤه على عبادة عشتاروت آلهة الصيدونيين. وملكوم معبود بني عمون. وكاموش معبود بني مواب، وأقام لملكوم وكاموش معبدَين في جبل الزيتون تجاه هيكل الرب في أورشليم، وكذلك صنع لجميع نسائه الغريبات اللواتي كنَّ يقترنّ ويذبحن لآلهتهنَّ. فزرعت أصول الثورة في ملكه وازداد شعبه مذ رآه عاكفاً على ملاذه مزدرياً سنَّة إلاهه مجداً في إغناء نفسه وآله بتجارته مثقلاً رعاياه بالضرائب والمكوس، وضعف روح الدين بسيء مثله. فتجلَّى له الرب مرتَين مؤنباً له لأنه لم يحفظ عهده ورسومه، ومهدداً له بأنه سيشق الملك عنه ويدفعه إلى عبده إلَّا أنه لا يفعل ذلك في أيامه من أجل داود أبيه، لكنه يفعله في أيام ابنه، ويُبقي له سبطاً واحداً من أجل داود عبده وأورشليم التي اختارها وتتالت المحن بعد ذلك على سليمان كما سيجيء.

فقد أثار الرب عليه هدد الأدومي من نسل ملوك أدوم، فإنه لما كان داود في أدوم صعد يواب ليدفن القتلى، وأقام ستة أشهر في أدوم يقرض كل ذكر فيها. فهرب هدد هذا ابن ملك أدوم مع رجال من عبيد أبيه وكان صبياً صغيراً، وأتى أولاً مدين ثم فارا، ثم سار إلى مصر، فأكرم فرعون مثواه، وأعطاه بيتاً وأرضاً وأمر له بطعام، ولما شبَّ زوَّجه أخت امرأته تحفنيس فوُلد له منها ابن سماه جنوبت فربته خالته تحفنيس في بيت فرعون بين بنيه. قال فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلَّد ٣ صفحة ٤٢٢ طبعة ٥) لا علم لنا بمن كان فرعون هذا. وقال مسبرو (في التاريخ القديم لشعوب المشرق صفحة ٣٥٦ طبعة ٤) إنه بسيوكانو أحد ملوك

الدولة الحادية والعشرين، وإنه هو الذي غزا جازر وزوّج بنتَيه بسليمان وهدد الأدومي لكن هذا يخالف نص الكتاب، أنّ فرعون زوّج هدد بأخت امرأته لا ببنته، ولم يسند مسبرو زعمه إلى نص أو أثر. ومهما يك من ذلك فلما سمع هدد بخبر وفاة داود وقتل يواب رئيس جيشه، سأل فرعون أن يطلقه ليعود أرضه.

ولم يصرّح الكتاب أأطلقه حينئذٍ بعد وفاة داود أم تلوم في إطلاقه إلى أواخر سني سليمان. قال يوسيفوس (في ك ٨ فصل ٢ من تاريخ اليهود) أنّ فرعون لم يطلق هدد إلى آخر سني سليمان ليقلقه جزاء مخالفته لرسوم الله. وقال فيكورو (في المحل المذكور) إنَّ هدد عاد إلى أدوم بعد وفاة داود وفي أوائل سني سليمان لكنه لم ينجح بأن يملك على أدوم أو ملك مدة وجيزة، لأنَّ سليمان بقي مالكاً أدوم وإلَّا لما أمكنه التوصل إلى خليج عقبه وتسيير سفنه إلى أوفير. وأنَّ الأظهر أنَّ هدد كان يخرق في ملك سليمان كل مدة ملكه فيعتدي على أبناء السبيل. ويغزو وينهب لكنه لم يُنزل ضرًّا مهماً بملك إسرائيل إلَّا في أواخر سنيه. وجاء في الترجمة السبعينية (في ملوك ٣ فصل ١١ عد ٢٢): «وملك هدد في أدوم» ولكن في الأصل العبراني والترجمة اللاتينية العامية (في عد ٢٥ ثمه) «فصار (رزون) فاتناً في إسرائيل كل أيام سليمان، فضلاً عن شرٍّ هدد وأعنت إسرائيل وملك على آرام». فلا يُعلم من الآية حق العلم أهدد أعنت إسرائيل وملك آرام أم رزون. فالظاهر من السبعينية أنّه هدد، وآثر فيكورو (في المحل المذكور) رواية السبعينية أي أنّ هدد ملك في آخر مدة سليمان في أدوم لا في آرام، مستمسكاً بأنَّ هذا أكثر مطابقة لباقي النص وبأنَّ بعض النسخ العبرانية المخطوطة يُقرأ فيها أدوم لا آرام، وبأن صورتي الدال والراء في العبرانية متقاربتان في الخط المدوَّر فيسهل تصحيف أدوم بآرام، وعليه فيظهر أنّ هدد ملك في أدوم ولكن إما أنه لم يملك إلَّا في بعض أنحائها، إما أنه خُلع عن هذا الملك بعدئذٍ لأنه جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٢٢ عد ٤٨) إنه في أيام يوشافاط «لم يكن ملك في أدوم». وفي سفر الملوك الرابع (فصل ٨ عد ٢٠). وفي أيامه (أي أيام يورام بن يوشافاط) خرج الأدوميون من تحت أيدي يهوذا وأقاموا عليهم ملكاً.

وأثار الرب على سليمان فاتناً آخر هو رزون بن ألياداع، فهذا كان قائداً في جيش هدد عازر ملك صوبة لدى محاربة داود له واستظهاره عليه، ففرَّ وجمع إليه رجالاً وصار رئيس غزاة عندما كان داود يدمِّرهم، فانطلقوا إلى دمشق وأقاموه ملكاً

فيها. ولم يصرّح الكتاب بذكر زمان ملكه فلا وسيلة لتعيينه ولكن يستلمح من قوله إنَّ الرب جعله فاتناً على سليمان جزاء إثمه إنه لم يصر ملكاً إلَّا في سني سليمان الأخيرة. وعليه فيلزم أن يكون رزون عاش طويلاً لأنَّ محاربة داود لهدد عازر كانت في أوائل ملكه، وبما أنّ رزون كان قائداً في جيش هدد عازر فلا بدَّ من أن كان له من العمر حينئذٍ لا أقلّ من خمس وعشرين سنة. والمدة من أوائل ملك داود إلى أواخر ملك سليمان ليست أقلّ من سبعين أو تسع وستين سنة، فيلزم منه أن يكون ملك وعمره خمس وتسعون سنة. إلَّا أن نقول إنّه ملك في دمشق في عهدَي داود وسليمان، وكان طائعاً يؤدي الجزية صاغراً ولم يتمرَّد إلَّا في أواخر مدة سليمان جزاءً لإثمه.

قد أثار الله على سليمان فاتناً آخر لا من الأجانب بل من بني إسرائيل وهو ياربعام بن نباط من سبط أفرائيم. فهذا كان سليمان قد رآه جبار بأس وأهل شغل فأقامه على الأعمال المفروضة على آل يوسف من ردم الوادي المسمى ملّو الفاصل بين صهيون مدينة داود وبين الهيكل. وكان ياربعام يسمع شكوى الشعب من الضرائب التي أثقلهم بها سليمان، فدار في خلده أن يثير الناس على سليمان. وسوّلت له نفسه الملك. وكان سليمان حينئذٍ يبني المعابد للآلهة الغريبة استرضاءً لنسائه على ما مرَّ أو إجابةً لسؤال الأجانب الساكنين في أورشليم (على ما روى كراتس في تاريخ اليهود). فجاهر الشعب بالشكوى وكثر عثاره بمثل ملكه فأرسل الرب أحيا النبي الشيلوني (نسبة إلى شيلو وهي الآن خربة سيلون وقد مرَّ تعريفها)، إلى سليمان ليرعوي عن آثامه فقلما حفل به، وكان ياربعام ذات يوم في الصحراء فالتقاه أحيا النبي ونزع عنه ثوباً جديداً كان مدثراً به وشقَّه إلى إثنتي عشرة قطعة. ودفع عشرة منها إلى ياربعام قائلاً هذا مثال ما يصنعه الرب ببني إسرائيل فإنّه سيشق ملكهم ويدفع إليك عشرة أسباط منه، ولكن لا يتم ذلك ما دام سليمان حياً إجلالاً لداود الذي اصطفاه الرب، لأورشليم التي إختارها، وأنت احرص أن تحفظ رسوم الرب فهذا الكلام زاد ياربعام رغباً وأملاً في الملك. فذهب إلى آله يدعوهم لذلك، وعرف سليمان فأمر بقتله ففرَّ إلى مصر ولجأ إلى ملكها الذي سمَّاه الكتاب شيشاق. وروى كراتس في تاريخ اليهود أنّ هذا الملك هو أبو الدولة الثانية والعشرين أي مُبدئها وأصلها. وانحلّت في أيامه المحالفة التي كانت بين سليمان وفرعون لزواجه بينته. وكان شيشاق يتوق إلى الإستيلاء على فلسطين

فرحّب بياربعام وعظّم مثواه وأمسكه عنده ليستعين به على إفتتاح فلسطين فبقي ثمة إلى وفاة سليمان (ملوك ٣ فصل ١١).

عد ٢٩١
وفاة سليمان وما كتبه

قال الكتاب (ملوك ٣ فصل ١١ عد ٣٢): «وكانت أيام ملك سليمان بأورشليم على كل إسرائيل أربعين سنة، وأُضجع سليمان مع أبنائه، ودُفن في مدينة داود أبيه. وملك رحبعام ابنه مكانه». وقال يوسيفوس (ك ٨ فصل ٣ من تاريخ اليهود) إنَّ سليمان عاش أربعاً وتسعين سنة، وملك ثمانين منها لكن قوله مخالف للكتاب ورأي الأئمة والجمهور فهو ملك صغيراً وعمره عشرون سنة. ونصّ الكتاب أنّه ملك أربعين سنة فيكون مات وعمره ستون سنة. وجاء في سفر الملوك الثالث (فصل ٤ عد ٣٢ وما يليه): «قال ثلاثة آلاف مَثَل وكانت أناشيده ألفاً وخمسة أناشيد. وتكلَّم في الشجر من الأرز الذي على لبنان إلى الزوفى التي تخرج في الحائط. وتكلَّم في البهائم والطير والزحافات والسمك»، ولكن لم يبقَ لنا مما كتبه سليمان إلّا سفر الأمثال، أي الحِكم وربما كان هو المشار إليه بقوله إنه قال ثلاثة آلاف مثَل وسفر الجامعة المُفتتح بقوله: «كلام الجامعة ابن داود ملك أورشليم». وحسب بعضهم أن سليمان كتبه بعد اقترافه الإثم توبةً إلى الله. وأجمع القدماء على أن سفر نشيد الإنشاء يعزى إليه، وتردد المتأخرون في متابعتهم على ذلك بناءً على أن الكلام العبراني في هذا السفر وردت فيه عبارات كلدانية أو عبرانية حديثة، فيعزونه إلى كاتب كتبه بعد عصر سليمان، وهذا السفر بطريقة غزل يعبِّر به عن عواطف النفس المؤمنة وشوقها إلى الحظوة بالله كطريقة المتصوفين. ونسب بعض القدماء سفر الحكمة أيضاً إلى سليمان، ولا يمكن تحقيق هذه النسبة لأنه يظهر أنّ هذا السفر كُتب أصله باليونانية، وأقل إحتمالاً من هذا نسبة سفر حكمة يشوع بن سيراخ إليه.

ولا يُعلم ما كان كلام سليمان في الشجر، والبهائم والطير والزحافات والسمك أتكلَّم في خواصها وطبائعها ومنافعها أم ضرب أمثالاً بها فلا وسيلة للقطع بذلك لضياع هذه الكتب بكرور الأيام وحدثانها. قال بوجولا (في تاريخ أورشليم فصل ٩ مجلد ١ صفحة ١٧٣): «قد يكون سليمان كتب كلاماً مفصلاً في علم

التاريخ الطبيعي كما كتب موسى موجزاً في تاريخ إبداع العالم، فلو بقي لنا في علم الزولوجية (الكلام في الحيوانات) والبوتانيك (الكلام في النبات) فوائد أورثتنا إياها حكمة سليمان لتقدم بلا مراء العلم باسوار الطبيعة في المعمور».

إنَّ بين الآباء والعلماء مبحثاً كبيراً غامضاً في ما إذا كان سليمان تاب وخلص أو أصرَّ وهلِك، فقال بعضهم إنه تاب وخلص مستدلين على ذلك بقوله تعالى لداود أبيه عنه: «أنا أكون له أباً وهو يكون لي ابناً، وإذا أثِم أؤدبه بقضيب الناس وبضربات بني البشر، وأما رحمتي فلا تُنزع عنه كما نزعتها عن شاول» (ملوك ٢ فصل ٧ عد ١٤ و ١٥). ويقول الكتاب: إنَّ رحبعام وشعبه «ساروا في طريق داود وسليمان ثلاث سنين» (أخبار الأيام الثاني فصل ١١ عد ١٧). وذهب كثير من مفسري الكتاب إلى أنّ سفر الجامعة أثر دالّ على توبة سليمان وأنه كتبه بعد إثمه. ولكن ذهب غيرهم وهم كثيرون أيضاً إلى أنّ سليمان لم يتب فلم يخلص مستدلين بأنَّ الكتاب صرَّح بإثمه وعبادته الأوثان، ولا نرى فيه كلمة في توبته. وقالوا: ليس في سفر الجامعة دليل قاطع على توبته ولو تاب توبة صادقة لما ترك على جبل الزيتون المعابد التي أقامها للأوثان لأننا نراها استمرت إلى أيام يوشيا. إذ جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ٢٣ عد ١٣) «والمشارف التي تجاه أورشليم إلى يمين جبل الهلاك التي بناها سليمان لعشتاروت قذر الصيدونيين ولكموش رجس الموآبيين وللكوم رجس بني عمون نجسها الملك». والحاصل أنّ هذا مبحث اعتاص حلُّه إلى اليوم فالأولى الإضراب عنه وترك الحكم فيه لله.

الفصل الخامس عشر

انشقاق مملكة بني إسرائيل وملوك يهوذا وإسرائيل إلى آحاب

عد ٢٩٢

ملك رحبعام بن سليمان وياربعام بن نباط

قلَّ أولاد سليمان وإن كثرت نساؤه، وقد وُلد له راحبعام من امرأته نعمة العمونية قبل ملكه، لأنَّ عمر راحبعام كان إحدى وأربعين سنة حين ملك (ملوك ٣ فصل ١٤ عد ٢١) لكنه لم يشبه أباه بشيء من حكمته فقد كان الشعب لا سيما سكان شمالي فلسطين يئنون من الأثقال والضرائب التي إفترضها عليهم سليمان. وكانت عظمته ومهابته وغناه تجعلهم يبطِّنون كيدهم وضغينتهم، ويظهرون طاعتهم وإنقيادهم. وقد مرَّ أنّ ياربعام بن نباط كان حاول أن يثير فتنة على سليمان، فأراد قتله لكنه فرَّ إلى مصر لاجئاً إلى ملكها. فبعد وفاة سليمان استدعى ياربعام ذووه فأسرع طلق العنان إلى شكيم (نابلس) ونصب أحبولة لرحبعام بأن حمل الشعب على أن يستدعوه إلى شكيم ليملِّكوه باحتفاءٍ. فمضى غير عالم بما يكنّه خصومه فأرسلوا إليه وفداً رئيسه ياربعام يقولون: «إنَّ أباك قد ثقل نيرنا وأنت فخفِّف الآن من عبودية أبيك الشاقة ونيره الثقيل الذي وضعه علينا فنخدمك، فقال لهم: أمضوا إلى ثلاثة أيام ثم عودوا إليَّ». فشاور رحبعام الشيوخ مستشاري أبيه فقالوا إن تنازلت لهؤلاء الشعب اليوم ووافقتهم كانوا لك عبيداً كلَّ الأيام فترك مشورة الشيوخ، وشاور الفتيان الذين نشأوا معه فقالوا قل لهؤلاء إنَّ خنصري أغلظ من متن أبي فإن كان أبي حمَّلكم نيراً ثقيلاً، فأنا أزيد على نيركم. أبي أدَّبكم بالسياط وأنا أؤدِّبكم بالعقارب. ولما عاد ياربعام ووكلاء الشعب في اليوم الثالث للوقوف على الجواب أجابهم الملك كما لقَّنه الفتيان. فانفضّوا من أمامه قائلين: ما قيل في أيام داود جده «أيُّ نصيب لنا مع داود وأيُّ ميراث مع ابن يسى إلى خيامكم يا

إسرائيل». وبدلاً من أن يرسل اليهم من يحبّون أو يجلّون ليرجعهم إليه بعث إليهم أدورام المولّى على الخراج الذي كان يُثقل عليهم، فرجمه جميعهم بالحجارة فمات. فأسرع الملك وصعد إلى مركبته وهرب إلى أورشليم، وتمرّد الأسباط العشرة على بيت داود، وأقاموا ياربعام ملكاً عليهم في شكيم (نابلس) ولم يبقَ لرحبعام إلّا سبطه بنو يهوذا وسبط بنيامين. فانشقّت مملكتهم إلى ولايتين أو مملكتَين مملكة يهوذا وبنيامين وعاصمتها أورشليم، ومملكة إسرائيل كما سمّوها وعاصمتها نابلس. فتمّ ما قاله الرب بلسان النبي أحيا كما مرّ آنفاً. وحصل ما كان سليمان يخشاه إذ قال في سفر الجامعة (فصل ٢ عد ١٨ و ١٩): «وكرهت جميع ما عانيت تحت الشمس من تعبي الذي سأتركه لإنسانٍ يخلفني. ومن يدري هل يكون حكيماً أو أحمق مع أنه يتسلّط على كلّ عملي الذي أفرغت فيه تعبي وحكمتي تحت الشمس، هذا أيضاً باطل». وجمع رحبعام مئة وثمانين ألف مقاتل من آل يهوذا وبنيامين ليحاربوا سائر بني إسرائيل، ويردّوا الملك برمّته إلى رحبعام بن سليمان. فبعث الرب شميعا رجل الله ينهاهم عن مقاتلة إخوتهم لأنَّ هذا جرى بأمره، ويأمرهم أن يعود كلٌّ إلى محله، فأذعنوا وعاد كلّ إلى محله.

أما ياربعام فبنى شكيم، والمراد أنه حصّنها بأسوار تردُّ العدو عنها على ما قال لانرمان (في تاريخ المشرق في كلامه على العبرانيين) أو بنى فيها قصراً لإقامته على ما قال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٣) أو المراد أنه جدّد بناءها بعد أن أخربها إيبملك بن جدعون كما مرَّ في الكلام عليه. وبنى ياربعام فنوئيل وهي مدينة في عبر الأردن كان جدعون هدم برجها، وقتل أهلها لدى عوده من ملاحقة المدينيين. فكأنَّ ياربعام جدّد بناءها أو حصّنها لتكون قلعة في أطراف ملكه. وخشي أن يمضي الشعب في الأعياد ليذبح للرب في أورشليم فيستميل رحبعام قلبهم إليه، ويثلّون عرشه أو يقتلونه فصنع عجلَين من ذهب، كما كان رأى المصريين يعبدون أبيس بهيئة عجل، وأقام أحدهما في بيت إيل (بيت إين الآن على مقربة من نابلس) ليعبده سكان جنوبي مملكته. والثاني في دان (تل القاضي الآن حذاء بانياس) ليعبده سكان شمالي مملكته. وأقام كهنة من لفيف الشعب من غير بني لاوي وقال لبني إسرائيل لا حاجة لكم بعد إلى أورشليم. هذه آلهتكم يا إسرائيل التي أخرجتكم من مصر. وأقام عيداً في الشهر الثامن في الخامس عشر منه كالعيد الذي يقام في أورشليم. وقدّم الذبائح للعجلَين. وجعل نفسه رئيس أحبار وصعد

على المذبح في بيت إيل ليقتّر أي يقدِّم البخور والذبائح. ولا يُظن أنّ جميع بني إسرائيل عبدوا العجل وقتئذٍ، بل استمرَّ جمٌّ غفير منهم يحج إلى أورشليم أو يعبد الله خفية؛ وهذا بيّن من آيات في الكتاب منها قوله تعالى لإيليا النبي: «إني قد أبقيت في إسرائيل سبعة آلاف كل ركبة لم تجثُ للبعل». ومنها ما جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (ف ١١ ع ١٦): «وكان الذين وجهوا قلوبهم لالتماس الرب إلٰه إسرائيل من جميع أسباط إسرائيل يأتون إلى أورشليم ليذبحوا للرب إلٰه آبائهم» (ملوك ٣ فصل ١٢).

وأرسل الرب نبياً من سبط يهوذا إلى بيت أيل ولم يذكر الكتاب اسم هذا النبي وذكر يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ٨ فصل ٣) إنَّ اسمه يدون وقال بعض المفسرين إنه عدد الرائي الذي كتب أخبار رحبعام وابيا كما في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ١٢ عد ١٥). فدخل النبي هيكل بيت أيل وياربعام واقف على مذبحه يقدِّم البخور والذبائح. وصاح بكلام الرب قائلاً: يا مذبح يا مذبح كذا قال الرب هوذا سيولد لبيت داود ابن يسمى يوشيا وهو سيذبح عليك كهنة المشارف الأحياء حينئذٍ، ويحرق عليك عظام الموتى منهم. وهاكم آية تثبت ذلك هوذا المذبح ينشقّ ويُذرى الرماد الذي عليه. وسمع ياربعام فاحتدم ومدَّ يده قائلاً: أمسكوه، فيبست يده ولم يستطع أن يردها إليه. وانشقَّ المذبح وذُري الرماد الذي كان عليه فتيقَّن ياربعام أنّ ذاك أمر الرب. فتوسَّل إلى النبي ليستعطف الله لترتد يده ففعل النبي وعادت يده كما كانت أولاً.

ورغب الملك إلى النبي أن يحضر معه إلى البيت ليكرمه فقال لو أعطيتني نصف بيتك لم أدخل معك. ومضى في طريق غير الطريق التي جاء منها. وكان في بيت إيل نبي كاذب وكان ياربعام يكرمه لأن يتنبأ له بما يرضيه على ما قال يوسيفوس (في المحل المذكور) فخاف أن يزدريه ياربعام ويستمسك بالنبي الذي رأى معجزاته، ولما قصَّ عليه نبوّة ما فعل رجل الله، مضى في إثره حتى أدركه والحَّ عليه أن يعود معه إلى بيته ليأكل خبزاً. فأجابه: إنَّ الرب نهاه عن ذلك فقال النبي الكاذب أنا نبي مثلك، وقد ناجاني ملاك قائلاً ردَّه إلى بيتك فيأكل خبزاً ويشرب ماءً. فاغترَّ النبي وعاد معه، وصار كلام الرب إليه أن لا تدخل جثته قبور آبائه لأنه خالف وصيّة الرب. وبعد إنصرافه لقيه أسدٌ فقتله ولم يفترس جثته. وعرف النبي الكاذب فأتى وأخذ جثته ودفنها في قبرٍ أوصى أولاده أن يدفنوه فيه. وذلك أنه

اعتقد ما قاله النبي أنّ عظام كهنة المشارف ستُحرق على مذبح ياربعام. فأحبَّ أن تُجهل عظامه فلا تُميز عن عظام النبي. وروى يوسيفوس (في المحل المذكور) إنَّ هذا النبي مضى بعد ذلك إلى ياربعام يقول لا تحفل بكلام هذا المهذار فلم تيبس يدك إلّا لأنها كلّت من تقدمة الذبائح، ولم ينشقّ المذبح إلّا لأنه جديد لم يتحمّل الذبائح والحطب التي وضعت عليه. ولو كان هذا نبي الله لما قتله الأسد، فلم يرتد ياربعام عن طريقه الفاسد (ملوك ٣ فصل ١٣).

ومرِض ابيا بن ياربعام فقال الملك لإمرأته تنكري واذهبي إلى النبي أحيا الذي تنبأ أنني سأكون ملكاً، وخذي عشرة رغفان وكعكاً وجرّة عسل وهو يعلمك ما يكون من أمر الغلام ففعلت. وكان أحيا كفَّ بصره وأوحى الرب إليه ما يقول لها ولما سمع خفق خطواتها في الباب قال ادخلي يا امرأة ياربعام، لماذا أنتِ متنكّرة؟ إذهبي فقولي لياربعام إنَّ الرب يقول له جعلتك رئيساً على إسرائيل. وشققت ملك داود وأعطيتك فصنعت لنفسك آلهة أخرى ونبذتني ظهرياً، لذلك أنا قارض كل ذكر من ذريتك. ومن مات منهم في المدينة تأكله الكلاب، ومن مات في الصحراء تأكله طير السماء. وامضي أنتِ إلى بيتك وعند دخول رَجلكِ إلى المدينة يموت الولد. وهذا وحده من بيت ياربعام يدخل قبراً لأنه وجد فيه شيء من الصلاح، فمضت وعند دخولها على عتبة الباب مات الغلام وأصرَّ ياربعام على شرّ.

وأما رحبعام وأهل مملكته فاتقوا الله «وساروا في طريق داود وسليمان ثلاث سنين» (أخبار الأيام الثاني فصل ١١ عد ١٧). ونمت مملكتهم وأُضيف إليها اللاويون والسواد الأعظم منهم، لأنهم لم يشأوا أن يكهنوا على مذابح ياربعام وهو استبدلهم بكهنة من لفيف الشعب كما مرَّ. وحصَّن راحبعام مدناً من مملكته منها بيت لحم وحبرون (الخليل). وجت (ذكرين الآن) وجعل فيها مخافر وخزائن طعام وزيت وخمر ومجانب ورماحاً. وقال الكتاب: إنه «كانت حرب بين رحبعام وياربعام كل أيام حياته». وسطت الأيام على ما كتبه شمعيا، وعدَّد في تاريخ هذه الحروب كما أشار الكتاب. وقال كراتس (في تاريخ اليهود) لم تكن هذه الحروب إلّا مناوشات ومشاحنات كدأب كل جيران طال الخلاف بينهم، ولم يكن منها أمور ذات بال. ويظهر أنّ كلاً من الملكَين اتَّخذ حلفاء فحالف رحبعام روزون ملك دمشق المار ذكره، فإنه عزَّز مملكته التي أقامها في أيام سليمان وألحق بها أعمالاً من بلاد الآراميين. وكان ياربعام حليفاً لملك مصر مذ أقام عنده وقيل إنه زوَّجه بانو

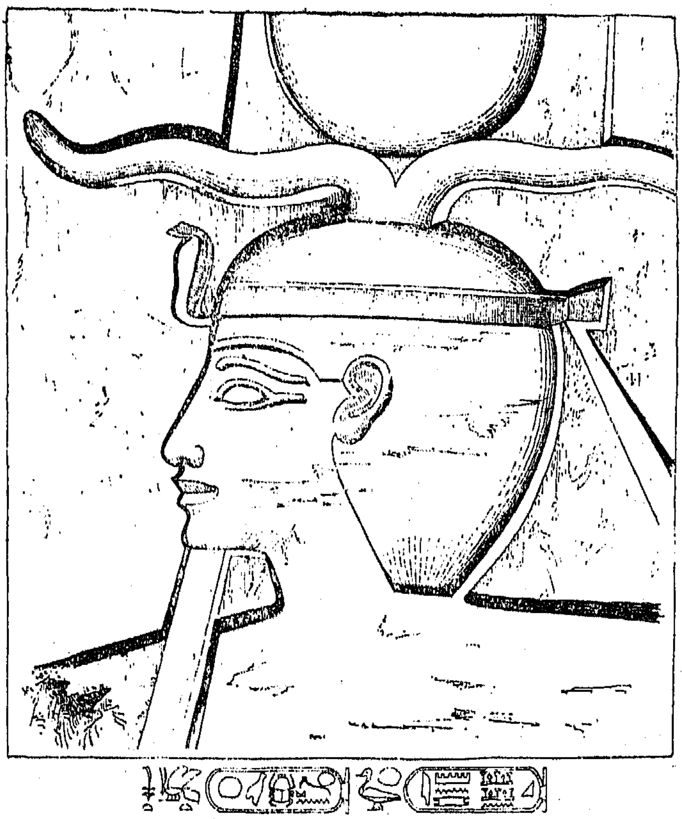
أخت امرأته، كما زوَّج هدد ابن ملك أدوم بأختٍ أخرى لها كما مرَّ.

عد ٢٩٣

حملة شيشاق ملك مصر على رحبعام ملك يهوذا

ما عتَّم أهل مملكة يهوذا أن يصنعوا الشر، وأقاموا لهم مشارف وأنصاباً فغضب الرب عليهم. ولما كانت السنة الخامسة لملك راحبعام، صعد شيشاق ملك مصر على أورشليم وهذه أول مرة عبَّر الكتاب فيها عن ملك مصر بغير علم فرعون، وكان جيشه مؤلفاً من ألف ومئتي مركبة وستين ألف فارس. وجمّ غفير من الرجّالة جاءوا معه من مصر من اللوبيين والسكيين والكوشيين، ويراد بهؤلاء الأحباش. ولكن ذهب كلمت إلى أنّ العبرانيين كانوا يسمون سكان جنوب العربية كوشيين فعليه يكون هؤلاء من العرب. فأخذ المدن المحصَّنة في طريقه إلى أورشليم، ثم أقبل عليها وكان رحبعام ورؤساء يهوذا اجتمعوا فيها. وأرسل الرب إليهم شمعيا النبي يبكتهم على تركهم إياه ويهدِّدهم بالنازلة المفاجئة لهم. فخشعوا وقالوا عادلٌ هو الرب فأعلمهم النبي أنّ الرب لا يدمرهم بل يوتيهم بعض الفرج والنجاة لكنهم يكونون عبيداً لملك مصر ليرفعوا عبودية الرب من عبودية ممالك الأرض. وزحف شيشاق إلى أورشليم فانتهب ما في خزائن بيت الرب وخزائن دار الملك، وأخذ جميعها ومجّان الذهب التي عملها سليمان، فاضطرَّ رحبعام أن يصنع مكانها مجانّ من النحاس (أخبار الأيام الثاني فصل ١٢). قال كراتس (في تاريخ اليهود): إنه يظهر أنّ أورشليم استسلمت فاكتفى شيشاق أن ينتهب كلَّ نفيس في بيت الرب ودار الملك، ولم ينقض أسوار أورشليم، ولم يقرض مملكة يهوذا بل أقرَّ رحبعام على عرشه.

إنّ شيشاق هذا هو أول ملوك الدولة الثانية والعشرين من دُول مصر، وبعد عوده من حملته هذه نقش صورة ما عمله فيها على جدار هيكل الكرنك. وقال شمبوليون الإفرنسي كاشف الكنوز الهيروكليفية (في رسائله التي كتبها من مصر والنوبة سنة ١٨٢٨ م وسنة ١٨٢٩م، ونُشرت في باريس سنة ١٨٣٣ م) إنه بينما كان في ٢٣ ت ٢ سنة ١٨٢٨ م صاعداً في النيل نزل إلى البر يستفحص أطلال الكرنك. فعثر في طرف الحائط الجنوبي من هيكلها على صورة ملك رافع يده ليضرب أسرى جاثين أمامه ومن ورائهم مئة وخمسون رجلاً ملتحين. فعلم أنهم



صورة شيشاق ملك مصر احد ملوك الدولة الثانية والعشرين الذي حمل على راحبعام ملك يهوذا

ليسوا مصريين لأنَّ هؤلاء لم يكونوا يطلقون لحاهم. فأخذ شمبوليون يتفرَّس في كلٍّ منهم. ولما بلغ التاسع والعشرين منهم وجد مكتوباً عليه «يهوتا ملك» أي ملك يهوذا فهزَّه السرور لعلمه أنَّ الملك المصري صاحب هذا الأثر إنما هو شيشاق الذي حمل على رحبعام. وتيقَّن أنَّ الممثل هناك مكتوباً عليه ملك يهوذا إنما هو رحبعام. هذا فكان إكتشافه مثبتاً ما جاء في الفصل الرابع عشر من سفر الملوك الثالث، وفي الفصل الثاني عشر من سفر أخبار الأيام الثاني. وكان هذا الاكتشاف باكورة لاكتشافات أخرى عديدة كما رأيت وسترى. وقد تفاخر بعد ذلك الكردينال

ويسمن رئيس أساقفة لندرة بذكر هذا الأثر في خطبته الغرّاء. «في العلائق بين العلم والدين الموحى» التي كان يلقيها في روما قبل أن يرتقي مقام الكردينالية.

لم يجتزئ شيشاق بنقش صورة إفتتاحه أورشليم بل نقش على جدار الكرنك جريدة مطولة في اسماء المدن والأعمال التي دانت له، وقد أذاع فحوى هذه الجريدة روزاليني ولبسيوس وبروغش، وغيرهم في كلامهم على الآثار المصرية. وقد محا كرور الأيام بعض هذه الأسماء وبعضها لم تتحقق مسمّياته ولكن بقي منها أسماء كثيرة مثبّتة إثباتاً علمياً قاطعاً ما ورد في الكتاب. فقد جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ١١ عد ٦ وما يليه) إنَّ رحبعام حصَّن «بيت لحم وعيطم وتقوع وبيت صور وسوكر وعدلام وجت ومريشة وزيف وأدورائيم ولاكيش وغريقة وصرعه وأيالون وحبرون». وفي جريدة شيشاق اسماء كثيرة من هذه المدن منها اسم «عدولما» وإن هي إلّا عدلام الوارد ذكرها في الكتاب، والمعروفة الآن بخربة خريطون على ثمانية أميال جنوباً من بيت لحم. ثم «أيولون» وهي بلا إشكال أيالون الكتاب المسماة في أيامنا يعلو في شرقي عمواس. ثم «سوكة» وليست إلّا سوكو التي ذكرها الكتاب المعروفة اليوم بخربة الشويكة على ما حقق كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٢٠٢). ثم «أدورام» وليست إلّا أدورائيم المذكورة آنفاً وتسمى في الترجمة اللاتينية أدورام. وأدورا وهي دورا الآن في جبل الخليل. ثم «صرعاتان» وليست إلّا صرعة المذكورة آنفاً وهي المسماة اليوم صرعة حيث مدفن شمشون وأبيه. ثم «تقوعان» وليست إلّا تقوع التي ذكرها الكتاب والمعروفة الآن أيضاً بهذا الاسم وموقعها في جنوب أورشليم بين بيت لحم والخليل.

عد ٢٩٤

وفاة رحبعام وملك ابنه ابيا وحربه مع ياربعام

ملك رحبعام في أورشليم سبع عشرة سنة. وكان قد اتخذ ثماني عشرة زوجة منهنَّ معكة بنت أبشالوم كذا في سفر الملوك ال ٣ (ف ١٥ ع ٢). ولكن في سفر أخبار الأيام الثاني (ف ١٣ ع ٢). «واسم أمه ميكايا بنت أوريئيل من جبع» مع أنه قيل في هذا السفر (ف ١١ عد ٢٠) عن رحبعام إنه «تزوج معكة ابنة أبشالوم فولدت له ابيا». ففي توفيق هذه الآيات أقوال نرى أصحها وأظهرها ما رواه فيكورو في معجم الكتاب في كلمتي ابيا وأبشالوم؛ وهو إنَّ اسم ميكايا في سفر

أخبار الأيام إنما هو خطأ ظاهر من النساخ أو تحريف لإسم معكة. وحيث أبشالوم ابن داود لم يكن له إلّا بنت اسمها تامار (ملو ٢ ف ١٨ عد ١٨). فالأظهر أن تكون معكة أو ميكايا أم ابيا بنت تامار هذه من زوجها أوريئيل من جبع وحفيدة أبشالوم بنت بنته. وسماها الكتاب بنته في بعض آيه توسعاً، وأمثاله كثيرة فيه. إنَّ أبشالوم المذكور هنا يمكن أن يكون غير ابن داود ويسمى باسمَين أبشالوم وأوريئيل عبَّر الكتاب عنه بهما. وكان لتامار وجه لتسمية بنتها معكة لأنَّ هذا اسم جدتها امرأة داود بنت ملك جشور. وأقلّ إشكالاً من هذا تسمية أم آسا ابن ابيا معكة أيضا بقوله (ملوك ٣ فصل ١٥ عد ١٣). «وأيضاً معكة أمه (أي أم آسا) نزع عنها لقب الملك لأنها صنعت تمثالاً». إذ يُحتمل أن تكون امرأة ابيا مسماة معكة باسم أمه أو أن يكون المراد باسم أم آسا التي نزع ابنها لقب الملك عنها جدته أم أبيه ابيا خاصة لأنَّ الترجمات اليونانية تسمي أم آسا حنه لا معكة.

وقد كان لرحبعام ثمانية وعشرون ابناً وستون بنتاً. وأقام أبناءه في المدن المحصَّنة في مناصب مهمة دفعاً للنزاع بينهم. وأقام ابيا أحدهم رئيساً ومتسلطاً على إخوته لأنّه نوى أن يورثه الملك بعده كما صنع قبيل موته. ودفنه مع آبائه في مدينة داود وملك ابيا على يهوذا في السنة الثامنة عشرة لملك ياربعام على إسرائيل. وانتشبت الحرب بينهما. فحشد ابيا أربع مئة ألف رجل منتخبين، وصافه ياربعام بثماني مئة ألف منتخبين. ووقف ابيا على جبل صمارائيم ويظهر أنه الجبل الذي شراه له بعد ذلك عمري ملك إسرائيل من رجل اسمه شامر أو سامر. وبنى عليه مدينة سماها السامرة باسمه. ومن أعلى هذا الجبل خطب ابيا في ياربعام وقومه خطبة شاهدة له بالفصاحة والبلاغة. بيَّن فيها أنّ الرب أعطى داود ملك إسرائيل بعهدٍ مبرم، وأنَّ ياربعام عبد سليمان بن داود عصا مولاه وجمع إليه رجالاً أثمة بطالين. فتغلَّبوا بعد وفاة سليمان على رحبعام ابنه إذ كان صبياً ضعيف القلب. وإنهم يعتمدون الآن على كثرة عديدهم وعلى العجول الذهبية التي جعلها ياربعام آلهة لهم. وقد نبذوا كهنة الرب من بني هرون واللاويين. واتخذوا من تزلف إليهم بتقادمه كهنة لهم، وأنه هو وبني يهوذا وبنيامين ما برحوا شديدي التشبث بمعتقد آبائهم، ولم يتركوا الرب إلاههم ويقوم بخدمته بنو هرون واللاويون بحسب سنَّته، وعليه فالله معهم وهو رئيسهم ومقاوم لأعدائهم، واختتم كلامه قائلاً يا بني إسرائيل لا تحاربوا الرب إله آبائكم فإنكم لا تفلحون.

وبين كان ابيا يلقي هذا الخطاب كانت فِرق من جنود ياربعام تدور من وراء الجبل لتكمن لبني يهوذا، وتكون جحافل ياربعام من أمامهم وورائهم. ودرى ابيا وقواد جيشه بالحيلة، فصرخوا إلى الرب وهتف الكهنة بالأبواق، وتعالى هتاف رجال يهوذا، فاستولى الرعب على أعدائهم. وضرب الله ياربعام وجميع إسرائيل أمام بيا ويهوذا. وانهزموا من وجههم وأسلمهم الله إلى أيديهم فضربوهم ضربة عظيمة وسقط قتلى من إسرائيل خمس مئة ألف رجل، فذُلَّ بنو إسرائيل واعتزَّ بنو يهوذا لأنهم اتكلوا على الرب. إنَّ عدد الأربع مئة ألف في معسكر ابيا والثماني مئة ألف في معسكر ياربعام، وعدد قتلى بني إسرائيل خمس مئة ألف كل ذلك استبان لبعض مفسري الكتاب معظَّماً، وغير خالٍ من مبالغة، وحسب فيكورو في (معجم الكتاب) ذلك غلطاً منشأه غفلة النساخ، أو التشابه بين الحروف العبرانية المعبر عن العدد بها، وأيضاً إنَّ بعض النسخ المخطوطة والمطبوعة روت إنَّ عسكر ابيا كان أربعين ألفاً وعسكر ياربعام ثمانين ألفاً، وعدد القتلى خمسين ألفاً على أنّ النص العبراني والترجمة السبعينية وأصحّ النسخ اللاتينية المخطوطة والمطبوعة، وتاريخ يوسيفوس أثبتت هذه الأعداد كما رويناها أولاً. ومع هذا يُطلق لكل أن يستمسك بأي الروايتين شاء، فمثل هذه الأعداد لا تمسّ الدين بشيء، وتبيح الكنيسة كلاً أن يتبع فيها ما حسن له.

لم يكتفِ ابيا بقهر أعدائه بل سعى في أثر ياربعام، فلم يدركه وأخذ من مملكته بيت أيل (بيت أين الآن) وتوابعها، ويشافه. وفي كتاب اعلام الأماكن الكتابية أنها كانت في المحل المسمى الآن عين سينيا في شمالي بيت إيل ثم عفرائين وتوابعها، وهذه تسمى عفرون وعفرا وأفرام أيضاً، وموقعها في الشرق الشمالي من بيت أيل، وتسمى الآن الطيبة، وكأنّ اسمها الجديد تفسير لاسمها القديم، لأنَّ عفرا في العبرانية معناها الطيب والبهج. وروبينسون أول من قال بهذا القول، وجاراه عليه كاران (مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٤٧) وقال: إنّها افرام التي اعتزل اليها المخلّص بعد قيامة العازر وقُبيل آلامه (يوحنا فصل ١١ عد ٥٤).

وجاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٥ عد ٣) في ابيا إنه: «لم يكن قلبه مخلصاً للرب إلهه كقلب داود أبيه» إلّا أنّ الله نصره من أجل داود وانتقاماً من ياربعام وتثبيتاً لأورشليم. ومما يؤذن بعد خلوص قلبه لله إستبقاؤه المشارف في بيت أيل وعليه فيكون كلامه في خطبته ضرباً من السياسة يخيف به أعداءه، ويشجّع

قومه ولا يطابق عمله كلامه فيه. وقد تزوج ابيا بأربع عشرة امرأة وولد له إثنان وعشرون إبناً وست عشرة بنتاً ولم يملك إلّا ثلاث سنين ومات. ودُفن في مدينة داود وخلفه ابنه آسا. وأما ياربعام فعاش بعد انخذاله سنتين مبتئساً ذليلاً. ومات في السنة الثانية والعشرين لملكه أو في بدء الثالثة والعشرين، وخلفه ابنه ناداب (ملوك ٣ فصل ١٥ وأخبار الأيام الثاني فصل ١٣).

عد ٢٩٥

آسا ملك يهوذا وناداب وبعشا ملِكَي إسرائيل

أما ناداب بن ياربعام فصنع الشرّ سالكاً في طريق أبيه. إلّا أنّ ملكه لم يدم إلّا سنتين. وحالف عليه بعشا بن احيا من آل يساكر وبينما كان محاصراً هو وجميع إسرائيل مدينة جبتون قتله بعشا غيلة. وجاء في أعلام الأماكن الكتابية أنّ جبتون يُحتمل أن تكون كيبا الآن في غربي تبنه. وفي غيره إنها كانت في المحل المعروف اليوم بجباتا في الغرب الجنوبي من الناصرة. ويُظن أنّ الحرب فيها كانت مع الفلسطينيين. وبعد أن ملك بعشا لم يترك لياربعام ذا نسمة إلّا أهلكه. وأكلت الكلاب والطيور جثثهم كما تكلَّم الرب على لسان النبي احيا الشيلوني كما مرَّ.

أما آسا ملك يهوذا فأحسن المسعى، ونفى المخنثين من الأرض، وأزال جميع أقذار الأصنام حتى أنّ أمه أو جدته (كما مرّ) معكة، كانت صنعت تمثال فحل لعشتاروت فنزع عنها. لذلك لُقب الملك، وكسر تمثالها وأحرقه في وادي قدرون وأمر شعبه أن يعملوا بسنَّة الرب. وحصَّن مدناً كثيرة في مملكة يهوذا بأسوار وأبراج ومغاليق. وكان له جند يحملون المجانب والرماح ثلاث مئة ألف من يهوذا ومئتان وثمانون من سبط بنيامين، وبحكمته رتعت رعيته في رياض الأمن والسلم مدة العشر السنين أو الخمس عشرة سنة الأولى من ملكه. على أنّ ضعفه أو داعياً سياسياً أغفله عن نقض بعض المشارف التي كان فيها مذابح لله على خلاف السنَّة، وعن تدمير بعض المشارف الوثنية أيضاً كما هو ظاهر من قول الكتاب (ملوك ٣ فصل ١٥ عد ١٤): «وأما المشارف فلم تزل إلّا أنّ قلب آسا كان مخلصاً للرب كل أيامه»، ويؤيده أنّ المشارف التي كان سليمان بناها لبعض نسائه في جانب أورشليم لم تنقض إلّا في أيام يوشيا. لكن آسا أزال أكثر هذه المشارف، وكسر تماثيل الشمس وعشتاروت، وهذا ظاهر من قول الكتاب (أخبار الأيام الثاني فصل

١٦ عد ٥): «وأزال من جميع مدن يهوذا المشارف وتماثيل الشمس». وعليه فيكون ما مرّ طريقة التوفيق بين قولَي الكتاب.

عد ٢٩٦

خروج زارح الكوشي على آسا ملك يهوذا

قال الكتاب (أخبار الأيام الثاني فصل ١٤ عد ٩): «خرج عليهم زارح الكوشي بألف ألف (مليون) من الجيش. وثلاث مئة مركبة وزحف إلى مريشة» ذهب كلمت وغيره إلى أنّ زارح الكوشي هذا لم يكن ملك كوش التي هي الحبشة، بل كان ملك بلاد العرب الجنوبية التي تسمى كوش أيضاً، حيث سكن المدينيون الذين منهم امرأة موسى ولذلك دُعيت كوشية أو حبشية. إلّا أن هذا المذهب لا يعول عليه لا سيما لأنّ جنوبي العربية لا يمكن أن يؤخذ منه عسكر جرار ألف ألف رجل كما نبأنا الكتاب، بل المعول عليه إنما هو أحد مذهبَين آخرَين أولهما قال به لانرمان (في تاريخه القديم للمشرق مجلد ٦ صفحة ٢٦٢ طبعة ٩) وهو أن زارح هذا أو أزرح عمان هو ملك الحبشة. وكان ألَّب إليه جحافل جرارة من البرابرة في جانبي النيل، فانقضّ بهم على مصر وأخربها من الجنوب إلى الشمال. وعمد أن يصنع كذلك في فلسطين، فالتقاه آسا فبدد شمل جيوشه كما سيأتي وأسند لانرمان قوله: إلى أنّ ازرح عمان الذي يخاله زارح وجد اسمه مكتوباً على كثير من آثار الحبشة، وإنَّ العلّامة بروغش أوجد هذا التصحيح المهم. والمذهب الثاني قال به شمبوليون (في كتابه خلاصة الخط الهيروكليفي صفحة ٢٥٧ وما يليها)، وتابعه عليه سميث (في معجم الكتاب في كلمة زارح)، ومريات وغيرهما وخلاصة قولهم إنَّ زارح هذا هو أوزركن الأول ملك مصر والثاني من ملوك الدولة الثانية والعشرين. ومما قاله مريات إنَّ أوزركن هذا لا يظهر إنه ابن شيشاق الأول الذي حارب رحبعام مع أنّه يظهر أنّه خلفه بعد تسع وعشرين سنة من أخذ شيشاق أورشليم يحارب آسا حفيد رحبعام وسماه الكتاب زارح. وقد ندَّد لانرمان بهذا المذهب لإنتفاء المقاربة بين اسمَي زارح وأوزركن والله أعلم.

أما مريشة التي زحف إليها زارح فهي المسماة الآن خربة مراش على عشرين دقيقة من بيت جبرين جنوباً (أعلام الأماكن وكاران مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٣٢٣). ولم تحل جحافل زارح هذا المحل إلّا وخرج آسا عليه بجيشه وعديده

خمس مئة وثمانون ألفاً «وتصافّا للقتال في وادي صفاتة عند مريشة». كذا في النص العبراني. ولكن في الترجمة السبعينية «في الوادي الذي في شمال مريشة». وجنح روبينسون إلى القول بأنَّ وادي صفاتة هو المسمى اليوم تل الصافي. على أنّ هذا التل يبعد ثلاث ساعات عن خربة مراش فلا ينطبق هذا على قول الكتاب أنّ الوقيعة كانت «عند مريشة». إلّا أن يقال إنَّ وادي صفاتة يمتد من بيت جبرين إلى تل الصافي، وإنَّ الوادي يسمى كله باسم المحل الذي ينتهي فيه. وكانت الوقيعة في طرفه عند بيت جبرين. ومهما يكن من أمر المحل فإنَّ آسا صرخ إلى الرب عند إفتتاح القتال قائلاً: «يا رب لا فرق لديك أن تعين الكثيرين أو من لا قوة لهم فأعنّا أيها الرب إلٰهنا لانا عليك نعتمد». فضرب الرب الكوشيين أمام آسا وبني يهوذا، فانهزموا ولعبت بهم أيدي سبا. وقُتل منهم كثيرون وغنم جيش آسا غنيمة عظيمة جداً، وما انكفوا يطاردون الكوشيين إلى جرار وهي المسماة الآن أم الجرار في جنوبي غزة على ساعتين منها (كاران مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٢٥٧). وضرب آسا وجنوده جميع المدن المحيطة بجرار، وأخذوا منها غنائم وافرة، وضربوا أيضاً حظائر الماشية التي كانت هناك، وأخذوا كثيراً من الغنم والإبل. وعادوا إلى أورشليم (أخبار الأيام الثاني فصل ١٤).

فالتقاهم عزريا بن عوبيد النبي وقال أصغوا إليَّ يا آسا وجميع يهوذا وبنيامين إنَّ الرب معكم ما دمتم أنتم معه، وإن تركتموه فإنه يترككم. وسيكون إسرائيل أياماً كثيرة بلا إله حق، وبلا كاهن، وبلا شريعة، وتكون اضطرابات كثيرة وتسحق أمةٌ أمةً ومدينةٌ مدينةً. وأشار النبي بذلك إلى حالة الأسباط العشرة أو إلى ما سيكون وقت السبي إلى بابل؛ ولما سمع آسا نبوّة عزريا تشدَّد بإزالة الرجاسات من جميع أرض يهوذا وبنيامين. ومن المدن التي أخذها من جبل أفرائيم وجدَّد مذبح الرب الذي أمام رواق الهيكل. وانحاز إليه كثيرون من أسباط أفرائيم ومنسا وشمعون لما رأوا أنّ الرب معه. وجمع آسا هؤلاء وجميع بني يهوذا وبنيامين في أورشليم في السنة الخامسة عشرة لملكه في الشهر الثالث، وذبحوا للرب الغنائم التي جاءوا بها من أرض جرار ومعسكر زارح سبع مئة ثور وسبعة آلاف شاة، وأقسموا على أنّ كلَّ من ترك الرب منهم وعبد الأوثان يُقتل كبيراً كان أو صغيراً رجلاً أو امرأة (أخبار الأيام الثاني فصل ١٥).

عد ٢٩٧

خروج بعشا ملك إسرائيل على يهوذا وخروج ملك آرام على بعشا

قال الكتاب (أخبار الأيام الثاني فصل ١٦ عد ١): «في السنة السادسة والثلاثين من ملك آسا صعد بعشا ملك إسرائيل على يهوذا. وبنى الرامة لكي لا يدع أحداً يخرج أو يدخل إلى آسا ملك يهوذا». قال فيكورو في معجم الكتاب (في كلمة آسا) إنَّ في ذكر السنة السادسة والثلاثين من ملك آسا هنا تحريفاً ظاهراً لأنه جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٦ عد ٨) إنَّ بعشا مات في السنة السادسة والعشرين من آسا. وخلفه ابنه ايلة فالصواب أن يقال: «في السنة الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من ملك آسا صعد بعشا على يهوذا وبنى الرامة»، وهي الآن في المحل المسمى الرام في شمالي أورشليم على ساعتين منها في الطريق المؤدي من أورشليم إلى نابلس، وهي غير الرامة مدينة صموئيل المسماة اليوم النبي صموئيل، على ما قال كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ١٩٩) وكانت الرامة على تخم المملكتين أو بعشا افتتحها، وهمَّ بتحصينها. وأقام فيها حامية وحرساً ليمنع أهل مملكته من الدخول إلى آسا وأورشليم. ويصدُّ بني يهوذا وبنيامين عن الدخول إلى مملكته خفية القاء الفساد والشغب فيها. فشقَّ ذلك على آسا وأخرج ذهباً وفضة من خزائن بيت الرب ودار الملك، وأرسلها مع وفد إلى بنهدد أي ابن هدد ملك آرام الساكن في دمشق.مذكِّراً له بالعهدة التي كانت بين أبويهما. ورغب إليه أن يخرج على أملاك بعشا لينكفَّ عن أملاكه، فلبَّى ابن هدد دعوته، ووجه رؤساء جيشه إلى مدن إسرائيل. وضربوا عيّون ودان وآبل مائيم وجميع مخازن مدن نفتالي، ولما سمع بعشا كفَّ عن تحصين الرامة ليتفرَّغ إلى الذب عن الجهة الشرقية من ملكه وأقام بترصة.

إنه ليجدر بنا أن نبيِّن من هو ابن هدد ومواقع المدن التي ضربها. فقد مرَّ أنّ داود ضرب هدد عازر بن رحوب ملك صوبة فانتصر عليه. ونجده آراميّو دمشق فظفر بهم أيضاً وأقام محافظين في دمشق؛ وأنَّ رزون أحد قواد هدد عازر فرَّ حينئذٍ، وصار رئيس غزاة وملك في دمشق. وصار فاتناً على سليمان في آخر مدة ملكه. والظاهر من الكتاب ومن الآثار الآشورية التي ذكرها سميث أنَّ رزون هذا كان في عهد سليمان من سنة ٩٩٠ ق.م إلى سنة ٩٧٠. وملك بعده ابنه طبريمون من سنة ٩٧٠ إلى سنة ٩٥٠ وكان في أيام ياربعام الأول. وخلفه ابنه المسمى ابن هدد الأول مالكاً من سنة

٩٥٠ إلى سنة ٩٣٠ وكان في عهد بعشا ملك إسرائيل وافتتح المدن المار ذكرها. ولما كان ذكر هؤلاء الملوك متواتراً في كلامنا التالي آثرنا أن نستقرب سلسلتهم نقلاً عن فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٤٧ طبعة ٥):

ملوك دمشق.	من سنة	إلى سنة	ملوك بني إسرائيل
خلف ابن هدد الأول	٩٣٠	٩١٠	في عهد عمري ملوك ٣ ف ٢ ع ٣٤
ملك لم يُعثر على اسمه			
ثم خلفه ابن هدد الثاني	٩١٠	٨٨٦	آحاب ملوك ٣ فصل ٢
حزائيل الأول	٨٨٦	٨٥٧	ياهو ملوك ٤ فصل ٨ عد ٩
إبن هدد الثالث	٨٥٧	٨٤٤	يوحاز ملو ٤ ف ١٣ ع ٣
حزائيل الثاني	٨٤٤	٨٣٠	يواش ويواحاز ملو ٤ ف ١٢ ع ١٧
ابن هدد الرابع	٨٣٠	٨٠٠	يواش وياربعام ملو ٤ ف ١٣ ع ٢٤
مريحا	٨٠٠	٧٧٠	ياربعام ٢ صفيحة بينيرار٣
هدارا	٧٧٠	٧٥٠	منحيم صفيحة تجلت فلاصر
رصين الثاني	٧٥٠	٧٣٢	فاقح ملو ٤ ف ١٥ ع ٣٧ وصفيحة تجلت فلاصر.

وقال سميت واضع هذا الجدول إنَّ حزائيل الثاني وابن هدد الرابع يشك في وجودهما، وقد يكونا حزائيل الأول وابن هدد الثالث وقال الأب فيكورو الذي نقل هذا الجدول عنه: إنّه يلزم محو اسميهما وإنَّ مدَّات الملوك الأولين منهم مقدارها غير محقق لكنها تقرب مما ذكره وروى لانرمان ابن هدر بالراء لا بالدال مستمسكاً بأنَّ اسمه يروى كذلك في الترجمة السبعينية وفي الخطوط المسمارية.

وأما المدن التي أخذها ابن هدد الأول من بعشا فهي عيون، وقد قال كثيرٌ من المحققين ومنهم روبينسون إنها كانت في المحل المسمى الآن تل دبين في شمالي الجديدة في قضاء مرجعيون. وتابعهم على ذلك كاران (مجلد ٢ في الجليل صفحة ٢٨٠) وقال إنَّ اسم عيون ما برح يسمى به الوادي الخصب الذي هناك؛ والظاهر

من أخذ الغزاة لها أولاً وهم قادمون من الشمال نحو الجنوب إنها كانت التخم الشمالي لنصيب سبط نفتالي، وبهذا دليل آخر على أنّ تل عيون إنما هي عيون التي ذكرها الكتاب ولعلَّ قضاء مرج عيون سُمي باسمها. وأما دان فقد مرَّ أنها كانت في محل تل القاضي على خمسة كيلومترات من بانياس غرباً طبق ما عرفها به أوسابيوس والقديس إيرونيموس. وأما إبل مائيم أي إبل المياه فقد مرَّ أنها تسمى الآن إبل أيضاً وهي بين الخيَم جنوباً وتل دبين شمالاً. وأما ترصة التي أقام فيها بعشا وبعض أسلافه وخلفائه فكانت في محل تلوزا اليوم شرقي السامرة. وقال كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٦٦) إنَّ جمهور العلماء يسلِّمون بذلك. وإنَّ اسمها القديم ترصة واسمها الآن تلوزا متقاربان لأنَّ إبدال الراء باللام كثير في كلامهم وإنَّ ما لهذه المدينة من الموقع الجميل كان يُضرب به المثل حتى قال سليمان في نشيد الانشاد (فصل ٦ عد ٤): «جميلةٌ أنتِ يا خليلتي كترصة».

أما آسا فبعد أن أكره بعشا على ترك الرامة (الرام)، استدعي رجال يهوذا كلهم ولم يعفُ أحداً فأخذوا الحجارة والأخشاب التي كان بعشا وضعها في الرامة. وحصنوا بها جبع بنيامين والمصفاة، أما جبع بنيامين فهي جبعة الآن في الشمال الشرقي من أورشليم بين مخماس شمالاً وعيناتا جنوباً (كاران مجلد ٣ في اليهودية صفحة ٩٦). وأما المصفاة هذه فهي شعفات الآن في شمالي أورشليم وجنوبي الرام وبينهما بيت حانون، وبعض أبنية أورشليم ترى من أرض شعفات (كاران مجلد ١ في اليهودية صفحة ٣٩٨). والشعفة في العربية أعلى الجبل ومن كل شئ أعلاه وجمعها شعفات. ومعنى مصفاة بالعبرانية المرصد أو المحل المشرف فلا تخفى المناسبة بين الاسمَين. وقد مرَّ ذكر محال أخرى تسمى المصفاة أيضاً (راجع عد ٢٤٤). وقد طالعنا الآن في المجلة الكتابية في عددها الثالث الصادر في تموز هذ السنة ١٨٩٤ م فصلاً مطولاً كتبه العالِم هايدت أجهد نفسه ليثبت به خلافاً للعلماء ستانلاي وبونار وكاران ودالفي ورياس وغيرهم. إنَّ المصفاة ليست شعفات كما قال هؤلاء بل هي البيرى الواقعة في جنوب بيت اين وشرقي رام الله وشمالي عطارا. وأنَّ البيرى هذه ليست بئروت الكتاب كما قال كثيرٌ من المشاهير حتى الآن بل هي المصفاة، والحق أقول إني لم ارَ أدلته قاطعة ولا أخاله حسبها كذلك بل أراد عرضها على علماء هذا الفن علَّ بعضهم يتابعه على صحتها. وقد ندَّد بزعمه العالِم ربواسون في المجلة الموسومة بالأرض المقدسة في عدديها الصادرين في

١٥ أيلول و ١ ت ١ سنة ١٨٩٤م. أما بعشا فأرسل الرب إليه ياهو النبي ابن حناني يقول له: إني رفعتك عن التراب وجعلتك قائداً لإسرائيل فسلكت طريق ياربعام وجعلت شعبي يغيظونني بخطاياهم؛ فهأنذا مستأصل ذرية بعشا وذرية بنيه. ومات بعشا بُعيد ذلك وقد ملك في إسرائيل ثلاثاً وعشرين سنة ودُفن في ترصة (أخبار الأيام الثاني فصل ١٦). وروى يوسيفوس (ك ٨ فصل ٦ من تاريخ اليهود) إنَّ بعشا قتله رجل يسمى كريون.

عد ٢٩٨

ملك ايله وزمري وعمري ملوك إسرائيل وتتمة أخبار آسا ملك يهوذا

بعد موت بعشا ملك ايله ابنه مكانه في السنة السادسة والعشرين لآسا ملك يهوذا. ولم يدم ملكه في إسرائيل إلَّا سنتين فحالف عليه عبده زمري رئيس نصف المركبات، وقتله إذ كان يشرب ويسكر في بيت أحد أعوانه في ترصة. وملك مكانه وما عتَّم بعد أن استوى على عرشه أن قرض ذرية بعشا، ولم يدع منهم ذكراً وألحق بهم أقاربهم وأصدقاءهم كما أنذر نبي الله بعشا؛ إلَّا أنّ زمري لم يملك على إسرائيل إلَّا سبعة أيام لأنَّ الشعب كان محاصراً جبتون (كيبيا جباتا طالع عد ٢٩٥)؛ ثانيةً على الفلسطينيين وبلغهم ما أجراه زمري فأقاموا عمري قائد الجيش ملكاً عليهم. ومضوا به من جبتون وحاصروا زمري في ترصة، ولما افتتحوها دخل زمري قصر الملك فأحرقه واحترق به.

وانقسم شعب إسرائيل فأراد بعضهم تمليك تبني بن جينت ويظهر أنّ هؤلاء كانوا من سكان ترصة ومن تابعهم وأراد الآخرون تمليك عمري ويظهر أنّ هؤلاء كانوا من الجيش ومن تبعهم فتغلَّب هؤلاء على أولئك ومات تبني. وعن يوسيفوس (في المحل المذكور) إنه قُتل فاستبدَّ عمري في الملك في السنة الحادية والثلاثين لآسا ملك يهوذا. واستمرَّ عمري على منصَّة الملك إثنتي عشرة سنة ستاً منها في ترصة (تلوزا)، وستاً في السامرة لأنه ابتاع جبلاً من رجل اسمه شامر أو سامر بقنطارين من الفضة قدَّرهما فيكورو بسبعة عشر ألف فرنك وبنى على هذا الجبل مدينة سماها السامرة، وهي سبسطية الآن فصارت عاصمة ملك إسرائيل إلى حين الجلاء إلى آشور. ويظهر أنّ عمري أُلجئ إلى أن يغادر ترصة لمقاومة أهلها له وتنكيدهم عيشه لأنهم كانوا من أنصار تبني. وسار عمري في طريق ياربعام واقتدى بآثامه.

قال كراتس (في تاريخ اليهود عند كلامه في عمري) كان عمري رجل سياسة أكثر من أن كان رجل حرب وازدلف إلى ملك يهوذا فلم تكن بينهما حرب. وحالف ايتوبعل ملك صور كلفاً بأن يزداد قوة ونفعاً بغنى الفينيقيين وقوتهم. وكان ايتوبعل يخشى سطو ملك دمشق فلم يجد حليفاً أولى من ملك إسرائيل بمنع تسطّيه فوقّعا على عهدة بينهما، خُتمت بزواج آحاب بن عمري بإيزابل ابنة ايتوبعل. وروى لانرمان (مجلد ٦ من تاريخ المشرق القديم عند كلامه في عمري): إنَّ عمري حارب السريان أي أهل مملكة دمشق فاستظهروا عليه وأخذوا بعض مدن من مملكته. ثم مات عمري ودُفن في السامرة وخلَفه ابنه آحاب.

أما آسا فبقي حيّاً ثلاث سنين بعد أن ملك آحاب بن عمري، وعاب ملكه وكسف مجده ببعض النقائض منها استعانته بملك دمشق ليكبح بعشا عن تطاوله عليه مكان أن يكل أمره إلى الله فينقذه منه، ولذلك أرسل الرب إليه حناني الرائي مؤنّباً له بقوله من أجل أنك اتّكلت على ملك آرام ولم تتّكل على الرب إلهك، فلذلك فرغت يدك من جيش ملك آرام. ألم يكن الكوشيون واللوبيون جيشاً كثيراً؟ فإذا اتّكلت على الرب أسلمهم إلى يدك، فقد فعلت بحماقة فغضب آسا على الرائي، وجعله في القيود وساء ذلك بعض الشعب، فاخترم بعضاً منهم أي أماتهم، وفي بعض النسخ عاملهم بقسوة. واعتلّ آسا برجليه في السنة التاسعة والثلاثين لملكه كأنه أصيب بالنقرس، أو داء الملوك واشتدّت علّته فلم يلتمس الرب بل الأطباء، ومات في السنة الحادية والأربعين لملكه، ودُفن في مقبرة حفرها لنفسه، فأضجعوه في سريرٍ كان مملوءاً أطياباً وأصنافاً عطرية، وحرقوه بها على عادة الأقدمين. واستبقوا عظامه ورماده وخلفه ابنه يوشافاط (أخبار الأيام الثاني فصل ١٦).

عد ٢٩٩

يوشافاط ملك يهوذا

ملك يوشافاط وعمره خمس وثلاثون سنة، وسلك في طرق داود جدّه، فاتّقى الله، وجانب عبادة الآلهة الكاذبة. ونكّب شعبه عنها، وأزال المشارف والغابات من يهوذا وأقام جيشاً يحافظ على مدن مملكته المحصّنة. ومنذ السنة الثالثة لملكه أرسل معلّمين وتسعة من اللاويين وكاهنَين يعلّمون شعب يهوذا وبنيامين. ويُنذرونهم ليتّقوا

الله ويعملوا بسننه. ومعهم سفر توراة الرب يقرأون به ويفسرونه للشعب. وقدَّم له جميع آل يهوذا التقادم والهدايا على عادتهم إقراراً بملكه، فكان ذا غنى ومجد عظيم، واهتابه الملوك مجاوروه، فلم يناصبه أحد حرباً (إلَّا حربه في آخر مدَّته مع الموآبيين وحلفائهم) حتى كان من الفلسطينيين من حمل إليه الهدايا وجزية فضة على عداوتهم الشديدة لبني إسرائيل، وكذلك العرب ساقت إليه من الشاة سبعة آلاف وسبع مئة كبش وسبعة آلاف وسبع مئة تيس. وذهب بعضهم إلى أنّ هؤلاء العرب كانوا يسوقون إليه مثل ذلك كل سنة في سبيل الجزية.

وقال يوسيفوس (ك ٨ من تاريخ اليهود فصل ٩) إنَّ العرب كانوا يقدِّمون له كل سنة ثلاث مئة خروف وثلاث مئة تيس. وقد بنى في أورشليم وغيرها أبراجاً وحصوناً. ويظهر من سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ١٧ عد ١٤ وما يليه) أنَّ عدد جيوشه كان مليوناً ومئة وستين ألفاً يرأسهم خمسة قواد. ولم يستعظم بعض المفسرين هذا العدد بناءً على أنّ بني إسرائيل لا سيما في مملكة يهوذا كانوا قد نموا كثيراً وضاقت أرض المملكة بهم. وعلى أنّ يوشافاط كان يسود غيرهم من الأمم كالموآبيين والأدوميين وبعض العرب وغيرهم. واستعظمه بعضهم وخرجوه على وقوع خطأ فيه من غفلة الناس أو إشتباه الحروف المعبَّر بها عن العدد، كما حصل في غيرهم ما مرَّ معنا ذكره. وفي أكثر الكتب القديمة، وليس على الله أن يعصم كل كاتب بآياتٍ تتعدد كتعدادهم، وقد وجد العلماء في كل عصر عقبات في توفيق هذه الأعداد ولا سيما عداد سني ملوك يهوذا وإسرائيل بمعارضة ما جاء في أسفار الملوك، بما جاء في سفرَي أخبار الأيام حتى قال القديس إيرونيموس في ما كتبه إلى فيتالبس الكاهن: «راجع جميع أسفار العهدَين القديم والجديد فتجد اختلافاً كبيراً في أعداد السنين، وتلقى تشوشاً مفرطاً في تعيين سني ملوك يهوذا وإسرائيل. ومن البيِّن أنّ التشبث بمثل هذه المباحث إنما هو شأن متبطِّل متعطِّل لا شأن مجتهد حكيم».

لم يُعب يوشافاط إلَّا بمصاهرته آحاب ملك إسرائيل لأنه اتخذ عتليا بنت آحاب، وإيزابل زوجة لأبنه يورام، وربما كان غرض هذا الملك الصالح من تقرُّبه إلى آحاب أن يرده إلى طريق الرب فكان عكس ما أمَّل لما تراه من شرّ عتليا. وقد زار يوشافاط آحاب في السامرة فعظَّم ملتقاه، وأكرم مثواه واستدعاه إلى مرافقته لأخذ راموت جلعاد السلط من يد ملك دمشق والآراميين فلبّى يوشافاط دعوته. وصحبه

في هذه الحرب التي هلك فيها آحاب وكاد يوشافاط يهلك أيضاً كما سترى في الكلام على آحاب. وقال يوسيفوس (ك ٨ في تاريخ اليهود ف ٩) إنَّ يوشافاط أخذ من أورشليم أيضاً جنوداً لمناصرة ملك إسرائيل. ولدى عودة يوشافاط إلى أورشليم التقاه ياهو بن حناني الرائي وقال له أتنصر الأثيم وتحب مبغضي الرب فكنت لذلك تستوجب الغضب من قِبله لولا أنه وجد فيك أموراً صالحة لأنك أزلت المشارف والغابات من الأرض، وهيأت قلبك لالتماس الرب. فأراد يوشافاط أن يكفِّر عن إثمه فمضى جائلاً في مملكته من بئر سبع إلى جبل أفرائيم منذراً رعيته أن يتّقوا الله ويعملوا بسنّته. وأقام قضاة في كل مدن يهوذا المحصّنة وحرَّضهم أن يقضوا بالعدل قائلاً إنكم لا تقضون للناس بل لله؛ فلتكن فيكم مخافته فلا جور عند الله ولا محاباة ولا أخذ رشوة. وأقام في أورشليم قضاة للدعاوى الدينية والمدنية، من اللاويين والكهنة، ومن رؤساء آباء إسرائيل، وحرَّصهم كما حرَّص أولئك وأمرهم أن ينذروا الشعب بأن لا يأثموا فيكون الغضب عليهم وعلى إخوتهم. وجعل امريا الكاهن رئيساً في أمور الرب وزبديا بن إسماعيل رئيساً في أمور الملك.

إلّا أنّ يوشافاط صادق بعد ذلك أحزيا ملك إسرائيل ابن آحاب. واتفقا على عمل سفن تذهب إلى ترشيش أي أوفير لتأتي بالذهب كما فعل سليمان وحيرام. وعملا السفن في عصيون جابر حيث عملها سليمان. فأتى النبي العازر يقول ليوشافاط من قِبل الرب من أجل أنك صادقت أحزيا وقد ساء مسعاه وعثا في الأرض، فقد أفسد الرب أعمالك فانكسرت السفن ولم يتهيأ ذهابها إلى ترشيش.

وخرج الموآبيون والعمونيون والأدوميون على يوشافاط في آخر سني ملكه وحلّت عساكرهم في حصون تامر التي هي عين جدي المسماة إلى اليوم بهذا الاسم في الجانب الغربي من بحيرة لوط. فنادى يوشافاط بصوم في جميع يهوذا. واجتمع الرجال والنساء والأطفال في بيت الرب في أورشليم ليبتهلوا إليه. فأجهر يوشافاط بصلوة خاشعة مثبّتة في سفر أخبار الأيام الثاني (ف ٢٠). وكان جميع بني يهوذا واقفين أمام الرب فحلَّ روح الرب على يحزيئيل من بني آساف فأمَّن الملك والجماعة محققاً لهم من قِبل الرب الظفر بأعدائهم، فخرَّ الملك وجميع القوم ساجدين. ثم بكروا في الصباح وخرجوا إلى برية تقوع (وهو اسمها إلى اليوم وموقعها بين بيت لحم شمالاً والخليج جنوباً). ووقف يوشافاط وقال لجيشه: «آمِنوا

بالرب إلٰهكم فتأمنوا آمنوا بأنبيائه فتفلحوا». وأقام مغنين يرنمون اعترفوا للرب لأنَّ رحمته إلى الأبد. وأوقع الرب خصاماً بين العمونيين والموآبيين وبين الأدوميين أولاً، ثم بين العمونيين والموآبيين. فاقتتلوا حتى أباد بعضهم بعضاً ولم يبقَ ليوشافاط وجيشه إلَّا أن يجمعوا الغنائم الكثيرة ثلاثة أيام، فجمعوا أكثر مما أمكنهم حمله وعادوا إلى أورشليم. فدخلوها بالعيدان والكنارات والأبواق إلى بيت الرب فسبَّحوه شاكرين. فحلَّ رعب الرب على جيرانهم واستراحت مملكة يهوذا من كل جهة. وقضى أجل يوشافاط بعد أن ملك خمساً وعشرين سنة، ولما كان عمره حين ملك خمساً وثلاثين سنة فيكون مات وعمره ستون سنة، ودُفن في مدينة داود. وخلفه ابنه يورام (سفر أخبار الأيام فصل ١٧ إلى فصل ٢١).

الفصل السادس عشر

أخبار آحاب ملك إسرائيل وخلفاؤه حتى ياهو وأحزيا ملِكَي يهوذا

عد ٣٠٠

آحاب وإيزابل وإيليا النبي

قد مرَّ أنّ آحاب خلف أباه عمري في الملك على إسرائيل. وقد صنع هذا الملك الشرّ في عيني الرب أكثر من جميع من تقدَّموه من ملوك إسرائيل، وبين كان يوشافاط لا يألو جهداً في مملكة يهوذا لبث عبادة الله، والعمل بسنَّته كان آحاب يعثو ويُفسد في مملكة إسرائيل مغرياً بعبادة عجول الذهب، بل بعبادة بعل وعشتاروت معبودَي الفينيقيين أيضاً، لأنَّ إيزابل امرأته بنت ايتوبعل ملك صور كانت تزيِّن له هذه العبادة وتغريه بها. وكانت إيزابل مقلاقاً متكبرة متوقحة تحكَّمت بآحاب وقادته حيث شاءت، فكانت علَّة كفره ومصدر بلاياه كلها. وروى يوسيفوس (ك ١ في ردِّه أقوال أبيون فصل ١٨) عن ميننذر كاتب تاريخ صور إنها لطَّخت يديها بدم أخيها لترقى مكانه منصة الملك. ولما كانت بنت كاهن

رقي عرش الملك كانت كثيرة التشيّع لعبادة معبودي أبيها بعل وعشتاروت. وساقت زوجها إلى أن يسجد لهما ويبني لهما هياكل حتى في السامرة مدينته، وأن يقام لبعل لا أقلّ من أربع مئة وخمسين كاهناً أو نبيّاً أي معلّماً، ولعشتاروت أربع مئة كاهن تنفق هذه الملكة الداهية الجائرة على جميعهم. وتمدُّهم بحمايتها وأيدها. وتضطهد كهنة الرب وانبياءه حتى قتلت جمًّا غفيراً منهم. وحملت الشفقة عوبديا قيم آحاب أن يأخذ مئة منهم ويخفيهم كل خمسين في مغارة ويعولهم بالخبز والماء (ملوك ٣ فصل ١٨ عد ٤).

قد أقام الله لمناصبة هؤلاء جميعاً ايليا النبي، فكان رئيساً لمن لم ينفكّوا متشبثين بعرى الدين وسنَّة الله. وكان التراخي والفتور وقلّة الإكتراث بأمور الدين استحوذت على عامة الشعب، ولذا كان ايليا يؤنِّبهم قائلاً: «إلى متى أنتم تعرجون بين الجانبين؟» وكان آحاب من هؤلاء بل أولهم فتراه تارةً يسجد لبعل وعشتاروت. ويتمرَّغ بأرجاس الوثنيين، وطوراً يخيفه كلام ايليا فيتذلل أمام الله ويمزّق ثيابه آسفاً. ويوماً يدع إيزابل تأمر بذبح كهنة الرب ويوماً آخر يترك ايليا يذبح كهنة البعل. وكان ايليا من مدينة تسبة أو تشبة وينسبه الكتاب إليها فيسميه التسبي أو التشبي وهي على ما روى كلمت (في معجم الكتاب)؛ مدينة في عبر الأردن في بلاد جلعاد. وذكر تسبة أخرى وهي مدينة طوبيا في سبط نفتالي في جنوبي قادس وشمالي صفد؛ وفي أعلام الأماكن تسبة مدينة في سبط نفتالي لا يعلم موقعها الآن. وروى بعضهم إنَّ ايليا وُلد في هذه المدينة ولكن سكن في بلاد جلعاد (السلط) إذ جاء في سفر الملوك الثالث (فصل ١٧ عد ١): «ايليا التشبي من سكان جلعاد» وكان ايليا شديد الغيرة عليّ الهمة لا يرهب ملكاً ولا ملكة في أمور الله. فكان يونِّب آحاب ويهدد إيزابل ويقسو على كهنة الأصنام. ويفعل المعجزات إثباتاً لإرسال الرب له وانتقاماً من أعدائه كما سترى.

عد ٣٠١

آية إنحباس المطر بكلمة إيليا وقتله انبياء البعل

قد أمر الرب ايليا أن يمضي إلى آحاب ويبكتّه على صنيعه فمضى وقال له: «حيٌّ الرب إله إسرائيل الذي أنا واقف أمامه إنه لا يكون في هذه السنين ندى ولا مطر إلّا عند قولي». وتوارى عنه بأمر الله وأقام عند نهر كريت الذي تجاه الأردن

وقال بعضهم: إنَّ هذا النهر يسمى الآن وادي الياس أو الوادي اليابس. وقال روبينسون: إنه يسمى وادي كلت ومصبّه في جوار باشان، ولما جفَّ ماء هذا النهر لإنحباس المطر، إنتقل ايليا إلى صرفة وهي صرفند الآن بين صيدا وصور. وأقام ثمة في بيت أرملة صنع لها بأمر الله آيتين الأولى: إنَّ الجرة التي كان فيها الدقيق والقارورة التي كان فيها الزيت لم تفرغا إلى يوم أرسل الله المطر على وجه الأرض. والثانية إقامة ابنها بعد موته. وقد أثبت مينندر كاتب تاريخ صور آية انحباس المطر عند كلامه في أعمال ايتوبعل ملك صور فقال: «كان في أيامه (أي أيام ايتوبعل) أن انحبس المطر مدة طويلة أي لم يكن مطر من شهر هيبرباروتوس إلى هذا الشهر في السنة التالية. فأمر هذا الملك شعبه أن يقدّموا الصلوات والابتهالات فأعقبها رعود وعواصف. وهو الذي بنى مدينة بتريس (البترون) في فينيقية واوزات في أفريقيا». رواه يوسيفوس (ك ٨ في تاريخ اليهود فصل ٧) وعقبه بقوله: «لا جرم إن هذا الكلام يراد به انحباس المطر الذي كان في أيام آحاب لأنَّ ايتوبعل كان وقتئذٍ مالكاً في صور».

واشتدَّ الجوع خاصةً في السامرة لانحباس المطر ولم يكن عشب تقتات به الماشية. فدعا آحاب عوبديا قيم بيته وقال له: سِرْ إلى جميع عيون الماء وأنهاره عسى أن نجد عشباً نحيي به الخيل، والبغال ولا نعدم البهائم كلَّها وسار آحاب في طريقٍ آخر يفتّش عن العشب؛ وكان الرب أمر ايليا أن يتراءى لآحاب فالتقى ايليا بعوبديا فعرفه وخرَّ على وجهه ساجداً له فقال النبي له: إمضِ فقل لسيدك آحاب هوذا ايليا فأجابه: ما خطيئتي حتى تلقي عبدك الآن في يد آحاب ليقتلني؟ فما من أمّة أو مملكة إلَّا بعث سيدي إليها في طلبك فلم يجدك فإذا قلت له: هوذا ايليا أخذك روح الرب إلى حيث لا أعلم. فيأتي آحاب فلا يجدك فيقتلني فقال له ايليا: إني في هذا النهار أتراءى له فمضى عوبديا وأخبر آحاب فجاء للقاء النبي وقال له أأنت ايليا مقلق إسرائيل؟ فأجابه: لم أقلق إسرائيل أنا بل أنت وبيت أبيك بترككم وصايا الرب. واتباعكم البعليم فاجمع إليَّ كل إسرائيل إلى جبل الكرمل (المعروف). وانبياء البعل الأربع مئة والخمسين وانبياء عشتاروت الأربع مئة الذين يأكلون على مائدة إيزابل. فجمع آحاب الانبياء والشعب إلى الكرمل فتقدَّم ايليا إلى الشعب وقال لهم: إلى متى أنتم تعرجون إلى الجانبَين؟ إن كان الرب هو الإِلٰه فاتبعوه. وإن كان البعل إياه فإياه اتبعوا، فأنا وحدي بقيت نبياً للرب، وهؤلاء انبياء البعل أربع

مئة وخمسون رجلاً، فليؤتَ لنا بثورَين فيختاروا لهم ثوراً فيقطعوه ويجعلوه على الحطب ولا يضعوا ناراً، وأنا أيضاً أهيئ الثور الآخر ولا أضع ناراً ثم تدعون أنتم باسم آلهتكم وأنا أدعو باسم الرب؛ والذي يجيب بنار فهو الإله، فقال جميع الشعب: الكلام حسن. واختار انبياء البعل ثوراً وأعدّوه. ودعوا باسم البعل من الغداة إلى الظهر وهم يقولون: أيها البعل أجبنا فلم يكن من صوت، ولا مجيب وكانوا يرقصون حول المذبح.

فأخذ ايليا يسخر منهم قائلاً: اصرخوا بصوتٍ أعلى لعلّه في محادثة أو في خلوة أو في سفر أو نائم فيستيقظ. وكانوا يصرخون بصوتٍ عظيم، ويتخادشون على عادتهم بالسيوف والرماح حتى سالت دماؤهم عليهم. وفات الظهر وليس صوت ولا مجيب ولا مصغٍ. فقال ايليا لجميع الشعب أدنوا مني ليشاهدوا أنه لا يضع ناراً وأخذ إثني عشر حجراً على عدد أسباط إسرائيل وبناها مذبحاً. وجعل حول المذبح قناة ثم نضد الحطب. وقطع الثور ووضعه على الحطب وقال: املأوا أربع جرار ماء وصبّوا على المحرقة والحطب. وثنّوا وثلّثوا ففعلوا حتى جرى الماء حول المذبح دائراً وامتلأت القناة أيضاً ماءً. فتقدّم ايليا وقال أيها الرب إله ابراهيم واسحق ويعقوب؛ ليُعلم اليوم أنك إله إسرائيل وإني أنا عبدك وبأمرك فعلت كلّ هذه الأمور. فهبطت نار الرب وأكلت المحرقة والحطب والحجارة والتراب، حتى لحست الماء الذي في القناة، فلمّا رأى ذلك جميع الشعب خرّوا على وجوههم وقالوا: الرب الإله، الرب هو الإله. فقال ايليا اقبضوا على انبياء البعل ولا يفلت أحد منهم فقبضوا عليهم، فأنزلهم ايليا إلى نهر قيشون وذبحهم هناك بأمر الرب . وقيشون هو النهر المسمى اليوم المقطع الذي يصبّ في خليج حيفا في شمالها.

ثم قال ايليا لآحاب اصعد فكلْ واشرب فهوذا صوت دويّ مطر، فمضى آحاب ليأكل وصعد ايليا إلى رأس الكرمل وخرَّ إلى الأرض. وأرسل خادمه يتطلّع نحو البحر سبع مرات فعاد في السابعة فقال: ها سحابة صغيرة طالعة من البحر فقال له: إذهب وقل لآحاب شدّ وانزل لئلا يمنعك المطر. واربدَّ الجو بالسحب وهبّت الرياح وجاء مطرٌ عظيم فركب آحاب وسار إلى يزرعيل. وشدَّ ايليا متنيه وجرى أمام آحاب حتى وافى يزرعيل وهي زرعين الآن في ناحية جنين حيث مرج ابن عامر، بل سُمي هذا السهل باسمها لأنّه يسمى صحراء يزرعيل. وكان آحاب

قد بنى ثمة قصراً كما سيجئ وإن استمرت السامرة عاصمة ملكه (ملو ٣ ف ١٧ عد ١٨).

عد ٣٠٢

فرار ايليا من وجه ايزابل وأمر الرب له أن يمسح حزائيل وياهو واليشاع

قصَّ آحاب على ايزابل كلَّ ما صنعه ايليا فاحتدمت غيظاً. وأرسلت رسولاً إلى ايليا قاسمةً بآلهتها أنها ستجعل نفسه في مثل الساعة من غدٍ كنفس واحد من الانبياء الذين قتلهم. فخاف ومضى على وجهه ووافى بئر سبع المسماة إلى اليوم بهذا الاسم على ستة وعشرين ميلاً من الخليل جنوباً (كاران مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٢٨٣). وخلَّف غلامه هناك وتقدَّم في البرية مسيرة يوم. فقاته ملاك برغيف مليل، وجرَّة ماء وسار صائماً أربعين يوماً وأربعين ليلة إلى جبل حوريب. قال كلمت في تفسير هذه الآية ليس المراد أنّ ايليا سار أربعين يوماً وأربعين ليلة حتى انتهى إلى حوريب، فأنَّ المسير من بئر سبع أو من البرية إلى حوريب لا يقضي كلَّ هذه المدة بل تضاف إلى الأربعين يوماً المدة التي قضاها النبي في حوريب، إلى أن أكمل صومه أربعين يوماً. كما صام موسى قبل تنزيل السنَّة عليه. وربما كان ايليا في المغارة نفسها التي كان موسى فيها في جبل حوريب. والظاهر من كلام الآباء والمفسرين أنَّ ايليا لم يأكل شيئاً في مدة الأربعين يوماً كموسى الذي قال فيه الكتاب (خروج فصل ٣٤ عد ٢٨): إنه «أقام هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماءً».

وتلك آية خارقة نظام الطبيعة لا يعجز عنها من هو على كل شيء قدير، ولا يأنف من عملها من حبس المطر بكلمة ايليا ثلاث سنين، ومن أنزل بصلاته ناراً فأكلت محرقته. ثم تراءى له الرب والمراد بمثل هذه الآيات ملاك الرب، وأمره أن يعود في طريقه نحو برية دمشق، وأن يمسح حزائيل ملكاً على آرام. وياهو بن نمشى ملكاً على إسرائيل. وأليشاع بن شافاط من إبل محولة نبياً مكانه لينتقم هؤلاء للرب ممن تركوه وعبدوا الأوثان. وليكون من أفلت من سيف حزائيل يقتله ياهو، ومن أفلت من سيف ياهو يقتله أليشاع. قال بعض المفسرين إنَّ المسح هنا لا يراد به

صبَّ الزيت المكرَّس على رأس الممسوح بل يُراد به إعداد حزائيل وياهو ليكونا ملكَين، وأليشاع ليكون نبياً. ويؤيده أنّ ايليا لم يمسح أحداً من هؤلاء بل رمى إلى أليشاع بردائه، وإنَّ حزائيل أجنبي فلا يمسح بالزيت المقدَّس، ولم يرد في الكتاب أن ايليا مسح حزائيل أو ياهو. بل أن أليشاع تلميذه مضى إلى حزائيل ومسح ياهو. وقد عاد ايليا من حوريب وانتهى إلى عبر الأردن إلى إبل محولة مدينة أليشاع. وفي كتاب الأعلام الكتابية إنَّ إبل محولة هذه كان موقعها بحسب قول القديس إيرونيموس على عشرة أميال من باسان جنوباً، وتسمى الآن عين حلوة على تسعة أميال ونصف من باسان. ولكن قال كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ٢٧٨) إنه يُحتمل أن كانت في المحل المسمى اليوم الحمام المالح على بعد عشرة أميال من باسان جنوباً، على ما قال القديس إيرونيموس مع أنّ المسافة من باسان إلى هذا المحل أربعة عشر ميلاً. ويظهر أنّ العرب قدموا اللام على الحاء في اسمها وسموها إبل ملوحة لوجود ينبوع ملح هناك. ولما انتهى ايليا إلى هذا المحل وجد أليشاع يحرث الأرض ومعه إثنا عشر حارثاً فرمى ايليا إليه بردائه. فترك البقر وجرى وراءه ثم عاد فودَّع والديه. وذبح زوجين من البقر وطبخ لحمهما على أدوات الحراثة وقدَّم للشعب، فأكلوا ومضى مع ايليا وكان يخدمه (ملوك ٣ فصل ١٩).

عد ٣٠٣

خروج ابن هدد على آحاب

جمع ابن هدد وهو الثاني بهذا الاسم (راجع عد ٢٩٧) رجال آرام وصعد معه إثنان وثلاثون ملكاً أي حكام أعمال كانوا محالفين له، ومعهم خيل ومراكب ليحاربوا ملك إسرائيل. ودنوا من السامرة فوجّه ابن هدد رسلاً إلى آحاب قائلاً له فضتك وذهبك هما لي، وأزواجك وبنوك الحسان هم لي. فراعت آحاب كثرة جيوش أعدائه، وكان جباناً واهن القوة، فأجاب كما قلت يا سيدي الملك أنا وجميع ما هو لي لك. وبعد أن بلَّغ الوفد ابن هدد جواب آحاب أرسلهم ثانية يقولون: إنه في مثل الساعة من غد يرسل عبيده ليفتشوا بيت آحاب وبيوت عبيده، ويأخذوا كل ما هو شهيّ في عيونهم. فدعا آحاب شيوخ مملكته وأعلمهم بما كان. فقالوا: لا تسمع ولا ترضَ فقال لرسل ابن هدد أن يبلّغوا سيّدهم أنه لا طاقة له بما يبتغيه من التفتيش وأخذ ما كان شهياً. فاستشاط ابن هدد وأرسل يقول حالفاً

بآلهته إن كان تراب السامرة يكفي لا كفَّ القوم الذين يتبعونه، فقال لملك إسرائيل: قولوا له لا يفتخرنَّ من يتنطق كمن يحل منطقته، وهو مثل يراد به أنه لا يحق للمرء أن يتفاخر بأمرٍ قبل الفوز به، أو بمعنى ما في حكاية الدبّ لا تسكر على حساب جلد الدبّ قبل إصطياده. فأمر ابن هدد بإقامة الحصار على السامرة، وإذا بنبيٍّ تقدَّم إلى آحاب يشجعه من قِبل الرب بأنه سيدفع هذا الجيش الجرار إلى يده ليعرف أنه الرب الإله وينبذ الأوثان. وأحصى آحاب رجاله فوجد عنده من غلمان رؤساء الأقاليم مئتين واثنين وثلاثين غلاماً، ومن شعب إسرائيل سبعة آلاف. فخرجوا عند الظهر وكان ابن هدد يشرب ويسكر هو والملوك المناصرون له، فقال ابن هدد لرؤساء جيشه إن كان هؤلاء خرجوا مسالمين أو مقاتلين فاقبضوا عليهم أحياء فوثب الغلمان وبنو إسرائيل وراءهم فقتل كل رجل منهم رجلاً من طلائع جيوش ابن هدد. فانهزم الآراميون واتبعهم بنو إسرائيل. وأفلت ابن هدد على فرس بين الفرسان وضرب ملك إسرائيل الآراميين وخيلهم ومراكبهم ضربة عظيمة، وتقدَّم النبي إلى آحاب قائلاً امضِ وتشدَّد واستعِّد فإنه عند مدار السنة يصعد عليك ملك آرام ثانيةً.

أما رجال ملك آرام فقالوا له إنَّ آلهة إسرائيل آلهة الجبال، ولذلك قووا علينا وإذا حاربناهم في السهل فنقوى عليهم. وأشاروا عليه أن يعزل الملوك كلاًّ من مكانه ويجعل أمكنتهم قواداً ففعل كذلك؛ ولما كان مدار السنة حشد جيشه وصعد إلى افيق لمحاربة إسرائيل، وافيق هذه غير افيق التي في مرج ابن عامر حيث كانت الحرب بين شاول والفلسطينيين، بل هي المسماة اليوم الفيك أو الفيق على مسير ساعة أو أقلّ من بحيرة طبرية شرقاً في الطريق المؤدي من دمشق إلى فلسطين (فيكورو مجلد ٤ من الكتاب والإكتشافات صفحة ٤٥ وفي معجم الكتاب له وفي كتاب الأعلام الكتابية). فمضى آحاب إلى افيق هذه للقاء أعدائه وكان عسكره قليلاً جداً لذلك عبَّر عنه الكتاب بأنه كان كقطيعين صغيرين من المعز وعبَّر عن كثرة جيش ابن هدد بأنه ملأ الأرض. وبقي الجيشان يناظر أحدهما الآخر دون حرب مدة ستة أيام وفي اليوم السابع التحمت الحرب. واستظهر بنو إسرائيل على الآراميين وقتلوا منهم مئة ألف رجل في يومٍ واحد. ولعبت أيدي سبأ بالباقين وهرب منهم سبعة وعشرون ألفاً إلى افيق. فسقط السور عليهم فماتوا تحت الردم. وفرَّ ابن هدد ودخل المدينة إلى مخدع ضمن مخدع مذعوراً مرتاعاً. فقال له أعوانه سمعنا

أنّ ملوك إسرائيل ملوك رحمة فنشدّ الآن مسوحاً على متوننا، ونجعل حبالاً على رؤوسنا ونخرج إلى ملك إسرائيل علّه يستبقي نفسك. وفعلوا كذلك فقال لهم آحاب أو حيٌّ هو بعد إنما هو أخي وخرج إليه ابن هدد فرحّب به وأصعده على المركبة فقال له ابن هدد المدن التي أخذها أبي من أبيك أردُّها إليك أسواقاً في دمشق أي نطلق لك التجارة فيها كأنها السامرة. فقال آحاب وأنا أطلقك بهذا العهد وقطع له عهداً وأطلقه. فالتقاه أحد الانبياء متنكراً وقال إنَّ عبدك خرج في وسط الملحمة فأتاني رجلٌ بأسير وقال احفظه، وإن أفلت منك فنفسك مكانه أو تزن لي قنطاراً من الفضة، وبينما أنا مشتغل هنا وهناك أفلت الأسير فقال له الحكم: عليك كما شرطت على نفسك فزحزح النبي البرقع عن عينيه فعرف الملك أنه نبي، وقال كذا قال الرب بما أنك أطلقت من يدك رجلاً قد أبسلته فنفسك تكون بدل نفسه وشعبك بدلاً من شعبه. فمضى آحاب إلى السامرة واجماً قلقاً.

عد ٣٠٤

آحاب والآشوريون

قد أبانت لنا الآثار الآشورية وجهاً لمساهلة آحاب ملك إسرائيل لابن هدد ملك دمشق، وهو خوف الملكين من آشور ومحالفتهما عليه، ولما كان ذكر ملوك آشور سيرد متواتراً في ما يأتي من كلامنا، رأينا أن نلخّص عن كتاب فيكورو (الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٣٢ طبعة ٥) موجز تاريخ الآشوريين كلفاً بتوفير الفوائد وتيسراً لإدراك الكلام حقَّ إدراكه. فلم يُعثر حتى اليوم على أثر للآشوريين يتبيَّن منه تاريخ أصلهم، ولكن أنبأنا سفر التكوين (فصل ١٠ عد ٢٢): إنَّ آشور هو ثاني أبناء سام وإنَّ الآشوريين الأولين جالية بابلية وآثار بلادهم مثبّتة شهادة موسى، وكانت عاصمة ملكهم اولاً مدينة آشور على شاطئ دجلة الايمن في جنوبي نينوى بين الزاب الأعلى والزاب السفلي. وكانت مركزاً لعبادة آشور أكبر آلهتهم، وإن هو إلَّا آشور ابن سام الّهوه على عادتهم، وأول ما تحققه آثار بلادهم أنها كانت في القرن التاسع عشر قبل الميلاد يليها ملك يسمونه ايسميداكان. وكان قد بنى هذه المملكة حاكم اسمه بلكفكابو في عصر غير معروف إلى الآن، وكان من خلفائه ملك يسمى بلباني يعتبرونه غازياً.

وتتفاخر دولة السرغـونيين إحـدى دولهم بإنتسابها إليه. وكـان في سنـة ١٤٠٠ق.م ملك من الآشوريين يسمى آشوروبليد حكم من جانب بحيرة وان إلى الزاب السفلي. وجدد في نينوى هيكل استار الآلهة الذي كان بناه أولاً سمسيبين ابن ايسميداكان المذكور. وفي سنة ١٣٣٠ ق.م عظَّم ملكهم بينيرار الأول مملكة آشور وصيَّرها أقوى مملكة في آسيا الغربية، وفي سنة ١٣٠٠ انتصر ابنه سلمناصر الأول على الموزري (يُحتمل أنّ المراد المصريون). وجعل نينوى مقراً لحكومته ووسَّع خلفاؤه تخوم مملكته شمالاً وشرقاً وجنوباً ولم تطمح أبصارهم نحو الغرب أي إلى سورية إلَّا في سنة ١١٢٠. إذ رُقي منصة الملك وقتئذٍ تجلت فلاصر الأول وهو أول من جاوز منهم الفرات. وغزا سورية إلى لبنان والبحر المتوسط (راجع عد ٧٠ وعد ١٢٠). ثم مات سنة ١١٠٠ وترك لخليفته مملكة كثيرة الأنحاء شاسعة التخوم لكن ما عتَّمت أن كسفت شمس مجدها، لأنَّ الآراميين بعد وفاة الخليفة الثاني لتجلت فلاصر؛ أذلّوا مملكة آشور وضيَّقوا تخومها الغربية في مدة مئة وخمسين سنة، وتلك عناية ربانية يسَّرت لداود وسليمان انبساط ملكهما شرقاً حتى الفرات.

ومن بعد وفاة سليمان عاد الآشوريون يستردون سؤددهم وصولتهم في عهد آشور دانيل مشيد دولة كبرى من دوَلهم. ثم خلفه ابنه بينيرار الثاني وخلف هذا ابنه تجلت سمدان وبعد وفاته خلفه ابنه آشور نزيربال. وأُكتشف له عن آثار كثيرة مهمة. ووجد لا يرد تمثاله في أخربة قصر نمرود وقد مرَّ أنه حكم البلاد من عدوة دجلة إلى لبنان وفلسطين (راجع عد ٧٢ وعد ١٢٠). وبعد وفاته خلفه ابنه سلمناصر الثاني. وغزا سورية ست مرات وكتب وقائعه على مسلة من صخرٍ أسود في مئة وتسعين سطراً طافحة بالفوائد التاريخية؛ منها أنها هدتنا إلى ما كان مجهولاً كلَّ الجهل وهو جلّ الغرض من كلامنا هنا أعني أنّ آحاب كان حليفاً لابن هدد ملك دمشق في حربه للآشوريين، ومنها إثبات العهدة التي ذكر الكتاب إبرامها بين ملك إسرائيل وملك دمشق. وتبيان الوجه في مساهلة آحاب لابن هدد بعد استظهاره عليه. فآحاب كان رأى حملة آشور نزيربال على فينيقية وخشيَ أن يغزو ابنه سلمناصر الثاني مملكة إسرائيل. وملك دمشق كان يومئذٍ أقوى ملوك سورية فأحبَّ آحاب أن يقوِّي نفسه بمحالفته، وأن تكون مملكة دمشق حائلة بين الآشوريين ومملكة إسرائيل، وكان من وقَّعوا على هذه العهدة مع ابن هدد إثني عشر ملكاً منهم آحاب ملك إسرائيل.

وإليك ترجمة ما أصاب غرضنا من خطوط سلمناصر على مسلة نمرود المذكورة، وعلى الصفيحة التي وجدها جون تليور عند منبع دجلة قال إنه في السنة السادسة لملكه «في الرابع عشر من شهر أيار رحلت عن نينوى وجاوزت دجلة... وأخذت الجزية من ملوك غربي الفرات فضة وذهباً ونحاساً ورصاصاً من المدن التي يسميها السريان باتور. وزحفت من عدوة الفرات إلى مدينة هلمان (حلب) فخاف أهلها الحرب وتراموا على رجليَّ فأخذت جزية منهم فضة وذهباً. وسرت من هلمان إلى ايركوليني ملك حماه أخذت ادينا وبرغوا وأرغان حاضرة ملكه واستحوذت على أثاثه وأموال قصره وأحرقت دوره. وزحفت من ارغانا إلى كركر فدمرتها وأحرقتها وكان في معسكرهم ١٢٠٠ مركبة و ١٢٠٠ فارس ٢٠٠٠٠ ألف رجل من قبل ابن هدد ملك دمشق ثم ٧٠٠ مركبة و ٧٠٠ فارس و ١٠٠٠٠ رجل من قبل ايركوليني ملك حماه. ثم ٢٠٠٠ مركبة و ١٠٠٠٠ رجل من قبل آحاب ملك سرلاي (إسرائيل)». وكذلك يعد باقي جيش هؤلاء الملوك المتحدين. ويظهر أن سلمناصر لم يقم في سورية بل اكتفى بإذلال أهليها وأخذ جزيتهم وعاد إلى آشور. ومن أدلة ذلك أنّ ابن هدد نقض عهده مع آحاب واستمرَّ مالكاً راموت جلعاد حتى اضطرَّ آحاب أن يثير الحرب عليه فيها بعد إنجلاء الآشوريين من سورية كما سيجئ.

عد ٣٠٥

اختلاس آحاب كرم نابوت

قد مرَّ أنّ آحاب بنى له قصراً في يزرعيل (زرعين) وكان لنابوت اليزرعيلي في جانب القصر كرم ورثه عن أبيه. فرغب الملك إليه أن يبيعه كرمه ليكون له بستان بقول فاعتذر له نابوت بأنَّ الكرم ميراث آبائه فلا يمكنه أن يبيعه. وكان من الشين عندهم أن يتخلَّى المرء عما ورثه عن آبائه ولم تُجز السنَّة ذلك إلَّا لضرورة. فعاد آحاب كئيباً واضجع على سريره ولم يتناول طعاماً لإنكار آحاب عليه مسئوله. فقالت له ايزابل امرأته ما بالك كئيب النفس؟ فقصَّ عليها ما كان له مع نابوت فقالت ما أنفذ سلطانك الآن على إسرائيل. قم فتناول طعاماً وطب نفساً وأنا أعطيك كرم نابوت. ثم إنَّها كتبت كتباً إلى الشيوخ والأشراف في مدينة نابوت

وختمتها بخاتم الملك، ومنه يظهر قدم العادة بختم الرسائل بالخاتم. وقالت في تلك الكتب نادوا بصوم لتذكي شهودها الكاذبين، وأجلسوا نابوت في صدر القوم، وأقيموا رجلين يشهدان عليه أنه جدَّف على الله وعلى الملك وأخرجوه وارجموه فيموت. ففعلوا كما انفذت إيزابل إليهم، وشهد عليه شاهدا زور كما لقنت، ورجموه بالحجارة فمات. وأخبروا الملكة بموته فقالت لآحاب: قم فرث كرم نابوت، لأنهم كان من عاداتهم أن من قضي عليه بجريمة ضد الملك تولى الملك أملاكه. فنزل آحاب إلى الكرم فالتقاه بأمر الله إيليا النبي وقال له: قتلت وورثت أيضاً؟ ففي الموضع الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس دمك أنت أيضاً، فهوذا الرب جالب عليك الشر ومبيد نسلك وقال له في إيزابل إنَّ الكلاب ستأكل لحمها عند مترسة يزرعيل. فلمَّا سمع آحاب هذا الكلام مزَّق ثيابه وجعل على بدنه مسحاً وصام وبات في المسح ومشى ناكساً، فقال الرب لإيليا أرأيت كيف ذلَّ آحاب أمامي؛ فمن أجل ذلك لا أجلب الشر في أيامه بل في أيام ابنه أجلب الشر والعقوبة على بيته (ملوك ٣ فصل ٢١). وسترى تمام هذه النبوة وإنفاذ هذا التهديد في آحاب وإيزابل، على أنّ توبة آحاب لم تغيِّر عمق قلبه فلم تكن صادقة ولا ثابتة، ولم يرد الكرم على ورثة نابوت وليس مطواعاً لإيزابل عابداً أصنامها فحلَّت به العقوبة التي هدَّده إيليا بها.

عد ٣٠٦
حرب آحاب وملك دمشق وقتل آحاب

جاء في الكتاب (ملوك ٣ فصل ٢٢) «ومضت ثلاث سنين لم تكن فيها حرب بين آرام وإسرائيل» أي بين ملك دمشق وملك إسرائيل، فالعهدة التي أمضاها هذان الملكان والحرب التي أثارها عليهما سلمناصر ملك آشور، وقفتا الحرب بينهما مدَّة السنين الثلاث. وانتصار سلمناصر عليهما حلَّ عقد تلك العهدة فلم يقم ابن هدد بما شرط على نفسه أن يتخلَّى لملك إسرائيل عن المدن التي كانت تخصُّه، ومنها راموت جلعاد (السلط) فقال ملك إسرائيل لأصحاب مشورته علمتم أنَّ راموت جلعاد لنا، وكان ملك دمشق شرط على نفسه أن يردَّها علينا فلم يردَّها، ونحن متقاعدون عن أخذها، وكان يوشافاط ملك إسرائيل عنده كما مرَّ.

فقال له أتمضي معي إلى القتال؟ فأجابه: نفسي كنفسك وشعبي كشعبك وخيلي كخيلك ولم يشرط يوشافاط إلّا أن يسأل آحاب الرب بواسطة أحد أنبيائه فجمع آحاب نحو أربع مئة رجل لكنهم كذبة أو من كهنة بعل أو متملّقون له. فقالوا له اصعد إلى القتال فإنّ الرب دافع أعداءك إلى يدك. فقال يوشافاط: أليس هنا نبيٌّ للرب بعد فنسأل به؟ فقال آحاب يوجد بعد رجل لكنّه لا يتنبّأ عليَّ بخير وهو ميخا بن يملة، فأبى يوشافاط إلّا أن يستأتوه فأتى. فقال له آحاب: أتمضي إلى راموت جلعاد للقتال أم نمتنع؟ فقال: رأيت جميع إسرائيل مبددين على الجبال كالغنم التي لا راعي لها. فقال آحاب ليوشافاط ألم أقل لك إنّه لا يتنبّأ عليَّ بخير؟ فقال ميخا رأيت الرب جالساً على عرشه وجميع جند السماء وقوف لديه، وقد أذن لأحد الأرواح أن يغوي آحاب بقول الكذب في أفواه أنبيائه، فتقدّم صدقيا بن كنعنه ولطم ميخا على لحيه وقال: من أين عبر روح الرب مني ليكلّمك؟ فقال ميخا: ستنظر في ذلك اليوم الذي تدخل فيه مخدعاً ضمن مخدع لتختبئ: إن عدت بسلام فلم يتكلّم الرب فيَّ وأشهد الشعب على كلامه.

قد مضى ملك إسرائيل ومعه يوشافاط ملك يهوذا إلى الحرب لاسترداد راموت جلعاد من يد ملك دمشق. فتنكّر آحاب وتقدّم إلى ساحة الحرب واستمرّ ملك يهوذا لابساً لباسه، وكان ملك دمشق قد أمر رؤساء مراكبه أن لا يحاربوا كبيراً ولا صغيراً إلّا آحاب، فتوهّم رؤساء المراكِب بأنّ يوشافاط هو ملك إسرائيل. فمالوا عليه فصرخ مستغيثاً بالرب الحالّ في هيكل أورشليم فعرفوا إنّه ليس آحاب ورجعوا عنه، وإنّ رجلاً نزع في قوسه غير متعمّد فأصاب ملك إسرائيل بين الذرع والورك وعن يوسيفوس (تاريخ اليهود ك ٨ فصل ١٠): إنّ السهم أصمى رئته. فقال لمدير مركبته: أخرج بي من الجيش فإنّي جرحت فأخرجه. واشتدّ القتال وآحاب واقف بمركبته مقابل آرام ودمه يسيل في المركبة ومات في المساء. ونودي في الجيش للانصراف فعاد كل إلى محلّه وأخذ آحاب إلى السامرة. وغسلت مركبته وسلاحه من الدم فلحست الكلاب دمه بحسب كلام الرب بفم إيليا النبي (ملوك ٣ فصل ٢٢).

إنّ بين مفسري الكتاب مبحثاً معضلاً للتوفيق بين قول إيليا (ملوك ٣ فصل ٢١) «في الموضع الذي لحست فيه الكلاب دم نابوت تلحس الكلاب دمك».

وبين قول الكتاب (ملوك ٣ فصل ٢٢ عد ٣٨)، «وغسلت مركبته في بركة السامرة فلحست الكلاب دمه وغسل سلاحه على حسب كلام الرب الذي تكلَّم به». والسامرة على مسافة سبع ساعات من زرعين حيث قتل نابوت. فذهب بعضهم إلى أنّ كلمة الموضع من الآية الأولى لا يراد بها المكان المتحيز بل العمل أو الناحية من باب ذكر الجزء وإرادة الكل، فكأنه يقول إنَّ الناحية أو العمل الذي لحست به الكلاب دم نابوت تلحس فيه دم آحاب. وذكر آخرون أنّ تذلُّل آحاب أمام الرب بعد تهديد إيليا له، ووعده تعالى إنّه لا يجلب الشر في أيّامه لكن في أيام ابنه، آجلًا جلب هذه العقوبة إلى ممات يورام بن آحاب؛ إذ جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ٩ عد ٢٥) إنَّ ياهو بعد أن قتل يورام قال لأحد قوّاده: «خذه واطرحه في حصَّة حقل نابوت اليزرعيلي، واذكر إذ كنت راكباً أنا وأنت وراء آحاب أبيه كيف جعل الرب عليه هذا الحمل». واستحسن سنكتيوس هذا المذهب (في تفسيره فصل ٢١ عد ٢٣ في سفر الملوك ال . ٣). وأراه أولى من المتابعة ليوسيفوس في قوله (ك ٨ من تاريخ اليهود ف ١٠): أنّ جثّة آحاب نقلت في مركبته نفسها إلى السامرة ودفنت هناك وأمّا مركبته فأخذت إلى يزرعيل وغسلت بماء عين هذه المدينة. وكانت ملطّخة بدم نابوت فتمّت بذلك نبوة إيليا النبي. وقد استحسن كاران (مجلّد ١ في السامرة صفحة ٣١٦) رواية يوسيفوس هذه وقال : إنّه أخذها عن نسخة مخطوطة كانت في أيامه وهي أصح ممّا أخذ عن غيرها، لأنّها تزيل الإشكال وظاهر الناقض بين نبوة إيليا ونوع تمامها. على إنّه لا يخفى أنّ قول يوسيفوس إنَّ مركبة آحاب غسلت بماء ينبوع يزرعيل مخالف لقول الكتاب إنّها غسلت «في بركة السامرة» ولذا قلت إنَّ المذهب الثاني أولى بالإتباع.

عد ٣٠٧

أحزيا بن آحاب وارتفاع إيليا نحو السماء

خلف أحزيا أباه آحاب وكان على شاكلته، فقد عبد البعل وسجد له وأسخط الرب. وكان يوشافاط ملك يهوذا مصافياً له وقد اشتركا في بناء سفن تذهب إلى اوفير، لكنّها انكسرت كما مرَّ (في عد ٢٩٩). وقد تمرّد الموآبيون على أحزيا وأبوا

أداء الجزية المفروضة عليهم، ولم ينبئنا الكتاب انَّه حاربهم بل أنبأنا انَّه سقط من شباك عليته التي في السامرة، ومرض. فبعث رسلاً يسأل بعل زبوب إله عقرون وهل يبرأ من مرضه. وعقرون هي المسماة اليوم عاقر على ثلاث ساعات من الرملة جنوباً كما حقَّق روبينسون وتابعه كاران (مجلَّد ٢ في اليهودية صفحة ٣٨). وبعل زبوب تأويله إله الذباب أي الإله الذي يُلجأ إليه للتخلُّص من الذباب، وهو يكثر في فصل الصيف في تلك الأماكن، وكان لليونان إله من الذباب ذكره بلينيوس وغيره. فخاطب ملاك الرب إيليا أن يلاقي رسل ملك السامرة ويقول لهم ألعله ليس إله في إسرائيل حتى تذهبوا وتسألوا إله عقرون؟! ولذلك فالسرير الذي علاه ملككم لا ينزل عنه بل يموت موتاً فصنع ايليا كما أمره الملاك. فعاد رسل الملك وأخبروه بما قيل لهم فسألهم ما هيئة الرجل الذي خاطبكم بهذا الكلام؟ قالوا رجلٌ عليه شعر متمنطق بمنطقة من جلد فقال هو ايليا. ووجَّه إليه قائد خمسين مع خمسيه فقال له يا رجل الله الملك يقول إنزل. فأجابه ايليا. إن كنت أنا رجل الله فلتهبط نارٌ من السماء وتأكلك أنتَ وخمسيك. فهبطت النار وأكلته وخمسيه. وأثبتت الآية إنه رجل الله فلم يتَّعظ احزيا وأرسل إليه رئيس خمسين ثانياً مع خمسيه فأصابهم ما أصاب الأولين. وأرسل إليه رئيس خمسين ثالثاً وكان حكيماً فجثا على ركبتيه، وتضرَّع إليه قائلاً ما حيلتي يا رجل الله وأنا عبدٌ مأمور فلتكرم نفسي في عينيك، ولا تبدني كما أبدت قائدَي الخمسين وخمسيهما. فأوحى الرب لايليا أن إنزل معه فنزل، وقال للملك ما كان قاله لرسله وتركه فمات احزيا بعد أن ملك سنتين فقط بعضها في حياة أبيه وبعضها بعد موته. فكثيراً ما أشرك ملوك إسرائيل أبناءهم في الملك على عادة ملوك فارس وغيرهم من ملوك المشرق لا سيما إذا مضوا لحربٍ يخشون الموت فيها. وهذا يوافق ما يظهر من التضاد أحياناً في تعيين سني ملوك يهوذا وإسرائيل بين رواية أسفار الملوك وسفرَي أخبار الأيام، ولما لم يكن لأحزيا إبنٌ ملك مكانه أخوه يورام بن آحاب (ملوك ٤ فصل ١).

ويظهر أنه في نحو هذا الزمان ارتفع ايليا نحو السماء، ولم يظهر بعد وترك أليشاع خلفاً له. قال كثيرٌ من الآباء ومفسري الكتاب إنَّ ايليا ما برح حيّاً وسيعود إلى العالم قبل قيام الساعة. استمساكاً بقول ملاخيا النبي (ف ٤ ع ٥): «هأنذا أرسل إليكم ايليا النبي قبل أن يجئ يوم الرب العظيم الرهيب، فيردُّ قلوب الآباء إلى البنين». وكان الكتبة في أيام المخلِّص يقولون إنَّ ايليا يلزم أن يأتي قبل مجئ المسيح،

ولما ذكر الرسل ذلك للمخلّص أجابهم: «الحق أقول لكم إنَّ ايليا جاء ولكنهم لم يعرفوه بل صنعوا به كلَّ ما أرادوا» (متى ف ١٧ ع ١١). وفهم الرسل أنه عنى بذلك يوحنا المعمدان الذي قيل فيه في بشارة لوقا (فصل ١): «إنه يتقدَّم أمامه بروح ايليا النبي وقوّته، ويردُّ قلوب الآباء إلى البنين» كما في كلام ملاخيا. ولذلك قال بعضهم: إنَّ نبوّة ملاخيا لا يتحقق منها مجئ ايليا إلى العالم في آخر الزمان، وإنّه ربما كان هذا المذهب معاوناً لليهود في زعمهم أنّ المسيح لم يأتِ بعد، لأنَّ ايليا لم يجئ بعد على أنّ المذهب الأول أي أنّ ايليا واخنوخ أيضاً ما برحا حيين، وسوف يأتيان قبل يوم الدين إلى العالم هو الذي عليه أكثر الآباء والمفسرين، بل سماه سنكتيوس الرأي العام. وقالوا إنَّ قول المخلّص انَّ ايليا جاء مجازي، يريد به أنّ مجيء يوحنا للتبشير به قبل ظهوره للعالم أشبه بمجيء ايليا قبل اليوم الأخير لإنذار الناس، ومقاومة الدجال وأيدوه بما جاء في رؤيا يوحنا (فصل ١١ عد ٣): «وسأقيم شاهديَّ (أي ايليا واخنوخ) فيتنبآن ألفاً ومئتين وستين يوماً وعليهما مسوح». وبأنَّ الترجمة السبعينية روت في بعض نسخها قول ملاخيا: «هأنذا أرسل إليكم ايليا النبي التشبي». واحتجّوا له أيضاً بما جاء في كلام ابن سيراخ (فصل ٤٨ عد ٦) في ايليا: «وخُطفت في عاصفة من النار في مركبة خيل نارية. وقد إكتتبك الرب لأقضية تجري في أوقاتها، ولتسكين الغضب قبل حدَّته وردّ قلب الأب إلى الابن». ولا نكير أن قول ابن سيراخ مشير إلى نبوّة ملاخيا، ومحقق أن المراد بها مجيء ايليا قبل اليوم الأخير. ولهم في المباحث المتعلقة بهذا الأمر أقوال متباينة. مثلاً أين يقيم اخنوخ وايليا الآن أفي الهواء أم في السماء؟ أم في الفردوس أو في جنّة؟ وبكل منها قائلٌ، وأحسن الأقوال وأسدُّها إنهما في محل يعلمه الله ولم يعلمنا به، وكذلك أيأكلان ويشربان ويلبسان أم تغنيهما عناية الله عن ذلك؟ والأظهر الثاني.

وقد خلف اليشاع ايليا وأثبت الله رسالته بآيات منها أنه ضرب مياه الأردن برداء ايليا الذي سقط عليه عند صعوده، فانفلقت إلى هنا وهناك وعبر على اليبس بمرأى من أبناء الانبياء، ومنها إصلاحه نبع ماء أريحا بوصفه الملح فيه، وخروج دبّتين من غاب إلى بيت إيل وافتراسهما إثنين وأربعين صبياً كانوا يعيِّرونه قائلين اصعد يا أجلح اصعد يا أجلح، ولا ريب أنهم كانوا يستوجبون هذه العقوبة هم وآباؤهم، ومنها إكثاره الزيت لإحدى الآرامل حتى وفت دَينها به، وإقامته ابن

الشونمية من الموت وإبراؤه نعمان رئيس جيش آرام من البرص، وضربه خادمه حجزي بالبرص لأنه أخذ من نعمان المذكور قنطارَين من الفضة وحلَّتَين من الثياب.

عد ٣٠٨

يورام بن آحاب

ملك يورام بن آحاب مكان احزيا أخيه لأنه لم يكن له ابن وصنع الشرّ في عيني الرب، ولكن لا كأبيه وأمه لأنه أزال تمثال البعل الذي صنعه أبوه، إلَّا أنه أعاد عبادة العجل التي أدخلها ياربعام بن نباط إقتداءً بالمصريين. فأثار الرب عليه ميشاع ملك مواب فعصاه. وأبى إداء الجزية التي كان هو وأسلافه يقدِّمونها لملك إسرائيل، وكانت تلك الجزية مئة ألف حمَل، ومئة ألف كبشٍ بصوفها، ولا عجب بكثرة هذه الأغنام لأنَّ منبع ثروة مواب كان تربية الماشية وبلادهم صالحة لها. فلو فرضنا فيها ألفَي مالك للماشية ولكلٍّ منهم ألف رأس كانت الجزية عشر مالهم، ولم يصرِّح الكتاب أفي كل سنة كان ملك مواب يقدِّم هذه الجزية أم عند قيام الملك فقط؟ ويُحتمل أن كان الأخير كما مرَّ آنفاً. فعظم الأمر على يورام وأحصى رجال مملكته، وأرسل إلى يوشافاط ملك يهوذا سائلاً هل يمضي معه إلى مواب للقتال؟ فأجابه كما أجاب أباه آحاب إنما نفسي كنفسك وشعبي كشعبك وخيلي كخيلك. وصعد الملكان في طريق آدوم لأنَّ ملك آدوم كان حليفاً ليوشافاط، ولأنهم خافوا أن يسطو عليهم ملك دمشق إنْ داروا حوَّل البحر الميت من جهة المشرق، فداروا من جنوبه ولم يجدوا ماءً، فقال يوشافاط أليس ههنا نبي للرب فنسأل به؟ فقيل له إنَّ ههنا اليشاع. فانحدر إليه الملكان وملك آدوم وقال اليشاع لملك إسرائيل ما لي ولك امضِ إلى انبياء أبيك وأمك، ولولا تكريمي لوجه يوشافاط ملك يهوذا لما نظرت إليك. ثم قال لهم النبي اجعلوا هذا الوادي حفراً حفراً فيمتلئ ماءً ولا ترون ريحاً ولا مطراً وسيدفع الرب مواب إلى أيديكم.

وكان في الغداة أنّ مياهاً جاءت من طريق آدوم فامتلأت الأرض ماءً. واجتمع الموآبيون للحرب، وبكَّروا بالغداة وقد أشرقت الشمس على المياه فرأوها حمراء كالدم، فتوهموا أنّ الملوك إقتتلوا حتى صبغ دم قتلاهم المياه، وتهافتوا دون نظام ولا محاذرة على محلة الملوك فضربهم الملوك وهزموهم. ودخلوا بلادهم وهم يعملون

السيوف بهم وهدموا مدنهم وردموا عيون مائهم. وقطعوا كلَّ شجرة حسنة في أرضهم وحاصروا قيرحراست حاضرتهم وهي الكرك الآن. ولما رأى ملك مواب أن قد اشتدت الحرب عليه أخذ معه سبع مئة رجل مخترطين السيوف ليخترقوا الصفوف إلى ملك آدوم فلم يقدروا. ويئس ملك مواب من النجاة واعتقد أنّ كاموش معبوده ساخطٌ عليه، وأنه لا يخمد غضبه عنه إلّا أن يضحّي بابنه ترضيةً له، فأصعد بكره محرقةً على أسوار المدينة، فلما رأى بنو إسرائيل ذلك حنقوا حنقاً شديداً، وانصرفوا عن المدينة ورجعوا إلى أرضهم (ملوك ٤ ف ٣).

ويظهر مما مرّ في كلامنا على يوشافاط إنَّ الادوميين انحازوا بعد هذه الحرب إلى ميشاع ملك الموآبيين. وخرجوا معه على يوشافاط ودمَّروا مدناً كثيرة في مملكة يهوذا انتقاماً من يوشافاط: لأنه خرج مع ملك إسرائيل على الموآبيين. وانتصر عليهم في عين جدي كما مرَّ في الكلام عليه. وقد كُشف من أمدٍ قريب عن صفيحة تثبت ما ورد في الكتاب عن هذه الحروب إثباتاً علمياً قاطعاً وهي المعروفة بصفيحة ميشاع.

عد ٣٠٩
صفيحة ميشاع

إنَّ هذه الصفيحة قد كشف عنها سنة ١٨٦٩ م كلرمون كانو الإفرنسي ترجمان قنصلية إفرنسة في أورشليم وقتئذٍ، وهي الآن في متحف اللوفر في باريس بين الآثار اليهودية بمنزلة كنز ثمين. قال فيه دي فوكوه إنه ليس بين الآثار العبرانية ما يعادله اعتباراً وأهمية، وهي من حجر أسود كالصفائح المصرية. علوّها نحو متر وعرضها نحو ستين سنتيمتراً، وقد استمرت مدفونة من نحو تسعة قرون قبل الميلاد إلى سنة ١٨٦٩ م بعده في سفح أكمّة في جانب ديبان شرقي البحر الميت على ثلاثة أيام من أورشليم. وكان سكان البادية قد كسروا هذه الصفيحة وهي الآن في اللوفر مركّبة من نحو عشرين قطعة، ولم تزل بعض قطعها مفقودة، ولا أمل بوجدانها والخطوط المكتوبة عليها باللغة الموابية، وهي فرع من اللغة العبرانية المدوَّنة بها الأسفار المقدسة، فكل كلماتها يمكن ردها إلى أصل عبراني، وهي من أول الأمثلة للكتابة بالحروف، وقد حوَت أربعة وثلاثين سطراً وترجمها برمَّتها لانرمان في



صحيفة ميشاع ملك مواب

تاريخه القديم للمشرق (مجلد ٦ صفحة ٢٧٤ طبعة ٩). وفيكورو في الكتاب والإكتشافات الحديثة (مجلد ٤ صفحة ٦٠ طبعة ٥). وقد ترجمناها عنهما موثرين ما رأيناه الأحسن لتأدية المعنى من الترجمتين: «أنا ميشاع بن كاموش ملك مواب

الديبوني (نسبةً إلى ديبون وهي ديبان اليوم) ملك أبي في مواب ثلاثين سنة. وملكتُ أنا بعد أبي، وأقمتُ هذا الباماه (المحل المشرق والمراد هنا الصفيحة) لكاموش في كوركا. (الأظهر أنّ الكلمة علَم للأكمة حيث وُجدت الصفيحة أو لمدينة ميشاع الملكية)، لأنه خلَّصني من كلّ من إعتدوا عليَّ وجعلني أن أقهر مناصبيّ. إنَّ عَمري كان ملك إسرائيل وضايق مواب أياماً طوالاً، لأنَّ كاموش كان ساخطاً على أرضه.

وخلفه ابنه آحاب فقال أنا أيضاً أقهر مواب في أيامي (أو في مدة حياتي) وأتسلَّط عليه وأذلُّه هو وبيته فباد إسرائيل بيداً دائماً. وكان عَمري استحوذ على أرض ميدبا واحتلَّها. وعاش هو وابنه أربعين سنة فاستردها كاموش إلى أيامي. أنا بنيت (أو أقمت) بعل معون (معين الآن)، واحتفرت هناك آباراً وأقمت قرياتيم (على عشرة أميال من ميدبا غرباً). وكان رجال جاد يسكنون في أرض عطاروت (في جانب جبل عطروس) منذ زمان مديد فحاربتُ المدينة وافتتحتُها، وقتلتُ كل رجالها فكان ذلك مشهداً لكاموش ومواب. وأخذتُ من ثمة مذبح دودو (داود) وطرحتُه على الأرض أمام كاموش في قريوت (علَّها قرياتيم المار ذكرها). وأسكنتُ هناك رجال ستارون ومقارة (لا يُعرف موقعها). وقال لي كاموش امضِ وافتتح نابو (في جانب جبل نبو) على بني إسرائيل، فمضيتُ ليلاً وأقمتُ الحرب عليها من الفجر إلى الظهر فأخذتُها. وقتلتُ كلَّ رجالها سبعة آلاف رجل ونساءهم واستحييت البنات والعبيد لأني قدتهم إلى عشتاروت كاموش. وأخذتُ من هناك آنية يهوه (إله العبرانيين) وطرحتها على الأرض أمام كاموش. وكان ملك إسرائيل بني ياسا واحتلَّها عند ما كان يحاربني فطرده كاموش من أمام وجهه، لأني أخذتُ من مواب مئتي رجل من أحسن الرجال، وأرسلتهم على ياسا فأخذتُها وضممتها إلى ديبون (يظهر منه أنّ ياسا كانت حذاء ديبان)، أنا بنيتُ كوركا (المار ذكرها) وأسوار يعرين واوفيل وأقمتُ أبوابها وأبراجها، وبنيتُ دار الملك والسجون في وسط المدينة ولم تكن آبار في كوركا، فأمرتُ الشعب أن يحتفر كلٌّ منهم بئراً في بيته. وحفرتُ مجاري لجلب الماء إلى كوركا وأشغلتُ فيها أسرى إسرائيل. أنا بنيتُ عراعر (عراعير الآن) ومهدتُ طريق أرنون (النهر المعجب). أنا بنيتُ بيت باموت لأنها كانت خراباً وبنيتُ باصور لأنها كانت... ديبون خمسين لأنَّ ديبون كلها كانت لأمري، وأكملتُ عدد المئة مع المدن التي ألحقتها بأرض مواب وأقمتُ...

وبيت ديابلاتيم وبيت بعل معون وأتيتُ إلى هناك... وأورونيم كان يسكن فيها...وكاموش قال لي انزل فحارِب أورونيم فأنا... وكاموش في أيامنا وعلى ... صنع... وأنا...» فهذه ترجمة صفيحة ميشاع ويُشار بالنقط المتتالية إلى القطع المفقودة وإليك مثالاً لهذه الصفيحة عن أصلها المحفوظ في متحف اللوفر.

لا جرم أن ميشاع صاحب هذه الصفيحة إنما هو ميشاع ملك مواب الذي جاء في الكتاب أنه عصى على يوارم بن آحاب، وإنَّ الحرب التي تفاخر بأنه أثارها على إسرائيل إنما هي الحرب التي ذكرها الكتاب في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢٠). وقد مرَّ ذكرها في كلامنا على يوشافاط فإنه دمَّر حينئذٍ هو وحلفاؤه مدن إسرائيل في عبر الأردن وانتهى إلى عين جدي. ولا غرو أنّ ميشاع لم يشأ أن يخلد في صفيحة ذكر إنخذاله بل ذكر ظفره كما فعل المصريون والآشوريون في خطوطهم القديمة. ولا يقام نكير على أنّ الصفيحة مثبتة إثباتاً علميّاً آيات كثيرة من الكتاب وتطابقه جوهراً في رواية عَمري وآحاب وحرب ملك مواب مع يورام ويوشافاط، وتوافقه في تاريخ مدة ملك عَمري وآحاب ابنه. فقد صرَّح الكتاب بأنَّ عَمري ملك إثنتي عشرة سنة، وآحاب ابنه إثنتين وعشرين سنة. وإنَّ زمري نازع عَمري الملك فلم يستبد به إلَّا بعد مدة، فإن جعلنا مدة النزاع ست سنين كما جعلها بعض المحققين كانت مدة ملك عَمري وآحاب ابنه أربعين سنة كما في الصفيحة، وأيضاً تكون المطابقة بين الكتاب والصفيحة إن أضفنا إلى سني ملك عَمري وآحاب التي هي أربع وثلاثون سنة السنتَين اللتَين ملك فيهما أحزيا بن آحاب، وجعلنا تحرير مواب من سلطة إسرائيل في السنة الرابعة ليورام بن آحاب فيكون المجموع أربعين سنة.

وجاء في الصفيحة: «وكان رجال جاد يسكنون في أرض عطاروت منذ زمان مديد (وفي ترجمة لانرمان منذ زمان لا يُذكر بدؤه) ... وقال لي كاموش: إمضِ وافتتح نابو على بني إسرائيل». وجاء في الكتاب (سفر العدد فصل ٣٢): «جاء بنو جاد وبنو رآوبين وكلَّموا موسى...وقالوا: إنَّ عطاروت وديبون ويعزيز... ونابو ومعون هي أرض تصلح للماشية، ولعبيدك ماشية فإن أصبنا عندك حظوة فلتعطَ هذه الأرض لعبيدك». وقيل بعد ذلك: «فبنى بنو جاد ديبون وعطاروت وعروعير... وبنى بنو رآوبين حشبون وقرياتيم. ونابو وبعل معون». فتأمل بهذا الطباق بين أسماء هذه المدن في الكتاب وفي الصفيحة. ولما كان ما ذكره الكتاب مرَّ عليه نحو من

سبعة قرون قبل ميشاع فحقَّ له أن يقول إنَّ بني جاد كانوا يسكنون هذه الأرض منذ زمان مديد أو منذ زمان لا يُذكر بدؤه. على أنّ قوله أنه بنى هذه المدن يراد به أنه رممها أو جدَّد بناءها بعد الخراب الذي أوقعه بها عسكر يورام ويوشافاط كما مرَّ. ولا نسهُ عن الطباق في اسمَي كاموش معبود مواب ويهوه إله إسرائيل بين الكتاب والصفيحة. وقد حلَّت لنا هذه الصفيحة معضلةً أخرى وهي أنّ آيات المزمور ال ١١٩ والفصل ال ٣١ من سفر الأمثال. موزعة على أحرف الهجاء أي تبتدي كلّ آية بحرف من الحروف الإثنين والعشرين. فقال بعض المنددين بالكتاب لم تكن أحرف الهجاء حينئذٍ في العبرانية إثنين وعشرين حرفاً لأنَّ بعض هذه الحروف وُضع متأخراً، فجاءت هذه الصفيحة حاوية الإثنين والعشرين حرفاً فأفحمت المنددين.

عد ٣١٠

الحرب بين ملك آرام وملك إسرائيل والمجاعة في السامرة

كان ملك آرام ابن هدد الثاني يحارب يورام ملك إسرائيل، وقد تعسَّر عليه الظفر. فلجأ إلى الحيلة وفاوض أعوانه في أن يقيم كميناً لملك إسرائيل فيقتله غيلة، فأرسل اليشاع وحذَّر يورام من العبور في محل الكمين واستجس فتحقق مقال النبي، فاحتفظ بنفسه وعلم ملك آرام وظنَّ أنّ بين أعوانه من يخونه. فقيل له انَّ اليشاع النبي يخبر يورام بما يسره أعداؤه، فأرسل خيلاً ومراكب وجيشاً ليقبض على أليشاع ليلاً في دوتان (وهي تل دوتان الآن على نحو إثني عشر ميلاً من السامرة شمالاً). ورأى غلام اليشاع الجيش فصرخ إلى سيده فقال له لا تخف، فان الذين معنا أكثر من الذين معهم ونزل إليهم اليشاع فأعماهم الرب عن عرفانه. وقال لهم ليست هذه الطريق ولا هذه المدينة، تعالوا ورائي فأسير بكم إلى الرجل الذي تطلبون، فسار بهم إلى السامرة وفتح الرب عيونهم فأبصروا، فإذا هم في وسط السامرة ونهى النبي يورام عن مضرَّتهم بشيء، بل أصلح لهم بأمره مأدبةً عظيمة فأكلوا وشربوا ثم أطلقهم فمضوا إلى سيدهم.

فعدل ابن هدد عن الحِيَل، وعزم على أن يجاهر ملك إسرائيل بالمحاربة وجيَّش جيوشه وحاصر السامرة، ورأى ملك إسرائيل عجزه عن المهاجمة فاكتفى أن يحصّن

نفسه ضمن أسوار المدينة فحصل جوع شديد حتى بيع رأس الحمار بثمانين من الفضة. وقدَّرها كلمت بقيمة مئة وثلاثين فرنكاً وقال بعضهم إنَّ المراد برأس الحمار الحمار برمَّته. وبيع ربع قبٍ (مكيال) من زبل الحمام بخمسة من الفضة عبارة عن ثمانية فرنكات ونيف. ولهم في تفسير هذا الزبل أقوال منها أنّ المراد به السرقين على ظاهر لفظه وقد اضطرهم الجوع إلى الأقتيات به. وقالوا إنه لا يخلو من مادة مغذية بدليل أنّ بعض الطائر يأكله ويتغذى به، ومنها أنّ المراد بزبل الحمام الحبوب التي تُعدّ لقوته كالزوان وغيره، أو التي كان الحمام يجمعها في وكره. وكان الحمام كثيراً في السامرة وعن يوسيفوس إنهم كانوا يعتاضون بهذا الزبل عن الملح، والأظهر أنّ زبل الحمام كان عندهم إسماً لنبات كالحماص من طائفة الحمّص كانوا يقتاتون به حتى غلا ثمنه، أو اسماً لحبوب تنبت على أصول بعض الأشجار كحب الحمّص، وكانوا يأكلونه (عن سنكتيوس عن كلمت في تفسير الآية). وقد اشتدَّ الجوع حتى أكلت النساء أولادهنَّ، ووافت يورام امرأة تشكو جارتها بأنها قالت لها هاتي ابنك نأكله اليوم وغداً نأكل ابني فطبختا ابنها وأكلتاه. وفي اليوم الثاني أخفت الأخرى ابنها فاحتدم الملك ومزَّق ثيابه، وجعل على بدنه مسحاً من تحت ثيابه وأراد أن يقتل أليشاع لتيقّنه أنه كان قادراً على إزالة هذا الضيق بصلاته فلم يُزله. وأرسل الملك رجلاً يقتله وعرف اليشاع ذلك وكان جالساً في بيته، والشيوخ جلوس معه فأخبرهم به، وقال إذا دخل الرسول فاغلقوا الباب وأضغطوه فيه. ثم قال للشيوخ في مثل هذه الساعة من غدٍ يباع مكيال السميذ بمثقال. ومكيالا الشعير بمثقال بباب السامرة. فقال أحد أعوان الملك لو فتح الرب كوى فى السماء هل يتمُّ ذلك؟ فأجابه النبي سترى ذلك بعينيك ولكنك لا تأكل منه. وكان أربعة رجال برص يقومون عند مدخل السامرة لمنع البرص من مخالطة القوم فضايقهم الجوع. وقال أحدهم لصاحبه إن دخلنا المدينة متنا وإن بقينا هنا متنا جوعاً، هلمَّ ننزل إلى محلة الآراميين فإن أبقوا علينا عشنا، وإلَّا فلا أكثر من الموت في كلِّ حال. فمضوا غلساً إلى محلة الآراميين فلم يجدوا أحداً، وذلك أنّ الرب كان أسمع جيش الآراميين أصوات مراكب وخيل وعسكر جرار. فتوهَّموا أنّ ملك إسرائيل إستأجر عليهم ملوك الحثيين وملوك المصريين. فقاموا وهربوا عند الشفق وخلوا خيامهم وخيلهم وكلَّ ما كانوا ثمة يملكون. فدخل البرص المحلة وأكلوا وشربوا وأخذوا بعض الغنائم وبادروا إلى المدينة ينادون بما رأوا، فلم يصدِّق الملك

إلى أن أرسل من حققوا الخبر. فخرج الشعب وانتهبوا محلة الآراميين وغنموا بما فيها حتى صار مكيال السميذ بمثقال ومكيالا الشعير بمثقال كما قال النبي. ووكَّل الملك على الباب من كان أنكر على النبي صدق نبوَّته فداسه الشعب ومات. وتمَّت به نبوَّة النبي أيضاً (ملوك ٤ فصل ٦ و ٧).

ومرض ابن هدد ربما لانخذال جيوشه، ووافى اليشاع دمشق فقيل له قد أتى رجل الله إلى هنا. فقال الملك لحزائيل وزيره حمِّل أربعين جملاً من أجوَد ما في دمشق هدية، واذهب إليه واسأله هل أبرأ من مرضي؟ ففعل حزائيل وقال له اليشاع امضِ وقل له لن تبرأ. ثم حدَّق نظره إليه حتى بكى فقال حزائيل ما بال سيدي يبكي؟ فقال لأني علمت بما ستصنعه ببني إسرائيل من السوء، فإنك ستحرق حصونهم وتقتل فتيانهم وتشدِّخ أطفالهم، وتشقُّ حبالاهم، فقال من عبدك الكلب حتى يفعل هذا الأمر العظيم؟ فقال أراني الرب إياك ملكاً على آرام. فانصرف حزائيل ودخل على سيِّده فقال له ما قال لك اليشاع؟ فقال بشَّرني بأنك تعيش. وأخذ في الغد قطيفة (وهي دثار مخمل يضعه الإنسان عليه عند نومه) وغمسها بالماء وبسطها على وجهه فمات. فقال بعضهم إنَّ الملك نفسه بسط هذه القطيفة عليه أو أمر ببسطها تبريداً لحرارة الحمى التي كانت تعذِّبه. وقال غيرهم إنَّ حزائيل بسطها عليه بهذه الحجَّة وشدَّها على وجهه حتى قطع الهواء عنه فمات. وهذا هو الظاهر من كلام يوسيفوس. وبعد موت ابن هدد ملك حزائيل مكانه (ملوك ٤ فصل ٨ إلى عد ١٦).

عد ٣١١
يورام ملك يهوذا

ملك يورام بن يوشافاط على يهوذا في السنة الخامسة لملك يورام بن آحاب على إسرائيل. وقد ملك مع أبيه سنة كما يتبيَّن من سفر الملوك الرابع (فصل ٨ عد ١٦) حيث قيل وملك يورام ويوشافاط مالك على يهوذا. وإنه ملك ثماني سنين في أورشليم ثم قال (في عد ٢٥) إنَّ احزيا بن يورام ملك في السنة الثانية عشرة ليورام بن آحاب، فيظهر أنهِ ملك نحو سنة في أيام أبيه وسبع سنين بعده. وكان كل من ملكَي يهوذا وإسرائيل يسمَّيان يورام. وكان يورام ملك يهوذا متزوجاً بعتليا

بنت آحاب وايزابل، فسار في طريق بيت آحاب وصنع السوء. ومن الأحداث المهمة في أيامه خروج الآدوميين من تحت أيدي يهوذا بعد أن كانوا من أيام داود يؤدون الجزية والخراج لملوك يهوذا. فقد قتلوا ملكهم الذي كان يخلص الأمانة ليوشافاط وجاهروا بالعصاوة على يورام ابنه. فعبر الأردن وضرب بعض مدنهم على أنه اضطرّ أن ينكس يئساً من ردّهم إلى الطاعة، فذهبت مهابته، وذلّت سطوته في أعين الآدوميين وغيرهم. فقد قال الكتاب بأثر ما مرّ «وفي ذلك الوقت تمرَّدت لبنة» عليه. وقد كانت مدينتان تسميان بهذا الاسم. إحداهما في نصيب سبط يهوذا ذُكرت في سفر يشوع بن نون (فصل ١٥ عد ٤٢). وجاء في سفر أخبار الأيام الأول (فصل ٦ عد ٥٧) أنها جعلت مدينة ملجأ لبني هرون. وقال أوسابيوس والقديس إيرونيموس أنَّ موقعها كان في ناحية بيت جبرين، وعن لانرمان أنها المدينة التي تمرَّدت على يورام إذ قال في تاريخه القديم للمشرق (مجلد ٦ عند كلامه في يورام) «في ذلك الوقت أبت لبنة المدينة الكهنوتية الواقعة في سهول يهوذا أن تخضع لهذا الملك الأثيم». ولبنة الثانية جاء ذكرها في سفر العدد (فصل ٣٣ عد ٢٠) بين مراحل بني إسرائيل إذ قيل: «وارتحلوا من رمون فارص ونزلوا بلبنة». وعليه فهي في البرية ويظهر من قول يوسيفوس (ك ٩ في تاريخ اليهود فصل ٢) إنَّ هذه هي المدينة التي تمرَّدت على يورام إذ قال: «إنَّ حملة يورام على الآدوميين ذهبت بمهابته أمام هؤلاء الشعوب. وجرّأت غيرهم على الثورة عليه، فلم يشأ سكان بلاد لابين (كذا يسمي لبنة) أن يخضعوا لسلطته.

ومن فظائع هذا الملك أنه قتل إخوته الستة عن آخرهم مع جماعة من رؤساء إسرائيل منقاداً إلى ذلك بمشورة امرأته عتليا بنت آحاب وايزابل، وربما كان أولئك الرؤساء يقاومونه بإكراهه الشعب على المضي إلى المشارف ليسجدوا للأوثان. وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢١ عد ١٢): إنه «وردت إليه كتابه من ايليا النبي» وتضاربت الأقوال من مصدر هذه الكتابة لأنَّ ايليا كان قد صعد بالغمام. فمن قائل إنَّ ايليا كان عرف بالروح النبوي ما سيكون من يورام، فاستودع هذه الكتابة تلميذه اليشاع ليبلغها إلى يورام حين الحاجة إليها. ومن قائل إنَّ هذه الكتابة من قلم ياهو النبي ابن حناني فغيَّر النساخ اسم ياهو باسم ايليا. ومن قائل إنَّ ايليا ظهر لأحد الانبياء ولقَّنه هذه الكتابة وأمره أن يمضيها باسمه ويرسلها إلى يورام. ومن قائل إنَّ ايليا كتبها من محل إختفائه وفحواها: «قال الرب إله داود أبيك

لأجل أنك لم تسِر في طرق يوشافاط أبيك وفي طرق آسا ملك يهوذا بل سلكت في طريق ملوك إسرائيل. وحملت يهوذا وسكان أورشليم على أن يفجروا كما فجر بيت آحاب وقتلت أيضاً إخوتك آل أبيك الذين هم خيرٌ منك. فها هوذا الرب يضرب شعبك ضربة عظيمة مع بنيك وأزواجك وجميع مقتناك ويضربك أنت بأمراض كثيرة، بمرض في أمعائك حتى تتساقط أمعاؤك بسبب المرض يوماً فيوماً».

وقد أثار الرب على يورام الفلسطينيين والعرب الذين بقرب الكوشيين والمراد بهم العرب سكان جنوبي العربية حيث اليمن ومساكن المدينيين الذين يسمون كوشيين كما مرّ، أو الكوشيون حقيقةً وهم سكان الحبشة. وزحفت عساكر العرب إلى مملكة يهوذا وأنجدهم الفلسطينيون فافتتحوا مدنها. واتصلوا إلى أورشليم عاصمتها وانتهبوا كلَّ ما وُجد فيها من المال في بيت الملك. وسبوا بنيه ونساءه فلم يبقَ له إلّا يواحاز أصغر بنيه، ويسمى احزيا أيضاً ولم يلبثوا في اليهودية بل قفلوا إلى بلادهم غانمين. وأما يورام الملك فضربه الرب بداء عضال في امعائه حتى خرجت امعاؤه بعد أن قضى سنتين في آلامه ومات غير مأسوفٍ عليه، ولم يُدفن في مقبرة الملوك بل في محلٍ آخر في مدينة داود. وكانت مدة حياته أربعين سنة ملك في ثمانٍ منها. وقال يوسيفوس (ك ٩ ف ٣ من تاريخ اليهود) إنه ملك ثماني وأربعين سنة وهو لا جرم خطأ من النساخ لأنَّ يوسيفوس ذكر بعد ذلك ما يخالفه (سفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢١).

عد ٣١٢
احزيا ملك يهوذا وياهو ملك إسرائيل

قد خلف احزيا أباه يورام وكان عمره يوم ملك إثنين وعشرين سنة وملك سنة واحدة. وكانت أمه عتليا تدبره فاستسار في طريق بيت آحاب جده لأمه، وكانت في سنة ملكه الحرب بين حزائيل ملك دمشق خليفة ابن هدد الثاني وبين يورام خاله ملك إسرائيل. وخرج احزيا مع خاله لقتال حزائيل في راموت جلعاد (السلط)، والأظهر والأطبق للنص العبراني أنّ يورام كان قد استردَّ راموت جلعاد من ملك دمشق مغتنماً فرصة موت ابن هدد، فحاول حزائيل خلفه استردادها من ملك إسرائيل، فكانت الحرب بينهما هناك وجرح فيها يورام واضطرَّ أن يعود إلى

قصره في يزرعيل (زرعين) ليتعالج من الجراح التي أصابته. وتبعه احزيا ابن أخته ليعوده وبقي ياهو رئيس الجيش محافظاً على راموت، فاستدعى اليشاع أحد تلاميذه، وأمره أن يأخذ قارورة الدهن ويمسح ياهو بن يوشافاط بن نمشي ملكاً على إسرائيل بدلاً من يورام بن آحاب. فمسح تلميذ اليشاع ياهو قائلاً قد مسحك الرب ملكاً على إسرائيل، فاضرب بيت آحاب ولا تبقِ على أحد منه، وانتقم لدماء عبيد الرب وأنبيائه، فخرج ياهو وأخبر قومه بما كان فنادوا به ملكاً. وركب ياهو وأخذ معه فريقاً من الجيش ميمماً يزرعيل، ولما رآه الرقباء أخبروا الملك، فأرسل فارساً للكشف فأمسكه ياهو عن العود وكذلك فعل بالفارسَين الثاني والثالث؛ ولما دنا ياهو من المدينة خرج إليه يورام ملك إسرائيل واحزيا ملك يهوذا فالتقيا به عند حقل نابوت اليزرعيلي. فقال يورام أسلامٌ يا ياهو؟ فقال له أيُّ سلامٍ ما دام فجور أمِّك ايزابل وسحرها الكثير؟ فردَّ يورام يديه وهرب قائلاً لأحزيا خيانة يا احزيا، فرماه بالقوس فأصابه بين ذراعيه. ونفذ السهم من قلبه فمات في مركبته. وقال ياهو لأحد أعوانه خذه واطرحه في حقل نابوت، واذكر إذ كنت راكباً أنا وأنت معاً وراء آحاب أبيه كيف جعل الرب هذا الحمل عليه. وأما احزيا فهرب في طريق بيت البستان فجرى ياهو في أثره وقال: ارموه فرموه وجُرح واستمرَّ هارباً إلى مجدو (اللجون الآن) فمات هناك وحمله عبيده في المركبة إلى أورشليم ودفنوه مع أبائه في مدينة داود.

ثم دخل ياهو يزرعيل وكحّلت ايزابل عينيها وزيَّنت رأسها وأشرفت من طاقٍ، ولما دخل ياهو من الباب قالت: أسلامٌ لزمري قاتل سيِّده؟ فأمر خصيانه أن اطرحوها فطرحوها، فترشش من دمها على الحائط وعلى الخيل وداستها، ودخل وأكل وشرب، وقال افتقدوا هذه الملعونة وادفنوها لأنها بنت ملك، فمضوا فلم يجدوا منها إلَّا جمجمتها ورِجلَيها وكفَيها، فعادوا وأخبروه فقال هذا كلام الرب على لسان النبي ايليا إنه في حقل يزرعيل تأكل الكلاب لحم ايزابل. قال كاران (مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٢٠) إنَّ الطاق الذي أشرفت منه ايزابل لم يكن في محل البرج القائم الآن في زرعين، بل كان عند سور المدينة الشرقي من حيث دخل ياهو والظاهر من آي الكتاب أنها أشرفت عليه عند دخوله في باب المدينة وهناك رجم نابوت اليزرعيلي.

وكان لآحاب سبعون إبناً في السامرة فكتب ياهو إلى رؤساء إسرائيل فيها إنَّ

عندكم بني سيدكم وعندكم المراكب والخيل والسلاح، انظروا الأصلح من بني سيدكم وأجلسوه على عرش أبيه وقاتلوا عنه. فخافوا جداً وقالوا هوذا ملِكان لم يثبتا أمامه فكيف نثبت نحن؟ وأرسلوا قائلين إنما نحن عبيدك وكلّ ما قلتَ لنا نفعله، لا نقيم أحداً ملكاً وما يحسن في عينيك فافعله. فكتب إليهم كتاباً ثانياً يقول فيه إن كنتم لي ومن المطيعين لأمري فخذوا رؤوس أبناء سيدكم وتعالوا إليَّ في مثل هذه الساعة من غدٍ. فأخذوا أبناء الملك وذبحوا السبعين رجلاً وجعلوا رؤوسهم في سلال ووجهوها إليه. فقال إجعلوا الرؤوس كومتين إلى الغداة وخرج في الغداة وقال لجميع الشعب أنتم أبرياء، هأنذا قد قتلت سيدي الملك ولكن من الذي قتل هؤلاء جميعاً؟ يريد أنّ الله أمر بقتلهم انتقاماً من آحاب ونسله لأنهم عثوا في إسرائيل وأدخلوا فيه عبادة الأوثان. وقال: اعلموا أنه لايسقط شيء من كلام الرب الذي قاله ايليا. ثم قتل ياهو جميع الباقين من بيت آحاب في يزرعيل وجميع عظمائه ومعارفه وكهنته حتى لم يبقِ منهم باقٍ. وانطلق إلى السامرة فالتقى بإثنين وأربعين رجلاً من أقرباء احزيا ملك يهوذا كانوا أتوا ليسألوا عن سلامة ملكهم. فأمر بقتلهم فقتلوهم على آخرهم. ثم وافى السامرة وقتل كل من بقي لآحاب فيها، وتظاهر بأنه يريد أن يقدّم الذبائح للبعل، واستدعى جميع كهنة البعل وأنبيائه. فاجتمعوا من كلّ فجّ في هيكل البعل الذي كان آحاب بناه في السامرة وتحرى أن لا يكون بينهم أحد غير عباد البعل. وأقام على الأبواب ثمانين رجلاً وقال لهم من نجا من هؤلاء فنفسكم بدل نفسه، فضربوهم بحدّ السيف ولم يفلت أحد منهم. وكسروا تمثال البعل وهدموا بيته وجعلوه مرحاضاً. وكانت هذه الصرامة ضربة لازب لإصلاح فساد إسرائيل ورده عن عبادة الأوثان، وكانت الأيام تبيحها والله أمر بها. إلّا أنّ ياهو ترك عجلَي الذهب اللذين أقامهما ياربعام في بيت إيل (بيت اين) ودان (تل القاضي). ووعد الرب ياهو أنه سيجلس من بنيه إلى الجيل الرابع على عرش إسرائيل جزاءً لأعماله القويمة، لكنه عاقبه عن تركه عِجلَي الذهب بإثارة حزائيل ملك دمشق الحرب عليهم كما سترى (ملوك ٤ فصل ٩ و ١٠).

جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ١٠ عد ٣٢): «في تلك الأيام ابتدأ الرب يقتطع من إسرائيل فضربهم حزائيل (ملك دمشق) في جميع تخوم إسرائيل» من باشان (باسان) إلى عروعير (عراعر) التي على وادي ارنون (وادي المعجب). واكتفى الكتاب بإعلامنا بهذه الحرب بهذه الآية الموجزة على أن الخطوط المسمارية

كشفت لنا عما يظهر منه أنّ ياهو استنجد بسلمناصر ملك آشور على حزائيل ملك دمشق. وكان ذلك خطأً سياسياً وخيم العاقبة، ولم يفطن أنّ مداخلة دولة قديرة في تلك الأيام تبلغ ما لا يبلغه أعداؤه من المضرَّة. وقد جاء في نبوة هوشع على ياهو ومن اقتدى به: «قد رأى أفرائيم سقمه ويهوذا ضماره فانطلق أفرائيم إلى آشور وأرسل (الهدايا أو الجزية) إلى الملك المنتقم لكنه لا يستطيع أن يشفيكم ولا هو يزيل عنكم الضمار» (هوشع فصل ٥ عد ١٣). وقال (فصل ١٢ عد ١): «إنَّ أفرائيم يرعى الريح ويتبع السموم... وهم يبنون عهداً مع آشور» ثم (فصل ١٤) «لا يخلصنا آشور... يحمل إلى آشور هدية للملك المنتقم فينال أفرائيم خزياً ويخجل إسرائيل من مشورته» فقبل الإكتشافات الحديثة لم يكن مغزى هذه الآيات بيناً لأن الكتاب لم يخبرنا بما كان في عهد سلمناصر. فتضاربت أقوال المفسِّرين في تفسيرها فيسرت لنا الخطوط المسمارية إدراكها إذ أبانت لنا أنّ سلمناصر حارب حزائيل بعيد جلوسه على منصة الملك في دمشق، فقدَّم له ياهو حينئذٍ الجزية. فقد جاء في آثار سلمناصر: «في السنة الثامنة عشرة لملكي عبرت الفرات المرة السادسة عشرة وكان حزائيل ملك سورية اعتمد على قوة جيشه، وألَّب جنوده جماً غفيراً وتحصن في سانيرو في قمة الجبل المقابل للبنان (الجبل الشرقي). فحاربته وكسرته كسراً تاماً وأبدت بالسلاح ستة عشر ألف من عساكره. وغنمت منه بألف ومئة وإحدى وعشرين مركبة، وبأربع مئة وسبعين فارساً مع ذخائرهم وفرَّ هو لينجو من البوار، فاتبعته إلى دمشق حاضرة ملكه وحاصرتها، وقطعت أشجارها وسرت إلى جبال حوران ودمَّرت مدناً تشذ عن العد. وأحرقتها وأخذت منها أسرى لا عداد لهم... وفي هذه الأيام أخذت الجزية من صور وصيدا ومن ياهو بن عمري».

وقد سمي ياهو بن عمري لأن عمري هو أصل الدولة الساقطة، فهو أبو آحاب وجد ابنيه أحزيا ويورام وهو الذي بنى السامرة، وجعلها عاصمة لملكه. ولذلك سمى الآشوريون ملوك إسرائيل أبناء عمري ومملكة عمري. وقد نقشت على مسلة نمرود صورة تمثّل سلمناصر واقفاً وبجانبيه رجلان من عظماء مملكته، يحمل أحدهما مظلة، ويقدم الآخر إليه سفراء الملوك حاملين التقادم والجزيات، وبين هولاء السفراء رجل يقبل الأرض خاراً أمام الملك، ومن ورائه وفد يقدمون تقادمهم للعاهل الآشوري، وفي أعلى المسلة صورة ايلو الإله السامي، وقد نقشت على أسفلها هذه الكلمات «جزية ياهو بن عمري». وصورت على الوجه الثاني والثالث والرابع من

المسلة صور التقادم محمولة على أكتاف إسرائيل أو أكفّهم وخط تحتها: «جزية ياهو ابن عمري فضة وذهب وسبائك ذهب وآنية ذهبية وأثاث ملكي وصولجان ليد الملك وعصا من ذهب هذا ما أخذته وقد خُطَّ على هذه المسلة ذكر حملة أخرى غزا بها سلمناصر حزائيل ملك دمشق في السنة الـ ٢١ لملكه وإليك ترجمة هذا الخط «في السنة الحادية والعشرين لملكي عبرت الفرات المرة الثانية عشرة وزحفت إلى مدن حزائيل وأخذت حصونه واستوفيت جزية صور وصيدا وكوبل (جبيل)» ولم يأت بذكر ياهو حينئذٍ مع إنَّه قد يكون أخذ الجزية منه كما أخذ جزية مدن فينيقية. ومسلة نمرود هذه محفوظة الآن في المتحف البريطاني، ولها مثال في متحف اللوفر في باريس. ثم مات ياهو بعد أن ملك السامرة ثماني وعشرين سنة ودفن في السامرة وخلفه ابنه يواحاز (ملوك ٤ فصل ١٠).

الفصل السابع عشر

باقي ملوك يهوذا وإسرائيل إلى خراب السامرة

عد ٣١٣

قتل عتليا أبناء النسل الملكي ونجاة يواش

قال الكتاب (ملوك ٤ فصل ١١) إنَّ عتليا بنت آحاب أم أحزيا (ملك يهوذا) لما رأت أنّ ابنها قد مات أهلكت جميع النسل الملكي لتستبد هي في الملك. فأخذت يوشابع ابنة الملك يورام أخت أحزيا يواش ابن أخيها هو ومرضعاً له وأخفته في مخدع الأسرة حيث كان ينام الكهنة في جانب الهيكل فلم يُقتل. وملكت عتليا ست سنين وهي لا تدري أن يواش حي، وكانت يوشابع عمته زوجة ليوياداع رئيس الأحبار. ولما كانت السابعة استدعى يوياداع روساء مئات الجنود، وأدخلهم إلى بيت الرب وقطع معهم عهداً واستحلفهم أن يكتموا السر وأراهم ابن الملك. وأرسل بعض اللاويين يؤهبون الشعب لهذا الإنقلاب المهم، ويستدعون باقي اللاويين

والكهنة وروساء أسرات إسرائيل ليتجمَّعوا في أورشليم يوم سبت، ولعلَّه كان في أيام أحد الأعياد الثلاثة السنوية. ولما اجتمعوا أقام يوياداع بعضهم لحراسة أبواب الهيكل، وبعضهم للإحاطة بالملك واستخرج الأسلحة التي كانت في خزانة الهيكل ودفعه إلى المحافظين. وأتى بيواش ومسحه هو وبنوه ووضع التاج على رأسه فصفَّق كل الشعب وهتفوا يحيى الملك وأقسموا على طاعته والذب عنه. وسمعت عتليا ضوضاء الشعب ودخلت الهيكل فإذا الملك قائم على المنبر عادة الملوك والرؤساء وأصحاب الأبواق يحيطون به وجميع الشعب يفرحون. فمزقت عتليا ثيابها غيظاً وكمداً وهتفت خيانة، فأمر يوياداع رؤساء المئات أن يخرجوها خارج الصفوف وأن يقتلوا كل من يتبعها. فاخرجوها وقتلوها في طريق مدخل الخيل إلى بيت الملك. وجعل يوياداع الملك والشعب يعاهدون الرب لأنهم لا يعبدون سواه ولا يحيدون عن طرق سننه وقطع عهداً بين الملك والشعب. ودخل الشعب بيت البعل الذي في أورشليم وهدموه. وحطموا مذابحه وتماثيله وقتلوا متان كاهن البعل أمام المذابح، وأنزل رؤساء المئات الملك من بيت الرب إلى بيت الملك فجلس على عرش الملك. وكان يوياداع مدبراً للملك إلى أن شبَّ يواش ملوك ٤ فصل ١١ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٣).

عد ٣١٤

يواش ملك يهوذا

ملك يواش وعمره سبع سنين واستمر على منصة الملك أربعين سنة وأحسن المسعى كل الأيام التي كان فيها يوياداع يرشده، واهتم يواش بمرمَّة ما كان تهدم من بيت الرب. وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢٤ عد٧): «إن عتليا الأثيمة وبنيها قد هدموا بيت الله. وبذلوا جميع أقداس بيت الرب للبعليم». فأمر يوياداع أن يوضع صندوق مثقوب في جانب المذبح، وكان الكهنة يضعون فيه جميع الفضة الموردة إلى بيت الرب فرمّموا ما كان تهدم من الهيكل. وقد زوج يوياداع يواش بإمرأتين فولد بنين وبنات . وشاخ يوياداع وبلغ مئة وثلاثين سنة من عمره ومات. فتبدلت حال يواش الذي كان رجلاً واهناً ضعيف العزيمة متقلباً، فاقبل إليه بعد وفاة يوياداع بعض رؤساء يهوذا الأشرار المتملقين، واغروه بأن تركوا الرب وعبدوا العشتاروت والأصنام، فغضب الرب على يهوذا وأورشليم. وبعث

إليهم انبياء ينذرونهم فتصامُّوا عن سماعهم وحمل روح الرب زكريا بن يوياداع فوقف أمام الشعب، وقال كذا قال الله لِمَ تتعدون وصايا الرب إنكم لا تفلحون لأنكم تركتم الرب، فترككم. فتحالفوا عليه ورجموه بالحجارة بأمر الملك في دار بيت الرب.ولم يذكر يواش الرحمة التي صنعها إليه يوياداع إذ كان له كأب. وقال زكريا عند موته: ينظر الرب ويطالبه بدمي.

ولم تمضِ سنة إلا وخرج حزائيل ملك دمشق على مملكة يهوذا فقتل وخرب وافتتح جت (ذكرين). وهمَّ ان يفتت أورشليم فسولت ليواش جبانته ان يجمع كل نفيس في خزائن الهيكل ودار الملك من ايام أجداده، وأن يرسله جزية إلى حزائيل. فانصرف عن أورشليم وعاد إلى دمشق على أنه أرسل في السنة التالية عدداً يسيراً من جنوده لأخذ الجزية تلك السنة، فجيّش يواش عسكراً ينيف أضعافاً على جنود حزائيل فانكسر جيشه أمام أولئك القليلين الذين دخلوا البلاد حتى أورشليم، وقتلوا بعض أكابر يهوذا وأخذوا غنيمة كبيرة أرسلوها إلى حزائيل في دمشق، وأوسعوا يواش إهانات وشتائم وتركوه مصاباً بأمراض عديدة. فلم يحتمل عبيده أنفسهم فتكه بزكريا وإذلاله لهم أمام أعدائهم وتحالفوا عليه وقتلوه ولم يدفنوه في مقابر الملوك. وملكوا مكانه ابنه أمصيا (ملوك ٤ فصل ١٢ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٤).

عد ٣١٥

يواحاز بن ياهو ملك إسرائيل ويواش ابنه

قد مر (عد ٣١٢) أنّ ياهو ملك في السامرة ثماني وعشرين سنة ومات. فخلفه ابنه يواحاز في السنة الثالثة والعشرين ليواش ملك يهوذا (ملوك ٤ ف ٢٣). وصنع الشر سالكاً في طريق ياربعام بن نباط الذي آثم إسرائيل. فاشتد غضب الرب على إسرائيل، وأثار عليهم حزائيل ملك الآراميين في دمشق وابنه المسمى هدد الثالث فأذّلاهم، وأضعفا قوتهم حتى لم يبقَ ليواحاز من جنوده إلا عشرة آلاف راجل وخمسون فارساً وعشرة مراكب. وقد أنبأنا عاموس النبي (فصل ١ عد ٣و٤): ان ملوك دمشق داسوا سكان جلعاد بنوارج من حديد قائلاً: «هكذا قال الرب إني لأجل معاصي دمشق الثلاث والأربع لا أردها لأنهم داسوا جلعاد بنوارج

من حديد فأرسل ناراً على بيت حزائيل فتأكل قصور ابن هدد». ويظهر أن حزائيل أخذ من ملك إسرائيل كل ما ملكه في شرقي الأردن. وقد تاب يواحاز إلى الرب واستعطف وجهه فاستجابه لأنه رأى ضيم إسرائيل، ففرج عنهم وأتاهم مخلصاً، فخرجوا من ضيق الآراميين.

ذهب بعض المفسرين أن المراد بهذا المخلص يواش بن يواحاز، وذهب غيرهم إلى أن المراد أن الرب قيض ليواحاز نفسه بعض الإنتصار على الآراميين، فاستراح بنو إسرائيل مدة على أنهم لم يعدلوا عن عبادة عجول الذهب. فعاودتهم المذلة والهوان ومات يواحاز بعد أن ملك في السامرة سبع عشرة سنة. وملك يواش ابنه مكانه في السنة السابعة والثلاثين ليواش ملك يهوذا. وإذا راعيت أنه قيل في (ملوك ٤ فصل ١٣ عد ١) إن يواحاز ملك في السنة الثالثة والعشرين ليواش ملك يهوذا وأنه ملك سبع عشرة سنة، وراعيت أنه قيل (في عد ١٠ من هذا الفصل) أن يواش بن يواحاز ملك يهوذا، علمت أن ثمة غلطاً من غفلة النساخ والصواب أما أن يواحاز ملك في السنة العشرين ليواش وأما أنه ملك أربع عشرة سنة لا سبع عشرة، وأما يواش ملك إسرائيل ملك في السنة التاسعة والثلاثين أو الأربعين ليواش ملك يهوذا.

قد ملك يواش بن يواحاز في السامرة ست عشرة سنة وكان حينئذٍ ملك يهوذا وملك إسرائيل يسميان باسم واحد وهو يواش. وصنع ملك إسرائيل الشر أمام الرب متَّبعاً طريقة ياربعام بن نباط بعبادة عجول الذهب. وكان حزائيل ملك دمشق قد مات وخلفه ابنه المسمى ابن هدد الثالث بهذا الاسم من ملوك دمشق. وكان واهن القوة جباناً فانتصر يواش عليه واسترد أكثر المدن التي كان أبوه حزائيل انتزعها من يد يواحاز. وقد شجَّع اليشاع النبي يواش على محاربة ابن هدد، فإنَّ الملك علم أنّ النبي دنف فمضى إليه عائداً مودعاً باكياً عليه، وهو يقول يا أبي يا أبي يا مركبة إسرائيل وفرسانه فأمره اليشاع أن يأخذ قوساً ويرمي نحو المشرق، فرمى ثلاث مرات وأمسك، فقال له النبي ثلاث مرات تضرب آرام وتنتصر ولو رميت خمس مرات أو ستاً لأبدت آرام. وأعظم انتصارات يواش على ملك دمشق كان في وقيعة أفيق (وهي أفيك الآن في الطريق بين دمشق وأورشليم). وقد كفه عن حرب الآراميين غزاة أتوا من مواب يعثون في أرضه وينهبون، وبينما هم يقبرون رجلاً أبصروا الغزاة، فألقوا ميتهم في قبر اليشاع الذي كان الله توفاه، فلمَّا مست جثة الرجل

عظام اليشاع عاش وقام على قدميه فطاردوا الغزاة وهزموهم. وقد انتشبت حرب بين يواش وامصيا ملك يهوذا لما ستراه، وتلاقى المكان في بيت شمس (وهي عين شمس الآن في غربي أورشليم). فانكسر بنو يهوذا من وجه ملك إسرائيل وفرَّ كلٌّ إلى محلِّه، وقبض يواش على أمصيا. وأتى إلى أورشليم ودكَّ أسوارها من باب أفرائيم شرقاً إلى باب الزاوية نحو أربع مئة ذراع. وأخذ كل ما وجده من الذهب والفضة والآنية في بيت الرب وفي خزائن دار الملك، وأخذ بعض وجوه بني يهوذا رهينة كيلا يعود قومهم لمحاربته، وعاد إلى السامرة وقد أطلق أمصيا ليعود إلى ملكه. ثم مات يواش ودفن في السامرة وخلفه ابنه ياربعام الثاني (ملوك ٤ فصل ١٣ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٥).

عد ٣١٦
أمصيا ملك يهوذا

ملك أمصيا في أورشليم وعمره خمس وعشرون سنة واستمر على منصة الملك تسعاً وعشرين سنة. وصنع ما هو قويم في عيني الرب على أنَّه لم يزل المشارف بل لبث الشعب يقدِّمون الذبائح والبخور في الأماكن المرتفعة، ولما استتب له الأمر قتل قاتلي أبيه وعفا عن أولادهم جرياً على ما جاء في التوراة . أن لا يقتل الآباء بالبنين ولا البنون بالآباء بل يجزى كل امرئ بما جنت يداه. وقد أزمع على أن يخضع الأدوميين لسلطة ملك يهوذا التي كانوا قد نبذوها في عهد يورام، فأحصى شعبه بني يهوذا وبنيامين من ابن عشرين سنة فما فوق فكانوا ثلاث مئة ألف منتخبين. واستأجر من بني إسرائيل مئة ألف مقاتل بمئة قنطار من الفضة. قال فيكورو (في معجم الكتاب) إنَّها تساوي ثماني مئة وخمسين ألف فرنك. وهمَّ أن يزحف إلى الأدوميين، فجاءه نبي لم يسمه الكتاب فقال له أيُّها الملك لا يذهب رجال إسرائيل معك لأنَّ الرب غاضب عليهم. وإن ذهبوا أسقطك الله في وجه العدو، فقال أمصيا فما أفعل بمئة القنطار من الفضة التي أعطيتهم؟ فأجابه النبي إنَّ الرب يعطيك أكثر منها كثيراً، فارجع رجال إسرائيل إلى تخومهم فوغرت صدورهم عليه غيظاً. وأخذوا ينهبون ويقتلون في طريقهم حتى بلغ عدد القتلى ثلاثة آلاف، فاغضى أمصيا على صنيعهم إلى حين، وغشي بعسكره بلاد أدوم في العربية. وتسعَّرت نار الوغى بين الفريقين في وادي الملح في جنوبي البحر الميت حيث ضرب داود أو

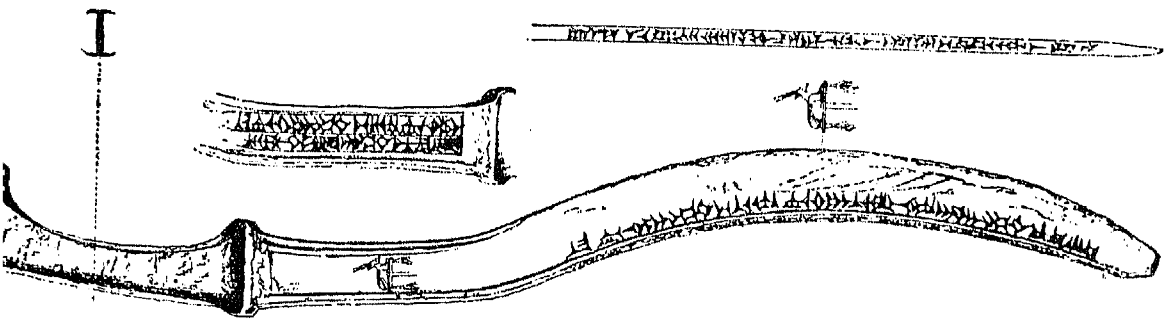
يواب قائد جيشه هولاء الأدوميين. وقتل أمصيا منهم عشرة آلاف رجل وأسر عشرة آلاف ثم طرحوهم من أعلى صخرة فتحطّموا. وافتتح مدينتهم التي سمّاها الكتاب الصخرة، وسماها اليونان بعد ذلك بترا وهي مدينة حجر في بلاد العرب، وغيَّر أمصيا اسمها ودعاها يقتئيل أي المفتتحة بالله.

وعاد أمصيا من غزوته ظافراً متفاخراً وأحضر معه تماثيل آلهة الأدوميين وسجد لها استرضاءً كي لا تضرّه. فغضب الرب عليه وأرسل نبياً يؤنبه على فعلته، فازدجر النبي وهدده بالقتل فانذره النبي بهلاكه وانصرف عنه. وأرسل أمصيا إلى يواش ملك إسرائيل يقول له تهكماً هلمّ نتراءى مواجهة وكأنّه يستدعيه للنزال أو الحرب ليقتص من رجاله الذين اعتدوا على بني يهوذا، فأرسل إليه ملك إسرائيل يقول إنَّ العوسج (أو الشوك على ما في العبرانية) الذي في لبنان أرسل يقول لأرزه: زوج ابنتك لابني فجازت وحش الصحراء ووطئت العوسج. وفسَّر له مثله بقوله إنَّك قد ضربت أدوم فطمح بك قلبك إلى من هو أعظم منك فافخر وتلبَّث في بيتك، ولا تتعرضنَّ للشر فتسقط أنت ويهوذا معك. فلم ينتصح أمصيا وصعد عليه ملك إسرائيل، فكانت بينهما الحرب التي مر ذكرها في الكلام على يواش، وقد أفضت إلى مذلّة أمصيا وشعبه، وافتتاح يواش أورشليم ونهبها. ثم مات يواش وعاش أمصيا بعده خمس عشرة سنة ذليلاً خاملاً إلى أن تحالف عليه بعض رجاله في أورشليم. ففر إلى لاكيش (وهي أم القيس الآن في الجنوب الغربي من بيت جبرين وفي غربي عجلون). فأرسل المتحالفون رجالاً في أثره فقتلوه في لاكيش، وحمل على الخيل فدفن مع آبائه في مدينة داود، وأقام بنو يهوذا عزريا ملكاً مكانه (ملوك ٤ فصل ١٤ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٥).

عد ٣١٧

ياربعام الثاني ملك إسرائيل ويونان النبي

خلف ياربعام يواش أباه في الملك على إسرائيل، وقد استوى على عرش الملك في السامرة إحدى وأربعين سنة، وسلك مسلك ياربعام بن نباط على أنّ الرب قيض له نصراً أو فتحاً على بعض أعدائه شفقةً على بني إسرائيل، إذ لم يشأ أن يمحو اسمهم، بل أن يؤدبهم ويرأف بهم. فحارب الآراميين في مملكة دمشق وظهر عليهم، ورد تخوم مملكة إسرائيل لتكون من مدخل حماه إلى بحر الغور أي البحر



صورة سيف بنيرار الأول من اركان ملوك أشور وجد هذا السيف وعليه
اسم هذا الملك في ضواحي ديار بكر

الميت، واسترد بلاد العمونيين والموآبيين إلى مملكة إسرائيل، وأنقذ بني إسرائيل الساكنين في شرقي الأردن من ولاية ملك دمشق ولم يفز ياربعام بهذا النجاح لمجرّد قوته، بل لتوفيق الله، بل لأنّه تعالى قد قوى حينئذٍ ملك آشور على مملكة الآراميين في دمشق فأذلّها وأخمد جذوة قوتها. وقد كشفت لنا الآثار الآشورية النقاب عن وجه هذه الحقيقة فقد جاء في آثار بنيرار ملك آشور أنّه غزا سورية واتصل إلى شاطيء البحر المتوسّط في جهة فلسطين. وإليك ما كتبه على جدار بلاطه «بلاط بنيرار الملك العظيم الملك القدير ملك الشعوب ملك أرض آشور الملك الذي اتخذه آشور ملك الآلهة السبعة ابناً له... ومن جهة الفرات الأخرى أخضعت أرض الحثي (الحثيين) وأرض اهارى (أو أحاري أي شواطي البحر المتوسّط) على اتّساعها صور وصيدا. وأرض عمري (أي مملكة إسرائيل)، وبلاد الفلسطينيين حتى البحر الكبير في مغرب الشمس (البحر الموسط) وافترضت عليهم جزية. وغشيت أيضاً أرض ايميروسر (سورية دمشق) لمحاربة مريحا ملك أرض ايميروسو وحصرته في دمشق عاصمة ملكه. ودوخته مهابة عظمة آشور سيدي فترامى على قدمَيّ وجاهر بتذلّله وخضوعه. فأخذت منه ٢٣٠٠ وزنة فضة وعشرين وزنة ذهب و٣٠٠٠ وزنة نحاس و٥٠٠٠ وزنة نحاس وأنسجة صوف وكتان وسريراً من عاج ومظلّة من عاج وأموالاً وأثاثاً لا عداد لها. فهذا ما أخذته من دمشق مقرّ ولايته ومن بلاطه».

ولا ذكر في هذه الخطوط لمملكة يهوذا مع أنها ذكرت مدن فينيقية ومملكة إسرائيل في شماليها ومدن فلسطين في غربيها وبلاد الآدوميين في جنوبيها. ويظنّ أن امصيا كان يلي حينئذٍ مملكة يهوذا وأنه سالم الغازي. ولم تؤرّخ هذه الخطوط غزوة بنيرار لمريحا ملك دمشق وحسب سميت أنها كانت في سنة ٧٩٧ ق.م. على أن تواريخ الآشوريين تجعل غزوة شواطيء البحر المتوسط وبلاد فلسطين لسنة ٨٠٣ق.م.

إنّ هذه الخطوط منبئة بايهان ملك آشور سطوة ملك دمشق وبعلة فوز ياربعام الثاني على الآراميين واسترداده ما قد كانوا أخذوه من مملكته. ويظهر أن بنيرار حالف ملك إسرائيل بعد أخذه الجزية منه. وعليه فقد يكون ياربعام ناصر جيش بنيرار في افتتاح دمشق ونهبها. وربما كان هذا مغزى قول الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٤ عد ٢٨) إنَّ ياربعام استرجع لإسرائيل دمشق. وقد جاءت هذه الخطوط أيضاً مصداقاً لنبوة عاموس النبي إذ قال (فصل ١ عد ٣): «هكذا قال الرب إني لأجل معاصي دمشق الثلاث أو الأربع لا أردها (أي لا أرد قضيتي أو حكمي عليها) لأنهم داسوا جلعاد بنوارج من حديد، فأرسل ناراً على بيت حزائيل فتأكل قصور ابن هدد واكسر مزلاج دمشق، واستأصل الساكن من بقعة آون والقابض على الصولجان من بيت عدن (هما محلان في دمشق أو جوارها)، ويذهب شعب آرام إلى الجلاء إلى قير»، فقد بدأ بنيرار في إذلال دمشق كما رأيت في أثره وأتم تجلت فلاصر النبوة إذ جلى الآراميين إلى قير كما سترى.

قد كان يونان النبي في أيام ياربعام هذا لأنه جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ١٤ عد ٢٥) أنّ يونان هو الذي تنبأ على رد ياربعام تخوم إسرائيل من مدخل حماة إلى الغور (البحر الميت)، وقد نبأتنا الآثار الآشورية لماذا تردد النبي في الذهاب إلى نينوى لانذار أهليها وحاول الهرب إلى ترشيش (ترسيس الآن) ولماذا حزن واغتمّ؟ إذ لطف الله بهم ولم يخرب مدينتهم كما كان قد هددهم بلسانه، أعني لأن ملوك نينوى وجنودها كانوا يضيقون على بني إسرائيل ويثقلونهم بالجزيات كما رأيت ، وكان النبي يرى اشتداد هذا الضيق على ما هو عليه من الغيرة على شعبه ووطنه. هذا وقد تذرع جاحدو الوحي بسماع أهل نينوى وملكها انذار يونان ونصائحه للتكذيب بآيات الوحي قائلين كيف يعمل أهل نينوى بنصائح نبي مرسل من غير آلهتهم؟ لكن الآثار القديمة كشفت لنا الستار عن بطلان تنديدهم إذ أبانت لنا آثار كثيرة ان كل مدينة أو شعب كان لهم معبود خاص، لكنهم كانوا يجلّون

آلهة غيرهم ويرهبون قوتها، وكانوا يتحاشون اهانة الآلهة وإن أجنبية لاعتقادهم قدرتها على الإنتقام ممن يعصى أمرها أو ينبذ إنذارها.

قد أثبت روبينسون أنّ بنيرار هو الذي كان مالكاً في نينوى عند إنذار يونان أهلها لأنّه كان معاصراً لياربعام، الذي كان يونان في أيامه وقد استمر ضابطاً صولجان الملك تسعاً وعشرين سنة. وفي نينوى إلى اليوم آثار دالة على إنذار يونان أهلها. فعلى مقربة من نينوى القديمة تل يسمى تل النبي يونس وإن هو إلَّا يونان، وإن بعضهم يسمي هذا التل تل التوبة إشارة إلى إنذار يونان بها والتقليد العام والثابت إلى اليوم موجب للتصديق بذلك.

وخلف سلمناصر الثالث بنيرار المار ذكره والظاهر من بعض الآثار الآشورية أنّ سلمناصر هذا ملك من سنة ٧٨٣ إلى سنة ٧٧٣ ق.م. وغشي أنحاء دمشق سنة ٧٧٥ فدفع إليه ياربعام الجزية. على أنَّ مجد نينوى أخذ في الإنحطاط في أيام هذا الملك وزيد انحطاطاً في أيام خلفه آشور دانيل الذي استوى على العرش من سنة ٧٧٣ إلى سنة ٧٥٥ ق.م، وعلى اشتغاله بإخماد الثورات عليه في أنحاء عديدة، غزا سورية غزوتين الأولى في بدء ملكه ضرب بها دمشق وحدراك، وهذه المدينة قد ورد ذكرها في الكتاب مرة واحدة في نبوة زكريا (فصل ٩ عد ١) يتهددها النبي بالخراب مع دمشق ولا يعلم موقعها بعينه، ولكن لا بد أن تكون قريبة من دمشق لجمع النبي والآثار الآشورية بينهما في الكلام عليها.

والغزوة الثانية حارب بها حدراك وحدها سنة ٧٦٥ق.م ثم توفي آشور دانيل وخلفه آشور نيرار الثاني ولم يكن في ملكه ما يفخر به ومع ذلك حل على حدراك سنة ارتقائه عرش الملك وهي سنة ٧٥٥ ق.م. وغزا في السنة التالية أرفاد أو أربد التي لم يكن موقعها معروفاً قبل الإكتشافات الآشورية إلَّا بذكر الكتاب لها في سفر الملوك الرابع (فصل ١٨ عد ٣٤ وفصل ١٩ عد ١٣)، وفي نبوتي أشعيا وأرميا وكان بعضهم يظن أنّ المراد بها أرواد وأن تسميتها أرفاد أو أربد خطأ من النساخ. فأبانت لنا الآثار المسمارية خطأ ظنّهم وصحّة رواية الكتاب والأظهر أنّ أرفاد هذه هي المسماة اليوم تل أرفاد على ساعتين غرباً من حلب في شمالي توقات. وقد حصلت ثورة في نينوى سنة ٧٤٦ق.م أفضت إلى تل عرش آشور نيرار والدولة المالكة، وولي الملك تجلّت فلاصر الثاني في ١٣ أيار سنة ٧٤٥ ق.م

على ما روى سميت عن الآثار الآشورية (فيكورو الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلَّد ٤ صفحة ٦٧ إلى ٨٥ طبعة ٥). ومات ياربعام بعد أن ملك ٤١ سنة كما مر. ودفن في السامرة فملك زكريا ابنه مكانه (ملوك ٤ فصل ١٤).

عد ٣١٨
عزريا بن امصيا ملك يهوذا

إنَّ عزريا ويسمَّى عُزَّيا أخذه الشعب بعد مقتل أبيه أمصيا وملكوه وعمره ست عشرة سنة، فاستمر على منصَّة الملك في أورشليم إثنتين وخمسين سنة، وقد طفحت قلوب الشعب سروراً بارتقائه ذروة الملك إذ زالت من بينهم الاحن التي كانت تملكتهم في مدَّة ولاية أبيه. وانكفأت عنهم المحن التي كان الله أنزلها بهم، وهي زلازل شديدة دمَّرت بيوتاً عديدة، وقحط وانحباس مطر جعلا الناس في أشد الضيق، وفاقة قصوى إلى القوت والماء، وجراد لم يبقِ أخضر كما يتبيَّن من نبوة عاموس النبي. وقد سلك عزريا أولاً طريق الرب محافظاً على سننه إلَّا أنَّه لم يزِل المشارف واستمر بعض الشعب يقدمون الذبائح والبخور في الأماكن المرتفعة. وكان يرشده نبي اسمه زكريا فيصغى لكلامه ويعمل به. وحارب الفلسطينيين واستظهر عليهم وهدم سور جت (ذكرين الآن)، وسور يبنة وسماها يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٩ فصل ١١) يمينه. وقال كاران (مجلَّد ٢ في اليهودية صفحة ٥٨) إنَّها تسمَّى اليوم أيضاً يبنة وإنَّ موقعها في الجنوب الغربي من الرملة بين يافا شمالاً وأشدود جنوباً. وهدم عزريا أيضاً أسوار أشدود مدينة الفلسطينيين وبنى مدناً في أرض أشدود وفلسطين، ونصره الله على العرب المقيمين بجور بعل وفي الترجمة السبعينية على العرب المقيمين فوق مدينة حجر في بلاد العرب. وروى يوسيفوس (في المحل المذكور) إنَّه ضرب العرب المجاورين مصر فيظهر أنّ المراد بجور بعل عمل ممتد جنوباً في العربية وبلاد أدوم إلى تخوم مصر. وانتصر عزريا على المعونيين أي سكان كعون وهي أمَّا معون التي كان داود يختبئ في بريتها أيام مطاردة شاول له، وهي في أطراف جنوبي فلسطين وتسمى اليوم تل معين. وإمَّا هي معون أخرى في بلاد العربية على مقربة من فاران على ما ذكر كلمت في تاريخ العهد القديم. وذلل عزريا العمونيين وفرض عليهم جزية. وحصَّن أورشليم وبنى فيها أبراجاً ورمَّ ما كان قد تهدَّم من أسوارها عند انتصار يواش ملك إسرائيل على أمصيا أبيه. وعمل في

أورشليم منجنيقات اخترعها رجال حذّاق ووضعها على الزوايا والأبراج لرمي السهام والحجارة الضخمة. وكان لديه من روساء آباء يهوذا وبنيامين ذوي البأس الفان وست مئة رجل، وتحت أيديهم جيش عديده ثلاث مئة ألف وسبعة آلاف وخمس مئة. وجهّز لجميع جيشه مجانّ ورماحاً وخوداً وذروعاً وقسيّاً وحجارة مقاليع. وبنى أبراجاً في البرية على أطراف ملكه وحفر آباراً كثيرة إذ كانت له ماشية كثيرة في الساحل والسهول وحراثون وكرامون في الجبال، والكرمل لأنّه كان محبّاً الحراثة ويقدّرها قدرها. فذاع اسمه عند الملوك مجاوريه إلى مصر، وعظمت قوته واستفحل أمره فتكبر وطمح قلبه.

وادّعى أن يعمل عمل الكهنة في الهيكل أيضاً فدخله يقدّم البخُور على مذبح الرب، فقاومه عزريا رئيس الكهنة وقتئذٍ وثمانون كاهناً قائلين له، أخرج من القدس فليس لك أن تقترّ للرب وإنّما ذلك للكهنة، فحنق عزريا وكان في يده مجمرة البخور ولمع البرص على جبهته قدام الكهنة، فأسرع الكهنة في إخراجه من الهيكل لظهور برصه. واضطر أن يخرج لأن الرب ضربه بالبرص وبقي أبرص إلى يوم وفاته. واعتزل في بيت منفرداً وكان ابنه يوتام يدبر الملك ويحكم في الشعب نائباً عنه ومات عزريا وعمره ثماني وستون سنة، ودفنوه في حقل مقبرة الملوك لا في مدافنهم لأنه أبرص، وخلفه ابنه يوتام (ملوك ٤ ف ١٥ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٦).

عد ٣١٩

زكريا بن ياربعام وشلوم ومنحيم ملوك إسرائيل

إنّ زكريا بن ياربعام الثاني ملك في السامرة بعد موت أبيه للسنة الثامنة والثلاثين لعزريا ملك يهوذا، إلّا أنّ ملكه لم يدم إلّا ستة أشهر لأنّه صنع الشر أمام الرب. ولم يعدل عن أثم ياربعام بن نباط بعبادة عجول الذهب فحالف عليه رجل اسمه شلوم بن يابيش. فقتله أمام الشعب وملك مكانه فانقرضت بزكريا سلالة ياهو الذي وعده الرب إنّه سيجلس على عرش إسرائيل من بنيه إلى الجيل الرابع وكان وعده منجزاً. أمّا شلوم فلم يملك إلّا شهراً واحداً وخرج عليه منحيم بن جادي من ترصة (المسماة اليوم تلوزا شرقي السامرة وشمالي نابلس) فقتله في السامرة وملك

مكانه وعاد منحيم إلى ترصة فأوصد الأهلون أبوابها في وجهه. فضربها والمدن المصاقبة لها وأجرى فيها من القسوة والجور ما ترتعد له الفرائص، حتى شق جميع من بها من الحوامل فقتلهنّ والأجنّة وساس المملكة عشر سنين بمثل هذا العنف عابداً الأوثان، وجارياً في طريق ياربعام بن نباط.

وكان أهل مملكة إسرائيل في أيام ياربعام الثاني قد توفَّرت ثروتهم وغناهم وعظم ترفهم وطما شرهم كما أنبأنا عاموس النبي الذي كان في تلك الأيام يونب بني إسرائيل على شرهم، ومن ذلك قوله (فصل ٦): «ويل للمترفين في صهيون والمطمئنين في جبل السامرة... إنّكم تستعبدون يوم السؤ وتدنون مجلس العسف، وتضجعون على أسرّة من عاج، وتتبسطون على حجالكم. وتأكلون الحملان من الغنم والعجول من وسط المعلف وتغنون على صوت العود... وتشربون الخمر بالجامات وتدهنون بأدهان النفيسة ولا تكتئبون لانكسار يوسف لذلك يبجلون الآن في رأس الجلاء» فلهذا ابتلاهم الله بهذه المظالم ثم بعث ملوك آشور إليهم للإنتقام منهم وإذلالهم وجلائهم أخيراً إلى آشور وبابل كما سترى.

قال الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٥): «وجاء فول ملك آشور على الأرض، فأعطى منحيم لفول ألف قنطار فضة حتى تكون يده معه لإقرار الملك في يده. وضرب منحيم الفضة على إسرائيل على جميع المقتدرين بالغنى أن يؤدوا إلى ملك آشور كل رجل خمسين مثقال فضة. فرجع ملك آشور ولم يقم في الأرض. وقد جاءت الآثار الآشورية مصداقاً لهذه الآيات الكريمة وهاك البيان إنَّ فول هو أوَّل ملك من الآشوريين سماه الكتاب بعلمه الشخصي. والصحيح الآن عند المحققين بعد تدقيقهم في الآثار المسمارية أنّ تجلت فلاصر الثاني وكان يسمى باسمين (ملو ٤ ف ١٥ عد ١٩ وعد ٢٩). وقد عبر عنه في تاريخ باروز وقانون بنو لمايس وتاريخ أوسابيوس بالاسمين. ومما يؤسف عليه أنّ الآثار المنبئة بأعمال تجلت فلاصر لم تبلغ إلينا كلها سالمة، بل محت الأيام بعضها، وأتلف أسرحدون أحد ملوك آشور بعضها. وما بقي منها سالماً يزيدنا أسفاً على فقدان باقيها وقد ورد في ما بقي من آثار هذا الملك ذكر ستة ملوك ممن ذكرهم الكتاب أعني ملكين من ملوك يهوذا وهما عزريا أو عزيا المار ذكره، واحاز الآتي الكلام فيه، وثلاثة من ملوك إسرائيل وهم منحيم وفاقح وهوشع وملك من ملوك دمشق وهو رصين. وسيأتي الكلام في هولاء فقد قال هذا الملك في الصفيحة الثالثة من الصفائح الباقية له: «وأخذت

الجزية من كستاسب ملك كوماجان (سورية المجوفة حيث بعلبك وبقاع العزيز). ومن رصين ملك دمشق ومنحيم ملك السامرة وحيرام ملك صور وسيبيتي بعل ملك جبيل... وأنيال ملك حماه» وقال الكتاب: إنَّ الجزية التي دفعها إليه منحيم كانت ألف قنطار من الفضة. قال فيكورو (في المحل المذكور صفحة ١١١): إنَّ هذه الجزية تساوي من مسكوكات إيماننا نحواً من ثمانية ملايين وخمس مئة ألف فرنك والخمسين مثقالاً المضروبة على كل رجل تساوي ١٤١ فرنكاً.

وقد أنبأنا ما بقي من آثار هذا الغازي إنَّه غزا سورية غزوات أولاها سنة ٧٤٣ق.م فعبر الفرات ومرَّ في جبل أمانوس (اللكام) ظافراً. وخيَّم جيشه في جبل قريب من أرفاد (تل أرفاد في أنحاء حلب). واستدعى إليه ملوك سورية فأتاه كثيرون منهم حيرام ملك صور ورصين ملك دمشق، وكتساسب ملك سورية المجوفة ومنحيم ملك إسرائيل على الأرجح لأنَّ الصفيحة محطَّمة لا تظهر فيها كل الاسماء. وذكره في صفائح أخرى قاضٍ بأنَّه كان بين عداد من لبُّوا الدعوة. وأتى هولاء الملوك إليه بعجلات وجمال تقل تقادمهم صفائح ذهب وفضة ونحاس وحديد ورصاص وأطياباً وقرون ثيران وأنسجة من صوف وكتان. وكانت تقدمة رصين ملك دمشق «١٨ وزنة ذهب و ٢٠٠ وزنة فضة و٢٠٠ وزنة نحاس و ٢٠ وزنة طيب. واجتزأ تجلت فلاصر يومئذٍ بهذه التقادم وعاد إلى بلاده ولم يقم في سورية طبق ما جاء في الكتاب.

وقد ندم ملوك سورية على تذللهم له بعد عوده، فحصنوا أرفاد وثاروا عليه . فهبَّ راجعاً بجحافله سنة ٧٤٢ق.م وحاصر أرفاد فأبدى أهلوها ومحالفوهم آيات البسالة في الدفاع ولم يتهيأ له افتتاحها إلَّا بعد سنتين. وأفضى فتحها إلى استسلام ملوك سورية إليه، ثم ألجيء أن يعود إلى بلاده فعاد ملوك سورية يأتمرون بخلع نير طاعته فرجع تجلت فلاصر المرة الثالثة إلى سورية سنة ٧٣٩ ق.م. ويظهر من آثاره أنَّ عزريا ملك يهوذا كان من جملة المتحالفين حينئذٍ عليه بل كان رئيس عصبتهم وإنَّ الغازي ضرب جيوش المتحالفين فاستظهر عليهم. ولم يكتف في هذه الحملة بأن يذل مخالفيه ويأخذ جزيتهم وتقادمهم بل عمد إلى تملك البلاد. فأخذ حماه وولَّى عليها أحد قادته، وألحق تسعة عشر عملاً من هذه البلاد بمملكة آشور وجلا كثيرين من أهلها عن بلادهم إلى بلاده. فأخذ من حماه ١٢٢٣ نفساً. ومن غيرها كثيرين أيضاً، وأقامهم في أنحاء عديدة من بلاده.

وكان يقيم النساء في جهة والرجال في أخرى ليبيد فيهم عاطفة جنسيتهم. ودانت له مدن وأعمال أخرى على شاطئ البحر المتوسط وفي جوار لبنان، وخضعت له حدراك المار ذكرها وهي على مقربة من دمشق. فأخضع لأمره أكثر ملوك سورية وزبيدة ملكة العرب ودوَّخ بلادهم وقفل عائداً إلى بلاده (طالع ما مر في عد ٧٤ وعد ١٢١).

أمَّا منحيم فبعد أن ولي مملكة إسرائيل عشر سنين في أيام عزريا ملك يهوذا أضجع مع آبائه وخلفه ابنه فقحيا (ملوك ٤ فصل ١٥).

عد ٣٢٠

فقحيا وفاقح ملكي إسرائيل ويوتام واحاز ملكي يهوذا

قد خلف فقحيا منحيم أباه وملك في السامرة سنتين فقط. ولم يعدل عن خطايا ياربعام بن نباط فحالف عليه فاقح بن رمليا أحد قادة جيشه. ودخل عليه في قصره ومعه خمسون رجلاً فقتله وملك مكانه. واستمر على منصة الملك عشرين سنة صانعاً السوء كمن سلفوه، وفي السنة الثانية لملكه قضي أجل عزريا ملك يهوذا، واستقل بالملك ابنه يوتام ودام ملكه ست عشرة سنة. وقد أحسن يوتام المسعى وأصلح شيئاً في بيت الرب. ومنذ أيامه اتفق رصين ملك دمشق وفاقح ملك إسرائيل على أن يأخذا مملكة يهوذا ويقتسماها بينهما، وقبل أن يعملا باتفاقهما مات يوتام ودفن في مدينة داود وخلفه آحاز ابنه.

إنَّ ملوك إسرائيل ويهوذا ودمشق مكان أن يغتنموا فرصة غياب تجلت فلاصر عن بلادهم، للم شعثهم وإصلاح شؤونهم، وتحصين مدنهم عادوا إلى منازعاتهم الوطنية، وإيهان قوتهم شأن كل قبيلة قضى الله بانحطاطها أو انقراضها. وقد امتاز السوريون في كل عصر بهذه الضغائن والاحن الأهلية، حتى ندر أن يكون لهم مثيل فيها بين القبائل. فقد أنبأنا الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٦) أن قد اتَّفق رصين ملك آرام وفاقح ملك إسرائيل على محاربة آحاز ملك يهوذا فجيّشا الجيش، واعدا العدد وأتيا فحصرا أورشليم فلم يقدرا أن يقهرا آحاز، ولا أن يفتتحا أورشليم، بل نكلا بشعب يهوذا وأخذ رصين جماً غفيراً أسرى إلى دمشق. وقتل فاقح مئة وعشرين ألفاً في يومٍ واحد من بني يهوذا. وسبى بنو إسرائيل من إخوتهم مئتي ألف

من النساء والبنين والبنات. وسلبوا سلباً كثيراً ثم أطلقوا الأسرى لتهديد عوديد النبي لهم بغضب الرب (سفر أخبارالأيام الثاني فصل ٢٨).

وحالف رصين وفاقح الآدوميين ورد رصين لهم أيله التي على خليج عقبة، وطرد بني إسرائيل منها وأقام الأدوميين فيها. فأرسل آحاز رسلاً تجلت فلاصر ملك آشور قائلاً أنا عبدك وابنك فاصعد وخلّصني من يد ملك آرام ويد ملك إسرائيل القائمين عليّ، وأخذ ما وجد من الذهب والفضة في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك. وأرسلها هدية إلى ملك آشور ولم يصغ لإرشاد أشعيا النبي الذي كان يقول له: «لا يضعف قلبك من ذنبيّ هاتين الشعلتين المدخنتين في اضطرام غضب رصين ملك آرام وابن رمليا، فإنَّ آرام وأفرائيم وابن رمليا قد تآمروا عليك بالسوء قائلين لنصعد على يهوذا ونضغطها ونمزقها بيننا ونملّك عليها بن طابئيل، لكن هكذا قال الرب لا يقوم الأمر ولا يكون (أشعيا فصل ٧ عد ٤ وما يليه) أما تجلت فلاصر فلبى دعوة آحاز وغشي بعساكره سورية وأخذ بعض مدن فلسطين. وصعد إلى دمشق فأخذها وسبى أهلها إلى قير وقتل رصين.

هذا ما جاء في الكتاب وجاءت آثار تجلت فلاصر مصداقاً له بأكثر تفصيل. فقد كتب على إحدى صفائحه وهي محطَّمة كسائر آثاره. ولكن الباقي منها وافٍ بيان الغرض قال: «أخذت جنوده... وأبدتهم بالسيف... وسقت مركباته... وكسرت أسلحتهم... وأخذت خيولهم... ورجال حربه حاملي القسي والدروع والحراب... أما هو ففرَّ ليقي نفسه ودخل في باب مدينته الأكبر وقبضت على قادة جيشه أحياء وعلقتهم على صلبان... وحاصرت مدينة دمشق وضايقت عليه كعصفور في قفصٍ ومن أشجار مدينته التي تشذ عن العد لم أبقِ شجرة. ثم ذكر ما فتحه ودمَّره من المدن في أنحاء دمشق وعدد من جلاهم منها. وقال إنَّه خرَّب ستة عشر عملاً من أعمال سورية واسترسل إلى ذكر شمسة ملكة العرب قائلاً: إنَّها كانت تعبد الشمس. على إنَّه لم يفتتح يومئذٍ دمشق بل ترك فريقاً من جنوده محاصراً لها، وزحف بجيشه لافتتاح غيرها. وكتب على صفيحة أخرى محطَّمة أيضاً إنَّه أخضع سيميرا (بين أرواد وطرابلس) وعرقا. «وتوليت مدن جلعاد... وابل معكة التي هي تخم أرض بيت عمري (مملكة إسرائيل)... وأخضعتها على اتساعها لمملكة آشور وأقمت قادة جنودي حكاماً فيها. وحنون ملك غزة وانهزم من وجه جنودي إلى مصر فأخذت غزة وغنمت كنوزه وآلهته ونصبت ثمة تمثالي الملكي...

وأخذت الجزية. وأخضعت سكان أرض بيت عمري وجلوت أوجه قومهم إلى بلاد آشور مع أموالهم وأمرت بقتل فاقح ملكهم وأقمت هوشع بمنزلة ملك عليهم وأخذت منهم عشر وزنات ذهب وألف وزنة فضة. فتأمل ما أتم المطابقة في جوهر الخبر بين ما نقش على هذه الصفائح وبين آيات الكتاب ولاسيما قوله (ملوك ٤ عد ٢٩). «وفي أيام فاقح ملك إسرائيل جاء تجلت. فلاصر ملك آشور وأخذ عيون (تل دبين في شمالي مرج عيون). وإبل بيت معكة (إبل). ويانوح (يانوح هناك)، وقادس (قادش) وحاصور (جبل حضيرة في قرب قادس). وجلعاد (السلط) وجميع أرض تقتالي وجلاهم إلى آشور» (عد ٣٠) «وحالف هوشع بن ايلة على فاقح بن رمليا وضربه وقتله وملك مكانه». ففي الصفيحة ذكر جلعاد وإبل معكة وهي محطمة فيحتمل إن كان في المحل المحطم اسماء باقي المدن التي ذكرها الكتاب، وفي الصفيحة إن تجلت فلاصر أمر بقتل فاقح، وفي الكتاب أنّ هوشع حالف عليه وقتله. فلا بدع إن كان تجلت فلاصر أغراه بقتله أو أنّ هوشع علم بغرض الملك الآشوري فجرأه ذلك على قتله، وتفاخر تجلت فلاصر بأنّه أمر بقتله.

أمّا آحاز ملك يهوذا فكان استنجاده بملك آشور على أعدائه وبالاً عليه. وأمسى الدواء داءً قتالاً، لأنّه اضطر أن يسلم بلاده إلى تجلت فلاصر وأن يخضع لسلطته ويؤدي إليه الجزية كأعدائه، وبعد أن أخضع ملك آشور هولاء الملوك سنة ٧٣٤ وسنة ٧٣٣ ق.م عاد إلى دمشق التي كان أبقى جنوده على حصارها، فافتتحها سنة ٧٣٢ق.م وجلا ثمانية آلاف من سكانها إلى قير. وقتل رصين كما جاء في الكتاب. وقد وجد رولينسون صفيحة آشورية مثبتة قتل تجلت فلاصر لرصين، لكن الصفيحة بقيت في محلها ثم ضاعت مأسوفاً عليها. وقد استدعى تجلت فلاصر الذين دانوا له ليبلغهم أوامره ووعيده قبل عودته. فشخصوا إليه صاغرين وأتى آحاز ملك يهوذا معهم. فقد جاء في الكتاب (ملو ٤ فصل ١٦ عد ١٠): «وانطلق الملك آحاز ليستقبل تجلت فلاصر ملك آشور في دمشق». وقد رأينا اسمه في الصفيحة التي دوَّن الغازي عليها أسماء من أدُّوا له الجزية وهاك أسماء بعضهم نقلاً عنها. «جزية كستاجب ملك كوموحا (سورية المجوفة)، سيبيتي بعل ملك جبيل، وبيزيريس ملك كركميش، وأنيال ملك حماه... وماتا بعل ملك أرواد وسالامانو ملك مواب، وميتينتي ملك عسقلون وياهو حازى يهوداي (آحاز ملك يهوذا) وكوموسملك ملك أدوم وحنون ملك غزَّة. وكانت جزيتهم ذهباً

وفضة ورصاصاً وحديداً وأنسجة بلادهم وخيولهم وحميراً معتادة على حمل النير».

ولعل اسم ملك إسرائيل كان في المحال المحطمة من هذه الصفيحة. وكان تجلت فلاصر يسمي نفسه ملك بابل أيضاً كما يظهر مما دوّنه على بلاطة. «بلاط تجلت فلاصر الملك العظيم الملك القدير ملك القبائل ملك آشور ملك بابل ملك سومير وأكّد ملك الأقاليم الأربعة». واستمر تجلت فلاصر على منصة الملك سبع عشرة أو ثماني عشرة سنة أي من سنة ٧٤٥ إلى سنة ٧٢٧ أو سنة ٧٢٨ ق.م. ولم ينكف عن الحرب إلّا في السنين الثلاث الأخيرة من عمره، وقد تباهى قبل موته بما كتبه وهو: «انا هو الملك الذي هزمت أعدائي من مشرق الشمس إلى مغربها، ودوخت البلاد ، ودانت لي القبائل ، وحكمت في رجال الجبال والسهول، وخلعت الملوك، وأقمت نوابي مكانهم». وإلى ملكه يعزى قول حزقيال النبي (فصل ٣١ عد ٣): «هوذا آشور أرزة بلبنان بهيجة الأفنان غبياء الظل شامخة القوام... ارتفع قوامها فوق جميع أشجار الصحراء وكثرت أغصانها وامتدت فروعها من كثرة المياه. في أغصانها عششت جميع طيور السماء، وتحت فروعها ولدت جميع وحوش الصحراء وفي ظلها سكنت جميع الأمم الكثيرة».

قد جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ١٦) إنَّ أحاز ملك يهوذا رأى وهو في دمشق مذبحاً لآلهة الآراميين، فصنع مثالاً له وأرسله إلى أوريا الكاهن آمراً أن يصنع مذبحاً مضارعاً لهذا المثال بكل صنعته، فصنع أوريا المذبح وعاد أحاز من دمشق فقرب عليه الذبائح، والمحرقات والبخور ، ونقل مذبح النحاس الذي كان في الهيكل إلى جهة أخرى منه وغيَّر بعض بناء الهيكل. وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٢٨) أحاز جرى على طرق ملوك إسرائيل وعمل تماثيل مسبوكة للبعليم وقدَّم لها الضحايا والبخور في وادي ابن هنوم في جانب أورشليم، وقدَّم من بنيه محرقة بالنار على عادة الأمم التي طردها الرب من وجه بني إسرائيل، وذبح على المشارف والآكام ، وتحت كل شجرة خضراء، ولذلك انزل الرب به المحن المار ذكرها. ومات أحاز وعمره ست وثلاثون سنة ملك ست عشرة سنة منها. ودفن في مدينة داود ولكن لا في مدافن الملوك وملك حزقيا ابنه مكانه، ونرجئ الكلام فيه إلى ما بعد الكلام في هوشع ملك إسرائيل الذي ملك في السامرة في السنة الثانية عشرة الملك أحاز ابي حزقيا (ملوك ٤ فصل ١٦ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٢٨).

عد ٣٢١

هوشع ملك إسرائيل

قد مرّ ان هوشع بن ايله حالف على فاقح ملك إسرائيل وقتله باغراء تجلت فلاصر ملك آشور، فملك هوشع في السامرة تسع سنين وعمل الشر امام الرب ولكن على غير طريقة من تقدمه من ملوك إسرائيل، ولم يبين الكتاب طريق شره ولكن قال علماء اليهود إنَّ هوشع لم يكن يمنع بني إسرائيل من الحج إلى أورشليم خلافاً لما صنعه أسلافه. وقال الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٧): «وصعد عليه سلمناصر ملك آشور فكان هوشع عبداً له وكان يؤدي إليه جزية وعلم ملك آشور أنّ هوشع محالف عليه، وقد وجّه رسلاً إلى سؤ ملك مصر ولم يؤدِّ الجزية إلى ملك آشور كما كان يفعل كل سنة فقبض عليه ملك آشور وأرسله مكتوفاً إلى السجن، وصعد ملك آشور على الأرض كلها وصعد إلى السامرة وحاصرها ثلاث سنين. وفي السنة التاسعة لهوشع أخذ ملك آشور السامرة، وجلا إسرائيل إلى آشور واسكنهم في حلاح وعلى خابور جوزان وفي مدائن مداي» عقاباً لتركهم الرب الذي اخرجهم من أرض مصر وجريهم على سنن الأمم خلافاً لنهيه وزجره.

أما سلمناسر ونسميه سلمناصر أيضاً فلم يكن ما يعرّفنا به قبل هذه السنين الأخيرة إلا آيات الكتاب المار ذكرها. وإلا فقرة من تاريخ صور حفظها لنا يوسيفوس (في ك ٩ فصل ١٤ من تاريخ اليهود). أنبأنا بها أن سلمناصر حاصر صور وضيّق على أهلها. وقد روينا هذه الفقرة برمتها في عد ١٢٢ في تاريخ الفينيقيين على أن الآثار الآشورية المكتشفة في هذه الأيام. أبانت لنا أن سلمناصر هذا خلف تجلت فلاصر وملك آشور من سنة ٧٢٧ إلى سنة ٧٢٢ق.م، ولكن لم تنبئنا بعد أكان ذوي قربى تجلت فلاصر أم كان غير أسرته، ولا كيف رقي عرش الملك. وقد وصفه لانرمان بالخامس وفيكورو بالرابع. وقد كُشف في كيونجك وفي أطلال قصر في الشمال الغربي من نمرود صفائح نحاسية نقش عليها اسمه. وجاء في التاريخ البابلي المحفوظة آثاره في المتحف البريطاني: «إنه في ٢٥ شهر تيبت استوى سلمناصر على عرش آشور فدك مدينة سابارين. ...وفي السنة الخامسة لسلمناصر في شهر تيبت توفي فكانت مدة ملك سلمناصر على اكّد وآشور خمس سنين». ترجم ذلك العالم أوبر وترجمته مثبتة في مجلة جمعية الكتابات القديمة في شهر نيسان إلى حزيران سنة ١٨٨٧م.

وأما سؤ ملك مصر فقد سمته الخطوط المسمارية سابوشلطونو أي سابي السلطان. وسمته الخطوط المصرية سبوك أو شباك، وفي تواريخ اليونان ساباكو، وفي العبرانية سؤ أو سوه، وهو أول ملوك الدولة الخامسة والعشرين من الدول المصرية. وكان يلي الحبشة أولاً ثم تغلب على مصر لأن المصريين بعد وفاة شيشونك انقسموا إلى ممالك صغيرة عديدة فتغلب عليها ملوك الحبشة.

لكن هذه الممالك ثارت عليهم وخلعت نير سلطتهم إلى أن اخضعها ثانية بيانكي ملك الحبشة الذي كان مالكاً في نباطا. وخلف بيانكي ملك يسمى كشتا لا يُعرف أصله، ولكن يظن أنه كان متزوّجاً بابنة بيانكي على ما روى مسبرو (في تاريخه القديم للمشرق) وبعد موته خلفه ابنه شباك وكان محباً للحرب، ولم يكن لبيانكي على مصر إلّا حق السيادة، فاستبد شباك بملكه فيها، فكان وخلفاؤه دولة حديثة في مصر واستمال المصريين إليه بحلمه وحكمته وحسن سياسته وما أجراه من المنافع العامة، فعظم أمره في مصر. ولجأ إليه هوشع ملك إسرائيل مستجيراً به من أعنات سلمناصر له، وإثقاله شعبه بالجزيات.

وعلم سلمناصر باستجارة هوشع قبل أن يجيره شباك فخفَّ للتنكيل ببني إسرائيل قبل أن يتسنى لملك مصر إنجادهم. وزحف بجيوشه إلى مملكة إسرائيل فكسر جنود هوشع، وقبض عليه وألقاه في السجن. فلمَّ بنو إسرائيل شعثهم وتألبوا في السامرة يدافعون عن أنفسهم مدافعة اليائسين. ولم يستطع الآشوريون أن يفتتحوا السامرة إلاّ في السنة الثالثة بعد حصارها فدكوها دكاً. وجلوا أغنياء بني إسرائيل ووجهاءهم إلى بلاد آشور وماداي وانحاز من بقي منهم إلى اخوانهم في مملكة يهوذا، أو استمروا في مواطنهم يؤدون الجزية صاغرين أذلاء. فانقرضت مملكة إسرائيل عقاباً لتركهم الله وعبادته واتباعهم الأوثان وجريهم على سيئات عابديها. وكان الانبياء أكثروا من انذارهم بهذا الخراب والوبال ومن ذلك قول أشعيا النبي (فصل ٧ عد ٨): «لأن دمشق تكون رأس آرام ورصين يكون رأس دمشق وبعد خمس وستين سنة يحطم أفرائيم (أي مملكة السامرة) فلا يبقى شعباً». وقد تبين من الآثار المسمارية أن سقوط السامرة كان سنة٧٢٢ أو سنة ٧٢١) ق.م وهذا يطابق ما جاء في الكتاب طباقاً تاماً. وهو يقضي علينا بصحة التاريخ الواردة في أسفار الملوك وسفري أخبار الأيام حيث كان خطأ النساخ ظاهراً (فيكورو في الكتاب والإكتشفات الحديثة مجلد ٤ صفحة ١٢٢ وما يليها طبعة ٥).

عد ٣٢٢

من افتتح السامرة وجلاء بني إسرائيل

إن لأهل العلم في تاريخ الآشوريين قولين في من افتتح السامرة وجلا أعيان مملكتها. فمن قائل أن سلمناصر افتتحها وجلاهم. ومن قائل أن سلمناصر مات قبل افتتاحها، وأن الفاتح هو سرغون خلفه. قال سميت (في تاريخ آشور صفحة ٩١) زعم بعضهم أن الآشوريين سئمت نفوسهم ابطاء الأعمال الحربية في فلسطين وقلّة النجاح فيها، فثار الجنود في آشور واختاروا ملكاً سرغون الذي كان قائداً للجيش في فلسطين. قال الأب فيكورو (في المحل المذكور صفحة ١٢٧) ظن سميت وكثير غيره من أهل العلم في تاريخ آشور أن سلمناصر مات قبل افتتاح السامرة. وأن سرغون شدد الحصار عليها وافتتحها. وربما حملهم على هذا الظن الخطأ في تفسير بعض الآثار الآشورية لأن عاصمة إسرائيل افتتحها سلمناصر. وقد اجمع على ذلك مفسرو الكتاب إلى هذه الأيام على أنّه إذا ظهر من بعض الآثار نسبة هذا الفتح إلى سرغون، فذلك محمول على أن سرغون كان قائد الجيش، فتفاخر بالظفر ناسباً إياه إلى نفسه. انتهى كلام فيكورو ملخصاً على أنه قد وجد لسرغون اثران منبئان بأخذ السامرة قال في أوّلهما: «أنا حاصرت مدينة سامريتانا (السامرة) وأنا أخذتها وجلوت ٢٧٢٨ من سكانها. وأخذت منها خمسين مركبة حربية حفظتها لنفسي. وتركت أموالها لجنودي. ووليت عليها نواباً عني وفرضت عليها الجزية التي كانت تؤديها إلى الملك السالف». عن لانرمان مجلد ٤ صفحة ٢٣٨ في تاريخه القديم للمشرق طبعة ٩. وقال في الأثر الثاني: وخطوطه محطمة لكن الباقي منها وافٍ بالغرض. «في بدىء ملكي... حاصرت وفتحت السامرة وجلوت ٢٧٢٨ من سكانها وحفظت خمسين مركبة لجانبي الملكي. وأتيت إلى مكان من جلوتهم بسكان من البلاد التي كنت ملكتها وفرضت عليهم جزية كجزية الآشوريين (عن فيكورو في المحل المذكور صفحة ١٤٩)». فهذان الأثران يرجحان أن سرغون إنّما هو الذي فتح السامرة بما أنه ملك وجلا بني إسرائيل. على أن ترجيح هذا القول لا يضاد الكتاب في شيء لأنه وإنّ قال: «وصعد عليه شلمناصر ملك آشور» إلاّ أنه لم ينسب فتح السامرة والقبض على ملكها وجلاء سكانها إلى شلمناصر بل يحتمل نسبتها إلى غيره إذ عبّر عنه بملك آشور لا بشلمناصر، بل أن في الفصل الثامن

عشر من سفر الملوك الرابع إشارة إلى أن شلمناصر لم يأخذ السامرة بل صعد إليها فقط إذ جاء (عدد ٩): «صعد شلمناصر ملك آشور على السامرة وحاصرها (عد ٣) وأخذوها (أي الآشوريون) بعد ثلاث سنين» لا أخذها في المفرد (قال بذلك أوبر في كتابه في سلمناصر وسرغون صفحة ٧٠٢).

لم يرد ذكر سرغون في الكتاب إلاّ مرة واحدة في نبوة أشعيا (فصل ٢٠ عد١) حيث قال في السنة التي وفد فيها ترتان إلى أشدود إذ أرسله سرجون (أو سرعون) ملك آشور وحارب أشدود وأخذها». ولذلك لم يكن القدماء يعرفونه بل كانوا يظنونه أحد الملوك الآشوريين المعروفين سماه أشعيا سرجون. فقال بعضهم إنّه سلمناصر سالفه وظنه غيرهم سنحاريب مع أن هذا هو ابن سرغون. ووهم غيرهم أنه أسرحدون مع أنه حفيد سرغون، بل قال بعض علماء هذا العصر أيضاً إنّ سرغون وسلمناصر واحد بناءً على أنّ الكتاب قال ان سلمناصر فتح السامرة والآثار الآشورية يتبين منها أن سرغون فتحها فسلمناصر وسرغون واحد. فقالوا قبل الإكتشافات إنّ سرغون الذي ذكره الكتاب إنّما هو سرغون الذي ورد ذكره في الآثار حتى كان رولينسون نفسه ممن قالوا بهذا القول، إلا أنه عاد الآن وجميع أهل العلم بالآثار الآشورية يثبتون أن سلمناصر وسرغون ملكان خلف أحدهما الآخر. ولم تدع الآثار الآشورية ذريعة لإقامة نكير على هذه الحقيقة التاريخية، وما وجد من هذه الآثار في خرشباد أبان لنا تاريخ سرغون. وفصل لنا أعماله، بل وجدت صورته ناتئة على صفيحة يطلق لكل راغب أن يراها في متحف اللوفر في باريس. وقد كشف عن تمثاله في شيتسيو (وهي لرنكا في قبرص) وهو الآن في متحف برلين. وجاء في التاريخ البابلي المحفوظ في المتحف البريطاني ما نصّه «في ١٢ من شهر تيبت (في السنة الخامسة لسلمناصر): استوى سرغون على عرش آشور» فقطع العلماء بأن ذلك من حقائق التاريخ (ملخص عن الكتاب والإكتشافات الحديثة لفيكورو في المحل المذكور صفحة ١٣٧ إلى صفحة ١٤٥).

عد ٣٢٣

محال إقامة بني إسرائيل في آشور

قد مر بك آنفاً قول الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٧ عد ٦): «أخذ ملك آشور

السامرة وجلا إسرائيل إلى آشور وأسكنهم في حلاح وعلى خابور نهر جوزان، وفي مدائن ماداي». وقد أعاد الكتاب هذا القول بحروفه في الفصل الثامن عشر من السفر المذكور عد ١١. وقد جاءت الخطوط المسمارية مؤيدة قول الكتاب بإثباتها أنّ هذه الأماكن واقعة في بلاد آشور أي في ما بين النهرين. فحلاح هي حلا الآن وموقعها على مقربة من نهر الخابور الأعلى، ومن المحل المسمى رأس العين.

وقد كشف عن جريدة جغرافية آشورية ذكرت فيها حلاح (حلاحو) من جملة مدن ما بين النهرين في جانب راصف وجوزان ونصيبين.(رواه سكردر في كتابه صفحة ١٦٧). وأمّا خابور فما برح يسمى بهذا الاسم إلى اليوم وهو نهر يصب في الفرات، ومخرج مياهه من عدة ينابيع في الجبل الذي سماه بتولمايس واسترابون ماسيوس، ويسمى الآن كرادجاداغ. وقد ورد ذكره في كثير من الآثار المسمارية ولاسيما في خطوط لآشور نزيربال.

وجوزان اسم عمل من أعمال بين النهرين ذكره بتولمايس، وهو مصاقب لحلاح وفي جانب حران، وجاء ذكره في خطوط لسلمناصر الثاني قال فيها: «وأخذت الجزية من عاسو ملك بلاد جوزان»، وقد مر ذكر اسمها في الجريدة الجغرافية الآشورية المار ذكرها آنفاً وقد أنبأتنا الآثار الآشورية أنّه كان في ما بين النهرين مدينة تسمى جوزان سمي العمل باسمها. وأفادتها الآثار الآشورية أيضاً أنّ تجلت فلاصر الثاني أخضع ماداي لمملكة نينوى، وانّ سرغون نفسه أثار الحرب مرات على الماديين، فلا بدع أن نقل إليها بعض بني إسرائيل الذين جلاهم. وقد حقق الكتاب في سفر طوبيا (فصل ١ عد ١٦) أنّ بعض بني إسرائيل كانوا في راجيس مدينة ماداي، وأنّه كان هناك كثيرون من أقرباء طوبيا.

عد ٣٢٤

أصل من جلاهم سرغون إلى السامرة

قال الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٧ عد ٢٤): «وأتى ملك آشور بقوم من بابل وكوت وعوّا وحماه وسفروائيم، وأسكنهم في مدن السامرة مكان بني إسرائيل. فامتلكوا السامرة واستوطنوا مدنها». وقال سرغون في أثره المار ذكره: «وأتيت إلى مكان من جلوتهم بسكان من البلاد التي كنت ملكتها» فالخبران واحد إلّا في

زيادة تفصيل في قول الكتاب على ما جاء في الأثر. على أن آثاراً أخرى مسمارية جاءت مثبتة تفصيل الكتاب أيضاً فقد ظهر من آثار آشورية كثيرة أنّ سرغون حارب في السنة الأولى لملكه مروداخ بلدان ملك بابل، وانتصر عليه وكتب سرغون نفسه في الآثار المنبئة بتاريخه أنَّه جلا بعض البابليين إلى فلسطين فقال: (على ما ترجم يوتا في كتابه آثار نينوى مجلد ٥ صفحة ٧٠): «قد ظفرت بمروداخ بلادان الذي كان يلي مملكته بابل وجلوت (العدد محطَّم) من السكان، وأقمتهم في أرض الحثيين (سورية وفلسطين)».

ولا يريد ببابل سكان هذه المدينة وحدها بل سكان غيرها أيضاً من المدن المجاورة لها ومنها كوت، فليس من يقيم نكيراً الآن على أن كوت من المدن البابلية. فقد ورد اسمها في كثير من الخطوط المسمارية، ومنها أنَّه نقش على مسلة سلمناصر: «قدمت ذبائح نفيسة في بابل وبرسيبا وكوت». وقال هرموزد رسام بعد اكتشافاته سنة ١٨٨٠ م وسنة ١٨٨١ م إنَّ موقع كوت كان في المحل المسمى اليوم تل ابراهيم على ثلاث ساعات في الشمال الشرقي من بابل. ويظهر أنّ الكوتيين كانوا أكثر عدداً من غيرهم في السامرة، ولا أقل من أن كانوا أكثر نفوذاً ووجاهةً، لأن اليهود كانوا يسمون السامريين كوتيين كما في التلمود. وقال يوسيفوس (في ك ٩ فصل ١٤ من تاريخ اليهود): «أن من يسميهم العبرانيون كوتيين يسميهم اليونان سامريين»، لكن يوسيفوس وهم أن موقع كوت في وسط بلاد فارس كما وهم غيره من مفسري الكتاب إنَّها كانت واقعة في العراق العربي، أو في إقليم آخر ولم يبق الآن لهذا الخلاف من موضوع.

وأمَّا عوَّا فلم يظهر إلى الآن اسمها في الآثار المسمارية، وإن قال كثيرون إنَّها من مدن بلاد الكلدان، وقال بعضهم (على ما في معجم الكتاب لكلمت)، إنَّها في بلاد العرب. وعليه فيكون ورد ذكرها ضمناً في الآثار الآشورية إذ وجد أثر في خرشباد يتبين منه أن سرغون جلا قوماً من بلاد العرب إلى السامرة. وإليك ترجمة هذا الأثر نقلاً عن سميت (في قانون مشاهير الآشوريين صفحة ١٢٨): «أنَّ الثموديين والعباديديين والمرسيمانيين والهيابيين قبائل بلاد العرب القاصية كانوا يسكنون أرض بحري . ولم يكن الحكماء والجوالون يعلمون شيئاً من أمرهم، ولم يكونو أدُّوا الجزية إلى أحد من ملوكنا، فأنا انتصرت عليهم بعون آشور سيدي ونقلت من بقي منهم فأقمتهم في السامرة وأخذت الجزية من فرعون ملك مصر،

ومن شمسة ملكة العرب، وإيتامار ملك سبا الذين كانت مساكنهم على شاطيء البحر وفي أرض... حجارة كريمة وعاجاً... وأخشاباً وأطياباً... وخيلاً وجمالاً » وفي محل النقط خطوط محطَّمة. وجاء في أثر آخر موجز ما ذكرناه وأنَّه «أسر كل من بقيوا أحياء وجلاهم إلى أرض ابن عمري» أي السامرة. وأمَّا حماة فقد جاء ذكرها متواتراً في الآثار الآشورية كما رأيت في ما مر وجاء في آثار سرغون نفسه أنَّه: «في السنة الثانية لملكه حارب ايلوبيد ملك حماة وإنَّه استظهر عليه في رقيعة كركر وإنَّه أخذ منه مئتي مركبة وست مئة فارس». ولم يصرِّح بأنَّه جلا بعض قومها إلى السامرة لكنه لمح إلى ذلك في أثر آخر إذ قال إنَّه جلا بعض من انتصر عليهم إلى أرض حماة التي كان نقل شعبها منها.

وقد تضاربت الأقوال في موقع سفروائيم، فمن قائل إنَّها كانت في أنحاء حماة ومن قائل إنَّها كانت في ولاية دمشق. والصحيح الآن إنَّها مدينة بابلية وقد ورد ذكر اسمها مكرراً في الخطوط المسمارية مسماة سيبار أو سيبَّارا. وتسمى في بعض هذه الخطوط مدينة الفرات لوقوعها على عدوة هذا النهر. وذكرت هذه الخطوط مدينتين تسميان بهذا الاسم تسمى الأولى سيبَّاراساشمس أي سيبارا مدينة الشمس. والثانية سيباراسا انونيت أي سيبارا مدينة أنونيت وهو معبود لهم، وفي تسمية الكتاب لها سفراوائيم بعلامة التثنية إشارة إلى مدينتين بهذا الإسم. وقد عين هرموزد رسام بعد اكتشافاته سنة ١٨٨٠م وسنة ١٨٨١ م موقع سيبارا في المحل المسمى الآن تل أبي حابا في الجنوب الغربي من بغداد. إنَّ كل ما مرَّ هنا يبين لنا أنّ الآثار الآشورية مثبتة لآيات الكتاب إثباتاً علمياً يحمل كل مطالع على العجب والشكر لله (ملخص عن فيكورو في المحل المذكور صفحة ١٥٧ إلى ١٦٣).

عد ٣٢٥
معبودات سكان السامرة المجلوين إليها

لم تنبئنا الآثار الآشورية بما كان لمن جلاهم سرغون إلى السامرة، وأنبأنا الكتاب بما كان لهم وبما عبدوا، فأيَّدت الآثار المسمارية إنباء الكتاب ببيانها أنّ ما ذكره الكتاب عن عبادة هولاء السامريين الجدد، إنَّما كان عبادتهم في مواطنهم. فقال الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٧ عد ٢٦ وما يليه) فأخذت كل أمة تعمل آلهتها

وتضعها في بيوت المشارف التي عملها السامريون، كل أمة في مدينتها التي سكنتها، فعمل أهل بابل سكوت بنوت. وأهل كوت عملوا نرجال، وأهل حماة عملوا أشيما، والعويون عملوا نجاز وترقاق، والسفروائيمون كانوا يحرقون بنيهم بالنار لادرملك وعنملّك إلهيّ سفروائيم. فطالما أعيت هذه الآيات مفسّري الكتاب. وقد زحزحت الآن الآثار الآشورية الظلام الدامس الذي كان مسدولاً عليها، فقد فسر لانرمان كلمة سكوت بنوت بمظال البنات، وقال إنَّ المراد بذلك أعياد كانوا يجتمعون فيها لتكرمة زربانيت إلهة الولادة. وذكر استرابون (ك١٦ فصل ٨) كيف كان الفرس يحتفون بهذا العيد وأخذ البابليون ذلك عنهم. فقال إنَّ رجالهم ونساءهم كانوا يجتمعون معاً فيصرفون ليلهم ونهارهم بالطرب والملاهي معاقرين الخمرة مدمنين الفحشاء. والإلهة زربانيت هي التي ذكرها باروك النبي ومما قاله فيها (فصل ٦ عد ٤٢): «والنساء يقعدنَ (في بابل تكرمة لهذه الآلهة) متحزمات بالحبال يتبخرنَ بالنخالة»، وإذا فعلنَ الفحشاء تفاخرن بها «وعيرت» إحداهنَّ «صاحبتها بأنَّها لم تحظَ مثلها ولم يقطع حبلها»، وربَّما كسر العبرانيون اسم هذه الإلهة زربانيت أو زربانوت فجعلوه في لغتهم سكوت بنوت، على ما رأى هنري رولينسون. ومهما يكن من أمر الاسم فعبادة هذه الإلهة في بابل حقيقة لا خلاف فيها. وفي آثارها أنّ بختنصر أقام لهذه الإلهة هيكلاً في بابل.

وأما نرجال الذي عبده الكوتيون، فتأويل اسمه الإله الأسد، ولا جرم ان هذا الإله كان معبود الكوتيين في بلادهم، وقد ثبت ذلك بآثار عديدة منها أثر دال على كيفية التلفظ بالكلمات وتفسيرها كتب فيه «إيلو أريُو»:. وفي السريانية ܐܝܠ ܐܪܝܘ (ايل أريو) «ايلونيزي كوروا» أي إله سكان كوت. وحقق ذلك سكردر وسميت (في كتابه الموسوم بذكر الماضي مجلد ٥ صفحة ١٠٧)، وكان على أبواب قصور الآشوريين تمثال أسد، وما ذلك إلّا كناية عن نرجال الإله الأسد الذي كان تمثاله يقام لحراسة هذه القصور. وأما أسيما الذي عبده أهل حماة في السامرة فلا أثر لاسمه في الآثار الآشورية، ووجهه بيِّن لان أشيما من معبودات السوريين لا الآشوريين، ولا يبعد ان يكون أشمون أحد الهة الفينيقيين، وهو الكبير الثامن عندهم، وكان كناية عن كوكب القطب الشمالي (طالع عد ١٤٦). ولا بدع ان كان أشمون معبوداً في حماة أيضاً. واما نجاز وترتاق معبود العويين فقال بعض الربيين فيهما أنَّ نجاز كان يُمثل بهيئة كلب وان اسمه نجاز ربما

كان أصله من نباح وفي السريانية ܢܒܚ (نَبح) أي نبح، ويظهر أنه كان من معبودات سبا، وقالوا إنَّ ترتاق كان يمثّل بهيئة حمار ولا أثر في الخطوط المسمارية لهذين المعبودين. وهذا مؤذن بأن العويين لم يكونوا من الكلدان كما مرّ.

وأما أور ملك وعنملك اللذان عبدهما السفروائيمون وكانوا يحرقون بنيهم تكرمةً لهما فيراد بهما ادار الملك وعانو الملك. وادار وعانو كانا من آلهة البابليين والآشوريين وكثيراً ما وجد اسمهما في الخطوط المسمارية. وقال لانرمان: إنَّ اسم ادار يحتمل ان كان في الأصل بمعنى النار وقد نعت في هذه الخطوط «بالإله الذي ينير القبائل كالشمس». ويعبر أحياناً عن اسمه بصورة خشب للدلالة على النار. وعانو كان من كبار الآلهة في بلاد الكلدان، ونعتته الخطوط القديمة «بالقديم وأبي الآلهة وسيد العالم السفلي ورب الظلام وولي الكنوز الخفية». وقال رولينسون إنَّ ادر ملك كان عندهم كناية عن قوة الذَكَر في الشمس وعنملك عن قوة الأنثى فيها، وعلى القولين كان أهل سيبارا أو سفروائيم يعبدون الشمس. وهذا مشعر بأصل عادتهم السيئة، بأن يضحوا ببنيهم على النار تكرمة لها. وقد كشف رسام المار ذكره في أبي حابا سيبارا القديمة عن صفيحة صورت عليها الشمس وأحد ملوك بابل ساجداً لها، ومن جملة ما خط على هذه الصفيحة «مثال الآله الشمس الرب العظيم الساكن في هيكل ايبار الكائن في سيبارا». فأهل هذه المدينة لبثوا في السامرة على عبادتهم للشمس، والتضحية ببنيهم إكراماً لها كما قال الكتاب.

وجاء في الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٧ عد ٢٥ وما يليه) إنّ المجلوين إلى السامرة لم يتقوا الرب، فبعث عليهم أسوداً كانت تقتل منهم، فكلموا ملك آشور قائلين أن الأمم الذين جلوتهم وأسكنتهم في مدن السامرة لم يعرفوا حكم إله الأرض. فأرسل عليهم أسوداً فهي تقتلهم، فأمر ملك آشور أن أبعثوا إليهم واحداً من الكهنة الذين جلوتهم من هناك فيقيم، ويعلمهم حكم إله الأرض. فأتى واحد من الكهنة الذين جلاهم وأقام ببيت إيل (بيت أين) وأخذ يعلمهم كيف يتقون الرب. فكانوا على ذلك يتقون الرب ويعبدون آلهتهم القديمة. وقال كلمت (في تاريخ العهد القديم) إنّ الكاهن الذي أرسله ملك آشور إلى السامرة لم يكن من كهنة الرب الورعين، بل كان من كهنة إسرائيل الذين يخدمون في المشارف. فتركهم يعبدون آلهتهم إلّا أنه سلمهم توراة موسى مكتوبة بالحروف الكلدانية غير الحروف العبرانية. فتسلموها منه وهي باقية عندهم يتفاخرون بها وهي مثبتة صحة

التوراة اثباتاً قاطعاً للمطابقة التامة بينها وبين التوراة العبرانية (إلاّ في اختلافات يسيرة)، على ما بين الأمتين من النفرة والشحناء. قال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ٩ فصل ١٤): إنّ هؤلاء الشعوب الكونيين الذين يسميهم اليونان سامرين قد استمروا إلى الآن (أي سامريين إلى أيامه) على مذهبهم الديني لكنهم يتقلبون علينا تقلب الأيام، فإن صلحت حالنا قالوا أننا إخوة لهم لأننا نحن وهم من ولد يوسف، وإن جار علينا الدهر قالوا إنهم لا يعرفوننا ولا يلزمهم أن يجيرونا لأنهم أتوا هذه الديار من بلاد قاصية».

عد ٣٢٦
تتمة أخبار سرغون في غزواته لسورية

إنّ سرغون بعد أن استظهر على أيلوبيد ملك حماه في وقعة كركر سنة ٧١٩ بعد سنتين من خراب السامرة، سيَّر جيوشه على شاطىء البحر المتوسط ينوي امتلاك سائر البلاد. وقد مر أن هوشع ملك إسرائيل كان قد استجار بشباك الحبشي ملك مصر والحبشة، وحالفه على ملك آشور فابطأ شباك في إنجاده ولم تكسبه هذه المحالفة إلاّ حنق ملك آشور عليه والإسراع في قدومه إلى السامرة. فانتصار سرغون قضى على ملك مصر أن يخرج لمقاومته تداركاً من أن يأخذ بلاده، فزحف بجيوشه إلى فلسطين لإيقاف جنود سرغون عن غزوة بلاده وصحبه حنون ملك غزة. وإليك ما خطَّ على جدار خرشباد: «إنّ حنون ملك غزة وسيباحي (كذا يسمي شباك) سلطان مصر، اجتمعا في رابي (وهي رافية المسماة الآن بئر رفح على ٢١ أو ٢٢ ميلاً من غزة جنوباً (كاران مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٢٣٣) ليصليا عليَّ حرباً. واقبلا عليَّ فهزَّمتهما وانكسرت جيوش سيباحي أمام جنودي. وهرب هو فلم يُهتدَ له على أثر وقبضت بيدي على حنون ملك غزة وافترضت جزية على فرعون ملك مصر». وفي خطوط أخرى أن سرغون أخذ حنون أسيراً إلى بلاد آشور وأنه ضرب قبائل بلاد العرب وجلا بعضهم إلى السامرة (كما مر في عد ٣٢٤).

إنّ انتصار سرغون على سلطان مصر وملك مصر وملك غزة قرضه مملكة إسرائيل، جعل بلاد فلسطين كلها في قبضة يده، ولم يتيسر له لحاق ملك مصر إلى وادي النيل. واكتفى بفرض الجزية عليه وعاد يسعر نار الحرب في أرمينية وبلاد

مادادي من سنة ٧١٨ إلى سنة ٧١٠ق.م. التي فيها رجع إلى فلسطين وحاصر أشدود (وهي أسدود الآن بين يافا شمالاً وعسقلان جنوباً). وقد ذكر أشعيا النبي هذه الغزوة (فصل ٢٠ عد ١) قائلاً كما مرّ: «في السنة التي وفد فيها ترتان إلى أشدود إذ أرسله سرجون ملك آشور وحارب أشدود وأخذها». وهوذا أخبار هذه الغزوة عن آثار سرغون في خرشباد، ولم نكن نعلم منها إلاّ إشارة أشعيا إليها: «في السنة التاسعة لغزوتي في البلاد الواقعة على شاطىء البحر الكبير (البحر المتوسط وفي تاريخه أن هذه الغزوة كانت في السنة الحادية عشرة لملكه) مضيت إلى فلسطين، وخيمت في أشدود لأن عازوري (أو ازوري) ملك أشدود قسا قلبه، ولم يؤدِ الجزية، وأرسل رسلاً إلى الملوك الذين حوله أعداء آشور، وصنع القبيح فأزلت ولايته عن الشعوب المجاورين له وأخذت ... (هنا كلمات محطمة). وأقمت أخاه مكانه على ملكه وضربت عليه مكوساً، وجزيات واجبة الاداء في آشور وضربت مثلها على الملوك مجاوريه. لكن رعاياه الخبثاء قسوا قلبهم ولم يؤدوا المكوس والجزية... وعصوا ملكهم وطردوه بدلاً عما صنعه إليهم من الخير... وأقاموا يافان ملكاً عليهم وأجلسوه على عرش مولاهم، مع أنه لم يكن وريثاً لمنصة ملكهم وحصنوا مدنهم للحرب... واحتفروا خليجاً من حولها عمقه عشرون ذراعاً، وأجروا مياه الينابيع إلى أمام المدينة. وشعب فلسطين ويهوذا وأدوم ومواب المقيمون في جانب البحر والذين كانوا يقدمون الجزية، والتقادم لآشور سيدي أبدوا الخيانة ونوى الشعب ورؤساؤه الأشقياء أن يحاربوني. وقدموا إلى فرعون ملك مصر وهو قاصر عن أن ينجيهم وابتغوا محالفته، فأنا الملك الأشرف أقسمت بآشور ومروداخ وجيشت جيوش حرسي جميعاً، فعبروا دجلة والفرات في حين فيضانها. وسمع يافان ملكهم الذي كان معتمداً على قوته ولم يخضع لسلطتنا بمسير جيشنا فذللته عظمة آشور سيدي ففر إلى تخوم مصر... (وهنا كلمات محطمة لا يتحصل المراد بها). ولم يدرِ أحد أين انهزم فحاصرت مدن أشدود وجيزمو، وأخذتها وغنمت إلهته وامرأته وبنيه وبناته وأثاثه. وماله وكنوز قصره مع شعب بلاده وجددت بناء هذه المدن وأقمت بينهم قوماً ممن كنت أخضعتهم في جهات مشرق الشمس. وأقمتهم في وسط شعب آشور ففعلوا حسب مشيئتي».

قد صرح أشعيا في قوله ذكره بأن سرغون لم يحاصر أشدود بنفسه بل أرسل إليها ترتان قائد جيشه. وعليه فقول سرغون: «حاصرت أشدود وأخذتها» مجازي لا

حقيقي إلاّ أن نقول إنّه أرسل ترتان أولاً ثم شخص بنفسه إلى أشدود وقد وجد اسم ترتان في الآثار الآشورية. وأخبار هذه الأحداث مهمة لا لعلاقتها بتاريخ العبرانيين فقط بل لتفسيرها بأتم بيان كثيراً من نبوات أشعيا النبي لا سيما نبوته التي جعل تاريخها سنة ارسال سرغون ترتان لافتتاح أشدود وهي سنة ٧١٠ ق.م. وقد كان للمفسرين كبوات في تفسير هذه النبوات قبل اكتشاف الآثار المار ذكرها ويلزم إصلاح تفسيرهم في ما يلاحظ التاريخ، فالنوازل التي حلت بمدن فلسطين كما رأيت آنفاً تنبأ عليها أشعيا في الفصل الرابع عشر من نبوته مؤرخة في سنة موت أحاز وهي سنة ٧٢٧، كما حققه أهل العلم بالآثار الآشورية أعني قبل حصار السامرة بأربع سنين، وقبل تملك سرغون بست سنين، وقبل انكسار حنون ملك غزة بثماني سنين، وقبل انكسار حنون ملك غزة بثماني سنين، وقبل افتتاح أشدود بسبع عشرة سنة. وإليك كلام النبي في نبوته المشار إليها (فصل ١٤): «لا تفرحي يا أرض فلسطين بأنّ قضيب ضاربك انكسر... أنا مميت أصلك بالجوع وبقيتك تقتل...ولول أيها الباب اصرخي أيتها المدينة قد ذبت يا فلسطين بأسرك لأن قتاماً وافد من الشمال وليس من ينفرد عن عصائبه.

فالقتام الوافد من الشمال كناية عن جحافل سرغون التي أتت من الشمال، وأنزلت البلاء والوبال في مدن فلسطين. ولأشعيا نبوتان أخريان نطق بهما سنة ٧١٠ على الحبشة ومصر. وقد جمع بينهما لأن شباك الحبشي كان يليهما معاً فقال (فصل ٢٠ عد ٤ إلى عد ٦): «كذلك يسوق ملك آشور سبي مصر وجلاء كوش الصبيان والشيوخ عراة حفاة مكشوفة استاهم فضيحة لمصر. فيفزعون ويخزون بكوش رجائهم وبمصر فخرهم». وأكثر صراحة من هذا قوله (فصل ١٩ عد ٤): «وادفع مصر إلى سيد قاسٍ. وملك ذو عزة يتسلط عليهم يقول السيد رب الجنود». فهذه النبوة على مصر والحبشة لم تتم في أيام سرغون وليس سرغون الملك القاسي الذي أشار النبي إليه كما وهم كثير من المفسرين قبل الإكتشافات، بل هو أسرحدون بن سنحاريب وحفيد سرغون أو آشور بانيبال بن أسرحدون. فقد حالت بعض المصاعب دون افتتاح سرغون مصر بعد إخرابه السامرة سنة ٧٢١ق.م وبعد افتتاحه أشدود سنة ٧١٠ فإنّه اضطر سنة ٧٠٩ق.م أن يعود إلى الحرب مع مروداخ بلدان ملك بابل. ولم يظفر به كل الظفر إلاّ في سنة ٧٠٨ق.م، وأراد بعدئذٍ أن يستريح ويقيم قصره المعروف الآن بقصر خرشباد المكتوب على جداره أكثر تاريخه.

وقد ذكرنا (في عد ١٢٢) ضم سرغون قبرس إلى مملكته نقلاً عن صفيحة وجدت في هذه الجزيرة. وفي سنة (٧٠٤ق.م سطا على سرغون رجل يسمى بلكاسباي فقتله غيلة ربما أخذ بثأر مروداخ بلادان، فقضي من أكمل خراب مملكة بعد أن ملك سبع عشرة سنة. (ملخص عن فيكورو في المجلد المذكور من صفحة ١٤٧ إلى ١٨١).

عد ٣٢٧

سنو ملوك يهوذا وملوك إسرائيل

إذا تتبعنا سني ملوك يهوذا وملوك إسرائيل كما ذكرها الكتاب وجدناها كما ترى في الجدول التالي.

ملوك يهوذا	سني ملكهم	آيات الكتاب	ملوك إسرائيل	سنو ملكهم	آيات الكتاب
راحبعام	١٧	ملو ٣ ف ١٤ ع٢١	ياربعام	٢٢	ملو ٣ ف ١٤ ع ٢٠
ابيا	٠٣	٠٠ف ١٥ ع ٠٢	ناداب	٠٢	٠٠ف ١٥ ع ٢٥
آسا	٤١	٠٠ف ١٥ ع ٢٠	بعشا	٢٤	٠٠ف ١٥ ع ٣٣
يوشافاط	٢٥	٠٠ف ٢٢ ع ٤٢	ايله	٠٢	٠٠ف ١٦ ع ٨
يوارم	٠٨	ملو ٤ ف ٠٨ ع ١٧	زمري	(يوم ٧)	٠٠ف ١٦ ع ١٥
احزيا	٠١	٠٠ف ٠٨ ع ٢٥	عمري	١٢	٠٠ف ١٦ ع ٢٣
عتليا	٠٦	٠٠ف ١١ ع ٠٣	احاب	٢٢	٠٠ف ١٦ ع ٢٩
يواش	٤٠	٠٠ف ١٢ ع ٠١	احزيا	٠٢	٠٠ف ٢٢ ع ٥٢
امصيا	٢٩	٠٠ف ١٤ ع ٠٢	يورام	١٠	ملو ٤ ف ٠٣ ع ٠١
عزيا	٥٢	٠٠ف ١٥ ع ٠٢	ياهو	٢٨	٠٠ف ١٠ ع ٣٦
يوتام	١٦	٠٠ف ١٥ ع ٣٣	يواحاز	١٧	٠٠ف ١٣ ع ٠١
احاز	١٦	٠٠ف ١٦ ع ٠٢	يواش	١٦	٠٠ف ١٣ ع ١٠
من مدة حزقيا	٠٦	٠٠ف ١٨ ع ٠١	ياربعام ٢	٤١	٠٠ف ١٤ ع ٢٣
المجموع	٢٦٠		زكريا	شهر ٦	٠٠ف ١٥ ع ٠٨

ملوك يهوذا	سنو ملكهم	آيات الكتاب	ملوك إسرائيل	سنو ملكهم	آيات الكتاب
			شلوم	(شهر ١)	٠٠ف ١٥ ع ١٣
			منحيم	١٠	٠٠ف١٥ ع ١٧
			فقحيا	٠٢	ملو ٤ ف ١٥ ع ٢٣
			فاقح	٢٠	٠٠ف ١٥ ع ٢٧
			هوشع	(شهر ٧)	٠٩ ٠٠ف ١٧ ع ١٠
			المجموع	٢٤١	وشهر (٧)

والفينا سني ملوك يهوذا تزيد على سني ملوك اسرائيل ثماني عشرة سنة وخمسة أشهر لأن مجموع سني ملوك يهوذا ٢٦٠ سنة، ومجموع سني ملوك إسرائيل ٢٤١ وسبعة أشهر وسبعة أيام أيضاً. وقد أجهد العلماء ومفسرو الكتاب نفوسهم في توفيق هذا الخلاف فقال بعضهم إنّ النساخ ردوا خطأ هذه الثماني عشرة سنة على سني ملوك يهوذا عند ذكر سني ملك بعضهم فيلزم إصلاح هذا الخطأ الذي وقع مثله متواتراً في الأعداد، ولكن لا يعلم من سني الملوك المعاصرين لاحاب ملك إسرائيل. وقال بعضهم إنّ الملك انقطع في مملكة السامرة أي لم يكن ملك في إسرائيل مرتين أحداهما بين ملك ياربعام الثاني وملك زكريا مدة نحو من إحدى عشرة سنة. والثانية بين ملك فاقح وملك هوشع مدة نحو تسع سنين. وقد جنح الأب فيكورو إلى القول الأول في كتابه الموسوم بالأسفار المقدسة وانتقاد العقليين لها (مجلد ٤ صفحة ٥٠٥ طبعة ٣). وإلى القول الثاني في كتابه الموسوم بالموجز الكتابي (مجلد ٢ صفحة ٨١ طبعة ٧). ووضع الجدول الآتي لملوك إسرائيل مبيّناً سنة بدء ملك كل منهم قبل التاريخ المسيحي عن علماء أعلام فنترجمه توفيراً للفائدة مغتنين بما في الجدول السابق عن تعيين آيات الكتاب.

سنو ملوك يهوذا وملوك إسرائيل
أسماء ملوك إسرائيل سنو ملكهم بدء ملكهم ق.م
عن باتو كلينتون وينر

اسماء ملوك إسرائيل	سنو ملكهم	بدء ملكهم ق.م عن		
		باتو	كلينتون	وينر
ياربعام الأول	٢٢	٩٧٥	٩٧٦	٩٧٥
ناداب	٠٢	٩٥٤	٩٥٥	٩٥٤
بعشا	٢٤	٩٥٣	٩٥٤	٩٥٣
ايله	٠٢	٩٣٠	٩٣٠	٩٣٠
زمري يوم ٧	٠٠	٩٢٩	٩٣٠	٩٢٨
عمري	١٢	٩٢٩	٩٣٠	٩٢٨
احاب	٢٢	٩١٧	٩١٩	٩١٨
احزيا	٠٢	٨٩٨	٨٩٦	٨٩٧
يورام	١٢	٨٩٦	٨٩٥	٨٩٦
ياهو	٢٨	٨٨٤	٨٨٣	٨٨٤
يواحاز	١٧	٨٥٦	٨٥٥	٨٥٦
يواش	١٦	٨٤٠	٨٣٩	٨٤٠
ياربعام الثاني	٤١	٨٢٤	٨٢٣	٨٢٥
لاملك	١١	...	...	...
زكريا شهر ٦	٠٠	٧٧٢	٧٧١	٧٧٢
شلوم شهر ١	٠٠	٧٧٢	٨٧٠	٧٧١
منحيم	١٠	٧٧١	٧٧٠	٧٧١
نقحيا	٠٢	٧٦١	٧٥٩	٧٦٩
ناقح	٢٠	٧٥٩	٧٥٧	٧٥٨

لاملك	٩	...	...	...
هوشع	٩	٧٢٩	٧٣٠	٧٢٩
خراب السامرة	...	٧٢١	٧٢١	٧٢١
فمجموع سني ملوك إسرائيل	**٢٦٠**			

فيكون مجموع سني ملوك اسرائيل على هذا النحو مئتين وستين سنة كسني ملوك يهوذا. وقد قال بعض المتجددين بطرائق أخرى لتوفيق هذا الخلاف فقال أولد إنّ الصحيح في سني ياربعام الثاني أنها ٥٣ سنة لا ٤١ سنة. وفي سني فاقح انها ٢٩ سنة لا ٢٠ سنة. فيحصل من ذلك زيادة نحو من عشرين سنة. وتتفق بذلك سنو المملكتين ووفق غيره بطرائق أخرى. ومهما يكن من هذا الخلاف فلا يمس صحة الأسفار المقدسة بشيء لأنه من خطأ النساخ، وقلنا مراراً أن ليس على الله أن يعصم كل كاتب من الخطأ، وأن هذه الأعداد يعبر عنها الكتاب بالحروف وهي متقاربة الهيئة فتكون عرضة للخطأ.

الفصل الثامن عشر

سائر ملوك يهوذا إلى الجلاء البابلي

عد ٣٢٨

حزقيا ملك يهوذا

إنَّ حزقيا بن آحاز ملك يهوذا خلف أباه راقياً منصة الملك في السنة الثالثة لهوشع ملك إسرائيل أي سنة ٧٢٧ق.م، وكان عمره حينئذٍ خمساً وعشرين سنة. وملك ٢٩ سنة وفي السنة السادسة لملكه وهي السنة التاسعة لهوشع ملك إسرائيل أخذت السامرة، وجلا ملك آشور بني إسرائيل إلى بلاد آشور (ملوك ٤ فصل ١٨ عد ١ و ٢ وعد ١٠ و ١١) وكان حزقيا مستقيماً وأرضى الرب متشبهاً بداود

جدّه. وكان أول مهامه وأجلّها العناية بأمر الدين، وحض شعبه على التمسك بعروته الوثقى، والعمل بسنن الرب ففتح هيكل أورشليم الذي كان مقفلاً في أيام أبيه. وأزال المشارف وحطّم الأنصاب، وقطع الغابات وكسّر تماثيل الآلهة الفينيقية. ودمّر هياكلها بل اتّصل إلى أن سحق الحية النحاسية التي كان موسى أقامها في البرية، لأن بني إسرائيل كانوا حينئذٍ يقدمون لها البخور ويعبدونها عبادة وثنية خلافاً لما أمر الرب موسى عند صنعها. وكان الرب مع حزقيا وحيثما توجّه كان يتصرّف بحكمة، واحتفى بعيد أول فصح وقع في أيام ملكه بمزيد التجلة. فأرسل رسائل ووفوداً إلى جميع أنحاء مملكته وإلى بني إسرائيل أجمعين من بئر سبع إلى دان ليأتوا إلى قضاء فصح الرب في أورشليم، إذ حالت عليهم أحوال ولم يقضوه حق قضائه. فانطلق الوفود من مدينة إلى أخرى يحضون الشعب على العود إلى الله وهيكله ليصرف عنهم حدّة غضبه، فازدرى بعضهم بالوفود وسخروا منهم وخشع جماعة من أسباط أشير ومنسا وزابلون، وجاءوا إلى أورشليم، وكان بنو يهوذا بقلب واحد على العمل بأمر الملك والرؤساء. وقد تقدّس الكهنة واللاويون وقدّموا الذبائح والمحرقات واحتفى الشعب بعيد الفطير في أورشليم سبعة أيام بوافر الوقار والبهجة، وأضافوا إلى أيام العيد سبعة أيام أخرى. وأدّب الملك للجماعة ذابحاً كثيراً من ثيرانه وشياهه. وفعل الرؤساء مثلما فعل الملك وكان الفرح عظيماً لم يكن مثله منذ أيام سليمان. وقد انقضى هذا العيد قبل خراب السامرة ولم يكن هوشع ملك إسرائيل يمنع مسوديه الإتيان إلى هيكل أورشليم كغيره من أسلافه وقد مرّت الإشارة إلى ذلك في الكلام عليه. وأعاد حزقيا الملك نظام خدمة الكهنة واللاويين في الهيكل وأجرى عليهم الأرزاق ليعكفوا على خدمة الرب والهيكل. وأعطى حصة من ماله للمحرقات وذاع ذلك فاقتدى به كثير من بني إسرائيل. فقدموا من بواكير الحنطة والخمر والزيت والعسل شيئاً كثيراً. وجاءوا بالعشور وافرة، وكان أشعيا النبي يرشد الملك إلى كل ذلك.

قد مرض حزقيا الملك فوافاه أشعيا النبي يقول له أوصي لبيتك لأنّك تموت ولا تعيش فبكى بكاءً شديداً وصلى إلى الرب قائلاً، أذكر يا رب كيف سلكت أمامك بالحق وسلامة القلب، وكيف صنعت الخير أمامك. فأوحى الرب إلى أشعيا أن يعود إلى الملك ويقول له إنّه سمع صلاته ورأى دموعه وإنّه سيشفى، وفي اليوم الثالث يصعد إلى الهيكل، وأنّه سيزيده على أيامه خمس عشرة سنة، وينقذه وأورشليم من

شر ملك آشور. فعاد أشعيا وبلغه ما قال الرب ووضع قرص تين على قرحه فبرأ، ولم يكن هذا القرص على الأظهر شافياً القرح بنفسه بل كان إشارة إلى الآية الربانية كوضع اليشاع الملح في المياه المرة فحلت، وكصب إيليا الماء حول المذبح حتى لفحته النار المنحدرة من العلاء. وقد التمس حزقيا من النبي آية يحقق أنّ الرب يبرءه فقال أشعيا هذه آية لك من قبل الرب «أيتقدم الظل عشر درجات أم يرجع عشر درجات فقال حزقيا أما تقدم الظل عشر درجات فأمر يسير ولكن ليرجع الظل إلى الوراء عشر درجات فهتف أشعيا النبي إلى الرب فرد الظل في الدرجات التي نزلها في درج آحاز عشر درجات، إلى الوراء». ذهب كثيرون من العلماء إلى أنّ المراد بدرج آحاز درج قصر حزقيا الذي كان أبوه آحاز بناه، وكان في أعلاه ابرة يستدل بظلها على ساعات النهار. وقد سخر فولتر من حزقيا ومن قول الكتاب إن تقدُّم الظل عشر درجات أمر يسير مع أن تقدُّمه ورجوعه سيان في منافاة شرائع الطبيعة. فنسلم له بأن حزقيا لم يكن فلكياً بل تكلَّم كعامة أهل أيامه الذين ألفوا أن يروا الظل يتقدَّم دائماً ولم يرجع قط. وكذلك نسلم له بأن رجوع الظل إلى الوراء ينافي سنن الطبيعة لكننا لا ننسبه إليها، بل إلى قدرة باري الطبيعة وهو على كل شيء قدير، ولو كان هذا الرجوع ممكناً بقوة الطبيعة لما أثبت لحزقيا شيئاً ولا كانت الآية آية وجميع المؤمنين بالله يعتقدون أنَّه قدير على صنع الآيات، وخرق شرائع الطبيعة وإنَّ كل ما شاء الرب صنع ولا تعوزه الوسائل لإرجاع الظل عشر درجات. ولم يصرح لنا الكتاب بهذه الوسيلة ومن كذب بوجود الله فلا بدع أن يكذب بآياته نعوذ به من شر المارقين.

وقال الكتاب (ملوك ٤ فصل ٢٠ عد ١١): «في ذلك الزمان أرسل بروداك بلادان بن بلادان ملك بابل كتباً وهدايا إلى حزقيا لأنَّه سمع أن حزقيا مريض، ففرح بهم حزقيا وأراهم جميع بيت نفائسه، وفضته وذهبه وأطيابه، ودهنه الطيب وبيت آنيته وجميع ما في خزائنه». فوفد إليه أشعيا يبكته على ذلك وتنبأ له أنها ستأتي أيام يؤخذ فيها كل ما في بيته مما أدخره آباؤه إلى بابل. ويؤخذ من بنيه الذين يلدهم فيكونون خصياناً في قصر ملك بابل. قد نسب الملحدون نبوات انبياء إسرائيل إلى حذقهم، ومعرفتهم لغوامض السياسة، ولكن أي حذق يتَّصل إلى عرفان ما تخالفه الظواهر كلها ولا يرى فيه وجه لاحتمال وقوعه كنبوة أشعيا هذه على جلاء بني يهوذا إلى بابل، مع أنّ مملكة بابل كانت حينئذٍ منحطة يهددها في كل

فترة ملوك آشور بقوتهم الجبارة وجيوشهم الظافرة بل كان بعضهم أذل بابل، ودانت لهم ومع هذا أثبت النبي قبل ١١٤ سنة أنّ هذه المملكة الذليلة سوف تقوى على مملكة آشور وتظفر بمملكة حزقيا الزاهرة يومئذٍ وتجلو سكانها إلى بلادهم. وبمثل ذلك ميخا النبي الذي كان معاصراً لأشعيا كما يظهر من نبوته (فصل ٤ عد ١٠).

أما برداك بلادان الذي ذكره الكتاب هنا فهو مروداخ بلادان ملك بابل الذي مر ذكره مرات وسماه أشعيا (فصل ٣٩ عد ١) مروداك. وقد تكلم فيه العلامة الكردينال ويزمن في السادسة من خطبه في العلامات بين العلم والدين الموحى فقال: «إنَّ مملكة آشور كانت يومئذٍ عزيزة زاهية راقية ذرى مجدها، ولم تكن بابل إلّا خاضعة لسؤددها، فإن كان بروداك أو مروداخ ملك بابل فكيف اجترأ أن يرسل وفداً لتهنئة ملك يهوذا وهو محارب لملك آشور سيده» إلى أن يقول الكردينال العلامة إنَّه وجد فقرة لباروز حفظها أوسابيوس في التاريخ الأرمني الذي نشره (مجلد ١٩ من مكتبة الآباء اليونان عمود ١١٨ من طبعة الأب مين) قيل فيها «ومن بعد وفاة أخي سنحاريم (سنحاريب) ملك هاجيسانو على البابليين، ولكن لم تنقض على ملكه ثلاثون يوماً إلّا وقتله مروداخ بلادان. وقبض على صولجان الملك ستة أشهر فتلَّ عرشه رجل اسمه اليبوس، وملك مكانه في السنة الثالثة لملكه. خرج سنحاريب بجحافله على البابليين فاستظهر عليهم وقبض على اليبوس وأفراد أسرته. وجلاهم إلى بلاد آشور وبسط ولايته على البابليين وأقام عليهم ملكاً ابنه أسرحدون وعاد ظافراً إلى آشور». على أنّ الخطوط الآشورية أزالت كل أشكال في أمر مروداخ بلادان فقد ذكره تجلت فلاصر في الخطوط التي نقشها على قصره، ومما قاله فيها إنَّ مروداخ بلادان بن ياكين ملك البحر (يريد بلاد الكلدان السفلى لمجاورتها خليج العجم. ولم يكن في مدة أسلافي أدَّى إليهم شيئاً من الجزية ولا قبل أقدامهم. فراعته عظمة آشور سيدي ومثل أمامي في مدينة سيبا وقبل قدميَّ» وعدد ما قدَّمه له من الجزيات. وكان خضوع مروداخ لتجلت فلاصر سنة ٧٣٠ أو سنة ٧٣١ ق.م عن سميت (في تاريخ تجلت فلاصر). وجاء في آثار سرغون ذكر مروداخ ملك بابل وقد حاربه سرغون سنة ٧٢٠ ق.م ويظهر أنّ هذه الحرب انقضت بصلح من شرائطه أن يبقى مروداخ بلادان ملكاً في بابل. على أنّ سرغون أضرم نار الحرب ثانية سنة ٧٠٩ وسنة ٧٠٨ ق.م وانتزع الملك منه وجمع بين

تاجي آشور وبابل. على أنّه بعد وفاة سرغون تنازع كثيرون ملك بابل مدة سنتين ويظهر أنّ مروداخ عاد حينئذٍ إلى عرش بابل فتبوأه ستة أشهر كما جاء في فقرة باروز المذكورة آنفاً. وقد كشف في بابل في هذه السنين عن صحيفة كتب عليها ما يثبت هذه الفقرة وهو: «أنَّ رجلاً اسمه مروداخ زوكيرسومي ملك في بابل مدة شهر ثم ملك فيها مروداخ هابل ايدينا (مروداخ بلادان) تسعة أشهر». وفي آثار سنحاريب ما يثبت رواية باروز وأوسابيوس ويحقق آيات الكتاب تحقيقاً علمياً. فقد جاء في أثره المعروف بعمود بلّينو «في بدء ملكي انتصرت تجاه مدينة كيش على مروداخ بلادان ملك كردويناس (بابل)، وعلى جيوش عيلام. فغادر ساحة الحرب وانهزم منفرداً... فملكت يدي في ساحة الحرب من المركبات والخيل والبغال والحمير والجمال والغنم. ودخلت قصره في بابل بملء المسرة وفتحت خزائنه وأخذت منها ذهباً وفضة وآنية ذهبية وفضية وحجارة كريمة وأشياء ثمينة... واستعبدت امرأته ونساء قصره والعمال الذين كانوا يخدمون بحضرته وكل ما كان يملكه. والظاهر من كل ما مرّ أنّ مروداخ بلادان بعد ان تَلّ سرغون عرش ملكه في بابل عاد إليه بعد وفاة سرغون، وفي تلك الفترة أرسل وفده إلى حزقيا ملك يهوذا يهنئه بصحته ويرغب في محالفته له على سنحاريب عدو كليهما. وقد يكون وفده اهتم بعقد محالفات مع غير حزقيا من ملوك سورية وفينيقية وربما كان هذا ما حمل سنحاريب على غزوته سورية كما ترى.

عد ٣٢٩

حملة سنحاريب على حزقيا ملك يهوذا

إنّ حزقيا كان معاصراً سلمناصر وسرغون وسنحاريب ملوك آشور، وشهد حصار السامرة وافتتاحها وجلاء أهل مملكتها وخراب مدن فلسطين، ولم يسطُ سلمناصر ولا سرغون عليه لأن اباه احاز كان محالفاً لملك آشور. ولكن أمست يهوذا في أيامه يحتاطها الآشوريون كحلقة من حديد. فكان في شماليها من جلاهم ملك آشور إلى السامرة، وفي غربتها مدن فلسطين التي دمرها سرغون وأقام عماله فيها، وفي جنوبها العرب الذين دانوا لسرغون، وفي شرقيها مملكة سورية، التي لم يبقِ منها ملك آشور إلّا الاسم على أن هذا الموقف الحرج لم يرُع حزقيا بل ثبت واثقاً بالله مفضلاً الإعتصام به، على كل من لجأ إلى دولة أجنبية، عاملاً

بإرشاد أشعيا النبي. وانبأنا الكتاب (ملوك ٤ فصل ١ عدد ٧) إنّه: «تمرد على ملك آشور ولم يتعبد له». ولا نعلم متى كان هذا التمرد والأظهر أنه اغتنم فرصة موت سرغون سنة ٧٠٥ ق.م. كما اغتنمها غيره ممن كانوا يؤدون الجزية إلى ملك آشور فأبى اداء الجزية لسنحاريب وزاد على ذلك بالإحتفاء رسل مروداخ ملك بابل. فاحتدم سنحاريب غيظاً على حزقيا وزحف بجيوشه إلى سورية.

وذكر الكتاب حملة سنحاريب هذه قبل مرض حزقيا ولذلك زعم وقبل وفادة ملك بابل إليه ولكن الأظهر والأمثل أن مرض حزقيا والوفادة إليه كانا قبل الغزوة. ويؤيده ان خزائن حزقيا كانت عند وفود رسل ملك بابل إليه مملوءة من الذهب والفضة. والآنية الثمينة فلم يكن إذاً استفرغها بتقدمة ما كان فيها لسنحاريب قبل الحرب والآثار الآشورية والبابلية قاضية بأن وفادة ملك بابل إلى حزقيا كانت قبل حملة سنحاريب على سورية، ولذا قدمنا ذكر غزوة سنحاريب خلافاً لوضع الكتاب لهما.

أما سنحاريب فهو ابن سرغون وقد خلف اباه في ١٢ آب لسنة ٧٠٥ وفي آثاره كلام مشبع في بني إسرائيل أكثر مما ورد في آثار اسلافه فقد كشف سنة ١٨٣٠ عن صحيفة من خزف ذات ستة اوجه في نينوى عند رجل اسمه تيلور، ولذلك تسمى هذه الصحيفة تيلور وهي الآن في المتحف البريطاني قد دوّن عليها سنحاريب اخبار حروبه من سنة ٧٠٤ إلى سنة ٦٨٤ق.م في اربع مئة وثمانين سطراً. تفاخر فيها بانتصاره في وقائع كثيرة وبكم عن ذكر انخذاله مما انطوت اخبار السنين الأولين لسنحاريب. وقد كشف عن تمثاله في نينوى وهو اليوم في لندره يمثل جالساً في فلسطين عند مدينة لاكيش (أم لقيس الآن) على عرش ثمين محمول بين أربعة من أكابر رجاله، ومتشحاً بأفخر الملابس، ودقنه مرسلة وشعره طويل محكم الجدل وفي أذنيه حلقتان بهيئة صليب، وفي يده سوار ثمين ويمناه مرفوعة إلى فوق. وقد قبض بها على حربة وفي يسراه قوس يسندها إلى مقدم عرشه وهيئة وجهه، ناطقة بأنه غاز قاس جبار لا رحمة في قلبه. فمن رأى تمثاله درى ما كان أعظم حنقه عند سماعه أن ملكاً صغيراً في سورية أبى أن يؤدي إليه وأن يتحالفا على مناصبته.

على أنه لم يشأ أن يحمل على ملك يهوذا قبل أن يذلل مروداخ بلادان لئلا

يترك عدواً من ورائه، فحارب ملك بابل وهزمه وشتت شمل قومه كما رأيت آنفاً، وأوغر حروباً في شرقي مملكته وجنوبيها لا يهمنا الكلام فيها. وبعد أن أمَّن تخوم مملكته شرقاً وجنوباً. أمَّ سورية ينوي أخضاع ملوكها والتوصل إلى مصر. وكانت غزوته هذه سنة ٧٠١ ق.م خلافاً لما رأته عامة المفسرين والمؤرخين قبل الإكتشافات من أن هذه الغزوة كانت بين سنة ٧١٤ ق.م وسنة ٧١٠ لأن عمود بلينو المار ذكره كتب عليه سنة ٧٠٢ق.م ولا ذكر فيه لها فإذا كانت بعده أعني سنة ٧٠١ق.م وقد انبأتنا الآثار المسمارية بأسباب أخرى لهذه الحملة (خلا الأسباب التي ذكرها الكتاب) وهي أن ملك صيدا وعسقلان وغيرهما لم يكتفوا بخلع نير الطاعة لملك آشور بل حالفوا ملك مصر عليه. ويظهر أن هذه المحالفة كانت بعد وفاة سرغون وأن المتحالفين لم يتسنَ لهم أن يضموا إليهم سائر ملوك سورية، بل آثر ملوك عمون ومواب وادوم الحيدودة، ومالأ ملوك ارواد وجبيل وأشدود الآشوريين وجاهر ملك عقرون بمحازبته لملك آشور خلافاً لرأي قومه فثاروا عليه وأسلموه إلى حزقيا ملك يهوذا ليسجنه في أورشليم.

و«إليك ما قاله الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٨) في حملة سنحاريب هذه (صعد سنحاريب ملك آشور على مدن يهوذا المحصنة وأخذها. فبعث حزقيا ملك يهوذا إلى ملك آشور في لاكيش (ام لقيس في الطريق المؤدي من أورشليم إلى غزة) وقال أنه قد خطئت فانصرفت عني ومهما تضرب عليَّ انفذه إليك، فضرب ملك آشور على حزقيا ملك يهوذا ثلاث مئة قنطار فضة وثلاثين قنطارا ذهب. فأدَّى إليه حزقيا جميع الفضة التي وجدت في بيت الرب وفي خزائن بيت الملك. ونزع حزقيا الذهب عن أبواب الهيكل وعن الدعائم التي كان قد غشاها حزقيا ملك يهوذا ودفعه إلى ملك آشور» فلم يرضَ سنحاريب بذلك وحده بل طلب أن يدخل إلى أورشليم. ولذلك «أرسل ملك آشور ترتان وربساريس وربشاقا من لاكيش إلى الملك حزقيا بجيش عظيم».

والأظهر ان الاسماء الثلاثة المذكورة ليست اعلاماً شخصية بل اسماء مقامات في الجندية، فترتان يراد به القائد العام في الجيش وقد ورد مرات آثارهم بهذا المعنى. وربساريس يراد به الخصيان أو رئيس الحرم.وربشاقا معناه رئيس كبير في الجيش. وقال سكردر: إن الكلمة منحوتة من لفظة راب ومعناها العظيم والكبير ولفظة شاق أو ساك ومعناها الرأس والرئيس. ولما بلغ هؤلاء القواد إلى أورشليم

أرسل حزقيا ثلاثة رجال من حاشيته» فقال لهم ربشاقا: قولوا لحزقيا هكذا يقول الملك الكبير ملك آشور ما هذا الإتكال الذي اتكلت قد قلت ليس إلا كلام شفتين لي مشورة واقتدار على الحرب والآن فعلى بمن اتكلت حتى تمردت عليَّ انك اتكلت على عكاز هذه القصبة المرضوضة على مصر التي من اتكأ عليها نشبت في كفه وثقبتها. هكذا فرعون ملك مصر لجميع الذين يتكلون عليه... والآن الحم القتال مع سيدي ملك آشور وأنا أقدم لك ألفي فرس ان استطعت أن تجد لها فرساناً. وأنّى لك أن تردَّ وجه قائد واحد من عبيد سيدي الصغار وتتكل على مصر لأجل مراكب وفرسان. والآن أتراني بمعزل عن الرب صعدت إلى هذا المكان لأدمره. الرب قال لي: اصعد على هذه الأرض واخربها» فقال له رجال حزقيا الملك كلم عبيدك باللغة الآرامية فإننا نفهمها ولا تكلمنا باليهودية (العبرانية) على مسامع الشعب القائمين على السور. فقال لهم ربشاقا: «ألعله إلى سيدك وإليك بعثني سيدي لأقول هذا الكلام أليس إلى الرجال القائمين على السور» ليدركوا شر العاقبة ويظهر من ذلك أن عمال الدول كانوا في تلك الأيام يتعلمون بلغات غيرهم كما في أيامنا، واللغتان الآرامية والعبرانية اختان من أصل واحد أو اشتقت احداهما من الأخرى. ثم وقف ربشاقا ونادى بصوت عظيم باليهودية محذراً الشعب من أن يسمعوا لحزقيا، بأن يتكلوا على الرب لأن الرب لا ينجيهم وقال: «ألعل آلهة الأمم أنقذوا كل واحدٍ أرضه من يد آشور أين إله حماه وأرفاد أين إله سفروائيم وهيناع وعوة (مر الكلام في مواقع هذه المدن) ألعلهما نجيا السامرة من يدي، وطلب إليهم أن يعقدوا صلحاً مع ملك آشور فيأخذهم إلى مثل أرضهم أرض حنطة وخمر وكروم وزيت وعسل. فسكت الشعب ولم يجب ربشاقا بكلمة وسمع الملك فمزق ثيابه ولبس مسحاً ودخل بيت الرب وأرسل يخبر أشعيا بما كان من الضيق والزجر والتجديف على الرب. فأجابه أشعيا مشجعاً إياه أن لا يخاف تهديد ملك آشور ولا يبالي بتجديف قواده على الرب.

أما قواد سنحاريب فلما يئسوا من استسلام حزقيا وأهل أورشليم إليهم، عادوا إلى ملكهم ليسألوه عما يشاء فوجدوه قد رحل من لاكيش، ويقاتل أهل لبنه ولم يتعين موقع هذه المدينة إلى اليوم، والراجح أنه كان في الشمال الغربي من بيت جبرين وفي الشمال الشرقي من لاكيش في المحل المسمى الآن تل الصافي (فيكورو مجلد ٤ صفحة ٢٣٤ من الكتاب والاكتشافات). ثم قيل لسنحاريب أن ترهاقة

ملك كوش (أي ملك الحبشة) قد خرج ليقاتله فلئلا يتقوى حزقيا إذا بلغته هذه الأخبار أرسل إليه رسلاً، ورسالة يعيد فيها تهديده وتذكيره بما صنع هو وأسلافه بالقبائل التي أبت الخضوع لهم، ولم تنجهم آلهتهم فأخذ حزقيا الرسالة وقرأها وصعد إلى بيت الرب، وبسطها قدامه مصلياً خاشعاً إليه ليخلصه وشعبه من يد سنحاريب.

فأرسل أشعيا النبي يقول للملك من قبل الرب انه سمع صلاته وأنّه سينتقم من سنحاريب الذي ترفع، وجدف على الرب قائلاً إنه بكثرة مركباته صعد إلى قمم الجبال، وأواخر لبنان قاطعاً أرفع ارزه وخيار سروه، وداخلاً المنزل في أقصاه وغابة كرمله، وأنه سيجعل خزامة في أنفه وشكيمة في شفتيه، ويرده في الطريق التي جاء منها وجعل النبي للملك علامة لهم في تلك السنة يأكلون زريعة، لأن عساكر سنحاريب كانت أخربت البلاد. وقطعت أشجارها وفي السنة الثانية يأكلون خلفة لأنها سنة سبتية لا يباحون أن يزرعوا ويأكلون ثمارها لاستتباب الراحة. وحقق له من قبل الرب أن سنحاريب لا يدخل أورشليم ولا يرمي إليها سهماً ولا ينصب عليها مترسة، وكان في تلك الليلة أن خرج ملك الرب وقتل من جيش آشور مئة ألف وخمسة وثمانين ألفاً، فاضطر سنحاريب أن يقفل راجعاً إلى نينوى ويقيم فيها. وفيما هو ساجد في بيت نصروك الهه قتله أدرملك وشرآصار ابناه بالسيف وهربا إلى أرض أراراط (أي أرمينية)، وملك آسرحدون ابنه مكانه. فهذه خلاصة ما جاء في الكتاب (ملوك ٤ فصل ١٨ و ١٩ وفي سفر أخبار الأيام الثاني فصل ٣٢). قال بعض مفسري الكتاب إنَّ قتل جنود سنحاريب كان بوباء أرسله الله عليهم، وقال آخرون إنَّ الرب أوهمهم أن الأعداء أدركوهم فاقتتلوا وقتل بعضهم بعضاً.

ودونك ما جاء في آثار سنحاريب مصداقاً لقول الكتاب فقد كتب سنحاريب أخبار حملته هذه في صفيحته ذات الأعمدة أو السطوح الستة المعروفة بصفيحة تيلور. وذكر في العمود الثاني منها أخبار ما صنعه في صور وصيدا وعكا وغيرها من مدن فينيقية وبلاد العمونيين والموآبيين والأدوميين. وقد ترجمنا كلامه فيها في عد ١٢٣ عند كلامنا في الفينيقيين ونتم هنا ترجمة باقي كلامه: «وأما زدقا ملك عسقلون فلم يخضع عنقه لنيري فأخذت الهة بيت أبيه. وقبضت عليه وجلوته وامرأته وبنيه وبناته وإخوته، وأسرة بيت أبيه إلى آشور، وأقمت سرلوداري بن روكبتي ملكهم القديم والياً على شعب عسقلون. وفرضت عليه جزية بياناً لخضوعه

لعظمتي وأخلص في الطاعة لي. وتتبعت غزوتي فمشيت على بيت داغون (المعروفة الآن بيت دجن أو دجان بين اللد وبينه اعلام الأماكن وكاران مجلد ١ في اليهودية صفحة ٣١). ويوبا (يافا) وبني برق (مدينة في نصيب سبط دان ورد ذكرها في سفر يشوع فصل ١٩ عد ٤٥). وحازور (المعروفة اليوم بيازور أو ياسور في أنحاء عسقلان) (كاران مجلد ٢ في اليهودية صفحة ٦٧) وأمَّا مدن زدقا (ملك عسقلان) الذي أبى الطاعة لي فافتتحتها وأخذت سكانها أسرى، وأمَّا روساء أمكرونا (الصحيح أنَّها عفرون وهي المسماة في أيامنا عاقر وقد مر الكلام فيها) ووجهاؤها وشعبها الذين كانوا قد كبلوا ملكهم بادي بالحديد لأنَّه أخلص في الطاعة والأمانة لآشور وأسلموه إلى حزقيا هو يهوداي (أي إلى حزقيا ملك يهوذا). فألقاه في السجن. أولئك تولى الرعب قلوبهم وأتى لإنجادهم ملوك مصر وعساكر ملوك ملوحي (بلاد الحبشة أو مصر السفلى)، ومركباتهم وخيولهم، وقد حشدوا جيوشاً لا عداد لها، وصفوا صفوفهم لإيقاد نار الحرب عليَّ تجاه مدينة التاقو[1] وهيجوا جنودهم للقتال، أما أنا فاتكلت على آشور سيدي وحاربتهم وظهرت عليهم وقبضت يدي نفسها على رئيس مركبات مصر وعلى بنيه وعلى رئيس مركبات ملوك ملوحي، وأخذتهم أحياء في معمعة الحرب وضربت مدينة التاقور وتمنه (وهي تبنة الآن) وفتحتهما وغنمت ما كان فيهما».

وقال في العمود الثاني: «زحفت إلى مدينة أمكرونا (عقرون) فقبضت على الرؤساء والوجهاء الذين تسببوا في الثورة وفتكت بهم، ووضعت جثثهم بعضها فوق بعض على أسوار المدينة. وأخذت من ظلم أو اعتدى من سكان المدينة أسرى، وأمرت باستبقاء باقي السكان الذين لم يشتركوا في العصاوة، ولم يقدموا على شيء يؤاخذون به. وأما بادي ملكهم فأخرجته من وسط أورشليمو (أورشليم). واجلسته على عرشه وفرضت عليه شيئاً من الجزية بياناً لسيادتي. وأما حزقيا ملك يهوذا الذي أبى الخضوع لي فأخذت ستاً وأربعين من مدنه المحصنة عدا القرى والمزارع التي لا تعد بعد أن حاربتها بالبتبوس (أداة للحرب غير معروفة)... وأخذت منهم مئتي ألف ومئة وخمسين نفساً رجالاً ونساءً كباراً وصغاراً. وغنمت خيلاً

(١) يظهر أنّ هذه المدينة هي التقية التي ورد ذكرها في سفر يشوع (فصل١٩ عد٤٤) بين مدن سبط دان وقال فيكورو (مجلد ٤ صفحة ٣٠٨ من الكتاب والإكتشافات) إنه لم يعين أحد الجغرافيين موقعها ويظهر من هذا الأثر الأشوري إنها كانت في ناحية عاقر الان في الطريق على شاطي البحر

وبغالاً وحميراً وجمالاً وبقراً وغنماً لا عداد لها. وهو نفسه (اي حزقيا) أمسى محبوساً كعصفور في قفص في أورشليم عاصمة ملكه، وأقام أبراجاً حولها ومنع خروج الناس من بابها الكبير، فأخذت من وسط مملكته المدن التي جلوت سكانها وسلمت هذه المدن إلى ميتنتي ملك أشدود وبادي ملك امكرونا (عقرون). واسميبيل ملك غزة فانقصت مملكته وزدت على جزيتهم القديمة ان يؤخذ قسم من حاصلاتهم كل سنة بياناً لخضوعهم لسلطنتي. وهو حزقيا أخذ فيه الرعب كل مأخذ من شدة سطوتي كما تولى الجزع العرب وجنوده، والشعب الذين كان حشدهم للمدافعة عن أورشليم عاصمة ملكه. فأدّى إليَّ جزية ثلاثين قنطاراً من الذهب وثماني مئة قنطار من الفضة والمعادن الثمينة... ومن العاج لعمل عرش، ومن جلود البقر وقرون الثيران، ومن خشب الكال (لا يعرف ما هو) والأبنوس فتلك كنوز ثمينة. وقد أرسل إليَّ إلى نينوى عاصمة سلطنتي بناته ونساء قصره ومغنيه ومغنياته. وبعث إليَّ وفده لإداء جزيته وإبداء خضوعه». وفي أثر آخر لسنحاريب معروف بصفيحة القسطنطينية خلاصة أخبار هذه الأحداث بأوجز عبارة: «أما لولى ملك صيدون فأخذت ملكه وأقمت توبعل على عرشه، وفرضت عليه جزية ورغمت على الخضوع لسلطتي الإقليم الفسيح أرض يهوذا وملكها حزقيا». وفي المتحف البريطاني أثر آخر منبئ بهذه الأحداث قل ما يختلف عما رويناه، وفيه صفيحة نقش عليها سنحاريب صورة حصاره لمدينة في فلسطين تمثل وضعه جثث القتلى بعضها فوق بعض على الأسوار وسوقه أهلها أسرى طبق كلامه الذي رويناه.

فمن تبصر في ما كتبه سنحاريب وما ورد في الكتاب ألفى الروايتين اتفقتا في أمور عديدة حتى في أسماء نحوِ من ثلاثين مدينة، بل لايكاد يظهر فرق في الأخبار المختصة ببني إسرائيل إلّا في أمرين أحدهما إنخذال سنحاريب بقتل جنوده بأمر الرب. وهذا لم يكن لسنحاريب أن يذكره لئلا يخلد ذكر انخذاله وحذا في ذلك حذو غيره من الغزاة المصريين والآشوريين. وثانيهما جعله قناطير الفضة التي قدمها له حزقيا ثماني مئة قنطار. وقال الكتاب إنَّها ثلاث مئة قنطار ولهذا الاختلاف وجه وهو أنَّ قنطار الفضة عند العبرانيين كان يساوي قنطارين وثلثي القنطار عند البابليين، فالثلاث مئة قنطار التي ذكرها الكتاب كانت تساوي عند الآشوريين ثماني مئة قنطار فلا خلاف.

وقد صدق في ما قال أنّه ضيّق على حزقيا وجعله كعصفور في قفص،

والكتاب أشار إلى ذلك لكنه لم يقل أنَّه كسر هذا القفص، وأخذ حزقيا منه بل قال إنَّ هذا القفص أصبح حصناً حصيناً بوجهه، وأنَّ حزقيا بنى حوله أبراجاً أخرى، وكلامه قاضٍ عليه أنَّه لم يعتمد مضايقة حزقيا، وأخذ الجزية منه فقط بل أن ينتزع ملكه منه ويولي آخر عليه كما فعل في صيدا وعسقلون وغيرهما. وجل ما قاله إنَّه أخذ بعض مدنه وأكرهه على تخلية سبيل بادي ملك عقرون، فغازٍ جبار مثله وجنود مظفرة كجنوده. وأخذ كل البلاد المحيطة بأورشليم من كل صوب وأوقعوا الرعب في قلوب سكان سورية أجمعين، لم يكونوا ليعفوا كرماً عن فتح أورشليم وهي جل الغرض من حملتهم، ولم يكن لحزقيا ومن حشد في أورشليم من القوة البشرية ما يكفي لرد غارة مثل هذه الجحافل الظافرة، فلا بد إذاً من أن كان انتكاصهم عن أورشليم بقوة غير بشرية، وبالغ سنحاريب أو كذب بقوله إنَّ حزقيا أرسل له الجزية مع وفدٍ إلى نينوى بعد الحرب. والصحيح أنّ حزقيا أرسل له ذلك وهو حال في لاكيش، وقبل أن يرسل قواد جيشه لتهديد حزقيا في أورشليم.



وهذا ظاهر لا من الكتاب وحده بل مما كتب تحت تمثاله المذكور آنفاً، وهو «سنحاريب ملك قبائل آشور جالس على عرش رفيع وتقدَّم أمامه التقادم في لاكيش». وسمات الجاثين أمامه يقدمون التقادم وهيئاتهم تبين أنَّهم يهود حقاً.

ولنا في آثار آشورية أخرى ما يستلمح منه انخذال سنحاريب وذعره بعد حملته على حزقيا تصديقاً لقول الكتاب. فقد تبيَّن من تلك الآثار أنّ العيلاميين سطوا كثيراً في تلك المدة على تخوم آشور الجنوبية وأنّى كان لهم أن يتجاسروا على مثل ذلك لولا عود سنحاريب مدحوراً من اليهودية.

وقد حقَّق أوبر في مذكرات قدمها لجمعية الخطوط القديمة في لندرا سنة ١٨٦٩ م نقلاً عن آثار آشورية أنّ سنحاريب لم يعد إلى سورية بعد انخذاله مع بقائه في الملك بعد ذلك الإنخذال ثماني عشرة سنة، مع أنّ شرفه وشراسة خلقه كانا يحملانه على ذلك، فلم يكفَّه عنه إلّا ذعره من إله أورشليم. وقد وجد في حطام المؤرخين القدماء ما يثبت قول الكتاب في قتل جنود سنحاريب، فروى يوسيفوس (في ك ١٠ فصل ٢ من تاريخ اليهود) فقرة من كلام باروز الذي كتب تاريخ الكلدان قال فيها: «إنَّ سنحاريب وجد بعد عوده من مصر أنّ عسكره باد منه مئة وخمسة وثمانون ألفاً بوباء أنزله الله بهم في الليلة الأولى بعد أخذهم في حصار أورشليم بقيادة ربشاقا. فتولاه الرعب من أن يباد باقي جنوده فعاد مسرعاً إلى نينوى عاصمة ملكه، وبعد مدة قتله ابناه ادرملك وسلنار في هيكل آراك إلهه فساء الشعب عملهما. وطردوهما فهربا إلى أرمينيا وخلفه ابنه الأصغر أسرحدون» ولا حاجة إلى القول بأنَّ هذه الفقرة ناطقة بمطابقتها لنص الكتاب. وروى هيرودت أبو التاريخ (في كتابه الثاني صفحة ١٤١ من طبعة سنة ١٨٠٢م: « إنَّ سنحاريب ملك العرب والآشوريين عزم أن يحارب مصر بعسكر جرار، فلم يشأ رجال الحرب أن يتجنَّدوا لوطنهم. وارتبك شاتوس الحبر (حاكم مصر حينئذٍ) واعتزل في الهيكل باكياً أمام تمثال الإله من جرى الحال التعيسة المقبلة عليه. وفيما هو ينتحب نام واعتقد أنَّه يرى الإله ظهر له مشجعاً ومحققاً أنَّه إذا مشى لمناصبة العرب فلا يحل به سوء، وإنَّ الإله نفسه يكون له منجداً فاكسبته الرؤيا ثقة وثقى، فأخذ شاتوس من قومه كل من أراد خيراً ومضى بهم فحل في بالوز (فرما الآن طالع عد ١٠٠) التي هي مفتاح مصر، ولم يكن جنوده إلّا من التجار والعملة والسوقة ولم يصحبه أحد من المحنكين بالحرب، وعند وصوله بعسكره هذا إلى بالوس ظهرت فيران بكثرة

عجيبة في معسكر الأعداء. فقرضت أوتار آلات حربهم فأصبح العرب أعازل لا سلاح لهم. فانهزموا وأباد المصريون أكثرهم ويشاهد اليوم في هيكل فلكان (في مصر) تمثال من حجر يمثل هذا الملك وعلى يده فارة كتب عليها: «تعلم أياً كنت عند نظرك إليّ أن تحترم الآلهة» انتهى ما كتبه هيرودت نقلاً عن كهنة مصر بعد نحو من ثلاثة قرون من أيام الواقعة، وهو على مخالفته لنص الكتاب في بعض أحواله لا ينكران مسنده. ما رواه الكتاب عما أصاب عسكر سنحاريب انتحله المصريون وعزوه إلى قوة آلهتهم فكانت الرواية مشوشة والحدث واحد.

وقد روى الكتاب أنّ سنحاريب «وفيما هو ساجد في بيت نصروك إلهه قتله أدرملك وسرآصر أبناه». وقد جاءت الآثار الآشورية محققة أنّ نصروك كان معبود سنحاريب فقد جاء في أحد خطوطه المسمارية: «بالآذان المفتوحة التي وهبها لي نصروك». وهذا يبين لنا لماذا أضاف الكتاب نصروك إلى ضمير عائد لسنحاريب بقوله: «نصروك الهه» وقد فسر سكردر نصروك بمعنى موزع النعم أو الوهاب، وفسّر أوبر الكلمة بمعنى من يشدِّد عقود الزواج. ولم تصرح الخطوط المسمارية بمقتل سنحاريب ولعله لفظاعة قتل الابنين أباهما. على أنّ في موجز تاريخ باروز وفي التاريخ البابلي رواية مقتله كما رواها الكتاب فقد جاء في التاريخ البابلي: «في ٢٠ من شهر تيبت قتل سنحاريب ملك آشور ابنه في ثورة وكان سنحاريب ملك في آشور أربعاً وعشرين سنة» (رواه أوبر عن التاريخ البابلي الكائن في المتحف البريطاني). وفي موجز تاريخ باروز اسم القاتلين، وان بابدال بعض الحروف في اسم أحدهما كما رأيت آنفاً في فقرته. زعم بعضهم إنَّ سنحاريب لم يعش إلّا قليلاً بعد عوده من فلسطين إلى نينوى، واحتجوا له بما جاء في سفر طوبيا (فصل ١ عد ٢١ وما يليه) «ولما قفل الملك سنحاريب من أرض يهوذا هارباً من الضربة التي حاقه الله بها بسبب تجديفه. وطفق لحنقه يقتل كثيرين من بني إسرائيل كان طوبيا يدفن أجسادهم فنمى ذلك إلى الملك فأمر بقتله. وضبط جميع ما له فهرب طوبيا بولده وزوجته عارياً واختبأ لأن كثيرين كانوا يحبونه، وكان بعد خمسة وأربعين يوماً ان قتل الملك ابناه فعاد طوبيا إلى منزله ورد عليه كل ماله». على أنّه قد تبين من الخطوط المسمارية ان سنحاريب عاش بعد عوده من فلسطين إلى نينوى ثماني عشرة أو تسع عشرة سنة كما مرّ. وعليه فالخمسة والأربعون يوماً التي ورد ذكرها في سفر طوبيا يحسب بدؤها من يوم أمر سنحاريب بقتل طوبيا لا من يوم مآبه من فلسطين.

وبقي ان نقول شيئاً في ترهاقة الذي سماه الكتاب ملك كوش أي الحبشة فهو الثالث من الدولة الحبشية التي تولت مصر، ولم يكن في بدء أمره ملكاً على مصر بل على الحبشة، لأنّه عد مصر بين البلاد التي افتتحها في خطوطه التي نقشها على جدار هيكل تاب (طيبة). وقال روجه: (في كلامه على آثار هذا الملك صفحة ١٦) انه قد كتبت تحت تمثاله الكائن الآن في متحف القاهرة اسماء الشعوب الذين استظهر عليهم وهم الساسو أي العرب. والحاثا أي الحثيون والأرواديون والكالتي أي الفينيقيون وآشور عدوه خاصة. وقال إنَّه يظهر ان حرب ترهاقة مع سنحاريب كانت قبل تبوئِه عرش مصر لأنّه لم يلِ مصر إلّا سنة ٦٩٢ ق.م. كما يظهر من الآثار المصرية ويلزم بمقتضاها ان تكون حملته على سنحاريب سنة ٧٠١ق.م طبق ما جاء في الآثار الآشورية عن حملة سنحاريب على سورية وذلك مصداق لتسمية الكتاب ترهاقة ملك كوش وعدم تسميته بفرعون.

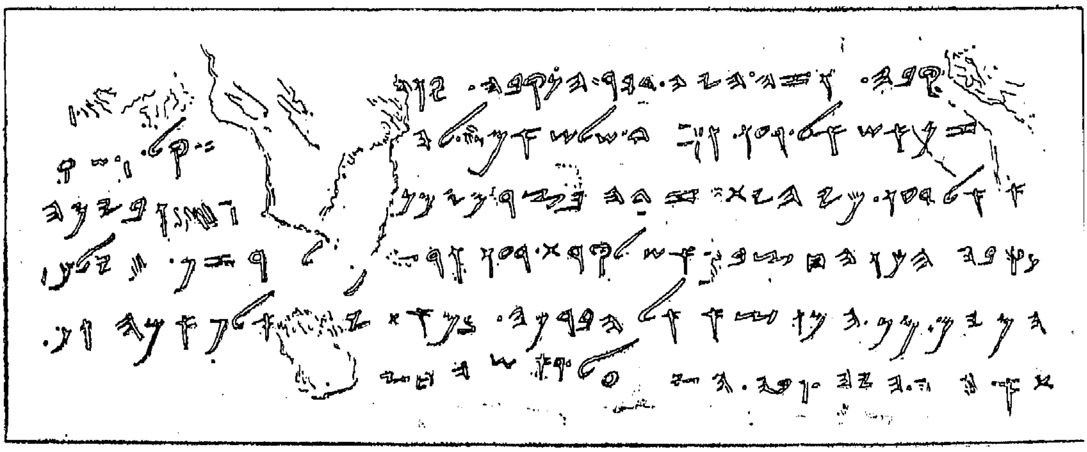
عد ٣٣٠

اجراء حزقيا الماء إلى أورشليم ووفاته

جاء في سفر الملوك الرابع (فصل ٢٠ عد ٢٠) «وبقية أخبار حزقيا وكل بأسه وانشاؤه البركة والقناة وادخاله الماء إلى المدينة مكتوبة في سفر أخبار الأيام». وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٢ عد ٢ وما يليه): «فلما رأى حزقيا ان سنحاريب قد وفد قاصِداً محاربة أورشليم عقد مشورة مع رؤسائه وجبابرته في سد مياه العيون التي في خارج المدينة، فوافقوه فاجتمع شعب كثير وسدوا جميع العيون والنهر الفائض في وسط الأرض قائلين لِمَ يأتي ملوك آشور ويجدون مياهاً غزيرة؟» إلى ان قال (في عد ٣٨): «وحزقيا هو الذي سد مجرى الماء الأعلى في جيحون، واجراه أسفل إلى غربي مدينة داود». واليك الاكتشاف المهم الذي قيضه الله في هذا العصر.

إنَّ شباناً كانوا في صيف سنة ١٨٨٠ م يلعبون في بركة شيلوحا خائضين الماء في القناة الموصلة الماء إليها فسقط أحدهم في الماء، وشعر بعلامات كحروف منقوشة في الجانب الجنوبي من القناة الصخرية، وكان الشاب تلميذاً لمهندس جرماني مقيم في أورشليم اسمه شيك، فقص على استاذه ما رآه فمضى إلى هناك

وأجهد نفسه في أخذ مثال لتلك الحروف وعرضه على أهل العلم بالآثار القديمة. ثم زار سايس وكندر وغيرهما من العلماء الجوّالين محل الاكتشاف، فظهر لهم ان الماء جارٍ من الينبوع المعروف اليوم بعين العذراء في خارج أورشليم. وفتحت له قناة في الصخر الصلد لإجرائه إلى داخل المدينة التي كانت وقتئذٍ ممتدة إلى بركة شيلوحا، والقناة تزيد ٥٢٨ متراً على ما كان يلزم ان تكون لو وجد يومئذٍ مهندسو عصرنا، إذ فيها تعاريج كثيرة لم تكن لازمة. أما الكتابة فهي باللغة العبرانية لكنها كتبت بالحروف الفينيقية وقد ترجمها كثيرون ونحن نثبتها هنا أخذاً عن ترجمة فيكورو (في الكتاب والاكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٢٢٧ طبعة ٥) «النقر. هوذا تاريخ النقر لما كان العملة ينقر أحدهم بالمنقار قبالة رفيقه، وقد بقيت ثلاثة أذرع (لم تنقر) سمع صوت رجل ينادي رفيقه لأنه حصل غلط في نقر الصخر من الجانب الأيمن. وفي يوم الفتح كان العملة يضربون منقاراً (بيك) إلى منقار الواحد قبالة صاحبه. فجرت المياه من الينبوع إلى البركة في طول الف ومئتي ذراع، وكان ارتفاع الصخر ذراعاً واحدة فوق رؤوس العملة» انتهى. ومما يؤسف عليه ان هذه الخطوط لم تؤرخ ولكن يترجح كثيراً انها كانت في أيام حزقيا، وعليه فتكون مصداقاً لآي الكتاب التي ذكرناها. واليك في جانبه مثالاً لهذه الخطوط عن أصلها.



صورة الكتابة العبرانية المخطوطة على عين شيلوحا في أورشليم

ثم توفي حزقيا وعظّم شعبه الاحتفاء بدفنه، وقبر في مقبرة ملوك يهوذا سنة

٦٩٦ ق.م على ما روى فيكورو في المحل المذكور (صفحة ٢٤٩)، لأنه ملك تسعاً وعشرين سنة. وفي السنة السادسة لملكه خربت السامرة (ملوك ٤ فصل ١٨ عد ١٠) وقد خربت سنة ٧٢١ أو سنة ٧٢٠ فتكون وفاته سنة ٦٩٦ق.م كما مرّ.

عد ٣٣١

منسا بن حزقيا ملك يهوذا

خلف منسا أباه حزقيا على منصة الملك وعمره اثنتا عشرة سنة وملك خمساً وخمسين سنة في أورشليم وقد صنع الشرّ وعبد أصنام الكنعانيين وغيرهم، وأعاد بناء المشارف التي كان أبوه قد محقها، وأقام مذابح للبعل ونصب غابةً كما فعل آحاب. وسجد لجميع جند السماء أي للكواكب والنجوم وعبدها، وبنى لها مذابح في دار بيت الرب. وأقام تمثالاً لعشتاروت وأجاز ابنه في النار تكرمةً لملوك معبود الموآبيين. ورصد الأوقات وتفاءل واستخدم أصحاب جانٍ وعرافين إلى غير ذلك من المعاصي. قال لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه القديم للمشرق صفحة ٢٩٩ طبعة ٩): إنَّ العصبة المناصبة للدين كان حزقيا كبحها لكنه لم يستأصلها فاستحوذت على ابنه الملك الشاب. وحملته على هذه المعاصي وعلى الانتقام من الانبياء ورجال الله، فلم يصغَ لنصائح اشعيا وغيره من الانبياء، وازدرى تهديدهم ووعيدهم بأنَّ الرب جالب على أورشليم ويهوذا شرّاً كل من يسمع به تطنُّ أذناه، وإنه سينزل بأورشليم وملكها ما أنزله بالسامرة وآحاب، ولم يكن تهديد الانبياء إلّا ليزيد منسا حنقاً فسفك دماً ذكياً كثيراً جرداً. ولقد عبّر الكتاب عن كثرته بأنه ملأ أورشليم من الجانب إلى الجانب (ملوك ٤ فصل ٢١).

وقد اتفق تقليد اليهود وأقوال كثير من الآباء والعلماء على أنّ منسا أمات اشعيا منشوراً بمنشار من خشب لزيادة التبريح به. وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٣ عد ١٠): «فكلَّم الرب منسا وشعبه فلم يسمعوا. فجلب الرب عليهم قواد جيش ملك آشور، فأخذوا منسا في الأصفاد وأوثقوه بسلسلتين من نحاس وأخذوه إلى بابل. ولما كان في الضيق التمس وجه الرب إلٰهه... وسمع لتضرعه وردَّه إلى أورشليم إلى ملكه فعلِم منسا أنّ الرب هو الإلٰه». ويظهر من الآيات التالية أنّ منسا بعد عوده إلى ملكه أحسن مسعاه وأزال التماثيل التي كان نصبها

لآلهة الأمم، وهدم المذابح التي كان عملها في بيت الرب. ورمَّم مذبح الرب وذبح عليه ذبائح سلامة وشكر. وأمر يهوذا أن يعبدوا الرب إله إسرائيل إلَّا أنّ الشعب ما زالوا يذبحون على المشارف. ولكن للرب إلههم فلم تكن ثم عبادة وثنية، لكن ذلك مخالف لوصية الرب أن يذبحوا في هيكل أورشليم. وروى يوسيفوس أنَّ منسا استمر على مسعاه الحسن إلى مماته.

قال الأب فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٢٦٥) لا نص في الكتاب أقيم النكير على صحته في هذه الآيات مثل آيات سفر أخبار الأيام التي أنبأنا بأسر منسا ملك يهوذا إلى بابل. وقد حسبها الملحدون محض تخيُّلٍ، وهم محتجين بأن ليس في سفر الملوك خطة تُنبئ بهذا الأسر، وبأنّ التاريخ مثبت إنه لم يكن لملوك آشور في سورية شيء من السؤدد أو السطوة في الحقبة التي بين سنة ٧٠٠ وسنة ٦٥٠ ق.م، والتي كان فيها منسا وقالوا: أنَّى يصدِّق أن ملك آشور يجلو منسا إلى بابل لا إلى نينوى مدينته، وبابل كانت متحفِّزة في كلٌ فرصة للثورة على نينوى. وملكها كان عقد محالفة مع حزقيا أبي منسا على ملك آشور. على أنّ ما لا يريد الملحدون تصديقه تفحمهم بصحبته الآثار الآشورية نفسها قاضية عليهم بالجهل أو المكر. فقد روينا في كلامنا في الفينيقيين (عد ١٢٤) ما كتبه اسرحدون على إحدى صفائحه من أنه ضرب صيدا وأهلك سكانها ودمَّر أسوارها ومنازلها وقبض على ملكها وجلا جمّاً غفيراً من سكانها إلى آشور. وقد عدَّ في صفيحة أخرى الملوك الخاضعين له في سورية فقال: «بعل ملك صور منساملك يهوذا قدموه ملك أدوم» إلى غيرهم وكتب ابنه آشور بانيبال في حملته الأولى على مصر (اسطوانة اولى عمود أول على ما ترجم سميت في تاريخ هذا الملك صفحة ١٧): «سرتُ إلى مصر والحبشة فالتقاني في طريق غزوتي إثنان وعشرون ملكاً يملكون على شاطئ البحر وفي وسطه (كقبرص)، وجميعهم يؤدون الجزية إليَّ، ومثلوا بحضرتي وقبَّلوا قدميَّ». وعدَّد (في الأسطوانة الثالثة) أسماء هؤلاء الملوك فكان منهم «بعل ملك صور ومنسا ملك يهوذا» وقال إنَّ سما سوموقين قيل بابل كان ثار عليه وحازبه ملوك فينيقية وفلسطين وحوران وبلاد العرب. ومنهم منسا ملك يهوذا وكان سما سوموقين أخاً لآشور بانيبال وكان نصبه قبلاً في بابل فسوَّلت له نفسه أن ينتزع الملك من يد أخيه الأكبر ويستبد به، فهبَّ آشور بانيبال، لمناصبة أعدائه وكبتهم. ودونك ما كتب (في الاسطوانة الأولى عمود

٢ كما روى سميث في تاريخه صفحة ١٥٤ و ١٥٥): «وسما سوموقين أخي الصغير لم يخلص لي في الطاعة وأثار عليَّ رجال اكَّد (بابل) وبلاد الكلدان، وآرام وشاطئ البحر (يريد البحر المتوسط أي فينيقية وفلسطين مع مملكة يهوذا) من أكابا (علَّه خليج عقبه المعلوم) إلى بابساليمتو (لعلَّ المراد أطراف مصر أو أطراف مملكة آشور) وكان هؤلاء جميعاً يؤدون إليَّ الجزية. ويذلون لي وأومانيكاس الآبق الذي دان عنقه لنير سؤددي وكنتُ ملكته في عيلام وملوك الكوتي (الحثيين)، وسورية والحبشة (يريد مصر والحبشة معاً) الذين كانوا في قبضة يدي بأمر آشور وبتليس (الالهين) فهؤلاء جميعاً ثاروا. وأتمروا معه (أي مع أخيه) عليَّ». وقال في أثرِ آخر (ذكره سميث صفحة ١٦٩): «ثاروا عليَّ (أي من ذكرهم آنفاً) فأخضعتهم كما أمر آشور وبتليس وسائر الآلهة الذين عليهم اتَّكلت وكدنت أعناقهم بنير آشور الذي كانوا خلعوه ونصبت عليهم نواباً... طوع يدي... وفرضت عليهم جزية على أرضهم قدراً معيَّناً لا ينقص منه شيء واجب الأداء لسلطنتي» ولا غرو إن كان منسا من هؤلاء الملوك الذين أذلَّهم آشور بانيبال وقد أخذه قواد جيشه مكبَّلاً بالحديد إلى بابل والوجه في أخذه إلى بابل لا إلى نينوى ظاهر مما مرّ ولا يُخفى إلَّا على أعين الملحدين فآشور بانيبال كان حينئذٍ في بابل مخمداً ثورة أخيه. وأراد أن يظهر للثائرين كيف يجزي من يهوون خلع نيره. ولا حجَّة للملحدين بخلو سفر الملوك الرابع عن خبر أسر منسا مع إثباته في سفر أخبار الأيام الثاني، فإنَّ كثيراً من الأحداث ذكرت في أسفار الملوك أو في سفرَي أخبار الأيام ولم تذكر في كليهما معاً. وقد إستشكل الملحدون أن يأخذ آشور بانيبال منسا مكبَّلاً بالحديد ثم يعيده إلى عرشه. ولا إشكال فإنَّ آشور بانيبال نفسه صنع كذلك مع نكو أو نخو ملك سايس في مصر. وذكر التكبيل بالحديد مستفاض في تواريخهم. فقد كتب آشور بانيبال في إحدى اسطواناته (ذكره سميث في تاريخه صفحة ٤٣) «سر لوداري ملك زيهينو (لعلَّهما فرما في مصر) ونخو ملك منف قبضوا عليهما وأوثقوهما بسلاسل من حديد، وكبَّلوا أيديهم وأرجلهم بقيود من حديد» وقال (في اسطوانته الأولى عمود ٣) دومان وسمكون ملكا كمبول عدوا سلطنتي غللت ايديهما وارجلهما بسلاسل متينة من حديد» فكلُّ ما مرّ يبيِّن ما أبطل مزاعم الملحدين، وما يأتي يزيد في إثبات آي الكتاب وتتوفر به الفوائد التاريخية.

عد ٣٣٢

حملات اسرحدون وآشور بانيبال على سورية ومصر في عهد منسا ملك يهوذا

لما كان منسا ملك يهوذا قد استمر على منصّة الملك خمساً وخمسين سنة كانت حملات اسرحدون وآشور بانيبال على سورية ومصر في أيامه. وآثرنا أن نثبت أخبار هذه الحملات لما فيها من الفوائد في تاريخ سورية ومن البيان لآيات الكتاب. فقد جاء في الفصل التاسع عشر من سفر الملوك الرابع (عد ٣٧) إنَّ سنحاريب قتله ابناه ادرملك وشرآصر وملك اسرحدون ابنه مكانه. وقد كشف عن فلذة من أجر في نينوى كتب عليها آشور آح ايدين (هو أصل اسم اسرحدون وتأويله آشور أعطى أخاً) ملك بلاد آشور ابن سنحاريب ملك آشور». وعن الآثار الآشورية إنه خلف أباه سنة ٦٨١ ق.م. وبقي على منصّة الملك إلى سنة ٦٦٨ أي إنه ملك ثلاث عشرة سنة. ويظهر أنه لم يكن في نينوى عندما قتل أخواه أباهما فنازعهما الملك. وكانت بينهم حرب عوان على ضفّة الفرات العليا فاستظهر عليهما واستبدَّ بالملك، وصرف عزيمته أولاً في استتباب الراحة في ما بين النهرين، وفي استرداد الأقاليم التي خسرها أبوه بعد انتكاصه مدحوراً من فلسطين. وكان أحد ابناء مروداخ بلادان إدَّعى الاستقلال في بابل وشاطئ الخليج العجمي. فزحف إليه اسرحدون بجيوشه ففرَّ مذعوراً، ولجأ إلى ملك عيلام فقتله تحرزاً من حنق اسرحدون عليه. وكان له أخ يئس من النجاح فوفد طائعاً إلى نينوى فعفا عنه اسرحدون، وأمَّره على البلاد الواقعة على خليج العجم (لانرمان مجلد ٤ من تاريخه القديم صفحة ٣٢٤). وبعد أن أمَّن اسرحدون ما بين النهرين حمل بجيوشه على سورية لأنّه بلغه أنّ ملك صيدا وغيره عصوا عليه. فدمَّر صيدا واستحوذ على غيرها من مدن سورية كما ذكرنا في تاريخ الفينيقيين (عد ١٢٤) نقلاً عن آثاره، وجلا قوماً من السوريين إلى آشور، وقوماً من أنحاء أخرى إلى فلسطين. وهؤلاء هم الذين نراهم قالوا لزربابل ورؤساء الآباء بعد العود من الجلاء: «نحن نبني معكم (الهيكل الجديد) لأننا نطلب إلٰهكم مثلكم، ونحن نذبح له من أيام اسرحدون الذي صيَّرنا إلى هنا» (عزرا فصل ٤ عد ٢).

وكان ترهاقة ملك الحبشة الذي حارب سنحاريب قد تغلَّب على مصر وانبسط

حكمه فيها. وسمّى نفسه ملك الحبشة ومصر. فزحف اسرحدون بجحافله إليه يبغي إنتزاعه من ملكه والولاية على مصر. وعرف ترهاقة بمسيره إليه فأسرع بإرسال جيشه إلى فلسطين تداركاً للنازلة قبل حلولها. فالتقى الجيشان في ضواحي عسقلان على ما يظهر من أحد آثار اسرحدون، فاستظهر ملك آشور على ترهاقة، وشتَّت جنوده واستدرك ملك مصر النجاة بالفرار. فدخل الغازي مصر في طريق دمياط، واستحوذ على منف وتاب (طيبة). وأخذ تماثيل الآلهة والآلهات وملابس الكهنة الثمينة وحُلي نسائهم وارسلها إلى هياكل آشور. وقسم مصر إلى إثنتين وعشرين ولاية وافترض على كلٍّ منها جزية مقدَّرة. وجعل نكو أو نخو الأول ملك سائس رئيساً على هذه الولايات فكان أول ملك من الآشوريين سمى نفسه ملك مصر والحبشة. وكانت هذه الأحداث في سنة ٦٧٢ ق.م. واليك ما كتبه آشور بانيبال ابن اسرحدون في غزوة أبيه هذه: «ترهاقة ملك مصر الذي خذله أبي الذي ولدني اسرحدون ملك آشور وولي بلاده لم يحترم سطوة آشور وإستار وكبار الآلهة أربابنا. واعتمد على قوّته وثار على الملوك والحكّام الذين كان أبي الذي ولدني أقامهم في مصر ليفتك بهم. وينتهب أموالهم ويستحوذ على مصر ودخل منف، وأقام فيها بعد أن كان أبي الذي ولدني أخذها وأضافها إلى تخوم بلاد آشور». وقد كان نخو رئيس حكام مصر سليل أسرة لها حقّ الملك في مصر. فازدلف إلى اسرحدون آملاً أن يكسبه ذلك قوة على ترهاقة الملك الحبشي فتعود ولاية مصر يوماً إليه وكان بينه وبين ترهاقة وقائع حققت لنا نبوّة اشعيا حيث قال (فصل ١٩ عد ٢ وما يليه):

«وأسلح مصر على مصر فيقاتل الإنسان أخاه والرجل صديقه مدينة مدينة ومملكة مملكة... وادفع إلى يد سيد قاسٍ. وملك ذو عزة يتسلّط عليهم يقول السيد رب الجنود... قد سفه رؤساء صوعن (تانيس عند قدماء المصريين وسان الآن). وغوى رؤساء نوف (منف) وأضل مصر وجوه اسباطها... في ذلك اليوم يكون طريق من مصر إلى آشور فتأتي آشور إلى مصر ومصر إلى آشور» فتمّت نبوّات اشعيا بما مرّ وبما سيأتي عن غزوات آشور بانيبال. وعند عودة اسرحدون من غزوته في مصر مرّ بسورية فالتقاه ملوكها ومنهم منسا ملك يهوذا مبدين أدلّة خضوعهم لسلطته. ونقش مثاله على معبر نهر الكلب بين تماثيل غزاة بلادنا كما مرّ في عد ١٢٤. وقد كتب على صفيحة من أجر: «أنا اسرحدون الملك العظيم الملك القدير ملك القبائل ملك بلاد آشور وسيد بابل ملك سومير وأكّد ملك ملوك مصر

وتيبائس (الصعيد) والحبشة أنا بنيت قصر تربيس لسكنى آشور بانيبال ابن الملك العظيم».

أما آشور بانيبال فكان أبوه اسرحدون أشركه في الملك ثم استبدَّ به بعد وفاته سنة ٦٦٨ق.م وكان محبّاً للعلم والعلماء حبه للحرب ورجاله وقد ترك آثاراً عديدة مهمة وهو الذي جعل العلماء يضعون الأصول النحوية للغتهم والنشرات التاريخية والمراقبات الفلكية. وأكثر الكتب الخزفية التي وُجدت في المكتبة التي كشف عنها لايرد وغيره في نينوى وقدمنا الإشارة إليها في صدر هذا الكتاب. ومنذ استبداده بالملك اضطرَّ إلى إيقاد نار الحرب على مصر، فإنَّ ترهاقة عاد بعسكر جرّار إلى مصر واستحوذ ثانية على تاب ومنف فجيَّش آشور بانيبال جيوشه وهبَّ مسرعاً إلى مصر. ومرَّ بسورية فالتقاه ملوكها وملوك قبرص وكانوا إثنين وعشرين ملكاً منهم منسا ملك يهوذا كما مرَّ. وقدموا له الجزى والهدايا فسار لا يلوي إلى أن التقى بجيوش ترهاقة عند كربانيت فضربهم. وتفرَّقوا شذر مذر. وفرَّ ترهاقة فوطَّد آشور بانيبال سلطته في مصر وزاد على حاميته فيها وعاد إلى نينوى. فتحالف حكام مصر الوطنيون ونخو رئيسهم على خلع ولاية آشور عنهم، واستدعوا ترهاقة لإنجادهم، فلبَّى دعوتهم على أنهم كانوا من الخاسرين، لأنَّ الحامية الآشوريين تقوَّوا عليهم. وقبضوا على نخو وحاكمَين آخرَين وأرسلوهم مكبلين بالحديد إلى نينوى، ولم ينكف ترهاقة عن القتال وافتتح مرة أخرى تاب ومنف، لكنه على ما يقال حلم حلماً وقَّفه عن مسيره وعاد إلى الحبشة ومات.

وأما آشور بانيبال فأفرط في الحلم وردَّ نخو إلى ولايته في مصر مكرماً معززاً، وأتحفه بمِنَح وهدايا نفيسة فكان ذلك وبالاً، لأنَّ المصريين ما عتموا أن عادوا ثائرين على الآشوريين. فإنَّ رجلاً اسمه أُردمان ابن امرأة ترهاقة أو ابنه على روايةٍ أخرى وثب على تاب فاستحوذ عليها، وظفر بالآشوريين على أسوار منف وقبض على نخو فقتله. فاستشاط آشور بانيبال غيظاً وآلى أن يقرض ملوك الحبشة والمصريين ويقطع دابرهم كيلا يبقى منهم من يجترئ على العدو إلى مطامعهم. وزحف بجيوشه الجرارة إلى مصر ماراً بسورية فلم يلقَ فيها إلّا التجلَّة والخضوع. وإليك ما كتبه في حملته الثانية إلى مصر (اسطوانة ١ عمود ٢ نقلاً عن سميث في الإكتشافات الآشورية صفحة ٣٢٨): «في حملتي الثانية سيَّرت جوشي إلى مصر والحبشة. ولما علِم أردمان بدنّو غزاتي وإني عبرت تخوم مصر غادر منف وانهزم إلى

تاب لينجو بنفسه. فمثُل أمامي الملوك والرؤساء والحكّام الذين كنت نصبتهم في مصر وقبّلوا قدميّ. فتتبّعت الطريق الذي سلكه أُردمان وانتهيت إلى تاب المدينة الحصينة. ولما رأى دنوَّ جيوشي الظافرة من تاب فرَّ منها إلى كيبكيب (في أطراف الصعيد). فملكت يدي هذه المدينة (تاب) بكل ما فيها خدمةً لآشور وإستار وأخذت منها ذهباً وفضة وحجارة ثمينة، وأثاث قصره وكلَّ ما حواه من ملابس كتان وصوف، وخيولاً عظاماً، وعبيداً ذكوراً وأناثاً. وكانت هناك مسلتان مغشاتان بنقوش بديعة ووزنهما خمسة وعشرون ألف وزنة (أو قنطار). وقد أقيمتا أمام باب هيكل، فانتزعتهما من محلّهما ونقلتهما إلى آشور، فحرزت من تاب غنيمة كبرى لا يعادلها ثمن». وكان افتتاح تاب هذا لسنة ٦٦٤ أو سنة ٦٦٣ ق.م (على ما روى اوبر في مذكرته المار ذكرها).

وقد حمل آشور بانيبال حملة ثالثة على صور وحاصرها سنين إلى أن ظفر بها. وأدّى ملوك سورية الجزية إليه صاغرين كما مرَّ في عد ١٢٥، وله حملات أخرى على غير مصر وسورية لا نحفل بذكرها لأنها خارجة عن غرضنا. على أننا لا نشاء أن يفوت قرّاء كتابنا أنّ الآثار المسمارية المنبئة بحملة آشور بانيبال الثانية على مصر، قد أكسبتنا حلَّ معضلة في الكتاب توفرت وتضاربت بها أقوال مفسريه، وهي إنَّ نحوم النبي تنبّأ على خراب نينوى بكلام فصيح بليغ ولم يؤرِّخ نبوّته، وذكر مدينة سماها نوامون قائلاً إنه نصيب نينوى ما أصابها. فاختلف المفسرون في تاريخ نبوّة نحوم، وفي أي عصر كان هو، وأين هي نوآمون. فذهب نيكوفوروس إلى أنّ نحوم كان في أيام فاقح ملك إسرائيل، وذهب يوسيفوس إلى أنه كان في آخر مدة يواتام. وفي سدر علام ربا (من كتب اليهود) أنه كان في أيام منسا ملك يهوذا إلى غير ذلك من الأقوال، ولم يتّفق المتأخرون على ما اختلف فيه المتقدّمون إلى أن قضت آثار آشور بانيبال في هذا المبحث وحلّت المعضلة. ودونك ما قاله نحوم النبي (فصل ٣ عد ٧ وما يليه) مخاطباً نينوى: «فكلُّ من يراكِ يعرض عنكِ ويقول قد دُمِّرت نينوى فمن يرثي لها ومن أين أطلب لكِ معزّين. هل أنتِ خيرٌ من نوامون الساكنة بين الأنهار (في النص العبراني «في وسط النهر وهو النيل») التي حولها المياه ومترستها البحر وأسوارها المياه. كوش ومصر قوتها ولا نهاية لها وفوط ولوبيم في نصرتك. فهي أيضاً ذهبت إلى الجلاء مسبية وأطفالها أيضاً حُطموا في رأس كلِّ شارع وعلى كرامها ألقوا القرع وجميع عظمائها أوثقوا بالقيود».

فالقديس ايرونيموس ترجم نوامون باسكندرية في الترجمة اللاتينية العامية، وهو لا يجهل أنّ هذه المدينة سُميت اسكندرية نسبةً إلى اسكندر بعد نحوم بقرون، لكنه كان يظنّ أنّ نوامون كانت في المحل الذي بنيت فيه اسكندرية بعد ذلك، إلى أن جاءت آثار آشور بانيبال مصرِّحة بأنَّ نوامون إنما هي تاب عاصمة مصر العليا لأنها سمتها نوا وتُلفظ نو أو نا ونحوم النبي زاد على اسمها اسم معبود أهلها. وهو آمون فصارت نوامون. والمعنى نو مدينة الإله آمون، وليس من يقيم نكيراً على عبادة آمون في تاب. والأوصاف التي وصف النبي نوامون بها تنطبق خير إنطباق على تاب. فإنها كانت يومئذٍ المدينة الوحيدة القائمة في وسط المياه لبنائها على ضفتَي النيل. وهي التي كان بنصرتها كوش أي الأحباش واردمان الملك الحبشي. وكان فوط أي المصريون ولوبيم أي الليبيون في جيوش اردمان المذكور الذي انتصر عليه آشور بانيبال كما رأيت في كلامه. وذكر اوبر أثراً آخر لهذا الملك ومما قاله فيه إنَّ جنوده «تولّوا هذه المدينة برمَّتها ودمَّروها تدمير طوفانٍ مقتلع». وكل ذلك مصداق لكلام نحوم. وقد مرَّ أنّ حملة آشور بانيبال هذه على تاب كانت سنة ٦٦٤ أو سنة ٦٦٣ ق.م. وعليه فنحوم كتب نبوَّته بعيد ذلك وهو كان في أيام منسا ملك يهوذا (ملخَّص عن الكتاب والاكتشافات الحديثة لفيكورو مجلد ٤ صفحة ٢٥٩).

عد ٣٣٣

قتل يهوديت اليفانا في أيام منسا الملك

إنَّ ما ذكره الكتاب في سفر يهوديت برمَّته إنما كان في أيام منسا ملك يهوذا وآشور بانيبال ملك آشور. ويظهر أنّ الأحداث المحكي عنها في هذا السفر جرت بينما كان منسا مجلواً إلى بابل. وهي أحداث تاريخية لا تخيّلية كما وهم بعض الملحدين،ولا رمزية أو نبوية كما زعم بعض العلماء، فنلخِّص في هذا العدد ما ورد في السفر المذكور ونلحقه في العدد التالي بما جاء في الآثار مؤيداً له، وإليك خلاصة هذا السفر. «كان ارفكشاد ملك الماديين أخضع أمماً كثيرة لسلطانه وأنَّ نبوكدنصَّر ملك آشور الذي كان مالكاً على نينوى المدينة العظيمة، حارب أرفكشاد فظفر به. فعظُم نبوكدنصَّر وسمت نفسه فراسل جميع سكان قيليقية ودمشق ولبنان والأمم التي في الكرمل وقيدار وسكان الجليل في صحراء يزرعيل (مرج ابن عامر)

الواسعة. وجميع من في السامرة وعبر الأردن إلى أورشليم وفي جميع أرض يسى إلى حدود الحبشة. فأبى جميعهم (طاعته) إتفاقاً وردّوا الرسل خائبين وطردوهم بلا كرامة. فاستشاط نبوكدنصَّر غضباً وحلف لينتقمنَّ من سكان تلك البلاد (فصل ١). فاستدعى اليفانا قائد جيشه وأمره أن يخرج على جميع ممالك الغرب ولا يشفق على من استهانوا بأوامره فأخذ اليفانا مئة وعشرين ألف راجل، وإثني عشر ألف فارس ولما جاوز تخوم آشور، انتهى إلى جبال انجة العظيمة التي إلى يسار قيليقية. وزحف إلى جميع قلاعهم وتسلَّم كل الحصون وفتح مدينة بلوطة. ونهب جميع بني ترشيش (نرسيس) وبني إسمعيل الذين حيال البرية (ثم حمل اليفانا حملة أخرى على سكان شرقي الفرات أشار الكتاب إليها بقوله) ثم عبر الفرات وأتى إلى ما بين النهرين وقهر جميع ما هناك من المدن المشيَّدة من وادي ممرا (وهو خطأ من النساخ صوابه نهر خابور كما في بعض الترجمات) إلى البحر (خليج العجم). (ثم أرسله ملكه لحملة أخرى على العرب قال الكتاب فيها) واستولى على حدودها من قيليقية إلى تخوم يافت التي إلى الجنوب (من بلاد العرب)، وأسر جميع بني مدين (المراد بهم العرب الرحَّل لأنه جاء في النص اليوناني: «وأحرق خيامهم»). وغنم كلَّ ثروتهم. وبعد ذلك انحدر (من بلاد العرب) إلى صحارى دمشق في أيام الحصاد. وأحرق جميع حقولهم وقطع كلَّ أشجارهم وكرومهم. فوقع رعبه على جميع سكان الأرض (فصل ٢). فأرسل إليه ملوك سورية ولوبية وقيليقية مستسلمين إليه واستقبلوه بالأكاليل والمصابيح راقصين بالطبول والنايات، فلم يمكنهم أن يليِّنوا قساوة قلبه، فإنه دمَّر مدنهم وقطع غاباتهم وأتى الأدوميين وأخذ مدائنهم وأقام هناك ثلاثين يوماً ليجمع كلّ قوة جيشه (فصل ٣).

وسمع بنو إسرائيل فخافوا جدّاً من وجهه وأرسلوا يُعلمون إخوانهم في كلّ جهة. وكتب ألياقيم الحبر (هذا مُشعر بأنَّ ملكهم لم يكن حينئذٍ بينهم بل في بابل) إلى جميع الساكنين قبالة يزرعيل (مرج ابن عامر) وإلى جميع الذين يمكن الغازي أن يجوز في أراضيهم أن يضبطوا مراقي الجبال، ويحفظوا المضايق التي بينها وصرخوا إلى الرب خاشعين بالصوم والصلاة. ولبس الكهنة المسوح وطرحوا الأطفال أمام هيكل الرب (فصل ٤). وعرف اليفانا باستعدادهم للقتال فاستشاط غضباً. واستعلم من رؤساء بني مواب وعمون عن حال بني إسرائيل ومدنهم. فقصَّ عليه احيور قائد بني عمون أخبار بني إسرائيل منذ نشأتهم في ما بين النهرين إلى أيامه.

واختتم كلامه بقوله إن لم يكن الآن لهذا الشعب إثم أمام إلٰههم فلا طاقة لنا بهم لأنَّ إلٰههم يدافع عنهم. فغضب عليه اليفانا وهمَّ رؤساء جيشه بقتله. وأمر اليفانا أن يقبضوا عليه ويسلموه إلى أيدي بني إسرائيل حتى إذا كان ما قاله صحيحاً نجا. وإلَّا أعمل سيفه به فأخذه جنود اليفانا وربطوه على شجرة في قرب معسكر بني إسرائيل الذين حلّوه من وثاقه، وقصّ عليهم ما كان له فعزوه وأكرموه وأقام بينهم وواظبوا هم على الصلاة والخشوع لله (فصل ٥ و ٦).

وزحف اليفانا بعسكره ومن استصحبهم من الأقاليم والمدن. وجاءوا من جانب الجبل إلى القمَّة المشرفة إلى دوتان (المعروفة الآن بتل دوتان في الشمال الغربي من سانور والجنوب الغربي من جنين كاران مجلد ٢ في السامرة صفحة ٢٢٠ وكتاب الأعلام). ومن الموضع المسمى بلما (رجَّح كاران مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٤٧ إنها تسمى اليوم خربة بلعمه على مقربة من دوتان، وكذا في كتاب الأعلام الكتابية) إلى قليمون التي قبالة بزرعيل (وتُعرف الآن بتل كليمون في طرف مرج ابن عامر على طريق عكا كاران مجلد ٢ في السامرة صفحة ٢٤٣). وأقام أرصاداً على الينابيع التي كان أهل مدينة بيت فلوى يستقون منها (وقد أثبت كاران ببراهين عديدة في مجلد ١ في السامرة صفحة ٣٤٦ إنَّ بيت فلوى هي المسماة الآن سانور[1]) آملاً أن يُكره بهذه الوسيلة بني إسرائيل على الإستسلام إليه. فجفَّت مياه الآبار والحياض بأسرها فصرخ الشعب إلى الله خاشعين وهمّوا بأن يستسلموا إلى اليفانا (فصل ٧). وسمعت بهذا امرأة أرملة اسمها يهوديت من سبط رآوبين بديعة الجمال متّقية الله؛ ولم يكن أحد يقول عليها كلمة سوء، فاستدعت إليها

(١) ان العالم ربواسون يذيع في هذه الايام في المجلة الموسومة بمجلة الارض المقدسة فصولاً في تحقيق صحة سفر يهوديت بالاثار الاشورية وقد تكلم في هذه المدن في نشرتها الصادرة في ١٥ حزيران سنة ١٨٩٤ فقال ان بيت فاوى كانت في المحل المسمى اليوم المدينة الطويلة على مقربة من حطّين او قرن حطين في غربي بحيرة طبرية وان دونان لم تكن في المحل المعروف في أيامنا بتل دوتان بل في محل حطين الان وإن بلما إنما هي التي سماها الكتاب إبل بيت معكة وإن هذه لم تكن في نواحي بانياس بل في نواحي بحيرة طبرية وإن قليمون كان موقعها في المحل المعروف واليوم بكفر كاما فقد ذهب إلى أن عسكر اليفانا عبر الاردن في المحل المعروف بجسر بنات يعقوب فجعل مواقع هذه المدن في تلك الجهة بين صفد شمالاً وبحيرة طبرية جنوباً وأقام على كلامه أدلة يضيق هذا المقام عن استقرائها وبيان قدرها.

شيوخ قومها، وذكَّرتهم بآيات الله مع ابنائهم وحرَّضتهم على الاعتصام بالله. وكشفت لهم عن عزمها أن تفعل شيئاً بأمر الله لنجاة شعبه. وسألتهم أن يصلّوا لله ليؤيد ما عزمت عليه، ولا يفصحوا عما قصدت (فصل ٨).

ودخلت يهوديت مخدعها ولبست مسحاً وألقت رماداً على رأسها وخرّت أمام الله خاشعة تستميحه الأيد والعون على خلاص شعبه (فصل ٩). ثم خرجت ودعت وصيفتها ونزعت عنها ثياب أرمالها واستحمَّت وادَّهنت بأطياب نفيسة، ولبست أفخر ملابسها. وتحلَّت بحلاها وحملت جاريتها زق خمر وإناء زيت ودقيقاً وتيناً يابساً وخبزاً وجبناً، وخرجت من باب المدينة منطلقة نحو معسكر العدو، وعند تبلّج النهار لقيتها طلائع الآشوريين وسألوها عن أمرها فقالت أنا بنت للعبرانيين هربت من بينهم لأني أيقنت أنهم سيكونون غنيمة لكم، وقلت إني أنطلق إلى الأمير اليفانا لأخبره بأسرارهم، وأدلّه على مداخل المدينة ليظفر بهم، ولا يُقتل رجل من جيشه. فأخذوها إلى خيمة اليفانا وأخبروه بأمرها. ولما دخلت عليه إصطيد لساعته بعينيها (فصل ١٠). ولاطفها وأكرمها وسألها لِمَ آثرت المجئ إليه، فأجابته ليحيَ نبوكدنصّر ملك الأرض ولتحيَ قوته التي فيك لتأديب جميع النفوس الغاوية، لأنَّ ذكاء عقلك قد شاع في جميع الامم، وحسن سياستك ذائع في جميع الأقاليم. وأخذت تقصُّ عليه أخبار الضيق المكتنف قومها من حاجتهم إلى الماء والقوت، وإنهم يعلمون أنهم أسخطوا إلٰههم فحلَّ رعبهم فيهم. وإنها هربت لذلك من عندهم وقد بعثها الرب إليه لتخبره بهذا، وقالت أنا أمتك أعبد الله حتى الآن عندك أيضاً وأخرج وأصلّي إلى الله فيقول لي متى يردُّ عليهم خطيئتهم، فأجيء وأخبرك بذلك حتى آخذك إلى وسط أورشليم ولا ينبح عليك كلب. فحسُن هذا الكلام عند اليفانا وعبيده وكانوا يتعجَّبون من كلامها وجمالها (فصل ١١).

فأمر اليفانا أن يدخلوها موضع خزائنه وأن تُعطى مأكلاً من مائدته. فقالت لا أستطيع أن آكل مما أمرت. فقال إذا فرغ ما أتيتِ به فماذا نصنع بكِ؟ قالت: تحيا نفسك يا سيدي لا يفرغ ما أتيت به حتى يصنع الله بيدي ما في خاطري. فأدخلها عبيده الخيمة التي أمر بها، وسألت إن يُرخِّص لها لتخرج قبل الصباح لتصلّي إلى الرب وتعود. فأوصى أصحاب مخدعه أن يأذنوا لها، وكانت تخرج ليلاً إلى وادي بيت فلوى، وتغتسل في عين الماء وتصلّي إلى الله أن يرشد طرقها لتخلّص شعبه، ثم تعود إلى خيمتها طاهرة. وكان في اليوم الرابع أن صنع اليفانا

عشاءً لعبيده، وقال لخصيه انطلق واقنع تلك العبرانية أن ترضى بالإقامة معي طوعاً. فقالت يهوديت من أنا حتى أخالف سيدي. وتزيَّنت بملابسها ودخلت فوقفت أمامه، فاضطرب قلبه وبالغ في اكرامها. فأخذت وأكلت وشربت مما كانت أمتها هيأته لها. ففرح اليفانا وشرب من الخمر أكثر مما شرب في حياته (فصل ١٢). وأضجع اليفانا على سريره نائماً لشدة سكره، وأغلق الخصي باب المخدع، وجميعهم ثقلوا من الخمر. فأمرت يهوديت جاريتها أن تقف خارجاً أمام المخدع وهي وقفت تصلّي أمام السرير ليمنَّ الله عليها بالقوة. ثم استلَّت خنجره وأخذت بشعر رأسه، وضربت عنقه مرتين فقطعت رأسه، ووضعته جاريتها، في مزود، وخرجتا على عادتهما كأنهما خارجتان للصلاة واجتازتا المعسكر. وانتهتا إلى باب المدينة، ونادت يهوديت الحراس ففتحوا أبواب المدينة. ودعوا شيوخها فاجتمع الناس حولها من أصغرهم إلى أكبرهم. وصعدت إلى أعلى موضع تخطب فيهم مبيِّنة قوة الله وتخليصه من يتكلّ عليه. وأخرجت رأس اليفانا من المزود، وأرتهم إياه، فسجدوا بأجمعهم للرب، واستمدوا لها بركته (فصل ١٣). وقالت لهم علّقوا هذا الرأس على أسوارنا، ومتى طلعت الشمس فليأخذ كلُّ واحدٍ سلاحه، واظهروا كأنكم تقصدون المجابهة فينبِّه الحرس رئيسهم فيجدونه قتيلاً، ويقع عليهم الذعر ويهربون فاسعوا على أعقابهم آمنين. فيسحقهم الرب تحت أرجلكم وهكذا كان. فإنَّ الآشوريين لما رأوا قائدهم مقطوع الرأس مخضَّباً بدمه تولاَّهم الذعر فولّوا هاربين. وقتل بنو إسرائيل كلَّ من أدركوه منهم وغنموا ما تركوه. واحيور لما رأى ما كان آمن بالله واختتن. وانضمَّ إلى ذويه إلى بني إسرائيل. وأتى يواقيم الحبر من أورشليم مع جميع شيوخها إلى بيت فلوى وباركوا يهوديت قائلين أنتِ مجد أورشليم وفرح إسرائيل وفخر شعبنا (فصل ١٤ و ١٥). وهي أنشدت النشيد المثبَّت في الفصل السادس عشر من هذا السفر.

فهذه خلاصة سفر يهوديت وقد توفرت الأقوال في كاتبه فعزاه القديس ايرونيموس إلى يهوديت نفسها، وفولف إلى احيور العموني وبعضهم إلى يوياقيم أو الياقيم الحبر، وكلمت إلى يشوع بن يوصادق رفيق زربابل عند العود من سبي بابل وغيرهم إلى غير هؤلاء. والأظهر أنه كتب في أمدٍ قريب من وقوع هذه الأحداث لما فيه من التفصيل الذي كان لا يستطاع لو كرَّت عليه السنون.

عد ٣٣٤

ما جاء من الآثار الآشورية مؤيداً أخبار سفر يهوديت

إنَّ الأحداث المروية في سفر يهوديت كانت بعد خراب السامرة، ودليله أن لا ذكر لملك فيه، وبيت فلوى كانت من مملكة السامرة بل نرى مرجع الأمر فيها إلى أورشليم، والياقيم الحبر يأمر بضبط أعالي الجبال والاحتفاظ على المضايق. وقد مرَّ أنّ من بقي من اليهود في مملكة السامرة انضمّوا إلى إخوانهم في مملكة يهوذا؛ ثم إنَّ هذه الأحداث جرت في حين لم يكن فيه ملك في أورشليم؛ ولا نعلم خلوَّها من ملك في تلك الحقبة إلّا في مدة جلاء منسا إلى بابل. ويلزم أيضاً أن تكون جرت قبل السبي البابلي، وقبل سقوط نينوى لأنه جاء في هذا السفر (فصل ٤ عد ٢) إنَّ اليهود خافوا أن يفعل اليفانا «بأورشليم وبهيكل الرب كما فعل بسائر المدن وهياكلها». ويلزم منه أن يكون الهيكل حينئذٍ قائماً وأورشليم في منعتها، فيتعيَّن على كلّ ما مرَّ أنّ هذه الأحداث جرت في أيام منسا ملك يهوذا وآشور بانيبال ملك آشور. وإذا رأينا سفر يهوديت سماه نبوكدنصَّر فذلك محمول إما على أنّ آشور بانيبال إتخذ لنفسه هذا الاسم بعد استيلائه على بابل اقتفاءً بملوكها؛ وإما على أنّ النساخ غيَّروا اسمه خطأً، لأنّ هذا السفر وصفه «بملك آشور الذي كان مالكاً على نينوى العظيمة». ثم إنَّ آثار آشور بانيبال المسمارية أنبأتنا بكثير مما ورد في سفر يهوديت وأثبتته. فقد رأيت في آثاره أنه أخضع مصر وصور، وأدَّى الجزية إليه إثنان وعشرون ملكاً في سورية وقبرص، وإنَّ أخاه سماسوموقين قيل بابل قد عصاه، وأثار عليه القبائل الخاضعة له. فقهرهم بنفسه وبقوّاد جيوشه وكل هذا ينطبق خير انطباق على ما جاء في سفر يهوديت عن عظمته وعن ردِّ رسله خائبين من قيليقية ودمشق ولبنان وفلسطين. فيظهر أنّ هذا كان عندما تمرَّدوا عليه بإمداد أخيه وهو الراجح، أو عندما رأوه متشاغلاً بمحاربة الماديين التي ذكرها في اسطوانته الأولى عمود ٣ و ٤ وقال إنه حمل حملته الرابعة على ملك الميتيين احساري من العيلاميين وعلى رئيس الماديين بيرزهدري وإنه ظفر بهما. ودمَّر مدنهما وأخذ غنائم كبيرة من بلادهما وهذا يطابق ما جاء في سفر يهوديت عن ظفره بارفكشاد في أرض عيلام وإن اختلف الاسم.

وقد ورد في سفر يهوديت أنَّ سكان قيليقية كانوا من جملة من ردوا رسله

خائبين (في اسطوانته الأولى عمود ٢ كما رواه سميت في تاريخه): «سودازرمي ملك قيليقية الذي لم يكن دان للملوك أبائي، ولم يطعهم، أحضر ابنته التي ولدها مع كثير من التقادم إليّ في نينوى لتكون زوجة وقبّل قدميّ». وجاء في سفر يهوديت في الترجمة اليونانية ذكر ليديا أيضاً، وكانت في محل ولاية ازمير الآن. ودونك ما كتبه آشور بانيبال (في الأسطوانة المذكورة عمود ٣) ملخصاً: «إنّ جيجس ملك ليديا الذي لم يسمع آبائي باسمه ساقه صيت قدرتي العظيمة إلى أن يرسل إليّ وفداً ويبتغي مصادقتي. وكان يرسل وفده كلَّ وقت إلى أن انقطع عني بغتة، واحتقر إرادة آشور، واعتمد على قوته، وأرسل جنوده لانجاد بساميتيك ملك مصر الذي كان خلع نير ولايتي. فسمعت بذلك وتضرّعت إلى آشور وإستار أن يُجندل أمام أعدائه السيميريين وأن يأخذوا جثته، فاستجابني آشور وطرحت جثته أمام أعدائه وأخذوا عبيده أسرى». ومن هذا يظهر أيضاً اعتصاب أهل ليديا مع المصريين وسكان آسيا الغربية على آشور بانيبال كما جاء في سفر يهوديت.

وقد جاء في سفر يهوديت على ما في النسخة اليونانية: «واستولى (اليفانا) على تخوم قيليقية وقتل بحدِّ السيف كل من قاومه حتى بلغ أرض يافت التي في الجنوب قبالة بلاد العرب. وأسر جميع بني مدين (العرب الرحّل) وأحرق خيمهم وغنم كلَّ ما كان في حظائر ماشيتهم». وهاك ما كتبه آشور بانيبال في تاريخه (اسطوانة ١ عمود ٦) ملخصاً: «في حملتي التاسعة سيَّرتُ جنودي على فيتح ملك العرب لأنه بعد أن كان يؤدي الجزية إليّ انكفَّ عن ذلك وحالف غيره من الملوك. وسيَّروا عساكرهم لانجاد سماسوموقين أخي الثائر عليَّ وثار معه رجال بلاد العرب. فبأمر آشور أدخلتُ جيوشي إلى بلاد عزران وحيرة تكازا (في بلاد العرب). وإلى أدوم وجوار يبرود وبيت عمون وعمل حوران ومواب والصحارى وعمل صوبة». وكتب في العمود الـ ٧: «قتلتُ ما لا عداد له من محاربيه وأكملتُ كسر جنوده. وأهلكتُ بحد السيف رجال العرب وكلَّ من صحبوه وأما هو فانهزم من وجوه جنود آشور متوغلاً في البلاد إلى أرض النبطيين. وأحرقتُ خيامهم ومنازلهم ومقتناهم». وكتب في العمود الـ ٨ «فأكمل جنودي قهر رجال العرب وأبادوا كلَّ من ناصرهم بحدِّ السيف وأحرقوا خيامهم ومنازلهم. وأخذوا من البقر والغنم والحمير والجمال والرجال ما لا عداد له، ونهبوا ودمَّروا كلَّ ما في البلاد على اتساعها.

وجاء في سفر يهوديت ما مرّ أنّ اليفانا «انحدر من صحارى دمشق في أيام الحصاد. وأحرق جميع حقولهم وقطع كلَّ أشجارهم وكرومهم». وفي إحدى اسطوانات آشور بانيبال (على ما روى سميت في تاريخه صفحة ٢٧١) بعد كلامه في ما غنمه من العرب قال: «جعلته يأخذ طريق دمشقا» أي دمشق وذكر في الاسطوانة الأولى في العمود ال ٥ القبائل التي ردَّها خاضعة لسلطانه فقال إنها: «رجال اكّد والكلدان والآراميون والسوريون» والحاصل أنّ سفر يهوديت والآثار الآشورية متطابقة في ذكر القبائل التي غزاها آشور بانيبال بقائد جيشه وفي نوع المعاملة التي عاملها بها من قتل، وإحراق خيام، ونهب مواش. وقطع أشجار. والبلاد التي ذكرتها الآثار والكتاب واحدة، والعصر الذي كانت فيه هذه الأحداث واحد. فأنّى يباح إنكار صحة هذا السفر وأين السبيل إلى التكذيب بآياته؟ ولا نطمع أن نرى في آثار آشور بانيبال ذكر فتك يهوديت بقائد جيشه، فلم يعتد أحد من الغزاة القدماء أن يخلّد ذكر خزيه وحطته، ومع هذا بقي لنا ما نستلمح منه فشل آشور بانيبال. فبساميتيك ملك مصر كان ألدَّ أعدائه، وقد عاقب من تشيع له من الملوك ولا نرى في آثاره خطّة مؤذنة بأنه قهره أو ردَّه إلى طاعته، ولا وجه لذلك إلّا أنّ آشور بانيبال كانت حمية الشبيبة خمدت فيه، ووهنت عزيمته عن أن يجدِّد حملاته على مصر. فوكل فيها إلى اليفانا قائد جيشه فقطعت امرأة عبرانية رأسه، وتشتت جنوده فلم ينل ما ابتغى من تذليل ملك مصر، بل استقلَّت إذ ذاك مصر عن ولاية آشور.

على أنه لم يوجد إلى اليوم اسم اليفانا في الآثار الآشورية، لكن صحة الرواية لا تتوقف على الاسم، والإعلام عرضة للتغيير، والنص العبراني في سفر يهوديت مفقود وبين ترجماته تباين واختلاف لا سيما في الاعلام والنسخة اللاتينية العامية تسمي اليفانا هولوفرن، فلا عبرة بالأسماء عند تطابق الحوادث. انتهى ملخصاً عن الكتاب والإكتشافات الحديثة لفيكورو (مجلد ٤ من صفحة ٢٧٥ إلى ٣٠٥ طبعة ٥).

لم نفرغ من كتابة ما مرّ إلّا وطالعنا في المجلة الموسومة بمجلة الأرض المقدسة الفصول التي يذيعها فيها الأب العالِم ربواسون في تحقيق صحة سفر يهوديت. فألفيناه يثبت في نشرتها الصادرة في ١٥ ايلول سنة ١٨٩٤ م ترجمة الصفائح التي وُجدت في كوينجك على مقربة من المحل المسمى النبي يونس، حيث كانت نينوى

القديمة على مذهبه. وهذه الصفائح أو الاسطوانات انطوت على أخبار محاربة آشور بانيبال للعرب. وفي إحداها يقول آشور بانيبال ما ملخصّه: «إن سيَّر جيشه على فائح (أو فيتح) ملك العرب الذي كان قاومه مع جيش النبطيين. فساروا متجشمين أعظم المشاق في أرض العطش والموت إلى أن بلغوا بلاد ماس البعيدة مئة كسبو ككارو عن نينوى وإنَّ هذه البلاد في جوار دمشقا» أي دمشق فيقول ربواسون: إنَّ بلاد ماس إن هي إلّا بلاد باسان بإبدال الباء من الميم، وهذا كثير في آثارهم. واستدل على ذلك من أنّ هذه البلاد مجاورة لدمشق لأنها تمتد إلى جبل حرمون وهو جبل الشيخ القريب من دمشق، ومن أنها كانت من مساكن النبطيين حلفاء ملك العرب كما في الآثار، ومن أنّ كسبو ككارو يراد به مقياس الأرض، وإنَّ كل كسبو كنايةً عن ستة كيلومترات، فيكون مجموع المئة كسبو ست مئة كيلومتر. والمسافة بين نينوى في الطريق الذي سار فيه الآشوريون وبين أطراف بلاد باسان إنما هو نحو ٦٦٠ كيلومتراً وهو قريب مما ذكر في الأثر. وفي نشرة هذه المجلّة الصادرة في ١ ت ١ سنة ١٨٩٤ م. ذكر ربواسون عن هذا الأثر أنّ جيش الآشوريين حلَّ في كوراسيتي وكيدراي. وقال ماكوراسيتي إلّا كرسا أو جرجسا القديمة، وموقعها على ضفّة بحيرة طبرية شرقاً (وبها سُميت هذه البحيرة بحيرة الجرجسيين أو بحيرة جناشر). وما كدراي إلّا كادارا وهي المسماة الآن أم قيس لا تبعد عن طرف بحيرة طبرية من جهة الجنوب. ومن ذلك يستفاد أنّ جيوش آشور بانيبال حلَّت في جانب بحيرة طبرية عند مهاجمتهم وتضييقهم على بني إسرائيل طبق ما جاء في سفر يهوديت.

عد ٣٣٥

وفاة منسا وخلافة آمون ابنه له

توفي منسا للسنة الخامسة والخمسين من ملكه ودُفن في بستان بيته. وملك آمون ابنه مكانه وكان عمره حين ملك إثنتين وعشرين سنة. وكان على شاكلة أبيه قبل توبته فإنه عبد الأصنام التي عبدها أبوه وسجد لها. وترك الرب إلٰهه صانعاً الشر فتحالف عليه عبيده وقتلوه في بيته بعد أن ملك سنتين ودُفن حيث دُفن أبوه. فثار الشعب على قاتليه وفتكوا بهم وأقاموا ابنه يوشيا ملكاً مكانه، فكان تمليك آمون سنة ٦٤١ ومقتله سنة ٦٣٩ ق.م على أصحّ الروايات. ولا يظهر أنه كان

مدة ملكه أحداث مهمة لأنَّ آشور بانيبال بعد تشتيت جنوده في فلسطين خمدت جمرة سطوته في سورية، وطُفئت في مصر كما روى مسبرو في تاريخه القديم لشعوب المشرق (صفحة ٤٣٨ طبعة ٢) قائلاً إنَّ مصر عادت مستقلَّة ولا غرو إنَّ ذلك كان في مدة ثورة سماسوموقين على آشور بانيبال أخيه... وكانت حروب آشور بانيبال مع العيلاميين أوهنت قواه، فتخلَّى عن حق سيادته على مصر. وقد قضي أجل آشور بانيبال سنة ٦٢٦ق.م كما روى فيكورو عن سميت (في تاريخ آشور صفحة ١٧٧).

عد ٣٣٦
يوشيا بن آمون ملك يهوذا

ملك يوشيا في أورشليم وعمره ثماني سنين وكان ملكاً صالحاً، ومضى على كل طرق داود جده ولم يعدل عنها يمنة ولا يسرة. ويظهر أنّ احتفاف الكهنة والانبياء حوله أكسبه الفضيلة للدين والغيرة عليه. فقد أخذ مذ شبَّ يطهِّر أورشليم وسائر مملكته من المشارف والغابات والمنحوتات والمسبوكات. فقوضوا أمامه مذابح الآلهة الكاذبة وحطموا تماثيلها وسحقوها. وذروا رمادها على وجه قبور من كانوا يذبحون لها. وفي السنة الثامنة عشرة لملكه عني بترميم ما تهدَّم من بيت الرب، وبعث إلى حلقيا عظيم الكهنة أن يحسب الفضة التي أوردت إلى بيت الرب مما جمعه حفظة أعتاب الهيكل من الشعب. وأن يسلمها إلى متولّي العمل ليدفعوها إلى النجارين والبنائين وصنَّاع الحديد والنحاس، ولشراء أخشاب وحجارة منحوتة وكان كذلك. وبينما كان حلقيا يبحث عن الفضة في بيت الرب وجد سفر توراة الرب بخط موسى (ملوك ٤ فصل ٢٢ عد ٨ وسفر أخبار الأيام الثاني فصل ٣٤ عد ١٤) فدفعه إلى شافان الكاتب الذي كان الملك أوفده إليه. ولما تلاه الكاتب على مسمع الملك مزَّق ثيابه لفرط ما خالف آباؤه ما كُتب في هذا السفر، ولما يستوجبه شعبه من العقاب لتقاعدهم عن العمل به.

قال فولتير: «إنَّ كتاب السنَّة كان أمسى عند اليهود نادراً جداً حتى لم يتجد منه في أيام يوشيا إلّا نسخة واحدة. وقال أيضاً: «قد حقَّق الكتاب نفسه إنَّ أول نسخة معروفة من هذا الكتاب وُجدت في أيام يوشيا، وإنَّ هذه النسخة الوحيدة

أتى بها شافان الكاتب إلى الملك». فهو ملحد طياش يطيش أسهمه على غير رويَّة، فأسفار موسى كانت دستوراً للعمل في أيام داود وسليمان وآسا ويوشافاط ويواش وأمصيا وحزقيا حتى أيام يوشيا نفسه قبل وجدان هذا السفر. وقد رأينا الكهنة وعظماء المملكة في أيام يوشافاط يطوفون في المدن والقرى وكتاب السنَّة في أيديهم يُخضعون الشعب على العمل بموجبه. ونراه في أيدي الحكام في أورشليم وغيرها دستوراً يقضون بحسبما دوِّن فيه، بل رأينا آحاب الأثيم لم يتمكّن من إختلاس كرم نابوت لا باتهامه بمعصية يقضي الكتاب بالجزاء عليها بالموت رجماً، وهي التجديف على الله. ونرى الانبياء يذكّرون الشعب والملوك أيضاً بما جاء في هذا الكتاب. ألم يكن لهؤلاء الانبياء غيرة على حفظه أو إستشهدوه ولا وجود له أخرس الله الملحدين. وأما ما هو السفر الذي وجده حلقيا وأرسله إلى يوشيا الملك! فقال فيه كلمت في تاريخ العهد القديم يظهر جليّاً أنّ أحد الكهنة أخفى هذا السفر القديم المخطوط بيد موسى حيث وجده حلقيا، لئلا تعبث به أيدي الملوك الأشرار الذين رفعوا من الهيكل تابوت العهد. وكان بجانبه السفر الذي قال فيه موسى (تثنية فصل ٣١ عد ٢٦):

«خذوا سفر هذه التوراة واجلوه إلى جانب تابوت عهد الرب إلٰهكم فيكون ثم عليكم شاهداً». وكلّ القرائن التي وردت في الكتاب في شأن وجدان هذا السفر تثبت ما وُجد حينئذٍ إنما هو الفصول ٢٨ و ٢٩ و ٣٠ و ٣١ من سفر التثنية، لأنَّ هذه الفصول الأربعة إنما هي التي أمر موسى أن توضع في جانب تابوت العهد. وهي تشتمل على تهديد الله ولعنه كلَّ من يخالف سنَّته وبركاته، ووعوده لكلِّ من يعمل بها وكلِّ من قرأها، وتدبر ما بها. لا جرم أن تنشئ فيه التأثر الذي شعر به يوشيا، لا أنه كان يجهل سنَّة الله التي لا بدَّ أن يكون الكهنة والانبياء المحتفون حوله أطلعوه عليها. وزاد تأثره أنها كانت مخطوطة بيد موسى نفسه كما إذا عثرنا على الإنجيل الذي خطَّته يد متى أو يد يوحنا. ويؤكد ذلك قول الكتاب بعد ذلك أنّ يوشيا جمع إليه جميع يهوذا وأورشليم. وصعد بهم إلى بيت الرب فتلا على مسامعهم جميع كلام سفر الميثاق الذي وُجد في بيت الرب، فإذاً لم يكن ما وُجد أسفار موسى كلها ولا سفر كامل أيضاً إذ لا يمكن تلاوة ذلك في وقتٍ واحد.

إنَّ يوشيا بعد تلاوة هذه الفصول عاهد الرب أنه وشعبه لا يخلفون وصاياه ويعملون بسنَّته وأعاد الشعب هذا العهد. وأمر الملك أن يُخرِجوا من الهيكل كلَّ ما

أُدخِل فيه تكرمةً لبعل وعشتاروت وأجناد السماء. وأحرقه في خارج أورشليم واستأصل كهنة الأصنام الذين أقامهم ملوك يهوذا ليقتروا على المشارف ونجس هذه المشارف، والمعبد الذي كان في جانب أورشليم لملوك معبود بني عمون حيث كان الرجل يجيز ابنه أو بنته في النار إكراماً لهذا المعبود. وأزال المعابد التي كان سليمان أقامها لآلهة الصيدونيين والموآبيين والعمونيين. ومضى إلى بيت إيل فقوَّض المذبح والمعبد اللذين كان ياربعام بن نباط أقامهما وأحرق كلَّ ما كان هناك. وأبصر قبوراً في الجبل فبعث وأخذ العظام منها وأحرقها على المذبح ونجسه. وتمت بذلك نبوَّة رجل الله الذي كان أتى من اليهودية إلى بيت إيل قبل نحو ثلاث مئة سنة لينذر ياربعام بن نباط وقال: «يا مذبح يا مذبح! كذا قال الرب: هوذا سيولد لبيت داود ابن يسمى يوشيا وهو سيذبح عليك كهنة المشارف الذين يقترون عليك وتُحرق عليك عظام البشر» (ملوك ٣ فصل ١٣ عد ٢). ورأى الملك جثوة وقيل له إنّها قبر الرجل الذي جاء من يهوذا وتنبأ على ما أنت الآن فاعل. فقال دعوه لا يحركنَّ أحدٌ عظامه. وأزال أيضاً جميع المشارف التي كانت في مدن السامرة وذبح كهنتها على مذابحها، وأحرق عظام الناس عليها. فالكفر والخلاعة والفظائع التي أقدم عليها بنو إسرائيل في ذلك الحين كانت تستلزم هذه الوسائل الهائلة للارعواء عنها. ثم عاد يوشيا إلى أورشليم وأمر جميع الشعب بعمل فصح قال الكتاب فيه (ملوك ٤ فصل ٢٣ عد ٢٢): «لم يُعمل فصح منذ أيام القضاة... ولا في أيام جميع ملوك إسرائيل وملوك يهوذا مثل هذا الفصح الذي عُمل للرب في السنة الثامنة عشرة لملك يوشيا في أورشليم». وقال الكتاب (هناك) في مديح يوشيا: «لم يكن قبله ملك مثله لأنه أقبل إلى الرب بكلِّ قلبه وكلِّ نفسه وكلِّ قدرته بحسب كلِّ توراة موسى ولا قام بعده مثله.

واستراح بنو إسرائيل في ملك يوشيا زهاء ثلاثين سنة لأنَّ آشور بانيبال كان أعي بالحروب التي أثارها عليه الماديون والكلدان. وابنه آشور دليلي الذي خلفه بعد موته (أو بعد موت ملك آخر على رواية) كان واهن القوة خامد العزم ولم يوجد في آثاره إلَّا فلذات من خزف كُشف عنها في قصرٍ صغير بناه في كالح (نمرود الآن) يقول فيها عن نفسه إنه: «ملك الشعوب ملك بلاد آشور ابن آشور بانيبال بن اسرحدون وإنه بنى هذا القصر لنفسه» وفي أيامه لم يكتفِ المصريون بخلع نير الطاعة للآشوريين بل عمدوا إلى إفتتاح بلادهم. وهذا ما أشار إليه الكتاب

بقوله:«وفي أيامه (أي أيام يوشيا) صعد فرعون نكو ملك مصر على ملك آشور إلى نهر الفرات فذهبَ الملك يوشيا والتقاه فقتله في مجدّو (لجون) عندما تراءيا» (ملوك ٤ فصل ٢٣ عد ٢٩). وجاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل ٣٥ عد ٢٠ وما يليه): «صعد نكو ملك مصر لقتال الكركميش (مدينة الحثيين المعروفة) عند الفرات فخرج عليه يوشيا فوجّه إليه رسلاً يقول ما لي ولك يا ملك يهوذا أنا لست عليك اليوم بل علي بيت حربي لأنَّ الله أمرني أن أبادر فدع مقاومة الله الذي معي لئلا يهلكك فلم يحوّل يوشيا وجهه عنه بل تشدَّد لمحاربته... وجاء للقتال في وادي مجدّو فرمت الرماة نحو الملك يوشيا فقال الملك لعبيده أنقلوني فإني قد أُثخنت بالجراح فنقله عبيده من المركبة. ووضعوه في مركبة أخرى كانت له وجاءوا به إلى أورشليم فمات ودُفن في مقابر آبائه فناح جميع يهوذا وأورشليم على يوشيا ورثى ارميا يوشيا» وقد ملك إحدى وثلاثين سنة في أورشليم.

إنَّ نكو الذي ذكره الكتاب هنا هو غير نكو الذي جاء ذكره كما رأيت في آثار آشور بانيبال، وكان ملك منف وسايس لأنَّ نكو هذا إنقضى ملكه سنة ٦٦٤ ق.م، فلا يمكن أن يكون في أيام يوشيا الذي رقي منصة الملك سنة ٦٣٩ إلى سنة ٦٠٨ق.م. ونكو الثاني ابن بساميتيك ملك في مصر من سنة ٦١١ إلى سنة ٦٠٥ق.م ولكن على من حمل نكو الثاني أعلى ملك نينوى الآشوري أم على ملك بابل؟ فحلّ هذه المسألة مناط بتحقيق تاريخ السنة التي سقطت نينوى فيها. فقال ابيدان وسنشلّوس المؤرخان القديمان: إنَّ دمار نينوى كان سنة ٦٢٥ق.م وعليه فحملة نكو الثاني كانت على نابوبلاصر ملك بابل، وهو أبو بختنصر. ولكن الظاهر مما أورده اوسابيوس والقديس ايرونيموس إنَّ خراب نينوى كان لسنة ٦٠٦ أو سنة ٦٠٥ ق.م. وعليه فحملة نكو سنة ٦٠٨ كانت على ملك آشور وإلى اليوم لم يُكشف على أثر يبيِّن ما كان في أيام نينوى الأخيرة. والظاهر أنّ حالة مملكة آشور لدن موت آشور بانيبال على جرفٍ هارٍ. فكان بساميتيك ملك مصر أبو نكو محاصراً اشدود في فلسطين، وكان أهل بابل عصوا ملك آشور والماديون يعدون المعدات لحربه فمن خلف آشور بانيبال سار بجيشه على الماديين. وأمّر بنو بلاصر على جيش سيّره لإخضاع بابل فنجح أمير هذا الجيش نجاحاً أكسبه أن يُسمى قيل بابل. فساس هذه البلاد بحكمة خمس عشرة سنة حتى إذا رأى من نفسه القوة حاول أن يخلع سيادة نينوى عليه، وتذرّع لذلك بذريعة أن طلب ما لا يمكن أن

يعطاه. ولما ردَّ سؤاله حالف نكو ملك مصر وشياكسر ملك الماديين، وأثار حرباً عواناً على نينوى نحو سنة ٦١٠ق.م وزحف نكو في ربيع سنة ٦٠٨ق.م إلى آسيا في الطريق الذي استطرقه أسلافه وكان يؤمل أن يجتاز فلسطين دون مقاوم. ولكن لم ينفسح له مرج ابن عامر إلّا التقاه يوشيا ملك يهوذا ليقطع الطريق عليه عند مضيق مجدّو (اللجون) حفظاً للأمانة لملك آشور الذي كان تحت سيادته أو طمعاً بتعظيم اسمه إذا انتصر على ملك مصر.

فاضطرمت نار الوغى فقُتل يوشيا كما رأيت وتشتت جيش بني إسرائيل ولم يحفل نكو بما سيكون منهم، بل سار مسرعاً وانتهى إلى قادس في جانب بحيرة حمص، ثم إلى كركميش (قد ذكرنا تاريخها وأبنا موقعها في عد ٧١) فاستحوذ نكو عليها وعلى كل ما كان في غربي الفرات. وافتتح الماديون والبابليون نينوى ودمَّروها ولم نظفر إلى اليوم بأثر منبئ بما كان عند افتتاحها. ولكن جاء في كتب المؤرخين القدماء أنّ حصارها استمرَّ سنتين، ويسَّر فتحها طغيان ماء دجلة حتى أسقط جانباً من أسوارها. فيئس ملكها وأحرق نفسه ونساءه وكنوزه في قصره، وقُسّمت أملاكها، فكان الحظ الأكبر منها لملك بابل. وصحَّ في نينوى ما تنبأ عليها نحوم النبي (في الفصلين الثاني والثالث من نبوَّته) ومما قاله فيها ويلٌ لمدينة الدماء الممتلئة بأسرها كذباً وخطفاً قد انفتحت أبواب الأنهار وانحلَّ القصر فكلُّ من يراكِ يعرض عنك ويقول قد دُمرت نينوى.

عد ٣٣٧

يواحاز والياقيم ابنا يوشيا ويوخانيا ملك يهوذا

بعد أن دفن الشعب يوشيا ملكوا يواحاز ابنه مكانه وكان عمره حين ملك ثلاثاً وعشرين سنة، وصنع الشرّ في أعين الرب لكنه لم يملك إلّا ثلاثة أشهر. فالظاهر أنّ نكو غضب لتمليك يواحاز وهو الأصغر وإيثاره على الياقيم أخيه الأكبر لأنه كان ناصحاً لأبيه والشعب كيلا يعترضوا ملك مصر في طريقه. فأرسل فريقاً من جنوده فكتَّف يواحاز وأخذه إليه وهو في ربله من أرض حماه (وتسمى اليوم أيضاً بهذا الاسم) إما قبل أن يصل إلى كركميش وإما بعد عوده منها وهو الأظهر. وأخذه معه أسيراً إلى مصر حيث مات وغرَّم بني إسرائيل مئة قنطار فضة وقنطار

ذهب. وأقام الياقيم أخاه الأكبر ملكاً في أورشليم، وغيَّر اسمه مسمِّياً إياه يوياقيم (ملوك ٤ فصل ٢٣) وكان ذلك لسنة ٦٠٧ ق.م. وقد تكلَّم حزقيال في يواحاز فقال (فصل ١٩ عد ٢ وما يليه): «قل كيف أمك اللبوة ربضت بين الأسود ربت جرآؤها في وسط الأشبال وأعلت واحداً من جرائها فصار شبلاً وتعلَّم افتراس الفريسة وأكل الناس، فسمعت به الأمم فأخذ في هوَّتهم فقادوه ببرةٍ إلى أرض مصر» وقال فيه ارميا (فصل ٢٢ عد ١٠: «لا تبكوا على الميت (يوشيا) ولا ترثوه بل ابكوا بكاءً على الذاهب الذي لا يرجع من بعد ولا يرى أرض ميلاده... بل في الموضع الذي أُجليَ إليه هناك يموت».

وكان يوياقيم ابن خمس وعشرين سنة حين ملك، وملك إحدى عشرة سنة في أورشليم، وصنع الشرَّ. وكانت باكورة أعماله أنه ضرب ضريبة على الشعب ليفي نكواً الغرامة التي فرضها على مملكة يهوذا. ولم يقتصر على ذلك بل أثقل شعبه بضرائب أخرى، وأدخل عليهم نظام التسخير ليقيم أبنية يتفاخر بها وشعبه في أسوإ الأحوال. وهذا مستفاد من قول ارميا فيه (فصل ٢٢ عد ١٣): «ويلٌ لمن يبني بيته بغير عدل وغرفه بغير حق. ويستخدم قريبه بلا أجرة ولا يوفيه عن عمله. ويقول ابنِ لي بيتاً وغرفاً فسيحة ففتح له كوى وسقَّف بالأرز ودهن بالمغرة أيكون ملكك بأن تفاخر بالأرز». وقد اضطهد الانبياء فأنَّ اوريا بن شمعيا من قرية يعريم (قرية أبي غوش) تنبأ على خراب أورشليم. فطلب يوياقيم أن يقتله ففرَّ إلى مصر فأرسل الملك في طلبه وأتوه به فقتله بالسيف وطرح جثته في قبور عامة الشعب (ارميا فصل ٢٦ عد ٢٠). ولم ينجُ ارميا النبي من إضطهاده لأنه بعد أن كتب نبواته أراد إذاعتها على الكهنة والرؤساء. ولما سمع الملك بها ألقاها بيده في كانون النار، وعزم أن يقتل ارميا وباروك تلميذه ففرَّا واختبأ وعاود النبي كتابة نبوَّاته بأكثر تفصيل (ارميا فصل ٣٦).

وفي السنة الرابعة للملك يوياقيم همَّ نبوبلاصر ملك بابل أن يستردَّ أعمال سورية التي كان نكو ملك مصر تولاَّها، وقال بعضهم إنَّ نكو كان باقياً في كركميش. وقال غيرهم وقولهم أوجه إنه كان عاد إلى مصر وترك حامية في كركميش. ولما كان نبوبلاصر أمسى شيخاً لا طاقة له على تجشُّم مشاق هذه الحملة، أو كان متشاغلاً بحروب أخرى عهد إلى ابنه نبوكدنصَّر (الذي يسميه العرب بختنصر) بقيادة جيشه في سورية. فكانت بين الجيشين المصري والبابلي وقيعة كبرى في

كركميش انكسر بها المصريون، وولّوا مدبرين ،وتركوا كلّ ما ملكوا في سورية. فتتبّع الكلدان آثارهم ولم يجترئ أحد من ملوك سورية أن يقاومهم، بل أقرّوا بسيادة بختنصر وأدّوا الجزية إليه صاغرين وكان منهم يوياقيم ملك يهوذا (على ما روى سميث في كلامه في بابل صفحة ١٥٦). ولم يتعرّض بختنصر لهؤلاء الملوك في ملكهم بل استمرّ حينئذٍ سائراً إلى مصر قاسماً جيشه إلى قسمين سيَّر أحدهما في الطريق البحري والثاني في عبر الأردن وبلاد العمونيين والموآبيين. وقال الكتاب (ملوك ٤ فصل ٢٤ عد ٧) في ذلك: «ولم يعد ملك مصر يخرج من أرضه لأنّ ملك بابل أخذ من نهر مصر (المراد وادي العريش الفاصل بين فلسطين ومصر) إلى نهر الفرات جميع ما كان لملك مصر». وبين كان بختنصر محاصراً تخوم مصر أتاه نعي أبيه فخاف أن يدخل دعيٌّ على عرشه فعقد عهدة مع ملك مصر، وعاد مسرعاً إلى بابل فضبط الصولجان سنة ٦٠٤ ق.م واستمرّ متسلّماً منصّة الملك ثلاثاً وأربعين سنة أي إلى سنة ٥٦١ ق.م. وهو أشهر ملوك بابل التي جعلها من غرائب العالم، وقد كشف عن خطوط كثيرة له يتفاخر بها بإقامته الدور والقصور وبتصييره بابل أجمل العواصم، وندر ما وجد له من الخطوط المنبئة بحملاته وحروبه.

إنَّ بختنصر عاد للسنة الثانية من ملكه إلى سورية ليطفئ جذوات الثورة التي كان المصريون ينفخون فيها على ما يظهر. فدخل حينئذٍ مملكة يهوذا وفتح أورشليم وأخذ بعض آنية الهيكل، وكان أزمع أن يأخذ يوياقيم أسيراً إلى بابل، فبدا له أن يبقيه في أورشليم خاضعاً له يؤدي إليه الجزية. لكنه جلا يومئذٍ إلى بابل شبان شرفاء مملكته. وكان منهم دانيال وحنانيا وميشائيل وعزريا ليكونوا رهائن على إخلاص يوياقيم في الطاعة له، وكان ذلك سنة ٦٠٢ ق.م. ولم تنقضِ ثلاث سنين إلّا عاد يوياقيم يحاول التملّص من الخضوع لبختنصر بإمداد ملك مصر وايتوبعل ملك صور. فهبَّ إليه بختنصر سنة ٥٩٩ ق.م وأطلق شراذم من فرسانه تسطوا على الناس وتخرّب في البلاد. ولكن لم يبلغ الغازي إلى أورشليم قبل أن تدرك المنية يوياقيم ولا يُعلم كيف مات، بل أنبأنا ارميا النبي أنه مات غير مأسوف عليه ودُفن مهاناً. فقال (فصل ٢٢ عد ١٨): «هكذا قال الرب ليوياقيم بن يوشيا ملك يهوذا إنه لا يُلطم عليه آهاً يا أخي أو آهاً يا أختي ولا يُلطم عليه آهاً واسيّداه أو آهاً واجليلاه. بل يُطمر طمر الحمار وهو ممزّق مطروح بعيداً عن أورشليم». وقال (في فصل ٣٦ عد ٣٠): «وتكون جثته مطروحة للحرّ في النهار والقرس في الليل»

وقال يوسيفوس (ك ١٠ فصل ٨ من تاريخ اليهود): إنَّ بختنصر «قتله ومعه زهور شبان المدينة وأمر أن تُطرح جثته خارجاً عن أورشليم لا يأويها أحد في التراب». ورأى بعض المحققين أنّ دون تصديق مقال يوسيفوس مشكلات ولكن حققته المجلة الموسومة بالتمدن الكاثوليكي (في إحدى نشراتها الصادرة في تشرين الآخر سنة ١٨٨٢ م) في مقالة موسومة «بمهام بختنصر وحروبه الأولى». وقد خلف يوياقيم ابنه يوخانيا ويسمى يوياكين أيضاً ولم يقوَ الملك الجديد على الدفاع عن أورشليم زماناً طويلاً، بل أُرغم أن يُسلم نفسه وأسرته وأمواله إلى ملك بابل. ولم يملك إلا ثلاثة أشهر وعشرة أيام، فأخذه بختنصر أسيراً إلى بابل وجلا معه عشرة آلاف من رؤساء أورشليم وكبرائها ولم يُبقِ من سكانها إلّا الفقراء وأخذ جميع كنوز بيت الرب وبيت الملك. وكسر جميع آنية الذهب وأقام متنيا عمَّ يوياكين ملكاً مكانه وسمّاه صدقيا. وكان ذلك سنة ٥٩٨ق.م ومنها يبتدي تاريخ الجلاء البابلي الذي استمرَّ سبعين سنة. وأقام يوياكين في بابل مسجوناً سبعاً وثلاثين سنة إلى أن توفي بختنصر. وخلفه ابنه اويل مروداك فأطلقه من السجن، وأكرم مثواه وكان يتناول الطعام على مائدته. (ملوك ٤ فصل ٢٥ عد ٢٧).

عد ٣٣٨

صدقيا ملك يهوذا

إنَّ صدقيا الذي أقامه بختنصر ملكاً في أورشليم كان عمره إذ ذاك إحدى وعشرين سنة، وملك إحدى عشرة سنة وصنع الشرّ أمام الرب. ولما كان شاباً تلاعبت فيه أهواء الأغراض فعجّلت سقوطه عن عرشه، وانقراض مملكة أورشليم. فإنَّ بختنصر أُلجئ حينئذٍ إلى محاربة الماديين لأنَّ شياكسر ملكهم الذي كان حمى بختنصر مات فخلفه ابنه استياج، وكان يريد سوءاً بمملكة بابل فاغتنم ملوك يهوذا ومواب وعمون وأدوم وصور فرصة هذا الخصام وحاولوا العود إلى إستقلالهم. فأصلح بختنصر شؤونه مع الماديين، وهبَّ للانتقام من ملوك سورية وكبت مطامعهم، فعاد إلى سورية مرةً أخرى سنة ٥٩٠ ق.م وقسم جحافله قسمَين سيَّر أحدهما إلى صور (كما مرَّ في عد ١٢٧) والثاني إلى أورشليم، ولما رأى صدقيا أنّ لا قدرة له على مصافتهم في خارج الأسوار، دخل المدينة فحاصرها البابليون شديد الحصار. وكان خفرع ملك مصر قد وعد ملوك سورية وصدقيا أن ينجدهم إذا أتتهم جنود بختنصر. فأرسل جيشاً مصرياً إلى جنوبي فلسطين فترك الكلدانيون

فريقاً من جيشهم على أورشليم، ومضى فريق آخر منهم لقتال المصريين. قال لانرمان (مجلد ٢ من تاريخه القديم صفحة ٤٠٢ طبعة ٩) لا نعلم ما كان بين الجيشين المصري والبابلي فمن قائل إنَّ المصريين عادوا دون قتال، ومن قائل إنَّ البابليين هزموهم. ثم تألبوا على أورشليم فدافع أهلها دفاع الأبطال ثمانية عشرة شهراً إلى أن برَّح بهم الجوع، إذ لم يبقَ في المدينة ما يقتاتون به. فثغروا أحد أسوار المدينة وهرب صدقيا وجميع رجال الحرب ليلاً في طريق الغور إلى جهة الأردن. فتتبَّع جيش الكلدان أثرهم فأدركوا صدقيا في صحراء أريحا وقد أرفضَّ الجمع عنه فأخذوه وأولاده وبعض الرؤساء إلى ملك بابل في ربلة (المعروفة اليوم أيضاً بهذا الاسم)، فذبح بني صدقيا أمام عيني أبيهم وقتل غيرهم من الرؤساء وفقأ عيني صدقيا. كما فعل كثير من ملوك آشور وغيرهم بأعدائهم، وقد وُجدت آثار تمثِّل ملوكاً يفقأون بأيديهم عيون أسراهم. ثم أوثق بختنصر صدقيا بسلسلتين من نحاس وأخذه إلى بابل وجعله في بيت الحرس إلى مماته.

وقد عاد نبوزرادان أمير جيش بختنصر فأحرق في أورشليم بيت الرب وبيت الملك وبيوت كبرائها. وهدم أسوارها وانتهب كلَّ آنية الهيكل وكلّ النحاس الذي كان في الأعمدة، وبحر النحاس كسره الكلدانيون، وحملوا نحاسه إلى بابل، وكلُّ ما كان ثمة من ذهب أو فضة أخذه رئيس الشرط ومن نجا من الأهلين من السيف أسره وأرسله إلى الملك في ربلة، ولم يترك من سكان مملكة يهوذا إلَّا كرَّامين وفلاَّحين. ولم يشأ بختنصر أن تبقى اليهودية مملكة بل جعلها ولاية من ولاياته، وولَّى رجلاً اسمه جدليا بن احيقام عليها وأقام جدليا في المصفاة (شعفات على الأظهر في شمالي أورشليم). وفي الشهر السابع لملكه فاجأه إسمعيل بن نتنيا من النسل الملكي وعشرة رجال معه فقتلوه، وضربوا اليهود والكلدانيين الذين كانوا معه في المصفاة. ويظهر من كلام ارميا النبي (فصل ٤٠ عد ١٤) أنَّ بعليس ملك بني عمون حمل إسمعيل على قتل جدليا. وإنَّ بعضهم حذَّره من ذلك وطلب إليه أن يأذن له في قتل إسمعيل فلم يصدِّق ولم يأذن. وخاف اليهود من وجه الكلدانيين فارتحل جمٌّ غفير ممن لبثوا في اليهودية إلى مصر (ملوك ٤ فصل ٢٥). وأخذوا أرميا النبي معهم مكرهاً (ارميا فصل ٤٣ عد ٦). وهكذا أمسى السواد الأعظم من بني إسرائيل في بلاد الكلدانيين وجماعة منهم في مصر والأذلاَّء منهم في فلسطين. فنتكلَّم الآن في من ارتحلوا إلى مصر ثم في من أُجلوا إلى بلاد الكلدانيين.

عد ٣٣٩

مَن ارتحلوا من بني إسرائيل إلى مصر وحملات بختنصر عليها

إجتمع بنو إسرائيل بعد مقتل جدليا إلى ارميا النبي الذي كان أُخذ بين المجلوين. فأوصى بختنصر قائد جيشه أن لا يُنزل به شراً بل يصنع إليه كلَّ ما شاء. فأطلقه القائد ولاطفه وأرسله ليقيم مع جدليا (ارميا فصل ٣٩ و ٤٠). فرغب إليه بنو إسرائيل أن يصلي إلى الرب ليلهمهم ما يصنعون، فصلَّى ارميا وعاد قائلاً لهم: «هكذا قال الرب لا تخافوا من ملك بابل الذي أنتم منه خائفون... فإني معكم لأخلِّصكم وأنقذكم منه... وإن ثبتُّم وجوهكم لتذهبوا إلى مصر وذهبتم لتتغربوا إلى هناك فالسيف الذي تخافون منه يدرككم هناك في أرض مصر، والجوع الذي تخشون منه يتعقبكم هناك في مصر وهناك تموتون». (ارميا فصل ٤٢ عد ١١ وما يليه). فلم يستمعوا كلامه بل أخذوا بقية يهوذا من الرجال والنساء والأطفال وبنات صدقيا الملك اللواتي كنَّ بقينَ في اليهودية مختبيات. وأكرهوا ارميا وباروك تلميذه إلى المسير معهم. ولما انتهوا إلى تحفنيس قال الرب لارميا: «خذ بيدك حجارة كبيرة واطمرها في الملاط في موضع التلبين (الموصوف باللبن) الذي عند مدخل بيت فرعون في تحفنيس على عيون رجال من اليهود وقل لهم هكذا قال رب الجنود إلٰه إسرائيل هأنذا أرسل وآخذ نبوكدنصَّر (بختنصر) ملك بابل عبدي وأجعل عرشه فوق هذه الحجارة التي طمرتها ويبسط ديباجه من فوقها فيقتل ويضرب أرض مصر» (ارميا فصل ٤٣ عد ٩ وما يليه). وكان ارميا يوبّخ بني إسرائيل ويهدِّدهم لتركهم في مصر عبادة الرب، وتعبُّدهم لملكة السماء التي يعبدها المصريون. وينذر بما سيحلُّ بالمصريين وبهم من الرزايا. وقد قال (في فصل ٢٤ عد ٣٠): «هكذا قال الرب هأنذا أجعل فرعون خفرع ملك مصر في أيدي أعدائه وطالبي نفسه كما جعلت صدقيا ملك يهوذا في يد نبوكدنصَّر ملك بابل عدوّه وطالب نفسه». فهذه النبوّات قد تمَّت لأنَّ بختنصر حمل على مصر ونكَّل بأهلها وببني إسرائيل الذين ارتحلوا إليها أشدَّ التنكيل. وأمات كثيرين بحد السيف وقهر خفرع ملك مصر وجلا منها جمَّاً غفيراً إلى بابل، وقد يكون منهم بعض اليهود الذين فرّوا من وإلى مصر.

ودونك ما جاءت به الآثار مصداقاً لأقوال الكتاب، إنَّ العالِم فلاندر باتري الإنكليزي قد عُني سنة ١٨٨٦م باكتشافات في تحفنيس القديمة المعروفة اليوم بتل

دفنه في مصر السفلى. فوجد هناك ثلاث خرابات تقرب إحداهنَّ من الأخرى، وبينها بقايا أُسس مؤذنة بأنه كان هناك مدينة مهمة جداً. وظهر له أنّ إحدى هذه الخرابات كانت قصراً فسيحاً مشرفاً على السهول الواقعة هناك، وقد طرب وعجب عندما أخبره سكان تلك الناحية أنهم يسمون ذلك المحل «قصر بنت اليهودي» فكأنَ خفرع ملك مصر أنزل في هذا القصر بنات صدقيا الملك صديقه عند ارتحالهنَّ مع قومهنَّ إلى مصر كما مرّ. فحُفظ هذا الاسم بالتقليد وقد حققت الآثار التي كشف عنها باتري هناك أنّ هذا القصر بناه بساميتيك الأول ملك مصر سنة ٦٦٥ أو سنة ٦٦٦ ق.م.

ووُجد في أحد المخادع خاتماً منقوشاً عليه اسم خفرع ملك مصر. وقد عُثر في خارج القصر على عرصة طولها نحو ثلاثين متراً، وعرضها ثمانية عشر مرصوفة بالآجرّ، وليس هناك أثر لمخدع أو سقف بل هي كالمصاطب التي يقيمها عامة الناس أمام بيوتهم، ويطلونها بالملاط. وقد عبَّر عن هذه العرصة بالعبرانية «بملِط مالبن». فصاحب الترجمة اللاتينية العامية لم يجد كلمة واحدة تؤدي المعنى المقصود، فعبَّر عنه بكلمات فقال في كلام ارميا: «خُذ بيدك حجارة كبيرة واطمرها في المغارة التي تحت حائط اللبن عند باب بيت فرعون في تحفنيس». وفي ترجمة الآباء اليسوعيين العربية الملاط وموضع التلبين كما رأيت وعلى كلٍّ قراءة. فهذا المحل الذي كان اللبن فيه كان عند باب بيت فرعون، وهناك يكون بختنصر قد بسط ديباجه كما قال النبي. وقد بحث باتري عن الحجارة التي طمرها ارميا فوجد هناك حجارة غير منحوتة، ولكن لا وسيلة للحكم بأنها الحجارة التي طمرها النبي إذ لم تكن لها سمة تميّزها. ومهما يكن من أمرها فليس من يقيم نكيراً على أنّ اكتشاف هذا القصر في تل دفنة التي هي تحفنيس؛ وما عُثر عليه فيه من الآثار مؤذّن بصحة ما جاء في الكتاب. ولذلك قالت جريدة التيمس في نشرتها في ١٨ جزيران سنة ١٨٨٦ م «لا يخلو من فائدة كبرى أن يعلم الجمهور ولا سيما الإنكليز الذين يكبّون على مطالعة الكتاب المقدس أن عالِماً إنكليزياً كشف عن خربات قصر في مصر حيث وقف ارميا النبي وتنبأ، وحيث وجدت بنات الملك صدقيا ملجأ عند فرعون خفرع وحيث نصب بختنصر عرشه وبسط ديباجه الملكي لما غشي مصر».

وقد تنبأ حزقيال أيضاً على حملة بختنصر على مصر فقال (فصل ٢٩ عد ١ وما يليه): وكانت إليَّ كلمة الرب قائلاً: يا ابن البشر اجعل وجهك نحو فرعون

ملك مصر وتنبأ عليه وعلى مصر كلها... هأنذا عليك يا فرعون ملك مصر التنّين العظيم الرابض في وسط أنهاره الذي قال إنَّ نهري هو لي وأنا صنعت نفسي إني سأجعل حلقة في فكك... فيعلم جميع سكان مصر أني أنا الرب ذلك بما أنهم كانوا عصا من قصب لآل إسرائيل فإذا أمسكوك بالكف تشققت فمزقت منهم الكتف كلها. وإذا اعتمدوا عليك انكسرت فزعزعتَ منهم الحقوين كليهما. ولذلك هكذا قال السيد الرب: هأنذا أجلب عليك السيف فاقرض منك البشر والبهائم... فاجعل أرض مصر قفاراً خربة مستوحشة من مجدول إلى أسوان وإلى تخم كوش... يا ابن البشر إنَّ نبوكدنصَّر ملك بابل قد استخدم جيشه خدمة عظيمة على صور... ولم تكن له أجرة ولا لجيشه من جهة صور لذلك هأنذا أعطي نبوكدنصَّر ملك بابل أرض مصر. فيأخذ جمهورها ويسلب سلبها وينهب نهبها فيكون ذلك أجرةً لجيشه». فقد أنكر قبلاً بعض الملحدين صحة ما جاء في هذه النبوّات مستمسكين بأنَّ هيرودت وديودر الصقلي لم يأتيا بذكر حملة بختنصر على مصر. وأما الآن فلم يبقَ من سبيل إلى هذا الانكار والآثار المصرية والكلدانية ناطقة بتكذيب الملحدين فقد كُشف في مصر عن تمثال لرجل شريف مصري اسمه نسهور، وعليه خطوط مؤذنة بأنَّ هذا الرجل كان والياً في جنوبي مصر وقد عهد إليه أن يدرأ المجاورين له عن السطو على هذه الناحية. وقد أتمَّ ما عُهد إليه به وكان مقيماً في الالفنتين (جزيرة في النيل تجاه أسوان) بمنزلة ملك إلى أن يقول عن نفسه:

«أقمتُ تمثالي تخليداً لذكري فلا يزول من الهيكل لأني عُنيت بمعبد الآلهة عندما أراد جنود الأجانب أن يدمروه وهم جنود العمو (الساميين) شعوب الشمال شعوب آسيا التعساء... الذين أرادوا السوء بنا وعزموا أن يغشوا الأرض العليا (مصر العليا) ويدمِّروا البلاد ولم يخافوا جلالة الملك حق مخافته. وأتمّوا ما عقدوا عليه نيّتهم لكنني لم أدعهم يتصلون إلى تاكان (عمل في جوار الشلال الأول) بل جعلتهم يقتربون من المحل الذي كانت جلالته حلَّت فيه فدبرت عظمته على إنكسارهم». والحاصل من هذه الخطوط أنّ جنود الآسياويين الساميين (كما هم الكلدان) حملوا على مصر في أيام ملكها خفرع وتوغلوا فيها إلى مصر العليا حيث كان نسهور فلم يدعهم يجتازون الشلال الأول حيث كان الملك فرّ فردَّهم على أعقابهم، على أنهم أتمّوا نبوّة حزقيال بأن بلغوا إلى الحدّ الذي وضعه النبي بقوله إنَّ بختنصر ينهب ويسلب في مصر ويجعلها خراباً إلى أسوان وإلى تخم كوش.

وقد وُجد في بابل صفيحتان مشعرتان بجملة بختنصر على خفرع ملك مصر وعليهما خطوط مصرية، فالأولى تمثّل رجلاً يعارك أسداً وبجانبه رجل يسجد لصورة الملك مكتوباً عليها خفرع يحميه فتاح (أحد آلهة المصريين). والثانية تمثّل رجلاً ساجداً ومن ورائه قرد وعليها اسم خفرع أيضاً ويُظن أنّ الصورتين نقشهما بعض الأسرى في بابل إبّان الحرب بين بابل ومصر. ولا أقل من أنهما مشعرتان بما كان بين البلدَين في أيام بختنصر وخفرع. وقد كُشف عن صفيحة أخرى لبختنصر كُتب عليها أخبار إحدى غزواته إلى مصر وهي الآن في المتحف البريطاني محطمة، ولكن يمكن أن يُقرأ فيها ما يأتي: فبختنصر بعد أن يشكر الآلهة على ما قيّضت له من النصر يقول «في السنة ٣٧ لنبوكدنصّر ملك الأرض: ذهبتُ إلى مصر للحرب فجمع أماسو (اماسيس) ملك مصر جيوشه وسيّر عساكره... جزية في وسط أرض مصر ... ١٥٠٠٠ جندي وخيول ومركبات». فسنة ٣٧ لبختنصر توافق سنة ٥٦٨ ق.م وكان ملك مصر حينئذٍ اماسيس الذي رقي منصة الملك بعد سقوط خفرع عنها؛ وعليه فحملة بختنصر هذه على مصر غير حملته السابقة على خفرع، لكن الحملتين تؤيدان صحة نبوّات ارميا وحزقيال، فالظاهر أنّ بختنصر بعد رفعه الحصار عن صور دخل ظافراً وتتبّع أثر خفرع إلى أسوان، ولكن بعد أن انتهى إلى الشلال الأول اضطر أن يعود إلى الوراء، وبعد مضي ثلاث سنين أو أربع عاد إلى مصر فقهر أماسيس وفرض جزية على بلاده. وقد ذكرنا في تاريخ الفينيقيين حملته على صور وتحملها مضض الحصار ثلاث عشرة سنة (طالع عد ١٢٧) وقد نقش بختنصر صورته على أحد الصخور في معبر نهر الكلب كغيره من غزاة بلادنا. وأما ارميا الذي أُخذ إلى مصر فقال بعض الآباء إنَّ اليهود الذين انحدروا إلى مصر رجموه لأنّه لم يكن ينكفّ عن تونيبهم على تركهم الرب وعبادة آلهة المصريين. وقال بعض الربيين: إنه عاد إلى اليهودية ومات فيها وذهب آخرون إلى أنه مضى إلى بابل ومات هناك.

عد ٣٤٠

سنو ملوك يهوذا من خراب السامرة إلى الجلاء البابلي

إننا نختتم هذا الفصل بوضع جدول يبيّن سني ملوك يهوذا من خراب السامرة الذي كان سنة ٧٢١ ق.م إلى إنقراض مملكة يهوذا وجلاء عليّة شعبها إلى بابل

تكملة للجدول الذي وضعناه لملوك يهوذا وإسرائيل إلى إنقراض مملكة إسرائيل في عد ٣٢٧ فخراب السامرة كان في السنة السادسة لحزقيال وهو قد ملك في أورشليم تسعاً وعشرين سنة فيكون ملك بعد خرابها ثلاثاً وعشرين سنة كما ترى في هذا الجدول:

اسماء ملوك يهوذا	سنو ملكهم	سنة بدء كلٍّ منهم			
		باتو	كلينتون	فنر	آيات الكتاب
حزقيا	٢٣	٧٢١	٧٢١	٧٢١	ملو ٤ ف ١٨ ع ٢
منسا	٥٥	٦٩٨	٦٩٧	٦٩٦	.. ٤ ف ٢١ ع١
امون	٠٢	٦٤٣	٦٤٢	٦٤١	.. ٤ ف ٢١ ع١٩
يوشيا	٣١	٦٤١	٦٤٠	٦٣٩	٤.. ف ٢٢ ع ١
يواحاز شهر ٣	..	٦١٠	٦٠٩	٦٠٩	.. ٤ ف ٢٣ ع ٣١
يوياقيم	١١	٦١٠	٦٠٩	٦٠٩	.. ٤ ف ٢٣ ع ٣٦
يوخانيا شهر ٣	..	٥٩٩	٥٩٨	٥٩٨	أخبار الأيام٢ف٣٦ع ٩
صدقيا	١١	٥٩٩	٥٩٨	٥٩٨	ملو ٤ ف ٢٤ ع ١٨
خراب أورشليم شهر ٦	..	٥٨٩	٥٨٧	٥٨٦	.. ٤ ف ٢٥ ع ٨
المجموع	**١٣٣**				

فمجموع سني هؤلاء الملوك بعد خراب السامرة مئة وثلاث وثلاثون سنة ومن بعد انقسام مملكة إسرائيل إلى خرابها مئتين وإحدى وستين سنة ومدة شاول وداود وسليمان مئة وعشرون سنة فجملة مدة الملوك في إسرائيل من شاول إلى صدقيا خمس مئة وأربع عشرة سنة.

الفصل التاسع عشر

أخبار بني إسرائيل في بلاد الكلدان

عد ٣٤١

حال بني إسرائيل في بابل وإنذار الانبياء لهم

إنَّ إقامة اليهود في بابل مع ما طبعوا عليه من التقلّب والملل كانت لهم معثرة كبرى في أمر دينهم. فقد كانوا أضاعوا إستقلالهم وقُرضت مملكتهم ودُمرت مدينتهم وهيكلهم. فحدثتهم عقولهم الضخمة أنّ آلهة الكلدانيين استظهرت على إلٰههم فلم يقوَ أن ينجّي شعبه من التشتت وهيكله من الدمار وآنيته من السلب. ورأوا عظمة بابل حينئذٍ وقصورها الشامخة وجناتها الغنَّاء الزاهرة ورغد أهليها، وعز ملوكها وترف كبرائها وعظمة هياكلها على هيكلهم. وقد حققت الآثار أنّ مساحة أسوار بابل وقتئذٍ كانت ٥١٣ كيلومتراً مربعاً تنيف سبعة أضعاف على أسوار باريس سنة ١٨٦٠ م ومساحة سورها الثاني ٢٩٠ كيلومتراً مربعاً أكبر كثيراً من مدينة لندرة (على ما روى اوبر في كتاب رحلته إلى ما بين النهرين مجلد ١ صفحة ٢٣٤). فكان كل ذلك باعثاً لبني إسرائيل على تركهم الرب إلٰههم وعبادتهم ما يعبد الكلدان ودينهم بما يدينون. أجل قد بقي بينهم من كان يقول: «على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا عندما تذكرنا صهيون على الصفصاف في وسطها علقنا كنانيرنا. هناك سألنا الذين سبونا نشيداً والذين عذبونا تطريباً إن رنموا لنا من ترانيم صهيون. كيف ترنم ترنيم الرب في أرض غربة؟ إن نسيتك يا أورشليم فلتنسني يميني. ليلتصق لساني بحنكي إن لم أذكركِ إن لم أُعلِ أورشليم على ذروة فرحي» (مزمور ١٣٦). لكن هذا ترنيم بعض المتورعين مقصودٌ به إحياء ذكر الرب وأورشليم والهيكل في أذهان الشعب، وهو مؤذن بالخطر الهائل المحيق بإخوانهم على أنّ الله تدارك شعبه ببعثه يومئذٍ أكبر أنبيائه. فالانبياء الكبار أربعة أشعيا وأرميا

وحزقيال ودانيال. فاشعيا كان قبيل جلائهم لكنه تنبأ عليه. وحذر من معاثره وأكثر الحث لبني إسرائيل على التشبث بعروة إيمانهم الوثقى، وأفاض بالتعزية لهم بأنهم سيعودون إلى الأرض ميراث آبائهم.

والجزء الثاني من نبواته من الفصل الأربعين فصاعداً هو أفصح وأسمى من باقيها، وجل مدار كلامه فيه إنما هو في الجلاء وتعزية المجلوين، وتبشيرهم بقورش منقذهم. وكان حزقيال ودانيال بين أظهر المسبيين في بابل وسيأتي الكلام فيهما. وأما ارميا فبقي في اليهودية حين سبيهم وقيّض الله له أن يصحب المرتحلين إلى مصر كما رأيت. على أنه لم يتقاعد عن أن يحذّر من سيقوا إلى بابل من الكفر، ويحضهم على الإحتفاظ بدينهم كما يظهر في رسالته إليهم التي ذكرها باروك تلميذه، وهي حريّة بأن تدوَّن بحروف من ذهب فقد قال فيها (باروك فصل ٦): «إنه لأجل الخطايا التي خطئتم أمام الله يسوقكم نبوكدنصَّر ملك بابل إلى الجلاء في بابل فإذا دخلتم بابل فستكونون هناك سنين كثيرة... وسترون في بابل آلهة من الفضة والذهب والخشب، تحمل على المناكب وتلقي الرهبة على الأمم فاحترزوا أن تتشبهوا بالغرباء وتأخذكم منهم رهبة وإذا رأيتم الجموع أمامها ووراءها يسجدون لها فقولوا في قلوبكم لك يا رب ينبغي السجود... أما تلك فإنَّ لها السنَّة وقد نحتها النجار وهي مغشاة بالذهب والفضة لكنها آلهة زور لا تستطيع نطقاً، يأخذ الناس لها ذهباً كما يؤخذ لعذراء تحب الزينة ويصوغون أكاليل يجعلونها على رؤوس آلهتهم وربما سرق الكهنة من آلهتهم الذهب والفضة لمنفعة أنفسهم... يزينون الآلهة بالملابس كالبشر... وهي لا تسلم من الصدأ والسوس وإن كانت تلبس الأرجوان ويمسحون وجوهها من غبار البيت المتراكم عليها وفي يد كلٍّ منها صولجان كالحاكم على بلد لكنه لا يقتل من يجرم إليه وفي يمينه سيف وفأس لكنه لا ينجّي نفسه من الحرب واللصوص... إذا نُصبت في البيوت فعيونها تمتلئ غباراً من أقدام الداخلين» ويختتم كلامه قائلاً: «إنَّ الرجل الصديق الذي لا صنم له أفضل لأنه بمعزل عن العار».

إنَّ الآثار التي وُجدت في آشور وبابل جاءت مصداقاً لما قاله ارميا في تماثيل الآلهة الذهبية والفضية، وفي حملها على المناكب وسجود الناس لها وفي قبضها على الصولجان والسيف والفأس، ومن تاح له أن يرى المتحف البريطاني أو متحف اللوفر في باريس وغيرها من متاحف أوروبا لم يمترِ البتة في صحة مقال النبي، لأنه

يرى ما يشذ عن العد من تماثيل هذه البلاد وصورها ونقوشها مطابقة وصف ارميا لها. ونخصّ بالذكر منها صورة عشر عليها لايرد في نمرود تمثّل أربعة آلهة وآلهات محمول كلّ منها على مناكب أربعة من الكهنة أو القواد الآشوريين (لايرد في آثار نينوى صفحة ٦٥).

عد ٣٤٢
طوبيا البار

كان طوبيا من سبط نفتالي ممن جلاهم ملك آشور إلى بلاده قبل جلاء بني يهوذا إلى بابل. وقد أفرد له الكتاب سفراً معنوناً باسمه أجمعت شواهد التقليد على أنّ طوبيا وابنه كتباه. وقال القديس ايرونيموس إنهما دوّناه بالكلدانية لغة البلاد حيث كانا. وقال بعض المدققين إنهما كتباه بالعبرانية لغة موطنهما (فيكورو الموجز الكتابي عد ٥٢٢ و ٥٢٦). وإليك خلاصة هذا السفر: كان طوبيا مذ صبوته يتّقي الله ويسجد له في هيكل أورشيم. واتخذ له امرأة من سبطه اسمها حنة وولدت له ابناً سماه طوبيا باسمه. ولما جُلي مع امرأته وولده إلى نينوى كان يصون نفسه من مآكل أهلها. ونال حظوة لدى الملك شلمناصر فأطلق له أن يذهب حيث شاء ويفعل ما يريد. فكان يطوف على من كانوا في الجلاء، ويرشدهم بنصائح الخلاص، وأتى راجيس مدينة ماداي فرأى رجلاً من سبطه اسمه غابيلوس في فاقة، فدفع إليه عشر وزنات من فضة كانت معه وأخذ صكاً بها. وبعد أن مات شلمناصر وملك سنحاريب ابنه (كذا) مكانه وعاد مدحوراً من أرض يهوذا لتجديفه على الله وطفق يقتل كثيرين من بني إسرائيل، كان طوبيا يدفن أجسادهم، ونمى ذلك إلى الملك فأمر بقتله وضبط ماله، فهرب طوبيا بولده وزوجته وبعد أن قتل سنحاريب ابنيه عاد طوبيا إلى منزله وردَّ عليه كلَّ ماله (فصل ١).

واستمرَّ طوبيا على عادته يدفن الموتى حتى في أيام أفراحه، وتعب من ذلك ذات يوم فرمى بنفسه إلى جانب الحائط فوقع زرق من عش خطاف في عينيه وهو سخن فعمي. وتحمَّل مصابه بالصبر الجميل مرشداً امرأته وابنه إلى الإذعان لقضاء الله (فصل ٢). وضاقت نفس طوبيا يوماً فتوسَّل إلى الله قائلاً مُر أن تُقبض روحي بسلام لأنّ الموت خيرٌ لي من الحياة. وكان له ذو قرابة في راجيس اسمه رعوئيل

وله بنت اسمها سارة تزوجها سبعة رجال فقتلهم الشيطان لتفرغهم لشهواتهم، فعيَّرتها إحدى جواري أبيها بقتل أزواجها، فانفردت تصلّي لله في ذلك اليوم نفسه أن يحلَّها من وثاق العار أو يأخذها عن الأرض، فاستجيبت صلاتها وصلاة طوبيا لرفعهما في يومٍ واحد (فصل ٣). وقال طوبيا إنَّ الرب استجاب صلاته وإنَّ أجله قريب، فاستدعى ابنه وأوصاه أن يتقي الله ويجانب كلَّ إثم. وأعلمه أنه أعطى غابيلوس في راجيس عشر وزنات من فضة وأخذ صكاً بها، فلينظر كيف يتوصل إليه فيقبض منه المال ويردَّ إليه الصك (فصل ٤). وأمره أن يلتمس رجلاً ثقة يصحبه بأجرته ليستوفي ماله. فأعدَّ الله له ملاكه رافائيل بزي فتىً بهيّ مشمَّر كأنه متأهب للمسير، وقال إنه يعرف راجيس وغابيلوس وتعهَّد لطوبيا أنه يأخذ ابنه ويرده سالماً. ودعا طوبيا لهما وسافرا (فصل ٥) فباتا أول منزلة في جانب نهر دجلة. وأراد طوبيا غسل رجليه فاقتحمه حوت وارتاع وصرخ، فقال له الملاك خذ بخرشومه، وشقَّ جوفه، واحتفظ بقلبه ومرارته، فدخان القلب يطرد الشياطين، والمرارة تبرئ العيون التي عليها الغشاء. وأنزله الملاك بعد بلوغهما راجيس على رعوئيل أبي سارة المشار إليها، وأعلمه أنه من ذوي قرباه وأنه غني وليس له إلَّا سارة فلا بد لك أن تتخذها زوجة. وأمَّنه بأنه إذا تزوجها وتفرَّغ معها للصلوات وأحرق كبد الحوت فلا يمسه ضرّ كما أصاب من تزوجوها متفرغين لشهوتهم، فكان للشيطان سلطان عليهم (فصل ٦).

وقد استقبلهما رعوئيل بالمسرة، ولما عرف أنّ الشاب ابنِ طوبيا قبَّله بدموع وبكى على عنقه، وطلب طوبيا إليه أن يزوجه سارة فتردَّد أولاً، فأمنَّه الملاك فأخذ بيمين ابنته وسلمهما إلى يمين طوبيا وباركهما وكتبوا عقد الزواج (فصل ٧). ولما دخل عليها فعل كما أمره الملاك، فأحرق فلذة من كبد الحوت وتفرَّغ مع عروسه للصلوات. وظنَّ رعوئيل أنه يموت كباقي أزواج بنته، فأعدَّ القبر ليلاً وأنفذ إحدى الجواري فوجدت العروسين سالمين. فشكر الله وطمر القبر وأعطى طوبيا نصف ماله، وكتب لأبيه صكاً بالنصف الثاني يستولي عليه بعد وفاته ووفاة امرأته (ف٨).

وسأل طوبيا رافائيل أن يذهب إلى غابليوس ويقتضي منه وزنات الفضة ويرد إليه صكه، ويدعوه إلى عرسه، ففعل رافائيل وأتى غابيلوس إلى طوبيا، ففرح به ودعا له (ف ٩). وقلق طوبيا الكبير وامرأته لإبطاء ابنهما وألحَّ طوبيا الصغير على حميه لينصرف إلى ابيه، فأعطاه سارة ونصف أمواله من غلمان وجوارٍ ومواشٍ وإبل

وبقر وفضة كثيرة وصرفه من عنده، وأوصى ابنته أن تكرم حمويها وتحب بعلها وتحفظ نفسها غير ملومة (ف ١٠). وعاد طوبيا ورافائيل يصحبه، ففرح أبوه وأمه به وبعرسه حتى بكيا من فرحهما وأخذ من مرارة الحوت وطلى عيني أبيه، ومكث مقدار ساعة فبدأ يخرج من عينيه غشاوة كغرقى البيض فأمسكها طوبيا وسحبها من عينيه وللوقت عاد إليه بصره فمجّد الله هو وذووه (ف ١١).

وأرادا أن يهبا رافائيل نصف ما جاء به طوبيا الصغير من عند حميه، فأجابهما أنَّ الصلاة مع الصوم صالحة وأنَّ الصدقة خيرٌ من ادخار كنوز الذهب. وكشف لهما أنه رافائيل الملاك، وأنه كان يرفع إلى الله صلاة طوبيا ومبراته بدفن الموتى، وأنَّ الرب أرسله ليشفيه ويخلّص سارة من الشيطان. فارتاعا وسقطا على أوجههما على الأرض، فشجعهما الملاك وأمنهما وارتفع عن أبصارهما، فباركوا الله وحدثوا بآياته (ف ١٢). وسبَّح طوبيا تسبحته المثبتة في الفصل الثالث عشر من سفره. وعاش بعد أن عاد بصيراً إثنتين وأربعين سنة، ورأى بني حفدته فتمت سنوه مئة وإثنتين ودُفن في نينوى. وكان عمره حين ذهب بصره ستاً وخمسين سنة وعاد يبصر وعمره ستون سنة. ولما حضرته الوفاة دعا ابنه طوبيا وأبناءه السبعة وقال لهم قد دنا دمار نينوى، لأنَّ كلام الرب لا يذهب باطلاً وإخوتنا الذين تفرقوا من أرض إسرائيل يرجعون إليها، وبيت الله الذي أُحرق فيها سيستأنف بناؤه وأنتم لا تقيموا هنا، بل أي يوم دفنتم والدتكم معي في قبرٍ واحد اخرجوا من هذا الموضع. وقُضي أجله واستمر طوبيا الصغير في نينوى إلى ممات أمه، وارتحل عنها بزوجته وبنيه وبني بنيه ورجع إلى حمويه فوجدهما سالمين. وبعد موتهما أحرز كلَّ ميراث بيت رعوئيل ورأى بني بنيه إلى الجيل الخامس، واستوفى تسعاً وتسعين سنة من عمره بمخافة الرب ودُفن بفرح (ف ١٤).

فهذا ملخَّص سفر طوبيا ولا يرى المطالع إشكالاً في إدراكه كما لخَّصناه مع أنّ فيه مشكلَين رابكَين. مصدر أحدهما اختلاف الروايات في نسخ هذا السفر لا سيما في تعيين السنين. ومصدر الثاني توفيق هذه السنين مع ما كشفت عنه الآثار الآشورية. وقد طالعنا في المجلة الموسومة بالتمدُّن الكاثوليكي (في نشرتيها المؤرختَين في ٤ تموز و ١ آب سنة ١٨٩١م) فصلَين مشبعَين في هذا المبحث فنلخصهما كما يأتي: قد اختلفت النسخ في تعيين السنة التي فقد طوبيا بصره. ففي الترجمة الإيطالية القديمة إنَّ عمره كان يومئذٍ ٥٤ سنة. وفي الترجمة اللاتينية العامية ٥٦

سنة. وفي اليونانية الواتيكانية ٥٨ سنة. وفي الكتاب القديم المؤتى به من سينا ٦٢ سنة. وفي الكتاب المؤتى به من الاسكندرية والترجمة السريانية التي أذاعها فابيوس ٨٨ سنة. وجاء في الترجمتين العامية والسريانية التي في الجامعة (الكتاب بلغات عديدة) إنَّ جملة سني حياته مئة وسنتان كما ذكرنا. ولكن في الترجمة العربية والكتاب المؤتى به من سينا والترجمة الإيطالية ١١٢ سنة. وفي السريانية التي أذاعها فابيوس ١٣٢ وفي الترجمة الأرمنية ١٥٠ سنة وفي الكتابَين الواتيكاني والاسكندري ١٥٨ سنة. ومثل هذا التباين في تعيين عمر طوبيا الصغير ففي اللاتينية العامية ٩٩ سنة كما روينا. وفي النسخة السريانية ١٠٧ سنين وفي الإيطالية والكتاب السيناوي ١١٧ سنة وفي الكتابَين الواتيكاني والاسكندري والترجمة الأرمنية ١٢٧ سنة حتى جعل هذا التباين كلمت يصرِّح بيأسه من تحقيق عمر طوبيا. واكتفى بتافيوس أن يعتمد على اللاتينية وحدها.

والمعضلة الكبرى إنما هي في توفيق هذه السنين مع ما كشف عنه بالآثار الآشورية. فقبل هذه الإكتشافات قلَّ ما لقي بعض المفسرين إشكالاً في تفسير هذا السفر إلَّا في الآية ال ٧ من الفصل ال ١٤ حيث قيل: «وبيت الله الذي أحرق فيها سيستأنف بناؤه». والهيكل لم يكن أُحرق عند موت طوبيا فتأول الحجري أُحرق الفصل الماضي بمعنى سيحرق في المستقبل كما جاء في بعض النسخ اليونانية. وكانوا يظنون وقتئذٍ أنّ خراب السامرة وجلاء بني إسرائيل إلى نينوى كانا في آخر مدة سلمناصر، وأنّ سنحاريب خلف سلمناصر دون متوسط بينهما، فيتهيأ لهم توفيق هذه السنين. ولكن جاءت الآثار تبيِّن أنّ سلمناصر ابتدأ حصار السامرة، لكن سرغون هو الذي فتحها، وأنّ سرغون ملك سبع عشرة سنة بعد سلمناصر، ثم خلفه ابنه سنحاريب واستمرَّ على منصَّة الملك أربعاً وعشرين سنة. وهو الذي أمر بقتل طوبيا وضبط ماله، فاختبأ ولم يظهر إلَّا بعد أن قتل سنحاريب ابنيه. فإذا أضفنا سني سرغون السبع عشرة إلى سني سنحاريب الأربع والعشرين كان المجموع إحدى وأربعين سنة. ولزم منه أن يكون طوبيا أجلي وعمره خمس عشرة سنة لأنه عميَ وعمره ست وخمسون سنة، والكتاب يقول إنه كان متزوجاً وله ولد، وكان يمضي إلى أورشليم ويقدِّم بواكيره وأعشاره في كلِّ ثلاث سنين. وأنّى يصدق هذا على حدث عمره خمس عشرة سنة.

فكاتب الفصلَين في المجلة «التمدّن الكاثوليكي» عني بالتوفيق بين روايات ترجمات هذا السفر على اختلافها وبين ما جاءت به الآثار، مثبتاً أنّ طوبيا أُجليَ وعمره نحو من عشرين سنة. وإنَّ إقامته بعد الجلاء لم تكن في مدينة نينوى نفسها بل في موضع آخر من بلاد آشور، وإنَّ سفر الملوك الرابع ناطق بأنَّ المجلوين من بني إسرائيل أقاموا في أنحاء عديدة، وأنه لم يكن عند جلائه متزوجاً. بل تزوج في بلاد آشور وولد طوبيا قبل أن ينتقل إلى نينوى، وأن هذا ظاهر من بعض الروايات ولا يخالف الترجمة اللاتينية العامية، إذ جاء فيها (ف ١ ع ١٤): «ولما جلا مع امرأته وولده إلى مدينة نينوى (لا إلى بلاد آشور) حيث كانت كلُّ عشيرته». إنَّ طوبيا وُلد سنة ٧٤٣ ق.م. وأُجليَ سنة ٧٢٢ عند دمار السامرة وله من العمر عشرون أو إحدى وعشرون سنة في السنة الأولى لسرغون فاتح السامرة. وأقام في موضع خارج عن نينوى إثنتي عشرة سنة، وتزوج سنة، ٧١١ ووُلد له طوبيا سنة ٧١٠ ق.م. وهي السنة الثالثة عشرة لسرغون وحينئذٍ جُليَ إلى نينوى ونال حظوة عند سرغون فأطلق له أن يذهب حيث يشاء فمضى وقتئذٍ إلى راجيس، وأقرض غابيلوس الفضة وبقي على ذلك أربع سنين أو خمساً من مدة سرغون وأربعاً وعشرين سنة مدة ملك سنحاريب. وعمي للسنة الأولى من ملك ابنه اسرحدون وهي سنة ٦٨١ ق.م. إذ كان له من العمر إثنتان وستون سنة. ورُدَّ عليه بصره سنة ٦٧٧ ق.م أي بعد أربع سنين وعمره ست وستون سنة. وعاش مئة وإثنتي عشرة سنة كما في الترجمة العربية والإيطالية، وفي الكتاب المؤتى به من سينا مخطوطاً في منتصف القرن الرابع للميلاد؛ فيكون قد عاش بعد زواج ابنه ستاً وأربعين سنة وهي كافية ليرى بني حفدته كما قال الكتاب. ويكون مات سنة ٦٣١ قبل خراب نينوى بست سنين على القول إنها خربت سنة ٦٢٥، أو بخمس وعشرين سنة على القول إنها خربت سنة ٦٠٦. وعلى كلا القولَين يصدق مقال طوبيا لابنه أنْ قد دنا دمار نينوى كما جاء في الكتاب، ولما كان طوبيا الصغير وُلد سنة ٧١٠ كما مرَّ ومرَّت عليه خمس سنين من ملك سرعون وأربع وعشرون سنة مدة ملك سنحاريب وأربع سنين مدة عمي أبيه كان زواجه بسارة وعمره ثلاث وثلاثون أو أربع وثلاثون سنة أي سنة ٦٧٧ ق.م. وجاء في الترجمة اليونانية أنه شهد خراب نينوى سنة ٦٢٥ أو سنة ٦٠٦ فيكون عمره حينئذٍ ستاً وثمانين أو مئة وخمس سنين ومات سنة ٥٩٤ ق.م. فيكون جملة عمره مئة وسبع عشرة سنة كما في الترجمة الإيطالية

والكتاب؛ المؤتى به من سينا. ويكون عاش بعد زواجه ثلاثاً وثمانين سنة، وهي كافية ليرى بنيه إلى الجيل الخامس كما قال الكتاب.

فكاتب الفصلَين في المجلة المذكورة اعتمد في هذا التوفيق على بعض الترجمات والكتاب المؤتى به من سينا مخالفاً الترجمة اللاتينية العامية كما رأيت. وقد أبان وأبنّا نحن أنّ مثل هذه الأعداد ليست من المعتقد بشيء، وإنه كثيراً ما عُثر على أغلاط فيها. وإنه وقع مثل هذا الخطأ في تسمية الملك الذي جلا طوبيا سلمناصر وهو سرغون، ومثله تسمية ملك العيلاميين في سفر يهوديت ارفخشاد وهو فرادرتي، وتسمية آشور بانيبال فيه بختنصر. وتسمية شياكسر بن استياج في سفر دانيال بداريوس المادي وهلمّ جراً.

عد ٣٤٣

دانيال النبي

كان من جملة من جلاهم بختنصر في غزوته الأولى في فلسطين أربعة شبان، وهم دانيال وحنانيا وميشائيل وعزريا. وقد اعتاد ملوك آشور وبابل أن يختاروا ممن جلوهم شباناً من ذوي الحسب ويقيموهم مع شبان كبراء مملكتهم، لتلقي العلوم وتعلُّم لغة بلادهم، ويجروا لهم رزق كل يوم في مدة تعلّمهم في مدارس القصر الملكي. وهذا لم يكن لنا عليه قبلاً دليل إلَّا بما جاء في نبوَّة دانيال (ف ١). إلَّا أنه بعد اكتشاف مكتبة آشور بانيبال الخزفية توفرت البيّنات عليه، فإنَّ قسماً كبيراً من هذه الكتب المكتوبة على الآجرّ كان معدّاً لطلبة مدرسة القصر الملكي وأساتذتها، فبينها كثير من كتب نحو اللغة ومعجماتها، وعلوم التاريخ والمراقبات الفلكية وصفائح لتمرين الطلبة، ولوح لتعليم أميرة شابة حروف اللغة الآشورية وقراءتها، وهذا اللوح محفوظ الآن في المتحف البريطاني، وألواح أخرى كالتي نستعملها الآن في مدارسنا. وقد أنبأتنا صفيحة لسنحاريب (هي المعروفة بصفيحة بلينيو على ما روى سميت في تاريخ سنحاريب صفحة ٢٧) إنَّ مدرسة القصر الملكي كانت تنظّم في سلك تلامذتها طلبة من غير المملكة. فقد قال سنحاريب ثمة: «إنَّ بليبني ابن رجل حكيم من جوار سوانا (بابل) الذي كان تلقّي العلوم وهو شاب في مدرسة قصري أقمته ملكاً على سومير واكدّ». فكذلك أختير دانيال

ورفقاؤه الثلاثة ليتعلموا علوم الكلدانيين مع أبناء أشرافهم في مدرسة القصر الملكي. وغيَّر رئيس الخصيان أسماءهم فسمى دانيال بلشصر وحنانيا شدرك وميشائيل ميشك وعزريا عبدنجو (أو الأحقّ عبدنبو أحد كبار آلهة الكلدان). وكان تغيير الاسم مألوفاً عندهم فقد رأينا ملك مصر سمى الياقيم يوياقيم. وبختنصر غيَّر اسم متنيا ودعاه صدقيا وآشور بانيبال غيَّر اسم بساميتيك ودعاه نبوسيزباني.

إنَّ الشبان اليهود الأربعة أبوا أن يأكلوا من طعام الملك وأن يشربوا من خمر شرابه تمسُّكاً بسنَّة موسى. واسترضوا رئيس الخصيان المقام على المدرسة ليتركهم وشأنهم. وكانوا يقتاتون بالقطاني، ونبغوا في علومهم، وفاقوا أترابهم حتى لم يجد الملك عند إمتحانه الطلبة من مثيل لهم في صفوفهم، وحاز دانيال قصبات السبق على جميعهم (نبوّة دانيال ف ١).

عد ٣٤٤
دانيال وسوسنة

قد ذاع اسم دانيال أولاً بفصله الحادثة التي ذكرت في ذيل سفر دانيال، وحقها من حيث الزمان أن تذكر بعد الفصل الأول من هذا السفر. وهي إنَّ امرأة اسمها سوسنة زوجة يهودي يسكن في بابل اسمه يوياقيم كانت بديعة بجمالها متفرِّدة بتقواها. وكان ملوك بابل يبيحون من جلوهم أن يتخذوا قضاة يفصلون دعاويهم المذهبية. وكان بنو إسرائيل أقاموا وقتئذٍ للقضاء شيخَين أثيمين، فكانا يتردَّدان إلى بيت يوياقيم، فيأتيهما كل ذي دعوى. وكانت سوسنة تدخل عند الظهر حديقة لزوجها تتمشى بها والشيخان يريانها، وقد كلفا بجمالها. فدخلت يوماً على عادتها الحديقة وكان الشيخان اختبآا فيها. وكان الحرّ شديداً، فأرادت سوسنة أن تغتسل، وأرسلت جاريتيها لتأتيانها بدهن وغسول، وأمرتهما بإغلاق باب الحديقة. فوثب الشيخان عليها، وصرَّحا بما في نفسيهما، وتهدداها بأنها إذا لم تطاوعهما شهدا عليها بأنها كانت مع شاب غيرهما، ولذلك أبعدت الجاريتين فتنهدت سوسنة وقالت خيرٌ لي أن أتحمَّل ما يكون من تهمتكما ولا أخطأ أمام الرب، وصرخت بصوتٍ جهير. فصاح الشيخان عليها وأسرع أحدهما ففتح أبواب الحديقة، فتراكض أهل البيت ليروا ما وقع لها. وفي الغد اجتمع الشعب في بيت

رجلها فطلب الشيخان أن تشخص سوسنة أمامهما. وقاما في وسط الشعب ووضعا أيديهما على رأسها، وشهدا عليها بأنهما رأياها وشاباً متعانقين. فبكى أهلها وجميع معارفها، ورفعت هي طرفها إلى السماء باكية متوكلة على الرب، فصدَّق المجمع الشيخين القاضيين وحكموا عليها بالموت. وبين كانت تساق إلى الموت التقاهم دانيال، فصرخ بصوتٍ عظيم قائلاً: أنا بريء من دم هذه فالتفت الشعب كلُّه إليه، فقال أهكذا أنتم أغبياء يا بني إسرائيل حتى تقضوا على بنت إسرائيل بغير تحقيق ؟ إرجعوا إلى القضاء فرجعوا وقال: فرِّقوا بين الشيخين. ودعا أحدهما وسأله تحت أية شجرة رأيت هذه المرأة والشاب يتحدثان؟ فقال: تحت الضروة. ثم استدعى الآخر وسأله تحت أية شجرة رأيتهما فقال: تحت السنديانة. فافتضح كذبهما. فقام عليهما المجمع وصنعوا بهما كما نويا أن يصنعا بالمرأة عملاً بما في سنَّة موسى. فقتلوهما وخلص الدم الذكي. وكان في هذا الأمر الفخر لدانيال كما كان لسليمان في قضائه بين المرأتين المتداعيتين على ابن في أيامه.

قد وُجدت سنة ١٨٤٩ م في روما في المقبرة المحاذية كنيسة القديس سيستوس صورة قديمة تمثل سوسنة بهيئة نعجة صغيرة قائمة بين ذئبٍ ونمر، يراد بهما الشيخان. وقد كُتب فوق رأس النعجة سوسنة وفوق رأس الذئب الشيخ. وقد ذهب كثيرون إلى أنَّ تاريخ سوسنة كتبه دانيال وألحقه بسفر نبوَّته، ولكن ليس لهذا المذهب دليل راهن ولا حجَّة قاطعة بل يؤخذ من هذا التاريخ ما يخالف زعم القائلين به، وأولى منه بالصحة ما ذهب إليه كرنيلوس الحجري وهو إنَّ كاتب هذا التاريخ يهودي نجهل اسمه، وقد كتبه في آخر مدة الجلاء البابلي أو بعد صدور أمر قورش بعود بني إسرائيل إلى أوطانهم. وكتب أصله في الآرامية أو العبرانية على الأرجح لا في اليونانية كما وهم بعضهم، وإن كانت أقدم ترجماته ترجمتان يونانيتان: إحداهما لتاوادوسيون الذي كان في القرن الثاني للميلاد وعنها ما في الترجمة اللاتينية العامية. والثانية في الترجمة السبعينية وقد وُجدت نسخة قديمة منها في روما في مكتبة الأمير كيجي. خُطت في القرن الحادي عشر للميلاد، وطُبعت في روما سنة ١٧٧٢م، ثم وُجدت نسخة أخرى منها في المكتبة الامبروسية في ميلان في كتاب قديم سرياني استرنكالي خُطَّ في القرن الثامن أو التاسع، وقد طبع بوكاتوس هذه النسخة في ميلان سنة ١٧٨٨ م مع ترجمتها إلى اللاتينية. وقد أثبت كثير من العلماء الكاثوليكيين أنّ النسختين السبعينية والتاوادسيونية ليستا إلَّا

ترجمتين عن الأصل العبراني أو الكلداني إلى اليونانية. واعتقدت الكنيسة الكاثوليكية وآباؤها وعلماؤها أنّ تاريخ سوسنة جزء من أسفار الكتاب المقدس القانونية خلافاً ليوليوس الإفريقي وبرفير والبروتسطنت ومن رام الإطلاع على الحجج المثبتة قانونية تاريخ سوسنة على مزيد إسهاب في ما قدمناه فليطالع كتاب الأب فيكورو الموسوم بمسائل شتى كتابية (Melanges Bibliques) من صفحة ٤٦٦ إلى ٤٨٨ طبعة ٢.

عد ٣٤٥

حلم بختنصر وتعبير دانيال له

لما كان دانيال تلقّى العلوم في مدرسة بختنصر وذاع صيت حكمته كان مقرباً إلى حاشية الملك. وكان أنّ بختنصر حلم حلماً إنزعجت نفسه به وهي أنه رأى في حلمه تمثالاً عظيماً، رأسه من ذهب خالص، وصدره وذراعاه من فضة، وبطنه وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، وقدماه بعضهما من حديد وبعضهما من خزف. ورأى أن قد انقطع حجر لا باليدين فضرب التمثال على قدميه وسحقهما. فانسحق التمثال كلّه من حديد وخزف ونحاس وفضة وذهب وصارت كعُفى البيدر في الصيف. وذهبت بها الريح حتى لم يوجد لها مكان. أما الحجر الذي ضرب التمثال فصار جبلاً كبيراً وملأ الأرض. ولما أصبح الملك ذهب عنه منامه ولم يتذكره، فاستدعى السحرة والمجوس والعرافين والكلدانيين ليعرفوا حلمه ويأتوه بتعبيره، فاعتذروا بأنهم لا يعرفون ما حلم الملك، فأنّى لهم الاتيان بتعبيره. فقال الملك إنه أمر أمراً لا يُرَد إما بأن يبيّنوا له حلمه وتعبيره ولهم منه الهدايا والجوائز، وإما أنه يقطّعهم قطعاً ويجعل بيوتهم مزابل. فقالوا ليس إنسان على الأرض يستطيع أن يعلم ما حلم الملك ما خلا الآلهة الذين لا سكنى لهم مع البشر. فغضب الملك وحنق جداً وأمر باستئصال جميع حكماء بابل. وبوشر في تنفيذ أمر الملك، وطُلب دانيال وأصحابه ليُقتلوا. فسأل دانيال اريوك الذي سلطه الملك على تنفيذ القضاء لِمَ هذه القسوة من قِبل الملك؟ فأعلمه بالأمر. فدخل دانيال على الملك وسأله أن يمهله زماناً فيعبّر له حلمه فأمهله. فأعلم دانيال أصحابه حننيا وميشائيل وعزريا وعكفوا على الابتهال لله ليكشف لهم عن حلم الملك وتعبيره. فكُشف السرّ لدانيال في رؤيا ليل. فبارك الله ومضى إلى اريوك فأدخله على الملك فقال دانيال إنَّ السرّ الذي

يسأل عنه الملك لا يستطيع الحكماء بيانه، لكن في السماء إلٰهاً يكشف الأسرار. وقد شاء أن يعلم بختنصر بما سوف يكون في آخر الأيام، وقصَّ على الملك حلمه كما رآه وكما رويناه .وقال أما رأس التمثال الذي من ذهب فيعبِّر عنك أنت أيها الملك ملك الملوك الذي أتاك إلٰه السماء الملك والقدرة والسلطان والمجد. وأما كون صدره وذراعيه من فضة فعبارة عن مملكة أخرى تكون بعدك أصغر منك. وكون بطنه وفخذيه من نحاس فعبارة عن مملكة ثالثة من نحاس تتسلط على الأرض، وكون ساقيه من حديد عبارة عن مملكة رابعة تكون صلبة كالحديد لأنَّ الحديد يسحق ويطحن كلّ شيء، وأما كون قدميه وأصابعه بعضها من حديد وبعضها من خزف فإشارة إلى أنّ هذه المملكة يكون بعضها صلباً كالحديد وبعضها قصفاً كالخزف، وأما الحجر الذي انقطع من الجبل وسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب، فعبارة عن أن إلٰه السماء سيقيم في آخر أيام هذه الدول مملكة لا تزول إلى الأبد. والمراد بهذه الممالك دولة بختنصر وخلفائه، ثم دولة ملوك مادي وفارس، ثم دولة اليونان أي اسكندر الكبير وخلفائه، ثم دولة الرومانيين وتليها مملكة المسيح الأبدية.ولما سمع بختنصر كلام دانيال خرَّ على وجهه ساجداً له وأعطاه هدايا عظيمة كثيرة، وسلَّطه على جميع إقليم بابل وجعله رئيس الولاة على جميع حكماء بابل. وولّى شدرك وميشك وعبدنبو أصحاب دانيال على أعمال بابل وكان دانيال في باب الملك (دانيال ف ٢).

جاءت آثار الكلدانيين وما عُلم من عاداتهم مصداقاً لما جاء في سفر دانيال. فكان للأحلام عندهم وعند الآشوريين أهمية لا أقلّ من أهميتها عند المصريين. كما رأيت في أحلام فرعون ورئيس السقاة، ورئيس الخبازين التي عبرها يوسف، والبينات على صحة ذلك عند الكلدان أكثر من أن تورد، فنجتزئ منها بما يأتي: قال ديودور الصقلي (ك ٢ ف ٢٩): « إنَّ الكلدانيين كانوا يعتبرون الأحلام كالمعجزات، ويعبِّرونها كالنبوَّات. وكان لهذا التعبير عندهم أصول وضوابط، كان العلم بها معدوداً من جملة علومهم» وقد وُجد في مكتبة آشور بانيبال التي كُشف عنها في نينوى كتاب في تعبير الأحلام انطوت صفحاته على كثير منها وعلى أحداث عديدة دلّت عليها، وقد نشر بعضهم ترجمة صفيحة منها فكان معناها «إذا رأى إنسانٌ في الحلم ذكراً... أو رأى كأنَّ جسم كلب... أو رأى كأنَّ جسم دب وله أرجل حيوان آخر أو جسم كلي وله أرجل حيوان آخر، أو رأى كأنَّ الاله

تنكستو يطلب ميتاً، ويؤسف على أنّ الصفيحة الخزفية محطمة لا يُعلم منها كيف يكون تعبير هذه الرؤيات. وكانت النساء في بابل ينمنَ في هيكل زرنابيت إحدى معبودات الكلدان ليحلمنَ أحلاماً يقصصنها على المنجمين فينبّئونهنَّ بما سيكون لهنّ. وجاء في تاريخ آشور بانيبال عن آثاره المسمارية أنّ تيومان ملك عيلام سأله أن يسلم إليه بعض أمراء أسرته الذين كانوا تحالفوا عليه وفرّوا إلى مملكة آشور فأبى آشور بانيبال تسليمهم فأثار تيومان الحرب عليه. ولم يتشاءم بكسوف الشمس الذي حصل وقتئذٍ. ولجأ آشور بانيبال إلى استار آلهة آشور ويستمدّ إسعافها فتقبلت صلاته وأعلمته أن لا يخشى سوءًا، وأفاضت السرور على قلبه. وحلم تلك الليلة أحد العرافين حلماً كأنَّ إستار تبدت له وبيدها حربة، وقد ركبت مركبة بهية وكأنها تقول لآشور بانيبال: هلمَّ إلى ماقدَّام، فالمجال فسيح. فحارب تيومان وقهره (رواه لانرمان في كتابه العرافة عند الكلدان صفحة ١٣٧). وكلّ هذا مؤيد لأهمية الأحلام عند الكلدان كما روى دانيال.

ثم إنَّ دانيال ذكر رتب الحكماء عند الكلدان وسماهم سحرة ومجوساً وعرافين. والكتب السحرية التي كشف عنها في مكتبة آشور بانيبال جاءت مبيِّنة رتب كل من هؤلاء ووسائل عرافته. (رواه لانرمان في كتابه المذكور صفحة ١٣). وذكر دانيال أيضاً رئيس الشرط وهو في الأصل «رب توبع حيا». وتأويله كبير المنتقمين أو منفذي القضاء بالقتل. وقد اكتشف سميث في نمرود صفيحة خزفية يمثل فيها أحد هؤلاء المنفذين وفي يمناه خنجر ويسراه على وتر قوس معلَّق على ظهره. وقد سمى دانيال هذا الرئيس اريوك فكأنه في الكلدانية ܐܪܝܟܐ (اريخا)، ومعناه الطويل وقد ورد هذا الاسم كثيراً في آثار بابل فهو عَلَم منقول عن الصفة. وقد أبانت هذه الآثار أيضاً أنّ بختنصر كان مولعاً بالتمثيل وهذا يظهر من إقامته التمثال الآتي ذكره، ومن أقوال المؤرخين القدماء أيضاً. وكان لجيران الكلدانيين مثل هذا الولوع في التماثيل. فقد روى آشور بانيبال في إحدى اسطواناته أنه أخذ من جملة غنيمته من بلاد عيلام «إثنين وثلاثين تمثالاً» وإنَّ بعضها كان من ذهب فكلّ هذه القرائن مؤيدة لما جاء في كلام دانيال.

عد ٣٤٦

تمثال بختنصر وطرح حننيا وميشائيل وعزريا في الأتون

جاء في سفر دانيال (فصل ٣) إنَّ بختنصر الملك صنع تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً،وعرضه ست أذرع، ونصبه في بقعة دورا بإقليم بابل، ودعا الأقطاب (سادة القوم الذين يدور عليهم أمرهم) والولاة والحكام والقضاة والخزّان والفقهاء والمفتين وسائر أمراء الأقاليم فأتوا لتدشين التمثال. وهتف منادٍ بصوتٍ شديد قد أُمرتم أيها الشعوب والأمم والألسنة بأنكم إذا سمعتم صوت القرن والأنبوب، والقيثار والونج والسنطير والمزمار وسائر أنواع المعازف، لزمكم أن تخرّوا ساجدين لتمثال الذهب الذي نصبه الملك. ومن لا يخرّ ساجداً فمن ساعته يُلقى في أتون نارٍ متّقدة فكان كذلك. ولم يخرّ حننيا وميشائيل وعزريا للتمثال، فوشي بهم قوم من الكلدانيين قائلين للملك إنَّ رجالاً من اليهود ولّيتهم على أعمال بابل وهم شدرك وميشك وعبدنجو، لم يعبأوا بأمرك ولم يسجدوا للتمثال الذي نصبته، فحنق الملك وأمر بإشخاصهم لديه وهددهم بأنه يلقيهم في أتون النار المتّقدة إن لم يسجدوا للتمثال؛ فأجابوه لا نقدر أن نجاريك على هذا، وإلٰهنا الذي نعبده قادر على إنقاذنا من الأتون ومن يدك؛ وهبه لا ينقذنا فلا نسجد لتمثال الذهب.

فامتلأ بختنصر حنقاً وأمر أن يحمّى الأتون سبعة أضعاف، وأوثقوا شدرك وميشك وعبدنجو في سراويلاتهم وأقمصتهم، وأرديتهم وألقوهم في وسط أتون النار المتّقدة، فقتل لهيب النار من ألقوهم. وكان عبيد الله يتمشون في وسط اللهيب مسبحين ومصلّين له. ولم يزل عبيد الملك يوقدون الأتون بالنفط والزفت والمشاقة والزرجون، حتى ارتفع لهيبه تسعاً وأربعين ذراعاً وانتشر، وأحرق من كان من الكلدانيين حوله، ونزل ملاك الرب وطرد لهيب النار عمن كانوا فيه، وجعل في وسط اللهيب ريحاً فلم تمسهم النار ولم تزعجهم، فسبحوا الرب تسبحتهم المثبتة في الفصل الثالث من سفر دانيال. واندهش بختنصر وقال لعظمائه: ألم نكن نلقي ثلاثة رجال في الأتون وهم موثوقون، فكيف أراهم أربعة يتمشون في وسط النار؟ ومنظر الرابع يشبه ابن إلٰه واقترب من باب الأتون ما أمكن وناداهم أن اخرجوا وهلمّوا، فخرجوا، ورأى الملك وعظماؤه أنهم لم تمسَّهم مضرّة النار، ولم تحترق شعرة من رؤوسهم ولا تغيَّرت سراويلاتهم فقال بختنصر تبارك الرب الذي أرسل

ملاكه وأنقذ من توكلوا عليه وغايروا كلمة الملك آمنين. وأمر أنّ كلّ شعب أو أمّة أو لسان تفوه بتجديف على إله شدرك وميشك وعبدنجو يُقطعون قطعاً وتجعل بيوتهم مزابل، فإنه ليس له آخر يستطيع أن ينجي هكذا، وأثبت شدرك وميشك وعبدنجو على أعمال بابل.

فهذا ما جاء في الكتاب ولا ذكر فيه لدانيال في هذه الحادثة، فيظهر أنه لم يشهد تدشين التمثال تعمداً أو لعذر، ولننظر بما تؤيده الآثار الكلدانية والآشورية؛ فقد مرَّ آنفاً ذكر ولوع الكلدان والآشوريين بالتماثيل وقد كشف لايرد في نمرود عن تمثال آشور بانيبال. ووجد هناك أيضاً تمثال للإله نبو وتمثال سلمناصر الثاني، وكل هذه التماثيل في المتحف البريطاني. هذا في بلاد آشور وأما في بلاد الكلدان فقد كشف سريك في أطلال تل نوح من سنة ١٨٧٦ م إلى سنة ١٨٨١ م عن عشرة تماثيل وهي الآن في متحف اللوفر في باريس. وكانت هذه التماثيل تدشَّن باحتفاء في بلاد الكلدان فتُحمل على مناكب الكهنة يحدِّق بهم ألوف مؤلفة من الشعب، وكانوا يدشنونها في أيام الأعياد فقد وُجدت صفيحة لبختنصر كُتب عليها: «أنا أخذتُ كثيراً من كنوز البلاد جعلتها حول المدينة كزينة لها يوم رُفع هناك الأمير الألهي إله السماء والأرض الرب الإله في عيد ليلموكو في رأس السنة في اليوم الثامن والحادى عشر، ويحمل بصنوف التبجيل تمثال ايلو (أو عليو العلي) جمال العالم وتُطرح الكنوز أمامه» وقد اعتاد الكلدان عمل تماثيل ثمينة وكبيرة. فروى ديودو الصقلي (ك ٢ ف ٩) إنه كان في أحد أهرام بابل ثلاثة تماثيل من ذهب مع مذابحها وتوابعها. وكان فيها من الذهب ٥٨٥٠ وزنة وهي عبارة عن مئة وثلاثة وأربعين ألف وخمس مئة وتسعة وخمسين كيلوغرام؛ قيمتها من نقود أيامنا أربع مئة وثلاثون مليوناً وست مئة ألف وسبعة وسبعون ألف فرنك. وقد وُجد في مكتبة آشور بانيبال لوح هو الآن في المتحف البريطاني كُتبت عليه شكاية للملك بسرقة مقدارٍ من الذهب المُعد لصنع تمثال.

وإليك ترجمة هذه الشكوى: إلى مولاي الملك من عبده عبدنبو السلام للملك مولاي، وليمنح آشور وشمش وبعل وزربانيت ونبو وتسميت وإستار نينوى وإستار اربل الآلهة المقتدرون مئة عام من العمر لمولاي الملك ويزيد في ارتقائه ورفاهه ورفاه بنيه، إنَّ الذهب الذي دفعه إليَّ المستشار المقرّب ورئيس القصر في شهر تشرين وقدره ثلاث وزنات ذهب خالص وأربع وزنات ذهب خالص قد وقع في يد رَب

دانينو (لقب لأحد العمال)؛ وهو مُعد لعمل تمثال الملك وأمه ولم يدفع إلى العملة، فليصدر أمر مولاي الملك إلى المستشار المقرّب ورئيس القصر أن يستردّا الذهب ويدفعاه من الآن إلى شهر إلى الجند وأن يدققا في الأمر». (رواه لانرمان في كتابه الموسوم بالعرافة عن الكلدان صفحة ١٩٢) فسبع وزنات من ذهب قيمتها ٦٣٦٣٠٠ فرنك. وكُشف عن لوح آخر كُتب عليه أن آشور صرف أربع وزنات ذهب لصنع صورتَي مرروداخ وزربانيت مع ملابس ذهبية لهما ورصّعها بحجارة ثمينة، وقيمة السبع الوزنات من ذهب ٣٦٣٦٠٠ فرنك. فبختنصر أخذ من مصر وسورية من الذهب ما لا يعده عادٌّ وشهد باروز (فقرة ٤ من تاريخ اليونان) إنه بذل أكثره في تجميل المعابد. فلا عجب إذاً من صنعه تمثالاً من ذهب طوله ستون ذراعاً، وعرضه ست أذرع. هذا ولا يلزم منه أن يكون التمثال برمّته من ذهب بل يُحتمل أن كان من خزف مغشّى بصفائح من ذهب فلا وجه للتكذيب بآيات الكتاب.

وأما دورا حيث أقيم التمثال فتسمى إلى اليوم بهذا الاسم، وهي على ثمانية كيلومترات في الجنوب الشرقي من بابل، فهناك أكمّات تسمى تلول دورا ومنها تل يُعرف بالتل المخطط وهو مُشرف على الجهات الأربع. وفي أعلاه أطلال من الآجرّ، وكل من زاره حمل على الظنّ أنه هناك أقام بختنصر التمثال الذي ذكره دانيال. هذا ما قاله اوبر واختتم كلامه (في كتابه الموسوم بالبعث إلى ما بين النهرين مجلد ١ صفحة ٢٣٩) قائلاً: «إنَّ المبعوثين من افرنسة إلى ما بين النهرين إن لم يكونوا وجدوا تمثال بختنصر الذهبي (وقد شاع بين أهل تلك البلاد أنهم وجدوه) فلا أقلّ من أن يكون قد تيسّر لهم تعيين محل نصبه».

إنَّ الآثار الكلدانية تؤيد ما جاء في سفر دانيال من وجه آخر، وهو أنّ آلات الطرب والموسيقى التي ذكرها دانيال نجد صورها أو ذكرها في الآثار البابلية. وقد عدَّ النبي ستاً منها وهي: «القرن والأنبوب والقيثار والونج والسنطير والمزمار». فالقرن Trompette ترى صورته على إحدى صوَر سنحاريب ذكرها لايرد (في آثار نينوى صفحة ١٥) وهي في المتحف البريطاني، وهو مستقيم وأشبه بالقرن الروماني المصوَّر على عمود تريانوس في روما. والأنبوب Flute نجد صورته في كثير من الآثار الكلدانية ولا سيما في الصورة التي ذكرها لايرد (في كتابه في بابل ونينوى صفحة ٤٥٥)؛ وكان مضاعفاً عند الكلدان كما كان عند اليونان والرمانيين. ثم القيثار

(Cithare ou Harpe) نرى صورته في آثار آشور القديمة وكانت أوتاره ثمانية إلى عشرة ونراه في الصوَر المتأخرة ذا سبعة عشر وتراً.

ومن صوره الصورة التي وجدها سرسك في تل نوح تمثل موسيقياً يضرب بيمناه قيثاراً ذا أحد عشر وتراً يحمله بيسراه. والونج (Sambuca) نوعٌ آخر من القيثار على الأرجح ولم يكن فيه إلّا أربعة أوتارا ولا يؤدي إلّا الأصوات الممدودة، وتجد هيئته في الآثار الكلدانية. والسنطير (Psalterion) آلة ذات عشرة أوتار وكان يُسط على صندوق مجوّف مثقوب ثقوباً عديدة وترى هيئته في صورة لآشور بانيبال ذكرها لايرد (في كتابه في نينوى وبابل صفحة ٤٥٤). وأما المزمار (Symphonie) فيختلف في هيئته. وقال بعضهم إنه نوع من الأرغن، والآثار الكلدانية ترى فيها صوَر آلات طرب أخرى فقد تكون إحداها المزمار ومنها الدفوف والطبول والطنبور وهي المشار إليها في قول النبي: «وسائر أنواع المعازف» وما أحسن ما قاله لانرمان (في كتابه في العرافة عند الكلدان صفحة ١٩٠) إنَّ يهودياً عائشاً في فلسطين لم يكن يمكنه أن يعرف بعد أربع مئة سنة (كما يزعم الجاحدون ناسبين سفر دانيال إلى رجل يهودي كتبه بعد أربع مئة سنة من أيام دانيال) جميع عادات البابليين وقرائن حالهم وآلات طربهم كما ذكرها دانيال.

إنَّ الآثار الكلدانية تؤيد مقال دانيال بقرائن أخرى منها أنّ إجلال الكلدانيين لا سيما بختنصر لآلهتهم وتماثيلها كان بالغاً حدَّ الغلو. ونرى خطوط بختنصر مفعمة بعبارات التجلة لتماثيلها ومعابدها ومؤذنة بأنه كان يقدم لها نفائس مقتناه وأثمن غنائمه. وما رأيك فيه وقد أقلَّ جهاراً رجال عبرانيون رقاهم هو مناصب رفيعة من إكرام التمثال الذي صنعه، ووشى بهم علانية على مسامع اراكنة دولته وأقطابها. ولدى إستجوابهم صرَّحوا دون هيبة ولا حياء أنهم لا يكرِّمون تمثاله، ولو لقوا أمرَّ العذاب. فلا جرم أنّ كلّ ذلك كان حاملاً له على أن يميتهم شرَّ الميتات. ومنها أنّ عذاب الطرح في النار كان مستفاضاً عندهم وأتت آثار كثيرة بإثباته. فقد روى سميث في تاريخ آشور بانيبال أنه كتب على الأسطوانة الثانية في العمود ال ٦ ما ترجمته: «إنَّ دونان ونيبوزالي والبّي كمبول فاها بشتائم فظيعة لآلهتي فقطعت لسانيهما في اربل... ودونان طُرح في أتون في نينوى وأحرق برمته». وقد عامل بمثل هذا العقاب أخاه سماسوموقين، إذ ألقاه في أتون النار في بابل لثورته عليه، فكانت العصاوة على الملوك تعاقب عقاب العصاوة على الآلهة. فقد كتب في

الاسطوانة الأولى العمود ال ٤: «إنَّ سماسوموقين أخي الذي عصاني وحاربني ألقوه في أجيج النار المتَّقدة وانتزعوا حياته». وقد وُجدت صورة ناتئة على أحد أبواب قصر في بلوات (في ما بين النهرين) تمثل هيئة هذه الأتانين وكانت مقسومة إلى طبقتين لكلٍّ منها، ثلاث نوافذ ينبعث اللهيب منها ويرى من أعلى الأتون وجوانبه نحو إثني عشر رأساً من المقضي عليهم بهذا التبريح. وقد استمرَّت في بلاد فارس عادة إحراق المجرمين في الأتون إلى عصر غير بعيد. فقد شهد سردان في رحلته في بلاد فارس سنة ١٦٦٢ م (طبع كتاب هذه الرحلة في امستردام سنة ١٧٣٥م) إنه حصلت مجاعة في بلاد فارس. فأضرم والي أصفهان أتونين فيها مدة شهر متهدداً تجار الحنطة بأنه يلقي فيهما من يغتنم فرصة المجاعة ليبيع القوت بثمن فاحش، لكنه لم يلقَ أحداً فيهما لأنَّ هذا العقاب أرعب تجار الحبوب. وعليه فطرح المجرمين في النار كان مستطرقاً عند الكلدان ولم يكن منه شيء في فلسطين إلى أيام المكابيين. فإننا نرى العازر الشيخ والأخوة السبعة المكابيين لم يُلقوا في النار بل عُذبوا بعذابات أخرى (مكابيين ٢ فصل ٦ و ٧)، وهذا يفند زعم من قالوا إنَّ سفر دانيال كُتب في أيام المكابيين ولم يكتبه دانيال في بابل.

عد ٣٤٧

الحلم الثاني لبختنصر وجنونه وتعبير دانيال لحلمه

أنبأنا دانيال أن بختنصر بعد نجاة الشبان العبرانيين من لهيب الأتون، كتب منشوراً إلى جميع شعوب مملكته افتتحه بإعلان الآيات التي صنعها إليه الإله العلي قائلاً إنَّ ملكوته ملكوت أبدي وسلطانه إلى جيلٍ فجيل؛ وأخذ يقصّ حلماً احتلمه فقال إنه بينما كان مطمئناً في بيته خصيباً في قصره، رأى حلماً أفزعه وأقلقه، فدعا حكماء بابل وسحرتها ومجوسها. ودخل عليه دانيال أخيراً فقصَّ عليه حلمه قائلا: رأيت كأنَّ شجرة في وسط الأرض مرتفعة جداً بلغ إرتفاعها إلى السماء، ومنظرها إلى أقصى الأرض وأوراقها بهية، وثمرها كثير شهي، وفيها غذاء للجميع، وتحتها تستظل وحوش الصحراء، وفي أغصانها تسكن طيور السماء. وإذا بساهر [1] قديس نزل من السماء، وهتف بصوتٍ شديد أن اقطعوا الشجرة واقضبوا أغصانها.

---

(١) كان الكلمة في السريانية ܥܝܪܐ (عيرو) ومعناها الساهر والملاك لانه يسهر على تسبيح الله.

وانفضوا أوراقها. وانثروا ثمارها لتشرد الوحوش من تحتها والطيور من أغصانها. واتركوا أصل عروقها في الأرض وليوثق بالحديد والنحاس في خضر الصحراء وليبتل بندى السماء وليكن نصيبه مع وحوش الأرض. وليتحوّل قلبه عن البشرية ويُعطَ قلب وحش ولتمرّ عليه سبعة أزمنة.

هذا هو الحلم الذي رآه، وقال عبِّره لي يا بلشصر. فإنَّ جميع حكماء مملكتي لا يستطيعون تعبيره وأنت قادر عليه لأنَّ فيك روح الآلهة القديسين. فبُهت دانيال الذي سماه بلشصر ساعةً مخافة أن يحتدم عليه الملك غيظاً لإنذاره بما سيحلُّ به. وألحَّ عليه فقال إنَّ الشجرة التي رأيتها أيها الملك إنما هي عبارة عنك إذ تناهت قوتك وعظمتك، وامتدَّ سلطانك إلى أقصى الأرض. والساهر الذي نزل من السماء يراد به القضاء العلوي الذي صدر عليك بأن يكون سكناك مع وحوش الصحراء. وتغتذي بالعشب كالثيران، وتبتلّ بندى السماء، وتستمر على هذه الحال سبعة أزمنة إلى أن تعلم أنّ العلي يتسلَّط على ملك البشر، ويجعل له من يشاء. وأما بترك أصل الشجرة فعبارة عن أن ملكك يبقى لك بعد أن تعلم أن السلطان للسموات. ولتحسن مشورتي لديك بأن تفتدي خطاياك بالصدقة وآثامك بالرحمة للبائسين. وبعد إنقضاء سنة كان بختنصر يتمشى على قصر مملكته، فقال متكبراً أليست هذه بابل العظمى التي بنيتها أنا بقوة عزتي وبهاء مجدي؟ فإذا بصوتٍ من السماء يقول له أن قد زال الملك عنك ويعيد عليه ما رآه في حلمه، فأضاع رشده وفارق الناس. وأكل العشب كالثيران وابتلَّ جسمه بالندى وطال شعره كريش النسور، وأظفاره كمخالب الطيور. وبعد انقضاء الأيام قال أنا بختنصر رفعتُ عيني إلى السماء فتاب إليَّ عقلي وباركتُ العلي وسبحتُ، وعظَّمتُ الحي إلى الأبد، وطلبني مشيري وعظمائي، وتقررتُ في ملكي، وازددتُ عظمة فأسبِّح وأعظِّم ملك السماء الذي جميع أعماله حقّ وسبله عدل، ومن سلك بالكبرياء فهو قادر على خفضه.

فهذا ما جاء في الكتاب. وأما السبعة الأزمنة فقال يوسيفوس أنّ المراد بها سبع سنين وتابعه على قوله كثيرٌ من المفسرين. ولكن قال لانرمان (مجلد ٦ من تاريخه الشرقي) إنها سبعة أشهر وهذا أطبق لما جاء في الآثار البابلية التي تؤخذ منها قرائن عديدة مؤيدة ما جاء في كلام دانيال. منها أنّ اعتبارهم للأحلام كان مزيداً وقد مرَّ ذكره، وإنه كان من عادتهم أن يُصدروا مناشير لشعبهم بذكر الآله العلي، وتدلُّ على ذلك آثار كثيرة وكلام بختنصر في منشوره الذي ذكره دانيال في تعظيمه

الإله العلي أشبه بكثير من خطوطه التي يعظّم فيها مروداخ وغيره من آلهته. ففي أثره المعروف بالكتابة الكبرى سمى مروداخ «الرب العظيم الرب الجواد رئيس آلهة العلي بل الأعلى الذي يمنح الملك ويعنى بنجاحه» إلى أن يقول في بابل: «ولم أرفع مدينة في كلّ البلاد كما رفعت مدينتك بابل أمام جميع الناس إجلالاً للاهوتك». فما ذكره دانيال ينطبق خير انطباق على عاداتهم. والذي يوقف عنده إنما هو أن ينشر الملك على شعبه أمراً مذلاً له لكن بختنصر كان على كبريائه يعظّم فضل الآلهة وإحسانهم إليه، وكان له فخر بعناية الآلهة بصحته أكثر من سائر الناس. وقد كُتب هذا المنشور بعد إبلاله من مرضه. ولا غرو أنّ شعبه علم بمصابه فكان له أن يذيعه متفاخراً بشفاء الآلهة له: والعبارات التي يظهر منها ذلّه وجنونه واقتياته بالعشب ليست من كلامه بل من كلام دانيال معترضة بين كلام الملك بدليل أنها وردت بضمير الغيبة لا بضمير المتكلم، وهي من عد ٢٥ إلى ٣١ من الفصل الرابع. ثم يعود كلام الملك حيث يقول: «وبعد إنقضاء الأيام أنا نبوكدنصّر رفعتُ عيني إلى السماء» الخ.

إنّ لنا في الآثار البابلية قرينة تؤيد مقال دانيال في جنون بختنصر وتيسر حلّ معضلة في تاريخ بابل. فقد جاء في أحد هذه الآثار أنّ نركليسور صهر بختنصر وثاني خلف له يسمي أباه بلسوم إسكون في خطوطه الرسمية ملك بابل، وليس في جريدة ملوك بابل هذا الاسم، ولا يمكن تعيين وقت لملكه، ولا يُقدَّر أنه زاحم بختنصر مع سطوته وعزه، فلا يمكن إذاً أن يكون ملكاً على بابل إلّا في مدة جنون بختنصر أي أنه كان رئيس اللجنة المدبرة الملك في تلك المدة فسماه ابنه ملكاً. وقد جاء في أحد خطوط بختنصر «إنّ حالة مملكتي... لم تسر قلبي ففي كلّ ممالكي لم أبنِ محلاً حصيناً ورفيعاً، ولم أحشد كنوز مملكتي الثمينة ولم أنشئ في بابل أبنية لنفسي وكرامة اسمي. ولم اقدِّم ضحايا لمروداخ سيدي ومسرَّة قلبي، ولم انظِّف القنوات والترع». ولم يذكر ما منعه من ذلك كله ولا يظهر له وجه إلّا من قبل الداء الذي اعتراه. وقد كُشف من أمد قريب عن عتبة باب من نحاسٍ يتلخص مما كُتب عليها إنَّ بختنصر قدَّمها نذراً لهيكل بورسيبا العظيم، لأنه أُصيب بمرض وعادت إليه عافيته.

إنَّ الداء الذي أصاب بختنصر هو الذي يسميه الأطباء ليكانتروبي (Lycanthropie) فهذا المرض يخيِّل لمن أصيب به أنه استحال ذئباً أو حيواناً

آخر، فينكف عن الكلام ويمتنع عن القوت المعتاد ويقتات بالعشب كالبهيم. ويأنف أحياناً أن ينتصب فيمشي على يديه ورجليه. ويحب أن يختفي نهاراً ويخرج ليلاً. وقد حقَّق مشاهير من الأطباء منهم بريار دي بواسمون: (Brierre De Boismont) : «إنَّ هذا الداء معروف من أقدم أيام الوثنية وكان المصابون به يُخيَّل لهم أنهم استحالوا إلى ذئاب. ويظهر من كتب هيرودت أنّ هذا الداء كان فاشياً يصاب به كثيرون. وروى القديس اغوسطينوس ان بعض النساء في إيطاليا كنَّ يتوهمنَ أنهنَّ استحلنَ إلى أفراس. وقد فشا هذا الداء في أوروبا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، فكان من اعتراهم يغادرون منازلهم ويتوغلون في الغابات، فتنمو أظفارهم. ويطول شعرهم، وتتصل الوحشية فيهم إلى أن يفترسوا أطفالاً». فبختنصر أصابه هذا المرض مع أعراضه المار ذكرها ثم شُفي منه. وقد حقَّق الأطباء أنه لا يستحيل البرء من هذا الداء. فكتب منشوره المذكور إقراراً بفضل إله دانيال وتبجيلاً له، ولكن لا يفهم منه أنه ترك الوثنية واعتقد بوحدانية الله، ولم يعش بعد برئه طويلاً لأنه توفي في بابل سنة ٥٦١ ق. م بعد أن ملك أربعاً وأربعين سنة وأتمَّ من العمر نحواً من ثمانين سنة.

عد ٣٤٨

بلشصر ملك بابل وتعبير دانيال رؤياه

لما كان غرض دانيال أن يدوِّن أخبار عناية الله وآياته لم يتعرَّض لذكر وفاة بختنصر وأخبار خلفائه. بل انتقل إلى ذكر الوليمة التي صنعها بلشصر ملك بابل لألفٍ من عظمائه، وإنه أتى بالآنية الذهبية والفضية التي أُخذت من هيكل أورشليم، ليشربوا الخمر بها. ويسبِّحوا الهة الذهب والفضة والنحاس والحديد، والخشب التي يعبدونها؛ وانه رأى أصابع يد إنسان كتبت تجاه المصباح على حائط قصره كلمات لم يُعلم المراد بها. فتغيرت سحنته وقلقت أفكاره. واستدعى المجوس والكلدانيين والمنجمين، وقال لهم من قرأ هذه الكتابة وعبَّرها ألبسته الأرجوان وقلَّدت عنقه بطوق من ذهب وجعلته الثالث في المملكة. فلم يستطع حكماء بابل أن يقرأوا الكتابة أو يعبِّروها، ودخلت الملكة، والأظهر أنها أم الملك، غرفة الشراب، وأشارت أن يُستدعى دانيال لأنَّ فيه روح الآلهة القدوسين. وقصَّت على الملك ما كان لبختنصر (وسمته أباه)، وتعبير دانيال حلمه فأدخلوا دانيال أمام الملك ووعده

بما وعد به مجوسه إن أنبأه بالكتابة وتعبيرها فقال دانيال للملك: لتكن عطاياك لك وجوائزك لغيري. وأخذ يخبره بعظمة بختنصر مسمياً إياه أباه وبما أصابه لتجّبره. وقال وأنت أيها الملك مع علمك بكلّ ذلك ترفَّعت على رب السماء، وأتيت بآنية بيته وشربت بها خمراً أنت وعظماؤك، ونساؤك وسرايرك، ولذلك أُرسلتُ من لدنه كفّ تلك اليد فكتبت: «مَنا مَنا ثقِل وفرسين» وهذا معناها مَنا أي أحصى الله ملكك وأنهاه. ثقِل أي وُزنت بالميزان فوُجدتَ ناقصاً. فرس (أو فرش) وفرسين أي قُسمت مملكتك ودُفعت إلى ماداي وفارس. فأمر الملك حينئذٍ فألبسوا دانيال الأرجوان وقلَّدوا عنقه بطوق من ذهب. ونوديَ بأنه الثالث في سلطان المملكة. وفي تلك الليلة قُتل بلشصر (دانيال فصل ٥).

لم يذكر المؤرخون القدماء بلشصر بين ملوك الكلدان، ودانيال سماه ملكاً وابن بختنصر. فتذرع الملحدون بذلك للتكذيب بمقال دانيال والتنديد به. فجاءت الاكتشافات الحديثة تفنّد زعمهم وتفضح كذبهم. فقد كُشف في سنة ١٨٧٩م في بابل عن صفيحة من خزف هي الآن في المتحف البريطاني، كُتبت عليها أخبار مهمة سنأتي على ذكرها ومنها ما جاء في عمودها الثاني: «في السنة السابعة كان الملك (نابونيد) في مدينة تافا وابن الملك بلشوروصر (بلشصر) مع القادة والجنود في اكّد (بابل) والملك لم يذهب إلى بابل». فإذاً كان بلشصر ملكاً ولا أقلّ من أن يكون نائباً عن الملك أبيه، فحقٌّ لدانيال أن يسميه ملكاً كما سمى بختنصر ملكاً في حياة أبيه (دانيال فصل ١ عد ١). وذكر لانرمان في تاريخه القديم للمشرق (مجلد ٤ صفحة ٤٣١ طبعة ٩) صفيحة أخرى كتب نابونيد عليها أنه: «يسأل الآلهة حنونيت العون لنفسه ولابنه البكر بلشوروصر (بلشصر)». وفي الكتاب إشارة إلى أنّ الملك وابنه كانا شريكين في الملك، فإنه قال لدانيال أنه يكون الثالث في المملكة لأنَّ الملك هو الأول وابنه هو الثاني ويكون دانيال الثالث. وروى فيكورو (في الكتاب والإكتشافات الحديثة مجلد ٤ صفحة ٥١٣) أنه كُشف عن أربع صفائح في مغاور مدينة اور وهي الآن في المتحف البريطاني؛ كتب نابونيد على إحداها متوسلاً إلى الإله سين أي القمر: «أنا نابونيد ملك بابل احفظني بمخافة لاهوتك العظيم وأطِل أيامي وأيام بلشوروصر (بلشصر) ابني البكر الذي ولدته». وأيضاً قد وُجدت سنة ١٨٧٦ م في ضواحي بابل ألواح كُتبت عليها صكوك عقود لأسرة شريفة تسمى أجيبي يتحصَّل منها فوائد عديدة في تواريخ بابل في

مدة مئة وست وتسعين سنة. وفي المتحف البريطاني الآن منها نحو ألفين وخمس مئة صكّ. ومنها صكّ مؤرَّخ في ٢٣ كيسلاوفي السنة الثالثة لمروداخ شورروصر مبين مبيع قطعة أرض معدَّة لزرع الحبوب، واسم البائع أحي ايتابسي بن نبو ملك؛ واسم الشاري ايدينا مروداخ شريك بيت اجيبي. فالملك مروداخ شورروصر ليس هو إلّا بلشورروصر (بلشصر) لأنَّ معنى الأول مروداخ يحفظ الملك، ومعنى الثاني بال يحفظ الملك فلا فرق بينهما إلّا باسم الاله. ومروداخ وبال كانا واحداً عندهم، حتى أنّ هيكل مروداخ في بابل كان يسمى أيضاً هيكل بال. وقد رأينا لكثيرٍ من ملوك آشور اسمَين لاختلاف اسم الإله. فآشور بانيبال يسمى أيضاً سين بانيبال لأنَّ آشور وسين (القمر) إلٰهان. فلا امتراء إذاً في أنّ بلشصر من ملوك بابل وهو الأخير منهم كما سيجئ. وقد سماه دانيال ابن بختنصر لأنه ابن بنته أو على سبيل تسمية الخلف باسم مشاهير السلف؛ كما سمى الكتاب كثيراً من ملوك يهوذا بإبن داود، وكما سمَّت الآثار المسمارية ياهو بإبن عمري وليس هو ابنه كما مرّ.

عد ٣٤٩

باقي ملوك بابل إلى انقراض دولتهم

قد مرَّ أنّ دانيال أوجز كلامه في أخبار ملوك بابل بعد بختنصر، ولم يتعرَّض إلّا لذكر بلشصر الأخير منهم لينبئ بما كان له من قِبل الله كما رأيت في العدد السابق. فنورد هنا ما أبانته الآثار المسمارية وما رواه المؤرخون القدماء من أخبارهم توفيراً للفوائد ولإدراك ما يأتي حقَّ إداركه. فقد خلف بختنصر ابنه اويل مروداك الذي جاء ذكره في سفر الملوك الرابع (فصل ٢٥)،. وإنه أطلق يوياكين ملك يهوذا من السجن وأكرم مثواه كما مرّ. وهذا لم يملك إلّا سنتين على ما جاء في قانون بتولمايس، وعلى ما روى باروز (فقرة ١٤ من فقرات تواريخ اليونان)؛ وبين صكوك أسرة اجيبي المار ذكرها صكوك دالَّة على سني بختنصر كلها إلى الثالثة والأربعين منها، وآخر صكّ اشتمل على اسم بختنصر كُتب في شهر نيسان سنة ٤٣ لبختنصر؛ ويليه صكّ أرِّخ في تشرين الشهر السابع جاء فيه اسم اويل مروداك (أو مروداخ). ويتبيَّن من باقي الصكوك أنّ اويل مروداك استمرَّ على منصَّة الملك إلى الشهر الخامس وهو آب في السنة التالية وهي سنة ٥٦٠ أو سنة ٥٥٩ ق.م وتل عرشه نركليسور. وأول صكّ من الصكوك المذكورة كُتب اسمه فيه مؤرَّخ في

الثامن من تشرين الثاني من السنة المار ذكرها وحروف اسمه في الخطوط المسمارية «نركال سار أو سور». وتأويله نركال (الإله) يحفظ الملك، وهو ابن بلسوم اسكون الذي كان مدبراً مملكة بابل في مدة جنون بختنصر كما مر وكان هذا الملك متزوجاً بابنة لبختنصر، واستمرّ ضابطاً صولجان الملك ثلاث سنين من سنة ٥٥٩ إلى سنة ٥٥٦ ق.م. وبنى قصراً حديثاً في غربي بابل وقد كُشف عن صفائح خزفية كُتب عليها بيان ما جمّل به بابل من الأبنية. ويظهر من كتب المؤرخين اليونان إنه قُتل في وقيعة حرب مع قورش والفرس، وخلفه ابنه لابوسوراكوس وكان حدِث السن ولم يتسلّم منصة الملك إلّا شهراً، وثار عليه رؤساء العصبة الكلدانية فثلّوا عرشه، وأقاموا أحدهم ملكاً وهو نابونيد ولم يكن من سلالة بختنصر. على أنه بعد ارتقائه منصّة الملك تزوج بابنة لبختنصر، وهي إما أرملة سالفه أو أخت لها ليكون له حقّ في الملك وتحازبه العصبة الملكية. وكانت حينئذٍ شؤون ذي بال في جوار بلاد الكلدان، فإنّ قورش ملك الفرس انتصر على حميه إستياج ملك الماديين وضبط البلاد المحدقة بمملكة الكلدان شمالاً وشرقاً. وانتقل فيها من الماديين إلى الفرس.

وسوّلت لقورش نفسه أن يملك آسيا الصغرى. فأرسل ملك ليديا (محل ولاية ازمير الآن) وفداً إلى نابونيد ملك بابل طالباً عقد عهدة دفاع وهجوم بينهما تفادياً من إضاعة استقلالهما. فلبّى نابونيد دعوته ووقّعا على العهدة وأخذ نابونيد في تحصين بابل وأقام سداً منيعاً للفرات ليحوّل مياهه عن المدينة كيلا يعبر به إليها المحاصرون. هذا ما رواه باروز في تاريخ الكلدان وهيرودت أبو التاريخ. وقلّ ما كنا نعلم من تاريخ نابونيد. إلى أنه في سنة ١٨٧٩ م عُثر على صفيحة خزفية هي الآن في المتحف البريطاني دُونت فيها أخبار مهمة في تاريخ تلك الأيام، على أنّ بعضها محطّم. وإليك ملخّص الباقي منها: «إنّ عصبة الشرفاء في بابل كانت تمقت نابونيد لعنايته بتجديد العبادات والمعابد القديمة خلافاً لما كانت العصبة تؤثره من العبادات الحديثة. وعظم الشقاق حتى اضطرّ الملك أن يغادر عرشه ويعتزل في مدينة تسمى يافا، غير مبالٍ بما يكون من الأحداث فهُجرت المعابد. وكان يتراءى لأهل بابل أنّ الآلهة تركت هذه المدينة المقدسة فكانوا يقدمون لها الضحايا إسترضاءً لها وهي صمّاء عن صراخ الكهنة. وفي السنة التاسعة لملك نابونيد دنت عساكر قورش من بابل واستمرّ نابونيد مصرّاً على عزلته... واضطرّ ابن الملك المسمى بلشوروصر

(بلشصر) بما أنه نائب الملك أن يحشد عسكراً ويقوده للمحافظة على تخوم البلاد، وأخيراً عزم الملك أن يغادر عزلته وجيّش جنوده فانكسرت. فزاد مقت الجنود والشعب للملك فيسّر ذلك للعدو أن يفتتح مدينة سيبارا التي كان الملك فيها، فانهزم من وجه أعدائه، فقبض عليه أحد قادة جيش قورش وأخذه أسيراً، وانكسر الجيش الذي كان يقوده ابن الملك والذي كان يدافع عن بابل، فزحف قورش بجحافله إليها ودخلها دون حرب».

ولم تنبئنا هذه الصفيحة كيف دخل قورش بابل دون حرب ولا متى دخلها ولكن أتحفنا هيرودت (ك ١ ف ١٩٠) بهذه الأخبار فقال: إنَّ قورش استمر زماناً طويلاً محاصراً بابل، فلم يتسنَّ له فتحها لمناعة أسوارها، وكاد ييأس من فتحها عنوة فعمد إلى الحيلة وصعد على مجرى الفرات إلى محل بعيد تاركاً وراءه فصائل من جنده تحمي طريقه واحتفر قنوات حوّل إليها مياه النهر عن الجري في المدينة ليتمكّن جنوده من العبور به، وأوقع نهاية الحفر في يوم عيد كان يعلم أنّ أهل بابل يعكفون فيه على السكر والطرب والملاذ وأمر عسكره بالهجوم على المدينة ليلاً. فدخلوها آمنين وقتلوا كثيرين من أهلها وبلشصر ملكها كما قال دانيال. وتمّت بذلك نبوّة ارميا(فصل ١٥ عد ٣٩) الذي قال في بابل إنّ الرب «يجفف بحرها» وأنه «عند توهجهم أجعل لهم شراباً وأسكرهم كي يمرحوا ثم يناموا نوماً أبدياً فلا يستيقظون يقول الرب وأنزلهم كالحملان إلى الذبح وكالكباش مع التيوس».

عد ٣٥٠
طرح دانيال في جبّ الأسد

قال دانيال بعد اخباره بمقتل بلشصر: «فأخذ الملك داريوس المادي وهو ابن إثنين وستين سنة» (فصل ٥ عد ٣١). وقد توفرت الأقوال في من هو داريوس المادي والمعلوم أنّ قورش هو الذي أخذ ملك بابل. وقال بعضهم منهم لانرمان (في تاريخه القديم للمشرق.مجلد ٤ صفحة ٤٣٨ طبعة ٩) ما ملخَّصه: «إنَّ النص الذي بقي لنا من سفر دانيال كان مكتوباً بالسريانية الكلدانية، وقد خطّه في نحو القرن الثالث قبل الميلاد كاتب يجهل التاريخ فأسقط منه بعض آيات وشوَّش أعلام بعض ملوك بابل تشويشاً ظاهراً. وكتب القدماء طافحة بمثل هذا التشويش، وروى

يوسيفوس (ك ١٠ من تاريخ اليهود فصل ١١) إنَّ اليونان كانوا يسمون داريوس هذا إسماً آخر ولا مراء في أنه كان مادياً إذ لا محلّ لخطأ الكاتب في اسم قبيلة يعلمها الجميع كما يخطأ في العلم الشخصي». وقال اوبر (في كتابه الموسوم بشعب الماديين ولغتهم صفحة ١٦٧) إنَّ داريوس هذا كان قائداً في جيش قورش فولّاه على بابل بعد افتتاحها. وجاء في المجلة الموسومة بالتمدن الكاثوليكي (في نشرتيها المؤرختين في ١٦ شباط و ١٥ آذار سنة ١٨٨٤ م) إنَّ داريوس هذا هو شياكسر بن استياج ملك مادي. وقال بعضهم إنه اوغبارو الذي قيل في الصفيحة المار ذكرها: «إنَّ قورش نصبه حاكماً في بابل». وكان له السلطان الملكي فيها ورجّح ذلك لانرمان (في كتابه العرافة عند الكلدان صفحة ١٨١) بقوله إنَّ قورش لم يكن يصف نفسه في الخطوط المسمارية بملك بابل إلَّا بعد ثلاث سنين من فتح هذه المدينة وكان قبلها يسمي نفسه ملك القبائل.

وأياً كان داريوس هذا فقد أنبانا دانيال (فصل ٦) إنه نوَّله مزيد الاعزاز ورفع مكانته حتى جعله أحد ثلاثة وزراء أقامهم على مئة وعشرين قطباً، عهد إليهم بتدبير المملكة. وكان في عزم الملك أن يقيمه على المملكة كلّها فحسده الوزراء والأقطاب والتمسوا عليه علَّة ليخفض الملك مقامه. ولم يجدوا فزينوا للملك أن يقطع أمراً مبرماً بأنّ كلّ من يسأل سؤالاً من إلٰه أو إنسان غير الملك مدة ثلاثين يوماً يُلقى في جبّ الأسد. فأذاع الملك هذا الأمر وكان دانيال معتاداً أن يصلّي لله جاثياً على ركبتيه ثلاثاً في النهار تجاه كوّة في غرفته مفتوحة إلى أورشيم واستمرَّ على عادته، فوشي به حساده إلى الملك بأنه لم يعبأ بأمره. وألحّوا بتنفيذ الأمر بطرحه في جبّ الأسد. فأغتنمّ الملك وهمَّ بانقاد دانيال النهار كلّه فلم يتيسَّر له تخليصه. فأذعن مكرهاً، والقوا دانيال في الجبّ ووضعوا على فمه حجراً ختموه بخاتم الملك وبات الملك صائماً قلقاً، وشرد النوم عنه، وبكَّر في الغداة إلى الجبّ ونادى بصوتٍ حزين يا دانيال عبدالله الحي لعلَّ إلٰهك الذي أنت مواظبٌ على عبادته أنقذك من الأسود. فأجابه دانيال حييت أيها الملك إلى الأبد، إنَّ إلٰهي أرسل ملاكه فسدَّ أفواه الأسود فلم تؤذني. ففرح الملك به فرحاً عظيماً وأمر أن يخرجوه من الجبّ وأن يلقوا فيه من وشوا به وبنيهم ونساءهم؛ فلم يبلغوا أرض الجبّ، حتى بطشت الأسود وسحقت عظامهم. وأذاع داريوس منشوراً في كلِّ مملكته أن يهابوا ويرهبوا وجه إلٰه دانيال لأنه الإلٰه الحي القيوم إلى الأبد الصانع الآيات في

السماوات والأرض. «وكان دانيال ناجحاً في ملك داريوس وفي ملك قورش الفارسي».

ولنا في الآثار الكلدانية قرائن تؤيد ما كتبه دانيال. فإنَّ إلقاء المجرمين للأسود كان عند الآشوريين والبابليين مستطرقاً كالإلقاء في الأتون. فقد روى سميث في تاريخ آشور بانيبال (صفحة ١٦٨) عن خطوط مسمارية قال فيها هذا الملك «كما أنّ سنحاريب جدّي كان يلقي الرجال أحياءً بين الثيران والأسود، فأنا ألقيت إقتفاءً لآثاره هؤلاء الرجال في وسط هذه الحيوانات» وقال لانرمان (في كتابه العرافة عند الكلدان صفحة ١٩٢): «إنَّ جبّ الأسود يشخصه أمام عيوننا نظرنا إلى الصوّر الناتئة التي أُتي بها إلى لندرة وهي تمثل صيد آشور بانيبال. فترى الأسود محبوسة في أقفاص لترويح قلب الملك برؤيتها». هذا وقد أُتي بصورة أخرى من كوينجك إلى المتحف البريطاني تمثل غرفة مقفلة بقضبان من حديد متينة وفيها أسد وفي أعلاها حارس يرفع حاجزاً فيخرج الأسد رأسه من عرينه متحفزاً لالتهام فريسته. وكانت الأسودكثيرة في جوار بابل وبلاد الكلدان كلها؛ حتى تفاخر تجلت فلاصر الأول في أحد خطوطه بأنه قتل ثماني مئة أسد. رواه مينان (في تاريخ ملوك آشور صفحة ٤٥). ولم ينقطع إلى اليوم وجود الأسود في جانب الفرات ووادي خابور كما روى لايرد (في تاريخ نينوى مجلد ٢ صفحة ٤٨). وكان ملوك آشور يطلبون أُسداً من جملة جزيتهم ممن إستطاع أن يأتيهم بها. وقد كشف لايرد في قصر سنحاريب في كوينجك عن صورة أسد مغلل يقدمه لهذا الغازي بعض من انتصر عليهم.

عد ٣٥١

كشف دانيال خديعة كهنة بال

بقي مما حواه سفر دانيال من التاريخ ما ذكره هذا النبي في الفصل الرابع عشر منه، وهو كشفه خديعة كهنة صنم بال، وقتله التنين فقال في الأول ما ملخّصه: إنه كان لأهل بابل صنم اسمه بال (أو بعل)، وكانوا ينفقون له كلَّ يوم إثني عشر أردباً من السميذ (تساوي ٦٢٠ لتراً وهي نحو من ٤٨٥ أقة)، وأربعين شاة وستة أمتار من الخمر (تساوي ٣٥٠ لتراً ونحواً من ٢٧٣ أقة). وكان الملك يعبده ويذهب كلَّ يوم فيسجد له. وقال الملك لدانيال: لِمَ لا تسجد لبال؟ فقال: لأني لا

أعبد أصناماً صنعة الأيدي؛ بل الإله الحي خالق السماوات والأرض. فقال الملك: أتحسب أنّ بالاً ليس بإله حي أو لا ترى كم يأكل ويشرب كلَّ يوم؟ فضحك دانيال وقال لا تضلّ أيها الملك، فإنَّ هذا باطنه طين وظاهره نحاس فلم يأكل قط. فاستدعى الملك الكهنة وقال إن لم تقولوا لي من يأكل هذه النفقة تموتون، وإن بيّنتم أنّ بال يأكلها يموت دانيال. فقال الكهنة ضع أنت أيها الملك الأطعمة والخمر واغلق الباب واختم عليه بخاتمك، وفي غدٍ ارجع ترَ صدق مقالنا، واستخفوا بالأمر لأنهم كانوا صنعوا تحت المائدة مدخلاً خفياً يدخلون منه فيلتهمون الأطعمة. ولما خرجوا وضع الملك الأطعمة، وأمر دانيال غلمانه فذروا رماداً في الهيكل بحضرة الملك وحده، وأغلق الباب وختم عليه. فدخل الكهنة وأولادهم ونساءهم ليلاً من المدخل الخفي على عادتهم والتهموا الأطعمة. وبكّر الملك ودانيال فوجدوا الخواتيم سالمة وفُتحت الأبواب فلم يُرَ شيء على المائدة. فهتف الملك عظيمٌ أنت يا بال ولا مكر عندك. فضحك دانيال وأمسك الملك عن الدخول قائلاً: أنظر البلاط واعرف ما هذه الآثار فقال: أرى آثار رجال ونساء وأولاد. وغضب الملك وقبض على الكهنة ونسائهم وأولادهم فأروه الأبواب الخفية التي يدخلون منها ويأكلون ما على المائدة، فأمر الملك بقتلهم وأسلم بالاً إلى يد دانيال، فحطَّمه ودمَّر هيكله.

إنَّ في الآثار البابلية ما يؤيد كلام دانيال. فقد وُجدت آثار عديدة تصرِّح بعبادة بال في بابل ومنها الصورة التي تمثله محمولاً على مناكب الكهنة. وقد كشف عنها لايرد في نمرود وذكرها في كتابه آثار نينوى (صفحة ٦٥). ووُجدت آثار أخرى كثيرة ناطقة بتقديم الأطعمة والأشربة للأصنام ومنها خطوط لبختنصر قيل فيها ما ملخَّصه: «إنه كان يُقدَّم على مائدة الآلهة الأعزاء ثوراً كاملاً وسمكاً وطيوراً وأطعمة وخمراً من سبعة مواضع، أو ثمانية منها خمر حلب وكان ذلك فائضاً كمياه النهر». وقد وُجد ما يدلُّ على مثل ذلك من أنواع الخمر في خطوط بختنصر في جانب تمثاله المنقوش على أحد الصخور في معبر نهر الكلب كما يتبيَّن من خطب المجمع العلمي (الأكادمي) الإفرنسي في ١٣ أيار سنة ١٨٨٢ م. ومن ذلك يظهر أنّ من كتب الفصل الرابع عشر من نبوّة دانيال كان خبيراً بعادات أهل بابل وعائشاً بينهم، وقد كتب أمراً واقعاً لا وهمياً.

عد ٣٥٢

قتل دانيال التنين

وكان في بابل تنين عظيم يعبده أهلها، فقال الملك لدانيال: أتقول عن هذا أيضاً إنه نحاس، ها إنه حي يأكل ويشرب فاسجد له. فقال دانيال: إني أسجد للرب إلٰهي لأنه هو الأله الحي، وإن سلَّطتني قتلتُ هذا التنين بلا سيف ولا عصا. قال الملك: قد جعلتُ لك ذلك. فأخذ دانيال زفتاً وشحماً وشعراً وطبخها. وصنع أقراصاً ألقاها للتنين فأكلها وانشقَّ. فقال: أنظروا ما تعبدون فغضب أهل بابل واجتمعوا على الملك وقالوا إنه صار يهودياً، فحطَّم بالاً وقتل التنين وذبح الكهنة. وقالوا للملك: أسلِم إلينا دانيال وإلَّا قتلناك وآلك. فلما رآهم الملك ثائرين اضطرَّ أن يُسلم دانيال إليهم فألقوه في جبّ الأسود وبقي هناك ستة أيام. وكان في الجبّ سبعة أسود يُلقى لها كلَّ يوم جثتان ونعجتان، فلم يُلقَ إليها حينئذٍ شيء لتفترس دانيال. وحمل ملاك الرب حبقوق من فلسطين إلى بابل ومعه طعام أقات دانيال به. وأتى الملك في اليوم السابع ليبكي دانيال فإذا هو جالس. فهتف بصوتٍ عالٍ قائلاً: عظيم أنت أيها الرب إلٰه دانيال لا إلٰه سواك وأخرج دانيال من الجبّ، وألقى فيه من سعوا بهلاكه فافترستهم الأسود أمامه. وقال الملك: ليتَّقِ جميع سكان الأرض إلٰه دانيال فإنه المخلِّص الصانع الآيات في الأرض.

المراد بالتنين هنا الأفعى أو الحية الكبيرة القديمة الأيام. والكلمة مأخوذة عن الأصل الكلداني ܬܢܝܢܐ (تنينو) أو عن تنيم العبرانية. وكان من عادات البابليين وغيرهم من عبدة الاصنام أن يربّوا حيَّات في الهياكل، وينسبوا إليها شيئاً من الألوهية ويعبدوها، وعلى ذلك أدلَّة نكتفي منها بما ذكره لانرمان في كتابه الموسوم بالعرافة عند الكلدان (صفحة ٨٨). فقد قال: «إنَّ اسم الحية أو الأفعى والفعل الدال على العرافة والسحر عند الساميين مصدرهما واحد وهو ܢܚܫ (نحش) استعمل السحر أو العرافة ܢܚܫܐ (نحشو) الحية والأفعى. وقد عُثر على أثر مسماري يتبيَّن منه أنهم كانوا يستدلون على مستقبل الأمور بواسطة قلب الأفعى... وكانت الحية عند الكلدان والآشوريين تلامذتهم رمزاً إلى الأله ايا أي الفهم السامي أو إلٰه كل علم. وقد جاء في رسالة ارميا المعلَّقة في ذيل نبوَّة باروك عن تماثيل الآلهة ما نصّه: «وقد ذُكر أنّ حشرات الأرض تنهش قلوبها فتؤكل هي وثيابها ولا

تشعر». فيظهر من هذه الآية أنهم كانوا يربّون أفاعي في هياكل بابل، ويعتبرونها بمنزلة تراجمة للآلهة، ويستخدمونها في الإستشارة لها».

عد ٣٥٣

رؤى دانيال

إنَّ سفر دانيال قسمان: قسم تاريخي وهو ما لخصناه في كلامنا السالف وقد اشتملت عليه الفصول الستة الأولى والفصلان الثالث عشر والرابع عشر. وقسم نبوي اشتملت عليه الفصول الستة من السابع إلى ختام الثاني عشر. وقد كتب دانيال في هذه الفصول الرؤى التي منَّ الله عليه بها وهي أربع. فقال في الأولى إنه رأى أربع حيوانات عظيمة خرجت من البحر أولها مثل الأسد وله جناحا نسر، وثانيها مثل دبّ، وثالثها يشبه نمراً وله أربعة أجنحة وأربعة أرؤس، ورابعها يشبه حيواناً هائلاً وله أسنان من حديد، وكان يأكل ويسحق ويدوس الباقي برجلَيه وله عشرة قرون. وإنه بينما كان يرى ذلك نُصبت عروش فجلس عليها قديم الأيام. وكان لباسه أبيض كالثلج وعرشه لهيب نار، وعجلاته ناراً مضطرمة. وأزال سلطان باقي الحيوانات، وأتى مثل ابن البشر على سحاب السماء، وأوتيَ سلطاناً ومجداً، فجميع الشعوب والأمم والألسنة يعبدونه، وإنَّ دانيال سأل أحد الواقفين أمامه فأعلمه بتعبير الرؤيا: فكانت الحيوانات الأربعة عبارة عن أربع ممالك تقوم على الأرض. فيُراد بالأسد مملكة الكلدان. وبالدبّ مملكة ماداي وفارس، وبالنمر مملكة اليونان. وأرؤسها الأربعة كناية عن إنقسامها بعد اسكندر الكبير إلى أربع ممالك في سورية ومصر ومكدونية وتراسة. ويُراد بالحيوان الرابع الهائل مملكة الرومانيين التي سحقت الممالك الأربع المذكورة. وبقديم الأيام وابن البشر ملك المسيح الروحي الذي لا يزول وهذه الرؤيا كحلم بختنصر الأول المار ذكره فمدلولهما واحد.

والرؤيا الثانية ذكرها النبي في الفصل الثامن، وهي أنه رأى كبشاً قائماً عند نهر أولاي وله قرنان ينطح بهما نحو الغرب والشمال والجنوب. ثم رأى تيس معز أقبل من الغرب، وله قرنٌ عجيب وهجم على الكبش فكسر قرنيه، ولم يستطع الكبش أن يقف أمامه فتعاظم تيس المعز جداً فانكسر قرنه العظيم. وطلع من تحته أربعة قرون، ثم خرج من واحد منها قرنٌ صغير، ثم تعاظم جداً وبأمره نُزعت

المحرقة الدائمة وهُدم موضع مقدسه. وقد عبَّر ملاك لدانيال هذه الرؤيا فكان المراد منها تفصيل بعض ما جاء في الرؤيا الأولى، لأنَّ المراد بالكبش ملوك ماداي وفارس. وبتيس المعز ملك اليونان. وبالقرن العظيم اسكندر الكبير وبانكساره وخروج أربعة قرون ممالك خلفائه الأربع. وبالقرن الصغير الذي تعاظم مملكة الرومانيين.

والرؤيا الثالثة ذكرها النبي في الفصل التاسع مؤرخاً لها في السنة الأولى لداريوس بن أحشورش المادي. وهي إنه بينما كان يصلّي متأملاً قول ارميا إنَّ عدة السنين التي تتم على خراب أورشليم سبعون سنة، رأى جبرائيل الملاك انحدر من السماء ليبشره بأنَّ الرب حدَّد على شعبه لإفناء المعصية وإزالة الخطيئة، والإتيان بالبرّ الأبدي، ومسح قدوس القديسين سبعين أسبوعاً بدؤها صدور الأمر بإعادة بناء أورشليم، ونهايتها في مجيئ المسيح الرئيس وبعد هذه الأسابيع يُقتل المسيح وشعب رئيس آتٍ يدمِّر المدينة والقدس وتبطل الذبيحة والتقدمة، فهذه هي الرؤيا. وكان الأسبوع عند العبرانيين أولاً عبارة عن سبعة أيام من السبت إلى السبت. ثانياً عن سبعة سنين وآخرها السنة السبتية. ثالثاً عن سنة الغفران، وهي سبع سنين مضروبة في سبع وحاصلها تسع وأربعون سنة. والمراد بكلام دانيال الأسبوع السبتي أي أنّ كلّ أسبوع سبع سنين فيحصل من السبعين أسبوعاً أربع مئة وتسعون سنة. والأصحّ أنّ بدء هذه الأسابيع السنة الثانية لملك أرتحششتا التي أرسل فيها نحميا إلى اليهودية مأذوناً له في تجديد أسوار أورشليم (نحميا فصل ٢ عد ٥) وختامها بموت المخلّص. فهذه الحقبة أكثر مطابقة للسبعين أسبوعاً التي هي أربع مئة وتسعون سنة.

والرؤيا الرابعة ذكرها النبي في الفصول العاشر والحادي عشر والثاني عشر. وهي أنه ظهر له الملاك جبرائيل فكشف له عما يكون في بلاد فارس بعد قورش، وعن مجيئ اسكندر الكبير وحملاته وإنقراض مملكة الفرس، وتغلُّب اليونان عليها ووفاة اسكندر بلا عقب، وانقسام ملكه إلى أربع ممالك وإنَّ مملكة سورية الشمالية ومملكة مصر الجنوبية تكون بينهما حرب أزمنة طوالاً. ثم يُنبئه باضطهاد انتيوخوس أبيفان للقديسين وبهلاك هذا الملك المضطهد وانتصار القديسين ثم يلخص له شيئاً عن إنقضاء العالم.

قد تذرَّع الملحدون بوضوح هذه النبوّات وتمامها في أوقاتها، ليزعموا أنّ سفر دانيال كُتب بعد وقوع الأحداث المذكورة فيه،أعني بعد موت أنطيوخوس ابيفان في

أيام المكابيين؛ لكن زعمهم مردود ببيّنات قاطعة منها أنّ قسمَي هذا السفر التاريخي والنبوي ملتحمان كلَّ الإلتحام أحدهما بالآخر من قبيل النفس والنسق، واللغة والأحداث التي جرت على كاتبه. ومنها ما مرَّ من بيان المطابقة بين كلّ ما جاء في هذا السفر وبين الآثار الآشورية والبابلية، بل أنّ هذه الرؤى نفسها ناطقة بأنها رؤيت وكُتبت أخبارها في بلاد الكلدان لا في غيرها، لأنَّ صورة الأسد المجنَّح بجناحي نسر هي من أحبّ الصور إلى المصورين الكلدان، لأنك ترى مثل هذه الصوَر على أبواب القصور والهياكل، وسائر الأبنية بل على الآنية أيضاً المصنوعة في بلاد آشور وبابل، وكذلك ترى صوَر الثور المجنَّح والدبّ والنمر والكبش، وتيس المعز على كثير من آثارهم وكانت القرون عندهم عبارة عن القوة ولذلك ترى صوَر الآلهة والأبطال، والمشاهير عندهم وعلى رأسها قرنان أو اربعة أو ستة قرون، ولا نرى شبهاً لقديم الأيام الذي لباسه ابيض كالثلج وشعر رأسه كالصوف النقي، وعرشه لهيب نار وعجلاته نار مضطرمة إلّا في صور الآشوريين والبابليين. وقد حوى متحف اللوفر في باريس كثيراً منها وقد ذكر كثيراً منها العالم لونبريا (Long Prier في كتابه في الآثار الآشورية التي في متحف اللوفر صفحة ٢٨ وما يليها). وعليه فكلام دانيال وتصوراته وتمثيله ومطابقتها التامة لآثار الآشوريين وعاداتهم تقضي علينا بأن نحكم ان هذا السفر كتبه دانيال في بابل في أيام سؤددها، وعلى عهد بختنصر ومن خلفه، لا في فلسطين وعلى عهد المكابيين بعد اربعة قرون كما زعم الملحدون.

عد ٣٥٤
وفاة دانيال وصحة تنزيل سفره

يظهر أنّ دانيال ادركته المنية في بلاد الكلدان، فان المناصب التي وليها فيها امسكته ثمة إلى وفاته. وقال بعضهم إنّه توفي في بابل. وقال غيرهم إنّه قضى اجله في شوشن (وهي سيس الآن أو تموز اسنان) حيث قضى بعض سني حياته، وحيث رأى أكثر رؤاه. وقال يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١٠ في الفصل الاخير) إنّه كان في عاصمة ماداي إلى ايامه برج عجيب البناء يقال ان دانيال اقامه، وان هناك مدافن ملوك الفرس وماداي، وانه كان يعهد بحراسة هذا المحل إلى ايامه إلى رجل يهودي. وقال بعض الجوالة ان هذا المقام تحج الناس إليه حتى هذا العصر.

والأظهر ان سفر دانيال كتب بعضه بالآرامية الكلدانية، وبعضه بالعبرانية فكل ما كان من كلامه مع ملوك بابل ومادي وفارس ومنشور بختنصر كتب بالكلدانية. وباقي كلامه بالعبرانية. على أنّ الفصلين الثالث عشر والرابع عشر الحاويين خبر سوسنة وخبر بال والتنين، ثم تسبحة الفتيان في الاتون المثبتة في الفصل الثالث (من عد ٢٤ إلى عد ٩١) لم توجد إلّا باليونانية. فكلّ ما كُتب من هذا السفر بالكلدانية والعبرانية أجمع النصارى واليهود على أنه من الأسفار المنزلة. وأما ما لم يوجد إلّا باليونانية فكان بعض اليهود والنصارى أيضاً ينكرون تنزيله إلى أن حكم المجمع التريدنتيني بلزوم إحصائه بين الأسفار المُنزلة. وأنكر الملحدون كون السفر برمّته مُنزلاً. وتمحلوا لإنكاره وجهَين: الأول وضوح نبوّاته وتمامها بدقائقها في أوقاتها، فوهموا أنه كتب بعض الأحداث المنبئ بها، وهذا فنّدناه في العدد السابق. والثاني أنه حوى ذكر آيات ومعجزات وهم ينكرون كلّ ما كان فوق الطبيعة أو مخالفاً لها، على أنّ المسيحيين وغيرهم يعتقدون الآيات وقدرة الله على صنعها، وقلّ ما خلا عنها كتاب من الكتب المُنزلة، ويقولون إنّ الله أكثر من آياته في مدة جلاء بني إسرائيل تيسيراً لعودهم إلى أوطانهم، كما أكثر الآيات في مصر تيسيراً لخروجهم منها.

إنَّ لنا بيّنات قاطعة على أنّ سفر دانيال مُنزل منها أولاً أنّ متى الإنجيلي إستشهد به بقوله (فصل ٢٤ عد ١٥): «إذا رأيتم علامة رجاسة الخراب الذي قيل عنه في دانيال». واستشهده بولس الرسول بقوله (في رسالته إلى العبرانيين فصل ١١ عد ٣٣) عن جدعون وباراق وشمشون ويفتاح وداود وصموئيل والانبياء إنهم: «نالوا الموعد وسدوا أفواه الأسد» كما جرى لدانيال. ثانياً قد شهد يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١١ فصل ٨) إنَّ اليهود أروا اسكندر الكبير نبوّات دانيال عليه عند زيارته أورشليم. ثالثاً جاء في سفر المكابيين الأول (فصل ٢ عد ٥٩ و ٦٠): «وحننيا وعزريا وميشائيل بإيمانهم خلصوا من اللهيب، ودانيال باستقامته أنقذ من أفواه الأسود». وهذا يقتضي أن يكون سفر دانيال بين أيديهم. رابعاً إنَّ وضع اليهود سفر دانيال بين الأسفار المُنزلة هو بيّنة دامغة على تنزيله، ولاسيما لأنهم لا يحصون بين هذه الأسفار ما كان قبل المكابيين. خامساً إنَّ اللغة التي كُتب بها سفر دانيال يلزم أن تكون لغة رجل عاش في أيام جلاء بابل ويُحسن الكلام بالعبرانية والكلدانية. وفي زمان المكابيين لم تكن لغة اليهود إلّا الآرامية أي الكلدانية (ملخص

عن الموجز الكتابي لفيكورو عد ١٠٥٥). وقد ابنا آنفاً في الكلام على سوسنة أنّ هذا السفر وُجد كاملاً في نسختَين قديمتَين من الترجمة السبعينية، عُثر على إحداهما في مكتبة كيجي في روما. وعلى الثانية في المكتبة الأمبروسية في ميلان. فطالع ما ذكرناه هناك.

عد ٣٥٥

رؤى حزقيال وموته ومدفنه

إنَّ حزقيال هو ابن بوزي من السبط الكهنوتي، جُلي إلى بابل مع يوياكين ملك يهوذا قبل خراب أورشليم بنحو عشر سنين. ولم يتنبأ حزقيال قبل جلائه بل أحلَّ الله عليه روح النبوَّة في بلاد الكلدان ليكون رقيباً ونذيراً لإخوانه المجلويين. وقد إفتتح نبوَّاته بأنه بينما كان بين الجلاء على نهر كبار انفتحت السماوات، فرأى رؤى الله فقال رأيت، فإذا بريح عاصف مقبلة من الشمال وغمام عظيم، ونار متواصلة وفي وسطها شبه أربع حيوانات، ولكلٍّ منها أربعة أوجه، وأربعة أجنحة، وجه بشر، ووجه أسد، ووجه ثور، ووجه نسر. وأجنحتها منبسطة من فوق لكلٍّ منها جناحان يتصل أحدهما بالآخر، وجناحان يستران أجسامها، وأرجلها مستقيمة وأقدامها كقدم رِجل العجل تبرق كمنظر النحاس الصقيل، ومن تحت أجنحتها أيدي بشر على جوانبها الأربعة. وكانت تسير كل واحدٍ منها أمام وجهه حيث يوجهه الروح، وإذا بدولاب واحد على الأرض بجانب الحيوانات بأربعة أوجه، ومرأى الدواليب وصنعتها كمنظر الزبرجد، ولأربعتها شبهٌ واحد كأنما كان الدولاب في وسط الدولاب. أما أطرها فعالية وهائلة وملأى عيوناً، وكان على أرؤس الحيوانات جلد كمنظر البلّور. وسمعت صوت أجنحتها كصوت مياه غزيرة وفوق الجلد الذي على أرؤسها شبه عرش كمرأى حجر اللاذورد، وعلى شبه العرش شبه كمرأى بشر، ورأيت كمنظر النحاس اللامع في داخله عند محيطه، وهو كمرأى نار من مرأى حقويه إلى فوق، ورأيت من مرأى حقويه إلى تحت مثل نار أيضاً والضياء محيطاً به. هذا مرأى شبه مجد الرب وسمعت صوت متكلّم يقول يا ابن البشر! أنا مُرسلك إلى بني إسرائيل إلى أمم متمردين قد عصوني إلى اليوم هم وآباؤهم (حزقيال فصل ١ و ٢).

لا يتهيأ إدراك رؤيا حزقيال هذه إلّا لمن عاش في بلاد الكلدان في تلك الأيام، ورأى صورها ونقوشها وتماثيلها التي أرى الله نبيه مجده على أكمل هيئة منها، وأما من عاشوا في غير هذه البلاد وغير تلك الأيام فكان إدراكهم رؤيا النبي من أعضل المعضلات، حتى يئس المفسرون من الإتيان بتفسير واضح لها. وقال القديس ايرونيموس (في تفسيره هذه النبوّة): «إنَّ مجامع اليهود كلها بكمت عن تفسير نبوّة حزقيال، وقالت إنَّ تفسير رؤيا الكاروبين فوق طاقة الإنسان ومداركه». ومما رواه بعض الربيين أنهم بحثوا ذات يوم في مجمعهم لينفوا نبوّة حزقيال من عداد الأسفار المُنزلة لشدة غموضها، واستحالة إدراك رؤيا المركبة السرية والكاروبين. ورأى أكثرهم نفيها على أنّ أحدهم الربي حنانياس جسر أن يعدهم بأنه يأتيهم بتفسير وافٍ لهذا السفر، فقالوا له إفعل. وقدموا له ثلاث مئة زق زيت قائلين إنَّ مصابيحك تنفقها قبل أن تدرك شأوك الشاق. إلّا أنه بعد أن أحيا بوتّا ولايرد وغيرهما رمم الآشوريين والبابليين وكشفوا آثارهم واستنطقوها تيسَّر لنا إدراك كلام نبي عاش بين أظهرهم، واتضح لنا ما كان معمى في كلامه، ورأينا بالصور ما كنا نقرأه. وتكفي الآن زيارة واحدة لغرف متحف اللوفر في باريس والمتحف البريطاني في لندرة حيث آثار بلاد آشور وبابل فيستغنى بها عن مطالعة المقالات المطوَّلة في تفسير رؤيا حزقيال. فترى هناك الأسود والثيران ذات أجنحة ووجه بشري وتلفي الإنسان مجنحاً كالنسور.

وقال لونبريا المار ذكره (في كتابه الدليل على التحف الآشورية في اللوفر): «مما يعجب الزائر منه رؤيته هذه الحيوانات العظيمة قائمة إثنين فإثنين على مدخلَي الردهة الكبرى الحاوية الآثار الآشورية، كأنها ما برحت مقيمة على حراسة قصر الملك سرغون الذي نصبها هناك، وبينها فسحة أشبه بالفسحة التي ذكرها حزقيال (فصل ١٠ عد ٣). بين كاروب وكاروب فيسائل من يفسر الكتاب نفسه قائلاً: أما هذه الحيوانات أشبه بما أراه الله منها نبيّه حزقيال على نهر كبار» وقال دي سولسي (في كتابه تاريخ الصناعة عند اليهود الذي طُبع في باريس سنة ١٨٥٨م): «لا يمكن الانسان إلّا أن يتعجَّب عندما يرى المشابهة المدهشة بين الحيوانات الرمزية التي ذكرها الكتاب وبين الثيران ذات الأجنحة والوجه البشري التي أرتنا إياها أطلال نينوى؛ أما أنا فلا أمتري البتّة في أنّ الكاروبين عند العبرانيين أشبه بالثيران الرمزية عند الآشوريين» ولا جرم أنّ هذه الحيوانات كانت رمزية فلم يخطر لأحدٍ في بال

أنّ السعداء أو الملائكة لهم مثل هذه الهيئات بل هي رموز إلى القوة والشدة والسرعة والذكاء. وهي دالة بعظمتها وعظمة المركبات التي تجرها، والعرش الحالّ الله فيه، والنار المنبعثة منه، والجواهر المزدان بها على مجد الله وسؤدده على كل ما يراه العبرانيون في بلاد الكلدان، فيقصّ النبي على بني إسرائيل ما رآه من مجد الله الذي يفوق كثيراً على ما يرونه من عظمة هياكل آلهة الكلدان. ويذكرهم بآبائهم ليرعووا عنها ولا يغتروا بعبادة الآلهة الباطلة ناكرين عبادة الله الحيّ القيوم.

وقد طالعنا في المجلّة الكتابية (Revue Biblique) في نشرتها الصادرة في تشرين الأول سنة ١٨٩٤ م. فصلاً مشبعاً نشره فيها الأب هبرنس اليسوعي في تفسير رؤيا حزقيال هذه، مثبتاً أنّ النبي أراد بها أن يبيِّن مجد الله بما يرونه كلّ يوم في الأفلاك السماوية معبِّراً بالحيوانات عن الكواكب التي سمى بعضها الكلدانيون من أقدم الأيام وتابعهم عليه الفلكيون إلى الأبد باسماء الحيوانات كالثور والنسر والأسد وغيرها، وبالدواليب وحركتها عن حركة الأجرام السماوية، وبالعيون الملأى بها عن النجوم الكثيرة في السماء، وبالنار التي في وسطها عن الشمس القائمة في وسط العالم، وتدور الكواكب حولها. وقال إنَّ الكلدانيين كانوا يفقهون هذه الأمور من أقدم الزمان وقد وُجدت عندهم صورة منطقة الأبراج منذ سنة ١١٠٠ قبل التاريخ المسيحي؛ وإنهم أول من أستنبط علم الفلك، وإنَّ هذا التفسير أوجه، ويؤدي أكثر مما سواه إلى غرض النبي الذي هو بيان يفوق مجد الله على مجد آلهة الكلدان لئلا يعبدها العبرانيون ويتركوا عبادة الله الذي خلق ما في السماء والأرض.

ثم قال النبي (فصل ٢ و ٣) إنَّ يداً دفعت إليه درجاً كُتبت فيه مراثٍ ونواحٍ وويل، وأُمر أن يأكله فأكله فصار في فمه كالعسل حلاوة، فما كتب فيه رمز إلى ما كان بنو إسرائيل سوف يعانونه في جلائهم إلى بابل، فإنَّ هذه الرؤى كانت قبل خراب أورشليم والحلاوة التي شعر النبي بها رمز إلى التعزية التي ستكون لهم ولمعبودهم من الجلاء إلى أرض موعدهم.

وقال (فصل ٤) إنَّ الله تجلَّى له وأمره أن يُغلق على نفسه في داخل بيته، وأن يأخذ لبنة ويرسم عليها مدينة أورشليم، ويقيم عليها حصاراً وينصب مناجيق من حولها وأن يضجع على جانبه الأيسر. ويجعل إثم آل إسرائيل عليه ثلاث مئة وتسعين يوماً، وأن يضجع بعد ذلك على جانبه الأيمن ويحمل إثم آل يهوذا أربعين

يوماً فإنه تعالى جعل كلَّ يومٍ بسنة؛ هذه رموز أيضاً أعلمه الله بها مدة حصار أورشليم، وسني جلاء بني يهوذا. فأن بختنصر حاصر أورشليم مدة تسعة عشر شهراً أي خمس مئة وسبعين يوماً، ولكن يلزم أن يحط منها مدة تركه الحصار وذهابه لمحاربة ملك مصر كما مرّ. فتعود أيام الحصار ثلاث مئة وتسعين يوماً، أي نحو ثلاثة عشر شهراً. وقد مكث بنو يهوذا في بابل أربعين سنة، إذا حُسب بدء جلائهم من فتح أورشليم ونهايته في السنة الأولى لقورش عند إباحته لهم العود إلى مواطنهم، على أن مدة هذا الجلاء تحسبها عامة العلماء سبعين سنة باعتبار أن بدءها حين أسر يوياكين ملك يهوذا، ونهايتها حين عود نحميا إلى أورشليم كما سيأتي. ولكي يبيِّن الله للنبي شدَّة الضيق الذي يقاسيه سكان أورشليم في مدة حصارها، أمره أن يأخذ حنطة وفولاً وعدساً ودخناً وكرسنَّة ويجعلها في وعاء واحد، ويصنع منها خبزاً على عدد الأيام المذكورة أي ثلاث مئة وتسعين يوماً. وأن يأكل ويشرب بالوزن عشرين مثقالاً في اليوم كلِّه. وسدس الهين من الماء، فيأكل كلَّ يوم قرصاً وينضجه بزبل الإنسان أمام عيونهم. وصرَّح الرب له بأنه يقطع قوام الخبز في أورشليم، فيأكلون الخبز بالوزن والغم ويشربون الماء بالمقدار. وأنف النبي أن ينضج خبزه بزبل الإنسان فجعل له رجيع البقر بدلاً منه. وقد افترى الملحدون وسفهوا زاعمين أن الرب أمره أن يأكل زبله وهو افتراء بحت، فكلُّ ما قاله له إنما هو أن يُنضج خبزه على زبل الإنسان إشارة إلى شدَّة الفاقة إلى كلِّ شيء حتى الحطب، ولما أنف منه أباحه أن يُنضجه على رجيع البقر. وليس هذا بالأمر الغريب فإنَّ كثيرين من سكان البلاد التي ندر الحطب فيها يُنضجون خبزهم إلى اليوم على رجيع البقر المعروف بالجلَّة.

وقال النبي (في الفصل الخامس) إنَّ الرب أمره أن يأخذ سيفاً ماضياً وموسى حلاّقٍ، ويمرها على رأسه ولحيته وأن يزن الشعر ويقسمه، ويحرق ثلثاً منه بالنار ويقطع ثلثاً بالسيف ويذري ثلثاً للريح. وفسَّر له الرمز بأنَّ ثلثاً من سكان أورشليم يفنون بالوباء والجوع، وثلثاً يسقطون بالسيف، وثلثاً يذريهم لكلِّ ريح ويستل السيف وراءهم. وأتمَّ الرب للنبي تفصيل ذلك كما رواه في الفصلين السادس والسابع.

وقد ذكر في الفصل الثامن أنّ الرب نقله إلى أورشليم وأراه الأرجاس التي يصنعها بنو إسرائيل، والأصنام التي يعبدونها، والنساء اللواتي ينحنَ على تموز وهو

أدونيس معبود الفينيقيين، والرجال الذين يسجدون للشمس. وكشف الرب له في الفصل التاسع أنه سلَّط خمسة ملائكة على الانتقام من أورشليم. فرأى النبي بيد كلٍّ من الملائكة آلة موت ليقتلوا بها كلَّ من لم يكن موسوماً بسمة الحيوة التي كانت علامة حرف التو (التاء) في جبهته. وكان الرب أمر ملاكاً سادساً أن يسم بها من ساءهم انحراف أورشليم عنه فخرج الملائكة وقتلوا حتى مُلئت المدينة بالدم والجثث. ثم قال في الفصل العاشر أنّ الرب تجلَّى له وأمر ملاكاً أن يأخذ ناراً من خلال العجلة التي تحت الكاروبين ويذريه على المدينة. وكلُّ ذلك رموز إلى نار الحرب ونقمة الرب التي حلَّت على أورشليم بعد سنين قليلة من هذه الرؤى.

ولما أراد الرب أن ينبئه بهرب صدقيا ملك يهوذا من أورشليم أمره أن يبدي على نفسه أهبة الجلاء، وينقب الحائط ويخرج منه حاملاً على كتفه ويقول لبني إسرائيل هكذا تكون حالة الرئيس في أورشليم. فإنه ينقب الحائط ويخرج من أورشليم لكنه لا يفلت من أحبولة الرب. ويُجلى إلى بابل ولا يراها ويموت فيها؛ وهذا طبق ما جرى لصدقيا لدن حصار بختنصر أورشليم، وثقب ملك يهوذا حائط السور وهربه، والقبض عليه وفقي بختنصر عينيه، وإتيانه به إلى بابل كما مرّ. فبمثل هذه الرموز أنبأ الرب حزقيال بما سيكون لأورشليم وسكانها قبل حلوله. وقد تنبأ حزقيال على مصر وتنكيل بختنصر بأهلها كما ذكرنا، وعلى خراب صور وصيدا كما مرَّ في تاريخ فينيقية، وعلى دمار بلاد العمونيين والوابيين والأدوميين والفلسطينيين. وبعد هذه الرؤى المحزنة أنبأه الرب بأمور معزِّية كالعود من الجلاء، وتجديد بناء أورشليم والهيكل، وانتصار بني إسرائيل على أعدائهم إلى غير ذلك من الرموز إلى مجيئ المخلّص وقيام الكنيسة.

روى القديس ابيفانيوس (في كتابه في حياة الانبياء ووفاتهم) إنَّ حزقيال قتله أمير أو والٍ على شعبه لتونيبه إياه على عبادته للأوثان أو قبح سيرته، والأظهر أن الشعب هاج عليه وقتله. وآخر نبوَّاته مؤرخ في السنة السابعة والعشرين لجلائه وهي سنة ٥٧١ قبل الميلاد ويقال: إنه دُفن في المغارة التي دُفن فيها سام وأرفخشاد. وقال بنيامين دي تودال (في كتاب رحلته) إنه رأى على بعض فراسخ من بغداد مدفناً متقناً، وأنه قيل له أنه مدفن حزقيال، وأنه كان يحج إليه رؤساء الجلاء في تلك الأيام، والآن يحج إليه لا اليهود فقط بل الفرس والإسلام أيضاً. وقال أوشر الوا (في كتاب أخبار سفره إلى المشرق الذي طُبع في باريس سنة ١٨٤٣ م) إنه

بينما كان مسافراً من بغداد سنة ١٨٣٥ م رأى جماً غفيراً من اليهود والأعجام والهنود والعرب ماضين لزيارة مدفن النبي حزقيال الذي توفي في مدة الجلاء إلى بابل؛ ولا يمكن مع ذلك القطع بصحة هذا التقليد. وأما سفر حزقيال فكُتب بالعبرانية وقلَّ من كذَّب بصحة تنزيله، وكثر من شكا غموض كلامه لاستعماله رموزاً تيسَّر إدراكها على أهل أيامه وموطنه وتعسَّر على غيرهم.

الفصل العشرون

أخبار بني إسرائيل عند عودهم من الجلاء وبعده إلى ملك اسكندر الكبير

عد ٣٥٦

أمر كورش بعود بني إسرائيل إلى فلسطين

جاء في سفر عزريا (فصل ١) إنه في السنة الأولى لكورش (ويسمى قورش أيضاً بالقاف) نادى وكتب منشوراً في مملكته كلها قائلاً: إنَّ جميع ممالك الأرض قد أعطانيها الرب إله السموات، وأوصاني بأن ابني له بيتاً في أورشليم فمن كان منكم من شعبه فإلهه يكون معه، وليصعد إلى أورشليم ويبنِ بيت الرب الاله الذي في أورشليم، وكل من بقي متعزياً في أحد المواضع فليمدد أهل موضعه بالفضة والذهب والمال والبهائم، فضلاً عما يتطوعون به لبيت الله الذي في أورشليم. انتهى ملخَّصاً ويظهر أنّ اليهود رفعوا إليه عرائض يلتمسون بها إباحتهم العود إلى أوطانهم؛ وكان دانيال مقرباً إليه كثيراً فيُرجّح أنه عاونهم على إجابة مسؤولهم. وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك ١١ فصل ١) إنه كان قرأ في نبوّات اشعيا (أو أطلعه دانيال عليها) التي كتبها قبل مولده بسنين متطاولة أنّ الرب سيقيمه ملكاً على قبائل عديدة، ويلهمه ردّ شعبه إلى أورشليم وبناء الهيكل، فدُهش كورش

بذلك، وهام في إتمامه، ولذلك كتب منشوره المشار إليه. وكان ارميا قد تنبأ على ذلك فيما كتبه (فصل ٢٩ عد ١٠) لبني الجلاء في بابل قائلاً: «هكذا قال الرب عند تمام سبعين سنة في بابل أفتقدكم وأقيم لكم كلمتي الصالحة بإعادتكم إلى هذا الموضع». وأمر كورش أيضاً أنّ جميع الآنية الفضية والذهبية التي أخذها بختنصر من أورشليم ووضعها في بيت آلهته بمنزلة غنيمة حرب تُرد إلى أورشليم. ولذلك أمر متريدات الخازن فسلمها إلى ششبصر رئيس يهوذا. وظنَّ عامة المفسرين أنّ ششبصر هذا إنما هو زربابل أحد أمراء بني يهوذا من نسل داود؛ وهذا عدد هذه الآنية كما جاء في سفر عزريا (فصل ١ عد ٩). «ثلاثون طستاً من الذهب، وألف طست من الفضة، وتسعة وعشرون سكينا، وثلاثون جاماً من الذهب وأربع مئة وعشرة جامات من الفضة من الرتبة الثانية، وألف من آنية أخرى». وقال إنَّ جميعها خمسة آلاف وأربع مئة ومجموع ما ذكره ألفان وأربع مئة وتسعة وتسعون فكأنه ترك ذكر آنية أخرى أو ذهل الناسخ عن ذكرها.

فعاد زربابل ويشوع بن يوصادق الكاهن وغيرهما من رؤساء يهوذا، وبنيامين وكل من نبَّه الرب روحه ميممين أورشليم، واستمر في بابل كلُّ من أراد أن يحافظ على مسكنه وماله. وقد فصَّل عزرا عدد من عادوا إلى أورشليم وقتئذٍ فقال (فصل ٢ عد ٦٢ وما يليه): «كلّ الجماعة معاً إثنان وأربعون ألفاً وثلاث مئة وستون ما خلا عبيدهم واماءهم وهم سبعة آلاف وثلاث مئة وسبعة وثلاثون؛ ولهم مئتان من المغنين والمغنيات وخيلهم سبع مئة وستة وثلاثون وبغالهم مئتان وخمسة وأربعون، وجمالهم أربع مئة وخمسة وثلاثون، وحميرهم ستة آلاف وسبع مئة وعشرون). وقد أمدَّهم بعض من استمروا في بابل ببعض الفضة والذهب، وأنبأنا أيضاً عزرا أنّ كورش أصحبهم حينئذٍ بأمرٍ منه لبناء الهيكل إذ قال (فصل ٦) إنَّ داريوس بحث في بيت الأسفار فوجد درجاً مكتوباً فيه هكذا «هي سنة عودهم مع زربابل) لكورش الملك أبرز... أمراً في حقِّ بيت الرب الذي في أورشليم أن يبني البيت المكان الذي كانوا يذبحون فيه الذبائح وتوضع أسسه سمكه ستون ذراعاً، وعرضه ستون ذراعاً بثلاثة صفوف من حجارة عظيمة وصفٌّ من خشب جديد، والنفقة من بيت الملك. ولترد أيضاً آنية بيت الله الذهب والفضة التي أخرجها نبوكدنصَّر من الهيكل في أورشليم... وتوضع في بيت الله» وقد روى يوسيفوس (ك ١١ فصل ١ من تاريخ اليهود) هذا الأمر بأكثر تطويل وتفصيل وأظنُّ ما زاده مأخوذاً

من أمر داريوس الآتي ذكره. وأقام بنو إسرائيل الذين عادوا من الجلاء في أورشليم وما جاورها وكان جمٌّ غفير من إخوانهم استمروا في تلك المواضع فانضموا إلى العائدين. ولم تكن مدة الجلاء أنست جميعهم ذكر مواطنهم الأولى يقدمون محرقات لله ويصنعون أعيادهم بحسب سنَّة موسى قبل تجديد الهيكل أيضاً.

عد ٣٥٧

آثار كورش المؤيدة قول الكتاب

لم يكن لنا إلى سنة ١٨٧٩ م علم إلَّا بأثرَين لكورش كتب عليهما بغاية من الإيجاز، وجد أحدهما في المحل الذي يسميه الفرس تختي مدري سليمان أي عرش أم سليمان، وقد وهم بعضهم أنّ المراد عرش كورش والأولى أن يكون عرش امرأته أو أمه. وقد كُتب عليه بالفارسية: «أنا كورش الملك الأكمينيدي». والثاني عُثر عليه في سنكره في بلاد الكلدان السفلى وهو فلذة من الآجرّ نُقلت إلى المتحف البريطاني سنة ١٨٥٠ م، والباقي منها كُتب عليه ما ترجمته: «أنا كورش... مقيم هيكل السوغاتو والإيذدا ابن كمبيس... الملك القدير» على أنه في سنة ١٨٧٩ م بينما كان العالِم هرموز رسام يحفر في بابل على نفقة المتحف البريطاني كُشف عن اسطوانة من آجرّ كُتب عليها خمسة وأربعون سطراً بأحرف بابلية وباللغة الآشورية؛ وقد محا كرور الأيام منها خمسة وعشرين سطراً وأخذت هذه الاسطوانة إلى المتحف المذكور من كلام كورش الباقي عليها ما يأتي: «إنَّ كثيراً من الملوك المقيمين في الحصون والذين كانوا من قبائل عديدة تسكن الأعمال التي بين البحر الأعلى (يريد البحر المتوسط)، والبحر السفلي (خليج العجم) مع ملوك سوريا وما وراءها من البلاد غير المعروفة قدَّموا لي جزاهم كاملة وتواقعوا على قدمي... وأما الآلهة التي كانت تسكن بينهم فأعدتها إلى مواضعها، وجعلتُ لها مقراً مستمراً، وجمعتُ كلَّ شعوبهم، وأمرتُ أن يرجعوا إلى بلادهم». ولا مرية في أنّ اليهود ممن أرجعهم كورش إلى بلادهم وأنه أطلق من المجلوين غير اليهود أيضاً.

ولما كان في هذه الأسطوانة غير ذلك مما يهمّ العلم به ترجمنا منها ما يأتي أيضاً. فقال في سطر ٢٢ وما يليه: «إنَّ الأسرة القديمة الملكية التي ايد بال ونبو بجودهما ملكها قد انقضت سلطتها عند دخولي بابل ظافراً. وأقمت عرش سلطنتي في القصر الملكي بالسرور والبهجة ومَردوخ الإله العظيم الحارس القديم لابناء

بابل... وتوطدت بالأمان سلطنتي الفسيحة الانحاء في بابل وأعمال سومير واكّد العديدة». وذكر ما أجراه من الإصلاح في حصون بابل وأسوارها وقصورها إلى أن قال في سطر ٢٦: «وعنيت بإصلاح هيكل مردوخ الإله العظيم، وقد أمدَّني (مردوخ) بعونه، ورأف بي أنا كورش الملك المتعبِّد له وبكمبيس ابني فلذة قلبي وبجيشي الأمين، فاستطعنا أن نعيد معبده إلى حالة كماله الأولى». ثم قال في سطر ٢٣: «أما آلهة سومير واكّد التي كان نابونيد يكرمها في أعياد سيد الآلهة بأمر مردوخ الإله العظيم فأقمتها أنا مكرّمة في معابدها كما كان لسائر الآلهة لكلٍّ معبد في مدينته. وكنت أتضرع كلَّ يوم إلى بال ونبو ليطيلا أيامي، ويزيدا في توفيقي، وأن يشفعا لدى مردوخ سيدي بعبده كورش وكمبيس ابنه.

فهذه الخطوط أعلمتنا بأمور كنا نجهلها أو ضلَّ العلماء بها، منها أنّ العلماء كانوا يحسبون كورش موّحداً متبعاً الفرس في عبادة هورامزدا الإله الوحيد عندهم أي سيد الآلهة، فظهر من هذه الخطوط أنه كان يعبد بال ونبو ومردوخ آلهة الكلدانيين، ويبني لها المعابد أو يردها إلى معابدها، ويخشع لها ولا أقل من أنه كان يتظاهر سياسةً بإجلال آلهة مسوديه استرضاءً لهم، وهذا يؤيد صحة أمره بتجديد هيكل الرب في أورشليم جرياً على ما صنعه إلى غيره من آلهة شعبه. وقد كان العلماء يظنونه مبيداً للأصنام، وكان بعض مفسري الكتاب يحسبونه كذلك سنداً إلى آيات من نبوّة اشعيا في كلامه على كورش كقوله (فصل ٤٦ عد ١ و ٢): «قد جثا بال وجثم نبو وصارت أصنامهم على الوحوش والبهائم إنَّ محمولاتكم ثقيلة هي حمل شاق جثمت وجثت جميعاً هي أنفسها ذهبت إلى السبي». وإلى آيات من نبوّة ارميا كقوله (فصل ٥٠ عد ٢): «خبِّروا في الأمم واسمعوا وارفعوا الراية اعلنوا لا تكتموا قولوا قد أُخذت بابل وأُخزي بال وانحطم مروداك قد أُخذيت أصنامها وانحطمت أوثانها» وكقوله (فصل ٥١ عد ٥٩): «لذلك ها أنها تأتي أيام يقول الرب افتقد منحوتاتها وفي كل أرضها يئنُّ الجرحى». فكان المفسرون يفسرون هذه الآيات بمعنى أن كورش يحتقر آلهة الكلدانيين أو يحطِّم أصنامها فظهر الآن من هذه الخطوط أن المراد بتلك الآيات أن آلهة بابل تخزى لأنها لم تقدر أن تنجّي المتوكلين عليها، ولا أن تقي بابل مدينتها من تنكيل الغازي، لأنّ الشرقيين كلَّهم إلَّا اليهود كانوا يعزون إنتصارهم وانكسارهم إلى قوة آلهتهم أو ضعفها، فإذا ظفروا حسبوا آلهتهم أقوى من آلهة أعدائهم. وإذا ذلوا حسبوا آلهة

أعدائهم أقوى من آلهتهم. وكان الظافرون يأخذون أصنام من استظهروا عليهم فيقيمونها كأسرى أو حبسى في بيوت آلهتهم في حالة تشعر بذلها، كما أخذ الفلسطينيون تابوت عهد الرب. ووضعوه في هيكل داغون. وعليه فكان مفاد آيات اشعيا وارميا أنّ بال ونبو ومروداك تجثو وتجثم لآلهة كورش الظافر، وتخزى لأنها لم تستطع أن تقي عابديها، وتذلّ وكأنها تسبى مع المسبيين، وتحمل على البهائم كما تحمل غنائم الحرب. وقد يُحتمل أن يكون جنود كورش فعلوا عند دخولهم بابل بأصنامها ما ذكره النبيّان، ثم عاد كورش يكرمها ملافاة لشعبه الجديد وطلباً لحسن السياسة. أو إنَّ قول النبيِّين يصدق على أصنام بابل ومعابدها لما إفتتحها داريوس ثانيةً، ودمَّر ابنيتها ودكَّ هياكلها كما سيجئ.

عد ٣٥٨

تجديد بناء هيكل أورشليم

لما وفد رؤساء الجلاء إلى أورشليم صرفوا باكورة اهتمامهم لإقامة الهيكل في مكانه الأول. وتطوَّع كلٌّ منهم بدفع ما كان في وسعه، فكان مجموع ما حشدوا ستين ألف درهم من الذهب، وخمسة آلاف من الفضة، ومئة قميص للكهنة. ولما كان الشهر السابع أقام يشوع بن يوصادق رئيس الكهنة وزربابل بن شلتائيل وإخوته المذبح على ما كانوا عليه من الذعر من شعب البلاد، وأصعدوا عليه الذبائح، وعملوا عيد المظال كما كتب موسى، ودفعوا فضة للنحاتين والنجارين وطعاماً وشراباً وزيتاً للصيدونيين والصوريين ليأتوهم بخشب الأرز من لبنان إلى مرفأ يافا. وفي السنة الثانية من بلوغهم إلى أورشليم أقاموا اللاويين على مناظرة بناء بيت الرب. ولما وضع البناؤون أسس الهيكل قام الكهنة واللاويون بملابسهم والأبواق والصنوج بأيديهم يسبِّحون الرب، ويشكرون له بحسب النظام الذي وضعه داود الملك. وكان بعضهم يبكون لفرحهم أو لأنّ الهيكل الجديد لا يساوي هيكل سليمان اتساعاً وإتقاناً (على ما روى كرتس). وكثيرون يهتفون بالمسرَّة حتى لم يعد يميَّز صوت البكاء من صوت الفرح (عزرا فصل ٣).

وسمع أعداؤهم المقيمون في السامرة أنهم يبنون بيت الرب فأقبلوا على رزبابل ورؤساء الآباء قائلين نحن نبني معكم لأننا نطلب إلٰهكم مثلكم، ونذبح له من أيام

اسرحدون الذي صيَّرنا إلى هنا. وقد مرَّ عند كلامنا على خراب السامرة بيان أصل هؤلاء الأمم وما عبدوا، وخلطهم عبادة الله بعبادة آلهتهم فأبى زربابل ورؤساء يهوذا أن يشتركوا معهم في بناء بيت الرب، فطفقوا يقلقونهم ويرخون أيديهم في البناء جميع أيام كورش؛ ولما مات سنة ٥٢٩ ق.م وخلفه ابنه كمبيس الذي سُمي في سفر عزرا احشورش وارتحششتا؛ كتب رجال حكومة السامرة وغيرها إليه رسالة مثبتة في الفصل الرابع من سفر عزرا ملخَّصها: «إنَّ اليهود الذين خرجوا من عندك وفدوا إلى أورشليم المدينة المتمردة الشقية، وأخذوا يبنون أسواراً ويرممون أسواراً، وإذا بُنيت هذه المدينة وتمت أسوارها لا يؤدّين الخراج ولا الجزية المفروضة، وحيث أننا أكلنا خبز القصر لم يكن لائقاً بنا أن لا نُعلم الملك ليبحث في أسفار آبائه، فيعلم أنّ هذه المدينة متمرِّدة مسيئة إلى الملوك والأقاليم، فقد أثاروا شغباً في قديم الدهر ولذلك خربت هذه المدينة». وكان كمبيس سيّئ الظنّ فأبرز أمراً لوالي السامرة وسائر ولاة عبر الفرات أن يكفّوا اليهود عن البناء إلى نفوذ أمر آخر منه، فبادر هؤلاء الأعداء إلى أورشليم وكفوا اليهود عن بناء الهيكل كلّ مدة كمبيس التي كانت سبع سنين أي من سنة ٥٢٩ إلى سنة ٥٢٢ ق.م وبقي البناء منقطعاً إلى السنة الثانية من ملك داريوس ملك فارس (عزرا فصل ٤).

عد ٣٥٩

ملوك فارس إلى داريوس

نقول رغبةً في بيان ما مرّ من قول الكتاب، وتوفيراً للفوائد أنّ كورش قُتل في حرب في بلاد التتر، وأوصى بأن يكون كمبيس ابنه البكر خلفاً له ملقباً بملك الملوك، وأن يكون ابنه الأصغر الذي تسمّيه الآثار البابلية بردياس وسمّاه هيرودت سمرديس والياً على الأقاليم الشمالية والشرقية معترفاً بملك أخيه كمبيس.

وهام كمبيس بالاستيلاء على مصر طمعاً بغناها الذي حمل أكثر الغزاة إليها، فأرسل قوماً قتلوا أخاه لئلا يستبد بالملك مدة غيابه، وأذاع أنه محجور عليه في قصره في بلاد ماداي، وكانت مصر في أسوا حال لوهن قوّتها بالانقسام الداخلي؛ وكان ملوك سورية طوع يديه، والعبرانيون لم ينسوا فضل أبيه بردِّهم إلى مواطنهم. فمرَّت جنوده في سورية لا تلقي معارضاً بل قُبل بالترحاب، وأنجده الفينيقيون

بأسطول كان يوفق حركته في البحر على حركة جنوده في البرّ. فضرب بالوس وهي المعروفة الآن بفرما أو مدينة في جوارها فافتتحها وزحف ظافراً إلى منف فلم تقوَ على مقاومته إلّا أياماً. وكان أحمس أو اماسيس كما يسميه هيرودت قد مات في أثناء الحرب، وخلفه ابنه بسامتيك فأخذه كمبيس أسيراً فانتحر متسمماً. وأخرج كمبيس جثة أحمس المحنطة من مدفنها وأنزل بها كلَّ إهانة، وأحرقها بالنار مخالفاً سنَّة الفرس الذين كانت النار عندهم مقدسة فلا يحلُّ طرح جثةٍ فيها، وسنَّة المصريين القاضية باحترام جثث الموتى. وتتبّع كمبيس بعد ذلك آثار سياسة أبيه بمجاراته المصريين على عاداتهم وتزيّ بزيِّهم وكتب اسمه بالحروف الهيروكليفية، بل إدَّعى أنه من سلالة ملوكهم القدما. وأمر بردّ عبادة سائس إلى ما كانت عليه، وكان يمارس فروض الدين والتعبد كملوك مصر، واتخذ كاهناً من كهنتها يلقنه ما يترتب عليه عمله. وفي المتحف الواتيكاني تمثال لهذا الكاهن كُتب عليه ما يُشعر بما ذكرناه. وجعل مصر ولاية من ولايات فارس أقام فيها والياً أجنبياً. على أنْ توفر نجاحه أضاعة الصواب فعزم أن يحمل على قرطاجنة، وكلَّف الفينيقيين إنجاده بهذه الحملة أيضاً فأبوا محاربة إخوانهم واخلاف إيمانهم ودينهم ونقض حق الدم بينهم، فاضطر أن يضرب عن عزمه. وعنَّ له أن يغزو الحبشة ولم يُهله ما دون ذلك من العقبات والأهوال، وتوغل في الصحراء حيث لا ماء ولا قوت فاقتاتت جنوده بالعشب أياماً. وألجأهم الجوع أخيراً (على ما روى هيرودت) أن يقترعوا على واحد من كل عشرة منهم، ومن أصابته القرعة إقتاتوا بلحمانه. فاضطرَّ كمبيس أن يعود إلى مصر وقد فقد السواد الأعظم من جيشه وهبل واختلَّ شعوره؛ وكان يتصرَّف تصرُّف الممسوس بأحكامه ودم مسوديه. ومما رووا من أخبار جنونه أنه أراد أن يتزوج بشقيقة صغيرة له خلافاً لسنَّة الفرس. استفتى قضاة قومه هل ليس من مسوّغ شرعي لذلك فأجابوه لذعرهم منه أنهم لا يرون مسوغاً لكنهم يعلمون أنّ ملوك الفرس لا سنَّة عليهم، بل لهم أن يصنعوا ما شاءوا، فقتل الظالم أخته مكان أن يتزوج بها.

وبين كان كمبيس يُفعم مصر بمظالمه، نشأت ثورة في بابل، فهمّ بالمسارعة إليها وإذ كان يمتطي فرسه متلهوجاً سقط جريحاً بسيفه، وسار لا يبالي فأثخن جرحه ومات في قرية في سورية سماها علماء اليونان اكتبان. وقال بعضهم إنه قضى في الكرمل أو حماه وكان ذلك بسنة ٥٢٢ ق.م. أما داعي الثورة فهو أن كمبيس

كان وكَّل تدبير أملاكه إلى رجل مجوسي اسمه باتيزاتيس؛ وكان له أخ اسمه غوماتوس يشبه كلَّ الشبه سمرديس بن كورش الذي كان أخوه كمبيس قتله وأذاع أنه محجور عليه في قصره؛ وبينما كان الملك في مصر والشعب يئنّ من جوره إدَّعى غوماتوس أنه سمرديس أخو الملك. واتصل بمساعدة أخيه والمجوس أن ينادى به ملكاً مظنوناً إنه أخو كمبيس، وأعفى الفرس من الجزية والخدمة والجندية ليحازبوه توطيداً لملكه. على أنه لم يختفِ أمره فتحالف عليه سبعة من حكام الأعمال منهم داريوس وباغتوه في قصره وقتلوه. ولم يملك إلَّا شهراً وأجلسوا أحدهم داريوس (ويسميه العرب دارا) على منصَّة الملك. ومما رووه في تمليك دارا أنّ هؤلاء العمال إجتمعوا بعد مقتل غوماتوس يتفاوضون في نوع حكومتهم أملكية تكون أم فوضوية وآثروا الملكية، واتفقوا على أن يخرجوا في الغداة إلى مكان معيَّن ومن صهل جواده أولاً عند مطلع الشمس كان الملك. وأخذ سائس خيل دارا جواده مساءً إلى ذلك المكان وكان ربط فيه فرساً فأكثر الجواد من الصهيل ولما عاد بكرة اليوم التالي إلى المكان أخذ يصهل كما فعل في الأمس، فنزل المتحالفون عن خيولهم وأقرّوا بالملك لدارا.

وقد روى هيرودت هذه الأخبار وجاءت الآثار تؤيد روايته. فإنَّ في الطريق المؤدية من بغداد إلى همذان صخراً نُقشت عليه صورة تمثل صورة هورامزادا معبودهم في دائرة ذات أجنحة خارجة منها، ودارا وقوسه بيده ورجله على صدر رجل رافع يديه يستغيث، وعيناه إلى تسعة أشخاص قيام أمامه موثوقي الأعناق مكتفي الأيدي. وقد كُتب تحت هذه الصورة ما ملخَّصه: «لما قتل كمبيس سمرديس أخاه وكان الشعب يجهل موته مضى كمبيس إلى مصر وعصاه شعبه وكان المكر والكذب متفاقمين في هذه البلاد وكان رجل اسمه غوماتوس ثار في ٢٤ من شهر فيهنا (شباط ٥٢٢). وخدع الشعب بقوله إنه سمرديس بن كورش واستمال الناس إليه. ومات كمبيس جريحاً. فالملك الذي أخذه غوماتوس إنما هو ملكنا وخاص بذريتنا ولم يجسر الشعب أن ينتزعه من الملك لقسوته. فخشعت حينئذٍ إلى هورامزدا. فاستجابني وقتلت غوماتوس وشركاه في ال ١٠ من شهر باكايريس (نيسان سنة ٥٢١). وأخذت الملك منه وصرت ملكاً بحسب مشيئة هورامزدا فأصلحت حال المملكة، وأعدتُ المذابح التي كان غوماتوس دمَّرها، ورددتُ العبادة القديمة، ووطدتُ النظام في فارس ومادا ي وسائر الأقاليم» ولا

مرية في أنّ هذه الخطوط لدارا الذي ضبط صولجان الملك من سنة ٥٢١ إلى سنة ٤٨٥.

عد ٣٦٠
إستئناف بناء الهيكل وإتمامه

قد مرَّ أنّ البناء في الهيكل بقي منقطعاً إلى السنة الثانية من ملك داريوس، فأوهى الانقطاع جلَد أصحاب الغيرة، وأخمد جذوة حميتهم فعكف كلٌّ على مشاغله وبناء بيت له وبيت الله خرب. ويظهر أنّ زربابل حاكم اليهود في أورشليم عاد وقتئذٍ إلى بابل لإغتنام رضى دارا عنه، واستعطافه ليأمر باستئناف بناء الهيكل واستدعاء بعض من لبثوا في بلاد الكلدان للعود إلى أورشليم. فعاد منهم معه نحو من خمسين ألف جميعهم من سبطَي يهوذا وبنيامين، ومعهم مئات من الكهنة واللاويين. وبلغوا أورشليم في الشهر الرابع بعد مسيرهم وكان ذلك للسنة الثانية من ملك دارا أي سنة ٥٢٠ ق.م. وكان حينئذٍ حجاي النبي يؤنب اليهود في أورشليم على قولهم أنّ زمان بناء الهيكل لم يأتِ بعد قائلاً (فصل ١): «أفحان لكم أن تسكنوا في بيوتكم المسقفة وهذا البيت خرب»؟ ومبيناً لهم أنّ القحط الذي حلَّ بهم تلك السنين، وقلَّة البركة في بيوتهم وعمل أيديهم سببهما تقاعدهم عن بناء بيت الرب.

وبمثل ذلك كان يحضُّهم زكريا بن براكيا (أو براشيا) النبي على الأخذ في إتمام بناء الهيكل. فتلوم زربابل مدة إستئناف البناء خشية أن يقاومهم أعداؤهم إلى أن أخذ سنة ٥١٨ ق.م في العمل بإقدام وجدّ، فوافاهم تتناي وإلى عبر الفرات (المراد والي سورية وفينيقية وفلسطين) وشتريزناي (لعله والي السامرة) وأصحابهما يقولون من أمركم ببناء هذا البيت وترميم هذه الأسوار؟ فقال زربابل ويشوع عظيم الكهنة إنَّ كورش الملك أمر ببنائه وردَّ الآنية التي كان بختنصر سلبها منه إليه. وكان هؤلاء أرفق وأعدل من الأولين، فلم يكفوهم عن العمل بل رأوا أن يرفعوا الأمر إلى دارا فكتبوا إليه رسالة مثبتة في الفصل الخامس من سفر عزرا تضمَّنت حكاية الواقع وجواب اليهود لهم واستلفات الملك إلى البحث عن أمر كورش وإصدار أمره بما يشاء. فبحث دارا في سجلات ملكه فوجد أمر كورش كما مرَّ

بنصّه. فأيّده بجوابه إلى أعماله المثبت في الفصل السادس من السفر المذكور. وملخّصه أن لا يعارضوا اليهود ببناء هيكلهم، ولا يزعجوهم بشيء بل يُعطوا النفقة من خراج عبر النهر معجلة، وما يحتاجون إليه من العجول والكباش والحملان لمحرقات إله السماء وأن لا يُضنّ عليهم بالحنطة والملح، والخمر والزيت، بحسب قول الكهنة الذين في أورشليم، وإنَّ من يخالف أمره يُقلع الخشب من بيته، ويُصلب عليه ويكون بيته مرحاضاً. واختتم أمره بقوله: «والله الذي أحلَّ اسمه هناك يدمّر كلَّ ملك وشعب يمد يده لتغيير وهدم بيت الله هذا الذي في أورشليم. أنا داريوس قد أمرتُ فلينفَّذ عاجلاً». ففعل الولاة بحسب أمر الملك وكُمّل بناء الهيكل في اليوم الثالث من آذار للسنة السادسة لدارا وهي سنة ٥١٦ ق.م. وأتى الشعب من كلِّ فجٍّ فدشنوا الهيكل الجديد بمزيد المسرّة والابتهاج، وقرّبوا حينئذٍ مئة ثور ومئتي كبش وأربع مئة حَمَل وإثني عشر تيساً للإستغفار عن بني إسرائيل على عدد أسباطهم، وأقاموا الكهنة واللاويين على خدمة الهيكل بحسب سنَّة موسى ثم عملوا الفصح سبعة أيام بالفرح (عزرا فصل ٥ و ٦).

ولا نعلم حقَّ العلم مقدار اتساع الهيكل وبمقتضى أمر كورش كان يلزم أن يكون طوله ستين ذراعاً، وعرضه كذلك، وعليه فيكون أكثر اتساعاً من هيكل سليمان. إلّا أنّ الحال لم تسعفهم على بنائه كبيراً بهذا المقدار فكان أصغر من هيكل سليمان وأقلّ إتقاناً وعظمة. وروى يوسيفوس إنه كان أقلّ ارتفاعاً من هيكل سليمان. وقال بعض علماء اليهود إنهم نقشوا حينئذٍ فوق باب السور الخارج من جهة المشرق صورة مدينة شوشن ذكراً لفضل ملوك فارس، ولم يكن تابوت عهد الرب في قدس الأقداس من هذا الهيكل الجديد، لأنه جاء في سفر المكابيين الثاني (فصل ٢) أن ارميا أخذ هذا التابوت ووضعه في مغارة في جبل نبو، ولم يعد أحد يهتدي إلى محل وضعه.

عد ٣٦١

تتمّة أخبار دارا

قد عاش بنو إسرائيل في أيام دارا ناعمي البال مرعيي الجانب. وقد قسم مملكته إلى تسع عشرة ولاية على ما روى هيرودت (ك ٣ من تاريخه). وفرض على كل

ولاية جزية مقدَّرة سنوية. ويهمنا منها أن نبيِّن أنّ الجزية المضروبة على سورية مع فينيقية وفلسطين، وجزيرة قبرص كانت ٣٥٠ وزنة أو قنطاراً من الفضة. وكانت قبائل العرب في برية سورية وإلى تخوم مصر خاضعة لوالي هذه الولاية، لكنها كانت تُعفى من الجزية. وكانت الجزية المضروبة على ولاية قيليقيا (حيث ولاية اطنه الآن) ٥٠٠ وزنة يُنفق منها ١٤٠ وزنة على الفرسان المقيمين في هذه الولاية. ويُرسل الباقي وهو ٣٦٠ وزنة إلى خزينة الملك. وكان المفروض على مصر ٧٠٠ قنطار من الفضة، ثم الميرة لمئة وعشرين ألف جندي تخفر هذه البلاد. وكانت جملة الدخل على ما قدَّره هيرودت ١٤٥٦٠ وزنة بحسب إصطلاح أهل أثينا، وهي تساوي وزناً ٨٢٧٩٩٨٦٦ فرنكاً. وتساوي قيمة (لندرة الفضة وقتئذٍ ولكثرتها الآن) ٦٦٢٣٨٢٩٢٨ فرنكاً. وذهب بعض العلماء منهم كلمت في تاريخ العهد القديم وفي معجم الكتاب إنَّ دارا تزوج باستير، وقد سُمي في سفر استير احشورش أو ارتحششتا. والأظهر أن استير كانت امرأة ارتحششتا الملقب بذي اليد الطولى كما سيجيء.

إنَّ دارا بعد أن خمد نار الثورات التي توقَّدت في بلاد فارس وفي بابل وقتل ثلاثة آلاف رجل من وجهاء هذه المدينة، وأخضع بلاد ماداي وأرمينية زحف إلى تراسة بجحافله فافتتحها. وتوغَّل في بلاد التتر وانتهى إلى بعض أعمال الهند لكنه خسر أكثر جنوده. ومع هذا عزم أن يحارب اليونان، وسيَّر إلى بلادهم عسكراً جراراً عهد بقيادته إلى دانيس واوتغرن، فانتصر ملسياد قائد اليونان عليهما في ماداتون. وأهلك من جيشهما نحواً من مئتي ألف رجل وكان ذلك لسنة ٤٩٠ ق.م. وبينما كان يجيِّش جيوشاً أخرى ليثأر من اليونان ويكبت المصريين الذين ثاروا عليه دهمته المنية سنة ٤٨٥ ق.م بعد أن ملك ستاً وثلاثين سنة. وخلفه ابنه كسركس، وهو على ما أظن من يسميه المؤرخون العرب كيخسرو، ومعنى خسرو بالفارسية الوسيع الملك على ما في تاج العروس، وعنه سمى العرب ملوك فارس في طبقتهم الثالثة كسرى وجمعوها أكاسرة.

فيكخسرو أثخن بالمصريين وخمد جذوة ثورتهم وأقام أخاه اخمنيس والياً على أقاليم افريقيا، وذلَّل أهل بابل الذين عاودوا الثورة عليه. وبعد أن صفا له جو السياسة حاول إتمام نوايا أبيه في تذليل اليونان، فجيَّش الجيش وسيَّره إلى ما وراء البوسفور. وعبرت جنوده الدردنيل على جسر من سفائن، واتصل إلى أن أحرق أثينا

وفتح غيرها من مدن اليونان، فكانت بين الفريقين الحرب المعروفة بحرب سلاميس وبلاتيس. واكتسب فيها تميستكل واريستيد مجدهما المخلَّد سنة ٤٨٠ وسنة ٤٧٩ق.م. واضطرت جيوش الفرس أن تتقهقر إلى ما وراء الدردنيل. وأخذت أساطيل اليونان طريق الهجوم فنكلت بقبرص وشواطئ آسيا الصغرى. ويظهر أنّ كيخسرو قضى باقي مدة ملكه عاكفاً على ملاذه متسامحاً مع أعدائه إلى أن اغتاله رجلان من أعوانه سنة ٤٦٥ ق.م فانتشبت الحرب بين ابنَيه هستاسب وارتحششتا واستظهر فيها الثاني على الأول وملك من سنة ٤٦٥ إلى سنة ٤٢٥ق.م. وكان في أيامه عزرا ونحميا واستير وسيأتي الكلام فيهم.

عد ٣٦٢

في عزرا الكاهن

إنَّ عزرا هو ابن سرايا بن عزريا بن حلقيا الذي وجد في الهيكل نسخة قديمة من سفر تثنية الإشتراع، أو بعض فصول من هذا السفر كما مرّ في كلامنا على يوشيا الملك. ويتصل نسبه بالعازر بن هرون، وعزرا هو كاتب السفر المعنون باسمه وقد أجمع على ذلك علماء اليهود والنصارى خلافاً لبعض أهل الإنتقاد، وكان عزرا ماهراً في سنَّة موسى عاملاً بها. وأصاب بعضهم بقولهم إنه كان يعظ قومه في بابل بالمحافظة على هذه السنة بتعليمه وعلمه. ويظهر إنَّ اليهود الذين كانوا في بابل كانوا أشدّ تمسكاً بسنة موسى من إخوانهم الذين مكثوا في فلسطين. وكان زربابل أقام الهيكل في أورشليم، فرأى عزرا في بابل إنه لا يجتزأ باقامة حجارة الهيكل بل لا بد من تجديد المحافظة على سنّة الرب فعزم أن يعود إلى أورشليم. وذهب بعضهم إنه كان شخص إلى أورشليم مع زربابل في أيام كورش، ثم عاد إلى بابل في أيام أرتحششتا الذي كان مقرباً إليه على ما يظهر من رسالة الملك الآتي ذكرها.

فسار من بابل في السنة السابعة لأرتحششتا وهي سنة ٤٥٨ق.م. يصحبه قوم من الكهنة واللاويين والمغنين والبوابين وعامة الشعب، وكان بدء سفره في اليوم الأول من الشهر الأول، وبلغ أورشليم في اليوم الأول من الشهر الخامس. فكانت مدة سفره أربعة أشهر تخللها بلا بد بعض أيام للاستراحة. وقد دفع الملك إليه رسالته المثبتة في الفصل السابع من سفره وملخصها:«من أرتحششتا ملك الملوك إلى

عزرا الكاهن كاتب شريعة إله السماء الكامل سلام. إني أمرت بان كل من شاء من مملكتي من شعب إسرائيل أن يرجع معك إلى أورشليم فليرجع لأنك أرسلت من عند الملك ومشيريه السبعة لتبحث عن يهوذا وأورشليم على حسب سنة الهك، وتأخذ الفضة والذهب اللذين تطوع بهما الملك ومشيروه لإله إسرائيل الذي مسكنه في أورشليم. وكل ما تجده من الفضة والذهب في بلاد بابل من تطوعات الشعب والكهنة تشتري به عاجلاً ثيراناً وكباشاً وحملاناً وتقربها على مذبح بيت الهكم. وكل ما حسن عندك وعند إخوانك أن تعملوه بما فضل من الفضة والذهب فاعملوه على مشيئة الهكم. والآنية التي أُعطيتها لخدمة بيت الهك ردها إلى أمام اله أورشليم (كأنه كان باقياً شيء من سلب الهيكل). وسائر ما تحتاج إليه من النفقة في بيت الهك خذه من خزائن بيت الملك، وقد أمرت جميع الخزان الذين في عبر نهر الفرات إنَّ كل ما يطلبه منكم عزرا الكاهن فليقضَ عاجلاً إلى مئة قنطار فضة. ومئة كرّ قمح ومئة بث خمر ومئة بث زيت والملح دون تقييد. وكل ما يأمر به آله السماوات فليقضَ باهتمام لبيته لكي لا يكون غضبه على مملكة الملك وبنيه.

ونعلمكم أنَّ جميع الكهنة واللاويين والمغنين والبوابين وسائر خدام بيت الله لا يضرب عليهم خراج ولا جزية ولا ضريبة. وأنت يا عزرا أقم بحسب حكمة الهك قضاةً وحكاماً يقضون بين جميع الشعب الذين في عبر النهر(الفرات) من كل من يعلم شريعة الهك ومن لا يعلم فعلموه. وكل من لا يعمل بشريعة الهك وشريعة الملك فليقضَ عليه عاجلاً إما بالموت أو بالنفي أو بغرامة مال أو بالحبس. وأعقب عزرا هذه الرسالة بقوله: «تبارك الرب إله أبائنا الذي ألقى مثل هذا في قلب الملك لتكريم بيت الرب. وقدم بنو الجلاء القادمون حينئذٍ إلى أورشليم محرقات للرب. وبلّغ عزرا أمر الملك إلى أقطابه وحكام سورية فاعانوا الشعب وكرموا بيت الله (عزرا فصل٧ و٨).

عد ٣٦٣
حظر عزرا على بني إسرائيل الزواج بالأجنبيات

قد أقبل رؤساء الشعب إلى عزرا ينبئونه بان الشعب بل بعض الكهنة واللاويين أيضاً لم ينفرزوا عن شعوب الأرض لأنهم تزوجوا ببنات من الكنعانيين والموآبيين

والعمونيين والمصريين، وزوجوهم بناتهم. فاغتاظ عزرا ومزق ثوبه ونتف شعر رأسه ولحيته. وأخذ يصلي لله خاشعاً ويستميحه أن لا يغضب على شعبه لذلك، واجتمع إليه حشد كبير وبكوا معه. وتحالف عزرا ورؤساء الكهنة واللاويون والحشد المذكور على إخراج النساء الأجنبيات وأولادهنَّ. فاستدعوا جميع بني الجلاء ليشخصوا إلى أورشليم في مدة ثلاثة أيام، وكل من أبى أن يأتي تسبى كل أمواله ويفرز عن جماعة أهل الجلاء. فاجتمع جميع رجال يهوذا وبنيامين في ساحة بيت الله، فقال لهم عزرا تعديتم سُنّة الله واتخذتم نساء من الأمم لتزيدوا في أثم إسرائيل فاعتزلوا أمم الأرض والنساء الغريبات. فقالت الجماعة حسن كما قلت الا نفعل، إلا إنَّ الشعب كثير والوقت وقت أمطار لا طاقة لنا أنْ نقف في الخارج وليس العمل عمل يوم أو يومين، فليقم رؤساؤنا ويأتِ من اتخذوا نساء غريبات في أوقات مسماة ومعهم شيوخ كل مدينة وقضاتها حتى يُصرف عنا غضب الهنا. وأقاموا مفوضين للبحث عن هؤلاء وتنفيذ الامر عليهم، فوجدوا كثيرين ارتكبوا هذه المعصية وبعضهم من الكهنة واللاويين. فاذعنوا للامر وحلفوا أن يخرجوا نساءهم الغريبات وقدموا لله ذبائح تكفيراً عن أثمهم على أنه يظهر أنهم لم يتركوا جميعهم نساءهم، لأننا نرى نحميا اضطر أن يستأنف الأمر بطرد النساء الغريبات (عزرا فصل٩ و١٠).

عد ٣٧٤

تتمة أخبار عزرا ووفاته وأسفاره

قد بقيت لعزرا السلطة النافذة في أورشليم إلى وفود نحميا إليها حاكماً فيها من لدن أرتحششتا كما سيجيء، وفي السنة الثانية بعد إقامة أسوار أورشليم إجتمع الشعب في الهيكل للاحتفاء بعيد المظال. وسألوا عزرا أن يقرأ لهم التوراة فقرأ لهم من الصباح إلى نصف النهار، وكان في جانبه بعض من الكهنة واللاويين ليفهموا الشعب المعنى، فان إقامتهم في الجلاء سبعين سنة أنست أكثرهم اللغة العبرانية المكتوبة التوراة بها. وظل يقرأ لهم سنّة الله ثمانية أيام، وفي الختام جدد جميعهم العهد واليمين على طاعة الله والعمل بناموس (نحميا فصل٨).

روى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك١١ فصل٥) أنَّ عزرا توفي في أورشليم وعظم الشعب الاحتفاء بدفنه، ولكن ذهب بعض علماء اليهود أنه قضى في بلاد

فارس لدن عوده مرة أخرى إليها وإنَّ سكان تلك البلاد يدلون على مدفنه في مدينة ساموز، ويقال إنه عاش مئة وعشرين سنة.

قد مرّ إنَّ السفر الذي كان مدار كلامنا عليه في هذا الفصل إنما هو لعزرا بإجماع اليهود والنصارى على ذلك؛ لكن الترجمة اللاتينية العامية تعزو إليه السفر الثاني أيضاً الآتي الكلام فيه المعروف في النص العبراني بسفر نحميا وهو لنحَميا حقيقة؛ ومن المجمع عليه إنه هو كاتب الفصول الستة الأولى منه، ولكن عزا العقليون ما تضمنه هذا السفر من الفصل السابع عد٦٩ إلى الفصل الثاني عشر عد٢٦ إلى كاتب آخر كان بعد قرنٍ من أيام الكاتب الأول. واحتجوا لذلك بادلة تضعف قول الجمهور بان نحميا كتب هذا السفر إلا آيتين أو ثلاثاً في الفصل الثاني عشر منه (عد١١ و٢٢) ألحقتها يد أخرى بكلامه تلاحظ نسب بعض كهنة لم يكونوا في أيام نحميا واما نسبة هذا السفر إلى عزرا في الترجمة اللاتينية المذكورة فمصدرها جعل اليهود السفرين واحداً كيلا يتجاوز عدد الأسفار المنزلة عندهم عدد حروف هجائهم الأثنين والعشرين. ثم إنَّ الكنيسة اليونانية عزت إلى عزرا سفراً ثالثاً وخالفتها في ذلك الكنيسة الكاثوليكية، وهذا السفر أشبه بسفر عزرا الأول، ولكن تخللته حواشٍ وزيادات منها إنه كان لداريوس ثلاثة حراس أحدهم زربابل، وإنه طارحهم سؤالاً في ما هو أقوى شيء في العالم فقال الأول: إنه الخمر وأقام عليه ما عنَّ له من الحجج، وقال الثاني هو الملوك واورد له ما خطر في باله من البراهين. وقال الثالث هو زربابل إنَّ أقوى شي النساء وأقوى من الخمر والملوك والنساء الحق. وأثبت ذلك بادلة دامغة فجمع الملك أعوانه وعماله وقصّ عليهم ما كان فصوبوا جميعاً قول زربابل وجزاه الملك بالسماح له أن يعود إلى أورشليم ويجدد بناء الهيكل. وذكر يوسيفوس هذه القصة (في تاريخ اليهود ك١١ فصل٤) ولا يحسب بذلك إنه قطع بكونها من جملة الكلام المنزل في أمته. وأيضاً يعزى إلى عزرا سفر رابع ليس على صحة تنزيله من دليل، وقد بذل كاتبه جهده ليحذو به حذو عزرا في الفاظه واساليب كلامه. ومما كتب فيه أنّ يوم الدين قريب، وأنَّ نفوس الصالحين والأشرار أجمع تنجو بعده من الجحيم، وأنَّ عزرا أصلح الأسفار المقدسة كلها وكانت قد بادت برمتها. ويتكلم في المسيح ورسله كلاماً واضح مما ورد في الأنجيل إلى غير ذلك مما حمل اليهود والنصارى على نفي هذا السفر من عداد الأسفار المنزلة. وينسب إلى عزرا أيضاً أنه كتب سفري الملوك الثالث والرابع

وسفري أخبار الأيام الأول والثاني، ولعله أعاد النظر فيها أو عارض نسخها وأصلح فيها شيئاً. ويقال إنه واضع نظام الأسفار المقدسة إلى أيامه كما نراه الآن. وإنه أول من وضع النقط والحركات على كلم الكتاب، والأصح إنَّ وضعها كان بعده بقرون وبعد مجي المخلص.

عد ٣٦٥
نحميا وبناؤه أسوار أورشليم

ذهب بعضهم إلى أن نحميا كان من السبط الكهنوتي، والأظهر أنه كان من سبط يهوذا من ذرية الملوك، وقد ولد في بابل في مدة الجلاء فلم يكن يعرف أورشليم بل كان يحنّ إليها لأنها موطن آبائه وحوت بيت الهه وكان من المقربين إلى أرتحششتا الملك بل كان ساقيه. وقد وفد يوما أحد إخوته ورجال من يهوذا من أورشليم إلى شوشن عاصمة الفرس. فاستخبرهم عن حالة أمته فقالوا هم في ضنك وأسوار أورشليم ما برحت متهدمة، وأبوابها محترقة، فبكى وصام وصلى إلى الله ليمده بعونه أمام الملك، ووقف أمامه في شهر نيسان في السنة العشرين لملكه وهي سنة ٤٤٥ق.م. وناوله الخمر مكتئباً. فسأله الملك عن علة إكتئابه فقال حييت مولاي إلى الأبد كيف لا أكتئب والمدينة حيث مدافن أبائي خربة وأبوابها محترقة. فقال الملك ما تبغي؟ فقال بعد أن خشع لله إن كان لعبدك حظوة أمامك فمر بان أمضي إلى هناك. فأجاب الملك متمناه بحضرة الملكة. وفي هذا إشارة إلى إنها أستير بنت قبيلته. ودفع إليه رسائل توصاة إلى الولاة الذين في عبر الفرات، ورسالة إلى أساف حارس غاب الملك ليعطيه ما يلزمه من الأخشاب.

وأصحبه بقواد وفرسان وولاَّه على قومه وشرط عليه أن يعود إليه بعد الفراغ من مهامه. فوفد إلى أورشليم ومكث ثلاثة أيام لا يقول شيئاً. ثم خرج ليلاً ودار حول المدينة متبصراً كيف يقيم أسوارها ودعا رؤساء قومه وأعلمهم بما أتاحه الله له. وحضهم على بناء أسوار أورشليم، فلبوا دعوته مجدين، وأخذ كلٌّ في بناء ما يواجه بيته. وسمع سنبلط الحوروني والي السامرة وطوبيا العبد العموني (لعله كان والياً على العمونيين) وجاشم العربي والي العرب فسخروا من اليهود قائلين ماذا يصنع هؤلاء اليهود الضعفاء أيتمردون على الملك أم يحيون الحجارة من كوم التراب، وهي محترقة، فلو وثب ثعلب لهدم سور حجارتهم. فلم يحفل نحميا

بكلامهم وجد في بناء السور وأتم نصفه فاستشاط أعداء اليهود حنقاً فعدلوا عن السخرية منهم وتفرغوا لقتالهم. وأخبر اليهود المقيمون بين الأمم نحميا بما ينوون فاقام الحراس ليلاً ونهاراً على قمم الجبال، وقسم شعبه إلى نصف يعمل العمل ونصف يحمل السلاح متأهباً للقتال، وكان البناؤون يبنون وسلاحهم، معهم وكذلك فعل العملة. وأقام نحميا مبّوقين حتى إذا أقبل الأعداء من جهة عرف كل واحد باقبالهم وأتموا هذه الأسوار في مدة أثنين وخمسين يوماً، والمراد إنهم أتموا النصف الذي كان باقياً عند استعداد أعدائهم لقتالهم.

ولم يتهيأ لأعداء اليهود أن يحاربوهم فعولوا على أن يحتالوا على نحميا ليهلكوه غيلة. فاستدعوه لمفاوضتهم في البرية لتسوية الخلاف دون حرب، فاعتذر لهم بانه أخذ في عمل كبير فلا يتسنى له تركه مخافة أن يُعطَّل ورادُّوه في ذلك أربع مرات، وهو يجيبهم جواباً واحداً. فارسل إليه سنبلط رسالة مع غلامه مفتوحة وقد كتب فيها: « قد سمع في الأمم وجاشم (والي العرب) يقول إنك أنت واليهود مضمرون التمرد، ولذلك أنت تبني السور لتكون ملكاً عليهم وقد أقمت لك انبياء ليتنبأوا لك في أورشليم قائلين إنَّ في يهوذا ملكاً، والآن يسمع هذا الكلام عند الملك فهلّم الآن لنأتمر معاً». فاجابه نحميا ليس كما تزعم وإنما هو كلام أنت تختلقه من قلبك. واستمال أعداؤه إليهم نبياً كاذباً اسمه شمعيا أخذ يخوفه قائلاً: لنجتمع في بيت الرب ونوصد الأبواب لأنهم آتون ليقتلوك ليلاً. فاجابه نحميا مثلي لا يهرب ولا يدخل الهيكل ليحيى، ويعلم إنَّ أعداءه أستأجروه ليقول هذا الكلام وإنَّ كثيرين من أورشليم يراسلون طوبيا العموني ويراسلهم لأنه كان تزوج هو وابنه بأمرأتين عبرانيتين فلم يعبأ بشي من ذلك.

وأراد نحميا أن يدشن السور والأبراج والأبواب فدعا الكهنة واللاويين والمغنيين ورؤساء الشعب من كلّ أنحاء اليهودية. وسير فريقاً منهم عن جنوبي الأسوار وفريقاً عن شماله يسبحون الله بالغناء والصنوج والعيدان والكنارات إلى أن التقى الفريقان في الهيكل، وتلوا بعض فصول التوراة، وقدموا الذبائح والقرابين، وعيدوا عيد المظال بالبهجة والسرور. ووجد نحميا أسوار المدينة فسيحة لا تُملئها المساكن، فالقى قرعة على أن يأتي واحد من عشرة من الشعب ليسكن في أورشليم والتسعة يسكنون المدن والقرى (نحميا من الفصل الأول إلى الفصل السابع).

عد ٣٦٦

تتمة أخبار نحميا

إنَّ بناء الأسوار وتفرغ الشعب للحراسة والعمل كما مر أنهكا الفقراء منهم واضطر بعضهم أن يبيع عقاره، وبعضهم أن يرهنه، وغيرهم أن يقترض مالاً بربا فاحش وآخرون إلى أن يعبّدوا بنيهم وبناتهم ليكسبوا ما يعيشون به، فجمع نحميا الكبراء والأغنياء وعنفهم على ظلمهم الفقراء وحملهم أن يحطوا لهم من دينهم ويردوا عليهم حقولهم وكرومهم، ويقرضوهم دون ربا. وقال مذ أُمرت أن أكون قائداً لم آكل خبز القائد (أي لم يأخذ شيئاً من جعله). ولم أثقل على أحد بل كان على مائدتي كل يوم مائة وخمسون رجلاً من اليهود والولاة ما خلا من كانوا يقدمون إلينا من الأمم، فأذعنوا لكلامه وردوا على الفقراء بعض ما كانوا أخذوه.

وعكف نحميا على استئصال ما تداخل عند اليهود من العادات السيئة، ومنه الزواج بنساء غريبات من غير أمتهم. وقد مرَّ أنَّ عزرا عني بذلك فيظهر أنَّ بعضهم لم ينبذوا نساءهم الغريبات فاحتاج الأمر عناية نحميا أيضاً وكان أكثر نجاحاً. وعين جعل الكهنة والمغنيين، وشدد بحفظ وصية السبت، ونهى الصوريين وغيرهم من بيع السمك وغيره في أورشليم يوم السبت. وأمر باقفال أبواب المدينة في ذلك النهار. وحمل كبراء الشعب على تجديد ميثاق الطاعة لوصايا الرب. ووقّع على هذا الميثاق هو وكبراء الشعب ووصف نفسه بكلمة ترشاتا وهي فارسية معناها على الأصح حاكم أو والٍ. وجاء في سفر المكابيين الثاني (فصل٢ عد١٣) إنَّ نحميا «أنشأ مكتبة جمع فيها أخبار الملوك والانبياء وكتابات داود ورسائل الملوك في التقادم» وأقامها في الهيكل. وبعد أن فرغ من هذه المهام عاد إلى أرتحشستا الملك كما وعده، ثم قفل بامره إلى أورشليم حيث توفي نحو سنة ٤١٥ق.م. على الراجح سنداً إلى أنَّ أرتحشستا ملك سنة ٤٦٥ ونحميا أتى أورشليم في السنة العشرين لملكه وهي سنة ٤٤٥ق.م. وإنه حكم في شعب يهوذا نحواً من ثلاثين سنة.

عد ٣٦٧

سفر أستير ومن كانت هي زوجة له

إنَّ مدار كلامنا في أخبار أستير إنما هو على ما تضمنه السفر المنزل المعروف

بسفر أستير وقد أنكر الملحدون تنزيله، وسموه مثلاً أو حكاية مع أنّ حسبانه من الأسفار المنزلة ثابت بادلة قاطعة، منها إنَّ العيد المعروف بيومي فوريم (أي القرعة) الذي ذكر في سفر أستير (فصل٩ عد٢٨). قد جاء ذكره في سفر المكابيين الثاني أيضاً (فصل١٥ عد٣٧) مأموراً أنَّ العيد فيه ذكر للأحداث الآتي إيرادها، وأنَّ اليهود كانوا يحتفون به في أيام نكانور في نحو سنة ١٦٠ق.م. ومنها أنَّ يوسيفوس الذي كان في القرن الأول للميلاد ذكر هذا العيد (في تاريخ اليهود ك١١ فصل٦). واليهود يحتفون به إلى الآن في الثالث عشر من آذار ويصومون اليوم السابق له ويقرأون في مسائه سفر أستير برمته. ومنها مطابقة كل ما جاء في هذا السفر لعادات الفرس في تلك الأيام وآدابهم. ولذلك قضت الكنيسة باحصائه بين الأسفار المنزلة مع الحواشي المذيل بها وإن خلا النص العبراني عنها مع وجودها في الترجمة السبعينية، أما كاتب هذا السفر فغير معروف وعزاه التلمود إلى مجمع اليهود الكبير في تلك الأيام، والقديس أكليمنضوس الاسكندري وغيره إلى مردكاي عم أستير أو ابن عمها وفي الفصل التاسع من هذا السفر (عد٢٠) ما يؤيد هذا القول لأنه جاء هناك: «وكتب مردكاي هذه الأمور وبعث برسائل إلى جميع اليهود الذين في جميع أقاليم الملك أحشورش من دانٍ وقاصٍ». وعلى كل قول يلزم أن يكون الكاتب قد عاش في أيام ملوك الفرس لما يظهر من معرفته بعاداتهم وقرائن أحوالهم ودقائق أمورهم ومن أساليب كلامه المطابقة لأساليب كلامهم في تلك الأيام.

وقد جآء في هذا السفر أنَّ أستير كانت بنت أبيخائيل من سبط بنيامين، وتوفي والدها فرباها عمها أو ابن عمها مردكاي بن يائير، وقيض الله لها أن تكون زوجة لأحشورش ملك الفرس، وذهب بعضهم منهم كلمت في تاريخ العهد القديم وفي معجم الكتاب إلى أن أحشورش هذا هو دارا بن هيستاسب. وذهب آخرون وهم كثيرون إلى أنه أرتحششتا الملقب بذي اليد الطولى، وأقاموا على ذلك أدلة وحججاً منها أنَّ يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك١١ فصل٦) صرح بان الملك الذي تزوج باستير (أنا هو أرتحششتا ذو اليد الطولى) ومنها أنَّ الترجمة السبعينية وحواشي سفر أستير اليونانية سمت أحشورش أرتحششتا. وتوجد قرائن عديدة تثبت أنَّ «أحشورش هذا لا يمكن أن يكون أرتحششتا الملقب بمامون الذي ملك في الفرس بعداً فتعين أنَّ المراد أرتحششتا ذو اليد الطولى؛ ومن هذه الأدلة تعطفات أرتحششتا على اليهود

بتولية نحميا عليهم ومعاونته على بناء أسوار أورشليم إلى غير ذلك مما يشعر بان امرأته كانت يهودية. وقد قال بهذا أكثر العلماء حتى قال كلمت نفسه في آخر كلامه على أحشورش في معجم الكتاب: «يظهر لي أنَّ حجج هذا القول أقوى من حجج القول الآخر ولذلك اعتمد عليه».

عد ٣٦٨

ملخص خبر أستير عن سفرها

قد جاء في هذا السفر أنَّ أحشورش صنع وليمة لعظماء مملكته في السنة الثالثة لملكه استمرت مئة وثمانين يوماً. ثم صنع وليمة أخرى لشعبه في شوشن عاصمة ملكه مدة سبعة أيام في دار حديقة قصره. وادبت الملكة للنساء في قصره وأمر في اليوم السابع أن تأتي وشتي الملكة إلى أمامه بتاج الملك ليرى الشعب والزعماء جمالها، فأبت الملكة أن تأتي فحنق الملك وقال للحكماء العارفين بالسنة ما تفعل بوشتي الملكة وما جزاؤها؟ فقال أحدهم إنها لم تسئ إلى الملك وحده بل إلى جميع الزعماء والشعب لأن خبرها سينتهي إلى جميع النساء فيحتقرنَ بعولهنَّ، فان حسن عند الله أن يعطي ملكها لمن هي خير منها. وصوب الملك مشورته وأذاع أمراً بان يكون كل أمريءٍ رباً على بيته (فصل١). وطلب غلمان الملك أن يؤتى بنات أبكار حسان ومن حسنت منهنَّ في عيني الملك كانت بدلاً من وشتي الملكة. فادخل مردكاي أستير، بيت الملك وأوصاها بان لا تخبر أحداً بشعبها وأقربائها. ونالت حظوة عند هيجاي حارس النساء ونقلها والجواري التي أعطيتها من بيت الملك إلى أحسن محل في دار النساء. وكان مردكاي يتمشى كل يوم أمام دار النساء متفقدا سلامة أستير ثم قدمت إلى الملك فأحبها على جميع النساء ووضع التاج على رأسها وجعلها ملكة بدلاً من وشتي. وكان بعد أيام ان مردكاي عرف بخيانة على الملك أضمرها رجلان من حراس أعتابه ليقتلاه غيلة فأخبر أستير وهي أخبرت الملك بذلك. وتحقق صحته فعلق كليهما على خشبة ودوّن ذلك في سفر أخباره (فصل٢).

وكان أرتحششتا عظَّم رجلاً اسمه هامان ورفع مجلسه فوق جميع الزعماء الذين عنده. وكان جميع الواقفين في باب الملك يسجدون له، إلّا مردكاي فلم

يكن يجثو ويسجد له فحنق عليه هامان. وصغر في عينيه أن يلقي يده عليه وعمل على إهلاك اليهود جميعاً. فنمَّ إلى الملك أنَّ في أقاليم مملكته شعباً منتشراً تخالف سنته سنن الشعوب وسنة الملك فلا يجدر تركهم على ما هم عليه، فيعثون في المملكة. فليكتب الملك في تدميرهم وأنا أزن عشرة آلاف قنطار من الفضة لمن يتولون العمل. فقال له الملك الفضة موهوبة لك ونزع خاتمه من يده ودفعه إلى هامان ليوقع على الأمر الذي يحسن له. فاستدعي كتاب الملك في اليوم الثالث عشر من الشهر الأول، وكتب إلى الأقطاب وولاة الأقاليم ليستأصلوا اليهود رجالاً ونساءً وأطفالاً. فخرج السعاة معجلين بامر الملك وصدر الحكم في شوشن العاصمة (فصل٣). ولما علم مردكاي بما كان مزّق ثيابه وألقى عليه مسحاً ورماداً، وخرج إلى وسط المدينة وصرخ صراخاً مرًّا، وجاء إلى أمام باب الملك. وأخبرت أستير جواريها، فارسلت أحد الخصيان إلى عمها فاخبره مردكاي بما كان، وأرسل إليها نسخة أمر الملك الذي أذيع في شوشن. وأوصاها أن تدخل على الملك وتشفع في أمتها، ولا تخال إنها تنجي في بيت الملك دون اليهود. فارسلت تقول له أن يجمع اليهود ويصوموا ثلاثة أيام لأجلها، وهي تصوم كذلك مع جواريها فمضى مردكاي وفعل كما أمرت (فصل٤).

وفي اليوم الثالث لبست أستير ثياب الملك ووقفت في ساحة دار الملك، فرآها ونالت حظوة في عينيه. ومدَّ لها صولجان الذهب فتقدمت ولمسته، وقال لها الملك مالك يا أستير وما بغيتك؟ ولو كان نصف المملكة فتعطى لكِ. فقالت إن حسن عندك أتيت أنت وهامان إلى مأدبة أعددتها في الغد. فقال الملك بلغوا هامان ليفعل كما قالت أستير. وخرج هامان ذلك المساء من القصر فرحاً طيب القلب لكنه لما رأى مردكاي لم يجثُ له احتدم غيظاً، وجاء إلى بيته يخبر امرأته وأصدقاءه بمجده وبدعوة أستير له وحده إلى مأدبة الملك. وقال كل هذا كلا شيء عندي ما دمت أرى مردكاي جالساً في باب الملك ولا يسجد لي. فقالت زوجته وأصدقاؤه لتصنع خشبة علوها خمسون ذراعاً وغدا كلم الملك فيعلق مردكاي عليها. فحسن الأمر عنده وصنع الخشبة (فصل٥). وفي تلك الليلة أرق الملك فامر أن يؤتى بسفر أخبار أيامه فوجد مكتوباً فيه أنَّ مردكاي كشف للملك عن خيانة حارسيه اللذين ارادا قتله. فسأل ما صُنع من الكرامة والتعظيم لهذا الرجل، فقال الغلمان لم يصنع له شيء فقال من في الساحة؟ قالوا: هامان! فقد كان جاء ليكلم الملك في تعليق

مردكاي على الخشبة. فامر أن يدخل عليه وقال الملك له: ماذا يُصنع لرجل يرغب الملك في تكريمه؟ وفكر هامان من يرغب الملك في تكريمه أكثر منه فقال: يأتونه بثياب الملك التي يلبسها وبالفرس الذي يركبه ويوضع تاج الملك على رأسه ويطاف به في ساحة المدينة، وينادى أمامه. هكذا صُنع للرجل الذي يرغب الملك في أن يكرمه فقال له الملك اسرع إذاً وخذ الثياب والفرس والتاج واصنع كما قلت لمردكاي ولا تدع كلمة تسقط من كل ما قلت. فارغم هامان أن يصنع كذلك وكبده يفطر كمداً وحنقا، ورجع مردكاي إلى باب الملك وهامان إلى بيته حزيناً مغطى الرأس. وأخبر زوجته وأصدقاءه بما جرى له فقالوا له إن كان مردكاي من نسل اليهود فلن تقوى عليه. وفيما هم يتكلمون جاء خصيان الملك يدعونه لمأدبة أستير (فصل٦).

وعند شرب الخمر قال الملك لأستير: ما بغيتك ولو نصف المملكة فتعطينه؟ فقالت إن حسن عندك فلتوهب لي نفسي وشعبي لأننا مبيعون جميعاً للقتل والإستئصال. ولو بعنا عبيداً وأماء لسكتُّ عن اضطهاد مضطهدنا. فقال الملك متعجباً: من هو وأين ذاك الذي يفكر في هذا؟ قالت: ها هو هامان العدو المضطهد. فقام الملك مغضباً عن شرب الخمر ومضى يتمشى في حديقة القصر، وجثا هامان يتوسل إلى الملكة عن نفسه، ثم عاد الملك فوجده وقد خرَّ على عرش الملكة. فقال أيغضب الملكة أيضاً في داري ولم تخرج الكلمة من فم الملك إلاَّ وغطى الغلمان وجه هامان وسحبوه إلى الخارج. وعلم الملك أنه كان أعدَّ خشبة ليعلق مردكاي عليها. فقال: علقوه عليها. فعلقوه وسكن غضب الملك (فصل٧).

ووهب الملك بيت هامان لأستير وأخبرته أنَّ مردكاي من ذوي قرابتها، فاستدعاه ونزع الخاتم الذي كان من هامان فاعطاه لمردكاي، وأقامته أستير على بيت هامان، وعادت فخرت عند قدمي الملك، وبكت وتضرعت إليه في إزالة شر هامان عن أمّتها. فقال الملك، لها ولمردكاي أكتبا أنتما إلى اليهود وغيرهم ما يحسن لكما، وأختما بخاتم الملك. فكتب كل ما أمر به مردكاي إلى اليهود والأعوان والولاة من الهند إلى كوش (بلاد الحبشة)، ووجه مردكاي الرسائل .مع السعاة على الخيل فخرجوا مسرعين بامر الملك، وأُذيع الحكم في شوشن العاصمة. وخرج مردكاي من حضرة الملك، بثوب الملك السمنجوني والأبيض وبتاج نفيس من ذهب وثياب بز وارجوان. وكان لليهود بهجة وسرور وكرامة أينما كانوا أو

حلوا. وصار كثير من أمم الأرض يهوداً لأن خوف اليهود حل عليهم (فصل ٨)، وعظمت مكانتهم واشتدت صولتهم، وكان جميع الأقطاب والأعوان والولاة يساعدون اليهود خوفاً من مردكاي، وقتل اليهود في شوشن وحدها يوم إنفاذ أمر الملك خمس مئة رجل من أعدائهم، وفي اليوم الثاني ثلاث مئة وكان عدد القتلى جميعاً من أعدائهم في سائر أنحاء المملكة خمسة وسبعين ألفاً منهم أبناء هامان العشرة. واستماحت الملكة أن يعلقوهم على خشبات فعلقوهم ولم يمد أحد اليهود إلى غنيمة يداً، بل جعلوا الرابع عشر والخامس عشر من آذار عيداً لنجاتهم يحتفون به كل سنة إلى اليوم، وسموه فوريم أي القرعة، لأن هامان كان ألقى قرعة على إبادتهم (فصل٩).

وقد علقت في الفصل السادس عشر من سفر أستير نسخة الرسالة التي أذاعها أرتحششتا الملك نقضاً لأمره باستئصال اليهود وقد خلا عنها النص العبراني. وإليك ملخصها: «من أرتحششتا العظيم المالك كل ما كان من الهند إلى الحبشة إلى القواد والرؤساء في المئة والسبعة والعشرين إقليماً التي في طاعتنا سلام. إنَّ كثيرين يسيئون إتخاذ المجد الممنوح لهم فيتكبرون ويظلمون رعايا الملك بل يتآمرون على الّذين منحوهم المجد أيضاً، ويتوهمون أنهم يستطيعون أن يفروا من قضاء الله المطلع على كل شيء، وهذا أمر أنبأتنا به التواريخ، ومما يحدث كل يوم أنَّ دسائس البعض تفسد خواطر الملوك الصالحة. ويلزم الملك أنْ ينظر في جميع الأقاليم وعليه فلا ينبغي أن يظن إننا نأمر بامور متباينة عن خفة عقل بل ذلك ناشيء عن اختلاف الأزمنة وضروراتها. ولكي تفهموا كلامنا بأوضح بيان فاعلموا أنّ هامان المكدوني جنساً ومشرباً، والغريب عن دم الفرس قد فضح رحمتنا بقساوته وبعد أن أويناه غريباً، وأحسنا إليه حتى كان يدعى أباً لنا والجميع يسجدون له بلغ من شدة عتوه أن يسلبنا الملك والحياة. وسعى بدسائس لأهلاك مردكاي الذي إنما نحن في الحيوة من أمانته وباهلاك قرينة ملكنا أستير وسائر شعبها، وكان في نفسه أن يترصد لنا ويحول مملكة الفرس إلى المكدونيين، ولم نجد نحن ذنباً في اليهود المقضى عليهم بالموت، بل هم بنو الله العلي العظيم الذي باحسانه سلَّم الملك إلى آبائنا وإلينا، وما برح محفوظاً، وعليه فليكن معلوماً إنَّ الرسائل التي وجهها باسمنا هي باطلة، وبسبب تلك الجريمة علق هو وجميع أنسبائه على خشبات فنال بذلك جزاء ما استحق من قبل الله لا من قبلنا، وليعلن هذا الأمر الذي نحن منفذوه الآن في

جميع المدن ليباح لليهود أن يعملوا بسننهم. وتحصل المعاضدة لهم على أعدائهم وأن يعيّد ليوم نجاتهم. وليعلم في ما بعد إنَّ كل من يطيع الفرس بامانة يثاب على أمانته ثواباً وافياً، ومن يرصد لملكهم يهلك بجنايته».

عد ٣٦٩

تتمة أخبار أرتحششتا وخلفائه إلى أيام اسكندر الكبير

إنّ الملك أرتحششتا أوقد نار الحرب على مصر لعودها إلى ثورتها، فحازبها اليونان. وأرسلوا أسطولاً يخرب في شواطي البحر المتوسط إنجاداً للمصريين. وكانت وقائع عديدة انتصر فيها مكابيس والي سورية من قبل أرتحششتا على قائد الأسطول اليوناني. ولكن انتصر اليونان عليه مرات في قبرص فاضطر ملك الفرس أن يطلب الصلح مع اليونان، فوقع على عهدته سنة ٤٤٩ق.م. وكان من شرائطه تخلي أرتحششتا عن جميع المدن اليونانية التي على شاطئ بحر اليونان، ثم عصا عليه مكابيس والي سورية وانتصر على جيوشه. واستقل ملك ليديا عنه واستبد بملكها وكان ذلك مقدمة لتجزئة مملكة الفرس. ولم يشترك اليهود في شيءٍ من هذه الحروب.

وقد توفي أرتحششتا سنة ٤٢٥ق.م. وخلفه ابنه كيخسرو الثاني، لكنه لم يملك إلا خمسة وأربعين يوماً، وقتله أخوه سوغيدان. ولم يملك هذا أيضاً إلا ستة أشهر وقتله أخ آخر له، وملك مكانه وسمي دارا الثاني. وكثرت الثورات والحروب في أيامه فاستظهر ابنه كورش وقادة جيشه على أعدائه، ومات دارا الثاني الملقب بنوتوس سنة ٤٠٥ق.م. فتأججت نار الحرب بين ابنيه كورش المار ذكره وأرتحششتا الثاني. فقتل كورش سنة ٤٠١ واستتب الملك لأرتحششتا الثاني الملقب بمِيامون. وقد ثارت عليه مصر يحازبها عليه جيسلاس ملك سبرتا، واستحوذ فاغوراس ملك سلمينا في قبرص على هذه الجزيرة كلها. ونكلت سفائنه بمدن سورية وكيليكية التي على شاطيء البحر. وكان أرتحششتا هذا متقلباً في فنون السياسة فالقى الفتنة بين اليونان. فاستراح وعاد يحارب فاغوراس في قبرص، وحاصرها ست سنين حتى أرغم فاغوراس أن يعترف بسيادته على الجزيرة. وفرض عليه جزية يؤديها كل سنة، وكان ذلك لسنة ٣٨٠ق.م. واستعد أرتحششتا لمحاربة مصر وحصن ملكها نكتانبو قلعها التي على تخوم آسيا، وزحفت عساكر الفرس إليها سنة ٣٧٣ق.م وكان

عديدها مئتي ألف رجل عدا المستأجرين والسفائن البحرية، فكسرت عساكر الفرس عند أسوار دمياط وخلعت مصر نير الفرس زماناً طويلاً. وعاش أرتحششتا باقي عمره مسالماً اليونان، ولكن هاجمه المصريون وأنجدهم أجيسلاس ملك سبرتا وكبرياس القائد اليوناني، ولكن اشتد النزاع بين هؤلاء الأعداء حتى اضطر تاهو ملك مصر أن يلجأ إلى أرتحششتا تاركاً عرش مصر إلى نكتانبو الثاني، ثم حاول أن يسترد ملكه بانجاد الفرس له. فكسرت عساكره وقتل هو عند أسوار تانيس سنة ٣٦٠ق.م. ومات بعده أرتحششتا الثاني بعد أن ثار عليه أبناه.

وخلف أرتحششتا الثاني ابنه أرتحششتا الثالث الملقب باوكوس، واستمر على منصة الملك من سنة ٣٥٩ إلى سنة ٣٣٨ق.م. وقد أهلك كل ذكر في أسرته ليأمن على نفسه؛ ومن أحداث أيامه أنه ثار عليه ملوك قبرص وإرتاباس والي آسيا الصغرى، وتانيس والي فينيقية. فاستظهر جيشه في قبرص ورد أهلها إلى طاعته، ولكن إنكسرت جنوده في فينيقية وفي آسيا الصغرى فلم يروعه انخذال جنوده، بل حشد من كل أقاليمه ثلاث مئة ألف مقاتل وعززها بعشرة آلاف استأجرهم من اليونان. وحاصر صيدا أولاً حيث كان تانيس والي فينيقية، فطلب أهل صيدا الأمان فانكره ملك الفرس عليهم. وقد مرّ في تاريخ الفينيقيين أنَّ أربعين ألفاً من هؤلاء آثروا الاحتراق في بيوتهم على ذبح الفرس لهم فدخلوا بيوتهم وأضرموا النار فيها فبادوا، واستتب حكم الفرس في سورية زماناً. وفرّ إرتاباس والي آسيا الصغرى إلى مكدونية، وأعد نكتانبو ملك مصر العدد للمدافعة فلم تجده نفعاً لأن جيوش الفرس أفتتحت دمياط ومنف، وأكره نكتانبو أن يفر إلى الحبشة. فعادت تخوم مملكة الفرس ممتدة إلى الحبشة وصحارى إفريقيا.

وحق لأرتحششتا الثالث أن يتفاخر بانه خير خليفة لكورش ودارا الأول، على أنَّ اتساع هذه المملكة وانفساح تخومها كانا داعياً لسقوطها ولو عظمت سطوتها، إذ لا يمكن ضبط مكانها من الهند إلى الحبشة مع تقدم العصر واختلاف سكانها جنسيةً وغرضاً ونزعة. ومات أرتحششتا الثالث مسمماً سنة ٣٣٨ق.م. بدسائس باغواس كبير وزرائه، وأقام ابنه أرسيس خلفاً له. وحاول أرسيس أن يخلع وزيره، فعامل الوزير عليه وقتله، ولم يجسر باغواس أن يتخذ الملك لنفسه فاقام فيه أحد شركائه في جرائمه وهو دارا الثالث الملقب بكودومان، وهو من أحفاد دارا الثاني، وكان ذلك لسنة ٣٣٦ق.م. التي تبوأ اسكندر الكبير منصة الملك على اليونان. فعبر

اسكندر الدردنيل بجيوشه وشتت عساكر دارا الثالث واستحوذ على آسيا الصغرى كلها. وتقابلت جحافل اليونان والفرس عند إيسوس في خليج اسكندرونه سنة ٣٣٣ق.م. فاستظهر اسكندر الكبير وقبض على أسرة ملك الفرس. وعاملهم بلطف ورقة ثم مضى بجحافله فخضعت له صور واليهودية وغزة ومصر. وعاد ميمماً الفرس في بلادهم، فكانت وقعة أرباليس (المعروفة باربيل الآن في شرقي نينوى) هي القاضية. ومات دارا الثالث قتيلاً فانقرضت به دولة الفرس سنة ٣٣١ق.م. وملك اسكندر مصر وسورية وسائر أعمال آسيا إلى الهند. وسنبسط الكلام على ذلك في الجزء التالي إن وفق الله.

عد ٣٧٠

حالة اليهود بعد أيام نحميا إلى أيام اسكندر الكبير

إنَّ الأسفار المنزلة لم تنبئنا بشيء من أخبار اليهود في الحقبة التي من يوم موت نحميا إلى حين ولاية اسكندر على اليهودية، وهذه الحقبة هي زهاء مئة سنة والمعلوم من أخبار اليهود فيها أنهم كانوا خاضعين لملك الفرس يدبر شؤونهم عظماء كهنتهم. وكان في هذه المدة أنَّ سنبلَّط والي السامرة حمل السامريين على بناء هيكلهم في جبل غريزيم، إذ لم يشأ اليهود أن يشاركوهم في بناء هيكل أورشليم. وأنكر هؤلاء أنهم ذرية من جلاهم ملك آشور إلى السامرة وزعموا أنهم من ذرية يوسف وإفرائيم. وقد يكون اختلط بعضهم ببني إسرائيل الذين استمروا في فلسطين بعد الجلاء. وكان كلما ارتكب يهودي جريمة وخاف العقاب لجأ إليهم فقبلوه وأعزوه. وكانوا يجلون أسفار التوراة التي أتاهم بها بعض الكهنة الذين أرسلهم إليهم ملك آشور إجلال اليهود لها فكان ذلك بيّنة لصحة هذه الأسفار عند اليهود مأخوذة من أعدائهم.

ويظهر أنه كان عند اليهود بعد نحميا ندوة شيوخ مؤلفة من سبعين شيخاً كما كان في أيام موسى، ومنهم قضاة يجلسون في أورشليم وغيرها يومي الاثنين والخميس في كل أسبوع فيقضون للشعب. وكانت هذه الندوة تحافظ على السنَّة وتفسر ما أُشكل منها، وكانوا يسمون رئيس هذا المجلس ابتدين أي أبا المحكمة أو رئيسها، وكان من فروضهم المحافظة على السبوت والأعياد والأصوام. ويظهر أيضاً إنَّ اليهود لم يشتركوا في شيءٍ من حروب ملوك الفرس مع مصر أو مع سورية

وفينيقية، ولم يستنجدهم المصريون في حروبهم مع ملوك فارس، بل كان اليهود ينظرون في ذلك نظر المتفرج الملتزم الحيدودة. روى كل هذا كرتس في تاريخ اليهود.

وروى يوسيفوس (في تاريخ اليهود ك١١ فصل٧) وكرتس في المحل المذكور أنَّ باغواس وزير أرتحششتا الثالث المار ذكره قائداً لجيش الفرس في سورية وفينيقية. وكان وقتئذٍ أن مات يوياداع عظيم الكهنة وله ابنان يوحنان البكر ويشوع الأصغر. فدفع يشوع مالاً إلى باغواس ليجعله عظيم الكهنة بدلاً من أخيه البكر فوعده بذلك، فتنازعا الرياسة في الهيكل فقتل يوحانان يشوع أخاه فشخص باغواس إلى أورشليم لا لاجراء العدل بل لكسب الدرهم، ففرض على اليهود جزاء على هذه الجريمة أن يدفعوا على كل خروف يقدمونه ذبيحة في الهيكل خمسين درهماً. واضطر الشعب أن يدفع هذه الضريبة سبع سنين.

الفصل الواحد والعشرون

النبوة والانبياء الكبار

عد ٣٧١

تعريف النبي والنبوة وإمكانها ونوعها

النبي من أوحى الله إليه بنوع يفوق الطبيعة شيئاً يريده امراً أن يبلغه إلى الناس. والنبوّة تبليغ النبي إلى الناس امراً أوحاه الله إليه؛ وعليه فتستلزم النبوّة امرين، وحي الله وإرساله النبي ليبلغه، ونرى الله قد صرّح بالامرين لارميا اذ قال له: (فصل١عد٩): «هآنذا قد جعلت كلامي في فمك» فهذا هو الوحي. وقال له (في الفصل المذكور عد٧): «لكل ما أرسلك إليه تنطلق... هآنذا قد أقمتك اليوم على الأمم» وهذه هي الرسالة. ومن شرط النبوة أن تكون الأحداث المستقبلة المتنبى عليها لا يعلمها الا الله. وقد جاءت كلمة النبي في الأسفار المقدسة متناولة لا من يعلن

أموراً مستقبلة فقط، بل من يعلن ارادات الله أيتها كانت حاضرة أو مستقبلة كمدرسة الانبياء في عهد شاول. والقول عنه إنَّ شاول بين الانبياء أي بين من يذيعون إرادات الله، ويسمى في العبرانية الرائي أيضاً. والنبوة موهبة من الله فائقة الطبيعة، وبهذا تختلف عنه العرافة التي ليست الا شعبذة أو تلقيناً شيطانياً أو فراسة بشرية، وهي الاستدلال بالامور الظاهرة على الأمور الخفيّة، وبالحاضرة على المستقبلة. وتكون النبوة قوليّة وفعلية، فالقولية تعبير النبي عن إرادة الله بالالفاظ المتعارفة، والفعلية تعبيره عن ذلك بتشابيه ورموز كالتي كان يبديها حزقيال.

لا منكر للنبوة من اليهود والنصارى وأكثر الأمم، ولكن أنكر العقليون وجود نبوة حقيقية أي إيحاء الله إلى الناس أموراً مستقبلة بنوع فائق الطبيعة. فيقرّون بوجود أسفار نبوية في العهد القديم، لكنهم يعزون ما حواه بعضها إلى فراسة رجال أذكياء في إسرائيل عرفوا أن يستدلوا بالامور الحاضرة على امورٍ مستقبلة، وإذا تعذر عليهم تخريج بعضها الآخر مثل هذا المخرج لجأوا إلى إنكار صحة هذه الأسفار زاعمين أنّها كتبت بعد الأحداث المنبئة بها لا قبلها، لأن النبوة غير ممكنة. على أنَّ تفنيد زعمهم هذا سهل ويكفيه مؤنة البرهان أنّ الله يعلم المستقبلات، وقدير أن ينبي بها من اراد ومتى أراد، وليس لعلم الله وقدرته من نكير الا من يجحد وجود الله عزَّ وعلا، أو كان من الدهريين. وتلك حقيقة أجمعت القبائل عليها في كل عصر وكل مكان، ونزيد على هذا البرهان القاطع براهين أخرى. الأول إنَّ العقليين أنفسهم لم ينكروا أنّ بعض الأنبياء تنبأوا بامور مستقبلة وإن نسبوا ذلك إلى فراستهم وذكائهم. فقد أقرّوا مثلاً أنّ نبوة ميخا صحيحة وهو قد تنبأ بالجلاء إلى بابل. فهلم نرى هل كان له أن يتصل بفراسته إلى العلم بهذا الجلاء؟ فهو تنبأ به قبل مئة وخمسين سنة من حدوثه، وفي زمانٍ لم يكن فيه أقل عداوة بين البابليين واليهود، بل لم تكن بابل نفسها وقتئذٍ مستقلة. فمن أين للفراسة البشرية أن تتصل إلى العلم بهذا الجلاءِ وتتنبأ به.

الثاني إنَّ كل الانبياء حتى أقدمَهم تنبأوا بخراب أورشليم والهيكل وبالجلاء، ولم تكن نبواتهم شائعة أو ملتبسة بل صريحة واضحة. وكان الأعداء الألداء وقتئذٍ لليهود الآشوريين، ومع ذلك لم يتنبأوا أنّ هؤلاء الآشوريين يخربون أورشليم والهيكل، ويجلون اليهود، بل تنبأوا أنّ الكلدانيين إنما هم من يكونون آلة انتقام الله من اليهود، وإنَّ من يخلصهم لا يكون المصريين الذين كانوا عندئذٍ يعتمدون عليهم

بل الله، فكيف كانت الفراسة البشرية تستطيع أن تتصل إلى العلم بهذه الأمور المخالفة لكل ظواهر الحال في أيام الانبياء، ومع ذلك فقد تم فعلاً ما تنبأوا به. الثالث إنَّ ملك بختنصر كان في ذرى مجده وسؤدده لما أنبأ ارميا بانحطاطه وانقراضه، لا بكلام عام شامل بل بالفاظ صريحة مفصلة مبينة أنَّ بابل يفتتحها الماديون وحلفاؤهم. ويدخلون إليها مجففين مجرى الفرات في ليلة عيد وأهلها سكارى، ويتملص اليهود حينئذٍ من جلائهم فبأية فراسة بشرية استطاع يهودي مقيم في أورشليم أن يبلغ إلى العلم بهذه الأمور وقرائنها الدقيقة قبل وقوعها بزمان مديد لعمر الحق؟ إن ذلك الا وحي من الله. الرابع إنَّ الانبياء عمّموا نبواتهم فتنبأوا على خراب نينوى وبابل وصور ومنف، وعلى انقراض العمونيين والموآبيين، والفلسطينيين والأدوميين. فتمت نبواتهم على كل هذه المدن وجميع هؤلاء الشعوب. فأي عاقل يتدبر الأمور ويعزوها إلى الفراسة أو إلى المصادفة والاتفاق ويتعامى عن وحي الله فيها؟ الخامس إنّ زكريا قد تنبأ (فصل٩عد١ وما يليه) على ملك اسكندر الكبير وإنّه يفتتح حدراك ودمشق وحماة. وإنَّ صور تحرق وتلقى أسوارها في البحر. وإنَّ غزة يهلك ملكها. واشقلون (عسقلان) لا تُسكنْ وإنَّ أورشليم تكون حينئذٍ مطمئنة لا يقلقها شيء. وقد دهش أيبخرون أحد زعماء العقليين بسطوع حقيقة هذه النبوة، فلم يجد مفراً منها الا بزعمه المحال إنَّ هذا خبر تاريخي مغشى بهيئة نبوة. وما ذلك الا اقرار على رغم أنفه بصحة هذه النبوة. وأضف إلى ما مرَّ ما جاء في أسفار الانبياء وغيرها من النبوات على المسيح المفصلة كل أيام حياته من مولده في بيت لحم إلى موته على الصليب، وقد تمت جميعها. فإذاً وجود النبوّات امر ثابت ثبوتاً تاريخياً علمياً أيضاً منزهاً عن كل ريبة ومفحماً كل ملحد؛ وما النبوات إلاّ شهادة الله إذ يستخيل على غيره الاتيان بها حقيقة. فإذاً الدين المثبّت بالنبوات هو الدين الحق.

وقد أوحى الله إلى أنبيائه بثلاث طرق الكلام والرؤيا والحلم. وقد افتتحت نبوات أرميا بقوله كلام أرميا بن حلقيا... الذي كانت إليه كلمة الرب في أيام يوشيا (أرميا فصل١عد١و٢)، ومثل ذلك نبوتا هوشع ويوئيل. والمراد بكلام الرب لا الألفاظ المسموعة بالاذان بل ألفاظ يشعر النبي في قلبه. وأوحى إلى بعضهم بالرؤيا فنرى نبوة أشعيا مفتتحة بقوله رؤيا أشعيا بن أموص؛ ومثل ذلك في رؤيا حزقيال. واختلف المفسرون في ما إذا كان الله يصور تلك الرؤيا لأعين النبي. فيراها بنوعٍ محسوس وطبيعي أو يوجد في مخيلته صوراً لا حقيقة خارجية لها. فقال القديس

إيرونيموس عند كلامه في رؤية حزقيال العظام اليابسة، إنَّ الله أخذه بالروح لا بالجسد، بل خارجاً عن الجسد. فالصحيح القول الثاني أي إنَّ الله كان يوجد في مخيلة الانبياء صور ما يريهم إياه، ويظهر إنَّ هذا هو القول الأعم. وقد يحتمل أن لا يصح في كل الرؤى مثلاً ظهور جبرائيل لدانيال لم يكن مصوراً في مخيلته فقط، بل ظهر لعينيه (دانيال ٨ و١٦). وفي كل حال لم تكن تلك الرؤيا وهمية بل كان الله يصورها حقيقة لمخيلة الانبياء. وقد أوحى الله إلى أنبيائه نادراً بالحلم، وهذا النوع يختلف عن النوع السابق في إنَّ الرؤيا كانت تحصل للنبي وهو ومستيقظ، والحلم يحصل له وهو راقد. وكان الرب يستخدم في الرؤيا والحلم طرايق يألفها النبي. فترى رؤى أشعيا وأرميا بطريقة يألفها أهل فلسطين لأنهما كانا فيها. وترى رؤى حزقيال ودانيال بطريقة يألفها الكلدان لأنهما كانا في بلادهم.

عد ٣٧٢
الانبياء إجمالاً

لما كانت النبوّات ايحاء الله إلى الناس امراً مستقبلاً كان الانبياء بهذا المعنى كثيرين. فقد أوحى الله إلى آدم شيئاً من تخليص الناس خاصة إذ قال للحية: وأجعل عداوة بينك وبين المرأة وبين نسلك ونسلها فهو يسحق رأسك وأنتِ ترصدين عقبه (تكوين ص٣عد١٥). وأوحى إلى نوح إذ قال: «تبارك الرب إله سام وليكن كنعان عبداً له ليرحب الله ليافت ليسكن في أخبية سام ويكون كنعان عبداً له (تكوين ص٩عد٢٦). وقد أثبت الآباء والمفسرون إنَّ في هذه الآية نبوة على أن المسيح يأتي من نسل سام. وأوحى إلى ابراهيم إذ وعده بأن يكون أباً لأمة كبيرة ويباركه. ويعظم اسمه وتتبارك به جميع عشائر الأرض (تكوين١٢عد٢و٣). وإذ وعده بأن يكثر نسله كتراب الأرض (تكوين١٣عد١٦). وأوحى إلى اسحق إذ جدد له الوعد بقوله وأكثر نسلك كنجوم السما وتتبارك في نسلك جميع أمم الأرض (تكوين ٢٦عد٤). وأوحى إلى يعقوب إذ تنبأ على ابنه قائلاً: «لا يزول صولجان من يهوذا ومشترع من صلبه حتى يأتي شيلو (أي المرسل المراد به المسيح) وتطيعه الشعوب» (تكوين٤٩عد١٠). وأوحى إلى موسى إذ تنبأ قائلاً: «يقيم لكم الرب إلهكم نبياً من بينكم من إخوتكم مثلي له تسمعون (تثنية الاشتراع ف١٨عد١٥). وأوحى أموراً كثيرة إلى صموئل وإيليا وإليشاع ولا سيما داود إذ

أوحى إليه في زبوره نبواته الكثيرة الصريحة على المسيح إلى غير هؤلاء. وقد عدهم إكليمنضوس الاسكندري خمسة وثلاثين نبياً بعد موسى وخمسة قبله، وخمس نبياتٍ. وعد أبيفانيوس ثلاثة وسبعين نبياً في العهدين القديم والجديد وعشر نبيّات. واليهود يعدون في كتابهم الموسوم بالمجلة ثمانية وأربعون نبياً وسبع نبيّات. وهنّ مريم أخت موسى ودبوره وحنة أم صموئيل وأبيغال وحلدة (كانت في أيام يوشيا). وأستير والقوابل اللاتي لم يقتلن أبكار اليهود في مصر.

على أنَّ الانبياء اللذين لهم أسفار نبوات ستة عشر نبياً، أربعة منهم يسمون الكبار وهم: أشعيا وأرميا وحزقيال ودانيال، وإثنا عشر منهم يسمون الانبياء الصغار، وهم هوشع ويوئيل وعاموس وعوبديا ويونان وميخا ونحوم وحبقوق وصفنيا وحجاى وزكريا ومليخا. ويمكن أن يضاف إليهم باروك المثبتة نبوّته بعد نبوة أرميا لأنه كان كاتبه. وقد سمي الأربعة الأولون كباراً مراعاة لطول أسفار نبواتهم والأثنا عشر الآخرون صغاراً مراعاة لوجازة نبواتهم. وقدمت وضعاً في الأسفار المقدسة نبوّات الانبياء الكبار على نبوات غيرهم لا لتقدمها زماناً بل لطول أسفارهم. ووجازة أسفار الانبياء الصغار وهاك جدولاً يتبين منه زمان كل من الانبياء وسني نبوّتهم تقريباً واسماء الملوك الذين تنبأوا في أيامهم ومن تنبأوا عليهم:

أسماء الانبياء سنة نبوّاتهم تقريباً اسماء الملوك الذين تنبأوا في أيامهم على من تنبأوا

اسماء الانبياء	سنة نبوّاته تقريباً	اسماء الملوك الّذين تنبأوا في أيامهم	على من تنبأوا
عوبديا	٨٨٩ إلى ٨٨٤	يورام؟	على الأدوميين
يوئيل	٨٧٨ إلى ٨٣٨	يواش؟	على يهوذا
يونان	٨٢٥ إلى ٧٨٤	يربعام الثاني	على نينوى
عاموس	٨٠٩ إلى ٧٨٤	يربعام الثاني وعوزيا	على إسرائيل
هوشع	٧٩٠ إلى ٧٢٥	يربعام الثاني وعوزيا ويواتام واحاز وحزقيا	على إسرائيل
ميخا	٧٥٨ إلى ٧١٠	يواتام واحاز وحزقيا	على يهوذا وإسرائيل

أشعيا	٧٥٩ إلى ٦٩٩	عوزيا ويواثام وحزقيا ومنسا	على كل الشعوب المعروفين من إسرائيل
نحوم	٦٦٥	منسا	على نينوى
صفنيا	٦٢٨ إلى ٦٢٣	يوشيا	على يهوذا ومن جاوره من الشعوب
حبقوق	٦٠٩ إلى ٦٠٦	يوياكين؟	على الكلدان
أرميا	٦٢٥ إلى ٥٨٨	يوشيا ويوياكين يوخانيا وصدقيا	على يهوذا والشعوب المجاورين ومصر وبابل
باروك	٥٨٣	صدقيا	إرشاد للمجلوين في بابل
حزقيال	٥٩٥ إلى ٥٧٣	يوخانيا والجلاء	على يهوذا والمجاورين
دانيال	٦٠٤ إلى ٥٣٤	يوخانيا وبختنصر وبلتصر ودارا والاصلاح المادي وقورش	على المماليك الكبيرة
حجاي	٥٢٠	دارا بن هستاب	وعود ليهوذا
زكريا منذ ٥٢٠		دارا بن هستاب	على مستقبل أورشليم الحسن
ملخيا	٤٣٣ إلى ٤٣٣	أرتحششتا ذي اليد الطولى	على إحسان الله إلى شعبه

انتهى مأخوذاً عن الموجز الكتابي لفيكورو في الانبياء.

عد ٣٧٣
أشعيا النبي

أشعيا كلمة عبرانية تأويلها الله يخلص، وقد كان هذا النبي ابن أموص ولم يميز بعض القدماء بين أموص أبي أشعيا وعاموس النبي. فوهموا أنَّ أشعيا بن عاموس النبي. وقد قال القديس أيرونيموس (في تفسير نبوة عاموس): «إنَّ عاموس النبي لم يكن أبا أشعيا النبي لأن أموص أبا النبي يكتب بالألف والصاد وتأويله القوي؛ واما النبي فيكتب اسمه بالعين والسين، وتأويله الشعب المنتزح والميم والواو في كليهما». وجاء في تقليدات الربيين (أو الربانيين) إنَّ أشعيا كان ابن أخي الملك أمصيا، وأصله من سبط يهوذا وتزوج امرأة يسميها نبية ورزق منها: ابنان سكريابوس وتأويله البقية

تعود أي البقية من ابناء الجلاء والآخر شسباس وتأويله اسرعوا في التدمير. إشارة إلى خراب مملكتي إسرائيل وسورية (عن موجز تراجم القديسين في أشعيا). وكان مسكن النبي أورشليم، وقضى حياته في هذه العاصمة مشاهداً التقلبات السياسية والدينية. ولم يكن في قرية حقيرة كما كان ميخا معاصره، ولا مطوافاً في فلسطين كما كان إيليا واليشاع. وهو أول نبي كان في المدينة المقدسة، وتوصل الينا ما كتبه. وقد تنبأ في أيام الملوك عوزيا ويواتام واحاز وحزقيا كما جاء في نبوته (فصل١عد١). وأولى رواه كانت في سنة موت عوزيا، وهي سنة ٧٥٨ق.م كما في نبوته (ف٦عد١). وآخر نبوة نعرف تاريخها من نبوّاته كانت في السنة الرابعة عشرة لملك حزقيا، وهي سنة ٨١٢ق.م. ويظن أنه بقي في الحياة إلى زمان منسا الملك الذي أماته منشوراً. وذهب بعضهم إلى أن المعنيّ بقول بولس الرسول (إلى العبرانيين ١١عد٣٧ وبعضهم نشروا) إنما هو أشعيا النبي. ويؤيد هذا القول التقليد القديم عند اليهود، وقد قال به كثيرون من آباء الكنيسة وعدا نبواته قد كتب سني عوزيا الملك كما جاء في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل٢٦عد٢٢). وبقية أخبار عوزيا الأولى والأخيرة كتبها أشعيا بن أموص النبي»فلم تبقِ الأيام لنا عليها.

وقلما ذكرالكتاب أشعيا في الست عشرة سنة مدة ملك يواتام، أي من سنة ٧٥٨ إلى سنة ٧٤٢ق.م. ولم يكن في هذه الحقبة نبي آخر وإما في مدة أحاز الملك أي من سنة ٧٤٢ إلى سنة ٧٢٧ق.م. فقد أبدى هذا النبي أموراً مهمة لما كان رصين ملك سورية وفاقح ملك إسرائيل يتهددان أورشليم، فإنه ساعد كثيراً على أحباط مساعيهما كما جاء في نبوته (ف٧). وأهم ما صرف إليه عنايته النبوية إنما كان في أيام حزقيا من سنة ٧٢٧ إلى ٦٩٨ق.م. وزعم بعضهم أنّ هذا النبي كان مربياً للملك حزقيا كما كان ناتان مربياً لسليمان. ولكن لم يؤيد هذا الرأي ذووه بحجة. والمؤكد أنه كان صديقه ومستشاره وقد شجعه في مدة مرضه كما في نبوته (ف٢٨)، وكما في سفر الملوك الرابع (ف٢٠عد١إلى١١). ووثق عرى ثقته بالله عند حملة سنحاريب على أورشليم كما في نبوته (ف٣٦و٣٧)، وفي سفر الملوك الرابع (ف١٨و١٩). وقد أسمع ابنه أحاز كلاماً قاسياً من قِبل الله لما أرى وفود ملك بابل خزائن أورشليم على ما في نبوته (فصل ٣٩)، وفي سفر الملوك الرابع (ف٢٠عد١٢ وما يليه). ومن بعد هذه الأحداث لا نرى ذكراً لأشعيا في الأمور السياسية. ومن التقليدات إنَّ مدفن هذا النبي كان في بانياس في بلاد

باسان. وقد نقلت ذخائره من هناك إلى القسطنطينية سنة ٤٤٢م على عهد الملك ثاوادوسيوس الثاني على ما روى بارونيوس في السنكسارى الروماني في ٦ تموز. وعليه فيظن أنَّ أشعيا فرّ إلى باسان خوفاً من اضطهاد منسا الملك له، على أنَّ ابتعاده لم يبعد عنه جور هذا الملك إذ أرسل فقتله هناك. ولا يعلم تاريخ موته فقال بعض المفسرين إنه كان سنة ٦٩٠ق.م. وإذا فرضنا إنه كان عمره عند دعوته إلى النبوة خمس عشرة سنة فيكون عمره عند موت حزقيا ستاً وسبعين سنة، وعند قتله أربعاً وثمانين سنة. ويعيد له في كنيستنا المارونية ٩ أيار بمنزلة شهيد قتله منسا الملك منشوراً. إنَّ لأشعيا في الأسفار المقدسة المقام الأول لا من قبل تقدمه زماناً لأن يوئيل ويونان وعاموس وهوشع كانوا قبله، بل بحق استيهاله أن يكون أعظم من جميع الانبياء لكثرة الأوحية التي كانت إليه، وأهميتها، وسمو كلامه مع زيادة وضوحه وفصاحته. فهو النبي العظيم كما إنَّ بولس هو الرسول العظيم. وقال فيه الروح القدس في سفر ابن سيراخ (فصل ٤٨عد٢٥): «أشعيا النبي العظيم الصادق في رؤياه... بروح عظيم رأى العواقب وعزّى النائحين في صهيون. كشف عما سيكون على مدى الدهور وعن الخفايا قبل حدوثها». وقال فيه مار ايرونيموس (في مقدمته على سفر أشعيا): «لا يلزم أن يسمى نبياً بل انجيلياً فقد أبان أسرار كنيسة المسيح جميعها جلياً حتى لا تحسبه يتنبأ بامورٍ مستقبلة بل يؤرخ أموراً ماضية». أما سفر نبوته فينطوي على نبوات فاه بها في أزمنة وأحوال مختلفة، وقد اعتاد المفسرون أن يقسموا نبوته إلى قسمين: أولها تشتمل عليه التسعة والثلاثون فصلاً الأولى، وهو يتضمن نبواته في أوقات عديدة وعلى أمور مختلفة على عهد الملوك عوزيا ويواتام وأحاز وحزقيا، وثانيها تشتمل عليه الفصول من ٤٠ إلى ٦٦ وهو يتضمن نبوّات عن مخلص إسرائيل ويلتحم بالقسم الأول. ونبواته في القسمين منسوبة بحسب الزمان غالباً. فإن ماهية المواد التي تنبأ عليها أخرجته أحياناً عن هذا النسق. ومن نبواته الواضحة عن المخلص قوله (ف٧عد١٤) ها إنّ العذراء تحبل وتلد ابناً وتدعو اسمه عمانوئيل «المترجم كما في الأنجيل الهنا معنا والعذراء بكلامه في العبرانية علماً وقد وردت هذه اللفظة في الأسفار المقدسة سبع مرات. وفي كلها لا يحتمل المقام تفسيرها إلا بعذراء غير مزوجة. وقد وجد في المخابى القديمة التي عند كنيسة القديسة بريشلا في رومية صورة العذراء والطفل يسوع بين يديها وأشعيا واقفاً بجانبها يشير إليها وإلى الطفل كأنه يقول: هذه هي العذراء التي قلت إنها

تحبل وتلد الخ وهذا هو عمانوئيل الخ وإليك مثالاً لهذه الصورة.



عد ٣٧٤

أرميا

ما من نبي كأرميا يظهر لنا مما كتبه تاريخ حياته وأعماله وآراءه مما عاناه. فقد ولِد في عناتوت المعروفة الآن بعيناتا وهي قرية حقيرة على ساعة ونصف عن أورشليم شمالاً. واسم ابيه حلقيا وظن القديس ايرونيموس وكثيرون من المفسرين أنَّ حلقيا هذا هو عظيم الكهنة الذي عاون يوشيا على الاصلاح الديني في يهوذا. والصحيح أنه حلقيا آخر لأن عظيم الكهنة كان من آل اليعاذر، وكهنة عناتوت كانوا من آل إيتامر. وكان أرميا يتردد في صبوته إلى أورشليم لقربها من قريته، ويشمئز من أخبار عبادة الأوثان ومساوئ منسا ملك يهوذا. وقد شب على محبة السنة واحترام التقليدات الموسوية. وكان مولعاً بمطالعة الأسفار المقدسة ونبوات مَن

تقدمه من الانبياء لا سيما أشعيا، وميخا، فان في سفر نبواته كثيراً من الاستعانة بكلامهما وانتحال ألفاظها نفسها أحياناً. وكان له في شبابه إخاء مع نيريا بن نعيسا والي أورشليم حينئذٍ (سفر الأيام الثاني فصل ٣٤عد٢). وكان معاوناً لحلقيا وشافان بن أصليا في الإصلاح الذي أجراه يوشيا. ثم تتلمذ له باروك وسرايا أبناء نيريا المذكور كما هو بيّن من نبوته (فصل ٣٦ عد وف ٥١ عد ٥٩). وكان أرميا ورعاً دمث الأخلاق لين العريكة لكنه كان مضطرماً بالغيرة على سُنة الله وخير قبيلته. ولم يكن بطبعه محباً للخصام بل كان يؤثر الفرار من المخاطر على اقتحامها، ويفضل العزلة على مخالطة الناس. وكثيراً ما تتولاه الكآبة على أنه إذا أراد إبلاغ أوامر الله إلى الشعب تحوّل طبعه واشتدت عزيمته حتى لا يروعه تهديد ولا إهانة ولا سجن ولا عذاب، ولا خشية ملوك ولا مهابة شعب، فيصدق عليه ما قاله الله له. (كما في نبوته ف١عد١٨): «هانذا قد جعلتك اليوم مدينة حصينة وعموداً من حديد وأسواراً من نحاس، على كل الأرض على ملوك يهوذا ورؤسائه وكهنته وشعب الأرض».

قد دعاه الله للنبوة في السنة الثالثة عشرة لملك يوشيا نحو ٦٢٨ قبل المسيح كما يظهر من نبوته (ف١عد٢)، وكان عمره حينئذٍ من ثماني عشرة إلى عشرين سنة كما يؤخذ من كلامه (ف١عد٦وف١٦و٢). ويظهر أنه ترك بعيد ذلك عناتوت وصرف أكثر حياته في أورشليم لكنه استمر مدة ما يرى من نفسه الغفلة إذ لا نجد له ذكراً في الاصلاح الديني الذي أجراه يوشيا في السنة الثامنة عشرة من ملكه أي بعد خمس سنين من دعوة أرميا إلى النبوة فلا ذكر في تلك الأيام الّا لحلدة النبية. وكان الملك وحاشيته يلتمسون رأيها ولا نراه تعاطى أمراً مهماً في الثمانية عشرة سنة منذ دعوته إلى موت يوشيا. بل أنبأنا عن نفسه إنه كان معتزلاً متنسكاً حافظاً عفافه إذ قال (ف١٦عد٢ وما يليه): «وكانت اليّ كلمة الرب قائلاً: لا تتخذ لك امرأة ولا يكون لك بنون ولا بنات في هذا الموضع... لاتدخل بيت الصباح ولا تنطلق إليه للندب ولا تعزهم... ولا تدخل بيت الوليمة لتجلس معهم وتأكل وتشرب». ويظهر إنه مدَّ يداً إلى الأمور السياسية في آخر ملك يوشيا، وكان اليهود في مملكة يهوذا حزبين، يؤثر أحدهما المصريين، والآخر الكلدان. فبعد سقوط نينوى أخذ أشياع ملك مصر يغرون ملكهم بالمحالفة لفرعون نكو وكان أرميا يندد بهذه السياسة البشرية، ويحض على الاتكال على الله كما يظهر من قوله

(فصل٢عد١٨): «والآن مالكِ وطريق مصر لتشربي مياه شيحور؟ ومالك وطريق آشور لتشربي مياه النهر»؟

ويظهر أنَّ يوشيا عول على رأي النبي فلم يحالف نكو بل اعترض مرور عسكره في اليهودية ليحارب الكلدان. فقتل في وقيعة مع المصريين في مجدو، (اللجون) فكان ذلك فاتحة أحزان أرميا. وأخذ يرثي يوشيا كما في سفر أخبار الأيام الثاني (فصل٣٥عد٢٥). وخلف يوشيا يواحاز المسمى شلوم رابع ابنائه سنة ٦٠٩ق.م. ولم يملك إلا ثلاثة أشهر وعزله نكو لأنه لم يكن من أنصاره، ولا ذكر له في نبوة أرميا إلا قوله فيه (ف٢٢عد١١و١٢): «هكذا تكلم الرب على شلوم بن يوشيا ملك يهوذا الذي ملك مكان يوشيا أبيه، وخرج من هذا الموضع إنه لا يرجع إلى هاهنا من بعد بل في الموضع الذي أجلي إليه هناك يموت ولا يرى هذه الأرض من بعد». ولما اسر نكو شلوم أقام مكانه يوياقيم سنة ٦٠٩ق.م. فأخذ أرميا ينذر بني يهوذا وملكهم مبيّناً إنَّ المصريين لا يقوون على دفع حملة بختنصر على أورشليم (كما في ف١٨و١٩و٢٠ من نبوته). فقبض عليه الكهنة والانبياء وكل الشعب وقالوا لتموتنَّ موتاً لنبوتك على خراب أورشليم. ولم ينجهِ من الموت الا واسطة رؤساء يهوذا (كما في نبوته ف٢٦)، وبعد نحو أربع سنين مضى نكو يحارب الكلدانيين فاستظهروا عليه في كركميش (فصل٢٦عد٢). وقلَّ أشياع مصر في يهوذا، وأخذت نبوات أرميا تتّم. فان جنود بابل غشوا فلسطين يطاردون المصريين. فهرب كل من لم يكونوا في مدن محصنة يستعصون باسوار أورشليم. فانتهز النبي هذه الفرصة وأذاع بواسطة تلميذه باروك نبواته التي كان جمعها في درج. فعظم الهياج عليه واضطر أرميا وتلميذه أن يختبئا. وأحرق يوياقيم الدرج الذي كان منطوياً على هذه النبوات (ف٣٦)، فاضطر أرميا أن يملي نبواته ثانية على باروك. وأوحى الله إليه جلاء بابل وإنه سيكون مدة سبعين سنة (ف ٢٥ عد٨ إلى١٢)، وما تنبأ به على يوياقيم لم يلبث أن حلّ به، فإن بختنصر حاصر أورشليم وافتتحها وأسر بعضاً من اليهود. وكان بينهم دانيال ورفقاؤه سنة ٦٠٦ق.م. ومن الجلاء تبتدى مدة السبعين سنة. ثم عصي يوياقيم على بختنصر فهبَّ لحصار أورشليم ثانية. فمات يوياقيم عند بدء الحصار على الأظهر فتمت بيوياقيم نبوات أرميا (ف٢٢عد١٩وف٣٦عد٣٠) وكان ذلك لسنة ٥٩٨ ق.م.

وخالف يوياقيم ابنه ولكنه لم يملك إلا ثلاثة أشهر. وأنذره أرميا

(ف٢٢عد٢٤إلى٣٠) بما يحل به من السوء ووقوعه في يد بختنصر فتمت به نبوات النبي بعد زمان وجيز لأنه أخذ أسيراً إلى بلاد الكلدان مع وجوه أمته. وكان بينهم حزقيال النبي (ملوك رابع ف٢٤عد١٠). واما أرميا فاستمر في أورشليم، وأقام بختنصر صدقيا عم يوياكين ملكاً على اليهود. وكان صدقيا يحب أرميا ويستشيره أحياناً (ف٣٧عد٣) لكنه كان واهن العزيمة وملكه قلقاً فلم يتسنَّ له أن يعزز النبي، ولم يكن باقياً في فلسطين إلّا سفلة الشعب. وكان أرميا يتنبأ عليهم بأنّ الله يجعلهم عاراً ومثالاً وأحدوثة في جميع المواضع التي يدحرهم إليها ويعيد المجلوّين إلى أرضهم ليكونوا للرب شعباً (فصل ٢٤). وكان نجاح خفرع ملك مصر خدع سكان أورشليم ثانية بالتشيع له. وقد زينت لصدقيا نفسه الثورة على الكلدان. فكان أرميا يناصبهم بامر الله كما في (ف٢٦ و٢٨). وزحف بختنصر حينئذٍ إلى فلسطين وجلا بني إسرائيل عنها وحفت المخاطر بالنبي وهمَّ أن يمضي فيختفي في عنانوت فكشف أمره وحسب خائناً وألقي في السجن (ف٣٧). وكان كتب إلى الشيوخ والكهنة والشعب الذين في الجلاء في بابل (فصل ٢٩) فلم يكن من الانبياء الكذبة الذين في الجلاء إلّا أن كتبوا للكهنة الباقين في أورشليم أن يضايقوا النبي ويضطهدوه. فألقوا في بئر ملكيا ولو لم ينقذه عبد ملك الكوشي أحد خصيان الملك كما في (فصل ٢٨) لهلك فيها إلّا أنه بقي سجيناً، وكان صدقيا يستشيره سراً. فقال له أرميا إنه لا يفلت من أيدي الكلدان (فصل٣٨ عد١٨). وعاد الكلدانيون بعد زمن وجيز يحاصرون أورشليم فافتتحوها وخربوها وأحرقوا الهيكل. واقتيد الملك أسيراً سنة ٥٨٨ق.م. وأوصى بختنصر بارميا فاطلق من سجنه، وخيرّ بين أن يمضي إلى بابل أو يمكث في اليهودية. فاقام أولاً في خرابات المدينة المقدسة ثم اعتزل في المصفاة (شعفات في شمالي أورشليم). وكتب مراثيه البديعة والدخان ينبعث من أنقاض أورشليم في المغارة التي يسميها التقليد إلى الآن مغارة أرميا.

وأقام بختنصر جدليا بن أحيقام والياً على اليهودية، وكان يحب أرميا فاستراح من بقي من بني إسرائيل في اليهودية مدة ما (فصل ٤٠) على أنَّ جدليا قتله اسماعيل بن نتنيا من النسل الملكي وعشرة رجال محالفون له. وخاف الشعب أن يكون مقتل الوالي مصيبة أخرى على الأمة فاستشاروا النبي فيما يصنعون فأشار عليهم أن يتربصّوا في اليهودية آمنين (فصل ٢٤). فلم يسمعوا بل صمموا على

الهرب إلى مصر وأكرهوا النبي وباروك على المسير معهم (فصل ٤٣). وحلوا في تحفنيس المعروفة اليوم بدفنه في مصر السفلى، وأخذ النبي يؤنبهم ويسلقهم بأوار كلامه، ويذكرهم بما صنعوا وأباؤهم من المخالفة لسنّة الله. ويتنبأ على أن بختنصر ينصب عرشه حيث يتكلم في هذه المدينة التي استعصموا فيها. ويسمى هذا الملك عبدالله (فصل٤٤ طالع عد٣٣٩ وعد٣٤١). وبعد هذا البلاغ النبوي لا علم لنا بما كان لآرميا.

والتقليد المسيحي الذي ذكره كثيرون منهم ترتوليانوس (في كتابه ضد الأمم ك٨) وابيفانيوس (في تراجم الانبياء) وإيرونيموس (في كتابه ضد بوفنيانوس فصل٣٧) أنَّ آرميا رجمه اليهود مستشيطين عليه لتونيبه لهم. وقد عظمه اليهود بعد وفاته أكثر مما أذلوه في حياته. وكانوا من بعد الجلاء إلى مجيء المخلص يفضلونه على أشعيا. ويعيد له في كنيستنا المارونية في ١ أيار بمنزلة شهيد رجمه اليهود.

وأما نبوّاته فقد نسقها بحسب مواضيعها لا بحسب أوقات اتيانه بها وقد قسمها إلى مقدمة وأربعة أقسام وخاتمة. ذكر في المقدمة دعوة الله له إلى النبوة، وفي القسم الأول من الفصل الثاني إلى الفصل السابع عشر رذل الله لبني إسرائيل والحكم عليهم، وفي القسم الثاني في الفصل الثامن عشر والتاسع عشر إثبات هذا الرذل، وفي القسم الثالث من الفصل العشرين إلى الخامس والعشرين تنفيذ هذا الحكم. والقسم الرابع من فصل٢٦ إلى فصل٥١ ضمنه نبواته على الشعوب الأجانب. وضمن الخاتمة في الفصل الثاني والخمسين خلاصة تاريخية لملوك يهوذا الآخرين.

أما مراثي أرميا فهي قصائد رثاء في العبرانية لم ينسج شاعر على منوالها ولا سمحت قريحة بمثالها، ولا أشد وقعاً في القلوب لصدورها عن قلب كواه أوار الغم وعن مخيلة ألهبها وطيس الغيرة والحنان. يندب بها أورشليم ويتفجع لخرابها ودمار الهيكل وتشتيت ابنائها. وقد قسمها النبي إلى أربع مراث وضمن القصيدة الخامسة صلاة وابتهالاً. فكانت مقسومة الآن إلى خمسة فصول ووزع أبيات كل من المراثي على فقر تبتدي كل فقرة منها بحرف من حروف الهجاء. فكانت كل مرثاة منها مؤلفة من إثنتين وعشرين فقرة بحسب عداد الحروف العبرانية؛ وفقرات المرتبة الثالثة أطول من فقرات سواها، وكثيراً ما كان اليهود المجلدون في بابل يجرون الدموع

السخينة متغنين بهذه المراثي على أنهر بابل، وبعد عودهم كانت لهم أعظم مذكر بما نابهم من الأسواء. وكانوا في ٩ تموز من كل سنة يصومون ويتلون في المجامع هذه المراثي مذرفين الدموع. وقد اعتادت الكنيسة من أول الدهر أن تتلوها في الكنائس في سبة الألام ذكراً لما هو أعظم من خراب أورشليم والهيكل وهو آلام ابن الله وصلبه بايدي من أتى ليفتديهم.

أما باروك فهو ابن نبريا كما مر وكان تلميذاً أميناً لأرميا وكاتباً، ومن آل يهوذا وأخوه سرايا كان من حاشية الملك صدقيا ووشى به أعداؤه أنه كان من الكلدان، ويعزي أرميا بالمناصرة لهم (أرميا فصل٤٣ عد٣). وفي السنة الرابعة ليوياقيم مضى يقرأ له نبوات أستاذه فاحرقها الملك وأملاها أرميا عليه فكتبها ثانية. وقد ألقي في السجن مع أرميا في أيام صدقيا كما مرَّ، واستمر فيه إلى إفتتاح أورشليم سنة ٥٨٨ق.م. وأرغم مع معلمه أن يمضي إلى مصر وانطلق أخيراً إلى بابل. وقضى هناك ويعيد له في كنيستنا المارونية في ٣ تشرين الأول.

أما سفره فاصله العبراني مفقود وترجماته في اللغات الآن عن ترجمة يونانية من أقدم الدهر. وزعم بعض أهل النقد أنّه كتب أصلاً في اليونانية وزعمهم ساقط لأنه ذكر فيه أن يقرأ في بيت الرب، وكان محظوراً عليهم أن يقرأوا فيه ما كتب بغير العبرانية. وأنكر العقليون وبعض البروتسطنت تنزيل هذا السفر تشبثاً بانه قيل فيه أنه كتب في السنة الخامسة بعد خراب أورشليم أي سنة ٥٨٣ق.م. وباروك كان حينئذٍ مع أرميا في مصر منذ سنة ٥٨٨ق.م. ولكن أية منافاة بين أن يكون مضى إلى مصر سنة ٥٨٨ق.م. ثم عاد إلى بابل، وكتب سفره سنة ٥٨٣ق.م؟. وقالوا إنه يستفاد من هذا السفر إنه كتب بعد نهاية الجلاء وتجديد الهيكل لأنه ذكر مذبح الرب وبيت الله أنه يظهر دون تكلف للمتأمل أنَّ كلامه في الجلاء، أما تنزيل رسالة أرميا المعلقة في آخر سفره فيكتفي مؤنة إثباته ذكر سفر المكابيين لها (مكابيين٢ فصل٢٢ عد١ و٢).

وهذا السفر ينطوي على خمسة فصول لباروك، وفي الفصل السادس رسالة لأرميا أنفذها إلى المجلدّين (طالع عد١٣٤١) ضمَّن باروك سفره مقدمة يطلب بها أن يسعف المجلدون إخوانهم الباقين في أورشليم، وأن يتلوا كتابه في بيت الرب أي حيث كانوا يجتمعون للصلاة في يوم العيد، وفي أيام المحفل ثم صلوة لله يقرّبها

الشعب المجلو بآثامه. ويسأله تقصير مدة العقاب الذي أنزل بهم، لاستحقاقهم ثم نصائح وتحريضات لهم ليرعوا عن أثمهم. ويثقوا بالله ونبوات على إفتقاد الله لهم وعلى إعادتهم إلى أوطانهم مسرورين. وفي الفصل الثالث عد٣٨ نبوة على المسيح مرادفة لقول يوحنا الكلمة صار جسداً وحلت فينا إذ قال في الله: «وبعد ذلك تراءى على الأرض وتردد بين البشر».

عد ٣٧٥

حزقيال النبي

ذكرنا في عد ٣٥٥ شيئاً من ترجمة حزقيال ورؤاه ونبسط هنا ما بقي منها. إنّ تأويل كلمة حزقيال في العبرانية الرب يقوي أو يشدد، وهذا النبي هو ابن يوذي من السبط الكهنوتي. وقال بعضهم إنه ولد سنة ٦٢٤ق.م. وقد أخذ إلى بابل مع يوياكين الملك وبعض أعيان المملكة والكهنة سنة ٥٩٨ق.م أي نحواً من عشر سنين قبل خراب أورشليم. وأقام في محل يسمى في العبرانية تل السنبلة، وفي الترجمة اللّاتينية العامية تل حبيب أو أبيب (حزقيال فصل٣ عد١٥) ولا يعرف موقعه. وتزوج هناك كما يظهر من قوله (فصل٢٤ عد١٨): «وماتت إمرأتي في المساء» وقد دعاه الله إلى النبوّة في السنة الخامسة من جلائه أي سنة ٥٩٣ق.م. وقد باشر هذه الخدمة لا أقل من إثنتين وعشرين سنة لأن نبوته المذكورة (في الفصل٢٩ عد١٧) على أخذ بختنصر مصر أرخها في السنة السابعة والعشرين من الجلاء . ويؤخذ من التقليد القديم الذي ذكره القديس ابيفانيوس (في تراجم الانبياء): إنّ أميراً أو قاضياً من شعبه قتله لأنه كان يؤنبه على عبادة الأوثان ، وإنه دفن في مدفن سام وارفخشاد وقد ذكرنا شيئاً من ذلك في ع٣٥٥ فطالعه. ويعيد له في كنيستنا المارونية في ٢٩ تموز ولا ذكر لاستشهاده، وكان موته قبل أن يستحوذ قورش على بابل. وعاش منغصاً لأنه كان في أيام بني إسرائيل وجلي معهم، ولم يدرك النجاة فكان أقل حظاً من أرميا الذي تركه الكلدانيون في وطنه يندب سوء حاله. ومن دانيال الذي ساعد كثيراً على عود شعبه من الجلاء، على أنّ قوة حزقيال وبسالته المؤسسة على إيمانه جعلته يحتمل بصبر جميل وشجاعة ثابتة مضايق الجلاء، وكان يغري ويشجع إخوته على تحمل مصائبهم فيه، بل قد جعل بيته كمدرسة ومجمع يجتمع به الشيوخ ووجهاء الشعب إليه ليرشدهم، ويوثق عرى ثقتهم بالله كما يظهر

من سفر نبوته (فصل٨ عد١ وفصل عد١١ عد٢٥ وفصل١٤ عد١ وفصل٢٠ عد١). وكان من مساعيه وأفكاره وأعماله ما يبديه للناس نبياً عضدته يد الرب واملأته من قوة تفوق الطبيعة كما يظهر من ف٢٤ عد١٥ إلى عد١٨).

أما نفس حزقيال في نبوته فمختلف عن غيره وله كلمات وتعبيرات خاصة به. وقد جدّ بان يقتبس تعابير وكلمات من أسفار التوراة على أنَّ إقامته بين شعب أجنبي يتكلم باللغة الآرامية جعلته ينتحل كلمات من لغتهم. والمزية له بين الانبياء أنَّ نبواته كانت بالرموز والتشابيه غالباً، وكثيراً من هذه التشابيه كانت حديثة مأخوذة عن الشعوب الساكن بينهم وهذا ما جعل في كلامه غموضاً طالع ما ذكرناه عن ذلك (في عد ٣٥٥).

أما نبوة حزقيال فملتحمة الأجزاء كل الالتحام وهي مقسمة إلى قسمين الأول يبتدي من الفصل الأول وينتهي في الفصل الثاني والثلاثين يتضمن قضاء الله على شعبه وعلى غيره من الشعوب. والقسم الثاني يبتدي من الفصل الثالث والثلاثين وينتهي في الفصل الثامن والأربعين ويتضمن نبوات على إنجاز الله وعوده لأسرائيل بمجيء المخلص، وكل نبواته منسّقة بحسب نظام الزمان. إلا ما تنبأ به الشعوب الأجانب في الفصل الخامس والعشرين إلى الفصل الثاني والثلاثين فهذه النبوّات منسّقة بحسب ماهية مواضيعها، وقد أرخها. فيظهر من تاريخها أنها من القسم الأول من نبواته التي كانت قبل خراب أورشليم لا من القسم الثاني الذي كان بعده.

عد ٣٧٦

دانيال النبي

قد ذكرنا في عد٣٤٣ وما يليه ترجمة دانيال وإنقاذه سوسنة وتعبيره حلمي بختنصر الأول والثاني. وتعبيره رؤيا بلشصر ملك بابل وطرحه في جب الأسد وكشفه خديعة كهنة بال وقتله التنين ورؤاه ووفاته وصحة تنزيل سفره. ولخصنا القسم التاريخي منه الذي تشتمل عليه الفصول الست الأولى والفصلان الثالث عشر والرابع عشر. وأبنا بأية لغة كتب هذا السفر فنجتزيء بما مرَّ. ويعيد له في كنيستنا المارونية في ٢٨ كانون الأول.

الفصل الثاني والعشرون

في الانبياء الصغار

عد ٣٧٧

هوشع

أما هوشع فكلمة عبرانية معناها الله يخلص، وقد انبأنا هذا النبي أنه كان ابن بئيري وهذا كل ما نعلمه بتحقيق من ترجمته. وقد قال أكثر المفسرين أنه كان من شمالي مملكة إسرائيل، ومما يدل على ذلك استعماله في نبوّته الفاظاً وتعابير آرامية، ومعرفته أماكن هذه المملكة وتوجيه كلامه إلى إسرائيل، وقوله عن ملك إسرائيل ملكنا وكل ذلك ظاهر من فصول نبواته. وقد ذكروا تقليداً قديماً أنه كان من مدينة بعلموت في سبط إيساخر وأنه مات هناك، لكن هذه المدينة لا يعرف موقعها. وتضاربت الأقوال في محل مدفنه وهو أول الانبياء الصغار لوضع النسخة اللّاتينية العامة نبوته قبل باقي نبوات الانبياء الصغار. وقد يكون تقديم نبوته على غيرها لغزارة مادتها لا لتقدمه زماناً على باقي الانبياء الصغار. فعاموس كان قبله زماناً كما يظهر من تاريخ نبوته (في فصل١ عد١)، ومع ذلك كان الثالث في مصاف الانبياء الصغار، وقد جاء في فاتحة نبوته أنه أي هوشع تنبأ في أيام عزيا ويوتام وأحاز وحزقيا ملوك يهوذا. ومدة هؤلاء الملوك نحو من مئة وعشرين سنة ولا بد أنه كان له من العمر عند تنبئه عشرون سنة، فلا يصدق أنه عاش مئة وأربعين سنة، وليس في نبواته ذكر لهؤلاء الملوك. فالاقرب إلى الصواب إنّ تلك الكلمات ليست لهوشع بل لناسخ لم يصب بزيادتها على سبيل العنوان على نبوته المفتتحة «بدأت كلام الرب بلسان هوشع». والظاهر أنَّ هوشع كان معاصراً لأشعيا وقد تنبأ بعد خراب بيت أحاب في أيام ياربعام الثاني الخليفة الثالث لياهو على إسرائيل، كما يظهر من نبوته (فصل١ عد٤) لأنك تراه يذكر دائماً جرائم أبناء ياهو الذي

استأصل بيت أحاب، وما برح أبناؤه يعبدون الأصنام ويسجدون لعجول الذهب، فهذا ناطق بان هوشع كتب نبواته في السنين الأخيرة لملك ياربعام، وهذا الملك استوى على منصة الملك إحدى وأربعين سنة أي من سنة ٨٢٥ إلى سنة ٧٨٤ق.م. فاذاً هوشع كتب نبوته قبل سنة ٧٨٤ق.م، وهذا مستلزم لاثبات حقيقة نبؤاته فقد تنبأ على خراب بيت ياهو، وهذا لم يكن إلا سنة ٧٨٢ق.م. وعلى انقراض مملكة إسرائيل، وهذا لم يكن إلّا سنة ٧٢١ق.م. ولما تنبأ هذا النبي على ذلك في عهد ياربعام الثاني كان ملك إسرائيل في ذرى مجده، وتعيد له كنيستنا المارونية في ١٦ حزيران.

أما نبوّة هوشع فليست منقسمة كباقي نبوات الانبياء الكبار إلى نبوات كثيرة في أوقات مختلفة، بل كأنها خطبة واحدة كتبها في آخر حياته عدّد بها النبوات التي فاه بها في مدة مباشرة الخدمة النبوية، قاسماً ما كتبه إلى قسمين. ففي القسم الأول المشتملة عليه الفصول الثلاثة الأولى يبين بتشابيه ورموز غوايات بني إسرائيل وسيئاتهم إلى الله. وفي القسم الثاني من الفصل الرابع إلى الفصل الرابع عشر يؤنب الشعب، ويعتبهم على جرائمهم وزلاتهم، وينذر بالشرور التي تحل بهم عقاباً لهم على ذلك، ويعدهم بزوال هذه المصائب إن ارتدوا إلى الرب الههم.

عد ٣٧٨

يوئيل

يوئيل كلمة عبرانية تأويلها الرب هو الإله، وكان هذا النبي ابن فتوئيل ولا يعلم من ترجمته إلا أنّه كان من مملكة يهوذا على ما روى القديس ايرونيموس في تفسير نبوته، وربما كان قاطناً أورشليم كما يتلخص من بعض آيات كلامه. وظن بعض المفسرين إنه كان كاهناً، ولم يؤرخ نبواته، ولكن يمكن القطع بانها من أقدم النبوات التي وصلت إلينا. فهي أقدم من نبوات أشعيا لأن أشعيا أخذ عنها قوله في (الفصل١٣ عد٦): « ولولوا فان الرب قريب وافد وفد اجتياح من لدن القدير». فهذا منتحل عن قول يوئيل (ف١ ع١٥) يا لليوم فان يوم الرب قريب فيأتي كالدمار من عند القدير». وهو أقدم من عاموس لأن عاموس أخذ عنه قوله (ف١ ع٢): «يزأر الرب من صهيون ويطلق صوته من أورشليم» فهذا منتحل من قول يوئيل (فصل٣ عد١٦): «يزأر الرب من صهيون ومن أورشليم يطلق صوته». على

إنه لا يمكن تعيين المدة التي كان فيها يوئيل إلّا على سبيل الظن، فان من تدبر نبوته رآهُ يذكر من أعداء بني إسرائيل الذين سيعاقبهم الله المصريين والأدوميين. وصور وصيدا والفلسطينيين. ولم يذكر ملوك سورية، فيظن إنه إنما صمت عن ذكرهم لأنه كتب قبل أن يشكو بنو إسرائيل منهم. وقد صمت أيضاً عن ذكر الآشوريين والكلدان ولا وجه لذلك إلّا إن تنكيل هؤلاء ببني إسرائيل كان بعد أيام هذا النبي. وعليه فيظهر أنه كان في أيام يواش قبل حرب حزائيل لبني إسرائيل، ويؤيد ذلك أنه لم يتكلم في المضار التي ألحقها الآشوريون ببني إسرائيل كما يتكلم فيها هوشع وعاموس.

أما نفس يوئيل في نبوته فمأذون بأنّه أستاذ في صناعة الكلام فكلامه عبراني بحت شديد واضح. وقد كان مثالاً بعده لغيره من الانبياء الذين اقتبسوا منه آيات برمتها. وقد انتهز لنبوته فرصة إتيان جراد أعقبته مجاعة كبرى، فذكر ما أتلف هذا الجراد وشبهه برسل غضب من قبل الله وحضّ على الصوم والتوبة. ويظهر أنَّ الشعب أذعن لكلامه لأنّه قال إنَّ الرب غفر لشعبه وتنبأ على العدو يُباد وغزارة المطر تخصب الأرض. وجعل هذا المطر رمزاً إلى حلول الروح القدس على الشعب إذ قال (ف٢ عد٢٢): «وسيكون بعد هذه إني أفيض روحي على كل البشر فيتنبأ بنوكم وبناتكم، ويرى شبانكم رؤًى ويحلم شيوخكم أحلاماً وعلى عبيدي أيضاً آمائي أفيض روحي في تلك الأيام». وهذه هي الآيات التي استشهد بها مار بطرس في خطابه في أورشليم يوم البنديكستي. وأما الجراد الذي ذكره فاختلف في تفسيره، فقال القديس إفرام السرياني والقديس ايرونيموس وكثير من المفسرين ما هذا الجراد إلا كناية عن الآشوريين والماديين والفرس والرومانيين. على أنَّ أكثر المفسرين في هذا العصر يرون كلام النبي حقيقياً لا مجازياً. فيريد به الجراد حقيقة لأنّ النبي لم يذكر مضرته بالبشر بل بالحقول والحيوانات. ويمكن التوفيق بين القولين بان يقال إنَّ يوئيل ذكر جراداً حقيقياً في فاتحة نبوته، ثم جعله كناية عن رسل غضب الله. وقد تنبأ بالدينونة العامة فقال (ف٣ عد٢): «اجمع جميع الأمم وأنزلهم إلى وادي يوشافاط وأحاكمهم هناك». وأثبت بعضهم سنداً إلى هذه الآية أنَّ الدينونة الأخيرة ستكون في وادي يوشافاط، وهذا القول كأنّه عام الآن ما بين علماء الكنيسة، على أنّ القدماء لم يفسروه دائماً بهذا المعنى. فقال اوريجانوس في تفسير بشارة متى (فصل٢٥ عد٣٢): «إنَّ الشعوب يجتمعون على وجه

البسيطة كلها، ويكون ظهور ابن الله بمنزلة برق يظهر في دقيقة واحدة في العالم كله».

وقال القديس ايرونيموس في تفسير بشارة متى (ف٢٤ عد٢٧): «لا يظن إنّ المخلص يظهر في مكان محيز وهو نور العالم»، على أنّه عند تفسيره نبوة يوئيل هذه قال جميع الشعوب يجتمعون للدينونة في وادي يوشافاط أو وادي الدينونة ولم يعين موقعه. وقال القديس ايرونيموس في تفسير بشارة متى أيضاً إنّ الشعوب يجتمعون للدينونة على الجلجلة ليحقق ابن الله أنّه سيظهر بمجده حيث لحقه العار أقول ويظهر أنّ القديس إفرام السرياني أشار إلى هذا المعنى إذ قال في قصيدة المثبت في صلاة الفرض عندنا في سوغيت صباح الأحد ܥܠ ܙܩܝܦܐ ܐܬܩܒܥ ܕܒܚܕܒܫܒܐ ܐܝܟ ܕܐܡܪ ܡܫܝܚܐ أي يركز صليبه (يوم الدينونة التي يتكلم عنها) في قبر آدم حيث ركزه اليهود، وكنيستنا المارونية تعيد له في ١٣ تموز.

عد٣٧٩

عاموس النبي

أنبأنا عاموس نفسه بما ييسّر إدراك نبوته فقال (ف١ ع١) أنه كان راعياً بين رعاة تقوع وهي على أربع ساعات من أورشليم جنوباً. وأنه تنبأ في أيام عوزيا ملك يهوذا وياربعام بن يوآش ملك إسرائيل، وأنه كان يخز ثمر الجميز (فصل٧ عد١٤). وأنه ترك بامر الله موطنه ومضى إلى بيت إيل ليتنبأ على إسرائيل (فصل٧ عد ١٥). وجل غرضه الكلام في مملكة الأسباط العشرة وإنّ تكلم مراراً في مملكة يهوذا أما زمان نبوته فقد صرح به كما مر أي أنّه كان في زمان عوزيا ملك يهوذا. الذي ملك من سنة ٨٠٩ إلى سنة ٧٥٨ق.م. وفي أيام ياربعام الثاني ملك إسرائيل الذي استوى على منصة الملك من سنة ٨٢٥ إلى سنة ٧٨٤ق.م، وقال أنَّ نبوته كانت قبل الزلزلة بسنتين، ولا يعلم في أية سنة كانت تلك الزلزلة التي ذكرها أيضاً (فصل١٤ عد٥). وحصول الزلازل كثير في فلسطين فلا يعلم أيها أراد، والمحقق أنَّ عاموس كان معاصراً هوشع، وقد يكون معاصراً أشعيا أيضاً على أنّه كان أكبر منهما سناً. وكانت مملكة إسرائيل في أيام نبوة عاموس واقعة في بحبوحة الأمن، متراقية في مدارج النجاح، فإنّ ياربعام

الثاني ملكها بسط تخومها شمالاً إلى حماة التي كانت التخم الشمالي لمملكة داود وإلى بحر الميت جنوباً. وامّا مملكة يهوذا فكان عوزيا ملكها يحسن إدارة شؤونها الزمنية إلا أنّه يسيء تدبيرها في المحافظة على السنّة والدين، ففشت فيها عبادة الأوثان والرذائل التي تصحبها. وكان عاموس ينذر الأشرار بان الله سيعاقبهم فلا يجدي نجاحهم المادي عليهم شيئاً.

وتقسم نبوته إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يتضمن في الفصلين الأول والثاني منها نبوات على دمشق وغزة واشدود وصور وآدوم وبني عمون وموآب ويهوذا وإسرائيل. والقسم الثاني يتضمن ثلاث خطب في الفصل الثالث إلى السادس يؤنب بها بني إسرائيل ويتنبأ على عقاب الله لهم ويندب خراب السامرة. والقسم الثالث وتشتمل عليه الفصول السابع والثامن والتاسع يتضمن خمس رؤى تثبت ما قاله في خطبه الثلاث يعبر بها عن عقاب الله للاثمة بالجراد والنار والمطمار وبزنبيل فواكه. والرؤيا الخامسة يبين بها خراب السامرة وتشتيت شعبها وخراب هيكل بيت إيل ويختم نبوته بكلام معزٍّ يشير به إلى رجوع بني إسرائيل من الجلاء وبناء المدن الخربة، وإتيان المخلص.

وعن موجز تراجم القديسين للأب بولس كاران في ٢٦ آذار أحد كهنة بيت إيل شكاه إلى الملك ياربعام الثاني بانه تنبأ على موته ذبيحاً بالسيف، فاراد الملك نفيه واشار إليه الكاهن أن يعتزل مملكة يهوذا فلم يروعه الخطر. فاجرى الملك عليه مرّ العذاب وشج ابنه رأس النبي. وحمل وفيه رمق إلى بلدته تقوع حيث فاضت روحه ودفن في مدافن أبائه سنة ٧٥٨ق.م. وكنيستنا المارونية تعيد له ١٧ حزيران بمنزلة شهيد كما مرّ هنا، ولكن قيل في ترجمته أنّه أبو أشعيا النبي وهو غير صحيح كما رأيت في الكلام على أشعيا.

عد ٣٨٠

عوبديا النبي

إنَّ تأويل عوبديا عبدالله، ولم تنبئنا نبوته من ترجمته إلا باسمه. فزعم بعضهم أنّه عوبديا قيم بيت آحاب الذي أتى ذكره في سفر الملوك الثالث (فصل١٨ ع٣)، ولا حجة لهذا الزعم. وقال آخرون أنّه آدومي تهود واسندوا ذلك إلى اختصاصه

آدوم بنبوته. وقيل أيضاً أنّه رئيس الخمسين الثالث الذي أرسله أحزيا إلى إيليا النبي فاسترضاه كما في سفر الملوك الرابع (فصل١ عد١٣). ويظهر من نبوته أنّه كان من سبط يهوذا، وأمّا الزمان الذي كان فيه فيعسر تعيينه أيضاً، إذ قال بعضهم إنّه أقدم الانبياء الصغار، وقال غيرهم إنّه كان في أيام الجلاء. وموجب هذا الخلاف وجازة نبوته حتى أنّها لا عنوان لها ولا إشارة فيها إلى شيءٍ معروف. قال فيكورو (في الموجز الكتابي مجلد٢ عد ١٠٨٥) أنه يمكن مع ذلك اعتبار عوبديا أقدم الانبياء الذين توصل إلينا ما كتبوه، وإن لم يمكن القطع بهذا. واستدل على ذلك بأنّ بين نبوة عوبديا ونبوة أرميا على آدوم شبهاً كبيراً يقضي بالقول إنَّ أحد النبيين انتحل قول الآخر. والأظهر أنَّ أرميا أخذ عن عوبديا. من ذلك قول عوبديا (ف٥ عد٦) لو إن السّراق أتوك أو الناهبين ليلاً كيف كان تدبيرك أما كانوا قنعوا بسرق ما يكفيهم؟ لو أنّ القاطفين أتوك أما كانوا أبقوا خصاصة كيف فتش عيسو، وفحصت خباياه»؟ وهاك قول أرميا (فصل٤٩ عد٩): «لو أنَّ القاطفين أتوك اما كانوا أبقوا خصاصة أو السّراق ليلاً أما كانوا قنعوا بخطف ما يكفيهم؟ أما أنا فعريت عيسو كشفت خفاياه». واكثر المحققين الآن أنَّ عوبديا كان قبل أرميا. وإذا عارضنا نبوة عوبديا بنبوة يوئيل القينا يوئيل على قدمه الذي لا نكير له استعان بشيء من كلام عوبديا الذي قال (عد١٧): «وفي جبل صهيون تكون النجاة». وقد استعان يوئيل بهذا الكلام إذ قال (ف٢ ع٣٢): «ويكون كل من يدعو باسم الرب يخلص لأنها في جبل صهيون وفي أورشليم تكون النجاة». ثم أنَّ عوبديا يؤنب الآدوميين على شماتتهم ببني يهوذا يوم افتتح الأجانب أورشليم، على أنَّ أورشليم قد أفتتحت خمس مرات قبل بختنصر. والمرجّح أنَّ كلامه في افتتاح الفلسطنيين والعرب لها في أيام يوارام. وعليه فيكون عوبديا في أيام هذا الملك إذ خلع الآدوميين نير الطاعة لملك يهوذا كما في سفر الملوك الرابع (ف٨ عد٢٠). ولا تتضمن نبوّة عوبديا إلّا إحدى وعشرين آية فهي أخصر من كل ما كتب في العهد القديم، تنبأ فيها على خراب بلاد آدوم لشماتتها بشعب الله وذلك من عد١ إلى عد١٦، وعلى خلاص أورشليم وظفرها بآل عيسو وجميع أعدائها من عدد١٧ إلى٢١. وتعيد له كنيستنا المارونية في ٣ كانون الأول. ويقال في ترجمته أنّه رئيس الخمسين الثالث الذي أرسل إلى إيليا.

عد ٣٨١

يونان النبي

كان يونان من مملكة إسرائيل واسم أبيه أمتّاي. ومن تقليدات اليهود أنّه ابن الأرملة الذي أقامه إيليا النبي في صارفة صيدا. ولم يؤرخ سفره على أننا نعلم أنّه كان في أيام ياربعام الثاني ملك إسرائيل كما جاء في سفر الملوك الرابع (فصل١٤ عد٢٥): «حسب قول الرب إله إسرائيل الذي تكلم به على لسان عبده يونان بن أمتاي النبي من جت حافر». ولا مراء بان يونان هذا هو يونان النبي نفسه الذي تكلم فيه. واما جت حافر القرية التي ولد فيها فهي المعروفة الآن بمجاد في شمالي الناصرة على الطريق من صفورية إلى طيبارية. واما سفره فلا يشبه أسفار الانبياء لعدم تضمنه نبوة وإنذاره بخراب نينوى ليس نبوة حقيقية إذ لم تخرب، فهو إذاً سفر تاريخي وضع بين نبوات الانبياء لأن كاتبه نبي. وقد ضمنه امر الله له أن يمضي إلى نينوى وينذر أهلها. فتردد إلى آخر ما كتبه كما سيأتي ونفسه فيه ساذج وليس فيه من الشعر إلا الصلاة المثبتة في الفصل الثاني (من عد٣ إلى١٠)، وبقاؤه ثلاثة أيام في بطن الحوت آية كانت رمزاً إلى بقاء المخلص ثلاثة أيام في القبر. وهذه الآية قد حملت الكفرة والجاحدين في كل عصر على أن يسخروا منها.

قال القديس أغوسطينوس (في رسالته١٠٢) ابتلع الحوت يونان، واستمر في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال ولا يصدق هذا سامعوه ولا سيما من انتقلوا من مدارس اليونان إلى مطالعة هذا التاريخ». وأجاب على ذلك قائلاً: «يرد على هذا بانه أما لا يلزم الاعتقاد بشي من المعجزات واما أنه يلزم الاعتقاد بهذه المعجزة أيضاً إذ لا وجه لأنكارها وحدها». فليس على الله امر عسير وهو على كل شيء قدير. وقد أراد بحكمته أن يجبر خادمه على تنفيذ ما يريد على هذا النحو وأن يكون الأموات مثالاً لسر قيامة ابنه من بين العناية فليس تعلقنا الضعيف أن يتحكم بطرق عناية الله، وقد أراد الله بهذه العناية أن يكشف عن أنه لا يهمه امر بني إسرائيل فقط بل امر الأمم أيضاً الذين كان اليهود يذدرونهم. فكان مثال نينوى باعثاً بني إسرائيل على التوبة عن آثامهم. وأراد الله أن يثبت لنا بذلك شفقة على الخطاة أيًّا كانوا، وتساهله في المغفرة لهم وعنايته بالأمم بل بالبهائم أيضاً. فيها وما أشد وقع كلامه تعالى الذي قاله ليونان (ف٤ عد١٠): «لقد أشفقت أنت على الخروعة التي

لم تتعب فيها ولم تربّها التي نشأت بين ليلة، أفلا اشفق أنا على نينوى المدينة العظيمة التي فيها أكثر من إثنتي عشرة ربوة من أناس لا يعرفون يمينهم من شمالهم ما عدا بهائم كثيرة». وسفر يونان بجملته منقسم إلى ثلاثة أقسام. أولها يتضمن (ف١ و٢) امر الله له أن يمضي إلى نينوى وينذر أهلها ليتوبوا عن آثامهم. فتردد يونان بغضاً بالآشوريين الذين كانوا أنزلوا ببني إسرائيل شروراً كثيرة على عهد أحاب. وأراد أن يفرَّ من إتمام إرادة الله وعوضاً عن أن يسير إلى المشرق نحو نينوى، مضى غرباً إلى يافا. ونزل سفينة فينيقيّة سائرة إلى ترشيش في إسبانيا. فكانت زوبعة عظيمة أشرفت بها السفينة على الانكسار، وخاف الملاحون فألقوا الأمتعة التي معهم إلى البحر، ونزل يونان إلى جوف السفينة واستغرق في النوم. فأيقظه رئيس النوتية وقال هلموا نلقي قرعاً لنعلم بسبب من أصابنا هذا الشر فوقعت القرعة على يونان فقال لهم خذوني والقوني إلى البحر، فاخذوه والقوه فوقف تيار البحر. وأعد الرب حوتاً عظيماً لابتلاع يونان فكان في جوفه ثلاثة أيام وثلاث ليال. فخشع يونان إلى الله بصلاته المثبتة في الفصل الثاني من نبوته، فقذفه الحوت إلى الأرض وقد حقق البيعيون وجود مثل هذه الحيوانات البحرية الهائلة، وقد وجد أحدها في جزيرة القديسة مرغاريتا في فرنسا مبتلعاً فرساً. واما القسم الثاني (فصل٣) فيتضمن مناداته في نينوى بالتوبة وإنذاره بانها تخرب بعد أربعين يوماً. فآمن أهلها بالله ونادوا بصوم ولبسوا مسوحاً من ملكهم إلى صغيرهم، فلم ينزل الله بهم الشر الذي قال أنه سينزله. والقسم الثالث (في الفصل الرابع) يبين استياء يونان وغضبه لأن الله عفا عن أهل نينوى. وصلى إلى الله قائلاً ألم يكن هذا كلامي وأنا في أرضي؟ ولذلك بادرت إلى الهرب إلى ترشيش، فاني علمت أنك إله رؤوف رحيم طويل الأناة ونادم على الشر، فخذ نفسي مني فانه خير لي أن أموت من أن أحيا. فقال له الرب: أبحق غضبك؟ وخرج يونان من المدينة وصنع مظلة جلس تحتها في الظل ريثما يرى ماذا يصيب المدينة. فاعد الرب خروعة ظللت فوق رأسه لتقيه الضر. ففرح بها ولكن أعد الله دودة ضربت في الغد الخروعة فجفت. ولما أشرقت الشمس كانت ريح شرقية حارة فضربت الشمس رأس يونان فتمنى الموت لنفسه، فقال له الله الكلام الذي رويناه آنفاً. وأمّا قوله أنّ أهل نينوى آمنوا بالله فهم كان لهم آلهة خاصة، لكنهم يعتقدون أنّ آلهة غيرهم من الشعوب آلهة حقاً. وملك نينوى حينئذٍ كان بنيرار الذي ذكرناه في عد٣١٧.

وتسمية النبات الذي أعده الله ليظلل على يونان خروعة مختلف فيها بين النسخ فقد يكون العشقة وقد يكون نوعاً من اليقطين أو الدبا أي القرع. وفي كتاب تراجم الانبياء المنسوب إلى ابيفانيوس أنَّ يونان عاد من نينوى خجلاً لعدم تمام نبوته، فاعتزل بامه في محل قريب من صور إلى مماته. وفي مدفنه أقوال لا يتحقق أحدها وقد وجدت صوره بهيئات مختلفة في مخابيء رومه القديمة، لا سيما في مخبأ القديس كاليستوس، وتعيد له كنيستنا المارونية في ٢٣ أيلول.

عد٣٨٢

ميخا النبي

إنَّ اسم ميخا أصله ميخايا، وتأويله في العبرانية من مثل الله، وكان من هورشت وهي قرية في جهات جت المعروفة الآن بذكرين أوتل الصافي. وهو غير ميخا بن يملة الذي ورد ذكره في سفر الملوك الثالث (ف٢٢ عد٨) فان هذا كان قبل ميخا النبي بقرن. وقد تنبأ هذا النبي في أورشليم على عهد يواتام وأحاز وحزقيا ملوك يهوذا كما هو بيّن من فاتحة نبوته. وعليه فقد كان معاصراً أشعيا ونبوته تعمّ جميع أسباط إسرائيل وتختص بملك يهوذا. وقل من أنكر صحتها لذكر أرميا لها (فصل٢٦ عد١٨) ولكثرة الموازنات بين أقواله وأقوال أشعيا النبي. وإما نفسه في نبوته فمؤذن بترفع أفكاره وسطوع عبارته، وكثرة مقابلاته وتشابيهه وكل ذلك مورد بفصاحة كلامه ونقاوته من الاصطلاحات الأجنبية. وحوت نبوته سبعة فصول مقسومة إلى ثلاث خطب يفتتح كلاً منها بكلمة اسمعوا كما في الفصل الأول ع٢ والثالث عد١ والسادس ع١. ففي الخطبة الأولى يتنبأ بخراب السامرة ويهوذا في الفصلين الأول والثاني. وفي الخطبة الثانية التي تشتمل عليها الفصول الثالث والرابع والخامس يؤنب الملوك والانبياء الكذبة وقضاة الاثم والكهنة الأردياء، وينذرهم بخراب صهيون والهيكل. ويعقب كلامه بذكر المواعيد لاسرائيل في آخر الأيام أي بمجي المخلص، ويتنبأ بارتداد الأمم وولادة المسيح في بيت لحم. وقد إستشهد متى نبوته على ذلك (في الفصل٢ عد٦). وأما الخطبة الثالثة المشتمل عليها الفصلان السادس والسابع فهي خطاب بين الله والشعب، ويبين به غموط الشعب نعمة الله وكفرانه باحسانه. ويذكر إسرائيل بمنن الله عليه ويبين له طريق الخلاص بالعمل بسنته وصنع الخير. ويسأل الرب الغفران والصفح عن الأثمة، ويذكر وعد

الله له بتجديد معجزاته في إسرائيل، وأخيراً يشكر الله على رحمته. وتعيد له كنيستنا المارونية في ١٤ آب ومما يلزم إصلاحه في ترجمته في سنسكارنا أنّه هو الذي تنبأ لآخاب، وذلك غير صحيح لأن ميخا الذي تنبأ بموت أخاب غير ميخا هذا كما رأيت أنفاً.

عد ٣٨٣

نحوم النبي

تأويل كلمة نحوم التعزية أو المعزي، فهذا كان من القوش وهي بليدة في الجليل لم يعين موقعها، وقد تنبأ على نينوى وفصّل ما فيها حتى اعتقد كثير من أهل النقد أنّه نظر نينوى بعينه، مع إنَّ ذلك غير ثابت لأنه كان في فلسطين. وكتب بعد سقوط مملكة إسرائيل، ولم يؤرخ نبوته فتضاربت الأقوال في العصر الذي كان فيه إلى أن جلت لنا الآثار الآشورية هذه المسألة، فانه تنبأ في الفصل الثالث عد٨) على نينوى قائلاً: «هل أنت خير من نوآمون الساكنة بين الأنهار التي حولها المياه ومترستها البحر وأسوارها المياه». وترجم القديس إيرونيموس في اللاتينية العامية كلمة نوآمون بالاسكندرية، ولعلمه إنَّ الأسكندرية بناها اسكندر بعد قرون من أيام نحوم، قال إنه كان اسم الاسكندرية نوآمون قبل أن يبنيها اسكندر. فظهر من آثار آشوربانيبال انَّ نوآمون هي تاب عاصمة مصر العليا، وسمتها تلك الآثار نو، وزاد النبي اسم معبودها أمون فصارت الكلمة نوآمون أي مدينة الاله أمون (طالع ما ذكرناه في عد٣٣٢). فظهر من ذلك انَّ نحوم كتب نبوته بعد خراب تاب الذي كان سنة ٦٦٥ق.م. فيكون تنبأ في عهد منسا الملك، ولم يمترِ أحد بصحة نبوته ونفسه فيها واضح وعبراني بحت، وقد استعان في عبارته بكلام بعض من تقدمه ممن كتبوا الأسفار المقدسة .وقد قسم نبوته إلى ثلاثة أجزاء ذكر في الأول منها قضاء الله على عاصمة الآشوريين، وفي الثاني افتتاحها ونهبها، وفي الثالث جرائمها وتدميرها وسقوطها الذي لم تقم منه وتعيد له كنيستنا المارونية في ١ ك١.

عد ٣٨٤

حبقوق النبي

إنَّ هذا النبي كان من سبط لاوي كما يظهر من خاتمة نبوته إذ قال: «الرب

الاله قوّاني وهو يجعل قدميَّ كالأيائل، ويمشيني على مشارفي لامام الغناء على ذوات الأوتار». وعليه فكان من المغنين في الهيكل وهؤلاء كانوا من سبط لاوي. وجاء في نبوة دانيال (فصل١٤ عد٤٣): إنَّ الله استخدم حبقوق بآية لعيالة دانيال وهو في جب الأسود، ولم ينله منها مضرة. هذا كل ما نعلمه مؤكداً عن حبقوق، امّا نبوته فلم يؤرخها لكن يتحصل من فحواها انّها كانت قبل تدمير الكلدان فلسطين، لأنه تنبأ به في الفصل الأول منها قائلاً في أيامكم. فكانت نبوته بين سنة ٦٠٩ وسنة ٦٠٦ق.م. تقريباً. وكلامه فيها شعر على أصوله، وصلاته المثبتة في الفصل الثالث من أبدع النظم، وقد قسم نبوته إلى قسمين ضمن الأول في الفصلين الأول والثاني، وتنبأ فيه على معاقبة الكلدان يهوذا، ثم تدمير الكلدان لجرائمهم الطمع والشهوات والقسوة والسكر وعبادة الأوثان ونسبتهم ظفرهم إليها. والقسم الثاني في الفصل الثالث ضمنه صلاته لأجل يهوذا، واستماحته الرحمة، له وبيان عظمة الله الذي يأتي ليدين العالم وارتعاده منه ثم ثقته به. وقد أختتم كلامه بالرجاء ونيل المسرة. وتعيد له كنيستنا المارونية في ٢ كانون الأول.

عد ٣٨٥

صفنيا النبي

إنَّ هذا النبي من سلالة حزقيا كما في فاتحة نبوته لكنه لم يصفه بالملك. والأظهر إنَّ كلامه في هذا الملك لأنّ باقي الانبياء لم يذكروا إلاّ اسم آبائهم. وهذا قال عن نفسه إنه ابن كوشي بن جدليا بن حزقيا. فتفصيل نسبه مشعر بانه متصل بملك، وقد أنبأنا (ف١ عد١) انه كان في أيام يوشيا ملك يهوذا ويلزم أنْ يكون قد عاش في أول ملكه إذ ذكر(فصل١ عد٤) انَّ عبادة البعل كانت باقية في أورشليم كما كانت في أول ملك يوشيا. وإنَّ نينوى لم تكن خربت بعد (فصل٢ عد١٣)، على انَّ خراب نينوى غير مقطوع بسنة حدوثه، والأظهر انّه كان قبل نهاية ملك يوشيا نحو سنة ٦٠٨ أو سنة ٦٠٧ق.م. فنبوة هذا النبي كانت نحو سنة ٦٣٩ أو سنة ٦٣٨ق.م، لأنّ يوشيا ملك سنة ٦٤١ أو سنة ٦٤٠ق.م. وهذه النبوة ذات ثلاثة فصول منقسمة كانها خطبة واحدة، ففي الفصلين الأول والثاني يتنبأ بالعقاب والانتقام من بني يهوذا لعبادة الأوثان وجرائم الكبرياء، ومن الشعب، وانَّ يوم

الغضب قريب، وانَّ نينوى نفسها وأعداء يهوذا سيحل عليهم هذا الغضب، ويحض بني يعقوب على التوبة والإرتداد إلى الله. ويبشر في الفصل الثالث بانجاز وعود الله بارجاعهم من الجلاء، وانقضاء الشر والفوز بسعادة راهنة. وتعيد له كنيستنا المارونية في ٣ ك١.

عد ٣٨٦

حجاي النبي

إنَّ حجاي وزكريا وملاخيا كانوا بعد الجلاء البابلي، أمّا حجاي ففي التلمود أنّه كان عضواً في المجمع الكبير، وذكر الآباء انه كان مجلواً في بلاد الكلدان. وعاد إلى فلسطين مع زوربابل، وعهد الله إليه بالرسالة ليحمل الشعب على تكملة الهيكل الثاني كما يظهر من نبوته (فصل١ عد٢ إلى٤)، وقد أدرك شأوه (ف ٢ع ١٤). وقد أخذ في بناء هذا الهيكل على عهد قورش سنة ٥٣٥ق.م. فأوقف السامريون اليهود عن تكملة بنائه إلى أيام كمبيس بن قورش، ثم أخذ في البناء بالحاح حجاي وزكريا سنة ٥٢٠ق.م، بعد أن تسنم دارا ابن هيستسب أريكة الملك. ودشن هذا الهيكل الجديد في السنة السادسة لدارا المذكور سنة ٥١٥ق.م. أما نبوة حجاي فتحتوي على إيجازها على أربع نبوات. ففي الأولى منها يؤنب حجاي الشعب على تقاعدهم عن إقامة الهيكل مبنّياً لهم عقوبة الله لهم على ذلك بالمجاعة التي حصلت من انحباس المطر. ويغري زوربابل ويشوع بن يوصاداق الكاهن عظيم الأحبار ليستأنفوا البناء فاذعنا لقوله، وأخذا في البناء كما هو ظاهر في نبوته فصل١. وفي النبوة الثانية المشتمل عليها الفصل الثاني عد١ إلى ١٠ يعظم الهيكل الجديد ويتنبأ قائلاً (فصل٢ عد٧): «هكذا قال رب الجنود إني مرة بعد قليل أزلزل السماء والأرض والبحر واليبس وأزلزل جميع الأمم، ويأتي متمنىَّ جميع الأمم فاملأ هذا البيت مجداً... وسيكون مجد هذا البيت الأخير أعظم من الأول، قال رب الجنود وفي هذا الموضع أعطي السلام».

متمني الأمم هو المسيح الذي ولد لنحو من خمس مئة سنة ونيف بعد نبوة حجاي، واعترض على هذه النبوة بان المخلص لم يدخل الهيكل الثاني بل الهيكل الثالث الذي بناه هيرودس. ويجاب على ذلك انَّ هيرودس لم ينقض هيكل زوربابل كله، وإنَّ غرض النبي الكلام في هيكل الآله الحق في أورشليم دون انْ يميز بين

الأول والثاني، فضلاً عن أن تحرير الآية خاصة على ما وردت في السبعينية، هو إنَّ المجد الأخير لهذا البيت يكون أعظم من المجد الذي كان للهيكل الأول، فانّ المجد الذي يكسبه إياه حضور المسيح فيه يفوق كثيراً المجد الذي كان له في أيام سليمان.

والنبوة الثالثة يشتمل عليها الفصل الثاني من عد١١ إلى ٢٠ يبشر حجاي الشعب فيها بامر الله انَّ المجاعة التي عاقبهم بها لتوانيهم في إقامة الهيكل ستزول. ويمن الرب عليهم بالخصب وإقبال مزروعاتهم وأشجارهم. والنبوة الرابعة والأخيرة المتضمنة في الفصل٢ عد٢١ إلى٢٤ يعد بها زور بابل ممثل بيت داود بانّ الله يحفظه ويؤيده في التقلبات السياسية التي ستكون في العالم. وفي ذلك إشارة إلى ملك المسيح. وتعيد له كنيستنا المارونية ١٦ ك١.

عد ٣٨٧

زكريا النبي

تأويل زكريا من يذكره الرب، وهذا النبي كان من النسل الكهنوتي بن براكيا أو برشيا بن عدو النبي، ولشهرة عدو سمي زكريا في سفر عزرا الأول (فصل٥ عد١ و٦ و١٤) بن عدو مع انّه جده. وقد ابتدأ، زكريا أنْ يتنبأ في السنة الثانية لدارا وهي السنة نفسها التي تنبأ بها حجاي أي سنة ٥٢٠ق.م، ونبوته المذكورة في الفصل السابع كانت سنة ٥١٨ق.م. ونبوتاه الأخيرتان المذكورتان في الفصول التاسع إلى الرابع عشر هما بعد نبوته المذكورة، ولا يعلم بتأكيد في أية سنة. وفي سفره قسم حوى رؤىً ورموزاً، وقسم آخر حوى خطباً ضمنها في الفصلين السابع والثامن. والنبوة بجملتها قسمها إلى ثلاثة أقسام: القسم الأول يبتدى من فصل١ عد٧ إلى الفصل السادس يتضمن رؤى عديدة منها رؤية رجل راكب على فرس أحمر، واقف بين الآس في المستطل، وخلفه أفراس حمر وشقر وبيض رمز إلى الرحمة والبركة السماوية لأورشليم، ثم رؤيته أربعة قرون وأربعة صناع وانَّ الصناع الأربعة كسروا القرون رمزاً إلى سقوط الكلدان والفرس واليونان والرومانيين الذين اضطهدوا يهوذا. ثم رأى رجلاً وبيده حبل مساحة ليمسح أورشليم، ويشير بذلك انَّ ملكوت الله في الكنيسة ينبسط في الأرض كلها. ثم رأى (فصل٣) يشوع الكاهن العظيم ابن يوصاداق واقفاً أمام ملاك الرب وملاك يلبسه حللاً حديثة،

وتلك إشارة إلى مجد المدينة المقدسة المقبل ومجد المسيح. ثم رأى منارة(ف٤ عد٤) كلّها ذهب وقائمة بين زيتونتين، وذلك رمز إلى الهيكل الذي أكمله زوربابل وسيغنيه الله بمواهب الروح القدس. والرؤيا السادسة والسابعة انّه رأى درجاً طائراً وإمرأة جالسة في وسط إيفة، ثم امرأتان خرجتا والريح في أجنحتهما فرفعتا الأيفة بين الأرض والسماء، ذلك رمز إلى نفي الخطاة من ملكوت الله. والرؤيا الثامنة (فصل٦) انه رأى أربع عجلات خارجات من بين جبلين من نحاس، وتلك إشارة إلى قضاء الله بان يجدد هيئة العالم بعد تمرغه بالآثام. وأخيراً رأى رأس يشوع بن يوصاداق عظيم الأحبار مكللاً، وأشار بذلك انَّ رئيس ملكوت الله سيكون ملكاً وحبراً وهذه خلاصة القسم الأول.

وأما القسم الثاني (فصل٧ و٨) فيتضمن جواباً من قبل الله لوفد بيت إيل ليسألوا الكهنة والانبياء هل كان الصوم المفروض بسبب تخريب بختنصر الهيكل يلزم حفظه أيضاً بعد تجديد المدينة وبيت الله؟ فيجيبهم الله بواسطة زكريا انّه يريد طاعة لا صوماً، وانّه بدد شعبه بسبب عصاوتهم، وانه سيعامل صهيون بجوده بعد أن أدبها بعدله، وانه سيبدل أيام الصوم بأيام المسرة وبمجد المدينة المقدسة، وتأتي الشعوب ليسجدوا له فيها عند إرتدادهم إلى إيمان المسيح.

والقسم الثالث والأخير يتضمن نبوتين الأولى على حدراك ودمشق والبلاد المجاورة لهما (فصل٩ عد١١)، والثانية على إسرائيل (ف١٢ إلى١٤) أما حدراك فكان موقعها مجهولاً إلى هذه الأيام، وكان بعض المفسرين يظنون اسمها مجازياً لا علماً لمدينة حقيقية. على انّه الآن أصبح بيناً انَّ حدراك مدينة جاء ذكرها مرات في حروب ملوك الآشوريين، وكان موقعها في سورية وقد ذكرت مع البلاد المجاورة لها أي دمشق وحماة وفينيقية وفلسطين. وكانت نبوة النبي عليها انَّ كل هذه البلاد تخرب فتم ذلك بغزوة اسكندر الكبير وانَّ شعب الله يتبارك ويقوى، وأما لاسرائيل فتنبأ قائلاً (ف٩ عد٩) ابتهجي جداً يا بنت صهيون واهتفي يا إبنة أورشليم هوذا ملكك يأتيك صديقاً مخلصاً وديعاً راكباً على أتان وجحش ابن أتان. وقد تمت هذه النبوة في دخول المسيح إلى أورشليم.

وقد ضمن النبي الفصلين العاشر والحادي عشر وعوداً من قبل الرب بان يؤيد آل يهوذا ويخلص آل يوسف، وتهديدات لغيرهم من الشعوب وانَّ الله يبيد ثلاثة

رعاة الكلدان والفرس واليونان. وفي الفصل الثاني عشر إلى الرابع عشر يصف النبي مجد أورشليم بارتداد الأمم إلى المسيح، وانَّ المناصبين لأورشليم والكنيسة تعود مناصبتهم عليهم فيظفر الله شعبه ويحل عليه روحه ونعمته حتى يندم يهوذا ندامة مرّة على موت المسيح. ويعيد له في كنيستنا المارونية في ٢١ شباط.

عد ٣٨٨

ملخيا النبي

تأويل ملخيا المرسل من الله وكان هذا النبي معاصراً نحميا، وقد تنبأ عند إقامته في أورشليم نحو سنة ٤٣٢ق.م. وأيد نبواته الإصلاح الذي عنى به نحميا في حظره الزواج بنساء وثنيات، وفي منعه عن تقدمة ذبائح لله غير مرضية له، وبتونيبه الشعب على تقاعده عن اداء العشر، وقد كان الهيكل كمل بناؤه حينئذٍ. وسفر هذا النبي يشتمل على أربعة فصول وهو بمنزلة خطاب بين الله والشعب أو الكهنة، وهو منقسم إلى ثلاثة أقسام: أولها في الفصلين الأول والثاني إلى العدد التاسع يبين به محبة الله لشعبه. والقسم الثاني من عد١٠ من الفصل الثاني إلى عد١٦ يبين به انَّ الله إله وحيد وآب لاسرائيل، والقسم الثالث يبتدى لينتقم من آثام الأثمة، ويثيب الأبرار، ويعد الخلاص ويرسل إيليا الثاني والمراد به يوحنا المعمدان سابق المسيح. ثم يتنبأ على بطلان ذبائح العهد القديم وإقامة ذبيحة حديثة، ذبيحة القداس إذ يقول (فصل١ عد١٠) لا مسرة لي بكم قال رب الجنود ولا أرضى تقدمة من أيديكم، لأنه من مشرق الشمس إلى مغربها اسمي عظيم في الأمم وفي كل مكانٍ تؤثر وتقرب لاسمي تقدمة طاهرة». وكلمة تقدمة في العبرانية منحا ويفهم بها تقدمة الطحين والخبز والخمر. فتعين انَّ المراد بها الخبز والخمر مادة تقديس جسد المسيح ودمه. وأختتم ملخيا نبوته بقوله (ف٣ عد١): «ها انّه آتٍ قال رب الجنود». ويريد بذلك المسيح الذي أتى من بعد ذلك بنحو من خمس مئة سنة، فقد أراد الله أنْ يعد بواسطة الانبياء شعبه لانتظار المخلص الذي هو كمال جميع النبوات، وتعيد له كنيستنا المارونية في ٣ من كانون الثاني.

كان الفراغ من تدوين هذا الجزء من تاريخ سورية في اليوم الخامس من شهر كانون الثاني سنة ١٨٩٥م. تقبل الله العناء به ووفق إلى الحاقه بالأجزاء الأخرى.